موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة سبأ
حتى
سورة الصافات

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (01-10): تفسير الآيات 01 -10

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-01-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1 - الناس يستوون في الإقرار بالنعم:

أيها الإخوة الأكارم... ليست القضيّة في هذه الآية قضية إثبات النِعَم أو نفيها، لكن القضيّة لمن تُنسَب هذه النِعَم ؟ لو أن أحداً أخذ بيدك إلى وليمةٍ عالية المستوى، وتذوقت أطيب الطعام، تسأله: من صاحب الدعوة ؟ الأكل نفيس، الإكرام بالغ، تريد أن تعرف من صاحب الدعوة لتشكره، النعم التي أكرم الله بها الإنسان ؛ المسلم وغير المسلم، الكافر، والجاحد، نعمة الوجود، نعمة الزوجة، نعمة الحواس، نعمة الكون، نعمة دقائق ما في الكون، هذه نِعَمٌ يَنْعُمُ بها كل الناس، لا شكّ فيها، ولا خلاف عليها، ولا تردد في تصديقها، بأن هذه نعم أو ليست بنعم، أو هذه نعم عظيمة أو ليست عظيمة، لا، فقد أجمع بنو البشر على أنهم متمتِّعون، متنعمون بنعمٍ لا تُعدُّ ولا تحصى، بل إنّ أهل الكفر أكثر من أهل الإيمان استمتاعاً بهذه النِعَم، كل شيء درسوه، ودققوا فيه، واستفادوا منه، وحَسّنوه، حتّى أصبحت الدنيا عند هؤلاء في أعلى درجاتها، وفي أجمل مظاهرها، وفي أعلى زينتها، بل إن الله سبحانه وتعالى أثبت لأهل الكفر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

ويستوي في التنعُّم بهذه النعم كل إنسان ؛ عالماً كان أو جاهلاً، غنياً أو فقيراً، بدليل أن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، فأنت قد تشتري جهازا بالغ التعقيد، وتستفيد منه بالغ الفائدة، وتنعم به، ولا تفقه شيئاً عن طريقة تشغيله، أو عن آليّة عمله، أو عن مبدأ عمله، وقد يشتري إنسان يجهل كل شيء أغلى سيَارة، ويركبها وينتفع بها، ولا يدري كيف صُنِعَت، ولا كيف صُمِّمت، ولا كيف رُكِّبَت، ولا على أي مبدأٍ عَمِلَت، لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، قد تشتري جهاز تكييف، وتنتفع بتعديل الجو من دون أن تفقه مبدأ عمله.

إذاً الناس جميعاً ؛ في كل زمان وفي كل مكان، من كان منهم عالماً أو جاهلاً، ذكياً أو غبياً، قوياً أو ضعيفاً، متعلِّماً أو جاهلاً، يستوون جميعاً في هذه النِعَم، والدليل إذا حدث خللٌ في العين فإن أيّ إنسان يبادر إلى الطبيب، وهو يقلق قلقاً لا حدود له، معنى هذا أن العين نعمةٌ كبيرة، إذا حدث تشويش في السمع تبادر إلى الطبيب، إذا حدث مولود مشوّه لا تنام الليل، إذاً ما دامت الأمور منتظمة فأنت في نعمٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى.

المشكلة ليست أن نقنعك بأن هذه نِعَم، إنها نعمٌ تعرفها بالفطرة، المشكلة ليست أن نقدِّر لك مستوى هذه النِعَم، إنك تعلم علم اليقين أنه لا شيء يعوِّض النعم التي أودعها الله فينا.

فهذا الذي أسنانه الأصليّة في فمه كالذي يضع أسناناً اصطناعيّة ؟ فرقٌ كبير بينهما، هذا الذي يضع على رأسه شعراً مستعاراً كالذي برأسه شعرٌ كثيف ؟ هذا الذي يستخدم جهازاً للتنقّل كالذي يستخدم رجلين ؟ فالشيء الذي أودعه الله فينا لا يقدِّر بثمن، والدليل أن كل واحدٍ مستعدٌ بكل تأكيد من دون تردُّد أو تحفّظ أو دراسة أن يدفع كل ماله من أجل استمرار حياته، أن يدفع كل ماله من أجل استرداد بصره، أو إصلاح كليته، أن يدفع كل ماله من أجل صمّامٍ بقلبه.

إذاً: موضوع النعمة لا يختلف فيها اثنان، ليست محل خلاف، فقد كنت مرّةً أنظر إلى أناسٍ مدعوين من شتّى الملل، والنحل، والاتجاهات، والمذاهب، والمشارب، وكنت أعجب أن كلهم يستمتعون بهذا الطعام، مع أن لهم منطلقات متباينة، وأفكاراً مختلفة، ومشارب متعدِّدة، وانتماءات متباعدة، ومع ذلك هذه النِعَم يقذفون بها، أثنوا على هذا الطعام.

قد تستمتع بمنظر جميل، وبهواءٍ طلقٍ مُنعش، قد تستمتع بكأس ماءٍ عذبٍ زلال أنت وغيرك، ولا خلاف عليه أبداً، نحن جميعاً بحاجة إلى الأمطار، وها نحن نشكر الله عزّ وجل على هذه الأمطار الغزيرة، الناس كلّهم مرتاحون بهذه الأمطار.

قرأت البارحة خبراً: أن ما نزل من الأمطار في محافظة ريف دمشق ستة أمثال ما نزل في العام الماضي لهذا التاريخ، إذاً: أتمنى عليكم بادئ ذي بدء أن نفهم دقة هذه الآية، وهي في الحقيقة في أول الفاتحة.

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

2 ـ اختلاف الناس في نسبة هذه النعم:

النعم ثابتة، متّفق عليها، لا خلاف عليها، لا شكّ فيها، لا تردُّد في قبولها، لكن لمن هذه النعم ؟ هنا الافتراق، فالمؤمن يرى المنعم وهو الله سبحانه وتعالى، وغير المؤمن إما أن يرى جهده، أو ذكاءه، أو سعيه، أو فلان أنعم عليه، من شأن الكفر أن تعزو النعمة إلى غير المنعم، لهذا ورد في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري))

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

((خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليّ صاعد، أتحبّب إليهم بنعمي، وأنا الغنيُّ عنهم، ويتبغّضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر شيءٍ إليّ))

[ورد في الأثر]

إذاً: حينما تقرأ قوله تعالى في أول سورة سبأ:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

فيجب أن تعلم علم اليقين أنه لا خلاف على النعم، ولا خلاف على ما نحن فيه من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى، لكن القضيّة لمن تعزو هذه النعم ؟ إن عزيتها إلى صاحبها فأنت على حق، وأنت المؤمن وربِّ الكعبة، وإن عزوتها إلى غير صاحبها فهذا هو الكفر، والجحود، والجهل، جهل مع كفر مع جحود

((أخلق ويُعْبَد غيري، وأرزق ويُشْكَر سواي))

خيار الإيمان خيار وقتٍ:

قلت لكم مرّةً في دروسٍ سابقة: قضية الإيمان ليس أن تؤمن أو أن لا تؤمن، لا، قضية الإيمان متى تؤمن ؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن عند الموت، لأن أكبر كفّار الأرض الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات)

حينما جاءه الموت قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

متى يجب أن تؤمن ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ أو في الوقت غير المناسب، إما أن تؤمن قبل فوات الأوان ؛ أو بعد فوات الأوان، هذه هي القضيّة، والآن هذه النعم، من يجب أن تعزا له، فأنت في صحّةٍ جيّدة أتعزوها إلى بنيتك القويّة التي ورثتها عن والديك ؟ هذا الكلام كُفر، أتعزوها إلى عنايتك البالغة في طعامك وشرابك ؟ هذا الكلام كفر، أتعزوها إلى التدريبات الرياضيّة القاسية التي تجريها كل

يوم ؟ هذا الكلام كفر، لا يمنع أن تعتني بصحّتك، ولا يمنع أن تجعل لكل شيءٍ حظّه من عنايتك ؛ ولكن المشكلة أن تظنّ أن هذه القوّة، وهذا النشاط، وهذا التفكير السديد هو من عندك، ماذا قال قارون ؟ قال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من الآية 78)

النبي عليه الصلاة والسلام حينما عاتب الأنصار الذين وجدوا عليه في أنفسهم قال:

((أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا ـ ما قال: فهديتكم ـ قال: فَهَدَاكُمْ اللَّهُ))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

لأن صاحب النعمة هو الله.

3 ـ شكرُ الناس على معروفهم لا ينافي عزو النعم إلى الله:

إذاً: الكلمة الأولى والأخيرة في هذه الآية: أن النعم كلّها ؛ جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، عاجلها وآجلها، ما كان منها مادياً، وما كان منها معنوياً، إنّ كل هذه النعم نعزوها إلى الله وحده، وإذا شكرت إنساناً لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

فللأسباب التالية: لأن هذا الإنسان مخيّر، وهو باختياره أراد أن ينفعك، من الذي سمح له ؟ من الذي خلقه ؟ من الذي ألهمه ؟ من الذي سمح له ؟ من الذي وجّهَهُ نحوك ؟ هو الله عزّ وجل، إذاً إذا أسدى إليكَ إنسان معروفاً فالشكر بالدرجة الأولى لله عزّ وجل، ثم ـ لا تقل و لأنها شرك، أما ثم إيمان ـ ثمّ لهذا الإنسان الذي سيقت إليكَ النعمة عن طريقه، لذلك الشكر لله أولاً، وعندما نزلت للسيدة عائشة آيات براءتها، توجّهت إلى الصلاة، ولمّا دُعيت إلى أن تشكر النبي عليه الصلاة والسلام قالت: " والله لا أشكر إلا الله "، فالنبي لم يتأثّر قال:

((عرفت الحقّ لأهله))

[ورد في الأثر]

فلذلك:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

إذاً: أنت لأنك موجود، وصاحب هذه النعمة هو الله، هذه نعمة الوجود، جاءتك عن طريق والديك، إذاً:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة النساء: من الآية 36)

نعمة الإمداد ؛ هذا الهواء من الله، نعمة الماء، نعمة الطعام والشراب، نعمة العقل، نعمة الحركة، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة البيان، نعمة الأعضاء، لك بيت، لك مأوى، لك أهل، لك أولاد، نعمة الأم والأب، ترتيب ربنا عزّ وجل يأخذ بالألباب، هذا الطفل الصغير جعله محبّباً عند والديه، يعملان من أجله ليلاً ونهاراً:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من الآية 39)

أي لولا أني أودعت في قلب أمِّك وأبيك هذا العطف والحنان لما عشت، فإذا رأيت الناس يحبونك فاعلم أن الله أودع فيهم هذا الحب، ولو نزع الله هذا الحب لتخلوا عنك، ولتخلّى عنك أقرب الناس إليك، فلذلك:

يُنادى له في الكون أنّا نحبُّك فيسمع من في الكون أمر محبّنا

***

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

نعمك، كل نعمك ؛ الظاهرة والباطنة، العاجلة والآجلة، الكبيرة والصغيرة، الماديّة والمعنويّة، نعمة الإيمان، هذا كلّه يجب أن يُعزا لله عزّ وجل..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

إذاً: أول فكرة (الحمد لله)، القضيّة في هذه الآية لمن نعزو النعمة ؟ الله عزّ وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

للمنعم، للخالق، للمربي، للمسيّر، للعظيم، للملك، القدوس، السلام، المؤمن، الغني، القدير، اللطيف، الرحيم، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الرافع الخافض..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

يجب أن تعرف أن هذه النعمة من الله عزّ وجل، لذلك المؤمن في أثناء حديثه يقول: أنجزت هذا العمل، والفضل لله عزّ وجل الله فهو مكّنني، ليس هذا الكلام يقوله تقليداً، ولكن هذا شعوره، إذا أكل طعاماً طيباً يقول: الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني، وأسقاني فأرواني، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، أية حركةٍ، وأية سكنةٍ، وأي شيءٍ تَنَعَّمَ به، كانت تعظُم عنده النعمة مهما دقّت.

4 ـ كيف أنت لو فقدتَ النِّعمَ ؟

طلب هارون الرشيد كأس ماء، وكان في مجلسه أحد العلماء فقال له: مهلاً، يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس لو منِعَ عنك ؟ وكان مُلكُ هارون الرشيد واسعاً لا تغيب عنه الشمس، نظر مرة إلى

سحابة في السماء فقال: اذهبي أينما شئتِ يأتني خراجك، بلاده مترامية الأطراف، يا أمير المؤمنين هذا الكأس من الماء بكم تشتريه إذا مُنِعَ عنك ؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا منع إخراجه ؟ قال: بنصف ملكي الآخر.

ما الإنسان لو توقفت كليتاه ؟ الإنسان إذا أفرغ مثانته هل يفكّر أنه في نعمةٍ لا تقدّر بثمن ؟ لو تعطّلت كليتاه، أو لو انخفض عمل الكليتين، لو بقي بعض حمض البولة في الدم، ماذا يفعل ؟ لو عجز عن الحركة، وضعف التروية ماذا يفعل ؟ لو ضاقت شرايينه قليلاً، كيف نوسِّعها ؟ كم من المال نحتاج كي نوسِّع هذه الشرايين ؟ لذلك المؤمن يعزو النعمة إلى الله عزّ وجل.

في صحّته، الحمد لله الذي جعلني سليماً معافىً، تحرّك، الحمد لله الذي أعطاني هذه القوّة، أخدم نفسي بنفسي، مهما كنت لامعاً، ذكياً، حصيفاً، غنياً، مقتدراً، لو تعطّلت هذه الحركة، أول يوم الشراشف البيضاء، العناية البالغة، الخدمة بعد أسبوع ينزل مستواها، بعد شهر تنزل، بعد سنوات يتمنى موتك أقربُ الناس إليك، أحبُّهم إليك، أكثرهم إخلاصاً يتمنّى موتك.

إذاً: إذا خدمت نفسك بنفسك، فهذه نعمةٌ لا تقدّر بثمن، إذا تحرّكت على قدميك من دون أن يحملك أحدٌ فهذه نعمةٌ لا تقدّر بثمن، فإذا تحرّكت هل ترى أن هذه النعمة من الله، فجلطة دماغيّة تسبب شللاً، يجب الذهاب إلى فرنسا، شلل نصفي، نقطة دم تجمّدت في الدماغ، لم يبق هناك حركة، والدعاء النبويُّ الشريف:

((اللّهُمّ مَتِّعْنا بِأسْماعنا وأبْصَارنا وَقُوّتِنا ما أحْيَيْتَنا))

[الترمذي عن ابن عمر]

وعقولنا، فإذا كان عقلك أصابه مسّ أو خلل، أقرب الناس إليك يقابل أكبر إنسان من أجل أن يُسمَح له بالإقامة في مستشفى الأمراض العقليّة، تحتاج إلى واسطة، لا يحتملك أحد في البيت، بيتك، أنت اشتريته، وأنت رتبته، وأنت زيّنته.

لي صديقٌ له صديقٌ له منصبٌ رفيعٌ جداً في بعض الوزارات، يحمل شهادة من دولة متقدِّمة، دكتوراه، ويحتل منصباً رفيعاً، فقدَ بصره، في الأسبوع الأول مجاملات، وفي الثاني مجاملات، البريد إلى البيت، بعد شهر أعفي من منصبه، زاره صديقي، فقال له: **" والله يا فلان أتمنّى أن أجلس على الرصيف وأتسوّل، وأن يردّ الله لي بصري "..**

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

عقلك في رأسك، ترى بعينيك، تسمع بأذنيك، تنطق بلسانك، تتحرّك برجليك، الكلية تعمل، المعدة تعمل، الرئتان، صمّامات القلب سليمة، الضغط جيّد، هذه نعمة الصحّة لا يعرف قيمتها إلا من فَقَدها، فلهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الخلاء كان يقول:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ـ أي الطعام ـ وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الحمد لله، فالمؤمن الصادق بصحّته، الحمد لله الذي عافاني، الحمد لله الذي أعطاني، الحمد لله الذي زوّجني، الحمد لله الذي آواني، الذي وفّقني، الذي أرشدني، الذي هداني، الذي أكرمني، لا ترى إلا الله، لا ترى منعماً إلا الله، لذلك قلبك ممتلئٌ بالحبّ لله..

هم الأحبّة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدلٌ و إن عدلوا

والله وإن فتّتوا في حبّهم كبدي باقٍ على حبّهم راضٍ بما فعلوا

***

1 ـ قلّة من الناس مَن يعرف حقيقة النعم:

هذا حال المؤمن، حال حمد، حال امتنان من الله عزّ وجل، أول هذه النعم نعمة الوجود، وثاني هذه النعم نعمة الإمداد، خلق الهواء، وخلق الرئتين، خلق التفّاحة، وخلق جهاز الهضم، فتعطّل البنكرياس في إفراز الأنسولين سبّب متاعب كبيرة جداً، يحتاج إلى أنسولين يومياً بشكل حقن، ويحتاج إلى دواء معيّن، ومراقبة التحليل باستمرار، إذا ارتفعت نسبة السكر أكثر من ثلاثمئة فهناك خطر على حياته، خطر فقدِ بصره، هذه نعمة أن النِسَب في الدم صحيحة، كذلك هذه نعمة لا نعرفها.

ماذا لو انحرفت الشمس عن مسارها ؟

قلت لكم مرّةً: هذه الأرض تدور حول الشمس، لأن دورانها ثابت نحن قد لا نحفل بهذه النعمة، أما لو خرجت عن مسارها، وتاهت في الفضاء الخارجي، لدخلت في الظلام التّام، ومع الظلام التام الصفر المُطلق، ومعنى الصفر المطلق، أي مائتي وسبعين درجة تحت الصفر، انتهت الحياة من على سطح الأرض.

كيف نستعيدها إلى دورانها حول الشمس ؟ نحتاج إلى مليون مَليون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، في حين أن الفولاذ يتحمّل قِوى الشد في كل ميليمتر مئتي كيلو، الحبل خمسة أمتار يتحمّل مليوني طن، نحن بحاجة إلى مليون مَليون حبل، يتحمل قوة شد مقدارها مليونين، إذاً: مليون مَليون ضرب مليونين، هذه قوّة جذب الشمس للأرض، وهذه القوة تجعل الأرض في مسارها حول الشمس تنحرف ثلاث مليمترات كل ثانية، فتبقى الأرض مع الشمس، هذه نعمة نحن لا نعرفها، نحن في غفلةٍ عنها، نحن نفرح بالأمطار..

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية 41)

معنى تزول أي تنحرف، أي إذا خرجت هذه الأرض عن مسارها ماذا نفعل ؟ ليجتمع بعض أهل الأرض، وليتخذوا قراراً بإعادتها إلى مسارها، مثلهم كمثل نملة رأت قاطرة خرجت عن سكّتها ماذا تفعل ؟ ماذا عندها من القدرة كي تعيد هذه القاطرة إلى السكّة ؟ لا شيء، فهذه النعم..

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

يجب أن ترى هذه الأمطار بتقدير عزيزٍ حكيم، بتقدير رحمنٍ رحيم، ستة أمثال ما هطل في العام الماضي، المياه الجوفيّة أصبحت مقفرة، معظم الينابيع غارت في العام الماضي، معظم الأنهار جَفّت، المخزون المائي انخفض أمتارا كثيرة، وأصبحت الأراضي عطشى، ولا أمل، حتى جاء إمداد الله عزّ وجل، فالمؤمن لا يقول لك: منخفض جوي متمركز فوق قبرص باتجاه القطب، لا، الحمد لله رب العالمين على نعمة الأمطار، على نعمة الصحّة، على نعمة الأهل، على نعمة المأوى، المؤمن حالته دائماً حمد.

إذاً الآية الأولى: القضيّة ليست إثبات نعمة أو عدم إثباتها، النعمة ثابتة عند أهل الأرض كُلِّهِم، ولكن القضيّة لمن تعزو هذه النعمة ؟

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

يجب أن تعزوها إلى الله، وفي أية لحظةٍ تعزو بها هذه النعم إلى غير الله فقد وقعت في الكفر والشرك معاً، في الكفر لأنك جحدتها، وفي الشرك لأنك اتخذت من دون الله نِدّا، وهذا الشيء الذي اتخذته من دون الله لا وجود له ولا أصل له..

(الْحَمْدُ لِلّهِ)

الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

الذي اسم موصول، في محل جر صفة لله..

(الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

1 ـ الكون بيد الله:

أضرب مثلاً: لو فرضنا مديرية ذات شأن، والناس تتعلّق كل مصالحهم بها، وقد تسلّمها رجل صالح، حازم، تقي، مستقيم، عادل، رحيم، تشعر براحة لا حدود لها، الأمور بيد فلان، فلان رائع، صاحب

مروءة، ورِع، يخاف الله عزّ وجل، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحب أن يعطي كل ذي حقٍّ حقّه، لا تنفع معه الشفاعة، ولا أي شيء آخر، ألا تشعر بالراحة إذا علمت أن هذه المدرسة مديرها فلان، وابنك فيها ؟ إذا علمت أن هذه المستشفى مديرها فلان، وفلان تقي، ونقي، وورع، وصالح، ومستقيم، والأمور منضبطة، وحازم.

ولكن..

(وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى)

(سورة النحل: من الآية 60)

(الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

مرّة قال لي صديق ـ أعجبتني هذه الكلمة ـ قال لي: الحمد لله على وجود الله، والله شيء جميل، لأن الله يعلم، لا تحتاج لوصل معه، لا تحتاج ليمين، لا تحتاج لإيضاح، لا تحتاج لبيان، لا تخاف أن العمل لم ينجز بعد، فعلاقتك ليست مع شخص، قال لي موظّف: أداوم ست ساعات، ثماني ساعات دواماً متقناً دؤوباً، مرّة رآني المدير خارج دائرة الطاولة وبّخني، فتركت الدوام المتقن، صعب أن تربط نفسك مع إنسان، الإنسان لا يعلم، لأنه بشر، أما الله عزّ وجل فيعلم كم دفعت ؟ ولمن دفعت، وحجم المبلغ، والتضحية، وكون المبلغ من مال حلال، كله يعرفه، فقال لي: الحمد لله على وجود الله، نعم والله، حتّى في خصومتك مع الناس الله هو الحق، فإذا كنت مع الله لا تخف، واطمئن، هو الحق، وهو الذي يحقُّ الحق، وهو الذي يظهر الحق، وهو الذي يدافع عن الذين آمنوا، وهو الذي يدحض الباطل، الله هو الحق، هو الرحيم، هو العادل، الحمد لله على وجود الله.

فهذه السماوات والأرض أي الكون، الحمد لله الذي له، لو أنها لغيره ؟ والله هذه مشكلة، وما لك طريق له، قرّب أناساً دون أناس، الله عزّ وجل عنده ميزان:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

كلّنا لآدم، وآدم من تراب، الناس كلّهم سواسية كأسنان المشط، الخلق كلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله، لا أبيض ولا أسود، لا كبير ولا صغير، لا ذكي ولا غبي، لا متعلم ولا جاهل، كلّنا عند الله سواسية نتفاضل بالتقوى..

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

إذا كان هذا الكون تابعاً لغير الله عزّ وجل، فلان له جماعته مثلاً، قرّب أناساً، وأبعد أناساً، له مقاييس أخرى لكانت الطامة الكبرى، لكن ربنا عزّ وجل كلّنا عباده، أنت اعمل عملاً صالحاً فقط، وعلى الله

الباقي، يسمع دعاءك، يسمع ابتهالك، يسمع رجاءك، يرى عملك، يرى إخلاصك، يرى حبّك، يرى طاعتك له، يرى إحسانك للخلق، يرى إتقان عملك، أحياناً إنسان يكلّفك بعمل تتقنه ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل، فهو يرى، أما صاحب العمل فتقول له، هنا في قطعة وضعناها زيادة تقوية، هنا عملنا لك هذا زيادة، لأن فيه فائدة كبرى، هنا عملنا لك الخشب الفلاني، لأن الشخص العادي لا يعرف قيمتها فيجب أن تبيّن له، أما ربنا فيعرف كل شيء، إذا أتقنت عملك يعرف كل شيء، يعرف نصحك للمسلمين، يعرف إخلاصك لهم، يعرف حبّك لهم، كلّه يعرفه..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

2 ـ الكون ملكٌ لله خَلقاً وتصرّفاً ومصيراً:

قال بعض المفسّرين: هذا الكون ـ فكلمة الكون أو العالم ـ التعبير القرآني لها السماوات والأرض، حيثما وردت كلمة السماوات والأرض في القرآن تعني في المصطلح الحديث العالَم، أو الكون:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

أما كلمة (له) فله خلقاً وتصرّفاً ومصيراً.

للتوضيح: أحياناً تملك بيتاً، ولست منتفعاً به، تملكه، ولكن لا تستطيع الانتفاع به، والتصرف فيه، فأنت مستأجر البيت، وأحياناً تنتفع بالبيت، ولا تملكه، لأنك مهدّد بأي قرار يخرجك منه، تملك ولا تنتفع، أو تنتفع ولا تملك، تملك، وليس لك حقٌ التصرُّف، أو تتصرّف، وليس لك الملك، أحياناً تملك وتتصرّف، وقرار تنظيم يلغي لك البيت كله، ليس لك المصير، المصير بيد آخرين، جئت بهذا المثال للتوضيح، فأكمل أنواع المُلْكِيّة ؛ الخلق، والتصرُّف، والمصير..

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4))

(سورة الفاتحة)

وفي قراءة: مَالِك يوم الدين.

والحقيقة أنّ المالك هو الذي يملك، ولا يحكم، والمَلِك هو الذي يحكم ولا يملك، والمَلك والمالك يملك ويحكم، فلذلك:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ)

3 ـ معرفة أن الكون ملكٌ لله يبعث بالراحة:

إذا كانت علاقتك بمديرية علاقة متينة، ويمكن أن يوقع بك موظّفوها إيذاء كبيراً، ثمّ بلغك أن هذه الدائرة تسلّمها فلان، وفلان في أعلى درجات النزاهة، والورع، والاستقامة، والرحمة، ترتاح راحة لا حدود لها، هذا المثل المُقرّب للفكرة، فهذا الكون بيد الله عزّ وجل، هو الذي خلقه، وهو الذي يتصرّف فيه وإليه مصيره، الخلق، والتصرُّف، والمصير، ثلاث صفات مجتمعه تمثّل أعلى درجات المُلْكِيَّة..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

لكن يجوز أن ترى في الدنيا قوياً وضعيفاً، فقيراً وغنياً، حاكماً ومحكوماً، ظالماً ومظلوماً، مقتدراً وضعيفاً، ذكياً وغبياً، وسيماً وقبيحاً، صحيحاً ومريضاً، قد تجد في الدنيا أن هذه الحظوظ موزّعة توزيعاً متفاوتاً جداً، لكن في الآخرة تُسَوّى كل الحسابات، ويجزى كل إنسانٍ بعمله، فالله عزّ وجل كما أن:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ)

القوة البلاغية في القرآن الكريم:

هذه الآية فيها احتباك، ظاهرة بلاغيّة رائعة، هناك غي أول قسم شيء محذوف، وفي آخر قسم شيء محذوف، لكن إذا اجتمع القِسمان يكون المعنى كما يلي: الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا، والحمد لله في الآخرة الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الآخرة، ففي الدنيا الأمور كلُّها إليه، وفي الآخرة الأمور كلُّها إليه، وله الحمد في الأولى والآخرة، لكن الحمد في الأولى لا يعرفه إلا المؤمن، لأن المؤمن مُتَفَتِّح البصيرة، إيمانه دلّه على عظمة الله، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفضلى، المؤمن يرى في الدنيا أن يدَ الله فوق أيدي الناس، أنه هو المتصرّف، هو المنعم، هو المانع، هو المُعطي، هو النافع، هو الضار، هو الخافض، هو الرافع، هو المعز، هو المُذل، هو القابض، هو الباسط، هذا يراه في الدنيا.

لا تنقِم على عصا الضارب:

لكن غير المؤمن يرى الشركاء، يرى زيداً وعُبيداً، هذه كلها عصي بيد الله عزّ وجل، المؤمن لا يرى العصا، ولكن يرى من بيده العصا، أما الكافر فيرى العصا.

تصورّ طالبا ضربه معلِمه، فصبّ كل نقمته على هذه العصا التي آلمته، أليس هو بهذا الغضب والحِنق ضيّق الفكر ؟ كل نقمته صبّها على العصا هو، مع أنها عصا لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تنفع ولا تضر، لكنها آلمت هذا الطفل، لأن الأستاذ سخّرها لإيلام هذا الطفل، الطفل الأذكى لا يتألّم من العصا، بل يتألّم من الأستاذ الذي ضربه بها، والأذكى من الاثنين يرى الأستاذ رجلاً رحيماً، ورجلاً عالِماً، لا مصلحة له في إيقاع الأذى به، لابدّ أنه ارتكب شيئاً يستحقُ هذا العقاب، إما عقاباً، أو تأديباً، أو وقاية، أو ردعاً، إذاً ينقم على نفسه.

أول طفل صبّ غضبه على هذه العصا، أحياناً الطفل الصغير إذا وقع على الأرض وتألّم، تأتي الأم وتضرب الأرض فتشفيه من غيظه، وتنزل إلى مستواه، فعندما يتألّم إنسان من إنسان معنى هذا أنه مشرك، لا يوجد إلا الله عزّ وجل، هو سمح له أن يفعل كذا، هو أطلقه، أطلق لسانه أن يقول عنك كذا وكذا، أطلق يده أن يفعل بك كذا وكذا، فحينما تَصُبُّ نقمتك على إنسان فأنت لا تعرف الله، وحينما ترى أن هذا الإنسان بيد الله عزّ وجل، هذا مستوى أرقى، أما أرقى من هذا وذاك أن الله عزّ وجل..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

أي أنا الذنب مني..

((مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

انتهى الأمر، لهذا قال عليه الصلاة والسلام في أحد أحاديثه الجامعة المانعة:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

[ورد في الأثر]

مشكلتك مع نفسك

((مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

فلذلك المؤمن يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

4 ـ الحمد لله على كل شيء:

ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا له، ويُحْمَد على كل تصرُفاته، والآخرة له ويُحمد فيها على كل أفعاله بها، والدليل: قضيّتك مع الله منذ أن خُلِقت وحتّى دخول الجنّة، ملخّصة بكلمة واحدة، وهي قوله تعالى:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

والله أحياناً أرى بعض الإخوة الأكارم، ويكون مصاباً بمشكلة، والله أقول له: هذه الكلمات من أعماق قلبي، أقول له: والله لو كُشِفَ الغطاء عن حكمة هذه المصيبة، وعما فيها من الرحمة، والعدل، واللطف، والإحسان، والعلم، والخبرة، إن لم تذب كالشمعة يوم القيامة حبّاً لله، وخجلاً منه، وامتناناً على هذه النعمة فهذا الدين باطل، لأنه إله، ولا إله غيره، هو الوحيد في الكون، بيده كل شيء، اللهُ ما عنده غلط، أنت تغلط، أما الله عزّ وجل فمطلق..

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[الجامع الصغير عن ابن عساكر عن البراء]

هذا الإيمان، لذلك لكل شيءٍ حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتّى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، تجد المؤمن من داخله مثل البحر، كل شيء إلى خير..

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند أحمد عن صهيب]

يرى يد الله فوق كل يد، يرى نعمته الظاهرة في العطاء، والباطنة في السَلْب، وأكاد أقول: إن تسعين بالمئة من المؤمنين عرفوا الله، وتابوا إليه، واستقاموا على أمره، وسعدوا بقربه، بسبب مصيبةٍ أنزلها بهم، فألجأتهم إلى بابه، وله الحمد في الأولى والآخرة، فكم من رجلٍ شاردٍ تائهٍ عاد إلى الله عزّ وجل إثر شبح مصيبة، عاد إليه إثر مرضٍ شديد، عاد إليه إثر افتقارٍ مدقع، عاد إليه إثر فقد حريّةٍ، آلمه فقط، وله الحمد في الأولى والآخرة، حتى إنه قيل: الحمد لله الذي لا يُحْمَد على مكروه سواه.

المؤمن لا مشكلة عنده، لا عقدة نفسيّة يعاني منها، لا حقد في قلبه، يرى أن كل البشر عصياً بيد الله، الذي أحسن إليه منهم، الله ألهمه وسمح له، وجمعه معهم، والذي أساء إليه منهم، الله سخّره تأديباً له، حتّى إن الإمام الشعراني رحمه الله تعالى قال: " أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، هذه التي عندك في البيت، إما أن تُلْهَم أن تكون مطواعة، وإما أن تُلهم عكس ذلك، فإذا آلمتك يوماً، وأرضتك يوماً، فأنت المُتَقَلِب وليست هي، هي ملهمة، دعوها فإنها مأمورة.

القضيّة قضية أن تعرف المنعم، إذا عرفته، وعرفت المسيّر، وعرفت الرب، وعرفت الإله، واستسلمت إليه، دخلت فيما يسمى بالسعادة النفسيّة، دخلت فيما يسمى بالوحدة، لا بالتبعثر، دخلت فيما يسمى بالانسجام، لا في التناقض.

الحياة فيها متناقضات، فيها تبعثُر، فيها تشتُّت، لكن المؤمن مجموع، اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها، من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً..

من أحبّنا أحببناه ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له، من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين، عبدي كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أعرف ماذا تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك.. أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

أفعاله كلُّها حكيمة، كل شيءٍ أراده الله وَقَعَ، كل ما أراده الله وقع، كل ما وقع أراده الله، إرادته متعلِّقة بالحكمة المطلقة، حكمته متعلِّقة بالخير المطلق..

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير)

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير

المؤمن دائم الحمد، لعلمه أن الله حكيمٌ خبير:

أيها الإخوة الأكارم... صفة الحمد في المؤمن صفةٌ ثابتة، بل إنها من سماته العميقة، فمعنى مؤمن أي أنه إنسان حامد لله، أروع كلمةٍ أسمعها من أخ كريم: كيف الحال ؟ الحمد لله، أنا أعلم أنه قد يكون في ضيق مادي، قد يكون فيه مرض، قد يكون له مشكلة في البيت، لكن كلمة الحمد لله يقصد منها أن الله هو المتصرِّف، وهو الحكيم، وهو الخبير، وهو العادل، وهو الرحمن الرحيم، خلقنا ليسعدنا في الآخرة، والدنيا مدرسة، فنحن في مدرسة، ونحن في طور المعالجة، ونحن في العناية المشدّدة، فإذا قال لك أخ مبتلى: الحمد لله، إنه عرف الله عزّ وجل، عرف أن الإنسان خُلِقَ للآخرة، خُلِق لجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، عرف أن هذه الدنيا دار عمل، وليست دار نعيمٍ مقيم، عرف أن هذه الدنيا دار ابتلاء، وليست دار جزاء، عرف أن هذه الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، عرف أن هذه الدنيا لا قيمة للحظوظ فيها، القيمة لطاعة الله عزّ وجل، لقوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

شعوره أنه على الخط الصحيح، شعوره أن الله راضٍ عنه، شعوره أنه في الاتجاه الصحيح، شعوره أنه في الطريق إلى هدفٍ كبير، هذا شعور مسعد، لذلك:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي عن أنس بن مالك]

قد تجد إنساناً عظيم الهيئة ـ والقصّة المعروفة لديكم ـ دخل رجل على أحد العلماء، وكان في رجله ألمٌ شديد، فمدّها، وقد اعتذر من تلامذته، دخل عليه رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ذا هيئةٍ حسنة، يرتدي عِمامة على رأسه، وجُبّة على ظهره، فهذا الرجل العالِم ظنّه رجلاً عظيماً، فرفع رجليه، واستحيا منه، جلس عنده، فالموضوع كان عن صلاة الفجر، تحدّث عن الفجر الصادق والكاذب، وأحكام الصلاة، والسُنّة القبليّة، وما إلى ذلك، فهذا الرجل الذي دخل المجلس نظر مليّاً، ثمّ سأل، قال: " يا سيدي، كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ "، قال له: " عندئذٍ أمدُّ رجلي ".

نعمة العقل نعمة كبيرة، المؤمن قد يكون في ضيق مادي، قد يكون عنده مشكلة في البيت، ولد عاق مثلاً، أو عنده زوجة متعبة، في عمله متاعب مثلاً، تجارة بائرة، عنده مشكلات كثيرة، لكن يرى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ما دُمْتَ على الطريق الصحيح فلا تخف، ما دمت في رضوان الله فلا تخف، فالعاقبة لك..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الأيام تدور، ولا تستقر إلا على إكرام المؤمن، فتأتي ساعة للمؤمن عند فِراق الدنيا لو جُمِعَت لذّات الحياة كلّها، لو جُمعَت نعم الحياة كلّها لا تعدل هذه الساعة، حينما يشعر أنه نجا من عذاب الآخرة، وأنه استحقّ الجنّة وما فيها من نعمٍ عظيمة، لذلك: **" يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".**

إن المؤمن إذا قلت له: كيف حالك ؟ يقول لك: الحمد لله، والله حدّثني طبيب، قال لي: جاءنا رجل تبدو عليه ملامح الإيمان، مصاب بمرض خبيث في أمعائه، قال لي: والله يا أستاذ كلّما دخلنا عليه رأينا وجهه يطفح بالبِشْر، والثقة بالله، والصبر، وكلّما دخل عليه زائر يقول له: اشهدْ أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، قال لي: ما صرخ، ولا رفع صوته، ولا تأفّف منه أحد، بل أقسم لي إن أمعاءه فُتِحت خارج مكانها الطبيعي، أي هناك كيس فيه غائط دائماً، أقسم لي وقال: والله رائحة الغرفة تفوح بالعطر، وإذا قرع الجرس يتهافت عليه الممرّضون ليخدموه، والأطبّاء يكثرون زيارته، انجذبوا لهذه الغرفة، شيءٌ عجيب، إنسان مصاب بسرطان بالأمعاء، وآلام السرطان بالأمعاء لا تُحْتَمَل أبداً، طبيب صديق

لي في المستشفى نفسه، قال لي: شيء عجيب، لا صياح، لا ألم، هدوء، وبشر، نور بوجهه، رضى بقضاء الله وقدره، قال لي: ما هي إلا أيّام حتَّى توفّاه الله عزّ وجل على أحسن حال.

قال لي: من غرائب الصُدَف، ومن حكم الله عزّ وجل أنه جاء الغرفة مريضٌ آخر بالمرض نفسه، قال لي: ما ترك نبيّاً إلا وسبّه، رائحة الغائط تملأ الغرفة، لا أحد يُلبّيه، أمام الممرضين والممرضات رأوا المرض واحد، الآلام واحدة، الخطر واحد، الموت قريب، رأوا من هو المؤمن، ومن هو الكافر، المؤمن راض بقضاء الله، فحينما يأتيك شيءٌ لا يعجبك وتقول: الحمد لله، مئة على مئة نجحت، لأن سيدنا علي يقول: **<< الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين >>.**

فالإيمان شيء عظيم، شيء لا يقدّر بثمن، أنت مؤمن، أي أنك ترى أن الفعل فعل الله عزّ وجل، وأن الله رحيم، يده رحيمة، يده قويّة، عادلة، لطيفة، هذا الإيمان.

هذا الدرس للتطبيق، يجب أن يكون حالك حال الحمد دائماً، فإن لم تكن كذلك فبينك وبين الإيمان مراحل فسيحة، جدِّد إيمانك، ما دام هناك نقمة، وألم، وعتاب على الله عزّ وجل، لماذا لم يعطني وأعطى فلاناً ؟ ما دمت بهذا الحال فبينك وبين الإيمان المُنجي مراحل طويلة، أما الحد الأدنى لإيمانك فأن تحمد الله على كل شيء، على كل حال، النبي الكريم كان إذا جاءت الأمور كما يشتهي قال:

((الحَمْدُ لِلّهِ الّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصّالِحاتُ))

[ابن ماجه عن عائشة]

وإذا جاءت الأمور على غير ما يريد كان يقول:

((الحَمْدُ لِلّهِ على كلّ حال))

[الجامع الصغير عن عائشة]

المؤمن كلمة الحمد لا تفارق فمه، بل إنها أول آية بالفاتحة، الفاتحة تقرأها في كل ركعة، أكثر من خمسين مرّة، بين الصبح والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وإذا كان هناك نوافل، في كل ركعةٍ تقول: الحمد لله رب العالمين، فلذلك الحمد سمة أساسيّة من سمات المؤمن، على السراء والضراء، والمنشط والمكرم، والزواج وعدم الزواج، والغنى والفقر، والإنجاب والعقم، وصلاح الأولاد وفسادهم، وزوجة جيّدة ووسط وسيئة، والدخل كبير وقليل، والتجارة رابحة وخاسرة، على كل حال، في المنشط والمكره، هذا المؤمن..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

فهذه الآية دقيقة جداً، وبعد ذلك ما دام الله بيده ما في السماوات وما في الأرض، الأمور كلها بيده، الناس كلهم بيده، من حولك كلهم بيده، من فوقك كلهم بيده، من دونك كلهم بيده، من هم أقرب الناس إليك كلهم بيده، هكذا، والله يعلم كل شيء، أجمل آية ما قاله سيدنا هود في قوله تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

كل ما في الأرض من دواب الله آخذٌ بناصيتها:

(إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

فهذه الآية قصيرة لكن مفعولها كبير، قصيرة، وهي أحد أركان الإيمان، قصيرة إلا أن تمثّلها سمة ثابتة من سمات المؤمن، فلا تجد مؤمنًا ناقما، ولا مؤمنا حاقدا، ولا مؤمنًا ساخطا على الله، ولا مؤمنا شاكًا في رحمة الله، مؤمنًا شاكًا في عدالة الله، فهو سبحانه عادل، ورحيم، ولطيف، وحكيم، وعليم، والأمر كله بيده، وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود من الآية 123)

البطل الذكي مَن يحسِّن علاقته مع الله قبل الموت:

وأمرك كله مع واحد، أحسن علاقتك بالله وانتهى الأمر ـ عبدي رجعوا وتركوك ـ أول ليلة في القبر، هذه صعبة، من بيت فخمٍ، رجعوا وتركوك، لا بلاط، ولا دهان، لا تبريد، ولا تدفئة ـ رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك ـ الخروج من البيت ليس سهلاً، إلا إذا كان للجنة، إذا كان للجنّة فلا شيء إطلاقاً ـ رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ معك إلا أنا ـ أتعلمون من البطل ؟ هو الذي يحسن علاقته بالله قبل أن يموت، لأنه عند الموت مع الله إلى الأبد، موظّف في مديرية، وآخر معه أمامه ـ مثلاً ـ وبينهما علاقات طيّبة إلى أقصى درجة، وصار وزيره، يدخل بلا إذن، ويكون من ذوي الشأن عنده، ما دامت العلاقات طيّبة قبل أن يغدو وزيراً.

خاتمة:

وأنت في الدنيا إذا كانت معك علاقة مع الله عزّ وجل، جاء ملك الموت فأنت مع الله إلى الأبد، وانحسر عنك كل شيء، فأنت في سعادة، اقرءوا سير الصحابة فإنكم تجدون هذا القاسم المشترك، إنّ أصحاب

رسول الله أسعد لحظات حياتهم حينما يلقون ربَّهم، فبين أن يكون الموت عُرْسَ المؤمن ؛ وبين أن يكون الموت نهاية كل شيء، وبداية جحيم لا يحتمل، لذلك الكافر..

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

المؤمن.

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِي(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

هنيئاً لكم، هذه البطولة:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً   إنما من يتقي الله البطل

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (02-10): تفسيرالآيات 2 - 5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الثاني من سورة سبأ، في الدرس الماضي أيها الإخوة فُسِّرَت الآية الكريمة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

تذكيرٌ بتفسير الآية السابقة:

1 ـ المستحقّ للحمد هو الله وحده:

بيّنت في الدرس الماضي أن القضية ليست إثبات النعمة، لأن النعمة ثابتة، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض إلا ويقرٌّ بها، ولكن القضية قضية المُنْعِم، من المنعم ؟ المنعم هو الله، فكلّ النعم ؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، قريبها وبعيدها، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليّها، كل هذه النعم ما كان منها في الدنيا، وما كان منها في الآخرة، كل هذه النعم من حضرة الله وحده، فأي اتجاهٍ إلى غير الله كي تشكره على شيءٍ توهمت أنه منه فهذا شرك.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

فالذي يستحق الحمد وحده هو الله لأنه هو الخالق.

2 ـ الحمد لله على ملكه السموات والأرض:

والقضية الثانية في تلك الآية: هي أن الله سبحانه وتعالى يحمد على أن له ما في السماوات وما في الأرض، وكما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نتلو بعد صلاة الفجر: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد "، يحمد لأن له الملك، يحمد لأنه مالك الملك، يحمد لأن الأمور كلها بيده، يحمد لأن له الخلق والأمر، يحمد لأنه خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، يحمد لأنه لا يغيب عنه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

وذكرنا في الدرس الماضي أيضاً كيف أن المُلْكِيَّة لله عزّ وجل تعني الخلق والتصرف والمصير.

3 ـ الحمد لله على ملكه أمور الدنيا والآخرة:

وبينت أيضاً أن الحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض في الدنيا، وأن الحمد لله الذي له كل شيءٍ في الآخرة، فهو مالك يوم الدين، مالك الدنيا والدين، مالك الدنيا والآخرة، مالك دار الفناء ودار البقاء، مالك دار العمل ودار الجزاء، سبحان الله ! كيف ينصرف الإنسان إلى غير الله ؟ فالله مالك الدنيا ومالك الآخرة، مالك كل شيء، وهو يحمد على ملكه..

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

4 ـ مكافأة الله المحسنَ في الدنيا تشجيع لغيره، وعقابه المسيء ردعًا لغيره:

وبيّنت أيضاً أن الله سبحانه وتعالى إذا كافأ المحسن في الدنيا، فهي مكافأةٌ تشجعيةٌ لبقية المحسنين، وإذا عاقب المسيء في الدنيا فهو عقابٌ ردعيٌ لبقية المسيئين، أما الحساب الكامل، أما وفاء الحساب التام فهو يوم القيامة.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران من الآية 185)

الحساب الكامل، الرصيد، الحساب الحقيقي يوم القيامة، لماذا ؟ لأنك إن رأيت محسناً قد كافأه الله، فربما رأيت محسناً أخَّرَ الله له المكافأة إلى وقتٍ آخر، فلئلا تتخذ من الدنيا دار جزاء، لأن الله عزّ وجل جعلها دار عمل ودار ابتلاء، فقد تجد مسيئاً في أعلى درجات الشأن والغنى والقوة، فلا ينبغي إذا رأيت مسيئاً يزداد علواً في الأرض، ومحسناً مغموراً، لا ينبغي أن تحملك هذه الموازنة على أن تشكّ في وعد الله ووعيده، فحقيقة الدنيا هي دار ابتلاء، وحقيقة الآخرة هي دار جزاء، وإذا كافأ الله المحسن في الدنيا فهي مكافأةٌ تشجيعيةٌ لبقية المحسنين، وإذا عاقب المسيء في الدنيا فهو عقابٌ ردعيٌ لبقية المسيئين، لكن الجزاء الأوفى، والجزاء الحقيقي، هو في الآخرة، لذلك ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر.

5 ـ الدنيا هينة لا قيمة لها:

لهوان الدنيا على الله، ولضعف شأنها عنده ما أرادها أن تكون مكافأةً للمؤمن، ولا أن تكون عقاباً للكافر، ربما كانت الدنيا جنة الكافر، وسجن المؤمن.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى شاةً ميتةً ماذا قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه ؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَخْلَةٍ جَرْبَاءَ قَدْ أَخْرَجَهَا أَهْلُهَا فَقَالَ:

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[أحمد]

في بعض الروايات ـ أتشترونها بدرهم ؟ قالوا: لا، ولا بلا مقابل نشتريها، قال: للدنيا أهون عند الله من هذه الشاة على أهلها.

لذلك الله سبحانه وتعالى أعطى المال لمن لا يحبه، أعطاه لقارون، قارون:

(وَآَتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص من الآية 76)

فإذا بلغك أن فلاناً معه أموال كثيرة، موزعة في أرجاء العالم، بيته فخم، مركبته فخمة، المال عنده كالتراب، إياك أن يتوارد إليك أن فلاناً له شأنه عند الله، إياك أن تظن أن الله كافأه، أو أن الله أعطاه.

الآن أقول لكم هذا الكلام الدقيق: ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ)

(سورة الفجر من الآية 15)

بمقياس العبد ؛ أعطاه المال، والصحة، والشأن، والمكانة، والجمال، والكمال، إلخ..

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذا قول الله أم مقولته ؟ مقولته.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

هو:

(رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

ربنا عزّ وجل قال:

(كَلَّا)

(سورة الفجر من الآية 17)

هذه أداة ردع ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إن عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هل يمكن أن تسمِّي المال نعمة مطلقا ؟ لا، يصبح نعمة إذا أنفقته في سبيل الله، المال في الأصل ابتلاء، فإذا أحسنت إنفاقه في سبيل الله انقلب من ابتلاءٍ إلى نعمة، هل تعد الزوجة نعمة ؟ لا، إنما هي ابتلاء، فإذا

دللتها على الله، وحملتها على طاعة الله، انقلبت من ابتلاءٍ إلى نعمة، هل تعد المكانة العلية نعمة ؟ لا، إنها ابتلاء، فإذا سخّرت هذا الشأن العالي لخدمة أهل الحق، انقلب الجاه الذي كان ابتلاء إلى نعمة.

6 ـ يجب تسخير النعم للآخرة:

يجب أن تعلم علم اليقين أيها الأخ الكريم أنه ما من شيءٍ أعطاك الله إياه لا يسمّى نعمة أبداً، يسمى ابتلاءً، فلابد أن يكون مسخّراً للآخرة، لقوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

(سورة القصص من الآية 77)

هذه آية واضحة وضوح الشمس، يجب أن تسخر صحتك لطاعة الله عزّ وجل، قوتك لخدمة الضعيف، ذكاءك لمعرفة الله، علمك بنشر الهدى، وقتك الفارغ لخدمة الخلق، أيُّ شيءٍ آتاك الله إيّاه ينبغي أن تسخره للدار الآخرة، والدليل قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص من الآية 77)

فقد يقول قائل: يا أخي لا بدّ من أن نأكل، ونشرب، ونتنزه، ونأخذ بعض حظوظنا، وقد يقول قائل: لا تنسَ نصيبك من الدنيا، نقول لطالبٍ ذهب إلى بلدٍ غربي ليدرس، وليعود بالدكتوراه، نقول له حين الوداع: يا فلان، إياك أن تنسى المهمة التي ذهبت من أجلها، إياك أن تلهو مع من يلهو، إياك أن تنغمس في الملدّات، إياك أن تنسى أنك طالب علم، إياك أن تنسى أن الناس ينتظرون عودتك، هذا معنى:

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

أنت في الدنيا لك مهمةٌ كبيرة، إياك أن تنسى هذه المهمة، لذلك:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

هو.. هذه مقولته:

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

هو:

(رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا)

(سورة الفجر)

ليس هذا صحيحاً، ولا ذاك صحيحاً، ليس عطائي تكريماً، وليس منعي حرماناً، لا، إنما عطائي ابتلاء وحرماني دواء، كلا أداة ردع ونفي، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

7 ـ علّةُ خلق السموات والأرض معرفةُ أمره وتطبيقُه:

مرةً ثانية أسماء الله الحسنى كثيرة، لكن كأن هذه الأسماء تتمحور حول وحدات، الله عزّ وجل موجود، والله واحد، والله كامل، لكن أنا متى أستقيم على أمره ؟ أنت متى تنفِّذ تعليمات من هو فوقك، متى ؟ إنه سؤال دقيق وسؤال محرج: متى تنفذ التعليمات التي جاءتك ممن هو فوقك ؟ في حالتين، لا بدّ من أن تجتمعا:

الحالة الأولى: إذا علمت أنك إذا خالفت هذه التعليمات فإن الذي أصدرها يعلم ذلك.

الحالة الثانية: وإذا علمت أنك إذ خالفتها فإن الذي فوقك يطولك وسوف يعاقبك.

دقق في علاقاتك مع الناس ؛ لن تأتمر بأمر، ولن تنتهي عن نهيٍ، ولن تنفذ توجيهاً، إلا إذا أيقنت أن الذي فوقك يعلم إذا خالفت هذا الأمر، وإذا خالفت هذا الأمر فلابدّ من أن يوقع بك عذاباً، أو إيلاماً، أو عقوبة ثابتة، من هنا يقول الله عزّ وجل: ما دمت تحمد الله على أن له ما في السماوات والأرض فلابدّ من أن تطيعه، ما معنى هذا الحمد ؟ ما معنى هذا الحمد أن تحمده على أنه خلق السماوات والأرض ؟ لابدّ من تحركٍ نحوه، والدليل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف من الآية 110)

إنسان يتعرف إلى الله، ويقف في مكانه مكتوف اليدين ؟ لا يتحرك نحوه ؟ لا يبحث عن أمره ؟ لا يتقرب إليه ؟ هذا ادّعاء..

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب يطيع

***

فمستحيل أن تتعرف إلى الله حق التعرف وأن تعصيه.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا

1 ـ علمُ الله شامل لكل خارج من الأرض داخل فيها:

أيها الإخوة الأكارم... إذا كان هناك انحراف، أو خروج عن أمر الله، يجب أن تعلم علم اليقين أنك لا تعرفه، وأنك ما قدرته حق قدره، من أجل أن تطيعه يجب أن تعلم أن الله يعلم..

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ)

(سورة الطلاق من الآية 12)

الآن جاءت لام التعليل.. خلق سبع سماواتٍ، وخلق الأرض، وما فيها من سبع طبقاتٍ:

(لِتَعْلَمُوا أنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأنّ اللّهَ قَدْ أحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

من أجل أن تعلم ؟ لأنك إذا علمت استقمت على أمر الله عزّ وجل.

مثل بسيط جداً: طفلٌ صغير، ولا أبالغ، قد لا تزيد سنه على سنتين، إذا أراد أن يفعل شيئاً يغضب الأب، أول شيء ينظر إليه أيراقبه ؟ فإن كان يراه امتنع، وإن كان غافلاً عنه فعل، هذا الطفل الصغير بفطرته لا يُقْدِمُ على مخالفتك إلا إذا علم أنك غافلٌ عنه، فإذا علم أنك تراه يمتنع، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ)

كل ما يدفن في الأرض يعلمه، كل بذورٍ تدفن في الأرض، وتزرع يعلمها، كل المياه التي تُسقي الأرض يعلمها، أيُّ شيءٍ يلج في الأرض، أي شيءٍ من مياه، إلى أموات، إلى بذور..

(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)

من براكين، من ثروات، من إنبات، أي شيءٍ يدخل يعلمه، وأي شيءٍ يخرج يعلمه، وهذا هو الإشراف الإلهي، وهذا معنى: لا إله إلا الله، لا معبود بحقٍ إلا الله، لأنه يعلم، إن كنت لا تدري، كيف نتهم إنسانا سيّئَ الإدارة يقول لك: والله لا أعلم، نقول له:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة   أو كنت تدري فالمصيبة أعظم

***

إذا كنت لا تعلم فهذه مصيبة، وإن كنت تعلم، وبقيت مكتوف اليدين فهذه مصيبة أكبر.

إذاً ربنا عزّ وجل هو الإله، هو رب يعلم كل شيء، قال:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)

2 ـ علمُ الله شامل لكل ما ينزل من السماء وما يعرج فيها:

الملائكة إذا نزلت بأمر الله، إذا عرجت بأعمال العباد، الأمطار إذا نزلت، نزلت في هذا المكان كذا ميليمتر، في هذا المكان أقلّ من معدلات السنة الماضية، يا رب ما الحكمة في ذلك ؟ يعلم ذلك، يعلم أنه أغرق هذه المنطقة وجعل هذه المنطقة تَئِنُّ من الجفاف، يعلم..

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرّحِيمُ الْغَفُورُ)

3 ـ وَهُوَ الرّحِيمُ الْغَفُورُ

لماذا رحيمٌ غفور ؟ هو رحيمٌ لا شك في ذلك، لكنه غفور، فلو أن إنساناً انحرف عن جادة الصواب، لابدّ من أن يغفر الله له، وكيف يغفر الله له ؟ يسوق له بعض الشدائد، يحرمه بعض النعم، حتى يلجأ إلى الله، وحتى يتوب، وحتى يتضرّع، عندئذٍ يغفر له.

تقريباً ولله المثل الأعلى: أحياناً هناك طبيب، والطبيب يعلم دخائل الجسم، وما يصلح له، وما لا يصلح له، وهناك أب في قلبه رحمةٌ لابنه، أما إذا كان الأب طبيباً، أو الطبيب أباً، أي إذا اجتمعت الرحمة والعلم في شخصٍ واحد، الأب الجاهل يطعم ابنه أطيب الطعام ولو دمر أمعاءه، هناك أكلاتٌ مَن عنده التهابٌ في الأمعاء، أو مغصٌ مزمن، أو ما إلى ذلك تؤذي الطفل إيذاءً شديداً، لذلك ورد في الحديث الشريف:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

[ورد في الأثر]

((إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

(الجامع الصغير عن حذيفة)

إذاً:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرّحِيمُ الْغَفُورُ)

رحيمٌ وغفور، طبيبٌ وأب، أبٌ في قلبه رحمةٌ تجاه ابنه، وطبيبٌ عنده علمٍ كافٍ يجعله يمنع ويسمح، ويقنن ويُكثر.

(وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السّاعَةُ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ

بالمناسبة قلت لكم سابقاً، وأعيد هذا مراراً وتكراراً: لن تستقيم على أمر الله إلا إذا علمت أن الله يعلم، ويقدر، وسيحاسب.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ)

ساعة الحساب.

(قُلْ بَلَى وَرَبِّي)

قُلْ بَلَى وَرَبِّي

1 ـ تنزيلُ خبر الله منزلة الشيء الواقع المرئيّ:

قال بعض العلماء: حينما قال الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

(سورة الفيل)

قد يقول قائل ببساطة: والله أنا ما رأيت ذلك، القرآن يخاطب المؤمنين، يخاطب الناس جميعاً.

(أَلَمْ تَرَ)

أيها الإنسان.

(كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

لو قال: ألم تسمع، ممكن، سمعت بهذا، سمعت بهذا في التاريخ أو في القرآن، أما هو فيقول:

(أَلَمْ تَرَ)

فإذا قال العبد: لم أر، لم أكن وقتها، أليس هذا العبد محقاً في قوله ؟ قال العلماء: خبر الله عزّ وجل، الخبر الذي يأتيك من عند الله لشدة يقينه، وتوكيده كأنك تراه، خالق الكون يقول: فعلت بأصحاب الفيل كذا وكذا، فكأنك ترى ما يفعل بهم رأي العين، هذا كلام خالق الكون، وحينما يقول الله عزّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة من الآية 116)

لكن يا ربِّ هذا الشيء لم يقع بعد، هذا الشيء يوم القيامة، ولم يأتِ بعد هذا اليوم، فكيف يقول الله عزّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

أيضاً قال بعض العلماء: إذا استعمل الله الفعل الماضي للإخبار عن المستقبل فهذا يعني تحقق الوقوع، أي كأنه وقع، فأنت لا سمح الله ولا قدّر لو رأيت إنساناً ينطلق بمركبته في أقصى سرعة في طريقٍ هابطة، وأنت تعلم علم اليقين هذه المركبة ليس فيها مكبح، ألا تقول وأنت لا تدري: تدهوروا ـ تقول تدهوروا بالفعل الماضي قبل أن يتدهوروا، لماذا ؟ لليقين انتهوا، كثيراً ما يقول الطبيب: انتهى، قلبه لا يزال ينبض، ساعة وهو لم ينته بعد، إذا كنت متيقناً مما سيكون وأنت لا تشعر تستخدم الفعل الماضي.

الراكب مركبة وهو في أقصى سرعة، وشعر أن المكبح قد انقطع، ماذا يقول ؟ هل يقول: بعد قليل سوف نقع، يقول لك: وقعنا، وهو لا يدري يستخدم الفعل الماضي، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(1))

أي يا أيها الإنسان هذا الخبر يجب أن توقن به وكأنك تراه بعينك.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)

النبي عليه الصلاة والسلام سأل أحد أصحابه قال:

((كأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها، وكأني بأهل النار في النار يعذبون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أصبت فالزم، مؤمن نور الله قلبه))

(مجمع الزوائد)

المعلم صاحب الخبرة العالية إذا رأى طالباً يتلهّى في الدرس، كلما كلفه بوظيفة جاء مقصراً فيها، المعلم الذي علّم أربعين سنة يقول: كأنني أراه يبكي بعد حين، فهذا الطالب يسرح ويمرح ويمزح، فإذا جاء الامتحان ورسب، وتلقّى النتيجة صار يبكي، هذا البكاء رآه المعلم الخبير قبل حين، يؤيّد هذا قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ(10))

(سورة غافر)

أي أنتم الآن تمقتون أنفسكم، وتضجون، وتلومون أنفسكم، لكن الله عزّ وجل حينما كان يدعوكم إلى الإيمان فتكفرون، مقتُه لكم وقتها أشد من مقتكم لأنفسكم، هذا كله يأتي من الخبرة، فلذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ)

2 ـ البطولة إدراك الشيء قبل الوصول إليه:

إن كنت مؤمناً صادقاً رأيت مصيرهم وهم في أَوْج نشاطهم، رأيت مصيرهم وهم في أعلى درجات قوّتهم، رأيت مصيرهم وهم في أعلى درجات غناهم، رأيت مصيرهم المحتوم، المشؤوم الأسود وهم

في أعلى درجات تألقهم، البطولة أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه، أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بقدميك، هذه البطولة.

من هو الإنسان ؟ أتاه الله قوة تصور، الذي يصل إلى ما سيكون قبل أن يكون هذا التوفيق، وهذا الذكاء، والدول المتقدمة تعيش عام ألفين، يهيئون المشكلات التي سوف تظهر بعد عشرين عاماً، ويخططون لحلها.

فلذلك أيها الإخوة الأكارم.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ)

عَالِمِ الْغَيْبِ

1 ـ يوم القيامة يومٌ عسير:

عالم الغيب ؛ هو الذي يعلم حصولها، ووقوعها، وشدتها، وهولها، لذلك عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ـ كما خلقهم الله عزّ وجل بغير ختانٍ ـ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟!!! فقال: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

[متفق عليه]

لشدة الهول الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك، وحينما سألت السيدة عائشة رسول الله صلى الهُ عليه وسلم قالت: يا رسول:

((أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال: نعم يا أم المؤمنين، إلا في ثلاث مواطن: عند الصراط، وعند الحشر، وإذا الصحف نشرت، وفيما سوى ذلك..... ليتني أستطيع أن أفعل ذلك، إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

[ورد في الأثر]

هذا يومٌ عصيب..

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

2 ـ هيّئ جوابًا لله عن كل سؤال:

مرة استنصحني رجلٌ له عمل بإمكانه ببساطة أن يوقع الأذى بالناس، وهو مرهوب الجانب، قلت له: يا فلان، افعل ما تشاء، فاستغرب هذا الكلام مني، ولكنك إذا كنت بطلاً فهيئ لله عزّ وجل عن كل فعلٍ تفعله مع الناس جواباً مقنعاً، لماذا فعلت مع فلان كذا ؟ مع نفسك، مع أولادك، مع زوجتك، مع زبائنك، مع شركائك، مع زبائنك، مع جيرانك، مع الحيوانات.

فهذا العصفور الذي يقتله الصيّاد للتسلية، يقتله لغير مأكلةٍ، ليس جائعاً، ليس على وشك الموت جوعاً، لا، يذهب إلى البادية ليصطاد عشرات المئات من القطا، ثم يتلفها في الطريق، لأنه لا يستطيع أن يحتفظ بها أياماً ثلاثة، لكنه مارس هواية الصيد، وقد حدثني أحدهم قال: والله ذهبنا بسيّارتين أو ثلاثة وصدنا من القطا ما يزيد على ألفي طائر، وكله تلف معنا في الطريق، ورميناه في الطريق، وهذا العصفور يوم القيامة يأتي وله دويٌ كدوي النحل، يقول يا رب سله لم قتلني ؟.

هناك من الصيد ما هو محرّم بإجماع العلماء، أقول: بإجماع العلماء، أي أنك إذا اصطدت طائراً لغير مأكلةٍ، للتسلية، لممارسة هواية الصيد فقط، لكن الله شرع الصيد إذا كنت مسافراً، وأنت الإنسان المكرم، وأنت الإنسان الذي كرّمك الله عزّ وجل، إذا كنت على وشك الموت جوعاً لك أن تصطاد، وأن تأكل ؛ أما أن تجعل من الصيد هوايةً وتسليةً، تتلف هذه الأرواح، تعذب هذا الحيوان بلا جدوى، والحيوان مال تتلفه أنت بهذه الطريقة.

فلذلك أيها الإخوة... في عملك، في حرفتك، في مهنتك، في بيتك، لماذا طلّقت زوجتك ؟ هل عندك جوابٌ لله عزّ وجل ؟ لماذا قلت لأمك: كذا وكذا ؟ لماذا نصحت هذا الإنسان أن يأتيك بعد أسبوع، وأنت تعلم علم اليقين أنه شفي تماماً من مرضه ؟ لماذا تأمره أن يأتيك بعد أسبوع للمراجعة ؟ لماذا ؟ الله وحده يعلم.

أيها المحامي لماذا تقول لهذا الموكل: قضيتك رابحة مائة في المائة، وأنت تعلم علم اليقين أنها لن تربح، ففي محكمة النقض ما يخالف هذا الذي تقوله ؟

أيها الإخوة الأكارم... هذا هو الدين، قلت مرةً لأحد الأشخاص: القضية في الدين ليست في سعة الثقافة، ولا في طول الباع ؛ القضية بالورع، قلت له هذا الأعرابي البدوي الذي رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأراد أن يمتحنه، هذا البدوي محدود الثقافة، الذي لم يطلع لا على كتاب، ولا على شريط، ولا على مجلد، ولا عنده دائرة معارف في البيت، ولا عنده مجلات حديثة، هذا البدوي قال له عمر: **<< بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت ـ أو أكلها الذئب، قال:**

ليست لي، قال: خذ ثمنها، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ >>.

هذا البدوي، الأعرابي، هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين، أنت في خلوتك، وممكن أن تقع بمخالفة لا يراها أحد في الأرض، وأنت بينك وبين الله تقول: إني أخاف الله رب العالمين، فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة، ورب الكعبة أنت مؤمن..

" من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله ".

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلط))

[ورد في الأثر]

يجب أيها الإخوة قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تقول كلمة، قبل أن تقف هذا الموقف، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تصل، قبل أن تقطع، قبل أن تذهب إلى هذا المكان، قبل أن تسهر هذه السهرة، قبل أن تشترك في هذه النزهة، قبل أن تعقد هذا الاجتماع، قبل أن تزمجر على فلان، قبل أن تلين لفلان، يجب أن تهيئ لله جواباً على سؤاله، يا عبدي لمَ فعلت هذا ؟ ورد في بعض الأثر أن الله سبحانه وتعالى يقول لإنسان يوم القيامة: **" عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ ".**

سؤال كبير جداً، أعطيتك مالاً والناس يموتون جوعاً، ومعظم الناس لا يجدُ ما يأكله، معظم الناس ليس عنده غرفة يتزوّجُ بها، وعندك بيت بمصيف ثمنه ثلاثون مليوناً من أجل أن تقضي فيه أسبوعين في الصيف، وقد لا يتاح لك أن تزوره مرةً واحدة، قال له: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ ـ لا يوجد في الآخرة كذب ـ قال: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يقول لعبدٍ آخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الرحمين، يقول: **يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ".**

إذا لم تراقب الله عزّ وجل، وتحادثه، وتسأله، وترجوه، وتستغفره، فلست مؤمناً، فقل:

(قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

نواة التمر من أحد أطرافها لها رأس مؤنّف لا يرى بالعين، أما إذا وضعته على لسانك تشعر كأنه دبوس، هذا اسمه نقير، ونواة التمرة في الشق الذي على أحد طرفيها خيطٌ رقيق، هذا ماذا يسمى ؟

فتيل، ولنواة التمرة غشاءٌ رقيقٌ رقيق، هذا يسمى قطمير، فأنتم، لا تظلمون نقيراً، ولا تظلمون فتيلاً، ولا تظلمون من قطمير، لا غشاء النواة، ولا الخيط بين الفَلقتين، ولا في نتوء هذه النواة، لا ظلم اليوم، قال:

(عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

رجل كان ببلد غربي، يقود مركبة في الساعة الثانية ليلاً، بعد أسبوع جاءه إعلام بمخالفة ارتكبها، على عادته في بلده ذهب إلى هناك وقال: أنا لم أخالف، هذا كلامٌ فيه افتراء، فسكتوا، ودخلوا، وخرجوا، وقد أطلعوه على صورة سيارته وهي تخالف، فسكت، ما قول هذا الإنسان لو رأى يوم القيامة شريطاً فيه كل حركاته وسكناته، كل حركةٍ وسكنةٍ..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ)

(سورة الإسراء من الآية 14)

سمعت في بعض دوائر الشرطة أن الإنسان إذا ضبط بمخالفة يصور، فلئلا يقول: كنت، ولم أكن، ولئلا يتعبهم في الاعتراف، قبل كل شيء يطلعونه على الشريط المُسَجّل، بعدئذٍ يسألونه..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

فأنا ذكرت هذا لقول الله عزّ وجل:

(لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

فدبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء يعرفها..

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليـل البهيم الأَلْيَلِ

ويرى نياط عروقها..

النملة لها جهاز هضمي فيه عصارات، ولها معدة، ولها جهاز ضخ، وجهاز إفراز من يرى هذا كله ؟

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

الذين آمنوا وعملوا الصالحات، عقيدة المؤمن صحيحة، وسلوكه صحيح، أفكاره صحيحة، وعمله طيّب.

(وَالّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

وَالّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ

فهذا الذي يكيد للحق، يريد أن يسقِه أهل الحق، يريد أن يطفئ نور الله، يريد أن يظهر الدين على أنه لا يصلح لهذا الزمان، يريد أن يظهر المؤمنين على أنهم أناسٌ ضيقو الأفق، هذا الذي يسعى لإظهار الباطل متألقاً، وإظهار الحق متخلفاً، هذا الذي لا يعنى بكتاب الله، يراه لا يصلح لهذا الزمان..

(وَالّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)

هناك رجل مفترٍ ملحد ألف كتاباً سمّاه نقد الفكر الديني، فجاء لهذه الآية:

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا)

فتوهّمَ خطأً أن هذه الآية هي القرآن الكريم، فقال: أيعقل أن يكون كتابٌ لا يزيد على ستمائة صفحة فيه كل شيء، انظروا إلى هذا الكلام غير المعقول، هذه الآية ليست من القرآن، هذه لكتاب الأعمال، لأعمال الإنسان، فأحياناً الإنسان يفتري، يجَرّح، يطعن، يحاول كشف التناقض، يريد أن يظهر للناس أن هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمان، حتى إنه يقول: النظام الديني لا يصلح للبشر، إنه مبنيٌّ على التضييق على الإنسان.

(وَالّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ(5)وَيَرَى الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ هُوَ الْحَقّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6)وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبّئُكُمْ إِذَا مُزّقْتُمْ كُلّ مُمَزّقٍ إِنّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَافْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنّةٌ بَلْ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضّلَالِ الْبَعِيدِ(8))

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نقف عند هذه الآيات الكريمة وقفة متأنية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (03-10): تفسير الآيات 6 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الثالث من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ

1 ـ من صفات أولي العلم إقرارُهم بأن القرآن حق:

أيها الإخوة... في هذه الآية إشارةٌ دقيقة إلى أن صفات الذين أوتوا العلم، أنهم يرون أن هذا القرآن الذي أنزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلّم هو الحق.

2 ـ حقيقة الرؤية:

كلمة الحق لابدّ من وقفةٍ عندها، وكلمة الذين أوتوا العلم لابدّ من وقفةٍ عندها، وكلمة يرى.. الحقيقة أن الرؤية كما تعلمون نوعان رؤيةٌ بصريّة، ورؤيةٌ قلبيّة، رؤية البصر أن ينطبع في شبكيّة الإنسان خيالٌ، تقول: هذا جبل، وهذه شجرة، وهذا ماء، وهذا زيد، وذاك عمرو، رؤية البصر يستوي فيها كلُّ البشر، بل وأضيف إلى ذلك أن غير البشر يستوون في رؤية البصر، البهائم إذا رأت حفرةً ابتعدت عنها، وإذا رأت ثمرةً أكلتها، فرؤية البصر لا قيمة لها إطلاقاً، لأنها قدرٌ مشتركٌ بين البشر وغير البشر ؛ لكن الذي يتميّز به الإنسان هو رؤية القلب، رؤية القلب أشار إليها القرآن الكريم فقال:

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور)

(سورة الحج)

رؤية القلب حينما تستقيم على أمر الله، أو حينما تتعرّف إلى الله وتستقيم على أمره، يقذف الله في قلبك نوراً ترى به الخير خيراً، والشرّ شراً.

3 ـ المُقدِم على معصية الله أعمى البصيرة:

هذا الذي أقدم على سرقة الأموال هو أعمى، لو رأى مصيره لما أقدم على هذه السرقة، وهذا الذي أقدم على الزنا هو أعمى، لو رأى مصير الزنى، وبشاعة هذا العمل، والخيانة التي لا تحتمل، والعقاب الأرضي السريع، وغضب الله عزّ وجل عليه لما فعله، إذاً يجب أن نعلم علم اليقين أنه ما من إنسانٍ على وجه الأرض يُقْدِمُ على اتباع شهوةٍ محرّمةٍ إلا وهو أعمى، لا نقول: أعمى العينين ؛ بل نقول: أعمى القلب، والدليل أن الله سبحانه وتعالى وصف المعرضين بأنهم في عمى، قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125) قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

أي كذلك كنت أعمى في الدنيا.

إذاً ما البطولة ؟ أن تتفتّح بصيرتنا، وأن تصحّ رؤيتنا، وأن نرى الحقّ حقاً والباطل باطلاً، أن نرى ما وراء الأشياء، وأن نرى مؤدّى الأشياء، أن نرى عاقبة الأشياء.

4 ـ الندم على شيء ناتج عن عدم رؤية الحقيقة:

من العاقل ؟ العاقل هو الذي يصلُ إلى نتائج الأشياء قبل أن يصلَ إليها، والعقل ما مؤدّاه ؟ أو ما ثماره الطيّبة ؟ أنك لا تندم على شيءٍ فعلته أبداً، ما دام هناك ندمٌ على شيءٍ فعلته، أو على شيءٍ لم تفعله، فأنت لا ترى الحقيقة، أنت ترى صور الأشياء، ولا ترى حقائقها، ترى مظاهر الأشياء، ولا ترى مؤدّاها، ترى مقدِّماتها، ولا ترى نتائجها، ترى الدنيا، ولا ترى الآخرة، ترى مقتبل العمر، ولا ترى خريف العمر.

أرأيتم إلى مقياسٍ دقيقٍ، وهو أنك إذا ندمت على شيءٍ فعلته، أو على شيءٍ لم تفعله، فاعلم علم اليقين أن رؤيتك غير صحيحة، رؤيتك ضبابيّة، في رؤيتك خلل، بصيرتك ليست نافذة، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يصف أهل الكفر حينما يواجهون حقيقة الموت..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

سيدنا علي كرّم الله وجهه قال: **<< والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً >>.**

ويقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه: **<< الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين >>.**

المعوّل عليه هذه الرؤية، الذي يأكل مالاً حراماً ماذا يرى ؟ هو أعمى، لا يرى أن الله سيتلفه مع هذا المال، لو رأى رأي العين أن الله سيتلفه مع هذا المال لما أكل هذا المال الحرام، والذين يعتدون على أعراض الناس، لو رأوا نتائج أعمالهم لما فعلوا ذلك، والذين يغشّون الناس في عمى، فأيّ خروج عن منهج الله دليل العمى، لأنه لا يمكن أن تعتدي إلا وأن تُحاسب، لا يمكن أن تأخذ ما ليس لك إلا وأن تُحاسَب.

فالبطولة أن ترى، أن ترى الواحد الديّان المطّلع على قلوب العباد، البطولة أن ترى أن كل هذه المخلوقات حسيبها الله عزّ وجل، البطولة أن ترى أن كل الربح في طاعة الله، وأن كل الخسارة في معصية الله، هذه الرؤية، ماذا ترى ؟ اجلس مع عامة الناس، إذا كان محتالاً ظن أن هذا ذكاءً، وإذا اغتصب شيئاً ليس له يعدُّ هذا كياسة وذكاءً، وإذا استطاع أن يوهم الناس، وأن يأكل أموالهم بالباطل عدّ هذا تفوُّقاً وفلاحاً، إذاً هو أعمى، ما دام يرى هذه الرؤى الضبابيّة المهزوزة هو أعمى.

5 ـ مطابقة الرؤية للشرع من تمام البصيرة:

متى يكون الإنسان بصيراً ؟ إذا جاءت رؤيته مطابقة للشرع، فلماذا يكذب الإنسان ؟ لأنه يرى في الكذب نجاةً، لو رأى أن الكذب سوف يجعله في الحضيض لما كذب، ولماذا ينافق الإنسان ؟ لأنه يرى في النفاق فوزاً، أما لو رأى أن المنافق صغيرٌ عند الله، صغيرٌ عند الناس لمَا نافق، إذاً: يجب أن نعلم علم اليقين أن كل انحرافاتنا أساسها ضعفٌ في رؤيتنا، وأن ضعف الرؤية أساسه بعدٌ عن الله عزّ وجل، لأن:

(اللّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من الآية 35)

من معاني هذه الآية: إنك إذا أقبلت عليه نوّرَ قلبك، فتجد أن المؤمن يرى ما لا يراه الآخرون، لذلك انضباطه أساسه رؤية.

مثل تقريبي: الطبيب الذي يرى بأمّ عينيه في المخبر فعل الجراثيم، والأمراض الوبيلة التي تسببها الجراثيم، والإنتانات المعويّة، والتقرُّحات الجلديّة، والمتاعب التي لا حدود لها بسبب تلوُّث الأطعمة بالجراثيم، الطبيب إذا رأى أحداً يأكل فاكهةً ليست نظيفةً، له رؤية لا تراها أنت، هو يرى مؤدّى هذا الطعام، وما يسببه من آلام، ومن أمراض، ومن متاعب، فالعلم نورٌ، أنت إذا تعلّمت العلم فمما يلازم هذا العلم النور، أنت إذا استمعت إلى كلمةٍ تُلقى على مسامعك فيها أغلاطٌ كثيرةٌ جداً، قد لا تكشف الأغلاط، لأن العلم بقواعد اللغة محدود عندك، أما لو تمرّست في قواعد اللغة لكشفت كل الأغلاط، إذاً العلم نور، إذا طلبت العلم، وإذا تعلّمت العلم، كان هذا العلم بشكلٍ أو بآخر نوراً يقذفه الله في قلبك.

ما من صفة في الإنسان إلا وفي الحيوان مثلها أو أكثر:

أيها الإخوة الاكارم... يجب أن نعلم علم اليقين أنه لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، ما من صفةٍ ماديةٍ أودعها الله في الإنسان، إلا وجعل من مخلوقات الله غير الإنسانيّة ما يتفوّق بها عليه، فإن قلت لي: إن الإنسان ينظر بعينيه أقل لك: الصقر يستطيع أن يرى على بعد عشرات الكيلو مترات، وهو في أعالي الجو فريسته وهي على الأرض، الصقر مزوّد بقدرة إراءة تزيد ثمانية أمثالٍ على ما يراه الإنسان، وهناك حيواناتٌ أودع الله فيها قوة شمٍ تزيد مليون ضعف على قوة شم الإنسان، وهناك حيواناتٌ أودع الله فيها قوة سمعٍ تزيد عشرات المرات عن قوة سمع الإنسان.

ما من صفةٍ ماديّةٍ يتصف بها الإنسان إلا وفي بقية المخلوقات ما يتفوّق بها عليه ؛ إلا أن الإنسان ميّزه بالعلم، ميّزه بالعقل، ميزه بالقوة الإدراكيّة، لذلك قالوا: رتبة العلم أعلى الرُتَب، إن الله عالمٌ يحب كل عالِم، ما أودع الله في الإنسان هذا العقل إلا كي يُعْمِلَهُ في الكون، إلا كي يرى به الحق حقاً والباطل باطلاً، إلا من أجل أن يجعله دليلاً على معرفة الله عزّ وجل، فالعقل كما عرّفه بعض العلماء: أداة المعرفة، ومناط التكليف والمسؤوليّة، لذلك:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من الآية 18)

لا تسمّى من أولي العلم إلا إذا رأيت عدالة الله عزّ وجل، لا تسمى من أولي العلم إلا إذا رأيت هذا القرآن هو الحق..

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

6 ـ الشكوك والأوهام منافية للرؤية الصحيحة:

ما دام هناك شكوكٌ في جدوى تطبيق القرآن في هذا الزمان، ما دام هناك شكوك في أن القرآن لم يعالج كل القضايا التي نعاني منها اليوم، فأنت لست من أولي العلم، لأن أولي العلم يرون أن الذي أُنزل إليكَ من ربّك هو الحق.

مرّةً ثانية: الحق، حَقّ الشيء أي ثبت واستقر، الحق الشيء الثابت، والشيء الهادف، عرفنا الحق من الباطل، الباطل هو الشيء الزائل، فالحق هو الشيء الثابت، الباطل هو الشيء العابث، فالحق هو الشيء الهادف، إذاً: كل شيءٍ وجِدَ ليبقى، ويبقى ليؤدِّي هدفاً كبيراً هو حق، إذاً هذا القرآن حق، بمعنى أنه مطابقٌ للواقع، فأية نظريّةٍ، وأية فكرةٍ، وأي مذهبٍ، وأي مبدأٍ يُذاع بين الناس لا يطابق الواقع هو باطل، لكن القرآن الكريم مطابقٌ للواقع، وإذا شئت تعريفاً دقيقاً للحق هو: ما كان مقطوعاً به.

كلكم يعلم أنك إذا ظننت في شيءٍ، أو إذا كان الشيء غير ثابت، قد يكون وهماً، وقد يكون شكاً، وقد يكون ظناً، وقد يكون غلبة ظنٍ، لكن الشيء المقطوع به هو الذي ينطبق على الواقع مائة في المائة. فالحقيقة هي الشيء المقطوع بها، المطابقة للواقع، التي عليها دليل..

((إنّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

[صحيح مسلم عن محمّد بن سيرين]

((يا ابن عمر، دِينك دينك، إنما هو لحمك ودمك))

[كنز العمال عن ابن عمر]

7 ـ العمل الصالح هدف صاحب الرؤية الصحيحة:

فالقضيّة قضية مصير، فإذا كان في ذهنك أوهام، وخرافات، وأضاليل، وتُرُّهات، ونظريات ليست حقيقيّة، فالقضيّة خطيرة جداً، لو اعتقدت شيئاً غير صحيح، وانطلقت به في الدنيا، ثمّ جاء ملك الموت، فاكتشفت أنه باطل، هذه مشكلة كبيرة، لو ظننت أن المال هو كل شيء، فأمضيت كل شبابك في كسب المال، إلى أن اكتشفت في خريف العمر أن المال ليس كل شيء، هو شيء، ولكنّه ليس كل شيء، ثمّ اكتشفت عند نزول القبر أن المال ليس شيئاً إطلاقاً، الشيء الوحيد هو العمل الصالح.

لو ذهب رجل إلى مكان الماس رخيص جداً فيه، فإذا عاد من هذا المكان ولم يشتر، ماذا يقول ؟ ليتني اشتريت، أما إذا كان في بلده خبز، وهناك في خبز فلا يقول: يا ليتني اشتريت خبزاً من هناك، أنت تندم حينما تغادر بلداً ما على أثمن ما فيه، لا على أتفه ما فيه، فهذا الذي يغادر الدنيا على ماذا يندم ؟ يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

لا يندم على شيءٍ من الدنيا ؛ بل يندم على العمل الصالح، لذلك هذا الذي يرى أن العمل الصالح هو كل شيءٍ في الدنيا، هو الذي يتمتّع برؤيةٍ صحيحة، لأنه مخلوق في الدنيا من أجل أن يعمل عملاً صالحاً يلقى الله به، ويسعد به إلى أبد الآبدين.

فملخّص الدين كلِّه: أنك تعرفه، فتتقرّب إليه، فتسعد بقربه إلى الأبد، هذه هي القضيّة، المعرفة أولاً، والعمل ثانياً، والسعادة ثالثاً، المعرفة أساس السعادة.

أقول لكم بكل اطمئنان وبكل ثقة: إن الطريقَ الوحيدة إلى الله عزّ وجل هي العلم، أية حركةٍ قبل أن تتعلّم حركةٌ لا معنى لها، حركةٌ طائشة، حركةٌ ليست هادفة، حركةٌ ليست مُنضبطة، أية حركةٍ قبل أن تتعلّم، لأنك إذا تعلّمت، وعرفت، جاء عملك وفق معرفتك، جاء عملك له هدفٌ كبير، إذاً العلم طريق، والعمل وسيلة، والهدف هي السعادة..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

8 ـ السعادة هدفُ صاحب الرؤية الصحيحة:

يجب أن تؤمن أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة، وكل ما ترى عينك من المصائب ليست مقصودةً لذاتها، المصائب كلُها مقصودةٌ لغيرها، قد تنشئ ثانويّة أو جامعة، ثانويّة تجهزها بالمخابر، تجهّزها بمكتبة رائعة جداً، بالصفوف الواسعة المضيئة، بالتدفئة المركزيّة، بالمقاعد الصِحيّة، كل ما فيه راحة هذا الطالب، في موقع بعيدٍ عن الضوضاء، المواصلات، المكتبة، المخابر، الملاعب، قاعات الرياضة المُغلقة، وقد يضطر مدير هذه الثانويّة أن يعاقب طالباً مقصِّراً، فيقول هذا الطالب: إنما أُنْشِئت هذه المدرسة كي يضربونا، لا، الضرب في هذه الثانويّة ليس مقصوداً لذاته، المقصود أن تكون عالِماً، أن تربّى تربية صالحة، أن تكون مستنيراً، أن تكون مثقّفاً، هذا هو المقصود، فإذا كان في هذه الثانويّة بعض أنواع العقاب، فهذا العقاب ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصودٌ لغيره، هذه الرؤية الصحيحة.

فالمؤمن ماذا يرى ؟ يرى أن الإنسان خُلِقَ ليسعد، لكن لماذا المصائب والأحزان ؟ لماذا الفقر والشدة ؟ لماذا هذا العذاب، قال: هذا العذاب ليس مقصوداً لذاته ؛ بل هو مقصودٌ لغيره، هو عملية معالجةٍ وإصلاح، هذه الرؤية الصحيحة، أما الذي يقول لك: إن الله عزّ وجل خلقنا من أجل أن يعذِّبنا، جلّت مشيئته، هذا لا يرى إنه أعمى، لا يرى الحقيقة، فلذلك اجلس مع إنسان دقائق، تكتشف أنه لا يعرف الحقيقة، تكتشف أنه في ضلال مبين، هذا الذي يرى الدنيا كل شيء لا يرى شيئاً، ربنا عزّ وجل قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

حتى الدنيا ما عرفوا أجمل ما فيها، لهذا قال بعض العارفين:

" مساكين أهل الدنيا، جاءوا إليها، وخرجوا منها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها ".

إنّ أطيب شيءٍ فيها هذا الاتصال بالله عزّ وجل، هذا الاتصال بالله يسبغ على حياتك كلها سعادة، لأنك تؤمن بالقيم والأخلاق، ففي حياتك قيَم، هذا تفعله وهذا لا تفعله، تنصح المسلمين في عملك، لا تكذبهم، لا تغشّهم، ولا تدلِّس عليهم، تراهم إخوةً لك، تقدِّم لهم أثمن شيءٍ بسعرٍ معتدل، أنت في عملك سعيد لأنه يرضي الله عزّ وجل، في بيته سعيد، في علاقاته كلِها سعيدٌ جداً، لماذا ؟ لأنك تعمل عملاً ترضى الله به عنك.

الذي أتمنّاه على كل أخٍ كريم، أن أيّ شي آخر غير العلم هو قاسمٌ مشتركٌ بيننا وبين بقيّة المخلوقات،

ولا فضل لنا به عليهم، لكن الذي تفوّق به الإنسان هو القوّة الإدراكيّة، هذه القوة الإدراكيّة قد يستخدمها الإنسان لمصالحه الدنيويّة، فيكتشف عند الموت أن هذا العقل العظيم الذي وهبه الله إيّاه إنما سخَّره لكسب المال فقط، وللإيقاع بين الناس، ولو سخَّره لمعرفة الواحد الديّان لكان عقله سبباً في سعادته، إذاً:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

ماذا يرون ؟ أن..

(الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقّ)

مضي السنين، وتتالي الشهور لا يغيّر الحقّ شيئاً، انظر الآن ما سوى الحق ـ الباطل ـ أحياناً ينهز، أحياناً يتداعى كبيت العنكبوت، أحياناً يعتنق الإنسان نظريّة أو مذهباً طوال حياته، يكتشف بعد حين أنها ليست صحيحة، أنها باطلة، تهاوت كما يتهاوى بيت العنكبوت، لكنك إذا كنت مع الحق، فالحق شامخٌ كالجبال، لا يتأثّر لا بالأعاصير، ولا بالعواصف، ولا بالفقر الشديد، ولا بالقهر، هو فوق القهر والفقر والضيق وكيد الأعداء، لأنه حق، ثابت، الشيء الثابت، الهادف، و المطابق للواقع، الشيء الذي تؤكِّده الفطرة، ويرضى به العقل، ويؤكِّده النقل.

فأنا أقول لكم: الحق ما أيّده النقل، هذا النقل القرآن، نقلٌ عن الله عزّ وجل، القرآن والسُنّة توضيحٌ وتبيينٌ للنقل، والحق ما أقرّ به العقل، وهو مقياسٌ أودعه الله فينا، والحق ما ارتاحت إليه الفطرة، والحق ما أيّده الواقع، فأنت مع الحق أي مع العقل، ومع النقل، ومع الفطرة، ومع الواقع.

أيليق بالإنسان أن تتقاذفه أهواءٌ، أن تتقاذفه نظرياتٌ باطلة، أن تتقاذفه ظنونٌ واهمة، أيليق بالإنسان أن يضحي بشبابه من أجل فكرةٍ مغلوطة، أو من أجل مبدأٍ هَدّام، أو من أجل نظريةٍ خاسرةٍ وخائبة ؟ فهذا الذي قاله النبي الكريم:

((يا ابن عمر، دِينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

كلُّ حركة أساسها تصوُّر:

أيها الإخوة الأكارم... أية حركةٍ تتحرّكها أساسها فكرة، أساسها تصوُّر، وعقيدة، إذا اعتقدت أن الله لن يحاسب الناس حساباً دقيقاً، فتقول: يا أخي الله غفور رحيم، ترى نفسك تتساهل في غشّ الناس، وفي الكذب عليهم، والاحتيال عليهم، من أين جاء الاحتيال والكذب والغش ؟ من عقيدةٍ فاسدةٍ مؤدّاها أن الله لن يحاسب الناس على أعمالهم، حينما تعتقد خطأً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لكل أمّته شفاعةً تامّة، مهما فعلوا من معاصي سوف يأخذ بهم إلى الجنّة، الشفاعة حق ؛ ولكنّها ليست بهذا المفهوم

الساذج، إذا اعتقدت خطأ هذا الاعتقاد رأيت نفسك منساقاً إلى بعض المعاصي والتُرُّهات، إذا اعتقدت أن هذا النبي العظيم ـ سيدنا يوسف ـ همّ بها، هو نبيٌّ عظيم وهمّ بها، إذا فسّرت الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ هَمّتْ بِهِ وَهَمّ بِهَا)

(سورة يوسف من الآية 24)

تفسيراً باطلاً مغايراً للواقع، مغايراً لأصول اللغة، مغايراً لأعلام المفسّرين، إذا فسّرت هذه الآية على أنه همّ بها، أي أنه أقدم على هذا الفعل الشنيع، لكن في الأخير تذكّر، هذا الاعتقاد الفاسد قد يدفعك إلى بعض الانحرافات الأخلاقيّة، تقول: أنا لست نبياً، لكنك إذا اعتقدت أنه همّ بدفعها وهمّت بإغرائه، أو..

(وَلَقَدْ هَمّتْ بِهِ)

ـ وقف ـ

(وَهَمّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

إذا فهمت الآية فهماً صحيحاً، فهماً حقيقياً، لا تسمح لنفسك أن تفعل شيئاً لا يرضي الله عزّ وجل، إذاً يجب أن تعلم أن أيّة عقيدةٍ زائغةٍ، أو تصورٍ واهمٍ، له مضاعفاتٌ خطيرة، فقد يخطئ الطيار في إلقاء القنبلة وهو في الجو بميليمترات، فإذا هي في الأرض بكيلو مترات، الخطأ دائماً يتفاقم، فحينما تعتقد خطأً عقيدةً زائغةً، هذه العقيدة الزائغة قد تنقلب إلى معاصٍ كثيرة، أو إلى انحرافاتٍ خطيرة.

فلذلك البطولة أن ترى رؤية صحيحة، البطولة أن يقذف الله في قلبك نوراً، وهذا النور الذي يقذفه الله في القلب لن تناله إلا بطاعة الله والإقبال عليه، البطولة أن ترى الخير خيراً والشرّ شراً، البطولة أن تفعل فعلاً لا تندم عليه أبداً، حينما تندم، معنى ذلك أن فعلك ليس صحيحاً، إذا ندمت على فعلٍ فعلته أو على فعلٍ تركته، معنى ذلك أن هناك خللاً في الرؤية واضحاً.

إذاً:

(وَيَرَى الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

الشهادات العلمية لا تنفع مع المعصية:

لكن لو نال إنسان أعلى الشهادات وهو غارقٌ في المعاصي والآثام، أليس عالماً ؟ الجواب: لا بكل تأكيد، لأن بعض الأئمّة الكرام كالإمام الغزالي، يرى أن العلم الذي ورد في القرآن الكريم، وفي السُنّة المطهّرة هو العلم بالله.

فأن تتقن صنعة، أو تنال شهادةً، لا يعني أنك عالمٌ بالله عزّ وجل، هذا موضوع جزئي أتقنته، لكن المهم أن تتعرّف إلى الله عزّ وجل، وأن تجعل من عملك مطابقاً لما خُلِقْتَ له، إذاً: يمكن أن نقول: فلان ليس ذكياً، ولو كان يحمل أعلى الشهادات، من هو العاقل ؟ هو الذي عرف الله عزّ وجل، واستقام على

أمره.

إذاً: حينما تنظر إلى الدنيا نظرة جزئيّة، وترى المال كل شيء، واللذّة كل شيء، والتفوّق الاجتماعي كل شيء، وحينما تغيب عن آخرةٍ أبديّةٍ لا تنتهي، وحينما تحصر كل طاقاتك في كسب المال فأنت لست عالِماً، لأنك أغفلت الحياة الأبديّة، وحينما تتعامل مع كل القوى في الأرض، وتنسى الجبّار الأعلى، وتنسى الواحد القهّار الذي بيده كل شيء فأنت لست عالِماً.

أنا لا أريد أن أقول: إن هذا ليس علماً، ولكن لا تغترّ بشهادةٍ نلتها، ولا بعلومٍ حصّلتها وأنت مقيمٌ على معصية الله، يجب أن تعلم علم اليقين أنك إذا عصيت الله فأنت لا تعرفه، وبالتالي فأنت لست عالِماً، لا يمكن أن تسمّى عالِماً إلا إذا عرفت الله عزّ وجل، وعرفت منهجه، واستقمت على أمره، أما إذا جعلت كل جهدك في الدنيا، وغبت عن آخرةٍ سرمديّةٍ، هذا دليل الجهل.

إذاً: وقفتنا في هذه الآية: أن البطولة أن ترى، أن يتفتّح قلبك، أن تتفتّح بصيرتك، أن ترى أن الفلاح كل الفلاح في طاعة الله، وأن الخسارة كل الخسارة في معصية الله، هذا مقياس لنا، فهل ترى أن فلاناً أو زيداً حصّل مالاً وفيراً بطرقٍ غير مشروعةٍ، هل تقول: هنيئاً له يا أخي الله أعطاه ؟ إذا قلت هذا الكلام فاحكم على نفسك بالجهل قطعاً، هل إذا قيل لك: فلان يسهر في المكان الفلاني، وله مغامرات كذا وكذا، وله ليالٍ حمراء، وليالٍ خضراء، هل تتمنّى أن تكون مكانه ؟ إذا كنت كذلك فاحكم على نفسك بالجهل تماماً، لأنك لا تعرف الله، ولا تعرف أن هذا الإنسان المنحرف الضال سيدفع ثمن انحرافه باهظاً، هذه رؤية.

ما من إنسان يقدِم على معصيةٍ إلا ويرى أنها مَغْنَمٌ، لكن الذي يرى رؤيةً صحيحة يرى ما في المعصية من خزيٍ أمام الله عزّ وجل، ومن خزيٍ يوم القيامة، ومن إتلافٍ لماله، ومن إتلافٍ لصحّته، ومن إتلافٍ لمكانته، وأنه يرى الشرّ كلّه في معصية الله، فهذا مقياسنا.

حينما ترى أن في الطاعة مغرماً فأنت لا تعرف شيئاً، وحينما ترى أن في المعصية مغنماً فأنت لا تعرف شيئاً، هذا مقياس الرؤية.

فقيمة النصوص إذا رافقتها رؤية، مثلاً ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

إذا رأيت الفوز في طاعة الله إذاً لك رؤيةٌ تطابق هذه الآية، فإن رأيت الفوز في كسب المال، إن رأيت الفوز في أن تركب سيارةً فارهةً جداً، إن رأيت الفوز أن تمتلك بيتاً فخماً، إن رأيت الفوز أن تمتلك حديقةً غنّاء، إن رأيت الفوز في غير طاعة الله، فاحكم على نفسك أن رؤيتك ليست صحيحة، ويجب أن تعلم علم اليقين أن الذي يحرّك الإنسان هو رؤيته..

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

9 ـ القرآن حقّ:

هذا القرآن..

(هُوَ الْحَقَّ)

هو الدستور، لا أعتقد إنساناً يشتري آلة غالية جداً، كمبيوتر مثلاً، عظيمة النفع، تدرُّ عليه أرباحاً طائلة، ويذهب إلى جاره الأمي ليسأله عن طريقة استعمال هذا الكمبيوتر، مستحيل، هذا الجهاز المعقّد لا تسأل عن تشغيله إلا الشركة الصانعة، الخبراء الذين صمّموه، وحينما تستشير جاهلاً في قضيّة زواجك، وحينما تستشير بعيداً عن الله عزّ وجل في اختيار صنعتك وحرفتك، أنت بهذا أغفلت الخالق، أغفلت تعليمات الصانع، فلذلك الله عزّ وجل قال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

إيّاك أن تستشير فاسقاً أو معرضاً، إياك أن تستشير غافلاً، إياك أن تستشير أهل الدنيا، إنهم ليسوا خبراء في نفسك، إنهم ينطلقون من الهوى، لكنّك إذا استشرت كتاب الله عزّ وجل في كل حركةٍ وسكنة، فأنت مع تعليمات الصانع، فببساطة أنت كائن معقّد جداً، له خالق، وخالقك له هذه التعليمات، فإما أن تستعملها فتحفظ حياتك من كل عطبٍ، وإما أن تدعها فتعرّض نفسك لكل المهالك، قال:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

هذا القرآن إذا اتبعته يهديك، الآن تقول: هذا الطريق إذا سلكته يهديك إلى حلب، أما هذا الطريق إلى درعا، هذا الطريق إلى بيروت، معنى يهديك أي يوصلك، هذا القرآن حبل الله المتين، إن تمسكت به وصلت إلى الواحد الديّان، هنا قال الله عزّ وجل:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

1 ـ العزيز:

فمن هو العزيز ؟ الذي لا يُغْلب، هو القهّار الذي لا يُنال جانبه، أي الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، هو العزيز الذي لا يُغلب، لا يُنال جانبه، فما قولك إذا اتبعت هذا القرآن وصلت إلى خالق الأكوان، وصلت إلى الواحد القهّار، وصلت إلى الجبّار الأعلى، وصلت إلى العلي المُتَعَال، وصلت إلى من بيده كل شيء..

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

2 ـ الحميد:

لكن مع أن الله عزيزٌ لا يُغْلَب، ولا يُنال جانبه، يحتاجه كل شيء في كل شيء، ومع ذلك فهو لا يفعل إلا الكمال، الحميد، أي أن كل أفعاله يُحْمَد عليها، فأحياناً من أجمل ما في كتاب الله هذه الأسماء الحسنى التي تأتي مثنى مثنى، أحياناً الإنسان يكون قوياً، فإذا كان قوياً لا يبالي بخصومه، يفعل ما لمصلحته، يفعل كل شيءٍ لصالحه، ولا يبالي بسمعته، لا يبالي بأن يرحم الناس، لأنه قوي، قال: هذا عزيزٌ بشكل أو بآخر، ولكنه ليس حميداً، وقد ترى إنساناً حميداً، وديعاً، لطيفاً لكنّه ضعيف، ما الذي يشدُّك إليه ؟ أن تكون هذه الجهة قويةً وفي الوقت نفسه كاملة.

القوة من دون كمال مخيفة، والكمال من دون قوة موضع عطف وشفقة، أحياناً إنسان طيّب، فيقولون عنه: طيب، درويش، لكنه ضعيف لا يستطيع أن يفعل شيئاً، هذا الإنسان الضعيف الطيب الساذج أنت تعطف عليه ؛ لكن لا تعظِّمه، وهذا القوي الجبّار المنحرف، الذي يوقع الأذى بالناس تخافه ولا تحبُّه، لكن أن تكون هذه الجهّة قويّةً إلى درجة أنه لا يُنال جانبها، وكاملةً إلى درجة أن كل أفعالها تُحْمَد عليها، هو الله عزّ وجل، إذا تلوت القرآن وطبّقته أوصلك إلى العزيز الحميد.

الآن أهل الكفر استهزاءً..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

إنكار البعث:

الإنسان بعد أن يموت تصبح عظامه تراباً، يصبح لحمه تراباً، لو فتحت القبر لا ترى فيه شيئاً إلا بعض العظام، هؤلاء الكفّار أنكروا البعث ـ بعث الأجساد من قبورها ـ أنكروا اليوم الآخر، فاستهزءوا..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

المقصود بهذا الرجل هو النبي عليه الصلاة والسلام..

(يُنَبِّئُكُمْ)

أي يخبركم عن يوم القيامة، وعن البعث والنشور، وعن الحساب والعذاب، وعن الجنّة والنار، كل هذا بعد الموت، بعد أن يصبح الإنسان رميماً ؟

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(78)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة يس)

(إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ

انظر إلى هذه الآية فما أعظمها..

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ)

النفسي..

(وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

في عذابٍ نفسي، لأن طبيعة الحياة الدنيا صُمِّمَت لتكون مرحلة إعدادٍ للآخرة، فمن جعلها كل شيء كان فيها معذّباً.

1 ـ الدنيا مرحلة إعدادٍ:

أيها الإخوة الأكارم... هذه الدنيا التي نحن فيها مصمّمة تصميم أن تكون مرحلة إعدادٍ لحياةٍ أبديّة، أما الذي جعلها نهاية الآمال ومحطّ الرحال، وجعلها كل شيء، وأرادها أن تكون مكان استمتاع، وسعادةٍ ماديّةٍ فقد وقع في ضلالٍ كبير.

مثلاً: قاعة الدرس مصمّمة من حيث مقاعدها الخشبيّة، والجو غير الدافئ جداً، مصمّمة لتكون مكاناً للدراسة والانتباه، فمن أراد أن يستلقي، فلا يوجد مكان ليستلقي فيه، من أراد أن يرتاح، أن يأكل، أن يشرب، أن يستمع إلى شيءٍ يُشَنِّفُ آذانه، هذه القاعة ليس فيها ما يشنِّف الآذان، وليس فيها مقاعد وثيرة، هي مهيأة للانتباه للمعلِّم، فالحياة الدنيا، الله عزّ وجل قال:

((إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري، وتكدري، وتضيقي، وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي))

[الجامع الصغير عن قتادة بن النعمان]

أولاً: الحياة قصيرة، لاحظوا أن الإنسان كي يستطيع أن يستقر في منزل يملكه، ويكون عنده دخل ثابت، وعنده في البيت زوجة، يحتاج إلى أربعين سنة، وفي سن الخامسة والأربعين بدأت الأمراض، في الستين العظام نخرت، كل الحياة متاعب، وخلقت للتعرف إلى الله بها، فلمَ تجعلها دار استقرار ؟ هي ممر وليست مقراً، إذا جعلتها مقرّا أتعبتك كثيراً..

((أوحى ربُّك إلى الدنيا أنه من خدمكِ فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه))

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن ابن مسعود]

بشكل أو بآخر **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لا يفرح لرخاء، ولا يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى ".**

تجد الدنيا مشحونة بالمتاعب، إما بخلاف زوجي مستحكم، أو دخل قليل، وأولاد كُثر، أولاد نجباء والزوجة سيئة جداً، أو الأولاد صالحون والزوجة سيئة، أو بالعكس، أو أمراض، صمِّمت الحياة الدنيا لتكون دار ممر وليست مقرّاً، لذلك الآية الكريمة:

(بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ)

الذين جعلوا كل همهم في الدنيا، جعلوها نهاية الآمال، محطّ الرحال، جعلوا حياتهم كلها دُنيا، قال:

(فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

2 - فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ

في العذاب، الآية الكريمة:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

(وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

هو في متاهة، يتخبَّط خبط عشواء، لذلك من عرف حقيقة الدنيا نقل كل اهتمامه للآخرة، هذا الذي وعده الله وعداً حسناً فهو لاقيه، هذا الوعد الإلهي الحَسَن يمتص كل متاعب الدنيا، يمتص زواجاً غير ناجح، يمتص دخلاً قليلاً، يمتص بعض العلل في الجسم، كل متاعب الحياة الدنيا يمتصُّها هذا الوَعْدُ الحسن، أما إذا الإنسان الذي ليس له آخرة، فحياته كلها معذّبة، لذلك من صفات أهل الدنيا أنهم معذّبون، إذا قال لك أحدهم: أنا أشقى الناس، صدِّقه، لأن الله يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: من الآية 124)

لن ترى في الأرض كلِّها، رجلاً سعيداً وهو بعيد عن الله عزّ وجل، هذا مستحيل..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

لذلك:

(بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(8)أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أي ألا يرون أنهم في قبضتنا ؟ إلى أين تهرب ؟

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ)

مدينة وادعة، حالمة، أبنية فخمة، شوارع عريضة، إضاءة، حدائق غنّاء، ملاءٍ، كل شيء في أوجه، وبطرفة عين أصبحت تحت الأرض دمرها زلزال، فالعبارة الدقيقة: أنت في قبضة الله، بأي ثانية يجعل حياة الإنسان جحيماً، فهذا الذي في قبضة الله ؛ قلبه بيد الله، ورئتاه بيد الله، وكليتاه بيد الله، وشرايينه، وأعصابه، وعضلاته، ودماغه، وأجهزته، وغدده، وزوجته، وأولاده، وعمله، ودخله، وكل من حوله كلُّهم بيد الله، وأي تغيير طفيف في عمل الأجهزة جعل حياة الإنسان جحيماً، ما دمت في قبضة الله كيف تعصيه ؟ والله سؤال خطير، ما دمت في قبضة الله دائماً، كيف تجترئ على معصيته، قال:

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ)

تارةً صواعق، تارةً براكين، تارةً زلازل، تارةً فيضانات، تارةً صقيع، خرب المحصول كله بثوانٍ..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19))

(سورة القلم)

الأمطار إذا اشتدّت جرفت كل شيء، والرياح إذا اشتدّت قلعت كل شيء، فأنت في قبضة الله ؛ من باب الماء، ومن باب الهواء، والأمطار، والثلوج، مستشفى واحد في دمشق استقبلت مائة وستة وخمسين إنساناً أصيبوا بكسور في أيّام الثلج، الماء صار كلّه كالبلور، نحن في قبضة الله عزّ وجل، كل شيء تعطّل بالثلوج..

(أَفَلَمْ يَرَوْا)

إننا في قبضة الله، مدن بأكملها غمرتها البراكين في العصور السابقة، كُشِفَت فجأةً، في إيطاليا، مدينة في أوج نشاطها، ثمانية أمتار غبار بركاني أحرقها وأماتها، الآن يكشفون الآثار، نحن في قبضة الله دائماً.

فيا أيها الإخوة... كيف نعصي الله ونحن في قبضته ؟ على ماذا نستند ؟ ما الذي نؤمّل ؟ على من نعتمد؟

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

خاتمة:

فهذا الدرس فيه ثلاث مراكز ثِقَل:

أول مركز: يجب أن تتمتّع برؤيةٍ صحيحة، هذه الرؤية الصحيحة هي نورٌ يقذفه الله في قلبك، إذا عرفته، واستقمت على أمره رأيت الحقّ حقاً والباطل باطلاً، ومن تمتّع برؤيةٍ صحيحة لا يندم على شيءٍ فعله، ولا على شيءٍ تركه، وهذه بطولة، ألاّ تقول: يا ليتني قدّمت لحياتي..

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

يا ليتني فعلت كذا وكذا، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، هذه البطولة.

الشيء الثاني: إذا كنت مع الحق ما عندك مفاجأة أبداً، إذا كنت مع الباطل فعندك كثير من المفاجآت، هذا الباطل سوف ينهار، أما إذا كنت مع خالق الكون، مع منهج الله عزّ وجل، سنة، وسنتين، وخمس، وعشر، وسبعين سنة، والحق حق والباطل باطل، لا تجد نفسك تقول: والله ما كنت أعرف، لا أنت كنت

تعرف.

النقطة الثالثة: أنك إذا طبّقت هذا القرآن وصلت إلى الواحد الديّان، هو العزيز، هو القهّار، هو الذي أمره نافذٌ، مشيئته واقعة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أنت مع القوة الوحيدة في الكون.

والفكرة الرابعة: إذا جعلت الدنيا كل همِّك، كنت فيها ضالاً معذّباً أبداً، هي ممر وليست مقراً.

وآخر فكرة: أنت في قبضة الله فكيف تعصيه ؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (04-10): تفسير الآيات 10 - 14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصّة سيدنا داود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، يقول الله عزّ وجل في الآية العاشرة من سورة سبأ:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا

1 ـ من معاني الفضل:

من معاني الفضل أنه الزيادة عن المألوف، لقوله تعالى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

(سورة فاطر: من الآية 1)

الإنسان قد يزيده الله قوةً، قد يزيده علماً، قد يزيده ذكاءً، قد يزيده شأناً، قد يزيده وسامةً، قد يزيده حكمة، قد يزيده قُرباً، فما أوتيت زيادةً على عموم الناس فهذا هو الفضل..

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

فكل مؤمن حينما سمح الله له أن يتعلّم، وأن يكون مهتدياً، حينما يَسّرَ الله له طريق الهداية وطريق العلم، آتاه الله منه فضلاً كبيراً، عامّة الناس الذين تراهم أمامك في الطريق ؛ يأكلون، ويشربون، ويتمتّعون، ولا يفقهون شيئاً، لكن الذي آتاه الله بعض العلم، بعض الحكمة، الذي آتاه الله قوةً في نفسه، الذي مكّنه الله من طاعته، الذي أعانه على عبادته، هذا آتاه فضلاً عظيماً.

إذاً: معنى الفضل ما زاد عن مجموع الناس، عن السواد الأعظم.

سيدنا عمر مرّةً سمع رجلاً يدعو ربّه فيقول: **" اللهمّ اجعلني من القليل "**، قال عمر: **" ما هذا الدعاء؟ "**، قال: أقصد قوله تعالى:

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

فقال عمر يخاطب نفسه: **<< كل الناس أعلم منك يا عمر >>**، اللهمّ اجعلني من القليل الشاكر، لا من الكثير الساهي واللاهي.

إذاً: كلمة فضل تعني إذا خصّك الله بمعرفته فهو فضلٌ عظيم، إذا خصّك الله بالحكمة فهو فضلٌ عظيم، هذا المعنى الذي يمكن أن نستنبطه، والذي يمكن أن يُطبّق على المؤمنين، وإذا تلوت قوله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(113))

(سورة النساء)

يجب أن تشكر هذا الفضل، لكن اعلم علم اليقين أن أعظم الفضل ما تعلّق بالآخرة، قد يؤتيك الله قوّةً في الدنيا، قد يؤتيك مالاً، قد يؤتيك جاهاً، لكن الشيء الذي ينتهي عند الموت، هذا لا يوازى بما يبدأ بعد الموت، فالعلم والحكمة، والطاعة والعبادة، والعمل الصالح، والقرب من الله عزّ وجل، هذه كلها تقطفها في الدنيا وبعد الموت.

إذاً معنى كلمة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

أي خصصناه بأشياء مَيّزْنَاه بها على بقيّة الناس.

2 ـ الفضل الذي آتاه الله لداود:

الإمام القرطبي في تفسيره يقول: الفضل هو النبوّة، والفضل هو الكتاب، آتاه الله الزبور، والفضل هو القوة، آتاه الله قوة..

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ(17))

(سورة ص)

والعلم من فضل الله عزّ وجل، وتسخير الجبال والطير من فضل الله عزّ وجل، وتوبة الله عليه من فضل الله عزّ وجل.

المرء أحياناً يخالف أوامر إنسان ما قوي، يسترضيه فلا يرضى، يستغفره فلا يغفر، يرجوه فلا يُرجى، إذا خالفت أمره يسحقك أحياناً، لكن الله سبحانه وتعالى إذا تُبت إليه تاب عليك، فمن فضل الله على الإنسان أنه يتوب عليه، والإنسان يخطئ، ويستغفر، ويتوب الله عليه.

ومن فضل الله على داود أنه ألهمه الحكم بالعدل، لأن حجراً ضجَّ بالشكوى إلى الله عزّ وجل ـ فيما ترويه الكتب ـ قال: يا رب عبدتك خمسين عاماً، ثمّ تضعني في أُسّ كنيف، فقال: تأدّب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم، مكانك في أسّ الكنيف أشرف لك ألف مرّة من أن تكون في مجلس قاضٍ

ظالم، فالإنسان إذا ألهمه الله العدل في ميراثه، في أولاده، في إخوانه، في موظّفيه، في طلّابه، فهذا فضل من الله عزّ وجل، لأن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

بعضهم قال: الفضل هي النبوّة، وقال آخرون: هي الكتاب ـ الزبور ـ ورآها جماعة القوّة..

(وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

(سورة البقرة: من الآية 247)

قال بعض المفسرين: تسخير الجبال والطير له، وبعضهم قال: أنه تاب عليه، والتوبة فضلٌ عظيم، قالوا: بل مكّنه من أن يحكم بالعدل، لأنه القاضي العادل الله عزّ وجل يسدّد خُطاه، يلهمه الصواب، ينير له الطريق، فالعدل فضلٌ عظيم.

ومن فضل الله على سيدنا داود أنه ألان له الحديد، ومن فضل الله على سيدنا داود أنه جعل صوته حسناً ووجهه حسناً، فالصوت الحسن من نِعَم الله الكبرى.

النبي عليه الصلاة والسلام استمع مرّةً إلى أبي موسى الأشعري يقرأ القرآن، فتأثّر النبي تأثّراً شديداً وقال:

((يَا أَبَا مُوسَى، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ))

[البخاري عن أبي موسى]

والمزمار في أصل اللغة الصوت الحسن، فمن وهبه الله صوتاً حسناً فعليه أن يُسَخِّرَهُ لتلاوة القرآن لا للغناء، لذلك المغنون الذين آتاهم الله الأصوات العذبة، كان من الممكن أن يرقوا بأصواتهم تلك إلى أعلى درجات الجنّة إذا سخّروها في تلاوة القرآن، أما حينما سخّروها في إثارة الغرائز هبطوا بها إلى قيعان النيران، فكلمة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

التطبيق العملي لهذه الآية:

الفضل هذه الأشياء، أما التطبيق العملي لهذه الآية فيما يخصُّ المؤمنين: إذا ميّزك الله عن عامة الناس بمعرفته فهذا فضلٌ عظيم، لا ترى نفسك محروماً في الدنيا، إذا خصّك الله بلسانٍ طليقٍ في الدعوة إليه هذا فضلٌ عظيم، إذا خصّك الله عزّ وجل بقلبٍ شاكر، ولسانٍ ذاكر، وجسدٍ على البلاء صابر فهذا فضلٌ عظيم، إذا ألهمك شكره، وألهمك الصبر عند المصائب، ألهمك الشكر عند الرخاء، إذا جمعك مع أهل

الحق، إذا جعلك بين المؤمنين، إذا هيّأ لك أسرةً طيّبة، ذريّة صالحة، زوجة صالحة، أولاداً أبراراً، هذا كلُّه فضل من الله عزّ وجل، إذا جعل لك مأوىً تأوي إليه، هذا أيضاً من فضل الله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا)

من هذا الفضل..

(يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ)

يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ

معنى أوّبي معه، من معاني هذه الآية أي سبّحي، والحقيقة الثابتة في كتاب الله أن ما من مخلوقٍ في الكون وعلى وجه الإطلاق إلا يسبّح بحمد الله، قال تعالى:

(وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من الآية 44)

لا تفقهونه أنتم، فسيدنا داود أوتي القدرة على سماع تسبيح الجبال، إنه يسمعها، وتسبّح معه، فهذه الشفافيّة التي يبلغها الأنبياء شيءٌ فوق الوصف، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث))

[الجامع الصغير عن جابر بن سمرة]

وقف على جذع نخلة كان يخطب عليها، فلمّا صنع له أصحابه منبراً، وقف على المنبر، ووضع يده على جذع النخلة، لأنها حنّت إليه، هذا الشعور صعب أن يدركه إنسان، ولمّا وصف له الصديق حالة سيدنا حنظلة، قال:

((يا أبا بكر، نحن معاشر الأنبياء تنـام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، أما أنتم، يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

معنى هذا أن الإنسان إذا أقبل على الله عزّ وجل، واتصل بالله شفّت نفسه، فرأى ما لا يراه الآخرون، وسمع ما لم يسمعه الآخرون، هذا الاندماج بينه وبين بقيّة المخلوقات يُنشئ في نفسه مشاعر طيّبة، فحينما يبادر إلى سقي النبات يشعر بعطفٍ على النبات يشعر بحرقةٍ إذا عطش النبات، حينما يبادر إلى إطعام الطير يشعر بنشوةٍ لا توصف، هذه الرقّة في المشاعر، هذه الشفافيّة التي يتميّز بها المؤمن، إنها نموذجٌ مبسّطٌ جداً لما ينطوي عليه قلب الأنبياء من مشاعر إنسانيّة، بل مشاعر تجاه المخلوقات جميعاً.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ)

أي أننا مكنّاه من سماع تسبيح الجبال، أو أن الجبال كانت تسبّح معه لما آتاه الله من صوتٍ شجيّ إذا تلا الكتاب الذي أُنْزِلَ عليه.

والنبي عليه الصلاة والسلام دخل مرّةً إلى أحد بساتين الأنصار فرأى جملاً، فلمّا رآه الجمل حنّ إليه، ووضع النبي صلى الله عليه وسلّم يده على رأسه ومسح ذفريه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود وأحمد]

سمع النبيُّ شكوى البعير، وسلّم عليه الحجر، وسمع تسليمه عليه، وحنّت إليه النخلة، هذه شفافيّة لا يمكلها إلا الأنبياء، لكن المؤمن يشعر بمشاعر عجيبة تجاه كل المخلوقات، فلا يمكن لمؤمن أن يعذِّب حيواناً، لأن هذا الشيء فوق طاقته، بل إنه بالعكس يبادر إلى معونته، وإطعامه، ومعالجته أحياناً، لأن في قلبه رحمة، هذه من آثار الاتصال بالله عزّ وجل، ليس هذا تصنُّعاً، ولكنّها سجيّة وطبيعة جاءته من اتصاله بالله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ)

وَالطَّيْرَ

والطير أيضاً مكّنه من سماع تسبيحها، أو سبّحت معه..

(وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ

1 ـ قدرة الله في تغيير خصائص الأشياء:

جعل الله الحديد الذي له فوائد عظيمة على شكل فلزات، وهذا من نعم الله الكُبرى على كل الناس، ليسهل استخراجه من الأرض، ومع ذلك جعل هذا الحديد ينصهر بدرجات مرتفعه، فإذا أردت أن

تستعمله صهرته ثمّ شكّلته، هذا من فضل الله على كل الناس. لكن من هذه الآية يتضح أن سيدنا داود عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام خصّه الله بشيءٍ يتميّز به على الناس، فالحديد بين يديه كالعجين أو كالشمع، يشكِّله كما يشاء، ثمّ يصبح الحديدُ حديداً كما تعرفونه، هذه من قدرة الله الخارقة، لأن الله عزّ وجل إذا تحدّثت عن أعمال الناس، فأعمال الناس تحكمهم قوانين الناس، كل شيء له سبب، وله خصائص، وله درجة ينصهر بها، وله درجة ينكسر بها، وله درجة مقاومة، الله عزّ وجل جعل لكل شيء خصائص، فإذا أردت أن تتحدّث عن خصائص المخلوقات فهذه أشياء غير مألوفة عادةً، لكنّك إذا أردت أن تتحدّث عن قدرة الله عزّ وجل كل شيءٍ مألوف، وكل شيءٍ معقول، وكل شيءٍ مقبول.

فهناك من يخلط بين قدرة الناس وخصائص الأشياء و قدرة الله عزّ وجل، إذا كان الحديث عن خصائص الأشياء وعن قدرة الإنسان المحدودة، فهذه الأشياء التي سوف نراها بعد قليل قد تكون غير مألوفة، والعادة لا تقبلها، لم نألف هذا، أما إذا حدّثتني عن قدرة الله الطليقة فهذه القدرة لا يعجزها شيء، ولا يستحيل عليها شيء، ولا يصعب عليها شيء، فكل ما أخبرنا الله به عن قدرته فهو معقولٌ ومقبول، لأنه خبر الله عزّ وجل..

(وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحشر)

2 ـ الحديد في يد داود كالعجين:

فربنا عزّ وجل خصّ هذا النبي الكريم بمعجزة أن الحديد يلين بين يديه، لا يحتاج إلى أن يحمي الحديد حتّى يصبح كالعجين، ثم يطرّقه بالمطارق، الحديد فيما توحي به هذه الآية، لينٌ بين يديه كالشمع أو العجين، يشكِّله، ثم يغدو حديداً كما تعرفونه..

(وَأَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ(10)أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

1 ـ مِن صنعة داود عملُ الدروع:

هذه الآية يجب أن نقف عندها وقفة متأنية، الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى قال:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ)

(سورة الأنبياء: من الآية 80)

فهذه حرفةٌ له عليه الصلاة والسلام، كرّمه الله عزّ وجل بأن جعل الحديد ليّناً بين يديه، الناس من قبل كانوا يصنعون دروعاً من صفائح الحديد، وكانت هذه الصفائح ترهقهم وتعذِّبهم، وتثقل عليهم، فربنا سبحانه وتعالى ألهمه أن يصنع دروعاً لا من الصفائح، بل من السلاسل، من الحلقات، فهذه الدروع بهذه الطريقة يخفُ وزنها، وتصبح موافقة لجسم الإنسان، لها كُم، وصدر، وظهر، فالدرع المصنوع من سلاسل متداخلة أخفُ على الجسم من درع الصفائح، وأيسر منه استعمالاً، فربنا سبحانه وتعالى علّمه هذه الصنعة، وكان يبيع الدرع بمبلغ مجزٍ، فعاش في بحبوحة، وأنفق من هذا الدخل، وكانت له حرفة مع أنه نبي.

2 ـ على أهل الفضل تعلُّم الصنائع:

أعجبني في هذه الآية ما ورد في كتاب القرطبي، قيل: " في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهل الفضل الصنائع "، فأهل الفضل وهل أعلى من الأنبياء ؟ هم قمّة البشر ومع ذلك:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ)

(سورة الأنبياء: من الآية 80)

لهذا النبي العظيم صنعة وحرفة، وهي صناعة الدروع، ألم يكن نبينا عليه الصلاة والسلام راعي غنم؟ ألم يكن نبيُّنا عليه الصلاة والسلام شريكاً مضارباً مع السيدة خديجة، وهي أول شراكة مضاربة في الإسلام ؟ ألم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام شريك في مكّة يبيعان السلع ويقتسمان الربح ؟ إذاً ورد في تفسير القرطبي: أن في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهل الفضل الصنائع، وأن اتخاذ الحرفة لا ينقص من مناصبهم العليّة.

مقام النبوّة لا يجرحه أن يكون صاحب حرفة ؟ سيدنا الصديق كان بزازاً ـ بائع قِماش ـ سيدنا أبو عبيدة كان قصّاباً، وأنعم به من قصّاب، أصحاب النبي كانوا يعملون، قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف: " دونك نصف مالي إني من أكثر أهل المدينة مالاً ـ دونك نصف مالي أي خذ نصف مالي، قال له عبد الرحمن: " بارك الله لك في مالك، ولكن دُلّني على السوق "، باع واشترى، واتّجر وربح، وتزوّج.

إذاً: لا ينقص التَحَرُّفُ أهلَ الفضل من مناصبهم، بل يزيد في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم ـ الإنسان حينما يعمل إذاً هو مضطر أن يعمل حتّى يأكل، العمل يجعله متواضعاً، يجعله بحجمه الحقيقي، لا يتكبّر على خلق الله ـ إذ يزيد التحرُّفُ أو اتخاذ الحرفة في فضلهم وفضائلهم، فيحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم.

بِمَ نلت هذا المقام يا إمام ؟ قال: **" باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي ".**

والكسب الحلال يبعد عن الامتنان، فالإنسان إذا أعطى قد يمنّ، أما إذا كسبت مالك بتعبك وعرق جبينك وكدّك، فهذا الكسب بهذه الطريقة لا يجعل لأحدٍ عليك منّة، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[من صحيح البخاري عن المِقدام]

3 ـ كل حرفة مسخّرة لحرفة أخرى:

الآن ننتقل إلى شيء آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان قدرة، خصّه بشيء، وجعله في حاجةٍ إلى مليون شيء، من أجل أن تقوم الحياة بين البشر، أنت بحاجة إلى طبيب، وإلى مدرّس لابنك، وإلى من يصنع لك الثياب، وإلى من يزرع لك القمح، وإلى من يقدّم لك الخدمات، وأنت لك حرفةٌ واحدة تخدم بها الناس، والناس جميعاً من خلال حرفهم ومهنهم يخدمونك، إذاً: شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون لكل إنسان منّا حرفة يتقنها، ويقدّم ثمار عمله للناس، ويستخدم خبرات الناس في قضاء حاجاته، فالدنيا أخذٌ وعطاء، هذه واحدة.

4 ـ الانتفاعُ بفوائد خيرات الأرض تكون بالوسيط:

النقطة الثانية: هو أن الله سبحانه وتعالى أودع في الأرض خيرات كثيرة، ولكن شاءت حكمة الله أن تكون الفائدة من هذه الخيرات لا بشكلٍ مباشر ؛ بل بوسيطٍ من عمل الإنسان، وعلمه، وجهده، فالحديد مثلاً لا تراه في الطرقات على الشكل الذي ترغب، الله جعل الحديد فلزات، نحتاج إلى استخراج هذه الفلزات، وإلى أفران لصهر الحديد، وإلى تشكيل الحديد، وإلى صب الحديد، لابدّ كي تستفيد من خيرات الأرض من علمٍ وعمل، أنت بالعلم والعمل ترقى إلى أعلى عليين إذا استقمت على أمر الله، وبالعلم والعمل تهبط إلى أسفل سافلين إذا انحرفت عن أمر الله.

إذاً أولاً: الله امتحنك بأن خصّك بشيء، وجعل كل الخلق يقدّمون لك أشياءهم.

والشيء الثاني: الله عزّ وجل فضلاً على ذلك جعل العلم والعمل طريقاً إما إلى الرقي إلى أعلى درجات الجنان، أو أن تهبط بغشّك للناس وكذبك عليهم إلى دركات النار، إذاً العلم والعمل وسيلة أو طريقة من طرق ابتلاء الإنسان.

إذاً: لما قال الله عزّ وجل:

(وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

أي علّمناه صناعة الدروع، وخصصناه بإلانة الحديد، ومن شرف هذا النبيّ العظيم أنه يأكل من عمل يده، ومنْ أحلّ الدخول أن تأكل من جهدك وعرق جبينك..

(أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ)

السابغات هي الدروع، قال:

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

5 - وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ

المعنى الأول:

السرد الحلقات، ما معنى قدِّر ؟ أي إن جعلت هذا الدرع سميكةً وثقيلة أرهقت المُقاتل، وإن جعلتها خفيفة لم تمنعه من السهام، يجب أن تجمع هذه الدرع بين الخفّة وبين المناعة، يجب أن تمنع من ارتداها من سهام العدو، ويجب أن تكون على ظهره خفيفةً طيّعَةً ليّنةً، هذا هو التقدير، أي اجمع بين كل الحاجات، بين أن تكون خفيفة لا ترهقه، وبين أن تكون منيعة لا تسمح للسهام أن تنفذ إليه، هذا معنى:

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

المعنى الثاني:

هناك معنى آخر، هذه الحلقات التي تصنع منها الدروع، إن كانت واسعة دخل منها السهم، وإن كانت ضيّقة عرقلت حركته، فيجب أن يكون قطر هذه الحلقة مناسباً، لا يسمح للسهم أن تخرق جسم المقاتل، ولا أن تكون ثخينة وقاسية بحيث تعيق حركته، هذه المعاني وردت في التفاسير حول:

(وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(10)أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا)

وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

اعملوا عملاً صالحاً، ليكن عملك صالحاً:

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

1 ـ أهمية الإخلاص في العمل:

هنا نقف قليلاً، إذا أخلصت في عملك يجب أن تعلم دائماً أن الله يراك، وسيكافئك على عملك، أحياناً الذي تتعامل معه لا يكشف خطأك، تصنع غرفة نوم مثلاً، الخشب الداخلي المستور قد تضعه من نوع رديء، ولا يدري صاحب هذه الغرفة عن هذا شيئاً، قد تقلِل المواد الأوليّة، فلا تصمد هذه الغرفة للاستعمال، أما إذا كنت صالحاً، وأتقنت عملك فصاحب هذه الغرفة لا يعلم، ولكن الله يعلم.

عندما جاء لسيدنا عمر رسول القادسيّة قال له: **<< يا أمير المؤمنين، مات خلقٌ كثير، قال: من هم ؟، قال: أنت لا تعرفهم، فبكى سيدنا عمر وقال: وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >>.**

مثلاً: إذا كنت باراً بأمِّك وأبيك فالله بصير، وسيلهم أولادك أن يقدِّموا لك كل هذه الخدمات، إن كنت صادقاً في معاملاتك الله بصير، إن كنت نصوحاً في بيعك الله بصير، إذا كنت متقناً لعملك الله بصير، الأشياء التي تخفى عن البشر على الله لا تخفى، فاعمل صالحاً ؛ في بيتك، إن مع أهلك، مع أولادك، في حرفتك، في صنعتك، في تجارتك، في زراعتك، هناك أدوية تنمي الثمار تنمية سريعة جداً، لكنها ضارةً للإنسان..

(إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

هناك صناعات غذائيّة، هناك مواد كيماويّة تجعلها رائجة أكثر، لكنّها تؤذي الأجسام، فالمؤمن يجب أن يبحث عن مرضاة الله عزّ وجل..

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

2 ـ وجوب مراقبة الله تعالى في جميع مجالات الإنسان:

أي أعرف ما تعملون، أقدِّر عملكم، فإذا وضعت سعراً معتدلاً لهذه السلعة حتّى يتيسّر على المسلمين شراؤها، الله عزّ وجل يعلم ذلك، وسوف يكافئك، وسوف يقيك من أمراضٍ وبيلة، وسوف يوفِّر عليك مشاق كثيرة، أما إذا استغللت حاجة الناس لهذه الصنعة، ورفعت الأسعار أضعافاً مضاعفة، لتحقِّق ربحاً وفيراً على حساب حرمان بعض الناس، الله أيضاً بصير، فالمؤمن دائماً يراقب الله عزّ وجل، ما الذي يرضي الله ؟ أكثر شيء في عمله أي في اختصاصه، ففي طبّه، بإمكانك أن تقول لهذا المريض: ائتني بعد أسبوع، وبعد أسبوع، وبعد أسبوع، وقد شفي من أول لقاء، بإمكانك أن تكلِّف هذا المريض أن يجري تحاليل كثيرة ليس بحاجة إليها، باتفاقٍ بينك وبين صاحب مخبر، بإمكان هذا المحامي أن يوهم الموكِّل أن قضيّته عويصةٌ جداً، وتحتاج إلى نفقات كبيرة، والقضيّة سهلة جداً تنتهي بمذكِّرة واحدة، من يعلم ذلك ؟ الله يعلم..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إذا كنت صادقاً مع الناس، مخلصاً لهم، ناصحاً لهم، فالله يعلم، وسوف يكافئك في الدنيا قبل الآخرة، سوف يحفظك، ويحفظ مالك، وأهلك وأولادك، سوف يرفع شأنك وذكرك..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

اعمل صالحاً، كن صادقاً مع الناس، كن مخلصاً لهم، كن نصوحاً لهم، لا تغشّهم، لا تدلِّس عليهم، لا توهمهم، لا تخوّفهم، لا تحملهم على شراء حاجةٍ ليسوا هم بحاجةٍ إليها وتقول: هذه سوف تفتقد من السوق، اشترِ سريعاً، لا تكذب عليهم، كن صادقاً يأتِك رزقٌ حلالٌ وفير، وأنت صادقٌ مع الله عزّ وجل..

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

الزوجة إذا نصحت زوجها، وأخلصت له، ورعت بيته، وحفظت ماله..

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

إذا ربّت أولادها، وتعبت في تربيتهم، الله بصير يراها، قد يمتِّعها بصحّتها حتّى تموت، وقد تسطرح عليها الأوجاع والأوبئة، كل شيءٍ بحسابٍ دقيق، فأي إنسان ينصح عباد الله، يرحمهم ـ إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ـ هذا الذي يرحم عباد الله يرحمه الله، ويحفظه.

الآية دقيقة:

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(11)وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ)

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ

إذاً سيدنا داود آتاه الله فضلاً ؛ النبوّة، والزبور، والقوّة، والعلم، وتسخير الجبال، والتوبة، والحكم بالعدل، وإلانة الحديد، وحسن الصوت، وجعل له صنعةً يعيش بها، والصنعة، الحرفة، والعمل يرفع شأن الإنسان، ولا يجرح من قدره ولو كان عالِماً أو داعيةً، إنه يجعله متواضعاً، ويجعله في استغناءٍ عن منّة الخلق، النبي الكريم يقول:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنّ نَبِيّ اللّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[من صحيح البخاري عن المِقْدام]

الآن سيدنا سليمان:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)

تسخير الريح لسليمان عليه السلام:

الله سخّر له الرياح، ما يحتاج إلى مسيرة شهر يقطعه في غدوةٍ، أي في وقتٍ مبكّر، أقل من يوم، وما يحتاج إلى مسيرة شهرٍ يقطعه في روحةٍ، أي أقل من يوم، ولكن مساء، الغدو الذهاب إلى العمل صباحاً، والرواح العودة مساء، الإنسان ينطلق إلى عمله بساعة أو ساعتين مسافة الطريق، ويعود من عمله إلى بيته في ساعةٍ أو أكثر، فما يحتاج إلى أن يسيره في شهرٍ بأكمله يقطعه في ساعة..

(غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)

نحن لسنا مكلّفين أن نبحث بالتفصيلات، هذا خبر من الله عزّ وجل، وما سكت الله عنه يجب أن نسكت عنه، يا ترى كيف ؟ ويا ترى كان في بساط ؟ يا ترى البساط له غرف ؟ له مقاعد ؟ هذه تفصيلات، وردت في كتب بني إسرائيل، لكننا نربأ بأنفسنا أن نأخذ من الإسرائيليات، الله عزّ وجل قال:

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)

انتهى الأمر، أعطاه الله، خصّه بميزة أن سخّر له الريح ينتقل بها من أطراف البلاد إلى أطرافها الأخرى.

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ)

وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ

القطر هو النُحاس، أيضاً جُعِل النحاس لهذا النبي الكريم سائلاً، يصبُّه في قوالب، ويستخدمه كيف يشاء.

مرّةً ثانية وثالثة، هذه المعجزات التي خصّها الله الأنبياء، إذا أردت أن تحكمها بقانون البشر، وبخصائص الأشياء، قد لا تقبلها، أما إذا أردت أن تفهمها من خلال قدرة الله عزّ وجل فالقضيّة سهلة جداً، معقولة ومقبولة، لذلك فرّق بين ما هو مستحيلٌ عادةً و ما هو مستحيلٌ عقلاً، هذه الآيات والمعجزات ليست مستحيلةً عقلاً ؛ لكنها بعيدةٌ عادةً.

مرّة قرأت في الفيزياء في عنصرين متجاورين، العناصر في الأرض مرتَّبة حسب عدد الإلكترونات التي تدور حول المدارات الخارجيّة، فأول عنصر حوله إلكترون واحد يدور العنصر الثاني إلكترونات، وهكذا، بين عنصرين متجاورين الفرق بينهما إلكترون واحد، العنصر الأول غاز، والثاني صُلب، إذا أضفنا إلكترونا أو كُهروبا واحدا على المدار الخارجي ينقلب هذا العنصر من غاز إلى صلب، أو من صلب إلى غاز، فعلى قدرة الله عزّ وجل كل شيءٍ مقبول ومعقول..

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)

وَمِنْ الْجِنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ

لئلا يتوهَّم الإنسان أن الجن يعملون بقدراتهم الذاتيّة..

(وَمِنْ الْجِنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)

أي أن ربنا سبحانه وتعالى سخّر لهذا النبيِّ الكريم بعضاً من الجن يقدِّمون له أجلّ الأعمال، لكن بإذن ربِّه..

(وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السّعِيرِ)

وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السّعِيرِ

هذا الجنِّي إذا لم يفعل ما أُمِرَ به، أو ما أمره به سليمان..

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السّعِيرِ)

هؤلاء الجن ماذا يعملون ؟ قال:

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ)

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ

المحاريب جمع محراب، وهو مكان الصلاة، أو المكان المُرْتَفِع، وقد نجمع بين المعنيين، ربنا عزّ وجل قال:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

(سورة النور: من الآية 36)

أن تُبْنَى عالية، لذلك المئذنة يجب أن تكون شامخة يراها جميع الناس، فالعلماء استنبطوا من هذه الآية أن الأولى أن يكون الجامع عظيم الهيئة، لماذا ؟ هذا بيت الله.

فهنا المحاريب جمع محراب، المكان المرتفع الذي يُصلّى فيه، لذلك الآن لا يُقْبَل أن يكون المسجد قبواً، يجب أن يكون على أرضٍ حُرّة، ومرتفعا، ولا شيء فوقه، لكن الآن تساهلوا، في بعض الأبنية جُعِل أحد الطوابق مسجداً، والطوابق الأخرى للسكن، أما الأصل والأكمل أن يُبْنَى على أرضٍ حُرّة، وألا يكون فوقه أي بناء.

هؤلاء الجن..

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ)

وَتَمَاثِيلَ

ومعنى التمثال هنا: الشيء الذي يُشكّل على مَثَلِ شيءٍ آخر، أي التزيينات في هذه المحاريب، أقواس مثلاً، لكن ليس المقصود التصوير ولا التماثيل التي تألفونها في حياتكم..

(وَجِفَانٍ)

وَجِفَانٍ

الجفان جمع جَفْنَة، وهي الوعاء الكبير الكَبير الذي يُطْبَخ فيه الطعام، لذلك قالوا: الجَفْنَة ما تطعم آلاف الأشخاص، والقَصْعَة ما تكفي عشر أشخاص، والصَحْفَة خمس أشخاص، والمِيكَلة شخصان أو ثلاثة، والصَحيفة صحن مفرد، ما يكفي شخصاً واحداً، أما أكبر وعاء للطعام فهي الجِفان..

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ)

كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ

الجواب كالأحواض العظيمة، هناك أحواض عظيمة لتخزين المياه، هذه القدور هي أوعية للطعام تتسع لكمياتٍ كبيرة، ولإطعام آلافٍ مؤلفة من الناس..

(كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ)

لعِظَم القِدْر لا يتحرّك مكانه ثابت، حتى إنّ بعضهم كانوا يصعدون إليه بالسُلّم، قِدْر لطبخ الطعام..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ

الآن عندنا عدة نقاط:

1 ـ الشكر عملٌ:

عملك يجب أن يكون لا خوفاً ولا طمعاً ؛ ولكن شكراً.

الشيء الآخر: قال بعض العلماء: حينما تصلي وحينما تصوم فصلاتك نوعٌ من الشكر، وقد دعا أحد الأنبياء ربّه فقال: يا رب كيف أشكرك، وشكرك لا يكون إلا بنعمةٍ منك ؟ فقال: الآن عرفتني "، أي حتى الشكر هو نعمة من الله، أن تكون شاكراً..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

أولاً الشكر عمل، وليس قولاً، هذا أول استنباط.

2 ـ يجب أن يكون العمل شكرا:

الشيء الثاني: العمل ينبغي أن يكون لا خوفاً ولا طمعاً ؛ ولكن شكراً، من عرف نعم الله عزّ وجل كان عمله شكراً لله عزّ وجل.

إذاً:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

الشكر ليس قولاً، إنه عمل.

ثانياً: العمل يجب أن لا ينطلق من خوفٍ ولا من طمعٍ ؛ بل من شكرٍ للمولى عزّ وجل.

3 ـ يجب أن تستخدم النعم في طاعة الله:

وأدقُّ تعاريف الشكر: أن تستخدم النعم التي أنعم الله بها عليك فيما خُلِقْتَ له، وفيما أمرك به، أن تستخدم نعمة الصحّة في طاعة الله، نعمة العين لرؤية آلاء الله، نعمة السمع لسماع الحق، نعمة اللسان لذكر الله عز ّوجل، نعمة الذكاء لفهم كتاب الله، نعمة الذكاء لإقناع الناس بالحق، إذا استخدمت النعم التي أنعم الله بها عليك فيما يرضي الله، وفيما خُلِقْتَ من أجله فهذا أعلى درجات الشكر، أن تستخدم نعم الله فيما يرضي الله.

أما حينما تستخدم نعم الله عزّ وجل فيما يغضبه، وفي معاصيه، فهذا أحد أنواع الكفر، لذلك نعمة المال، ونعمة الصحّة، ونعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة النُطق، ونعمة القوّة، ونعمة الوسامة، ونعمة الغنى، ونعمة الحكمة، كل هذه النعم يجب أن تسخّرها فيما يرضي الله عزّ وجل حتّى تكون شاكراً له..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

اللهمّ اجعلنا من هؤلاء القلّة، كما سمع عمر هذا الدعاء من رجل فقال له: " ما هذا الدعاء ؟ " قال: " أقصد هذه الآية "، فأراد عمر أن يضع نفسه أمام حجمها، فقال: **" يا ابن الخطّاب كل الناس أعلم منك "**، قال:

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ

سيدنا سليمان..

(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ)

المنسأة هي العصا، ودابة الأرض هي الأرَضَة أي السوس.

الجن لا يعلمون الغيب:

الحقيقة هنا وقفة دقيقة جداً هي: أن الجن لا يعلمون الغيب، لقد أمرهم هذا النبي العظيم بأعمال شاقّة ومرهقة، وقضى الله عليه الموت وهو متكئٌ على عصاه، هم يعملون هذه الأعمال الشاقة، ولو علموا أنه مات لوقفوا عن أعمالهم، هذا دليل قوي قطعي على أن الجن لا تعلم الغيب، بإمكانك أن تردُّ آلاف القصص بهذه الآية، أكثر الناس يتوهّمون أن الجن يعلمون الغيب، ودائماً على شكل قراءة فنجان، على شكل أقوال الكُهّان، على شكل السحرة، دائماً الساحر والكاهن ينبئك عن الغيب، فيقول لك: أمامك مشكلة، أمامك قضيّة، هذا كله غلط..

(فَلَمَّا خَرَّ)

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ

أي وقع من على عصاه بعد أن أكلتها الأرَضَة..

(تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

إذاً الجنُّ:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: من الآية 27)

فكل القصص التي تقول: رأينا الجن أقزاماً صغيرة تتحرّك، هذا كله لا أساس له من الصحّة.

والشيء الثاني: أن الجن لا تعلم الغيب، كائنات خلقها الله عزّ وجل، لا نعلم عنها إلا ما أخبرنا الله به من خلال سورة الجن، الذي ورد في القرآن هو الصحيح، وهو الحق، لكنهم لا يعلمون الغيب، ولا يملكون لنا ضراً ولا نفعا..

خاتمة:

(وَإِمّا يَنزَغَنّكَ مِنْ الشّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللّهِ إنّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(200)إنّ الّذِينَ اتّقَوْا إذَا مَسّهُمْ طائِفٌ مِنْ الشّيْطانِ تَذَكّرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(201))

(سورة الأعراف)

(قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2))

(سورة الفلق)

انتهى الأمر، علاقة الإنسان مع الجن أنه إذا استعاذ بالله وقاه الله شرّهم..

(وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأمْرُ إنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إلا أنْ دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أنْفُسَكُمْ مَا أنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إنّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 23)

فالآيات واضحة جداً.

إذاً:

(فَلَمّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

النبي يموت، قضى عليه الموت، وهو متكئٌ على عصاه، ما دلّهم على موته إلا بعد حين، أيضاً تفصيلات، كم سنة يا ترى ؟ عشر سنوات ؟ أكثر وأقل ؟ نحن ما كلّفنا الله عزّ وجل أن نبحث بالتفاصيل، ما دلّهم على موته..

(إِلّا دَابّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ)

فلمّا أكلت دابة الأرض منسأته، وكُسِرَت هذه العصا، وخرّ سليمان عليه السلام على الأرض بعد أن مات من قبل، الآن:

(تَبَيّنَتِ الْجِنّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(14))

وفي الدرس القادم عندنا قصّة سبأ، وفي هذه القصّة مواعظ كثيرة، وحقائق جُلّى، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفِّقنا إن شاء تعالى إلى شرحها وتفصيلها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (05-10): تفسير الآيات 15 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الخامس من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية الخامسة عشرة:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(15)فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(16)ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(17))

القصة القرآنية للمغزى والعبر لا للأحداث والأشخاص:

أيها الإخوة الأكارم... يجب أن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى إذا أورد في قرآنه الكريم قصةً، فأصحاب القصة ماتوا، ورحلوا، وخُتِمَ عملهم، ولا يعنيهم من قصتهم شيء، ولكن هذه القِصَص تعنينا نحن بالذات، هذه القصص تعني قارئ القرآن الحي، لأن الميت خُتِمَ عمله، وانقضى أجله، وتحول إلى مكانةٍ عند الله عزّ وجل، إما في جنةٍ يدوم نعيمها أو في نارٍ لا ينفد عذابها، وربنا سبحانه وتعالى ذكر هذا المعنى فقال:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ)

(سورة البقرة: من الآية 141)

مضوا، وماتوا..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(141))

(سورة البقرة: من الآية 141)

فهذه المقدمة أردت من خلالها أن قارئ القرآن إذا قرأ قصة في القرآن لا ينبغي أن يتوهم أنه يقرأ تاريخاً، ولا سجلاً لأعمال السابقين، ليس هذا من شأن القُرآن، وليس هذا من أهداف القرآن العظيمة، إنه كتاب هدايةٍ ورشاد، كتاب إنقاذٍ لهذا الإنسان، ماذا يعنيني أن قوم سبأ كانوا في بحبوحةٍ، ثم جاءهم سيل عرم، إلا أن أستنبط من هذه القصة حقيقةً أكتشف بها سر وجودي.

إذاً قبل أن نمضي في شرح هذه القصة، الذي أتمناه على كل قارئ قرآن، على كل من يحضُر مجالس العلم، إذا قرأ قصةً عن قومٍ من الأقوام السالفة فلا ينبغي أن يتوهم أنه يقرأ التاريخ، لا..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

فالإنسان الموفّق في حياته لا يعنيه شيءٌ وقع فيما مضى، ولا يعنيه أن يبحث في مستقبلٍ بعيد سيصل إليه، ولا يعنيه أن تُفَتَّتَ جهوده في معارف جانبية، الإنسان الموفق، العاقل، الكَيّس، الفَطِن، المفلح، هو الذي يضع هدفاً عظيماً أمام عينيه، ويسعى للوصول إليه، دون أن يلتفت لا إلى معركةٍ وراء ظهره، ولا إلى خصومةٍ جانبية، ولا إلى غيبٍ غُيّبَ عنه، فإنّ هذا يستهلكه، وهذا يستهلك طاقاته، وهذا يبعثر جهوده، فنحن إذا قرأنا قصة سبأ لا يعنينا قوم سبأ، ولا كيف كانوا في بحبوحة، ولكن يعنينا أن نستنبط، وسوف أؤكد لكم أن قوم سبأ تجدونهم دائماً بين أظهركم، فيما حولنا.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

(سورة النحل: من الآية 112)

في حياتنا أقوام فسقوا، وفجروا، وانحرفوا، وسقطوا في المعاصي والموبقات، دَمَّرَهُم الله وشتتهم، وأهلكهم، وأفقرهم، وأخافهم، ليست القصةٍ أن نقرأ تاريخاً، القصة أن نستنبط حقائق تلقي ضوءاً على حياتنا، وتكون لنا عبرة وموعظة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ

في قراءة مساكِنِهم.

1 ـ معنى آية ومدلولها:

معنى آية أي علامة، دليل، ما الدليل ؟ من الذي أنزل الأمطار ؟ الله رب العالمين، من الذي جعل الجفاف فيما مضى مخيفاً ؟ الله رب العالمين، من الذي أغدق علينا نعمة الأمطار ؟ الله رب العالمين، من الذي أنبت الزرع ؟ الله رب العالمين، من الذي أدَرّ الضرع ؟ الله رب العالمين.

2 ـ المؤمن يرى المنعِم، والكافر يرى النعمة:

إذاً: حينما ترى بلاداً رخيّة، سخية، فيها نباتٌ، فيها أشجار مثمرة، فيها محاصيل، فيها خيرات كثيرة، يجب أن تعلم أن هذا من عند الله عزّ وجل، أيضاً حينما تؤوّل المظاهر الطبيعية تأويلاً مادياً أرضياً فأنت لا تعرف الله، الفرق كبير بين أهل الشرك والكفر وأهل الإيمان، أهل الكفر والشرك لا يرون إلا النعمة، بينما المؤمنون يرون المنعم.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

فأهل الدنيا يعلمون دقائق الأمور، يعلمون من أين تؤكل الكَتِف ؟ يعلمون مباهج الدنيا ومسرتها، يعلمون دقائق الجمال فيها، يعلمون كيف يسعدون بها، هؤلاء يعلمونها، ولكن غاب عنهم المنعم، وكفروا بالمنعم، آمنوا بالنعمة وكفروا بالمنعم ؛ لكن المؤمنين يرون المنعم من خلال النِعَم، فهؤلاء قوم سبأ حباهم الله بأراضٍ خصبة، فيها جنانٌ وأشجار، وفيها ثمراتٌ، وينابيع، وفيها أنهار، في آية أخرى ربنا عزّ وجل خاطب قوم سبأ من خلال نبيهم فقال:

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود: من الآية 84)

3 ـ وفرة النعم استقرار للعباد، ودفع للأحقاد:

فالعلماء فسروا كلمة: الخير بوفرة المواد ورخص الأسعار، المواد متوافرة والأسعار معتدلة، وسيدنا عمر كان إذا قدم عليه الوالي أول سؤالٍ يطرحه عليه: " كيف الأسعار عندكم ؟ "، فكلما انخفضت الأسعار عاش الناس في بحبوحة، واتسعت رقعة المستهلكين، وعَمّ الرخاء، وأصبح المال متداولاً بين كل الناس، أما إذا ارتفعت الأسعار ضاقت دائرة المستهلكين، وأصبح المال دولة بين الأغنياء منكم، وصار المجتمع طبقتين، طبقة مسرفة غارقة في الترف والنعيم، وطبقة فقيرةً لا تلوي على شيء، عندئذٍ تنشأ المشكلات، وتنشأ الأحقاد، وحينما قال الله عزّ وجل:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

(سورة التوبة: من الآية 103)

قال العلماء: تطهر الغني من مرض الشُح، وتطهر الفقير من مرض الحقد، تطهر المال من تعلق حق الآخرين به.

إذاً:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ)

أي علامة دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، على كرم الله عزّ وجل، على الخيرات التي أغدقها الله عليهم، والإنسان في أية لحظةٍ إذا آتاه الله مالاً، أو حباه بصحة، أو أنعم عليه بأهلٍ، أو مأوى، في أية لحظةٍ يرد هذا إلى ذكائه، وإلى خبرته، وإلى دأبه، فهو مشركٌ جاهل، لذلك:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ)

4 ـ الله هو المعطي وهو المانع:

أي دليل على عظمة الله عزّ وجل، وحينما دمّرهم الله بالسيل كان ذلك أيضاً آية على أن ربك بالمرصاد، ربنا يُعطي ويمنع، يبسط ويقبض، يضر وينفع، يعز ويذل.

إذاً هذه آية، حباهم بالخيرات آية، سلبهم إيّاها آية، وكل إنسان في بحبوحة وفي نعمة ليعلم أن الله عزّ وجل كما تجلّت قدرته في إغنائه تتجلى أحياناً قدرته في إفقاره، كما يعطي يأخذ، وكما يرفع يخفض، وكما يُعِز يذل، وكما يضحك يبكي، يبكيه وهو الرجل، فأنت في قبضة الله عزّ وجل، في أية لحظةٍ الله سبحانه وتعالى يمكن أن يجعل من حياتك جحيماً، فآية، الآية حينما يعطي، الآية حينما يأخذ، الآية حينما يُعِز، والآية حينما يذل، الآية حينما يبسط، والآية حينما يقبض، ما هذه الآية ؟ قال:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ)

جَنَّتَانِ

الجنة المقصود بها بساتين مليئة بالأشجار المثمرة، بالمياه العذبة، بالأزهار الفوّاحة، كلكم يعلم جمال الطبيعة حينما تكون متألقة، أرضًا خصبةً، ماء عذبا، جنات وعيونا، زروعا ومقاما كريما، هذه كلُّها مما تسعد الإنسان، عزّ وجل قال:

(حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)

(سورة النمل: من الآية 60)

فأحياناً الحدائق والبساتين، والأرض الخضراء المتألِّقة، هذه تبعث البهجة في النفس، لذلك هناك أناسٌ يحبون النباتات، النبات مخلوق جميل صافٍ يبعث في النفس الراحة، قال:

(جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ)

يبدو أن الأنهار تخترق هذه الجبال، عن يمينٍ جناتٍ وارفة، الظلال، يانعة الثمار، شامخة الفروع، بينها الأنهار تجري، وعن شمالٍ أيضاً جناتٍ مثلها.

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ)

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ

الرزقُ رزقُ اللهِ:

الرزق أضيف إلى الله عزّ وجل، هذا رزق الله عزّ وجل.

مرةً ثانية: حينما يوضع الطعام على المائدة، قد يقول صاحب البيت: هذا الطعام اشتريته من محل كذا، وهذا الطعام اخترته من مكان كذا، حينما يرى أن هذا الطعام جلبه بماله الذي حصّله بتعبه وجده فقد وقع في الشرك، الطعام الذي يوضع على المائدة هو رزق الله عزّ وجل.

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ)

لذلك الإنسان دائماً يتأدّب مع الله، إذا أكل يسمّي، لماذا يسمي الله ؟ إشعاراً بأن هذا الطعام هو مِن نعم الله عزّ وجل، وتذكيراً بتطبيق السنة في تناول الطعام والشراب.

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ)

وَاشْكُرُوا لَهُ

كما قلت في دروسٍ سابقة: الله عزّ وجل سخر للإنسان الكون تسخير تعريف وتسخير تكريم، ردُّ الفعل على تسخير التكريم هو أن تشكره شكراً حقيقياً، وكيف تشكره ؟

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ: من الآية 13)

كيف تشكر الله عزوجل ؟

إذا استخدمت عينك في النظر في آلاء الله فقد شكرت الله على نعمة هذه العين، أدق معاني الشكر أن تستخدم ما أعطاك الله إياه فيما أوجبه عليك، العين تنظر بها إلى آيات الله الدالة على عظمته، والأذن تستمع بها إلى الحق يُتلى عليك، واللسان تذكر الله به، واليد تُغْدِقُ بها على الآخرين مما أفاء الله عليك، والقدم تتقدم بها إلى بيوت الله عزّ وجل، إذا استخدمت أعضاءك، وجوارحك، وحواسّك، ووقتك، وفراغك، وصحتك، وقوتك، ومالك، وجاهك، وخبرتك في الحق، وفيما يرضي الله عزّ وجل فقد شكرت المُنعم، هذا معنى..

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

يجب أن تستخدم نعم الله عزّ وجل فيما أوجب الله عليك.

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ

1 ـ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ

معنى بلدةٌ طيبةٌ أي طيبةٌ تربتها، طيبةٌ زروعها، طيبٌ ماؤها، طيبٌ هواؤها، بلد طيب، ويقابل البلدة الطيبة بلدةٌ ملوثة، هواؤها ملوث، مياهها ملوثة، العلاقات الاجتماعية ملوثة، أخلاق أهلها ملوثة، تكاد تكون مشكلة التلوث، أكبر مشكلةٍ تعاني منها المجتمعات المعاصرة، بلد ملوث، نسب التلوث عالية جداً، صارت نسب وبائية، الضجيج تلوث، لا تعرف قيمة السكينة والراحة إلا إذا غادرت المدينة، تشعر بمعنى السكينة، معنى الهدوء، معنى راحة الأعصاب، تلوث من حيث الضجيج، تلوث في الهواء، ترى سحابةً قاتمةً فوق المُدن الكبرى، هذه السحابة كلها غاز فحم، أمراض كثيرة تسببها هذه الأجواء الملوثة، المياه ملوثة، قد نسقي خضراواتنا بمياهٍ ملوثة، قد تتسرب بعض المواد السامة إلى أوراق النبات، ونطعمها للحيوانات، ونأكل لحومها.

إذاً: الله عزّ وجل عاقب أهل الدنيا في آخر عصورهم بالتلوث، تلوثهم الأخلاقي سبَّبَ تلوث بيئتهم، وهناك بلدةٌ طيبةٌ، بلد طيب، ترابها طيب، مياهها عذبة، هواؤها نقي، ثمارها طيبة يانعة، الآن تجد فاكهة ذات مظهر فيزيائي عالٍ جداً، حجم كبير، لون متألق، ولكن لا طعم لها، أما الفاكهة التي صممها الله عزّ وجل، والتي تنبت بإذن ربها لها طعمٌ طيبٌ أخّاذ، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور.

2 ـ وَرَبٌّ غَفُورٌ

إن الإنسان إذا وقع في خطأٍ غير مقصود فإن الله غفورٌ رحيم، إذا وقع في مشكلةٍ، واستغفر الله عزّ وجل يجد الله تواباً رحيماً، فالله عزّ وجل جعل المغفرة صمام أمان، لو فرضنا الله عزّ وجل لم يكن غفوراً، لا يغفر، إذا وقع الإنسان في ذنب انتهى، مع الإنسان لا يرحم، فقد تخالف مادةً في قانون فلا يرحمك أحد، يقول لك: فلان انتهى بسبب غلطة، تكلّم كلمة فانتهى بها، خالف بعض القواعد فانتهى بها، لكن ربنا عزّ جل واسع المغفرة، لو وقعت في خطأٍ فباب التوبة مفتوح، وباب المغفرة مفتوح. إذاً:

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

وهذا من نعم الله عزّ وجل.

3 ـ الله يَسترضى:

بالمناسبة ربنا عزّ وجل يُسْتَرْضَى، أحياناً لا تستطيع أن تسترضي إنساناً، ترى أن الطريق مغلق، والباب موصد، قلبٌ قاسٍ كالحجر الأصم، لكن الله جل في علاه يُسترضى، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، ربنا حل وعلا يسترضى بالصدقة، وباكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطّاها، فالإنسان إذا وقع في مشكلة، لاحت له شبح مصيبة، خاف من مرضٍ عُضال، شعر أن علاقاته سيئة مع مَن هم فوقه، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قد يسترضي الله عزّ وجل بعملٍ صالحٍ..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)

معنى: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

من بعض تفسيرات هذه الآية:

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

هو يظن أن الله لا ينصره، وأن الله لن يوفقه، ولن يعطيه شيئاً، ولن يكرمه، ولن يزوجه، ولن يؤمِّن له عملاً يقتات منه، وأن الدنيا كلها ضده، وأن الأمور تجري بعكس مراده، من كان يظن هذا الظن قال:

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

يعمل عملاً صالحاً:

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ)

كل منكر، ثم لينظر..

(هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

(سورة الحج: من الآية 15)

كيف أن الأمور تتبدل، الأمور تتيسر، العقبات تزول، الأهداف تتحقق، الله عزّ وجل يوفق، يكافئ، يُلهم، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

الله يُسترضى لكن الإنسان لا يسترضى، يسترضى بالصدقة، بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطّاها، يسترضى بالعمل الصالح، يُسترضى بالحسنات، يسترضى بخدمة الخلق يسترضى بإنفاق الأموال.

الآن دخلنا في عقدة القصة، العقدة:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

هذه مقدمة القصة، أما العقدة:

(فَأَعْرَضُوا)

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ

1 ـ فَأَعْرَضُوا

أعرضوا عن الله، جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم، لم يعبؤوا بأمر الله، لم يعبؤوا بوعده، قال:

(فَأَعْرَضُوا)

أعرضوا عن ذكر الله، أعرضوا عن الحق، أعرضوا عن أوامر الله و نواهيه، ما بالوا بها، المؤمن إذا وقع في مخالفةٍ يرى أن جبلاً جاثماً على صدره ؛ لكن الفاسق والمنافق إذا وقع في مخالفةٍ كأنها ذبابةٌ أبعدها عن وجهه.

ويا أيها الإخوة الأكارم... إن كل المشكلات التي نعاني منها هي في حقيقتها أعراضٌ لمرض واحد، هي أعراض الإعراض، الإنسان مقبل أو مدبر، متصل، معرض، محسن مسيء، مؤمن كافر، اختر لنفسك أحدهما، فهؤلاء أعرضوا ؛ تركوا دينهم، وتركوا طاعة ربهم، وتركوا أوامر نبيهم، وتركوا شكر مولاهم، وانغمسوا في حمأة الدنيا، وانغمسوا في حظوظهم الخسيسة، وشهواتهم المنحطة، ومالوا إلى الدنيا، ولم يذكروا ربهم عزّ وجل فأعرضوا.

2 ـ كل بلدة أعرضت يكون مصيرها مصير سبأ:

فلذلك أية بلدةٍ حتى في هذا العصر، إذا كانت في بحبوحة ؛ دخل كبير، تجارة حرة، أموال طائلة، بيوت فخمة، مركبات فارهة، مُتَنَزّهات جميلة جداً، طعام طيّب، طمأنينة، راحة، هذه البلدة إذا أعرضت عن الله عزّ وجل، وانغمست في الشهوات والمعاصي، قد يأتيها البلاء من حيث لا تدري، قد يأتيها البلاء دُفعةً واحدة، فجأة، قال:

(فَأَعْرَضُوا)

والله عزّ وجل كل قومٍ يأتيهم ببلاءٍ من نوعٍ خاص، تارةً يقول لك: زلزال، تارةً، فيضان، تارةً غزو مفاجئ، وهذه كلها علاجات إلهية، أما قوم سبأ كان علاجهم عند الله عزّ وجل سَدٌّ عظيم، هذا السد جدارٌ

عظيم بين جبلين يحجز الماء، ويستخدمون هذا الماء طوال العام، هذا السد أصابه عطبٌ، فغمرهم وغمر بيوتهم ومساكنهم، وجرف مزروعاتهم وجعلهم مِزَقًا لا يلوون على شيءٍ.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

3 ـ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ

أيها الإخوة دققوا:

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

لكن، إذا أرسل على قومٍ زلزالٌ، فكأن منطوق الخبر: أعرضوا، فأرسلنا عليهم زلزالاً، أعرضوا فأرسلنا عليهم فيضاناً، أعرضوا ففجرنا عليهم بركاناً، أعرضوا فبلوناهم ببأس بعضهم بعضاً، ألم يقل الله عزّ وجل:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

هذه الصواعق أو الصواريخ..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الزلازل والانفجارات..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

هذا الغزو، فإما من تحت أرجلنا، وإما من فوقنا، وإما من جيراننا.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

السيل العَرِم، السيل الخطير، تقول: صبيٌّ عارم أي طائش شرس.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

فشتتهم، ودمر بيوتهم، مزارعهم، أشجارهم، مزروعاتهم، جعلهم يهيمون على وجوههم في الآفاق، أين جنّاتهم ؟ أين بيوتهم ؟ أين استقرارهم ؟ أين حظوظهم ؟ أين ثرواتهم الطائلة ؟ أين محاصيلهم الغالية ؟ أين هذا كله ؟.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)

ولكن دعنا من قوم سبأ ولنلتفت لأنفسنا، إذا أعرض الإنسان يسوق الله له بعض المصائب، أعرض فأرسل الله عليه مرضاً، أو حادثاً، أو فقراً، أو فقد حريةٍ، أو إهانةً، أو بلاءً، أو مرضاً.

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

4 - وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ

قال: بجنتيهم جنتين.. الجنتان التاليتان ليستا جنتين ؛ ولكنهما سميتا جنتين للمشاكلة.. أي:

(جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

طعم مُر، أحياناً بعض الخيار تجده مر الطعم، بعض الفواكه مُرَّة، فما قولك إذا كانت كل هذه الثمرات مرة ؟.

(ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

هذه التفاحة حينما تأكلها، هل انتبهت إلى الله عزّ وجل كيف وفّقَ بين أن قوامها يناسب أسنانك، وبين أن شكلها يُمتع عينيك، وبين أن رائحتها تمتع جهاز الشم عندك، وبين أن طعمها عذبٌ حلو المذاق، وبين أن فيها مواد مفيدة لك، كل هذا مجموعٌ في آنٍ واحد، المواد مفيدة، الطعم طيّب، الرائحة عَطِرَة، الشكل جذّاب، القوام ليّن، الله عزّ وجل قادر أن يجعل الطعام المفيد بطعمٍ مُر، أو الطعم الحلو بمادةٍ مؤذية، أو الطعم الحلو والمادة نافعة لكن القوام صخري، يصعب أن تأكله، فكيف وفق الله عزّ وجل بين القوام والطعم والرائحة والمواد النافعة، واللون والشكل والحجم كله مناسب ؟

انظر إلى الفاكهة، حجمها، وطريقة تغليفها، الدُرَاق له طريقة، التفاح له طريقة، البطيخ لها طريقة، كل فاكهة لها طريقةٌ في التغليف، ولها طريقةٌ في قطفها، ولها حجمٌ مناسب، ولها شكلٌ مناسب، ولها طعمٌ مناسب، ولها لونٌ مناسب، ولها قوام مناسب، وفيها مكونات غذائية مناسبة لهذا الإنسان، فربنا عزّ وجل أيضاً من آياته الدالة على عظمته جعل طعم الفاكهة..

(ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ)

طعم مر، تمجُّه الأفواه..

(وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

5 - وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

فنبات السدر له بعض الثمار قليلة جداً، وكلكم يعلم أنه إذا قل الثمر ارتفع الثمن، الكيلو بسبعين، معناها أن الإنتاج قليل، فإذا قل الثمن، ما معنى قولنا الله هو المُسَعِّر ؟ أي إذا جعل هذه الخيرات كثيرة رخص سعرها، فإذا قلت ارتفع ثمنها، فالسدر قليل، والأثل نبات لا جدوى منه، نبات رعوي، والسدر بعضه بري وبعضه غير بري، فغير البري مفيد، لكن نباته قليل، قال:

(وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)

الآن دققوا في هذه التعقيب، قال:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا)

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا

هذا جزاء كفرهم، فالفسق له جزاء، الكفر له جزاء، الشرك له جزاء، النفاق له جزاء، الانحراف عن طريق الحق له جزاء، عدم الائتمار بأمر الله له جزاء، عدم الانتهاء عما عنه نهى وأمر له جزاء، الاختلاط له جزاء، تحديق النظر في النساء له جزاء، الغش في البيع له جزاء، المماطلة في تسليم البضاعة، وقد قبضت الثمن كاملاً له جزاء، التدليس له جزاء، التعدّي على حقوق الآخرين له جزاء، الإيهام له جزاء، الغَبن له جزاء.

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ

1 ـ كيف يعامِل الله الكافر والمؤمن ؟

ألم تهزكم هذه الآية ؟ أي يا عبادي هل رأيتموني دمّرت إلا كافراً ؟ إنسان مستقيم، طاهر، ماله حلال، محب لله عزّ وجل، يخدم الناس ليقربهم إلى الله، كيف أعامله ؟ يجب أن يؤمن أن الله عزّ وجل حينما قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

هل تظن أن الله سيعامل المؤمن، المستقيم، الطاهر، الورع، النقي، التقي، الذي يخاف الله، كل حياته نظيفة، كل علاقاته نظيفة، كل نشاطه هادف، كل أعماله طيبة، كل إنفاقه بالحق، كل كسب ماله بالحق، هذا يعامل كما يعامل فاسقٌ، فاجر، ماله حرام، إنفاقه حرام، منحرف العقيدة، أهكذا تظن الله عزّ وجل ؟ هذا سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، لذلك أكبر ذنبٍ تفعله أن تقول على الله ما لا تعلم، أو أن تسئ الظن بالله.

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

الحقيقة لكي نتوازن، الدنيا وحدها لا تكفي، الله عزّ وجل أبى أن يجعلها ثواباً للطائعين وعقاباً للمنحرفين، لكن العبرة الأمور بخواتيمها، الأمور متعلِّقة فيما بعد الموت، الأمور متعلقة بالخلود في جنةٍ أو في نارٍ أبديتين، لذلك:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

معناها الشكور له معاملة خاصة، الشكور له عند الله مكانة علية، الشكور محفوظ، الشكور مكرّم، الشكور منصور، الشكور مقرّب، الشكور موفّق، الشكور معتنى به..

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

2 ـ كن شكوراً ولا تكن كفوراً:

إذاً: كن شكوراً ولا تكن كفوراً، إن كنت شكوراً يجزك الله ولا تجازى، المؤمن يجزيه الله عزّ وجل ولا يجازى، هؤلاء القوم، قال:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً

1 ـ حظوظ الدنيا حيادية بحسب الاستعمال:

هذه الآية دقيقة جداً، فبلادهم الشاسعة من نعم الله عليهم التي ما عرفوا قيمتها، ودائماً وأبداً اسمعوا هذه المقولة: إذا جاءك المال، والصحة، وإذا جاءك الولد، أنعمة ما جاءك أو نقمة ؟ الحقيقة لا نعمة ولا نقمة، ولكن ابتلاء، إذا أنفقته فيما يرضي الله أصبح نعمة، أما إذا أنفقته فيما يغضب الله أصبح نقمة، فالمال نقمة إذا أنفقته على الملاهي، أنفقته سرفاً وترفاً وكبرياءً وغطرسة، أما إذا أنفقه للفقراء والمساكين والمحتاجين، وفي سبيل الحق، ولإعلاء كلمة الحق، انقلب المال إلى نعمة عظيمة.

فالصحة، إذا استخدمت هذه الصحة في المخالفات والمعاصي، أصبحت هذه الصحة نقمة عليك، والمرض عندئذٍ أفضل منها، أما إذا أنفقتها في طاعة الله، وفي طلب العلم، وفي خدمة الخلق، وفي معرفة الله، هذه الصحة نعمة، فأنا لا أقول أبداً لشيءٍ من حظوظ الدنيا: نعمة ولا نقمة، أقول: هو ابتلاء، يصبح نعمة إذا أنفقته في طاعة الله، ويصبح نقمة إذا أنفقته في معصية الله.

كل شيء حيادي، هذه المركبة حيادية، نعمة ؟ والله إذا تنقّلت بها من بيتك إلى المسجد، واستخدمتها في طاعة الله، وحللت بعض مشكلات الناس، ولبّيْتَ بها حاجة المستغيث في الليل، وأدخلت على قلب أهلك السرور أحياناً بها، فهذه نعمة، فإذا استخدمتها لأمورٍ أخرى يستحيا من ذكرها هذه نقمة.

أحياناً الله عزّ وجل يهب الإنسان شكلاً جميلاً، فإذا كلما نظر في المرآة قال: الحمد لله، يا رب كما حَسَّنْتَ خَلقي فحسن خُلقي، وغض بصره عن محارم الله، وعزل أذنه عما يغضب الله عزّ وجل، فهذا الشكل الجميل من نعم الله ؛ لكن إذا أغوى به النساء، وجال في أسواقٍ تكثر فيها النساء، ووزع البسمات هنا وهناك، هذا الشكل الجميل صار نقمة، أي شيءٍ موقوفٌ على طبيعة استهلاكه، إما أن يغدو نعمةً، وإما أن يغدو نقمةً، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

2 ـ اتصال البنيان نعمة:

بعض البلدان الراقية بمقياس العصر، راقية ليس عند الله، راقية بمقياس العصر، بمقياس الحضارة، اتصل بنيانها، كل بضعة أمتار فيلا، وفيها ماء وكهرباء، وحدائق ومحلات تجارية، وخدمات عامة، لا تحس بوحشة أبداً، أينما تحركت بالهواتف والكهرباء والمطاعم والخدمات الراقية، فالعمران حينما يتصل يَعُمّ الأمن، قطع طريق في الليل موحش لا توجد نجدة، لا توجد خدمات، لا يوجد مراكز راحة، شيء متعب، فربنا عزّ وجل أشار إلى نعمةٍ نَعِمَ بها هؤلاء قوم سبأ، قال:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

لا تغيب عن العين علامات هذه القرى.

مثلاً: من باب التقريب من مدينة مضايا إلى بقين، من بقين لحاليا، من حاليا للجرجانية، من الجرجانية للزبداني، وكله بنيان متصل، وفي البلدان المجاورة البنيان مُتَّصل، لا توجد وحشة دائماً، الماء، والكهرباء، والخطوط، والهواتف، والطرق المعبدة، والمحلات التجارية، والبريد والبرق، كل شيء موجود، هذا معنى الآية الكريمة:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)

3 ـ وَقَدّرْنَا فِيهَا السّيْرَ

المسافر لا يحتاج إلى زاد، إذا تناول طعاما الصباح في بيته، تناول طعام الظهيرة في القرية التي تليها، وطعام العشاء في قرية ثانية، ونام في قرية ثالثة، أينما تحرك القرى كلها عامرة، والطعام متوافر، والطرق ظلها ظليل، هذه:

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدّرْنَا فِيهَا السّيْرَ)

هذه من دلائل عظمة الله عزّ وجل، أكرمهم، وأمدهم بهذه الأمطار والبساتين، والقرى الظاهرة، قال:

(وَقَدّرْنَا فِيهَا السّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيّامًا آَمِنِينَ)

4 ـ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيّامًا آَمِنِينَ

نعمة الأمن، أحياناً الإنسان يخاف أن يسافر في الليل، يخاف أن يترك مركبته في مكان فارغ حتى لا تسرق.

(وَقَدّرْنَا فِيهَا السّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيّامًا آَمِنِينَ (18) فَقَالُوا)

هنا..

(فَقَالُوا رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

فَقَالُوا رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

الحقيقة هل من المعقول أن يقولوا هذا الكلام ؟! أيعقل أن يكون قومٌ في بحبوحةٍ، وفي غنى، وفي عمار متصل، وفي خدمات، وفي أمطار غزيرة، وفي بساتين، وأن يقولوا بألسنتهم:

(فَقَالُوا رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

1 ـ لسان حالهم: رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

قال: لا، فهذا لسان حالهم، وليس هذا لسان قالِهم، حينما عصوا ربهم فكأنهم ينتظرون من الله أن يشتتوا، وأن يمزّقوا، وأن يدَمّروا، إذاً الآن استبدلوا، إذا كنت في بحبوحة ؛ بيت، ودخل، ومكانة، وأردت أن تنظر إلى غير ما أحل لك، أردت أن تعتدي على أعراض الآخرين، أردت أن تأكل أموالهم بالباطل، أردت أن تفعل شيئا لا يرضي الله فكأنك تقول: يا رب دمرني، أنا أستحق الدمار، يا رب أتلف

مالي، يا رب أذهب صحتي، يا رب شتت شملي، فالعاصي كأنه يقول هذا، أروع ما في التفسير، أنهم حينما قالوا:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

قال: ليس هذا قول لسانهم ؛ ولكن هذا لسان حالهم، أي أن كل إنسان يعصي الله كأنه يخاطب الله ويقول: يا رب دمرني، يا رب أزهق مالي، يا رب شتت شملي، يا رب لا توفقني، يا رب أرسل لي المصائب.

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

2 ـ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

العاصي ظالم لنفسه:

الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل يظلم نفسه، فما من ظلمٍ أشد من ظلم النفس.

(وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

ربنا عزّ وجل لخّص ما فعله بهم، قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

قصة سبأ صارت قصة لها عبرة: فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

صاروا قصة، أحياناً يقول: فلان أكل من مال حرام، وآخر حلف يمين غموس، خرج من عند القاضي، بعد مترين وقع مشلولاً، بعد يومين مات، كان فلان ملء السمع والبصر، له قيمة، وكان فلان مرهوب الجانب، فإذا هو بعد يومين أصبح قصة، صار حديثاً، لذلك بعض الأدعية التي قرأتها:

" يا رب لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك ".

ألا أكون قصة يتعظ الناس بها، يقولون: فلان أكل مالاً حراماً فدمره الله، فلان اعتدى على أعراض الناس ففضح في عقر داره، جاءت الشرطة إلى بيته، وزوجته داعرة، أخطر شيء في الإنسان أن يصير هو نفسه قصة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

الأقوام السابقة أصبحت أحاديث، وآثارها تخبرك عنها، آثار تدمر، آثار الأنباط، هنا التدمريون، وهناك قوم عاد، وثمود، وقوم تُبّع.

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

لذلك الدعاء.

" يا رب لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من خلقك ".

صار حديثاً، الآن كل إنسان إذا زلت قدمه، أو فضحت ابنته بعدما أهمل تربيتها، فهربت مع شخص فرضاً، وهذا الشخص فاسق فاجر، دلّها على عمل ساقط، صارت قصته تروى في المجالس عند الأقرباء.

فالإنسان يأخذ حيطته، ويضبط أموره، ويستعين بربه، ويطبق شرع الله عزّ وجل، حتى لا يكون عبرة وموعظة، ولكن قصته عطرة، تتعطر بها المجالس، فلان ما شاء الله، استقام على أمر الله فأكرمه الله ووفقه الله، ورزقه زوجةً صالحةً وأولاداً أبراراً، فالإنسان يجهد أن يكون حديثه عطراً بين الناس بطاعته لله، أما إذا عصى الله عزّ وجل يصبح حديثه قصةً يُتَّعَظُ بها في المجالس.

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

دمروا، وشتتوا، وتفرّقوا، وتشعّبوا، وتشرذموا.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

إذاً حينما قالوا:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

ليس هذا قول ألسنتهم، هذا لسان حالهم، أي معاصيهم، كأنهم بمعاصيهم يقولون: ربنا مَزّقنا، ربنا شرّدنا، ربنا أذهب مالنا، وكل إنسان يعصي الله وهو في بحبوحة، كأنه يقول: يا رب دمرني، يا رب أزهق روحي، يا رب افعل بي كذا وكذا، هذا لسان الحال.

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ

1 ـ إبليس عدو المؤمنين اللدود:

عدوك اللدود وهو إبليس، أنت إما أن تخيّب ظنه وإما أن تصدق ظنه، فإذا أطعت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، وأنفقت مالك في سبيله فقد خيّبت ظن إبليس، والمؤمن دائماً يخيّب ظن إبليس، أما

حينما ينساق الإنسان مع شهواته، وحينما يغويه الشيطان، وحينما يستسلم له، وحينما يأكل أموال الناس بالباطل، وحينما يعتدي على أعراض الآخرين، وحينما يستعلي، لقد صدق عليه إبليس ظنه.

2 ـ احذرْ أن يصدق عليك إبليس ظنه

فاحذر أيها الأخ الكريم أن يصدق عليك إبليس ظنه، خيّب ظن إبليس بطاعة الله عزّ وجل، اجعله يخسأ، اجعله يخزى، إذا استفزك إنسان، إما أن تغضب وتثور، وإما أن تكون حليماً، إذا غضبت صدقت ظن إبليس، فإذا كنت حليماً خيبت ظنه، دعيت إلى عملٍ طيب، إما أن تصدق ظن إبليس فتبخل، وإما أن تخيب ظنه فتعطي، أنت دائماً بين المَوقفين، قوم سبأ:

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

ظن بهم المعصية فعصوا ربهم، ظن بهم الفجور ففجروا، ظن بهم الكفر فكفروا، ظن بهم الكبر فاستكبروا..

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

مرةً ثانية: هؤلاء الذين تحدّث الله عنهم، ماتوا منذ آلاف السنين، ماتوا وأصبحوا أحاديث، وانطفأ ذكرهم، وانقضى أجلهم، وخُتِمَ عملهم، وهم يلقون مصيرهم، نحن دائماً المعنيون في كل هذه القصص، يجب أن نستنبط منها، حقائق، أنك إذا عصيت الله عزّ وجل كأنك تطالبه أن يدمرك.

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

3 ـ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ

هؤلاء المؤمنون خيّبوا ظن إبليس، يا الله.

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ

الشيطان دعاك وأنت استجبت:

الإنسان إذا عصى الله ولعن إبليس فقد أخطأ، يجب أن يلعن نفسه، إبليس ليس له علاقة.

كنت أضرب مثلاً، وذكرته كثيراً: إنسان يرتدي ثياباً جميلة جداً بيضاء في الصيف، متعطر متأنّق، فرأى حفرةً كلها مياهٌ آسنة سوداء، فنزل فيها، وجاء للمخفر يدّعي على رجل، قال له: فلان هو السبب، فجاء المحقق قال له: هو دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال: لا والله ما دفعني، قال: أمسكك ورماك فيها ؟ قال: لا والله، قال: شهر عليك السلاح، وقال لك: انزل فيها ؟ قال: لا والله، ولكنه قال لي: انزل فنزلت، أليس هذا مجنوناً ؟ هكذا يفعل إبليس، لا يملك إلا أن يوسوس فقط، فمن استجاب له فقد ضل سواء السبيل.

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

أبداً..

(وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ)

إِلّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ

ابتلاء.

(وَرَبّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

كل شيء مُسَجّل، كل شيء مكتوب، كل شيء محاسب عنه..

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع تفسير هذه السورة الكريمة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (06-10): تفسير الآيتان 22 - 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-03-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس السادس من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية الثانية والعشرين:

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(22)وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(23))

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

1 ـ التوحيد: القضية الكبرى في الوجود:

يا أيها الإخوة الأكارم، القضيّة الكبرى قضيّة التوحيد، والمصيبة الكبرى مصيبة الشرك، لذلك آيات القرآن الكريم تتحدّث عن الشرك، لأن الدين كلّه توحيد، إذا عرفت أن أمرك كلّه بيد الله، وأن كل الخير في طاعة الله، وأن كل الإخفاق والخسارة في معصيته، لابدّ من أن تطيعه، فلذلك كتاب الله عزّ وجل دائماً يُلِحُّ على قضية التوحيد.

2 ـ التوحيد: القضية الكبرى في الوجود:

في هذه الآية يبين الله عزّ وجل لنا أن هؤلاء الذين زعمتموهم آلهة من دون الله.

أولاً: كلمة زعمتم، الزعم في اللغة للادعاء، للافتراء، للدعوة الباطلة قال الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مَرْبَعَاً أبشـــر بطول سلامةٍ يا مربعُ

***

إذا كذب إنسان، أو افترى، أو توهّم، أو اختلق، يقال: زَعَمَ.

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ)

الشرك الخفي:

هؤلاء الأصنام التي ظننتموها آلهةً من دون الله، ولا أكتمكم أن هناك شركا جليا وقعت فيه العرب قبل الإسلام، عبدوا اللات والعُزّى، والإنسان عندما يعبد شخصاً، ويعتقد أن كل الخير عنده، هذا أيضاً شرك، فالعلماء ـ علماء التوحيد ـ فرّقوا بين الشرك الجلي والشرك الخفي، الشرك الجلي انتهى، ففي أرض الإسلام لن يُعْبَدَ إلا الله، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً، ولا حجراً ـ قضية أن تعبد صنما أو حجراً هذا انتهى، وضع انتهى، لكن بقي الشرك الخفي ـ ولكن شهوةٌ خفيّةٌ وأعمالٌ لغير الله))

((إنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أُمّتِي الإِشْرَاكُ باللّهِ، أَمَا إِنّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

[من سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

أي إما أن تعبد نفسك بمعنى أن تؤثر شهوتك على طاعة ربّك.

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية: من الآية 23)

إما أن تعبد هواك، إما أن تعبد شهوتك وتؤثرها على طاعة الله، وإما أن تعبد غيرك، أنت لا تقول: هو إله، لكن تعامله كما يُعامَل الإله، إذا أمرك بمعصيةٍ تعصي الله من أجله، إذا حملك على انحرافٍ تنحرف إكراماً له، إذا طالبك بباطلٍ تعطيه هذا الباطل إرضاءً له، هذا إذاً إلهٌ تعبده، أنت لم تقل: هو إله، ولكن حينما تنصاع لأمره من دون تفكير، وحينما تعتقد أن الخير كلّه بيده، وأن الشر كلّه بيده فهذا شرك، وهذا شركٌ خفي.

وأقرب الناس إلى الرجل زوجته، إذا أرضاها، وعصى الله عزّ وجل فقد أشرك، إذا ابتغى رضاها على حساب رضاء الله عزّ وجل فقد أشرك، له شريك في التجارة قوي، الشريك تمادى، أكل مالاً حراماً، تعامل تعاملاً ربوياً، فأنت خفت على شراكتك معه فسكت، أنت ماذا فعلت ؟ عبدته من دون الله، رأيت رضاه أثمن عندك من رضاء الله، خفت من سخطه، ولم تخف من سخط الله عزّ وجل، فالإنسان قد يعبُد زوجته وهو لا يدري، وقد يطيع شريكه، ويعصي ربّه وهو لا يدري، فهذا شرك، وقد يؤثر شهوته على طاعة ربه وهو لا يدري، وهذا شرك، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول: إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوةٌ خفيّةٌ وأعمالٌ لغير الله))

[الجامع الصغير عن شداد بن أوس، وفي سنده ضعف]

((إنّ أخْوَفَ مَا أتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الإشْرَاكُ باللّهِ، أمَا إنّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا ولا قمَرًا وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

[من سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

فالمراءاة شرك، المُداهنة شرك، مؤاثرة الهوى على طاعة الله شرك، ففي النهاية أنت تقول: الله أكبر، إذا أطعت مخلوقاً، وعصيت الخالق تأكّد أنك لم تقل هذه الكلمة ولا مرّة، ولو قلتها بلسانك ألف مرّة، لأنك في رؤيتك النفسيّة، وفي قناعتك، وفي تصورك رأيت أن رضاء فلان أكبر عندك من رضاء الله، ورأيت أن سَخَطَ فلان أعظم عندك من سخط الله، هذا هو الشرك، الشرك يتوافق مع المعصية، والطاعة تتوافق مع التوحيد، لذلك شعار المؤمن: **" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق "..**

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين (78)وَالّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين(79)وَإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين (80) وَالّذِي يُمِيتُنِي ثُمّ يُحْيِين(81))

(سورة الشعراء)

وأتمنّى عليكم وأنتم في رمضان إذا قرأتم القرآن أن تستنبطوا، أو أن تستخلصوا من كتابه الكريم آيات التوحيد، اجمعوها في وريقات، آيات التوحيد تبثُّ في القلب الطمأنينة..

آيات قرآنية في التوحيد:

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إلَهٌ وَفِي الأرْضِ إلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَإلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

آيات التوحيد كثيرةً جداً..

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55)إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من الآية 2)

(قُلْ ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ)

ادعوهم، إن زعمت صنماً، أو حجراً، أو شمساً، أو قمراً، أو زعمت شخصاً، أو أهلاً، أو بيتاً، أو زوجة، ادعوا..

(قُلْ ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ)

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرّةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

الآن دقِق في تفاصيل هذه الآية:

(لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرّةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

مِثْقَالَ ذَرّةٍ

ما هي مثقال الذرّة ؟ لا شكّ أن أحدكم إذا أراد أن ينظِف بيته في أيّام الشتاء، وأشعّة الشمس تخترق النوافذ، لا شكّ أنك ترى في هواء الغرفة ذرّةً عالقةً في الهواء، لأنها عالقة في الهواء لا وزن لها، هذه الذرّة العالقة في الهواء التي لا تُرى إلا في أشعّة الشمس، قال: هؤلاء..

(الّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرّةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

هذه المُلكِيّة، لو ادعيت أنه شريك، قال:

(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ

الشركاء لا يملكون شيئا:

لا يملك، الدرجة الثانية بعد المُلك الشريك، تقول: هذا المحل لي، معنى ذلك أنك مالكه، تقول: فروغ أم ملك أم إيجار ؟ يقول لك: لا والله إنه فروغ، أول شيء قال لك: هو لي، شراء أم فروغ ؟ يقول لك: لا، إنه فروغ، معنى هذا أن الرقبة ليست لك، ولكن لك حق المنفعة، وحدك أو معك شريك ؟ معي شريك، نزل درجة ثانية، معنى هذا الشرك درجة من الملكيّة، ولكنها درجة ثانية، قال له:

(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

أي أن هذه الذرّة لا ملكاً ولا شراكة، دقة بالغة جداً، أي أيها الإنسان قبل أن تتجه إلى زيد أو إلى عُبيد، قبل أن تعلِّق الأمل على فلان، قبل أن تلقي بثقلك على زيد، قبل أن تقول: فلان بيده الأمر، قبل أن تقول: فلان ينفعني، ويرفعني، قبل أن تقول: فلان يؤذيني، قبل أن ترى رزقك معلّقاً برضا فلان، قبل أن تسير في هذا الطريق اقرأ كلام الله عزّ وجل، هؤلاء..

(الّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرّةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

لا في السماوات ولا في الأرض، لا بجزء، ولا بذرّة، ليسوا مالكين، وليسوا شركاء.

الملكيّة نوعان: ملكية رقبة، وملكية منفعة، وقد تملك الرقبة والمنفعة، وبيّنت هذا في دروسٍ سابقة، قد تملك بيتاً، ولا تنتفع به، هذه ملكيّة محدودة، وقد تنتفع به ولا تملكه، هذه ملكيّة محدودة، وقد تملكه وتنتفع به، ولكن لا تملك مصيره، يكفي أن يصدر قرار تنظيم، أو قرار استملاك، انتهى، إذاً: الملكيّة الراقية أن تملك الرقبة، وأن تملك الانتفاع، وأن تملك المصير.

ربنا عزّ وجل إذا قال: هو مالك المُلك، فهو مالك الملك خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، هذه ملكيّة الله عزّ وجل، فهؤلاء الشركاء لا يملكون شيئاً، وليسوا شركاء في شيء..

(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ)

لا ملكيّة، ولا شراكة، ولا معاونة، فإذا كان الرجل بمحل تجاري، مثلاً ـ من باب تقريب الحقائق ـ ليس مالكَ الرقبة، وليس مالك المنفعة، وليس شريكاً، ولا موظّفاً، لكن له صداقة لصاحب المحل، لو قلت له: إذا تكلّمت لنا معه هل يساعدنا ؟ قال لك: نعم، قال:

(وَلَا تَنفَعُ الشّفَاعَةُ عِنْدَهُ)

وَلَا تَنفَعُ الشّفَاعَةُ عِنْدَهُ

1 ـ المشركُ أشدُّ الناس حمقًا:

وهؤلاء الشركاء لا يشفعون، ليسوا مالكين، وليسوا شركاء، وليسوا معاونين، ولا يشفعون، وما زلت أيها الإنسان متعلِّقاً بهم ؟! وما زلت واضعاً آمالك عليهم ؟! وما زلت تبتغي رضاهم ؟! وما زلت تعصي الله من أجلهم، وأنت في قبضة الله عزّ وجل، وفي أية لحظةٍ أنت في قبضته ؟!! سبحان الله رب العالمين ! ما رأيت أحمق من المشرك.

أنت لو رأيت إنساناً بحاجة إلى توقيع من دائرة، وفي هذه الدائرة أربع طوابق، وفيها مئتا موظّف، ولهذه الدائرة مدير عام واحد، وبيده وحده حقُّ التوقيع، أليس من السُخْفِ، والغباء، وضيق الأفق، وضعف التفكير، والبلادة، أن تتجه إلى مستخدمٍ في هذه الدائرة، وتقبِّل يده لعلّه يوقِع لك هذه المعاملة، يقول لك: ليس بيدي يا أخي، لو اتجهت إلى عشرات الموظّفين كلّهم لا يستطيعون، إلا المدير العام، أليس من الجهل والغباء أن تبذل ماء وجهك، وأن تظهر مشاعرك الرقيقة، وأن تبذلها رخيصة لشخصٍ لا حول له ولا طول أبداً ؟ لا يقدر.

2 ـ ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد:

لذلك العاقل، والذكي، والفالح، والناجح، والرابح، والفائز، والموفّق، هو الذي يتجه لمن بيده الأمر، يتجه لخالق الكون، يتجه لربِّ العالمين، يتجه للإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، يتّجه لرافع السماء بغير عمد، يتجه لمن يعلم السرّ وأخفى، يتّجه لواجد الوجود، يتجه للذات الكاملة، يتجه للقديم الذي لا أول لقدمه، والذي لا نهاية لنهايته، يتجه لله الواحد القهّار، هذا هو الدين كلّه، الدين كلّه أن تتجه إليه، الدين كلّه أن تعقد الآمال عليه، الدين كلّه أن تتذلّل بين يديه، الدين كلّه أن تحرص على رضاه، الدين كلّه أن تطبّق أمره، هذا هو التوحيد، لذلك ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

3 ـ ملخّص الدين: اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

الإنسان أحياناً يحب التفصيل، وأحياناً يحب التلخيص، أحياناً يحب الكلمات الكثيرة التي تعمِّق المعنى، وأحياناً يحب الكلمات الموجزة، لو أردت الدين كلّه في كلمات..

(اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنين: من الآية 23)

لا يوجد غيره..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

أيها الإخوة الأكارم... أسماء الله الحسنى كثيرة، لكن كلها ملخّصة في ثلاث كلمات، الله موجود، هل أنت أيها المؤمن تحس بوجوده ؟ تحس أن الله موجود ؟ لا تكفي موجود إنه ؛ مطلع، سميع، بصير، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين، أقرب إليك من حبل الوريد، يحول بينك وبين قلبك، الخواطر يعلمها، مشاعرك، طموحاتك، خواطرك، صراعاتك، تمنيّاتك، أحلامك، خططك، تدبيرك كلّه يعلمه، أنت عنده مكشوف.

أتحسُّ بوجوده ؟ ذلك هو الإيمان، أتحسُّ أنه معك ؟ ذلك هو الإيمان ؟ أتحس أنه يراقبك ؟ ذلك هو الإيمان، أتحس أنه عادل لا يظلم الناس شيئاً ؟ ذلك هو الإيمان، أتحس أنه رحيم ؟ ذلك هو الإيمان، يجب أن تؤمن بوجوده، ويجب أن تؤمن بكماله، يا ترى هل هناك إلهٌ ثانٍ ؟ ويجب أن تؤمن بوحدانيّته، بوجوده وبكماله وبوحدانيّته، إن آمنت بوجوده وبكماله ووحدانيّته لابدّ من أن تستقيم على أمره وإلا ففي العقل خلل، إن آمنت بوجوده ووحدانيّته وبكماله فلابدّ من أن تستقيم على أمره، والدليل:

4 ـ هذا مع مخلوق ضعيف فكيف بالخالق العظيم:

إنك إن آمنت أن فلاناً قد أصدر هذا الأمر، وأنه إذا ضبطك مخالفاً له لن يرحمك، وهو قادرٌ على إيقاع أكبر الأذى فيك، ليس مع خالق، ولكن مع إنسان، إنك ستنفِّذ أمره بحذافيره إذا آمنت أن هذا الآمر قوي، ويفعل ما يقول، ولن يسامحك، وإذا آمنت أن إنساناً ما يطولك علمه، وتطولك قدرته، انتهى الأمر. ومثل بسيط جداً: أنت مواطن عادي راكب مركبة، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، والسيارة جاهزة فيها ضابط شرطة، ودراجة نارية، هل تمشي على الضوء الأحمر ؟ هذا مستحيل، أنت مع إنسان قادر على إيقاع الأذى بك، وهو يراك، يراك، وهو قادر، فلا تعصيه، فكيف إذا آمنت أن ربَّ السماوات والأرض يعلم السر وأخفى ؟! القادر، إنه مليون قادر، فكل شيء في جسمك بيده، أنا أقول هذا الكلام لأنني أستمع إلى حالات مؤلمة جداً، فهناك من يضحك، مسرور..

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(9))

(سورة الانشقاق)

يمزح، لو رأى تحليلاً فيه شيء غير طبيعي لانقلب ضحكه بكاء، ولخيّم على البيت جو الحزن، فقضية الصحّة، قلبك بيده، سمعك بيده، إذا ضعف بصر الإنسان أو شعر بغشاوة صار إنساناً آخر، تهمّه عيونه فقط، سمعك بيده، بصرك بيده، لسانك بيده، عقلك بيده، عضلاتك بيده.

أنا أعرف رجلاً حصّل دكتوراه من فرنسا، وتسلّم منصباً رفيعاً جداً بوزارة جيّدة، فقد بصره، زاره صديقي، فقال له: **"والله يا فلان، أتمنّى أن أجلس على الرصيف أتكّفف الناس، وأن لا أملك من الدنيا شيئاً، وأن يردّ الله لي بصري ".**

بصرك بيده، سمعك بيده، دماغك بيده، أعصابك بيده، والإنسان ما دام يتحرّك فهو محبوب، أما إذا استلقى على السرير، وشل، والله الذي لا إله إلا هو أقرب الناس إليه، أحبُّهم إليه يتمنّى موته.

5 ـ اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها:

كيف تعصي الله وأنت في قبضته ؟ كيف تعصي الله وحواسُّك، وأعضاؤك، وعضلاتك، وسمعك، وبصرك، وأهلك، ومن حولك، ومن دونك، ومن فوقك كلهم بيد الله، هذا هو التوحيد، هذا هو الدين، الدين توحيد، الدين أن لا ترى مع الله أحداً، أن لا ترى رازقاً، ولا معيناً، ولا رافعاً، ولا خافضاً، ولا باسطاً، ولا قابضاً، ولا معزاً، ولا مذلاً، ولا رزّاقاً إلا الله عزّ وجل، علاقتك مع واحد، والعلاقة مع الواحد مريحة.

تصوّر موظفاً في شركة فيها ثمانية شركاء، الثمانية مخوّلون أن يعطوه أوامر، هذا قال له: تعال عندي الساعة السابعة إلى البيت، الثاني أعطاه أمراً مُعاكساً، هذا صعب جداً، أما إذا كانت علاقتك مع جهة واحدة فالأمر سهل، لذلك إذا أشرك الإنسان بالله عزّ وجل يتمزّق، إن أرضى زيداً يغضب عبيدا، وإن زار فلاناً يعاتبه فلان، وإن ابتسم بوجه فلان يُتَّهَم، وإن عبس في وجه فلان يُحَاسَب، القضيّة صعبة لذلك:

((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه))

[زيادة الجامع الصغير عن ابن مسعود]

" اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلّها ".

(قُلْ اللَّهُ ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91))

(سورة الأنعام)

عليك أن ترضي الله عزّ وجل وحده، ولا تعبأ بمن سواه..

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ   وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ   وبيني وبين العالمينَ خرابُ

إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ   وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

***

أنت لطيف ولبق، لكن إذا رأيت الله عزّ وجل قد رضي عنك، وقد أحبّك لا تعبأ برضاء الخلق. مرّة جاءت رسالة لسيدنا عمر من أحد الولاة، قال له: " إنّ أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلتُ "، أي اسمح لي أن أعذّبهم، سبحان الله! أجابه إجابة تُكتَب بماء الذهب، قال له: **" يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيّنة، فإن قامت فخذهم بالبيّنة، إن لم تقم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، إن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايم الله لأن ألقى الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم ".**

هناك قصّة قرأتها، لا أنساها، وهي: كان الإمام الحسن البصري جالسا عند والي البصرة، جاء البريد يحمل توجيهاً من الخليفة يزيد بن معاوية، يبدو أن هذا التوجيه لا يوافق كلام الله عزّ وجل، فيه تجاوز، فوقع هذا الوالي في حيرةٍ كبيرة، أيستجيب لهذا الأمر ويعصي الله، أم أن يطيع الله عزّ وجل، ولا يستجيب لهذا الأمر ؟ وقع في صراع، فسأل الإمام الحسن البصري، فأجابه إجابة تُكتَب بماء الذهب، قال له: **" اعلم أن يزيداً لا يمنعك من الله، ولكن الله يمنعك من يزيد ".**

أي إذا الله عزّ وجل أراد شيئاً لا يزيد ولا مليون يزيد يقفون أمام إرادته تعالى، أما إذا أراد يزيد شيئاً فربنا عزّ وجل بمليون باب يمنعه منك، مليون يزيد لا يغيّرون شيئاً من قضاء الله وقدره، النتيجة أنه قال له: **" اعلم أن يزيداً لا يمنعك من الله، ولكن الله يمنعك من يزيد ".**

على كلٍ هذا هو الدين، هذا هو التوحيد، وآية التوحيد اليوم:

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(22)وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا)

الشفاعة لها شرطان:

الشفاعة لها شرطان: أن يأذن الله للشافع، وأن يرضى عن المشفوع له، شرطان يجب أن يتحقّقا، أن يأذن الله للشافع أن يشفع، وأن يرضى عن المشفوع له، فإذا كان الشافع غير مأذونٍ له لا تنفع الشفاعة عنده، وإذا كان الشافع مأذوناً له، كرسول الله، لكن المشفوع له ليس مرضياً عند الله عزّ وجل لا تنفع الشفاعة، هذا ملخّص الشفاعة بنصّ القرآن الكريم، لا تتحققّ الشفاعة إلا بشرطين ؛ أن يأذن الله للشافع، ولا يأذن إلا لأنبيائه ورسله، لا لهؤلاء الأصنام، وكل إنسان يقدم على معصية يقول له أبوه أو أخوه، أو فلان أو علان: ضعها في رقبتي، لا تخف، قل له: من أنت ؟ هل أذِنَ الله لك أن تشفع لي ؟ هل مأذون لك أن تشفع لي ؟

(وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)

نريد الشرط الثاني، الآية:

(وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنْ ارْتَضَى)

(سورة الأنبياء: من الآية 28)

شرطان: لابدّ من أن يكون الشافع مأذوناً له، ولابدّ من أن يكون المشفوع له مرضياً عنه، لذلك انتهت الشفاعة، الشفاعة أصبحت علاقتك مع الله.

(وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ)

حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

معنى فُزِّعَ عنهم، الفزع هو الخوف، أما فُزِّعَ عنه أي أزيل عنه الخوف..

(قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

خيار الإيمان خيار وقت فقط:

لابدّ من أن تعرف الحقيقة، قلت هذا مراراً، قضية الإيمان قضية متى تؤمن فقط، وليست قضية تؤمن أو لا تؤمن، لأنك ليس لك خيار، لابدّ من أن تؤمن، إما أن تؤمن قبل فوات الأوان، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، إما أن تؤمن وتستفيد من إيمانك، وإما أن تؤمن وتتحسّر على إيمانك، إما أن تعرف الجواب قبل الامتحان وتنجح، بعد الامتحان تزداد حسرة، والله الجواب كان سهلاً، لا حول الله ما قرأته، كل طالب راسب حينما يخرج من قاعة الامتحان ينطلق إلى الكتاب يتفحّصه، سهل، ولكن ما قرأته، بعد أن انقضى الامتحان، ألم يعرف الجواب ؟ عرفه، ولكن متى ؟ بعد الامتحان، هل هناك علامات على الجواب الذي عرفته بعد الامتحان ؟ صفر، فلذلك مشكلة الإيمان يجب أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ وأنت شاب عزب، وأنت صحيح، وأنت متزوج.

أريد أن أذكر لكم شيئاً: الشيطان أحياناً له حِيَل، من أبرز هذه الحيل ومن أقواها أنه دائماً يجعلك تعلِّق استقامتك على حدث في حياتك ؛ حتى تتزوّج، حتى تشتري بيتاً، في الصيف، في الموسم، في الشتاء، حتى تسافر، حتى تأتي من السفر، دائماً الشيطان يضع لك عقبة وحيدة، أما المؤمن ففي أية لحظةٍ أشرق في قلبه الإيمان يقول: يا رب تبت إليك، واصطلحت معك، وانتهى الأمر، في أثناء الدراسة تُب، وفي رمضان تُب، وبعد رمضان تُب، هذه عقباتٍ الشيطان أمامك، الشيطان مهمّته أن يضع العقبات، وقد هلك المسوّفون.

من يومين حدّثني أخ، قريبه شاب عمره في الثانية والثلاثين تزوّج، هيّأ البيت، فرش البيت، زيّن البيت، اليوم السبت والعرس يوم الاثنين، صعد إلى السطح ليجري بعض التصليحات، تأخّر، تفقّدوه فوجدوه ميّتاً على السطح بأزمة قلبيّة، لو أن هذا قال: أنا سأتوب بعد الزواج لخسر، هناك حالات، جاء معه شهادة عُليا، وفي الطريق توفي، ربنا عزّ وجل جعل الموت يصيب الأشخاص في كل الأعمار، والموعظة لنا، إذاً:

(وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ)

حتّى فرعون ماذا قال عندما جاءه الموت ؟ قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

الرزق والموت بيد الله:

القضيّة الثانية، الخلق والرزق، والموت والفقر، فأخطر قضيّتين في حياة الإنسان نهاية عمره ورزقه، فإذا ثبت أن الله هو الخالق، وأنه المُحْيِ وأنه المميت، انتهى الخوف، وانتهى النِفاق، وانتهى القلق، والآن إذا ثبت أن الله هو الرزّاق، انتهى كل شيء، لأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقرّب أجلاً.

فكل إنسان حفاظاً على رزقه يعصي ربّه، احكم عليه بالجهل، الله عزّ وجل قادر أن يرزقك رزقاً حلالاً طيّباً كثيراً مباركاً، وأنت في طاعته، لذلك الطريق إلى الله هو العلم، والعلم وحده، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، ما في خطأ إلا وراءه جهل..

((من حاول أمرا بمعصية كان أبعد لما رجا، وأقرب لمجيء ما اتقى))

[كنز العمال عن أنس]

حينما تتصوّر أنك إذا عصيته تربح، وأنك إذا أطعته تخسر، فإنني أحكم على أنك لست مؤمناً، فإيمانك صفر، فليمتحن الواحد نفسه، إذا توهّم أن هذا القرض الربوي يحقِق له بيتاً، وهو في أمسّ الحاجة إليه، ولا طريق لهذا البيت إلا بهذا القرض الربوي، فأنت صفر لا تعرف شيئاً، ربنا عزّ وجل يهيّئ لك في أشدِ أزمات البيوت بيتاً من طريقٍ مشروع، قل لي: كيف أقل لك: والله لا أدري، أنا مثلك لا أدري، فالذي عند الله ليس عند العبد، لكن لا تقل: إن لم أفعل هذا أبقى بلا بيت، لا، إن لم أقم بهذا العمل المخالف للشرع أمُتْ من الجوع، لا، هذا هو الجهل، الآمر ضامن، من هو الآمر ؟ هو خالق الكون، الأمور كلُها بيده، إذا توهّمت أن هذه المصلحة لابدّ منها، فإن لم أكن فيها مِتُ من الجوع، هذا كلام الشيطان..

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ)

(سورة البقرة: من آية 268)

كلّما جاءك خاطر أنك تفتقر، تصبح بلا مال، هذا خاطر شيطاني، إذاً الآمر ضامن، الذي أمرك بطاعته يضمن لك رزقاً حلالاً، الذي أمرك بطاعته يضمن لك رزقاً طيّباً مباركاً

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نحن قبل عام أقول لكم بكل صراحة: كان كأس الماء مهدّداً بالخطر، كأس الماء، وليس سقي المزروعات، ماء الشرب كان في خطر، لو لا أن الله سبحانه وتعالى امتنّ علينا بهذه الأمطار التي غدّت الينابيع والأنهار أين حالنا الآن ؟

الإحصائيات الدقيقة دمشق في العشر سنوات الأخيرة معدل الأمطار مائة وستون ميليمتراً، مائة وعشرون، في سنة ثمانون فقط، في هذا العام إلى الآن ثلاثمائة وخمسة عشر، ثلاثمائة وعشرون في دمشق، في سرغايا ألف ميليمتر، بأكثر المناطق المطيرة ألف وأكثر من ألف، ففي معظم المحافظات معدّلات الأمطار تجاوزت حتى الآن المعدّلات الثانويّة وزادت عنها، الله هو الرزاق.

سمعت مرّة صاحب معمل يخاطب شخصاً قال له: والله هذه السنة بعنا بيعاً كثيراً جداً ـ يبيع أقمشة ـ قال له: ما السبب ؟ قال له: والله كان الموسم طيّباً في الجزيرة، انتبهت أن بائع القماش إذا كان الموسم جيّداً راجت بضاعته، معنى هذا أن الرزق في السماء، وما توعدون.

مرّة سألت صاحب مطعم: كيف الأحوال ؟ قال لي: والله الغلّة نازلة بالمائة ثلاثون، ما السبب ؟ قال لي: لا توجد أمطار، معنى هذا أن الأمطار تنمي الغلال، الغلال تعمل سيولة، تحرّك كل شيء، فربنا عزّ وجل يسأل:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض)

لا أحد إلا الله عزّ وجل..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25)قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

خاتمة:

الحقيقة في هذه الآيات درس بليغ المناقشة، بهذه الآيات أدب جَم، إن شاء الله في درسٍ قادم نقف عند هذه الآيات وقفةً متأنيّة:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25)قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (07-10): محاورة بين الداعي والكافر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-03-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة سبأ، وبدءاً من الآية الرابعة والعشرين، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة سبأ:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

1 - الرزق والأجل بيد الله وحده:

أخطر شيء في حياة الإنسان وجوده ورزقه، وأخشى ما يخشاه انقضاء أجله وانقطاع رزقه، لذلك لو علم الناس علم اليقين أن آجالهم بيد الله، وأن إنساناً واحداً على وجه الأرض لا يستطيع أن يحدِّدها، وأن أرزاقهم بيد الله، وأن جهة على وجه الأرض مهما عظمت لا تستطيع أن تمنع، ولا أن ترسل، فإذا أيقنت يقيناً قطعياً أن حياتك بيد الله، وأن الذي منحك الحياة هو وحده يُنْهي هذه الحياة، وأن الذي خلقك هو الذي تكفّل برزقك، لو أيقن الإنسان بهاتين الحقيقتين لكانت حاله ذات شأنٍ آخر بعيدٍ كل البعد عن شأنه الحالي.

إن الله سبحانه وتعالى قد منع العباد من أن يتدخلوا في آجال الناس وفي أرزاقهم، لذلك قيل: كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً، لا إذا قلتها، ولا إذا سمعتها، اسمعها، فهذا الذي يخشى أن يسمع الحق، يتوهم توهُّمات باطلة، هذا لا يعرف الله عزّ وجل..

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي(80))

(سورة الشعراء)

لو دققت في أسباب أكثر المعاصي لوجدتها من أجل المال، لو أيقنت يقيناً قطعياً أن الله عزّ وجل بيده الرزق وحده ؛ يكثِّره أو يقلله، يضيقه أو يوسعه، يسهله أو يعسره، وأنك لن تنال ما عند الله عزّ وجل إلا بطاعته، وأنك إذا توهّمت أنك بمعصية الله عزّ وجل يزداد رزقك ما الذي يحصل ؟ قد يأتيك رزقٌ وفير بادئ ذي بدْء، ثم يُمْحَق، ثم يتلف، ثم يُهلك، فهذا الذي نعنيه بقوله تعالى أن الرزق بيد الله، والله سبحانه وتعالى جعل الرزق متغيراً.

2 ـ حركة الرزق متحركة غير ثابتة:

في الحياة ثوابت ومتغيرات، حركة الأفلاك ثابتة، الليل والنهار ثابت، دورة الشمس والقمر ثابتة، هذه ثوابت، نظام جسم الإنسان ثابت، نظام التوالد ثابت، خصائص الأشياء ثابتة، خصائص البذور ثابتة ؛ ولكن هناك أشياء متغيرة، فالرزق متغيّر، وربنا عزّ وجل جعله متغيراً لحكمةٍ بالغة، ليربطك به، ما دمت تحرص على الرزق حرصاً بالغاً، والرزق بيده، فإذا أردت بحبوحة الرزق فالجأ إليه، طبّق أمره، تُب إليه، من منا يصدّق قبل هذا العام أن تأتي أمطار بهذه الغزارة، أنا سمعت بأذني من خبراء في البيئة قالوا: نحن في طريق الجفاف، معظم الينابيع جَفّت، معظم الأنهار جفت، وكلما تقدّمت السنوات دخلنا في منطقة الجفاف، فمعدل دمشق كان مئتين وثمانية عشر ميليمترا، في السنوات الخمس أو الست الأخيرة وصل إلى مئةٍ وستين، وإلى ثمانين ميليمترا، من منا يصدق أن تأتي هذه الأمطار بهذه الغزارة، في أكثر المناطق رجحت النسب عن ألف ملم، في أغلب المناطق، وفي أغلب المناطق رجحت النسب عن المعدلات السنوية في السنوات المطيرة، الله هو الرزاق.

3 ـ لماذا التملق والنفاق إذا كنت تعلم أن الرزق بيد الله:

هذه النقطة الدقيقة أجلك ورزقك بيد الله وحده، إذاً: لا تنافق، الناس ينافقون إما حفاظاً على حياتهم أو حفاظاً على أرزاقهم، الناس يتكلّمون الباطل إما حفاظاً على حياتهم أو على أرزاقهم، أناسٌ كثيرون يتملقون، أناسٌ كثيرون يعصون الله عزّ وجل، يفعلون الكبائر حفاظاً على حياتهم، أو حفاظاً على أرزاقهم، وتنقضي حياتهم، وتُقْطَعُ أرزاقهم، ويكسبون الإثم فقط، فإذا رأيت أن الله بيده كل شيء، وأن كل من تراه من بني البشر هم بيد الله عزّ وجل، هذا هو الدين، الدين أن تتعامل مع جهةٍ واحدة، مع الله، الدين أن تُخلص له، وأن ترجو ما عنده، الدين أن تخافه، وأن تعقد الآمال عليه، الدين أن تستقيم على أمره، ولا تعبأ ببني البشر، ربنا عزّ وجل يقول: يا محمد سَلْهُم:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أنا رأيت بأمّ عيني في بلاد إفريقيا في بعض المناطق أصابتها سبع سنوات عِجاف، النبات كله يَبِس نهائياً، والماشية كلها ماتت، وأهل البلاد هجروها إلى بلادٍ أخرى، لو أن الله عزّ وجل حبس أمطار السماء سنواتٍ متتابعة إلى أن جفت الينابيع، وجفت الأنهار، ومات النبات، وتبعه الحيوان، وأصبحت بلاداً مقفرةً لا تصلح للحياة، هل في الأرض كلها جهة مهما قويت، مهما علا شأنها، بإمكانها أن تجتمع، وأن تتخذ قراراً بإنزال المطر ؟.

فهذا الذي قال مرةً: نحن استغنينا عن رحمة السماء هو قمة في الجهل، نحن بحاجة إلى رحمة الله عزّ وجل، والإنسان كما تعلمون بيد من ؟ فنقطة دم بالدماغ تتجمد، إما شلل، أو جنون، أو اختلال توازن، أو صمم، أو عمى، نقطة دم لا يزيد حجمها على رأس دبوس، لو تجمدت في بعض شرايين الدماغ، أي مكانٍ في الدماغ لو أصابه خلل لانعكس آفة خطيرةً، فأنت بيد الله ؛ وجوداً، وسلامة، وكمالاً، واستمراراً ومن حولك، ومن دونك، ومن فوقك..

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

جاء الجواب:

(قُلْ اللَّهُ)

قل الله وحده، ولا إله إلا الله ولا أحد سواه.

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

1 - مِن أدبِ الحوار:

الآن نحن في آيةٍ تعلِمنا أدب الحوار، فإذا أردت أن تناقش الآخرين، أن تحاورهم، إذا كنت ممن يريد أن يستعلي عليهم، فأنت لست ممن يحبه الله ورسوله، أما إذا أردت أن تنقُلَهُم إلى الحق، وأن تهديهم سواء السبيل، فهذا هو الأسلوب، دققوا في أن الله سبحانه وتعالى يأمر النبي أن يقول للخصوم، للكفار، للمشركين، للفجار، لآكلي المال الحرام، لشاربي الخمر، لعبدة الأصنام، لمن يعبدون الأصنام جهاراً، قل لهم يا محمد:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الحق واحد لا يتعدد، فإذا قلت أنا هذه المقولة، وأنت قلت هذه المقولة، أنا أقول: الله هو الرزّاق، وتقول أنت: جهةٌ أخرى، اللات والعزى مثلاً، فما دام الحق لا يتعدد فأحدنا على صواب والآخر على خطأ، لم يقل: مَنْ، هذا التلطف، إذا أردت أن تحاور الناس، يكفي أن تقول لهم: أنتم مخطئون، أنتم لا تعرفون، أنتم جهلاء، أنتم ذوو عقول سخيفة، عندئذٍ تردُّ دعوتك، ويسد الطريق أمامك، لابدّ من تلطف، لابدّ من تواضع، لابدّ من توازن.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ)

أي أحدنا على حق والآخر على باطل، أحدنا وفق الطريق المستقيم، والثاني وفق الطريق المِعْوَج.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

إذاً إذا حاورت الناس، إذا دعوت إلى الله، إذا أردت أن تُقنع الناس بحقيقةٍ دينيةٍ، إذا أردت أن تبيّن منهج الله عزّ وجل فلا تأتِ بأسلوب العلو من علٍ، لا تأتِ وكأنك وصي عليه، لا تأتِ وكأنك أنت الوحيد في العالم، تعال إليه من طريقٍ متواضع، تعال إليه من طريق متوازنٍ.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

أقول لك: الغرفة منيرة، وأنت تقول: الغرفة مظلمة، فالظلام والضوء شيئان متناقضان، ومعنى متناقضين أن أحدهما ينقض وجود الآخر، إذاً لابدّ من أن تكون الغرفة منيرةً أو مظلمة، لابدّ من أن يكون أحد القائلين على حق والثاني على باطل، هذا كلام منطقي، فإذا أردت أن تقنع الناس تعال إليهم من عقولهم، من مصالحهم، من صحّتهم النفسية، تعال إليهم من باب التواضع ؛ ولا تأتهم من باب الغطرسة، والعنجهية، والاستعلاء، والوصاية، عندئذٍ لا يستمعون إليك، هذا تعليم الله لنا، وإنا، يخاطب كفار قريش، يخاطب عُبّادَ الأصنام، يخاطب شاربي الخمر، يخاطب آكلي الربا:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فكل إنسان يبدأ حواره مع الآخر بكلمات: أنت غلطان، أنت لا تفهم شيئاً، أنت على باطل، هذا كلامٌ يسد عليك الطريق إلى قلب هذا الإنسان، هذا كلامٌ هو في الحقيقة عقباتٌ كأداء في طريق الهداية، هذا تعليم الله لنا.

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

2 ـ لفظ الهدى في القرآن مسبوق بـ (على) والضلال بـ (في):

الآن في الآية نقطة ثانية، وهذه النقطة مهمة جداً، هو أن الهدى في أكثر آيات القرآن الكريم سُبِقَ بـ على، وأن الضلال سبق بـ في، من معاني على العلو، من معاني في الدخول في الشيء، أدخلت هذه الورقة في الدرج، أدخلت هذه الحاجة في المكتبة، ففي تعني دخول شيءٍ في شيء، أما على تعني وجود شيءٍ فوق شيء.

معنى: وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

المعنى الأول:

المعنى الأول: أن الهدى شيءٌ عظيم، شيءٌ مرتفع، شيءٌ واضح، شيءٌ عالٍ، شيءٌ يراه الناس جميعاً، لا يختلف عليه، قاسمٌ مشترك.

المعنى الثاني:

والمعنى الآخر: أن الهدى يرفعك، كلما كنت على حق كنت أعلى في نظر الناس، كلما تألّقت في سماء المجتمع كنت على حق، كلما أعجب الناس بك جعلوك قدوةً، فالهدى يرفع، أما إذا كنت ضالاً ـ لا سمح الله ـ فالضلال يجعلك في مكانٍ سحيق، وفي حفرةٍ سحيقة، وفي هاويةٍ مالها من قرار، ويجعلك مقيداً، كأن (في) تعني القيد، والعلو يعني الإطلاق، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال الله في وصفه:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

أي أخلاقك طوع بنانك، الإنسان أحياناً يقف موقفاً أخلاقياً بعد جهدٍ جهيد، بعد صراعٍ مع نفسه مرير، بعد أخذ ورد، بعد قيلٍ وقال، بعد إقبالٍ وإحجام، وفي النهاية يستنفذ كل جهوده، وينتصر على نفسه، ويحلُم، ولا ينفجر، فهذا الإنسان ذو خلقٍ ؛ ولكن ليس على خلقٍ عظيم، فهو انتصر على نفسه بصعوبة، أي أنه كاد ينهزم، كاد ينفجر، كاد يغضب، كاد يكون قاسياً، كاد ينتقم، لكنه رجّح جانب الكمال، وانتصر، فهو ليس على خلقٍ، هو ذو خلقٍ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه متمكنٌ من أخلاقه، متمكنٌ تماماً، لأن أخلاقه طوع بنانه، لأنه في أعماق الفضيلة لا على حوافِّها..

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

(سورة الحج: من الآية 11)

علوّ الهدى وسفول الضلال:

فإذا مشى الإنسان على حرف، بين أن يبقى على هذا السطح، وبين أن يسقط، إذا سار على حرف النهر، بين أن تزل قدمه فيسقط، وبين أن يبقى على اليابسة، احتمال الوقوع كبير جداً، لكن إذا كان في الأعماق، في أعماق البر، احتمال أن تزل قدمه، وأن يسقط في الماء احتمال مستحيل، فالإنسان كلما ارتقى إيمانه يدخل في أعماق الكمال، أما الذي إيمانه ضعيف فهو على حرف، لكن أهل الدنيا الذين يتخلّقون بأخلاقٍ رَضيِّةٍ، لانتزاع إعجاب الآخرين، وانتزاع ثنائهم، وترويج بضائعهم، هؤلاء سريعاً ما ينكشفون، لو جاءهم مؤثِّرٌ يصدم مصالحهم، أو يجرح مشاعرهم ينقلبون إلى وحوشٍ كاسرة، كل لباقته ونعومته وذوقه الرفيع تركه جانباً، وتكشّف عن وحشٍ كاسر.

فلذلك إذا ارتقى إيمانك تدخل في الأعماق، فالهدى يرفعك، يعلي شأنك، يجعلك ظاهراً، بارزاً، متألِّقاً ؛ وأما الضلال يجعلك في الظلام، يجعلك في الأقبية، فالمعاصي كلها في الأقبية، أما الطاعات ففي أماكن فسيحة ومكشوفة، والباب مفتوح دائماً، تحت ضوء الشمس، أهل الإيمان يعملون تحت ضوء الشمس في وضح النار، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

(على) فيها وضوح، أنت في مكان عالٍ انظر إلى الجبل، الجبل واضح، إذا أتيت الشام من طريق درعا ترى الجبل، من طريق بيروت ترى الجبل، من طريق حلب ترى الجبل، من طريق التل ومنين ترى الجبل، شيءٌ عالٍ، والهدى كذلك منارة مرتفعة تُرى من كل مكان ؛ أما إذا ضللت فالضلال يحتاج إلى أماكن إضاءتها خافتة أليس كذلك ؟ وتحت الأرض وفي السر، المعاصي ترتكب سراً، والزنا يرتكب سراً، بينما الزواج تطلق أبواق السيارات حتى تملأ الدنيا ضجيجاً، لأنه زواج.

أذكر هذه القصة، لي صديقٌ طرق بابه الساعة الرابعة بعد الفجر، فتح الباب فلم يجد أحداً، نظر نحو الأرض فإذا محفظة صغيرة مفتوحة فيها طفل ولِدَ حديثاً، ولد منذ ساعة تقريباً، وطبعاً هذا لقيط، ابن زنا في أغلب الظن، فأخذه إلى مستشفى، واعتنى به إلخ... أنا استوقفني هذا المشهد فقلت: لو أن هذا الولد جاء من طريقٍ مشروع، قبل أن يأتي بأشهر أُعِدّت له الوسائد، والسرير، واللباس الأنيق، والزوج مستبشر، والزوجة فرحة، والأهل ينتظرون هذا المولود، جاء هذا المولود وزفت البُشرى إلى الأهل، يأتي المهنِّئون ومعهم الهدايا، وتوزع الحلوى، إذا جاء المولود بالطريق الذي رسمه الله عزّ وجل، رسم طريق الزواج شيء ؛ وإذا جاء المولود بطريقٍ غير مشروعةٍ فشيءٌ آخر.

الهدى واضح لا تنعقد صلاة الجمعة في الفقه إلا إذا كان المسجد مفتوحاً لكل الناس، خطيب متفوّق، وخطبة رائعة، وحق، وعمق، وتحليل، وأحاديث وآيات، لو قفل الباب الصلاة كلها باطلة، فهذا دين الله عزّ وجل، وهذا شرع الله، كلمة لا حياء في الدين تخطر في بالي أحياناً، يمكن أن نوجهها توجيهاً آخر، ليس في الدين كله شيءٌ تستحي به، لو فرضنا عابد للبقر من الهند ذهب إلى مجتمع راقٍ، وهو يعتقد أن روث البقر إذا وضعه على جبينه يتبارك به، لو تكلّم بهذه الفكرة أمام أناس مثقفين ألا يستحي بها ؟ ألا يصغُر أمام الناس ؟ فالذين يعبدون البقر والشمس، ويعبدون الشيطان، ويعبدون بوذا يستحيون أمام المثقفين.

حدثني صديق كان باليابان، دخلوا إلى معبد بوذي فإذا أمام هذا الصنم الكبير بوذا فواكه مما لذ وطاب، سأل لمن هذه الفواكه ؟ قالوا: هي لهذا الإله يأكلها في الليل، فنظر إليهم نظرةً فاحصةً فتبسّموا، وقالوا: نحن نأكلها، يعتقدون أن تكريم الإله بوضع الفواكه الطازجة الجيدة، فإذا تكلّمت بكلام أمام إنسان مثقف يضحك على هذا الدين، ليس في الدين الإسلامي كله شيءٌ تستحي منه، لأنه دين الله عزّ وجل.

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

كلمة لعلى هدى أنت على منارة رفيعة، هذا حق وهذا باطل، هذا فيه تحريمٌ في القرآن لا أفعله، إذا قدم لك كأس خمر لا تقل: جهازي الهضمي مضطرب، لا يصلح له هذا الشراب، لماذا تقول ذلك ؟ قل: هذا

شرابٌ عندي محرم في ديني، لا يوجد مسلم يذهب إلى بلاد الغرب، ويعتذر عن الشرب، لأن الإسلام حرّم عليه الشرب إلا، ويكبر في نظر الآخرين، ويثقون به، وقد يعطونه تسهيلاتٌ كبيرة جداً، لأنه قال: هذا شيء محرّم في ديني، فأنت على حق..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

أنت مع الله..

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63)لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

(سورة يونس)

وأنت مع الله تخاف من مخلوق ؟! وأنت مع الله تستحي أن تصلي ؟ وأنت مع الله تستحي أن تكون صائماً ؟

مرة من المرات حدثني رجل قال لي: كنا في جلسة، وفيها رجل ذو شأن، وهذا الشخص الكبير سأل: احضروا لنا ضيافة، فجاءوا بالضيافة، وكان هناك شخص صائم، فاستحى وأفطر، لئلا يقال عنه: صائم، رجل آخر قال: إني صائم ـ جيّد ـ في النهاية الذي أفطر إرضاء لهذا الكبير ركله بقدمه، والذي قال: إني صائم ارتفع في نظره..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى)

فالهدى عالٍ يرفع شأنك، يُعْلِي قدرك، ألم يقل الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

لا أحد على وجه الأرض ـ وأنا أعني ما أقول ـ عظمه الناس كما عَظموا رسول الله، بعد ألفٍ وخمسمئة عام اذهب إلى حرمه الشريف، وانظر إلى مئات الألوف يمشون أمامه، أمام قبره وهم يبكون، لا رأوه، ولا سمعوا منه، ولا أخذوا منه شيئاً، قبل ألفٍ وخمسمائة عام، هذا معنى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

وأيُّ مؤمنٍ إذا سار على منهج الله تماماً، وأحب الله، وأخلص له، لابدّ من أن يرفع الله له ذكره، وأن يعلي قدره، وأن يجعله كالنجم المتألق في السماء، هذا معنى: لعلى هدى، أنت على هدى.

المعنى الثالث:

هناك معنى آخر، القرآن إعجازه في إيجازه، الإنسان إذا كان على صخرة مشرفة، صعد إلى جبل قاسيون، وألقى نظرة على دمشق يقول لك: هذا حي المزة، أتراه ؟ هذا الميدان، هذه برزة، هذا الطريق

الفلاني، لأن مقامه مرتفع مشرف، فالإنسان إذا اهتدى يملك رؤية ثاقبة، وبعيدة، وخارقة، الأشياء يراها بوضوح، كيف ؟

أنت أحياناً ترى صديقاً لك يأكل مالاً حراماً، وهو يظن أنه ذكيٌ بهذا العمل، أنت تراه أحمق، تراه ضعيف التفكير، محدود الأفق، تراه جاهلاً في الدين، لأنك تعلم علم اليقين أن هذا المال حرام لا يصمد عنده، لابدَ من أن يتلفه، لأنه جاهل، أنت مشرف، أنت تراه، وهو لا يراه، هو في قبر شهوته، هو غارق في دناءاته، في مصالحه الذاتية، غارق في آفاقه المحدودة، فالهدى يرفعُ من مقامك، وأنت لك نظرةٌ شمولية.

مثلاً: سجادة أمامك، إنسان من أهل الدنيا لا يرى إلا دائرةٍ من هذه السجادة، أما المؤمن فيلقي على هذه السجادة نظرة كُلِّيَة، يرى ألوانها، يرى أشكالها، يرى دقة النقش، يرى أبعادها، طولها عرضها، فالمهتدي له نظرةٌ شمولية، يرى أن المستقيم لابدّ من أن يكرمه الله عزّ وجل، وأن المنحرف لابدّ من أن يقصمه الله عزّ وجل، ولكن المنحرف واقع في قوقعة الانحراف، في ضلالٍ مبين، والهدى في إشراف وفي علو، وفي وضوح، وفي تألُّق.

المعنى الرابع:

الهدى فيه تقييد، والباطل فيه إطلاق:

وهناك معنى آخر، الهدى هو التزام، الحقيقة الدين الإسلامي فيه أوامر وفيه نواهٍ، لن تكون مهتدياً إلا إذا ائتمرت بما أمر الله، وانتهيت عما عنه نهى، لا يوجد غير ذلك، فهناك قيود، لست مطلقاً، أنت مقيد بالشرع، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، أنت مقيد، مقيدٌ بالأمر والنهي، كالطبيب، أيّ خلل بالمعالجة فلهذا الخلل مضاعفات خطيرة، ترى أن الطبيب مقيد ؛ بالدواء، بكمية الدواء، بالتحاليل، بكل شيء مقيد، لأن الخطأ قد ينتهي إلى وفاة، فالهدى كله قيود، فالمؤمن لا يطلق بصره في الحرام ؟ لا يأكل مالاً حراماً ؟ لو أخطأ معك بائع بمبلغ من المال، بإمكانك أن تسكت عنه ؟ لا تقدر، تعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى يعاقبك عقاباً أليماً سريعاً مضاعفاً، فالهدى إذاً قيود، ومع ذلك يرفعك، رغم القيود يرفعك.

لكن الباطل فيما يبدو حرية كما يقول الناس ؛ لك أن تنظر، ولك أن تأكل كما تشاء، وأن تمتِّع بصرك بمن تشاء، وأن تلتقي مع من تشاء، وأن تذهب إلى حيث تشاء، فيما يبدو لك الباطل كله حرية، حرية مطلقة، لا يوجد قيود، لا يوجد مبادئ، لا يوجد عنده دين، لا يوجد عنده حرام وحلال، لا يوجد عنده سنة وواجب ومندوب، وسنة مؤكدة، وسنة غير مؤكدة، وكراهة تحريمية، وكراهة تنزيهية، لا يوجد

عنده شيء، يفعل ما يبدو له، يفعل ما يراه مريحاً له، يتكلم بالباطل، يغتاب، يمتّع نظره بالنساء، يأكل مالاً حراماً، يستعلي على الناس ويتهكّم، ينام دون أن يصلي، يستيقظ متأخراً، الباطل فيما يبدو فيه حرية، لا يوجد انضباط.

مع أن الباطل كله حريات، كله إباحة، كله استرخاء، كله أن تفعل ما تشتهي، ومع ذلك تقع في فخٍ كبير، فإذا أنت بين عشيةٍ أو ضحاها فقدت حريتك، ودخلت في متاهات الخوف، ومتاهات الملاحقة، فالباطل مع الحرية المطلقة التي فيه ينتهي بك إلى أن تسلب حريتك، لو فرضنا الإنسان ارتكب الفحشاء، أو أكل مالاً حراماً، وكشف أمره وضع في السجن، كان حراً فقد حريته.

فكلمة (في) على الرغم مما يبدو لك أنك حرٌ إذا كنت على باطل، أنك مطلق تفعل ما تشاء، كل شيء مباح لك، هذه الحُرية مزيفة لابدّ من أن تقودك إلى غياهب السجن أحياناً، فهذه أوروبا ـ لا تبتعدوا ـ أليسوا أحرارا في اقتناص اللذات ؟ هل في أوروبا أو أمريكا شيء اسمه حرام ؟ تبادل الزوجات، زنا المحارم، الانحراف الشاذ، ألم يوصلهم هذا إلى مرض الإيدز، الذي هو طاعونا القرن العشرين، البعبع الكبير الذي يُقضُ مضاجعهم، حريتهم إلى أين أوردتهم ؟ إلى الخوف، إلى الهلع، إلى الذُعر.

ذهب أحدهم إلى بلدة أجنبية، نزل في فندق، ويبدو أنه انحرف في هذه الليلة مع امرأة، استيقظ فلم يجدها، لكنها كتبت له على المرآة: مرحباً بك في نادي الإيدز، أصبحتَ عضواً في هذا النادي، فانتحر، هذه الحرية التي مارسها جعلته ينتحر، أو في ضلالٍ، دخل في الضيق النفسي، فإذا كنت على هدى الهدى يرفعك، إذا كنت على هدى فالهدى واضح، إذا كنت على هدى فالهدى مُشْرف، إذا كنت عل هدى فرؤية المهتدي واسعة جداً ؛ أما إذا كنت في ضلال ـ لا سمح الله ـ فالضلال من شأنه أن في ظاهره أنك حر، المؤمن يخاف أن يصافح، ويقول لك: قال عليه الصلاة والسلام:

((إنِّي لا أصَافِحُ النِّسَاءَ))

[من سنن النسائي عن أميمة بنت رقيقة]

يخاف أن يملأ بصره من الحرام، يقول لك: لا يجوز أن أنظر، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

يغُضُ بصره، ويتحرج من درهم حرام، يقول لك: هذا لا يجوز، هذا مال حرام، هذا لا أفعله، هذا المال لا يجوز أن أقبضه، على الرغم من القيود الشديدة التي هو مقيدٌ بها، قيود الشرع، يرتفع، ويرزقه الله ويعطيه الله، ويرفع شأنه، لأنه لعلى هدى ؛ أما أهل الضلال، فما من إنسان أكل مالاً حراماً وكشف أمره إلا أودع السجن، ما من إنسان خانَ صديقه إلا فُضح أمره، فكل حريةٍ تتوهمها حرية هي منزلق خطير إلى جهنم، وإلى الخزي في الحياة الدنيا.

إذا قرأت في القرآن الكريم مع الهدى كلمة (على)، ومع الضلال كلمة (في) فيجب أن تتذوق أن الهدى واضح، وأن الهدى عالٍ، وأن الهدى مُشْرِف، وأن الهدى مع أنه قيودٌ ترفعك إلى أعلى، وأن الضلال مع أنه في الظاهر فيه حرية، فيه تساهل، لا يوجد فيه قيود، لكن هذا الضلال يورد الإنسان إلى القيود الشديدة، والآية الكريمة:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

طلقاء:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

عملِها، رهينة إثمها، رهينة معصيتها، رهينة جريمتها، رهينة انحرافها..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

هؤلاء طُلَقاء، لذلك القبر يَتَّسِع للمؤمن حتى يصبح مد بصره، وحتى يصبح روضة من رياض الجنة، والقبر نفسه يضيق على صاحبه حتى تختلف فيه أضلاعه، حتى يُكَسِّر أضلاع صاحبه، الضلال كله قيود، فأحياناً الإنسان يرتكب جريمة بوسوسة الشيطان، طُرِقَ بابه فقط، فألقى نفسه من الطابق السادس، طُرِقَ بابه فقط، خاف هذا الضلال..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الضلال كله حريات، وفي نهاية المطاف إلى جهنم وبئس المصير، القبر يختلف عليه حتى تختلط أضلاعه، أما الهدى فرَحب، وسَعَة، وعلو، وإشراق.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ

يا الله، أيكون عمل النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله عزّ وجل، وفي توحيده، وفي بيان أوامره، وفي دعوة الناس إلى الأخلاق الحميدة، أيكون عمل النبي جريمةً، أي: يا أيها الكفار، إذا كنتم تتوهمون أن في هذه الدعوة جريمةً في حق المجتمع فنحن وحدنا مسؤولون عنها، وإذا توهَّمتم أن ردّكم للحق هو عملٌ طيب فأنتم وحدكم تحاسبون عنه، أيضاً تلطفٌ كبيرٌ كبير في محاورة الخصم..

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24)قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

إذا كنت على الحق فلا تبالِ بأحدٍ:

إذا توهّمتم، هذا يعني أن أيها المؤمن إذا كنت على حق فلا تبالِ بأحدٍ.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

إذا كنت على حق فلا تعبأ بالناس.

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ(116))

(سورة الأنعام)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة يونس)

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ

وعند ربّك تجتمع الخصومُ:

الخلافات المذهبية، والخلافات بين الناس، وبين معتقداتهم ومشاربهم، خلافاتهم في دينهم وفي دنياهم، هذه الخلافات المستعصية لابدّ من أن تحل عند الواحد الديّان، لابدّ من أن الله يفصل بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فهنيئاً لمن كان على الحق، والويل لمن كان على الباطل، لو أن أهل الدنيا كلهم معك، ولم تكن على الحق لم تستفد شيئاً، لو أن الدنيا كلها معك، ولم تكن على حقٍ على ما يرضي الله فما حصّلت شيئاً، ولا كسبت شيئاً، وما حققت ربحاً على الإطلاق، فلهذا:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

يوم القيامة، يوم الدينونة، يوم الجزاء، اليوم الحق، يوم الحساب، يوم يدفع الإنسان ثمن اختياره في الدنيا.

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

معنى يفتحُ: أي يحكمُ، الله وحده يحكم..

(بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(26) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ)

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ

لا ينفع الشركاء أصحابَها:

مَنْ هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله عزّ وجل ؟ هذا الصنم ؟ ودٌ قبيلة عربية صنعت صنماً من التمر، فلما جاعت أكلته، فقالوا: أكلت ودٌ ربَّها، وهذا الصنم الآخر الذي جاءه ثعلبٌ، وبال على رأسه، فرآه من يعبده فقال:

أربٌ يبول الثعلبان بـرأسه لقد ضل من بالـت عليه الثعالـب

***

أيعقل أن يكون هذا الصنم رباً ؟! من هؤلاء الذين ألحقتم بهم شركاء ؟ من هؤلاء ؟ أحجار ؟ أشخاص؟ شخصٌ من بني البشر لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً، تعبده من دون الله ؟ من هذا الذي جعلته إلهاً، وتعبده من دون الله ؟

(قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ)

القصة المعروفة: لما طلب هارون الرشيد أحد الخلفاء العباسيين كأساً من الماء، سأله نديمه: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس لو مُنع عنك ؟ سؤال دقيق، وسؤال واضح، قال: بنصف ملكي، قال: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس لو منع إخراجه ؟ قال: بنصف ملكي الآخر، فقال: يا أيها الأمير، إن كل هذا الملك يعدل كأس ماءٍ تشربه وتخرجه، فلما كان رسول الله يقضي حاجة كان يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني))

[الجامع الصغير عن أبي ذر]

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير]

نحن فقراء لله عزّ وجل.

في اليابان كان عندهم رجل اسمه الميكادو، وقد عبدوه من دون الله، فله طبيب، لشدة ما رأى من خلل صحته وضعف قلبه أسلم هذا الطبيب، لماذا أسلم ؟ كيف يكون هذا إلهاً ؟ وفي قلبه آفات، وفي رئتيه أمراض، وفي أعصابه تلف، وعاش عمراً مديداً، شيء مضحك.

(قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا)

كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

أداة نفي وردع..

(كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء هو الله، الله عزيزٌ لأن كل شيءٍ يحتاجه في كل شيء، ولأنه واحدٌ لا شريك له، ولأنه يستحيلٌ أن تحيط به، يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، ومتفردٌ في ذاته، وفي أسمائه وفي أفعاله وصفاته، ويستحيل أن تحيط به.

(كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الذي يضع كل شيءٍ في موضعه.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

دعوة النبي دعوةٌ عامة، دعوةٌ لكل الأمم ولكل الشعوب، كلُّ نبي أرسله الله لقومٍ محدودين، إلا النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا)

لمن أطاعك..

(وَنَذِيرًا)

لمن عصاك..

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قد يسخرون، قد يعدُّون الدين شيئاً لا يصلح لهذه الأيام، قد يرون الدين حالات من ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة المخيفة، هكذا يقول بعض الكفار.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

يوم القيامة حينما يطلعهم الله على أعمالهم ماذا يقولون ؟ يقولون:

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23))

قال:

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

هم يكذبون الآن، الذي يقول لك: هذا الدين لا يصلح لهذا الزمان يكذب، لأن جِبِلَّتَهُ تتوافق مع هذا الدين، الإنسان مصمم تصميماً دقيقاً كي يعرف الله عزّ وجل، فإذا عرفه ارتاحت نفسه، فإذا بقي تائهاً بقي مضطرباً، الإنسان جِبِلَّتَهُ أن يطيع الله عزّ وجل، فإذا أطاع الله ارتاحت نفسه، فإذا عصاه وقع في شكٍ واضطرابٍ شديد.

(قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ

هذا سؤال استهزاء: متى يا سيدنا ؟

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(29)قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)

والله يا أيها الإخوة... ورد في بعض الأحاديث أنه حينما يأتي ملك الموت، لو أن إنساناً بيده الدنيا كلها لتخلى عنها مقابل أن يعيش ساعةً واحدة زائدة على أجله ليصلي بها ركعتين، تقول له: لا فوت، لو أن الدنيا كلها، أضخم الشركات بالعالم، شركات عندها وفرة بأربعة مليارات دولار، شركة لا تجد كيف تستثمرها، شركات ذات إنتاج عالٍ، لو أن كل شركات العالم لك، وكل الأسواق في العالم لك، وكل المزارع لك، وجاء ملك الموت لتمنيت أن تخسرها كلها مقابل أن تعيش ساعة زيادة على أجلك، لكن..

(قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ(30)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

هذا حوار طويل بين أهل النار وهم في النار، كيف أن كلاً منهم يقذف التهمة إلى الطرف الآخر، والطرف الآخر يردُّها له، أما بالنهاية جميعاً يعذّبون بالنار على قدمٍ وساق، حوارٌ طويل بين فئات أهل الكفر وهم في جهنم، كيف يتهم كلٌ منهم الآخر بأنه سبب هذا البلاء الكبير، ولكن إن شاء الله في درسٍ قادم نعود إلى هذه الآيات ونتابعها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (08-10): تفسير الآيات 31 - 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن من سورة سبأ، ومع الآية الواحدة والثلاثين، والتي تبدأ بقوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(31)قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ)

حوارٌ في النار بين أهل النار:

حوارٌ طويلٌ ومؤثِّرٌ يجري بين أهل الكفر يوم القيامة وهم في النار، هذا الحوار ساقه الله لنا ونحن في الدنيا، لماذا ؟ من أجل أن نأخذ الحذر، إذا كنت منحرفاً أيها الإنسان، إذا لم تؤمن بالحق الذي جاء من عند الله عزّ وجل، فسيكون وضعك يوم القيامة مثل هؤلاء..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

1 - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

من هم الذين كفروا ؟ الذين أعرضوا عن الله عزّ وجل، الإيمان في أدقّ تعاريفه تصديقٌ وإقبال على الله عزّ وجل، والكفر تكذيبٌ وإعراض.

التكذيب العملي أبلغُ من التكذيب القولي:

أيضاً هناك شيئان أساسيّان في الكفر، أن الكافر يكذّب بما جاء من عند الله، فإما أن يكذِّب قولاً، وإما أن يكذِّب عملاً، وأنا أقول لكم: التكذيب العملي أبلغ من التكذيب القولي، التكذيب القولي أن تقول: أنا لست مؤمناً بهذا الكتاب، ولا بهذه الرسالة، لو قلت هذا الكلام لجاءك من يقنعك، من يقدِّم لك الدليل، البيان، الحجّة، البرهان، أما إذا قلت: أنا مؤمن، ولكن في المجال العملي ليس في أعمالك ما يؤكِّد هذا الإيمان، فهذا التكذيب العملي أخطر لأنه أخفى من التكذيب القولي، فالإنسان يكون صريحاً، إذا آمن

فليُعلن، وإذا كفر فليُعلن، لأنه إذا أعلن قد يأتي أناسٌ يقنعونه، يبيّنون له، يوضِّحون، أما إذا أخذ موقفاً منحرفاً، وأعلن أنه مؤمن، هذا المنافق الذي قال عنه الله عزّ وجل:

(فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

(سورة النساء: من الآية 145)

فالكفر في أساسه تكذيبٌ وإعراض، كيف أن الإيمان تصديقٌ وإقبال، الكفر تكذيب وإعراض، هؤلاء الكفّار:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

2 ـ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ

لا تتوّهم الدين تقييدًا للحريات:

الحقيقة هو أن الكافر لأنه مقيمٌ على شهواتٍ كثيرة، وعلى انحرافاتٍ خطيرة، فإذا لم يؤمن لا لأنه لم يقتنع، لا، لم يؤمن لأنه لو آمن لضاقت عليه شهواته، ولحوسب، ولطولِب، فالكافر لا يؤمن لأن الإيمان في نظره سَيُقيّده، ولو علم الكافر أن الإيمان ليس حدّاً لحريّته، ولكنّه ضمانٌ لسلامته، وفرقٌ كبير بين أن تتوهّم الإيمان تضييق لحريّاتك، وبين أن ترى الإيمان ضمانٌ لسلامتك، فكلمة خطر الموت على التوتر العالي، هذه اللوحة وضِعَت من أجل تحذير الناس ؛ لا من أجل تضييق حريّتهم، كلمة: انتبه حقل ألغام، هذه الكلمة لم توضع من أجل الحدِّ من حريّة المواطنين ؛ ولكنّها وضِعَت من أجل ضمان سلامتهم، فإذا كان في الشرع أمرٌ ونهيٌ، حلالٌ وحرامٌ، فالحرام من أجل ضمان سلامة الإنسان.

يجب أن تعلم أيها الأخ الكريم أن الشيء الذي تتوقف عليه سعادتك ـ دقِق ـ الشيء الذي تتوقف عليه سعادتك فَرَضَهُ عليك، حياتك تتوقف على التنفُّس فالتنفس فرض، تتوقّف على الماء فالماء فرض، تتوقّف على الطعام تناول الطعام فرض، الشيء الذي تتوقّف عليه سلامتك وسعادتك جعله الله فرضاً، أمرك أن تؤمن، أمرك أن تصلي، أمرك أن تستقيم، أمرك أن تنضبط، والشيء الذي يُسَبِّب هلاكك جعله مُحَرّماً.

عندنا في الشرع فرائض ومحرّمات، الأشياء التي تُتَمِّم الفرائض جعلها الله سُنَنَاً ومندوباتٍ ومستحبّات، والأشياء التي يمكن أن تؤدي إلى الهلاك، الوسائط التي يمكن أن تودي إلى الهلاك جعلها الله مكروهات، مكروهات تحريم ومكروهات تنزيه، والأشياء التي لا علاقة لها لا بسعادتك ولا بهلاكك جعلها مباحات، فالمباح شيء، والمندوب شيء، والمكروه شيء، والحرام شيء، والفرض شيء،

فالكافر ما كفر لأن الدين ليس منطقياً، ما كفر لأن الدين ليس واقعياً، كفر لأنه توهّم أن الدين يَحُدُّ من شهواته، فحينما بعث الله الأنبياء من الذين عارضوهم ؟ عليّة القوم، أرباب الأموال، أرباب الجاه، من لهم مصالح في الكفر، لذلك هؤلاء الكفّار قالوا:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

هنا تعليق: هو أنك إذا رأيت ذهباً وقلت: أنا لست مؤمناً بأن هذا ذهبٌ، هل يصبح هذا الذهب حديداً ؟ لا، يبقى ذهباً، فأنت إذا آمنت بالشيء لا ترفع من قيمته، وإذا كفرت به لا تقلِل من قيمته، الشيء هوَ هو، فهذا الكافر المسكين حينما لم يؤمن ماذا فعل ؟ ظلم نفسه فقط، ما ظلم أحداً غير نفسه..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

ماذا في القرآن ؟

ماذا في القرآن ؟ سعادتك في القرآن..

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذا القرآن منهجٌ لك..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

حينما لم تؤمن بالقرآن ماذا فعلت ؟ القرآن قرآن، هو حقٌ، وصدقٌ، وخيرةٌ مطلقٌ، ونفعه عميمٌ، هو حبل الله المتين، هو صراطه المستقيم، هو حبل النجاة، هو الطريق إلى الفلاح، هو الغنى الذي لا فقر بعده، هو الغنى الذي لا غنىً دونه، هو الذي يأخذ بيدك إلى الجنّة، فإذا قلت: أنا لا أؤمن به.

مرّة ثانية يمكن أن تقول: أنا مؤمنٌ بهذا القرآن، ولا يُرى في سلوكك ما يشير إلى ذلك، تتعامل بعلاقاتٍ ربويّة، مع أن القرآن يقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من الآية 279)

يمكن أن تقول: أنا مؤمنٌ بهذا القرآن، ولا تعبأ بقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

يمكن أن تقول: أنا مؤمن بهذا القرآن، وتمتنع عن دفع زكاة مالك، فهذا الذي يدّعي أنه مؤمن بهذا القرآن، ولا ترى في حياته ما يشير إلى صدق إيمانه بهذا القرآن، هذا اسمه في الحقيقة مكذِّبٌ، ولكن تكذيبه ليس قولياً، بل تكذيبٌ عملي.

التكذيب العملي للقرآن يودي بصاحبه للهلاك في الدنيا:

ومرّةً ثانية أقول لكم: إنّ أخطر أنواع التكذيب هو التكذيب العملي، فأخطر أنواع الأمراض هي الأمراض التي ليس لها أعراض، فجأةً مصابٌ بمرضٍ خطير، أنت ما شعرت به، أما المرض الذي له عرض مبكِّر، فالقضيّة سهلة جداً، حينما ترتفع الحرارة تذهب إلى الطبيب، فهذا الذي يقول: أنا لست قانعاً بالقرآن، هذا أفضل ألف مرّة من الذي يسكت، ولا تجد في حياته ما يُشْعِرُ بأنه مؤمنٌ بهذا القرآن، عندما يقول ربنا عزّ وجل:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

حينما تبحث عن زوجةٍ على جانبٍ كبير من الجمال مع رقّةٍ في الدين، ولا تبالي بهذه الآية، سوف تكون حياتك معها جحيماً، أنت لم تبالِ بهذه الآية، حينما يأتيك رجل شابٌ ترضى عن دينه وعن خُلُقِهِ لكنّك لا ترضى عن رقّة أحواله، ولا عن ضعفه، فترفض تزويجه أنت ماذا فعلت ؟ أنت ضربت بعرض الطريق بقوله تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 221)

فنحن لا نريد إنساناً يضع القرآن في صدره، ولا في مقدّمة سيارته، ولا في محلِّه التجاري، ولا في مكان بارز من بيته، ولا تجد في حياته ؛ لا في كسبه للمال، ولا في إنفاق المال، ولا في علاقاته الاجتماعيّة ما يُنْبِئ بأنه مؤمنٌ بهذا الكتاب، المؤمن إيمانه صارخ، ظاهر، بارز، بَيّن لأنه مؤمن، هذه حرام لا أفعلها، كان سيدنا عمر وقّافاً عند كلام الله، ما دام الله قد أمر بهذا فليفعل، نهى عن كذا فليمتنع، إذاً حينما يقول الكفّار:

(لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

القرآن في السماء ؛ رفعة، وسمواً، وتألّقاً، وحجّة، وبرهاناً، ماذا ينفع قولهم ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

3 ـ ولَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

أغلب المفسّرين على أن الذي بين يديه هو التوراة والإنجيل، أي أن هذا الكافر ليس كافراً بالإسلام وحده ؛ بل كافر برسالات السماء كلِّها، كافراً بأن هذا الخالق العظيم لا يعقل أن يرسل لعباده كتاباً ولا رسولاً، كافراً بأسماء الله الحسنى..

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

أحياناً إنسان منحرف سارق مجرم، يتبجّح، يتطاول، يقول: أنا أفعل، أنت لو تراه حينما يلقى القبض عليه وهو ذليل، وهو خانع، وهو يتوسّل، وهو يبكي، وهو يرتمي على الأرض ليقبّل النِعال، لو تراه في مصيره بعد أن يلقى القبض عليه، وكذا حال الكافر، هذا الموقف العنيد، موقف الإباء، موقف الاستعلاء، العنجهيّة، الغطرسة..

(لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)

الله عزّ وجل سيريك نهايته يوم القيامة، قال:

(وَلَوْ تَرَى)

4 ـ ولَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ولو ترى يا محمّد هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم حينما كفروا بالقرآن، لو ترى يا محمّد هؤلاء الكفّار وهم يتعذّبون في النار، وهم يتصايحون، وهم يصرخون، وهم يُعذّبون، فالبطولة أن ترى مصير الإنسان، تماماً كهذا المجرم الذي يقول: أنا أفعل كذا، أنا أتحدّى فلاناً، هذا الكلام لا قيمة له، انظر إليه وهو في قبضة العدالة، انظر إليه وهو وراء القُضبَان، انظر إليه إذا واجهه الصحفيون كيف ألقى نظره إلى الأرض، انظر إليه وقد وقع على قدم المحقِق يقبّلها ويسترحمُه، لا تنظر إلى عنجهيّته، ولا إلى غطرسته قبل أن يُلقى القبض عليه، أضرب لكم بعض الأمثلة، قال:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

ألقي القبض عليهم..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

أي أُلْقِيَ القبض عليه، وأُحْضِرَ لينال جزاء عمله..

(وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ)

5 ـ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ

الآن سينشأ حوار حقيقي بين هؤلاء الكفّار، بين الذين كفروا والذين اتبعوا هؤلاء الكفّار، هناك أقوياء وهناك ضعفاء، أقوياء متبوعون وضعفاء تابعون، أقوياء يتصدّرون المجالس وضعفاء يقلِّدونهم، أقوياء يصدرون التعليمات وضعفاء يتلقّونها، في الحياة قوي وضعيف، غني وفقير، الفقير يقلِّد الغني، والضعيف يقلِّد القوي، فالآن الحوار بين المتبوعين والتابعين، بين الأقوياء والضعفاء، بين المُقلِّدين والمُقلّدين، بين الذين يتزعّمون الكفر وبين الذين يكفرون..

(يَقُولُ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا)

6 ـ يَقُولُ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

حوارٌ في النار بين التابع والمتبوع:

كانوا تابعين، كانوا خاضعين..

(يَقُولُ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ)

7 ـ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ

أي أنتم السبب، أنتم الذين أوصلتمونا لهذا المكان، أنتم سبب شقائنا، أنتم سبب تعاستنا، أنتم السبب في هذا العذاب المهين..

(لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ)

الآن اسأل طالباً رسب، قلّما تجد طالباً راسباً يقول لك: والله أنا قصّرت، يقول لك: أستاذنا لا يفهم، أستاذنا ما علّمنا، الأسئلة غير منطقية، لا ينسب التقصير له أبداً، قال:

(لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ(31)قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا)

قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ

الآن الرد..

(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ)

الإنسان مختارٌ في اتباع الفساد:

أنتم مثلنا مجرمون، فهذه الآية تنفي أن يضلّ إنسانٌ إنساناً، لأن الإضلال موجود، لماذا استجاب فلان، ولم يستجب فلان ؟

طالب فاسد، لماذا أفسد زميله فلاناً، ولم يستطع أن يفسد زميله الثاني ؟ معنى ذلك أن الذي أفسده عنده رغبةٌ في الفساد، الذي أفسده كان مخيّراً، ولم يكن مجبراً، هذا الذي يُفْسِد ليس معه سلطة، الآية واضحة، إنه ليس لك سلطانٌ إلا على الذين اتبعوك..

(إنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ(42))

(سورة الحجر)

فالذي يفسد ما معه سلطان، والذي أفْسِد كان مخيّراً، وكان بإمكانه أن يرفض، فالإنسان كلّما وقع في خطأ، في معصية، يكيل السُباب للشيطان، هذا كلام فارغ، وكلام لا معنى له، عليه أن يُكِيلَ السُباب لنفسه..

(قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ)

أنتم كنتم مخيَّرين وكنتم راغبين في الفساد، واتبعتمونا لأنكم اتبعتم هوىً في نفسكم، ونحن لا علاقة لنا بإفسادكم، ولا بإضلالكم، ولا بهذا المصير الأسود الذي وصلتم إليه، الحقيقة من المؤلم جداً أن تسترشد بإنسان، وتدفع الثمن باهظاً، ثمّ يتخلّى عنك، لو أرشدك صديقك على عمل مخالف للقوانين، ووقعت في قبضة القانون، وقلت: فلان دلّني على ذلك، يسخرون منك، يقال لك: أين عقلك ؟ يقول عامة الناس: أخي افعلها وضعها في رقبتي، هذا كلام ليس له معنى أبداً، كل إنسان محاسب بعمله..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من الآية 164)

(وَقَالَ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللّيْلِ وَالنّهَارِ)

وَقَالَ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللّيْلِ وَالنّهَارِ

ألم تكونوا تلتقون بنا في الليل، تقنعوننا بالكفر، وبأن هذا الدين خرافة، وبأن هذا الدين غيبيّات، وبأن هذا الدين حالات ضعف تعتري الإنسان أمام قِوى الطبيعة المجهولة لذلك يتديّن ؟ ألم تقولوا لنا سابقاً: إن الأشخاص المخفقين في حياتهم يتديّنون ؟ هذه الفكرة الآن مطروحة، فأي إنسان بعيد عن الدين إذا رأى إنساناً صاحب دين يقول: أنت متديّن لأن الطرق قد سُدّت في وجهك، أنت متديّن لأنك ضعيف، هذا كلامهم وسوف يكتشفون خطأهم، والحقيقة المؤمن يؤمن بالله عزّ وجل وهو في أعلى درجات

القوّة، وهو في أعلى درجات التألّق، وهو في شبابه، الدنيا كلُّها بين يديه، ومع ذلك آثر الله والدار الآخرة، هذا الإيمان.

ولا يمنع إنسان إذا أصابته مصيبة فاتجه إلى الله، هذه حكمةٌ أرادها الله عزّ وجل، لكن الأصل أنت مؤمن، لأنك آمنت بالله، لا لأنك ضعيف فآمنت ؟ هذا كلام مخطئ، لأنك لا لأنك مخفق في حياتك آمنت، أو لأنك فقير آمنت ؟ لا، أنت آمنت لأن الله موجود، ولأنه واحد، ولأنه كامل، ولأن له منهجاً صحيحاً، هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة، إذاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا)

يبدو أن الحوار عقيم، كل فريقٍ يرمي بكرة الاتهام إلى الفريق الآخر، والفريق الآخر يردُّ هذه الكرة مرّةً ثانية، عملية حوار عقيم، أي أن المستكبرين يتبرّؤون من أسباب إفساد الناس، والمستضعفون يُنيحون باللائمة على هؤلاء المستكبرين، ثم الذي حصل أن كلا الفريقين المستكبرين والمستضعفين، المتبوعين والتابعين، الأقوياء والضعفاء، المفسدين والفاسدين، أن كلا الفريقين أسَرَّ الندامة، أي عرف أنه دفع ثمناً باهظاً لكفره، وقع في شرّ عمله.

ليس للعاقل أن يوصل نفسه إلى هذا الطريق المسدود:

يا أيها الإخوة الأكارم... الإنسان العاقل لا يوصل نفسه لهذا المكان، ولا لهذا الموقف الصعب.
أضرب مثلاً: لو أن إنساناً تورّط وقتل إنسانا، وحُوكِم محاكمة عادلةً، وصدر أمر بإعدامه، والقرار صُدِّق، وسيق إلى الإعدام، وهو على حبل المشنقة بدأ يتوسّل، يقال له: ابكِ إذا شئت، فلا بكاؤك، ولا توسُّلك، ولا ترجّيك، ولا ضحكك، افعل ما شئت، تكلّم ما شئت، لابدّ من أن تلقى جزاء عملك.

فالإنسان لا يصل مع الله إلى طريق مسدود، لا يصل مع الله إلى موقف ليس له حل، لا يصل مع الله إلى موقف لا تنفعه حجّةٌ، ولا برهان، ولا شفاعة، ولا مال، ولا أهل، ولا أولاد، هذا الطريق خطير جداً، فما دام القلب ينبض معنى هذا أن هناك أملا، معنى هذا أنك في بحبوحة، معنى هذا أن باب التوبة مفتوح، فالله عزّ وجل كأنه يسرّب مشاهد من يوم القيامة، انتبهوا، هكذا المصير، قال تعالى:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

لا تغتر بالمترفين:

فإن رأيت إنساناً كافراً في حياة مترفة، في بيته، في مركبته، في حياته الخاصّة، لا تغترّ بهذه الحياة، لا تتمنّى أن تكون مكانه، لا تراه ذكياً، إن رأيته ذكياً فأنت لا تعرف شيئاً، فقارون خرج على قومه في زينته..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: من الآية 81)

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

والآن إذا مرّ الإنسان على بيت فخم، فيلا فخمة بمصيف، إذا قال: ليت لي مثل ما أوتي صاحبها، لا يعرف شيئاً، إن رأى مركبة فخمة فقال: ليتني أملك مثلها لا يفقه شيئاً..

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص: من الآية 80)

فربنا عزّ وجل يسرِّب لنا مشاهد من يوم القيامة، مشاهد صارخة، مشاهد مؤثِّرة، أن هذا الكافر الذي تراه في الدنيا متغطرساً، مستعلياً، مستكبراً، يأبى أن يصلي، الآن تجد المشيعون لأكثر الجنائز يقفون خارج المسجد يدخِّنون، هو أكبر من أن يصلي، أكبر من أن يدخل بيت الله عزّ وجل، هذا الموقف الذي فيه عجرفة، واستكبار، وإباء، يقول لك: أنا علماني، أنا أؤمن بالعِلم، هل الدين ليس فيه علم ؟ العلم كله جاء من الدين، هذا الموقف الذي فيه استكبار، أنت انظر كيف أن الله سرَّب لك مشهداً، هذا الكافر المستعلي المستكبر هذا مصيره ؛ ذليل، خانع، واقع في شر أعماله، يدفع الثمن باهظاً..

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ

ولات حين ندمٍ:

هذا المصير المحتوم، فالذي أتمنّاه على كل أخ وهبه الله عقلاً راجحاً أن لا يصل مع الله إلى هذا الطريق المسدود، إلى هذا الموقف العصيب الذي لا مندوحة عن تلقي العذاب فيه، كهذا الذي حُكِمَ عليه بالإعدام، يبكي سيعدم، يضحك سيعدم، يستعلي سيعدم، يتذلّل سيعدم، انتهى الأمر، كان عليه أن يفكِّر

قبل أن يقبل على هذه الجريمة، وهذا الإنسان بعد أن وصل إلى ما وصل إليه كان عليه أن يقف، ويفكِّر قبل أن يعصي، قبل أن يكفر، قبل أن يقول: أنا وأنا..

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)

والحقيقة كأنَّهم خافوا الشماتة، فأصعب شيء على الإنسان أن يشمت الناس به، أصعب شيء أن تغدو أنت قصّة للناس، أصعب شيء أن يعتبر الناس بحياتك، بقصّتك، هؤلاء المجرمون يبدو أنهم كرهوا أن يُشْمَتَ بهم، قال:

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا

1 ـ ذلّ ما بعده ذلّ:

أغلال، فالإنسان طليق ما دام غير مذنب، في الدنيا جالس في بيته، يحب الذهاب إلى مكان جميل، يحب الذهاب إلى السوق، يجب السفر يغادر القطر، الأمور كلها مفتوحة أمامه، أما إذا ضُبط بجريمةٍ أُلقي القبض عليه، ووضِعَت يداه في القيود، وسيق إلى السجن، وضِعَ في زنزانة، لماذا فقد حريّته ؟ لأنه خالف القوانين والأنظمة..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

طُلَقاء، القبر يمتدُّ حتَّى يكون مَدّ البصر، يتسع حتَّى يكون مدّ البصر، القبر روضة من رياض الجنَّة، وقبر الكافر يضيق عليه حتَّى تختلف أضلاعه، الآية الكريمة:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

(سورة غافر: من الآية 46)

آل فرعون، منذ ستة آلاف عام، كل عام ثلاثمائة وخمسة وستين يوم

(غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

مرّتين في اليوم، ستة آلاف وخمسمئة عام، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، ضرب اثنين، والخير إلى الأمام..

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

2 ـ راجع نفسك قبل أن تندم:

فلذلك إذا عطّل الإنسان عقله يكون شقياً شقاء كبيراً، قبل أن تتكلّم هذه الكلمة راجع نفسك، قبل أن تأخذ هذا المال راجع نفسك.

حدّثني أخ في بلاد الحجاز عن بدوي له أرض في أطراف جدّة، امتدّت جدة في العمران إلى أن أصبحت هذه الأرض ضمن حدود جدة الحديثة، فتوجّه صاحب هذه الأرض إلى أول مكتب عقاري ليبيعها، شعر أصحاب هذا المكتب أنه لا يعرف قيمتها تماماً، فأقنعوه بثمنٍ بخس، أعطوه مبلغاً يساوي عُشْرَ ثمنها الحقيقي، وأشادوا بناءً من ثلاثةٍ وعشرين طابقاً، هم شركاءٌ ثلاثة، أول شريك وقع من على هذا البناء فدقّت عُنُقُه ـ هذه القصّة واقعيّة ـ الشريك الثاني مات بحادث سيارة، الشريك الثالث فكّر، الآن سلك الطريق الصحيح، عزا موت شريكه الأول وشريكه الثاني إلى أن الله أتلفهما لأنهما أكلا مالاً حراماً، فبحث عن صاحب الأرض، وبقي يبحث عنه ستة أشهر، إلى أن عَثَرَ عليه، وأعطاه فرق ثمن الأرض، أي أخذناه منك بخمسمائة ألف ريال، الآن ثمنها خمسة ملايين، فخذ الثلث، فقال له هذا البدوي: أنت لحقت حالك.

فكِّر قبل أن تقدم على أكل مال الناس بالباطل، قبل أن تقدم على أن تنتهك عِرض فلانة، قبل أن تقدم على تطليق زوجتك المخلصة لنزوةٍ طائشة، قبل أن تأخذ هذا المحل التجاري كلّه لك، وتلقي بالشريك خارج المحل، لأنه ليس له اسم بعقد الإيجار، قبل أن تغتصب هذا البيت، قبل أن تغتصب هذه الأرض، قبل أن تأكل المال الحرام فكِّر في هذه الساعة التي تقف فيها بين يدي الله عزّ وجل ليسألك.

لذلك المؤمن دائماً يبحث عن جوابٍ لله عزّ وجل، يعنيه أن يجيب الله عزّ وجل عن سؤالٍ دقيق: لماذا أخذت هذا المال ؟ لماذا طلّقت هذه الزوجة ؟ لماذا اغتصبت هذا المحل التجاري ؟ لماذا أخرجت شريكك خارج الشركة ؟ استضعفته ؟ لماذا أكلت مال اليتيم ؟ هذا كلّه سوف نحاسب عليه، فالعاقل هو الذي يفكِّر تفكيراً صحيحاً..

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لا ظلم، اسأل أي إنسان جاءته مشكلة في قرارة نفسه يعترف بذنبه.

أنا أعرف قصّة جرت في أحد أسواق دمشق، يظهر أنهم تراشقوا الرصاص، فرصاصة طائشة أصابت صاحب محل تجاري في عموده الفقري فأصابته بالشلل فوراً، قال لي أحدهم: هذا ما ذنبه ؟

جاء إلى محلِه التجاري ليبحث عن رزق أولاده، ما له ذنب أبداً، قال لي: أين عدالة الله عزّ وجل ؟ قلت: هذه قصّةٌ علمت أنا وأنت بعض فصولها، أما فصولها الأخرى فنحن لا نعرفها، والله الذي لا إله إلا هو مضى على هذه القصّة عشرون يوماً، لي طالبٌ حدّثني عن قصّةٍ، وهو لا يدري ما الموضوع، قال لي: لنا جارٌ يا أستاذ أكل مال الأيتام ظلماً، ومال أولاد أخيه الأيتام، وكان عليهم وَصيًا، امتنع عن إعطائهم عشرين ألف ليرة ـ والقصّة قديمة حدثت في الستينات ـ شكوه لبعض علماء دمشق الأجلاء، فاستدعى العم، وحضّه على دفع المال لأولاد أخيه، هذا العم امتنع وأبى، فقال هذا العالِم لأولاد الأخ: أشكوه إلى الله، هذه القصّة كانت في الساعة الثامنة مثلاً من مساء السبت، في الساعة العاشرة في اليوم التالي جاءته الرصاصة في عموده الفقري، وأصابته بالشلل.

الإنسان أحياناً يرى حادثة ظاهرها فيه ظلم ؛ لكن وراءها عدالة مطلقة، والحقيقة كل إنسان آخذ حقّه، والإنسان يعرف.

سأضطر أن أذكر قصّة ثالثة، ولكنها، رمزيّة وليست واقعيّة، أنتم تعرفونها مني سابقاً: شوحة سألت سيدنا سليمان: ربنا عجولٌ أم مهول ؟ فقال لها: إنه مهول كما أعلم، فاطمأنّت لهذا التوجيه، فجاءت لأناسٍ يأكلون لحماً فسرقت هذا اللحم، وطارت به، علق بهذا اللحم قطعة فحم مشتعلة، أحرقت عشّها، وبيضها وكل شيء، رجعت إليه، وقالت له: ألم تقل: إن ربّك مهول، ها هو ذا عجول، فقال: يا رب بماذا أجيبها ؟ فقال الله عزّ وجل: قل لها: هذا حساب قديم.

أحياناً الإنسان يدفع ثمن أشياء قديمة من عشرات السنين، من أربعين سنة ضرب والده، في المكان نفسه جاء ابنه ليضربه اليوم، هناك قصص كثيرة جداً، فالإنسان قبل أن يُقْدِم على معصية، قبل أن يقدم على كسب مال حرام، قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يغتاب، قبل أن يتّهم، قبل أن يوزّع التهم على الناس، قبل أن ينهَش في أعراض الآخرين، قبل أن يغوص في المعاصي، ليفكِّر هناك إلهٌ عادل بالمرصاد..

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

يرى كل شيء، ويعلم كل شيء، وسيحاسبك عن كل شيء..

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أي يا عبادي هل رأيتموني أجازي إلا الكفور ؟

(وَهَلْ نُجَازِي إلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

مرّةً ثانية: المترفون دائماً هم كفارٌ، المُتْرَف الذي ينفق أموالاً طائلةً بغير حساب، وبلا تعقُّل، وبلا حكمة، على شهواته وعلى معاصيه، فهذا الذي ينفق أموالاً طائلةً على المعاصي والآثام، ويحرم منها الفقراء والمحتاجين، هذا قول واحد كافر، لأن كلمة ترف لم ترد في القرآن إلا في ثمانية مواضع حصراً، وفي هذه المواضع الثمانية اقترن الترف بالكفر..

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا)

المترفون يكفرون، والكفّار مترفون، وهناك علاقةٌ ترابطيّةٌ بين الكفّار والمترفين.

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

توهَّم الكفّار أن الله عزّ وجل لأنه أعطاهم أموالاً طائلة إذاً هو يحبُّهم، إذاً: لن يعذِّبهم، أي استنباط مضحك، إذا ذهب إلى أوروبا، أو أمريكا، أو اليابان، وغاص في الزنا إلى قمّة رأسه، يقول لك في النهاية: إذا الله أحب عبده أراه مُلْكه، من قال لك هذا الكلام ؟ كلامٌ مضحك، كلام الشياطين، كلامٌ مضلِّل، يجب أن تعلم علم اليقين أن الدنيا لا يمكن أن تكون مقياساً، لا إذا أعطاك الله إيّاها مقياس، ولا إذا منعها عنك مقياس، عرَضٌ حاضر يأكل منه البرُّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، أعطاها لأعدائه، لم يرض أن تكون عطاءً لأوليائه..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

أعطى الملك لمن لا يحب أعطاه لفرعون، أعطى المال لمن لا يحب أعطاه لقارون، وأما الأنبياء والمرسلون أعطاهم الله العلم والحكمة، فإذا أوتيت نصيباً من العلم والحكمة فأنت قد نِلتَ عطاء الأحباب..

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

الجواب من قِبَل الله عزّ وجل:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

أكثر الناس لا يعلمون أن الدنيا ليست عطاءً، لا حرمانها إهانةً ولا عطاؤها إكراماً، والدليل في سورة الفجر:

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

هو..

(رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

هو..

(رَبِّي أَهَانَنِ(16))

الله قال: كَلا، ردعٌ ونفيٌ، أي يا عبادي ليس عطائي إكراماً، ولا منعي إهانةً، إن عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هكذا ينبغي أن نفهم، ما عندك بيت، معنى هذا أن الله لا يحبّكَ، لا، هذا كلام مضحك، ربّما كان الله لا يحبّ الذين يملكون آلاف البيوت، في حكمة..

((إنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وإنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه))

هناك حكمةٌ إذا كُشِفَت رضيت بالواقع، لو كُشِف الغطاء لاخترتم الواقع..

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

أي يعطي بحكمةٍ..

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

إن هذه الدنيا ليست عطاءً، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، أحياناً الإنسان يسترسل بالمعاصي فربنا يؤدِّبه تأديباً شديداً، يحرمه من كل الدنيا، فيتوب إلى الله، هذا الحرمان عطاء، أعطاه الآخرة، أعطاه الجنّة، ضَيّق عليك في الدنيا، حرمك إيّاها، فتبت إلى الله عزّ وجل، وأقبلت عليه، فاستحققت دخول الجنّة، حرمك الدنيا وأعطاك الجنّة وربّما أعطاك الدنيا كما تشتهي، فأطغاك المال، وجعلك من أهل النار لا سمح الله ولا قدّر إذاً هذا ليس عطاءً، الأمور بخواتيمها، الأمور بنهاياتها، الأمور عند الموت، الأمور بعد الموت، هذا ما قاله سيدنا علي كرّم الله وجهه، قال: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>**، قبل العرض على الله ليس الغنى غنىً، وليس الفقرُ فقراً..

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى)

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى

فأموالكم العريضة، بيوتكم الفخمة، تجارتكم الواسعة، مكاتبكم الوثيرة، فروع شركتكم في عدّة بُلدان، مكانتكم العليّة في المجتمع لن تغني عنك من الله شيئاً، يقول لك: فلان حجمه المالي كذا، لا أموالك ولا أولادك، العشر النجباء أصحاب المناصب الرفيعة.. تقرّبك عند الله زلفى..

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

إذا كنت مؤمنا، وكنت غنياً لا مانع، وأنفقت هذا المال في طاعة الله أنْعِم وأكْرِم، إذا كنت مؤمناً، وعندك أولاد صالحون، وقلت: الأكبر حافظ قرآن، والثاني الحمد لله وَرِع، ابني الثالث يحمل شهادة شرعيّة عُليا، له دعوة إلى الله، شيء جميل والله، إذا افتخرت بأولاد صالحين، خيّرين، نُجباء، مستقيمين، لك الحق أن تفتخر..

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)

فالإنسان إذا كان بين يديه مال وأنفقه في سبيل الله فهذا يرقى عند الله، عنده ولد صالح نفع الناس من بعده هذا يرقى عند الله..

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ

إن الذي يسعى لإحباط الحق، لإطفاء نور الله عزّ وجل، لوضع العصي في عجلات الإيمان، للتشكيك بما ينفع الناس ويصلحهم، هؤلاء الذين يفعلون هذا أيضاً سوف يعذّبون عذاباً أليماً في الآخرة..

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

فأية نفقةٍ تنفقونها في الدنيا الله سبحانه وتعالى سيخلفها، ويعوّضها أضعافاً مضاعفة.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع تفسير سورة سبأ بدءاً من قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (09-10): تفسير الآيات 40 - 48
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع من سورة سبأ، ومع الآية الأربعين التي تبدأ بقوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(40)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

1 - إياكِ أعني واسمعي يا جارة:

أيها الإخوة الأكارم... هذه الآية فيها توجيهٌ تربوي، ويعبر عن هذه القاعدة التربوية بكلمة: إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمّيَ إِلَـهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117))

(سورة المائدة)

يا ترى من المقصود، سيدنا عيسى ؟ إطلاقاً، المقصود هؤلاء الذين قالوا: هو إله، هو ابن الله، فهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليب التقريع، إذا أردت أن تُقَرّعَ إنساناً، أو توبّخَهُ، أن تضعه أمام خطئه الشنيع، أن تظهر فِعْلَتَهُ السيِّئة، فاتركه واسأل آخر، وليسمع من الآخرين حجم فعلته، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)

2 - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

هؤلاء الوثنيون، هؤلاء الذين عبدوا الأوثان، وقالوا: هذه الأوثان نحن صنعناها على شكل ملائكة كي نتقرب بها إلى الله عزّ وجل، هذه دعوة باطلة، نحن نحتنا هذه الأصنام كي تذكِّرنا بملائكةٍ مقربةٍ طاهرةٍ نعبدها كي نتقرب إلى الله زلفى، فربنا عزّ وجل جمعهم يوم القيامة..

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)

3 ـ ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

أي أنتم أمرتم هؤلاء أن يعبدوكم من دون الله ؟ أهؤلاء الوثنيون عبدوكم، وهل أنتم راضون على أن يعبدوكم من دون الله ؟ أسلوبٌ حكيم فيه تقريعٌ للكفار، وتبكيتٌ لهم، وإظهارٌ لوثنيتهم وشركهم.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ)

يا رب أنت منزهٌ عن الشريك، أنت منزهٌ عن الوَلَدِ، ونحن ليس في إمكاننا أن ندعي أو أن نأمر أحداً أن يعبدنا من دون الله، سبحانك يا رب.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ)

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

1 ـ معنى التسبيح:

ومعنى سبحانك أي أنت منزهٌ عن ذلك، وقد يضاف إلى التنزيه معنى التمجيد، إذا قلت:

(سَبّحَ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الحديد: من الآية 1)

أي نزهه عن كل نقصٍ ووصفه بكل كمالٍ، هو تنزيه يقتضي التمجيد، ولكن التمجيد من باب التأكيد، فالتسبيح بمعنى التنزيه والتمجيد، أي أنت يا ربِّ منزهٌ عن كل نقص، وأنت أهل لكل كمال، فسبحان الله، والحمد الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبحانك: أي ما أعظم شأنك، ما أبعدك عن هذه الأقاويل، ما أبعدك عن هذه الوثنيّات.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ)

أي أنت الذي تتولى أمورنا، أمرنا بيدك وحدك.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ)

2 ـ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ

لماذا ؟ لأن الكفار يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

فالمؤمن وليّه الله، يهتدي بهدى الله، ويسترشد بإرشاده، ويقتدي بنبيه، ويطبّق أمره، ويقيم منهجه.

(أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

3 ـ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

الجن، أكثر الجن هدفهم الإضلال، فأي إنسانٍ يتعاون مع الجن ليُضِلّ الناس عن سبيل الله عزّ وجل فقد كفر، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من سحر فقد أشرك))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

وحينما يتعاون الإنس مع الجن يزداد رَهَقاً وشقاءً..

(فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(6))

(سورة الجن)

كما قال الله عزّ وجل..

(سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

يقول الله عزّ وجل:

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

سؤال: في الدنيا هل يملك بعضنا لبعضٍ نفعاً أو ضراً ؟ كيف يقول الله عزّ وجل: فاليوم ؟

1 ـ في الدنيا في الظاهر هناك أشخاص ينفعون ويضرون:

جواب هذا السؤال: الناس في الدنيا في عمى، ماذا يرون، يرون أشخاصاً أقوياء، بيدهم أمور البشر، الناس وهم في عمى، وهم في غفلة، وهم في بعدٍ عن حقيقة الإيمان، يرون بعضهم بعضاً ؛ فلان بإمكانه أن يفعل كذا وكذا، وفلان بإمكانه أن يوقع ضراً بفلان، وفلان بإمكانه أن يعطي فلاناً، حينما ترى الأشخاص مصدر العطاء والمنع، والنفع والضر، فهذا أكبر أنواع الشرك، فلذلك نحن في الدنيا قد نرى أشخاصاً أقوياء، وبسببٍ من غفلتنا، ومن ضعف يقيننا، ومن ضعف إيماننا، قد نعزو لهم المنع

والعطاء أو النفع والضر، ولكن في الحقيقة لو تأمّلت مَلياً، ولو تحققت جدياً، ولو كشف الله لك الغطاء، ولو استنرت بنور الله لما رأيت إلا الله في الدنيا، ولكن في الآخرة هذا يبدو للناس جميعاً.
ففي الدنيا للمؤمن يبدو أن الله بيده كل شيء، وأنه لا أحد معه، لكن أهل الدنيا يرون العكس، يرون أن أمورهم بيد بعضهم بعضاً، وأن أي إنسانٍ قوي بيده النفع والضر، والخير والشر، والعطاء والمَنع، هذه رؤية أهل الكفر، هذه رؤية أهل البُعد، هذه رؤية أهل الغفلة، هذه رؤية أهل الضلال، لكن المؤمن في الدنيا لا يرى إلا الله، ولا يرى مانع، ولا معطي، ولا قابض، ولا باسط، ولا معز، ولا مذل إلا الله، لكن يوم القيامة هذه رؤيةٌ عامّة، كل الخلائق يرى أن أحداً ليس بإمكانه أن يعطي أحداً، ولا أن يمنع أحداً، ولا أن ينفع أحداً، ولا أن يضر أحداً.

2 ـ كل شيء يشير إلى الله:

إذاً: في الدنيا هناك رؤيةٌ صحيحة يملكها المؤمنون، ورؤية مغلوطةٌ ضبابية معتمة يقع بها الضالون، وفي الآخرة هذه رؤية عامة، يؤكد هذا آيةٌ أخرى، يقول الله عزّ وجل في كتابه الكريم متحدثاً عن يوم القيامة:

(ألا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

وقد يسأل سائل: ما دامت قد صارت إلى الله فبيد من كانت قبل ذلك ؟ الجواب: أن أهل الغفلة والإعراض والكفر والضلال يرون الأمور بيد زيد أو عُبيد في الدنيا، فإذا انتقلوا إلى الدار الآخرة، دار اليقين ودار الحق، يرون الأمور على حقيقتها، يرون أن الأمور كلها بيد الله، إذاً: هذا لا من حيث الفعل من حيث الرؤية، الأمور كلها بيد الله في الدنيا والآخرة، والأمور كلها تصير إلى الله في الدنيا وفي الآخرة، ولكن أهل البُعد والضلال والعمى يرون الأمر معكوساً في الدنيا، لهذا ورد أن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، وورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

3 ـ خيار الإيمان خيار وقتٍ:

يا أيها الإخوة الأكارم... أقول لكم: الإيمان لابدّ من أن يحصل، لأكفر كفار الأرض، للملحدين، للعتاة، للمجرمين، للمنغمسين في شهواتهم، للمنغمسين في أعمالٍ قذرةٍ، للمعرضين، لابدّ من أن يقع الإيمان، ولكن يقع بعد فوات الأوان، يقع ولا يستفيدون منه إطلاقاً، فالدعوة لا إلى أن تؤمن، لابدّ من أن تؤمن، الدعوة إلى أن تؤمن في الوقت المناسب، إلى أن تؤمن وأنت حي، إلى أن تؤمن وأنت شاب، إلى أنت تؤمن وأنت صحيح، إلى أن تؤمن وأنت قوي، إلى أن تؤمن وأنت غني، إلى أن تؤمن وأنت فارغ من الأشغال، ذو صحةٍ، وفراغ، وشبابٍ، ومالٍ، وقوةٍ، الآن آمن.

إنك إن آمنت الآن قطفت ثمار الإيمان في الدنيا والآخرة، إنك إن آمنت شَكّلْتَ حياتك وفق قواعد الإيمان، اخترت زوجتك بمقياس أهل الإيمان، اخترت حرفتك بمقياس أهل الإيمان، ربّيْتَ أولادك وفق المنهج الإلهي ؛ أما إذا تأخرت في الإيمان حتى شاب المشيب، وحتى انحنى الظهر، وحتى ضعف البصر، عندئذٍ أنت آمنت، ولكن بين أناسٍ ليسوا مؤمنين، بين أقرب الناس إليك، أنت في وادٍ وهي في واد، أنت في وادٍ وأولادك في واد، الإيمان جيّد، والأجود منه أن تؤمن في الوقت المناسب، وأن تؤمن مبكراً من أجل أن تشكِّل حياتك تشكيلاً إسلامياً..

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(40)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ(41)فَالْيَوْمَ)

يقول الله عزّ وجل:

(لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النّارِ الّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النّارِ

1 ـ أشدّ أنواع الظلم ظلمُ النفس:

ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم، فأشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، هذه نفسك التي بين جنبيك رأسُ مالك، هي ذاتك، هي المُخاطبة، هي المُعاتبة، هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي الخالدة تذوق الموت ولا تموت، هي التي تعذّب إلى أبد الآبدين، هي التي تنعم إلى أبد الآبدين، هي العاقلة، هي المدركة، إذا خسرتها خسرت كل شيء، قد تخسر كل شيءٍ وتربحها، فأنت الرابح الأكبر، وقد تربح كل شيءٍ وتخسرها، أنت الخاسر الأول، هذا الذي حَصّلَ أموالاً طائلة وخسر نفسه، أبقاها جاهلة، أبقاها عاصية،

أبقاها غارقة في المعاصي والآثام، أبقاها مشركة، أبقاها كافرة، أبقاها فاسقة، إذا جاءه الموت ماذا تنفعه أمواله الطائلة، ومكانته العَلِيّة، وأملاكه التي لا تنتهي ؟ فقد تربح كل شيءٍ ـ دققوا هذه الكلمة ـ وتخسر نفسك التي بين جنبيك، أنت أكبر الخاسرين، بل أنت أخسر الخاسرين، وقد تخسر كل شيء وتربح نفسك.

سحرة فرعون ماذا خسروا ؟ خسروا كل شيء، خسروا حياتهم:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72))

(سورة طه)

كل رأس مالهم، لكنهم ربحوا أنفسهم الخالدة بعد الموت.

(وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

2 ـ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

يجب إقامة القرآن في النفس والبيت والعمل:

فهل عندك شكٌّ أن هذا الكلام كلام الله ؟ وفي القرآن آيات خطيرة جداً، تعامل معها تعاملاً جَدِّياً، أحياناً الإنسان، ويا للأسف يتعامل مع البشر تعاملاً جدياً، ولا يتعامل مع خالقه إلا تعاملاً ضبابياً أسطورياً، كأن تتلو القرآن دون أن تطبقه، ما قيمة هذه التلاوة ؟ ألم تسمع بقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

هذا الكتاب يجب أن تقيمه في بيتك، في دكانك، في مكتبك، في عيادتك، في أي مكان يجب أن يُقام، إذاً أشد أنواع الخسارة أن تخسر نفسك، في آيات أخرى جاءت بشكل واضح:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 21)

3 ـ النهاية إلى الموت:

يوم القيامة، لا تبتعدوا كثيراً، أحياناً يكون مع الإنسان أموال طائلة، فيصاب بمرض عضال، يتحسّر على هذا المال لماذا جمعه ؟ أصبح المال تافهاً لا قيمة له، فكيف إذا أدرك الإنسان في بعض الساعات أن المصير الأبدي هو جهنم، فكل ما حصّله في الدنيا خسارةٌ في خسارة، لهذا قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

((كفى بالموت واعظا يا عمر))

[كنز العمال عن محمد بن المتوكل]

سيدنا رسول الله فيما يروى عنه:

((تركت فيكم واعظين: ناطقاً وصامتاً))

[ورد في الأثر]

الناطق هو القرآن، والصامت هو الموت، لهذا ورد أن في معالجة جسدٍ خاوٍ لموعظة، ماذا يقول الناطق ؟ يقول:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205))

(سورة الشعراء)

إلهٌ يقول هذا الكلام:

(مَتَّعْنَاهُمْ)

أموال طائلة لا تأكلها النيران، بيوت، حدائق، مركبات، مقاصف، رحلات..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

هناك شخص من أهل الفن اعتنى بصحته عنايةً تفوق حد الخيال، الرياضة، والطعام النفيس، والمقنن المدروس من قبل خبراء في التغذية، والعشاء فواكه، والحركة الرياضية، وعاش عمراً طويلاً، ولكنه في النهاية مات..

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

أنتم تستمعون في الأخبار أحياناً أن المليونير الفلاني، ملك الحديد، ملك الذهب بالعالم، مات وهو على باخرة في رحلة بحرية، أصبح كالجيفة، طبعاً الموت حق، ولكن لما يجعل الإنسان كل رأس ماله في الدنيا، ويأتي الموت فقد وقع في أخطر مغامرة، أما إذا كان مهيئاً للآخرة شيئًا يأتي الموت، وينقله من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرَحِمِ إلى سعة الدنيا، إذاً:

(وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

أنا أناشدكم الله عزّ وجل، لو أن أحداً دُعِيَ إلى مئة وليمة، وكل وليمةٍ طعامها أطيب من أختها، وأكل ما لذ وطاب من المُقَبّلاتِ إلى اللحوم إلى الفواكه إلى الحلويّات، وبعد هذه الولائم المائة أصابه ألمٌ في أضراسه، ولم يهتد إلى طبيبٍ في الليل، وأمضى أربع ساعاتٍ يقول لك: لا يعلمها إلا الله كيف مضت، يقول لك: الدقيقة سنة، وهو في هذه الآلام الشديدة لا يذكر الأكلة الفلانية أنها كانت طيبة، هل يذكر ذلك؟ إطلاقاً، لو أراد أن يستحضر طعوم هذه الأكلات التي أكلها في مائة دعوة دعي لها، لليلةٌ واحدة من آلام الأسنان تنسيه كل هذه الولائم.

4 ـ الغنى والفقر بعد العرض على الله:

فلذلك ورد أن الإنسان إذا مات ورأى مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط في حياتي، ينسى كل المُتَع، وكل اللذات، وكل الشهوات، وحينما يَطّلِعُ المؤمن على مقامه في الجنة، يقول: لم أر شراً قط، لهذا قال سيدنا علي: **" يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".**

إذا أكرمك الله عزّ وجل بالإيمان والاستقامة والعمل الصالح فأنت الغني، لهذا قال سيدنا علي: << الغنى والفقر بعد العرض على الله >>، عندما يأتي الموت، ثلاثون، أربعون، خمسون سنة أمضيتها في معرفة الله، وفي ضبط جوارحك، وفي التهجُّد، وفي تلاوة القرآن، وفي فهم كلام الله، وفي خدمة الخَلق، وفي الإحسان إليهم، وفي الدلالة على الله عزّ وجل، يأتيك ملك الموت تشعر أنه أقرب الناس إليك، يأتي بأحب الناس إليك.

(سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(73))

(سورة الزمر)

ربنا عزّ وجل يُقْرِئك السلام، ويقول لك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

أما الذي غاص في الدنيا إلى قمة رأسه، ثم جاء يوم القيامة، يقال له كما ورد في القرآن:

(لا مَرْحَبًا بِكُمْ)

(سورة ص: من الآية 60)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ

1 ـ بدعة التقاليد السيئة:

التعلق بالتقاليد، أين العقل ؟ والآن يقول لك: هكذا ربينا، ربينا على الاختلاط، ربينا على سماع الغناء، ربينا عل غيبة الناس، هذا شيء متأصل فيّ، هكذا ربيت أنت ربيت تربية خاطئة، يقول لك: هذه بيئة، ما هذه البيئة ؟ هل البيئة إلهٌ تعبدها من دون الله ؟ تقاليد، شيء ورثناه، البيئة، والتقاليد، والعادات، والمظاهر الاجتماعية، هذه إذا تعارضت مع الشرع يجب أن تكون تحت قدمِك، الشاب يجلس مع زوجته أمام مئة امرأة كاسية عارية وهو مسلم، وزوجته مسلمة، وهم محافظون، وهم محافظون، فما تعني كلمة محافظين ؟ عنده خلفية دينية، ما هذه الخلفية الدينية ؟ ديّن أو غير دَيّن، لا توجد خلفية دينية، ديّن معناه مستقيم، عاص معناه غير ديّن، فلذلك هذه التقاليد والعادات، وما نشأنا عليه، وما كان يفعل الآباء، هذه إذا تعارضت مع الشرع، ينبغي أن ينبذها الإنسان.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

2 ـ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

نص قرآني واضح الدلالة، قطعي الدلالة، كلام خالق الكون، يأمر وينهى، تقول له: قال الله عزّ وجل، يقول لك: لكن فلان لم يقل هكذا، هل يقال فلان مع الله عزّ وجل ؟ إذا قلت لك: قال الله عزّ وجل تقول لي: فلان، فمن فلان أمام الله عزّ وجل ؟!

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

3 ـ الكفر بالقرآن لا يلغي قوانينه:

قلت لكم سابقاً: إذا قلت للقرآن: هذا كلام مفترى، يبقى القرآن قرآناً، وهو كلام الله عزّ وجل، وأنت وحدك الخاسر.

مرة ضربت مثلاً: أنت تركب طيارة، ويجب أن تسقط من الطيارة، وعندك مظلة مصممة وفق قوانين السقوط، فإذا احتقرت هذه القوانين، ولم تعبأ بها، وسخرت منها، وضحكت منها، قلت: هذه القوانين خرافات، لكن القوانين مطبقة عليك، احتقارك لهذه القوانين، وسخريتك منها، واستهزاؤك بها لا يعطلها،

ولا يلغيها، هي تعمل، أترى قانون السقوط بالمظلة مدروسة دراسة جيدة، هي من قماش كتيم، ومساحة القماش تكفي لهبوط إنسان وزنه سبعون كيلوًا ببطء، فالمظلة مدروسة دراسة وفق أدق قوانين السقوط، فإذا احتقرت قانون السقوط، وسخرت منه، ورفضته، وكفرت به ليس معناه أنك ألغيته، معناه ألغيت وجودك، فلو هبطت من هذه الطائرة من دون مظلة لدقت عنقك، أليس كذلك ؟

النقطة التي أحب أن أقولها لكم هي: إذا لم تصدق شيئاً، أو كفرت به، أو سخرت منه، ليس معناها أنك ألغيته، قائم، قائم، هو مطبقٌ عليك، فأنت الخاسر الوحيد، وأوضح مثل الذي يكفر بقوانين السقوط، والذي يسخر منها، والذي يستهزئ بها، والذي يحتقرها، فإذا سقط، نزل من الطائرة من دون مظلة احتقاراً لهذا القانون وهذه المعطيات، إنه بهذا الكفر والسخرية لا يلغي القانون ؛ بل إن القانون منفذٌ ونافذٌ، وسوف يدق عنقه.

عندما تسخر من قضية شرعية، هكذا الدين قال ؟ نعم هكذا قال الدين، معقول من دون فائدة ؟ إذا سخرت من قوانين ربنا الاقتصادية، وسخرت من أساليب القرآن في التعامل مع الناس، سخرت من القوانين الاجتماعية ولم تعبأ بها، وقلت: هذه لا تصلح لهذه الأيام، لكنها هي مطبّقة لم تلغها.

أنا أسوق لكم هذه القصة لأنها شاهد واضح، مرة رجل شكا لي قضية، وانهمرت دموعه فجأةً، قلت: لِمَ تبكي يا أخي؟ قال: زوجتي تخونني، قلت: أعوذ بالله، قال: والله من سنتين، وأنا لا أدري الآن كشفتها، قلت: مع مَنْ ؟ قال: مع الجار ـ شيء جميل ـ فكيف عرفته ؟ قال: والله حينما زارنا قلت لها: يا أم فلان تعالي اجلسي معنا هو كأخيكِ، قوانين الدين لم يصدقها، عدم الاختلاط، طبقت عليه ودفع هو الثمن، هذا مثل صارخ إذا لم تطبق أمر الله:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ)

(سورة النور: من الآية 31)

هذا قانون، فإذا لم تأبه له لأنه غير معقول، وتقول: ربينا سويا، نشأنا معاً، فالثمن باهظ، فكل إنسان يطبق شرع الله عزّ وجل في حصنٍ حصين، دخل في حصن، لأن هذه تعليمات الصانع، الذي صمم الذكر والأنثى أمر بذلك..

((لا يَخْلُوَنّ أَحَدُكُمْ بامْرَأَةٍ فَإِنّ الشّيْطانَ ثالِثُهُمَا))

[من مسند أحمد عن عمر بن الخطاب]

4 ـ الإنسان آلة معقدة يجب اتباع تعليمات خالقه:

الذي صمم الإنسان وأودع فيه هذه الشهوات هذا قانونه، وهذه تعليمات الصانع.

إذا كان لك آلة غالية، كمبيوتر مثلاً، لماذا أول شيءٍ تفعله أن تأخذ كتاب الشركة وتترجمه ؟ هل تسأل جارك الخبّاز عن طريقة استعماله ؟ هل تسأل جارك القصّاب ؟ هل تسأل صديقك المعلم ؟ لا، كل هؤلاء لا يعرفون ؛ جهة واحدةٌ تعرف أسرار هذا الكمبيوتر هي الجهة الصانعة، لذلك أول شيءٍ تبحث عن التعليمات، تعليمات التشغيل والصيانة، والتحذيرات والتنبيهات، وأنت آلة، بل أعقد آلة، أليس لك تعليمات من الصانع، إنه القرآن الكريم، فالقضية أن تحب نفسك ليس غير، أن تحب ذاتك، أنت غالٍ، أنت المخلوق الأول، أنت مُعَد لحياة أبدية، هذه الحياة دنيا، سمّاها الله دنيا، فإذا اعتنيت بنفسك، وبحثت عن تعليمات الصانع وقدستها، وأكبرتها وبجّلتها، ونفذتها بحذافيرها فأنت الرابح الأول.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من الآية 21)

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ

فلا توجد تجارب سابقة فالرسول معه دليل، ومعه إعجاز، ومعه وحي، والنبي معروف بينهم، يعرفون نسبه، وأمانته، وصدقه، وعدالته، وعفافه، والقرآن فيه إعجاز تحدّاهم الله عزّ وجل.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

وهذا أيضاً أسلوب تربوي آخر، أن فلاناً أوتي أكثر مما أوتيت، فلما كذّب دمره الله عزّ وجل فانتبه أنت.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ

إذا أتيح للإنسان أن يرى الأهرامات، إنها عمل إلى الآن مُعجز، في أرضٍ صحراويةٍ كلها رمل، الهرم فيه أحجار بحجوم تفوق حَدَّ الخيال، وبعدد فلكي، وبعض الأهرامات فيه نافذة مدت بزاوية لا تتفق مع

أشعة الشمس إلا يوماً في العام هو يوم تاريخ ميلاد صاحب هذا الهرم، أتستطيع أن تعمل نافذة ضيقة وعميقة، بزاوية لا تدخل الشمس عبرها إلا في يومٍ واحد ؟ شيء معجز، من زار قبور الفراعنة، مدافنهم، يرى الشيء الذي لا يصدق، ومع ذلك كذبوا فأهلكناهم، من أنت ؟ إلى الآن سر التحنيط غير معروف، أنت أمام فرعون موسى، قبل ستة آلاف عام كأنه هو، وهذا مما يؤكد قول الله عزّ وجل:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس: من الآية 92)

وقبل سنوات أعتقد أخذوه إلى فرنسا ليرمموا بعض التعفنات، واستقبلوه بالمطار استقبال الأباطرة.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ)

أنتم ماذا عندكم ؟ ليس عندكم شيء، أحجار الأهرام قيل أنها جلبت من أسوان، فكيف حُمل حجر طوله ثمانية أمتار، ووزنه سبعون أو ثمانون طناً، كيف حُمِلَ من أسوان عبر النيل ؟ معنى ذلك أنه حمل بمراكب ضخمة، لكن من شاطئ النيل إلى موقع الهرم عشرة كيلو مترات تقريباً.

والأنباط بالأردن، مدينة بأكملها محفورة بالصخر، الحمامات، والقصور، والبيوت، وقاعات المحاكمات، كلها اذهب وانظر، هذه الآثار سمح الله أن تبقى لا من أجل أن نرتزق منها، من أجل أن نعتبر بها.

التدمريون، آثار تدمر شاهدة، أقوامٌ عريقون في الحضارة عصوا ربهم فدمّرهم الله عزّ وجل.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ

1 ـ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ

ففي الحقيقة قبل يومين ضربت لهذه الآية مثلاً: طُرِقَ بابك، جاءك ساعي البريد برسالة، بالله عليكم قبل أن تفتحها، وقبل أن تقرأها، وقبل أن ترى فحواها، وقبل أن تطلع عليها، أمسكتها وألقيتها في سلة المُهملات، يقال: أين عقلك ؟ اقرأها اقرأ ما فيها، قبل أن تهملها اقرأها، فإذا وجدت فيها سُخفاً أهملها، أما قبل أن تقرأها تهملها!!

سؤال: هذا القرآن الذي بين أيدينا كلام خالقنا، لكن قبل أن تدخل في متاهات الخلافيّات مع الناس، قبل أن تدخل في الخلافيات والمماحكات، قبل كل شيء يجب أن تعكف عليه حتى تفهمه، دعوة الله للناس، رسالة السماء لأهل الأرض:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

ربنا يعظنا، خالقنا..

(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

2 ـ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى

إذا شئت قمت وحدك، وإذا شئت قمت مع أخيك..

(مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)

التفكر في دعوة النبي عليه الصلاة والسلام:

في دعوة النبي، انظر لماذا جاء النبي ؟ جاء بنظام كامل، انظر نظام الزواج كامل ؟ نظام البيوع كامل؟ نظام القيم كامل ؟ الخُلُق شيء مريح للناس ؟ قطع يد السارق شيء كامل ؟ فكِّر في هذا القرآن، فكر في هذه السُنَّة..

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

3 ـ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ

ليس مجنوناً، ولكنه رسول رب العالمين، نبي هذه الأمة، معه نورٌ من السماء، معه صراطٌ مستقيم، معه حبل الله المتين.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

نذير ينذركم إن لم تؤمنوا بعذابٍ شديد، هذا هو النذير..

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

1 ـ علامة إخلاص الداعي أنه لا يبتغي أجرا من دعوته:

وهذه علامة الصادقين المُخلصين، لا يبتغي منك أجراً ؛ لا مادياً ولا معنوياً، ولا مديحاً ولا ثناء، ولا تقريظاً، ولا إطلاقاً، يبتغي عند الله الأجر، يبتغي عند الله الرزق..

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ)

2 ـ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ

فلا يوجد إنسان ليس له أجر، هات لي إنساناً واحداً يعمل بلا أجر، الطبيب له أجر، والمحامي له أجر، والمهندس له أجر، لا يوجد إنسان بلا أجر، إلا إذا دخلت بيت الله عزّ وجل، لا أجر إطلاقاً، لا يوجد قسائم، ولا يوجد قطع تذاكر، ولا يوجد شيء أبداً، أبواب بيوت الله مفتحة للمصلين، تعال اسمع كلام ربك، تعال افهم سنة نبيك، تعال تعلم سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، تعال تفقه في دينك، تعال اعرف لماذا أنت في الدنيا ؟ لماذا أنت مخلوق ؟ إلى أين المصير ؟ ماذا بعد الموت ؟ ماذا قبل الموت ؟ ماذا ينبغي ؟ ماذا لا ينبغي ؟ ما يجوز ؟ ما لا يجوز ؟ ما الحق ؟ ما الباطل ؟ ما الخير ؟ ما الشر ؟ تعال.

إلى متى أنت باللذات مشغول ؟ وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعال يا عبدي، تعال كي أحط عنك هموماً أثقلت صدرك، الإنسان مع المعاصي نومه شقاء، هموم وكوابيس في الليل، وقلق وحيرة، وضجر وخوف ؛ فإذا اصطلحت مع الله عزّ وجل، إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغلٌ واخلص لنا تلق المسرة والهنا

***

إذا ذاق أحدنا طعم القرب، طعم التوبة، طعم الإنابة إلى الله عزّ وجل، طعم الصُلح مع الله، طعم الاستقامة، طعم الالتجاء إلى الله، طعم الاستعاذة بالله معناه أنه ذق طعم السعادة المطلقة، طعم أن تشعر أن خالق الكون معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(47)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

رسالات، دعوات، الأنواء الفلكية كأنها تنطق بعظمة الله، الله عزّ وجل ترك الناس حتى وقعوا في اليأس، جفاف، أمطار شحيحة، نسب أمطار قليلة، الينابيع جفّت، الأنهار جفت، الأشجار يبست، صار كأس الماء ثمين جداً، مزارع أصبحت تالفة، جاء العلماء فلسفوها: تَصَحُّر، انتقال خطوط المطر، حركات معقدة للأرض نقلتها من برجٍ إلى برج، هذا الذي عند الناس اليأس والقنوط.

والله قبل سنة التقيت مع أخ، هو قريب، عضو بلجنة أحواض دمشق، والله لشدة ما أشاع من اليأس لم أكد أقف على قدمي، نحن انتهينا نهائياً، نحن في طريق الجفاف، في طريق التصحُّر، أنظر إلى الأنواء الإلهية فاجأت الناس.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من الآية 21)

آخر رقم رأيته البارحة ثلاثمائة وستة عشر مليمترا في دمشق، مقابل مائة وستين في السنوات المطيرة، مقابل خمسة وستين في السنوات غير المطيرة، ثلاثمائة وستة عشر، هذا عطاؤنا، الله عزّ وجل وجوده صارخ، يريك من آياته، في الفضاء الخارجي، يقول لك: هذا تشالنجر، هذا المتحدي، كل ما فيه دقيق جداً، سبعين ثانية أصبح تشالنجر كتلة من اللهب مع سبع رواد فضاء، هذا التحدي، من تتحدون ؟ الإيمان جميل جداً، تحس براحة، خالق الكون يعلم كل شيء، بيده كل شيء، ربنا عزّ وجل رحيمٌ بنا.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ)

أحياناً تجد مرابياً يكبر يَكبر يكبر، ويتحدى الإسلام، لا تحريم بلا تحليل، تجده ينتهي نهاية مفجعة، الله يدمره يقصمه قصماً، الله يريك كيف يحطِّم المتجبرين، كيف يحطم المنحرفين، كيف يُقْلِق العصاة، وكيف يقوي المؤمنين، ويدعمهم، ويعلي شأنهم، هذه الآية تكفينا:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور تَدور لا تستقر إلا على إكرام المؤمن وعلى إعزازه.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

1 ـ احذروا غضب الله وانتقامَه:

امرأة قالت لضرتها كيداً: هذا ولد على يدي، وولد في بطني، وولد ماشٍ على الأرض، الثلاثة ماتوا، والله عزّ وجل أكرم ضرتها بخمسة أولاد صبيان، هذا يقذف بالحق، أحياناً الإنسان يلعب بالميراث، يأخذ ميراث إخوته، أكبر إخوته، وهو قوي، والأم معه، وإخوته ضعاف صغار، تدور الأيام فيعمل عندهم موظفاً، يفتقر، ويغنى هؤلاء الضعاف، ويجعله الله عندهم موظفاً، فعل الله صارخ واضح كالشمس في أفعاله، وفي كلامه، وفي خلقه.

مثلاً الإيدز، أليس هذا يقذف بالحق ؟ هذا المجتمع الغربي كفر بالله عزّ وجل، وآمن بالعقل، العقل هو كل شيء، آمن بالعلم، هذه الثروات استنبطها، صَنَّعَ تكنولوجيا، تقدُّم، آلات، إلكترونيات، رحلات فضاء، اتصالات، كلكم يرى بعينه، العالم أصبح قرية، فما يحدث في طرف من أطراف الدنيا يراه الناس جميعاً بقضه وقضيضه مباشرةً مترجماً مع صور، أقمار صناعية، وفاكس وتلكس، وطيران وصواريخ، نسوا الله عزّ وجل، فجاء ربهم بهذا المرض الذي أقلقهم، الآن أحدث إحصائية عشرون مليون حاملٍ لهذا المرض بأوروبا وأمريكا، شيء مدمر، لو تقرأ المقالات المنشورة هناك شيء لا يصدق، هذا أليس يقذف بالحق ؟ هذا جزاء انحرافهم، يقصمهم قصماً، وهم في زهرة الشباب، طبعاً في الأوج، أرقى مغنٍ أصيب بالمرض، مرض مع فضيحة، ليس زنا فقط انحراف جنسي.

فالله عزّ وجل أفعاله مدهشة، دعك من كتاب الله مبدئياً وانظر إلى أفعاله في العالم كله، تجد كل عبرة وكل موعظة تأخذ بالألباب، درسنا كان عن سبأ، ألم أقل لكم هناك أقوام كأقوام سبأ.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

(سورة النحل: من الآية 112)

ألم تسمعوا بأممٍ حولنا أذاقها الله لباس الجوع والخوف بمعاصيها وفسقها وفجورها، يقذف بالحق، فالله عزّ وجل دائماً يرينا آياته بأفعاله وبقرآنه وبخلقه.

(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(49)قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

إن شاء الله هذه الآيات نأخذها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة سبأ 034 - الدرس (10-10): تفسير الآيات 49 - 54
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-04-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس العاشر والأخير من سورة سبأ، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية التاسعة والأربعين من سورة سبأ، وسوف نمهّد لها بالآيات التي قبلها، الله سبحانه وتعالى يقول:

تمهيد:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

1 - الطعن في القرآن والأنبياء سنة المعاندين:

بماذا طعنوا ؟ طعنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ليس نبياً، وليس رسولاً، إن هو إلا رجلٌ له مصالح شخصية.

(يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

إذاً هؤلاء طعنوا بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَقَالُوا مَا هَذَا)

القرآن..

(إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى)

أي من عنده، هذا من صنعه، من إنشائه، من صياغته، وليس وحياً من الله عزّ وجل، إذاً: هنا تَمَّ الطعن بالنبي عليه الصلاة والسلام، وتم الطعن بالقرآن الكريم.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)

هذا الحق، هذا الدين، هذا الإسلام..

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

إذاً كفروا بالدين، وكفروا بالنبي عليه الصلاة والسلام، وكفروا بالقرآن، مع أن الله سبحانه وتعالى زَوّدَ الإنسان بعقلٍ يستطيع به أن يؤمن بالله من خلال الكون، وأن يؤمن بالقرآن من خلال الإعجاز، وأن يؤمن بالنبي من خلال القرآن، زوّدك الله عزّ وجل بآلةٍ هي في تعريف العلماء أداة معرفة الله أو مناط التكليف، بعقلك تعرف الله، وتعرف رسوله، وتعرف كتابه، وبعقلك تؤاخذ، لأنك إذا لم تعرف، أو

توهّمت شيئاً غير صحيح، يقال لك: أين عقلك ؟ لمَ لم تستخدم عقلك ؟ إذاً هذه الآية مهّدت بها للآيات التي هي موضوع هذا الدرس:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

والآيات أيها الإخوة هي العلامات الدالة على وجود الله، والدالة على عظمته، والدالة على وحدانيته، والدالة على كماله، موجودٌ، وواحد، وكامل، موجودٌ وعظيمٌ وواحد وكامل.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا)

2 ـ آيات كونية وشرعية تدل على الله:

قد تتلى عليك آيةٌ من آيات الكون، هذه آية كونية، وقد تُتلى عليك آية تكوينية، فلان فعل كذا وكذا، فأصابه كذا وكذا، هذه آية ليست كونية ولكنها تكوينية، وقد تُتلى عليك آيةٌ قرآنية، أنت بين آيةٍ تكوينيةٍ وهي أفعال الله عزّ وجل، وبين آية قرآنية وهي كلامه، وبين آيةٍ كونية وهي خَلْقُهُ.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا)

طعنوا بنبوتك، وطعنوا بهذا القرآن الذي بين يديك، وطعنوا بأصل الدين، وأحقية الدين، وبالإسلام كلِّه.

(قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

3 ـ تهمة قديمة متجدّدة: الدين سحرٌ:

الدين سحر، والناس حتى هذه الساعة إذا تدين الرجل، واستقام على أمر الله، وأحق الحق وأبطل الباطل، وقال: هذا حرامٌ وهذا حلال، وهذا يجوز وهذا لا يجوز، وهذا مقبول وهذا غير مقبول، إذا دخل في عالم القيَم، دخل في عالم المنهج الإلهي، أراد أن يطبّق المنهج، يقال له: من سَحَرَكَ ؟ أريد أن أطبق منهج ربي، يقال له: لِمَ هذا التزمُّت ؟ ليس هذا تزمتاً.

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ

أي أنتم أيها العرب هل جاءكم رسولٌ منكم قبل هذا الرسول حتى تتمسكوا به، وتقولوا في ضوء رسولنا: إن هذه الدعوة باطلة، ما جاءكم رسولٌ منكم عربيٌ قبل هذا الرسول، وما جاءكم كتابٌ قبل هذا القرآن، والخطاب الآن للعرب، لأنه لو كان هذا الخطاب لعامّة الناس بما فيهم أهل الكتاب، وبالطبع

أهل الكتاب جاءهم رسولٌ وهو سيدنا موسى وسيدنا عيسى، وجاءهم كتاب وهو التوراة والإنجيل، هنا الخطاب خاصٌ للعرب.

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ(44)وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

1 ـ إهلاك الله للأمم السابقة المكذّبة:

هذه الآية لها طعم خاص، أي أن هذا المُعْرِض، هذا المكذِّب، هذا الكافر، هذا الجاحد، لو كان قوياً، الله عزّ وجل أهلك من هو أقوى منه، لو كان غنياً أهلك من هو أغنى منه، لو كان ذكياً أهلك من كان أذكى منه، لو كان معتداً بمنجزاتٍ كبرى، أهلك من أشاد الآثار التي هي باقيةٌ حتى الآن، فأصحاب الأهرامات في مصر، وأصحاب آثار تدمر والأنباط والغساسنة، وقوم عاد وقوم ثمود، هؤلاء تركوا آثار تكاد تكون معجزةً، ومع ذلك أهلكهم الله عزّ وجل، فالإنسان حينما يحمله غناه على أن يُنْكِر، حينما تحمله قوته على أن يجحد، حينما يحمله مركزه القوي على أن يكذِّب، نقول له: لقد أهلك الله من هو أقوى منك، ومن هو أغنى منك، ومن هو أذكى منك.

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ)

2 ـ قريشٌ لم تبلغ ما بلغته الأمم السابقة في الحضارة:

أي ما بلغ قومك يا محمد مِعشار ما آتينا هؤلاء الأقوام السابقة.

(فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

لكن نحن لسنا في حاجة إلى التاريخ البعيد، ألم نرَ أن الله سبحانه وتعالى أهلك أقواماً نعاصرهم ونجاورهم، كيف جعل الله بلادهم جحيماً لا يطاق ؟ وكانوا من القوة والمَنَعَةِ والغنى، وكل وسائل الحياة الطيبة، لذلك إذا سمح الله لأناسٌ أن يحيوا حياةٍ طيبة فهذا من نعمة الله عزّ وجل، وإن أراد بهم سوءاً فلا مَرَدَّ له، لقول لله عزّ وجل:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدّ لَهُ)

(سورة الرعد: من الآية 11)

إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لُبّهُ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

3 ـ ادرسْ قبل أن تكذِّب:

الآن يقول الله عزّ وجل لهؤلاء الذين ركبوا رأسهم، وأنكروا نبوة نبيهم، وكذبوا رسالة ربهم، وأنكروا الدين في الأصل كله، هناك دعوةٌ هادئةٍ إلى التفكر، أي قبل أن تكذِّب أيها الإنسان، قبل أن تجحد، قبل أن تستهزئ، قبل أن تقول: هذا لا يقبله عقلي، قبل أن تستنكر، تعال اجلس، وفكر، وتأمل، وابحث، ودقق، وبعد كل هذه الدراسة، وكل هذا التأمُّل، وكل هذا البحث والدرس أنكرت، نقول لك: معك الحق، ولكن تنكر قبل أن تدرس، تُنكر قبل أن تبحث، تنكر قبل أن تتأمّل، تنكر قبل أن تُحاول معرفة الحقيقة، هذا الموقف موقف غبي جداً.

اقرأ الرسالة، وبعدئذٍ ألقها في سلة المهملات، أما أن تأخذ رسالة مختومة لا تعرف من أرسلها، ولا تعرف فحواها، تمسكها وتلقي بها في سلة المهملات، هذا موقف غبي جداً، وهذا الذي يعرض عن فهم كتاب الله ويحاول أن يقول: هذا كلامٌ لا يصلح لهذا الزمان قبل أن يقرأه، وقبل أن يفهمه، هذا موقفه غبيٌ جداً.

فيا أيها الإخوة الأكارم... قبل أن تصدر حكماً ادرس الأمر مَلِيّاً، قبل أن تحكم ؛ دقق، حقق، ابحث، وازن، تفهَّم، هذا موقف علمي، لذلك:

(إنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا(36))

(سورة الإسراء)

شاهدت، كيف تسأل عن مشاهداتك ؟ هذه المشاهدات ألم تستنبط منها حقيقةً ؟

سمعت، هذا الذي سمعته ألم يكن لك إنذاراً وتوعيةً ولفتاً للنظر ؟

هذا الذي فكرت به، لمَ لم تهتدي به إلى الله عزّ وجل ؟ لذلك جاء الآن التوجيه توجيهٌ هادئٌ إلى هذا الإنسان: أن يا إنسان قبل أن تعارض، قبل أن تنكر، قبل أن تكذب..

(قُلْ إِنّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

قُلْ إِنّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ

1 ـ مخاطبة العقل والقلب معا:

لذلك الداعية الصحيح هو الذي يخاطب العقول، ويخاطب القلوب معاً، فالإنسان له عقل، والإنسان بالفطرة حريصٌ على سلامته، وحريصٌ على سعادته، يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب

كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، فإذا أردت أن تدعوه إلى الله عزّ وجل فاستعن بحاجاته الأساسية، استعن بما أودع الله فيه من رغباتٍ ثابتة، استعن بفطرته، استعن بطبيعته الإنسانية.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

أيها الإخوة الأكارم... أنا أربأ بكل أخٍ كريم أن تستهلكه الدنيا ؛ من بيته إلى عمله، إلى لقاء فاحتفال، فدعوة، فغداء، فنوم، فاستيقاظ، هذا مستَهْلك، قد يقول: لا أدري لماذا أنا في الدنيا، فإذا جاءه الموت بغتةً شعر بخسارةٍ فادحة، لابدّ من جلسة تأملٍ من حينٍ إلى آخر، والأفضل كل يوم، لابدّ من وقفةٍ مع نفسك، لابدّ من وقفة تأمل مع ذاتك، أين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ أين أنا من كتاب الله ؟ أية آيةٍ تنطبق علي؟

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27))

(سورة الفجر)

أم:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

أم تنطبق عليّ آية:

(إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

(سورة يوسف: من الآية 53)

أم تنطبق علي النفس الظالمة، أو الشحيحة، أو المُخادعة، أو الآثمة، أو المنحرفة، أو المتكبّرة، أو المستعلية، أنا أي إنسان في القرآن ؟ هذه وقفة التأمُّل.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

2 - أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى

فلان قام بأداء هذا العمل، عمل خطير له نفعٌ عظيم، قد تعلق عليه آمالاً جسيمة، لذلك تنهض له، مرة لاحظت إنساناً في أثناء المناقشة وقف، لشدة حماسه لهذا الموضوع تكلم واقفاً، أي أن تقوم لله هذا أمر خطير جداً، هذا أمر مصيري، هذا الأمر يتعلق بسعادتكم الأبدية، إذا كانت الدنيا كلها زائلة، فأمر الدنيا كلُّه أمرٌ حقير إذا قيس بأمر الآخرة، فالإنسان من أجل قضيةٍ دنيوية، من أجل بيتٍ يخشى عليه ألا يسجل باسمه، ينهض من الساعة السابعة، وينطلق من زيد إلى عُبيد، يتوسط، يستدعي، يسأل، يبحث من أجل أن يسجل (يطوّب) هذا البيت، يقول لك: البيت أمر جلل، هو العمر كله، لو فرضنا اشترى بعقد، وجاءه خبر مزعج: أن صاحب هذا البناء لن يفرغ له هذا البيت، يبقى قاعداً ؟ أم يستيقظ مبكراً جداً، ويرتدي ثيابه، ويتجه إلى أين ؟ لا يعلم، ولكن إلى المسعى، إلى السعي في تثبيت حقه في هذا

البيت.

بعثة، شهادة مرزعة، تجارة، لو فرضنا وكيل شركة والشركة أعطت الوكالة لغيرك، هل تبقى قاعداً ؟ أم تنهض وتحاجج هذه الشركة، وتشتكوها، وتبحث وتسأل، كيف السبيل ؟ تراسل، تأتي بموظف يتقن اللغة الأجنبية، انظر إلى هذه الوقفة، أنت تقف أحياناً، إذا كان الأمر يهمك تقف.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

3 ـ الموت أخطرٌ حدثٍ مستقبلي:

هذا أخطر أمر أن تعرف الله عزّ وجل، أن تعرف أي شيءٍ أنت قادمٌ عليه، ماذا بعد الموت ؟ أليس في حياتنا موت، موتٌ يومي ؟ ألم تشاهد جنازة ؟ هل وقفت وسألت: هذا الذي داخل النعش رجل مثلي، له بيت، له أولاد، له زوجة ؟ له طموحات في الدنيا ؟ كان مشغولاً بهذه القضية وهذه القضية، أين هو الآن ؟ أين مصيره ؟ تحت الأرض، بيته ماذا فَعَلَ به ؟ ماذا نفعه بيته ؟ أي أنه دعوة للتفكر.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ)

رجل امتلك بيتاً في بعض المدن في الشمال، حينما كان ثمن البيت الفخم جداً في أرقى أحياء دمشق، مثلاً مليون، كان ثمنه ثلاثين مليونا، فهو شيء لا يوصف، فلما توفي وكان في الثانية والأربعين من عمره، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل كان طويل القامة، وكان القبر أقصر من طول قامته، فلما وضِعَ في أرض القبر، وجاء رأسه منحنياً، دفعه الحفّار بصدره حتى يستقر في أرض القبر.

قلت: سبحان الله ! بيتٌ يعدُّ من أرقى البيوت في هذه المدينة، الرخام وحده كلّف كذا مليون، طوابق حدائق، أنا رأيت هذا البيت بأم عيني، وصاحبه حين دفن دفع في صدره لطول قامته.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

فكر، فكر، هذا الدماغ الذي هو أثمن شيءٍ في الكون، أعطاك الله إياه لا من أجل جمع الدرهم والدينار؛ من أجل أن يكون هذا العقل، أو هذا الفكر أداة معرفة الله عزّ وجل.

إلى متى أنت باللـذات مشـغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ)

القضية خطيرة جداً..

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ(60)وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ(61)فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(62))

(سورة النجم)

(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

4 ـ ليس في الرسول مسٌّ من الجن:

هذا الرسول هو أعقل العقلاء، هو سيّد البُلَغَاء، هو أعظم المعلمين، هو رسول رب العالمين.

(مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

رسول، مؤيد بالوحي، مؤيد بالمعجزات، عصمه الله عن أي خطأٍ في قوله، وفي فعله، مشرّع، مُبَلِّغ، أرحم الخلق بالخَلق.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

اجلس منفرداً، أو مع أخيك ولا أكثر، مثنى وفرادى، وتفكر أو حاور أخاك، وتفكر، فكر في فحوى هذه الرسالة، في مضمون هذا الكتاب الكريم، في أمر الله عزّ وجل، في نهي الله عزّ وجل، في حلاله، في حرامه، فيما انطوى عليه من حكم، من أخبار، من وعد، من وعيد.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

5 ـ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ

بربك لو أقدمت على شراء بيت، وقال لك إنسان: سوف تعلم، فقط، ولم يزد على هاتين الكلمتين كلمة، ألا تدخل في الوسواس، لماذا قال لي هذا ؟ لعل هذا البيت فيه مشكلة ؟ لعله مرهون ؟ لعل في أساسه ضعفاً ؟ لعل له قضية ؟ لو أقدمت على خطبة امرأةٍ، وقال لك شخصٌ: سوف تدري، ألا تسأل نفسك: لماذا قال هذه الكلمة ؟

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ)

ما هو النذيرُ ؟

هذا النبي الكريم نذير أنذرنا، والنذير هو النبي، والقرآن نذير، والأربعون سنة نذير، والستون نذير، والشيب نذير، والمصيبة نذير، وموت الأقارب نذير، إنذار من الله عزّ وجل، وأبلغ من ذلك لما يضعف

بصر الإنسان، ويشيب شعره، وينحنى ظهره، تضعف ذاكرته، تضعف قواه، هذه إشارات لطيفةٌ من الله عزّ وجل، إشارات لطيفة جداً: أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعدٌ له ؟ اقترب اللقاء.

سؤال لعله محرج، كل منا يسأل هذا السؤال: هل بقي بقدر ما مضى ؟ كيف مضى الذي مضى ؟ إذا كان الذي مَضى مضى كلمح البصر، إذاً: الذي بقي سوف يمضي كلمح البصر، وبعدئذٍ أواجه الدار الآخرة، أواجه الحق، أواجه المسؤولية، أواجه تبعة العمل.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

6 ـ النبي نذيرٌ بين عذاب الله:

نذير ينذرك عذاباً شديداً، فإذا اتبعت أمره وائتمرت بأمره، وانتهيت عما عنه نهى، وطبّقت سُنَتَّهُ نجوت من هذا العذاب، لا أعتقد واحداً من الحاضرين الكرام مثلاً يشعر بخطر الغاز، إلا فيغلق قاطع الكهرباء مثلاً، ويفتح النوافذ على الفور.

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

فالحريق له مشكلة، المرض له مشكلة، الإنسان حريص على صحته، حريص عل سلامة بيته، حريص على أولاده، يبادر إلى تطعيم أولاده ضد الأمراض السارية لماذا ؟ الأمراض تعذب الإنسان، فكيف بالعذاب الأكبر ؟ لا تنسوا هذه الكلمة كما قال الإمام الغزالي: " لو أن طبيباً حذرك من أكلةٍ تحبها حباً شديداً توعدك على تناولها: أفظع الأمراض ـ أغلب الظن كل الناس يستجيبون لكلام الطبيب ـ عندئذٍ خاطب الإمام الغزالي نفسه قال: **" يا نفس، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟! ـ معقول أن تصدقي الطبيب، ولا تصدقي رب العالمين ؟ ـ إذاً ما أكفرك، وإذا كان المرض أشد عندك من النار فما أجهلكِ".**

إن الذي يعصي الله عزّ وجل لابدّ من أن يكون أحد رجلين، إما أنه جاهل، وإما انه كافر، إن كان المرض أشد عندكِ من النار فما أجهلكِ، وإن كان الطبيب أصدق عندكِ من الله فما أكفركِ.

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

من علامات إخلاص الداعي عدمُ رجائه الأجر من الناس:

هذه علامة إن شاء الله صادقة لكل دعوة مخلصة، منزهة عن كل مقصد دنيوي، منزهة عن كل مطمح مادي، لا علاقة بالدعوة إلى الله بالدنيا كلها، أما إذا تداخلت الدنيا مع الدعوة إلى الله عندئذٍ تدخل الشكوك، وتدخل الظنون، لماذا شاء الله عزّ وجل أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً مثلاً ؟ لو كان غنياً جداً، ومنعماً جداً، لداخل الناس شكٌ في دعوته، لعله فعل هذا من أجل الدنيا، لعله فعل هذا من أجل حطامها، لعله فعل هذا من أجل مالها، لكن جاء الحياة فأعطى ولم يأخذ، لم يأخذ شيئاً، غادر الدنيا كما جاءها، وهذا وسام شرف له، أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

من آيات الله في الناس معاقبة المسيء وتوفيق المحسن:

يقذف بالحق، في الدرس الماضي بيّنت أن دائماً وأبداً ترى وجود الله واضحاً، يعبر عنه العوام بكلمة: الله كبير، أحياناً الله عزّ وجل ينتقم من الظالم انتقاماً مروِّعاً، وأحياناً يوفق الضعيف المستقيم توفيقاً رائعاً، أحياناً يهب لمن يشاء الذكور بعد عُقْمٍ يائس، دائماً وأبداً ترى آيات الله بإكرام المستقيم، وبمعاقبة المنحرف، قال بعض العارفين: **" عرفت الله من نقض العزائم ".**

قد تضع خطة محكمةً دقيقةً دقيقةً دَقيقة، وقد حبكتها من كل الجوانب، وغطّيتها من كل الوجوه، وأغلقت كل الثغرات، وبعدئذٍ تفاجأ بخطرٍ لم يكن في الحسبان، إذاً: هذا هو الله، ليس مع الله ذكيٌ أبداً، يا رب لا ينفع ذا الجَد منك الجد، صاحب الذكاء والحيلة، وصاحب التخطيط، وصاحب المكر والخداع، هذا عند الله عزّ وجل لا شيء.

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

ظلت نظريةٌ تقول: إن المجموعة الشمسية من أصلٍ واحد، ومع شدة الدوران والتبرُّد أصبحت هذه الكواكب، بعد أن صعد روّاد الفضاء إلى القمر، وجلبوا عيناتٍ من تربة القمر، وجدوا أن بين تربة القمر وتربة الأرض بوناً شاسعاً، هذه النظرية إذاً نقضت.

(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ

فالباطل لا يصنع شيئاً، ولا يعيد شيئاً، الله سبحانه وتعالى هو الحق، وكلامه حق، ودعوته حق، ووعده حق، ووعيده حق، وهذا مما يلقّن به الميت، أشهد أن النار حق، وأن الجنة حق، وأن القرآن حق، وأن النبي حق، معنى حق أي مستقر وثابت، شيءٌ لا يتغير، الحق هو الشيء الثابت، الشيء الذي لا يتغيّرُ أبداً.

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

1 ـ الهدى من فضل الله تعالى:

إن الإنسان إذا عرف الله عزّ وجل فهذا من فضل الله، إذا عرف الله، واهتدى بهدي الله، وطبق سُنَّة رسول الله، واستقام على أمر الله، وأجرى الله على يده الخير هذا كله من فضل الله، وإن فعل شيئاً آخر فهذا من تقصيره، وهذا من ضعفه.

2 ـ الضلال يُعزا إلى الإنسان كسبًا:

أنا أقول هذه الكلمة: إن رأيت كمالاً من إنسان فهذا من فضل الله عليه، وإذا رأيت نقصاً فهذا من عدم عصمته أولاً ومن عدم اتباعه للنبي ثانياً، وهذا الحق، وليس هذا من باب الأدب، هذا هو الحق، الفضل يعزا إلى الله، والشر يعزا إلى الإنسان.

إشارة لطيفة:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ)

(سورة الشعراء)

لم يقل: وإذا أمرضني فهو يشفيني:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80))

لأن أصل المرض، في أصله الحقيقي خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل.

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ

1 ـ كيف هي حال الضالين يوم القيامة ؟

أي يا محمد لو ترى هؤلاء الخصوم، والعارضين، والملحدين، والمكذبين، والمرجفين، ولو ترى هؤلاء الذين كذبوا رسالتك، وكذبوا نبوّتك، وكذبوا كلام الله عزّ وجل، وكذبوا هذا الدين، لو تراهم حينما يدعون للحساب، لو تراهم حينما يأتيهم الموت، لو تراهم حينما تنكشف لهم الحقائق، لو تراهم حينما يُكشف عنهم الغطاء.

شخص أعرفه جيداً أمضى حياةً غارقاً في الملذّات المحرمة، وكان تاجراً ماهراً في تجارته، وذا دخلٍ كبير، ولكن نفسه تميل مع هواها، تبحث عن اللذّة أينما كانت، أصابه مرضٌ عُضال، فحينما علم بهذا المرض صارت تأتيه نوبةٌ هستيرية كل حين، يقول: لا أريد أن أموت، فلما جاءه ملك الموت، كل جيرانه في البناء سمعوا صيحةً لم يسمعوها من قبل، ولو ترى هذا المتكبر، المعاند، العاصي، الفاسق، الفاجر، الذي يتباهى بالمعصية، لو رأيته وقد جاءه ملك الموت، لو رأيته وقد عُرِضَ للحساب.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

يتناوله ملك الموت وهو بعمله، أحياناً بسريره، أحياناً بمركبته، أحياناً بين أهله نفخاً، أحياناً قبل عُرسه، أحياناً بعد عرسه، قبل أن يسافر، بعد أن يسافر، في مقتبل العمر، في شيخوخته، الإنسان موته قريب، سكتة دماغية، نقطة دم، شريان في الدماغ وانفجر، نزيف في الدماغ، وانتهى.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ)

لا يستطيع أن ينجو من هذا الموت.

(وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ)

2 ـ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ

قصص الموت عند أهل الدنيا عجيبة، وهو في ريعان الشباب يأتيه الموت من حيث لا يحتسب، وهو في أجمل أيام حياته، وهو في نزهته، وهو في سفرٍ ممتع، وهو بين أهله، وهو في دكانه، وهو في متجره، وهو في مكتبه، وهو نائم.

(فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(51)وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

كان عليه أن يؤمن وهو في الدنيا، الآن شطّت به الدار وبعد المزار، كان عليه أن يؤمن في الدنيا ؛ كان عليه أن يؤمن حينما كان شاباً، حينما كان قوياً، حينما كان غنياً، حينما كان معتداً بقوته وذكائه وماله، الدنيا وقت الإيمان، الآن أصبح من أهل الآخرة، أنَّى له الحوار والتناوش والحساب والسؤال والعتاب، هذا انتهى وقته، من مكانٍ بعيد، الإنسان يؤخذ من مكانٍ قريب، وحينما يدخل الدار الآخرة تصبح الدنيا عنه بعيدةً.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

يلقي الكلام على عواهنه، يتكلّم بلا حساب، يتكلم بلا دقّة، بلا دليل، يكذِّب من دون دليل، يقبل هذه القصة من دون دليل.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ)

بهذا القرآن.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

من دون علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير، العلم هو اليقين الاستدلالي، والهدى اليقين الإشراقي، والكتاب اليقين الإخباري، لا يوجد معه خبر صادق، ولا معه حجة قوية، ولا معه إشراق في قلبه، ومع ذلك يكذب، ويناقش، ويكابر.

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ)

1 ـ يشيب المرء على ما شبّ عليه:

الحقيقة يشيب المرء على ما شَبّ عليه، ويموت المرء على ما شاب عليه، ويحشر المرء على ما مات عليه، الإنسان حينما ينشأ على معصية الله يتكون عنده شهوات آثمة، ميول منحطة، هذه إذا استمر عليها وبقي معها، رافقته إلى وقت الهرم.

مرةً ثانية: يشيب المرء على ما شَبّ عليه، ويموت المرء على ما شاب عليه، ويحشر المرء على ما مات عليه.

2 ـ الإنسان بين خمسة أيام:

والإنسان بين خمسة أيام ؛ يومٌ مفقود، ويومٌ مشهود، ويومٌ مورود، ويومٌ موعود، ويومٌ ممدود، أما اليوم المفقود فهو الوقت الماضي، والزمن الماضي الحديث عنه لا يقدّم ولا يؤخر، مضيَعَةٌ للوقت، بذلٌ للجهد بلا طائل، واليوم المشهود هو أخطر أيام الحياة، ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، هذا ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

[روي في الأثر]

اليوم الموعود الموت، اليوم الموعود الوقوف بين يدي الله عزّ وجل للحساب، اليوم الممدود إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفدُ عذابها، وقال بعضهم: " ما مضى فات، والمؤمّلُ غيب، ولك الساعة التي أنت فيها ". أنت تملك هذه الساعة، ما مضى مَضى، والمؤمل قد لا تصل إليه:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ

هذه الشهوات ؛ الطعام والشراب والنساء، والشأن الاجتماعي، هذه كلها شهوات تنتهي عند الموت ويلقى الإنسان عمله، حتى من أمضى حياته في طلب العلم رؤي بعد الموت قيل له: يا سيدي ما فعل الله بك ؟ قال: **" طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعاتٍ ركعناها في جوف**

الليل".

إن الأعمال الخالصة لله عزّ وجل هي التي تبقى.

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ)

أي أن الحقائق ليست عندهم واضحة كانوا في شكٍ منها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (01-10): تفسير الآيات 1 - 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-04-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة فاطر، ومع الآية الأولى، وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ

1 ـ كل سعادة الإنسان في التفات نفسه إلى الله عز وجل:

أيها الإخوة الأكارم، كل سعادة الإنسان في التفات نفسه إلى الله عز وجل، وللنفس قوانين، من أبرز قوانينها، أنها تلتفت إلى المحسن ؛ يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب مَن أحسن إليها، والآية الأولى تذكّر الإنسان بأن كل النعم التي يَنعم بها، إنما هي من الله عز وجل.

2 ـ العبرة في معرفة المنعِم لا في معرفة النعمة:

سأضع بين أيديكم صورة، لو كنتَ في مجلسٍ فيه أربعون شخصاً، وأحدهم قد أسدى إليك معروفاً جليلاً، لا تدري، ولا تشعر إلا وأنت ملتفت إليه، قد تنسى الباقين، قد لا تعبأ بكلامهم، لا تلتفت إلى صورهم، كلّك منصرف إلى هذا المحسن، هذه طبيعة النفس، يا داود، ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب مَن أحسن إليها، الشرك خطره أنه يوهمك أن هذه النعم مِن زيد أو عبيد، ومِن فلان أو علان، وهي في حقيقتها من الله وحده، فإذا تحققت أن كل النعم بدأت من نعمة الإيجاد، إلى نعمة الإمداد، إلى نعمة الصحة، إلى نعمة الفراغ، إلى نعمة الطمأنينة، إلى نعمة سلامة الأعضاء، إلى نعمة الأهل، إلى نعمة الأولاد، إلى نعمة المأوى، إلى نعمة العقل إلى نعمة الهدى، إلى نعمة التوفيق للهدى، إلى نعمة التطبيق، إذا أيقنت أن كل هذه النعم هي من الله بشكل طبيعي وعفوي ووَفق قوانين النفس تلتف إلى الله عز وجل، فالنعم كما قلت من قبل: ليس هناك مشكلة في وجودها أو عدم وجودها، النعم موجودة، لا يختلف على وجودها اثنان، ولكن المشكلة، أن المؤمن يعزوها إلى الله عز وجل

وحده، وهذا هو الحق، بينما غير المؤمن تتوزع نفسه بين شركاء كثيرين، لذلك جاءت الآية الأولى: (الحمد)، هذا الموقف الذي تمليه عليك فطرتك، الامتنان الشكر، الحمد، معرفة الجميل، هذا الموقف الأخلاقي الفطري، يجب أن يكون لله عز وجل، لأنه صاحب النعم.

(الحمد لله)، هذه المشكلة، لا نختلف على وجود النعم، مَن منا لا يعلم نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة العقل، لو اختلّ هذا العقل فما مصيرنا ؟ نعمة عمل الأعضاء، نعمة أن القناة الدمعية للعين سالكة، لو أنها أغلقت، لاضطررت أن تمسح خدك باليوم آلاف المرات، لو أن البصر ضعف، لو أن السمع ضعف، ماذا يحصل ؟ لو انثقبت الأمعاء لو تعطل الكبد، لو تعطلت الكليتان، لو مرضت الزوجة، لو جاء ولد غير سليم، ما منا أحد يختلف على النعم، ولكن أهل الإيمان يعرفون المنعم من خلال النعم، وأهل الشرك والكفر لا يرون هذه النعم إلا من شركاء لله عز وجل، فلذلك جاءت هذه الآية لتؤكد لهذا الإنسان أن كل ما يتمتع به من نعم إنما هي من الله عز وجل.

إذاً: ينبغي للقلب أن يلتفت إلى الله، لأن الله سبحانه وتعالى هكذا جبل النفس الإنسانية، الحمد لله، ووصف الله ذاته:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

3 ـ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

يعني خالقها، وموجِدُها، ومبتدئها، خالقها من عدم، وقد يضيف بعض العلماء على معنى الفاطر أن الله سبحانه وتعالى، خلق الأشياء وخلق خصائصها.

كلُّ مخلوق له خصائصه:

مَن أعطى الحديد قساوة ومتانة ؟ من أعطى النبات نمواً، من أعطى هذه الفاكهة غذاءً تتغذى به، هذا شيء خطيرٌ جداً، فضلاً عن وجود الأشياء، خصائص الأشياء، مَن أعطى للمعادن خصائصها، من أعطى لأشباه المعادن خصائصها، مَن أعطى لهذه العناصر التي تزيد على المائة، خصائصها، من جعل لكل عنصر درجة انصهار، ودرجة تجمد، لو أن هذه العناصر اتفقت في درجة انصهار واحدة، وفي درجة تجمد واحدة، لرأيت الكون كله صلباً، أو سائلاً أو غازاً، فمادام الكون فيه أشياء صلبة، وأشياء سائلة، وأشياء غازية فهذا من تقدير عزيز عليم حكيم خبير، فلذلك:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يعني مبدعها، وخالقها، وخالقها على خصائص معينة، خلق الكون بما فيه من عناصر، وخلق لكل عنصر خصائصه، الطلاب يدرسون في التعليم الثانوي في علم الفيزياء الخصائص الفيزيائية لكل معدن، والخصائص الكيميائية، هذه الخصائص مَن صممها، من صمم أن الرصاص يتمدد إذا برد، كيف نوفق بين المعدن القاسي والحجر القاسي ؟ كيف نثبت المعدن في الحجر، لولا الرصاص الذي ينصهر بدرجة مائة، فإذا صببته في حفرة، ووضعت في هذه الحفرة قطعة معدن، هذا الرصاص إذا برد يتمدد، فإذا تمدد أصبح هذا المعدن والحجر قطعة واحدة، مَن أعطى الرصاص خصائصه، من أعطى الذهب خصائصه، من أعطى الفضة خصائصها، من أعطى كل إنسانٍ طباعاً.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

(سورة المعارج: 19 - 21)

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)

(سورة النساء: 28)

(خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء: 37)

من جعل هذا الحيوان أليفاً ؟ لماذا تقفز من عقرب صغير ؟ ولا ترتعد فرائصك من جمل كبير، مَن ذلل الجمل، من ذلل الأنعام، من ذلل القطة في البيت، فأرة أصغر منها تملأ البيت رعباً، وقطة أكبر منها تملأ البيت أنساً، من أعطى كل حيوان طباعه ؟ لو ركّبَ طباع السباع في الغنم كيف نأكلها ؟ كيف نرعاها ؟ كيف نتعامل معها ؟ لا تنسوا كلمة:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(سورة يس: 72)

الطائر مذلل، الطيور محببة، القوارض ليست محببة، مع أن للقوارض شكلاً انسيابياً، لكنها مُنقرة، من أودع في هذه الحُب، أو الأنس، وأودع في الأخرى النفور ؟

يضيفُ بعض علماء التوحيد، إلى كلمة (فاطر)، أنه خلق الأشياء، وأعطاها خصائصها المادية والمعنوية، ومن هنا قول الله عز وجل:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم: 30)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وجعل بين السماوات والأرض، جعل رُسُلاً ينقلون أوامر السماء إلى الأرض، ويرفعون أعمال العباد إلى السماء، إنهم الملائكة:

(جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا)

جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ

بين السماء والأرض، وهذه الآية أول آية وصف فيها الله عز وجل شكل الملائكة، قال:

(أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ)

أما كلمة:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

تفسير: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

التفسير الأول:

فسرها المفسرون بأن الله سبحانه وتعالى يزيد عددهم إذا شاء.

التفسير الثاني:

أو يزيد أجنحتها إذا شاء، وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية مطلقة، جعل الناس في طول متوسط:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يزيد الإنسان طولاً، وقد يزيده ذكاءً، وقد يزيده نضارةً، وقد يزيده ذاكرةً، وقد يزيده حكمة، وقد يزيده قوةً، وقد يزيده شجاعة:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

وهذا شيء واقع، تحس أن هناك أناساً متفوقين في ذاكرتهم، متفوقين في قدراتهم، هناك قدرات زائدة على الحد المتوسط يتمتع بها بعض الناس، من منح هؤلاء الناس من الفئة العبقرية هذه الزيادة ؟

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قدرات الإنسان غير محدودة:

يجب أن تعلموا أيها الإخوة أن قدرات الإنسان لا كما يظن بعض العلماء محدودة، ومدموغة بحد لا تتجاوزه، بل إن قدرات الإنسان غير محدودة، فكلما ازددت إيماناً تألق ذهنك، وانطلق لسانك، وقويت عزيمتك، الذي يظن أن طاقات الإنسان وقدراته الخاصة محدودة منذ الولادة وحتى الموت هذا إنسان جبري، لكن الله سبحانه وتعالى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يجعل من الضعف قوةً، ومن ضعف التفكير ذكاءً، ومن ضعف الذاكرة حفظاً، والإنسان له أن يطلب.

ذكرت لكم مرةً قصة تركت في نفسي أثراً كبيراً، وتعطي هذه القصة للإخوة المستمعين شحنة من الحماس ليس لها مثيل، ذكرت لكم أن رجلاً من صعيد مصر يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، تاقت نفسه وهو في هذه السن المتقدمة إلى أن يكون عالماً، وهو لا يقرأ ولا يكتب، فركب دابته، وساقها إلى مصر، إلى القاهرة، وسأل بعض الباعة: أين الأزعر ؟ الأزعر، لا يعرف اسمه، فقال له صاحب الدكان: يا أخي اسمه الأزهر، اسمه الأزهر الشريف، اذهب من هذا الطريق، فهذا الرجل تعلم القراءة والكتابة، ثم تعلم تلاوة القرآن، ثم حفظ القرآن، ثم تدرج في سنوات الأزهر الأولى، فالثانية، فالثالثة، ويذكر تاريخ الأزهر أن هذا الرجل عاش ستة وتسعين عاماً، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر، وكان من علمائِهِ الأجلاء، وترك آثاراً كبرى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

تشكو من ضعف الذاكرة ؟ الله قادر على أن يزيد ذاكرتك دقةً ومتانةً، تشكو من ضعف النطق ؟

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي(27)يَفْقَهُوا قَوْلِي(28))

(سورة طه: 27)

تشكو من ضعف العزيمة ؟

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة: 5)

إذا آمنت أن قدراتك محدودة فهذا هو اليأس القاتل، وهذا هو الباطل، فالله عز وجل موجود، فإذا منحك شيئاً زادك على أقرانك، زادك مكانةً، زادك تألقاً، زادك حكمةً، زادك جرأةً، زادك شجاعة زادك علماً.

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه: 114)

ليسَ عندنا في الإسلام حكم ثابت:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

يخلق من الضعف قوة، يخلق من التفرق جمعاً، من العداوة حباً، فهذه الآية في السياق لها معنى، وإذا نُزعت من السياق فهي قانون من قوانين الله عز وجل:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يعينك على حفظ القرآن، وأنت في سن متأخرة، قد يعينك على غض البصر، قد يعينك على أن تقف موقفاً شجاعاً، بعد أن ألفت مواقف النفاق، قد يعينك على أن تنطق بالحق:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم]

إذاً:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

أنت تعتقد أن العلاقة مع أهلك لن يُرأب صدعها، لا، بل يصلحها، ويزيد هذه العلاقة حباً ومتانةً، ووداً وإخلاصاً، إذا استقمت على أمر الله، تعتقد أنت أن هذا المحل طاقته محدودة، لا يكفي دخلُه لأسرتين:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

قد يجعل الناس تهفو إلى هذا المحل.

هذه الآية تبثُّ التفاؤل، تبثُّ الثقة بالله عز وجل، فأيّ شيء خلقه ففي قدرته أن يزيده، يزداد علمك، والله قادر على أن يزيدك مالاً، إذا كنت ترى أن دخلك محدود، ولا أمل لك في الزواج فهذا يأس:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)

هو الخلاق العليم، هو الرزاق الكريم، هو الفعال لما يريد، هو الغفور الودود، ذو العرش المجيد، هو كل شيء.

أرادت هذه السورة، بل أراد الله عز وجل من خلال هذه الآيات أن يلفتك إليه، أنْ يا عبدي أنا المحسن، أنا صاحب كل النعم، التفت إلينا، دع السِوى (غير الله) والتشاؤم والقنوط.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

قدرته تتعلق بكل ممكن، تتعلق بكل شيء، فهو قادر على أن ينهي هذا الورم الخبيث بلا دواء، وهناك آلاف الحالات، واسألوا الأطباء، ورم خبيث، قادر على أن يشفيك منه تماماً، لأن الله على كل شيء قدير، قدرته تتعلق بكل شيء، ما من شيء يمكن أن تقول فيه: هذا لا يكون، بل يكون، قدرته تتعلق بكل شيء، مهما بدا لك عظيماً:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الشعراء: 78 - 82)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

آثار رحمة الله:

أيها الإخوة الأكارم، رحمة الله عز وجل من أسرار الله، شيء عجيب، كيف نعرفها ؟ و الله من المستحيل أن نعرفها، لكن يمكن أن نرى آثارها.

أعددت لكم كلمة حول هذه الرحمة، لأنها شيء عظيم يكثر ذكره في القرآن الكريم.

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: 159)

فما هي الرحمة ؟

أهي الرحمة ؟ أهي التجلي ؟ أهي السكينة ؟ أهي السعادة ؟ أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية أن يقطع كل شُبهة قوةٍ في السماوات والأرض، وأراد أن يلفتك إلى قوة الله وحده، مهما كان في الأرض من قوى كلها قوى خُلّبيّة، لا تقدم ولا تؤخر، أراد الله بهذه الآية أن يقطعك عن كل شبهة في السماوات والأرض، وأن يلفتك إلى قوة الله وحده:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا

1 - لا فاتح للرحمة ولا ممسك لها إلا الله:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبعدك عن شبهة أية رحمة مما سواه، وأن يصلك برحمته وحده تعالى، أراد الله عز وجل بهذه الآية أن يوصد أمامك كل بابٍ أرضي، وأن يفتح لك باب السماء، فدعك من السِّوى، دعك مما سوى الله، دعك من الأغيار، دعك من الشركاء، دعك ممن حولك.

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

رحمة الله تجدها في ذاتك، في نفسك، في تكوينك، في طباعك، في عقلك، في قدراتك، في تكريم الله لك، فيما سخر الله لك مما في السماوات والأرض، في الذي فوقك، في الذي تحتك، فيمن عن يمينك، فيمن عن شمالك، فيما أنعم الله عليك، مما تعلم، ومما لا تعلم، رحمة الله في كل شيء، في كيانك، في أسرتك، في أهلك، في عملك، في عقلك، في عضلاتك، في جوارحك، رحمة الله واسعة.

2 ـ رحمة الله بادية في المنع والعطاء:

هذه الرحمة تتمثل في المنع أحياناً، رحمة الله عز وجل تكون أظهر ما تكون في المنع، فربما كان المنع عين العطاء، وربما كان العطاء عين المنع، وإذا فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، ربما أوحشك من خلقه ليؤنسك بذاته، لذلك:

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: 216)

رحمة الله عز وجل تجدها في كل شيء، فلو أعطاك الله كل شيء، وحجب عنك رحمته لم يعطك شيئاً، ولو حرمك الله من كل شيء، وتجلّى عليك برحمته لم تفقد شيئاً، لها سر، نحن نعرفها بآثارها، أما طبيعتها فغير معروفة، قد يعطيك الله كل شيء، من صحة، إلى مال، إلى قوة، إلى جاه، ويحجب عنك رحمته، فإذا أنت من أشقى الناس، وقد يحجب عنك المال، لك دخل قليل، ويحجب عنك الصحة أحياناً، ويحجب عنك رغد العيش أحياناً، فإذا أنت في جنة عرضها السماوات والأرض، ما سر هذه الرحمة ؟

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

3 ـ مَن فقدَ رحمة الله لم يجد شيئا، ومَن وجد رحمة الله لم يفقد شيئا:

أي للنعم، إذا أعطاك الله إياها، وأمسك رحمته عنك انقلبت إلى نقم.

والمحن، إذا فتح الله لك باب الرحمة معها انقلبت إلى نعم، هناك أسرار ؛ قد ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو فراش وثير، وينام على الحرير، وقد أُمسكت عنه رحمة الله، فإذا فراشُه شوك القتاد.

في أحد الفنادق كتبت لوحة فوق السرير، إذا أرقت، وتقلبت على السرير، وتأخر عنك النوم، فلا تشتكِ من السرير، بل اشتكِ من ذنوبك، لأن الذنوب تقلق، وتؤرق، فقد تنام على الحرير ظاهراً، وقد أُمسِكتْ عنك رحمة الله فعلاً، فإذا هو الشوك، فإذا هو الفراش الخشن، وقد تنام على الشوك وعلى الأحجار،

وفي خيمة متواضعة، فإذا هي مهاد مريح، فالشيء الذي يغيّر هو رحمة الله عز وجل، تعالج أعسر الأمور مع رحمة الله، فإذا الأمور كلها سهلة هينة، وتعالج أيسر الأمور، وقد تخلت عنك رحمة الله، فإذا هي مشقة وعسر، لذلك فالنبي الكريم كان يقول:

((اللهم إني أعوذ بك مما أهتم له، ومما لا أهتم له))

[ورد في الأثر]

شيء سخيف جداً يقلب حياتك جحيماً، وقد تمر بأعظم الأهوال ورحمة الله معك، فإذا هي سهلة، هذه الآية دقيقة جداً:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

تخوض أشد المخاوف والأخطار مع رحمة الله، فإذا أنت في أمن وسلام، وتعبر دون رحمة الله المناهج والمسالك فإذا هي الهوالك، في الطريق الواضح المضاء، في رابعة النهار، ولك مركبة من أحدث المركبات تقع مشكلة تقضي على معظم ركابها، وقد تمر بأهوال شديدة، وبطرق وعرة، ومع ذلك سلامة وراحة، فالأصل أن تنال رحمة الله عز وجل:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

4 - إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ

لا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها، كل أنواع الضيق مع رحمة الله تغدو يسراً وسعادة، ولا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، واسأل إنساناً فقد حريته عشرة أعوام، إذا كان مع الله عز وجل، وفي رحمة الله عز وجل، يقول لك: قطعة من الجنة، وهو لا يكذب، ولا يبالغ، وإنسان يتقلّب في أفخر البيوت، إذا كان الله ليس راضياً عنه فهو من أشقى الأشقياء، لا يتسع عليك مكان مع إمساك الرحمة، ولو تقلبت في أعطاف النعيم، ومرافع الرخاء، وأنت في أعطاف النعيم ومرافع الرخاء إذا غابت عنك رحمة الله عز وجل، فإذا المكان جحيم لا يطاق، وإذا النعيم شقاء، وإذا النعم نِقَم، لو دخلت إلى قلب تجلى اللهُ عليه بالرحمة لرأيت ينابيع السعادة، والرضا، والطمأنينة تتفجر من خلاله، وإذا دخلت إلى قلب حجبت عنه رحمة الله لرأيت القلق، التعب والنصب، والكد، والمعاناة، إذا فُتحت أبواب رحمة الله، وغلقت جميع الأبواب، وأوصدت جميع النوافذ، وسَدت جميع المسالك، فهي الفرج والفسحة، واليسر، والرخاء، وإذا أغلق باب الرحمة، وفتحت جميع الأبواب، وجميع النوافذ، وجميع المسالك، فإذا هي الضيق والكرب، والشدة، والقلق، والمعاناة، حتى الآن لم نستطع تعريف رحمة الله، وإنما أتحدث عن آثارها فقط.

إذا رحمك الله عز وجل يسعدك بأية زوجة، وبأي دخل، وبأي صحة، وبأي قوام، وبأي مهنة، وإذا غابت عنك رحمة الله تضيق عليك الأرض بما رحبت، لو اقترنت بأجمل فتاة على وجه الأرض قد تغدو مصدر شقاء، لو كان لك أكبر دخل فهو مصدر شقاء، إذاً هناك سر، هذا ما قاله أحد العارفين بالله، لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف، تفتح لك أبواب الرحمة، ويضيق الرزق، ويضيق السكن، ويضيق العيش، وتخشوشن الحياة، فإذا أنت في رخاء وراحة، وطمأنينة، وسعادة.

يضيق الرزق، تخشن الحياة، يشوك المضجع، فإذا أنت في رخاء، وراحة وطمأنينة، وسعادة، وقد يمسك الله رحمته، ويفتح لك أبواب الرزق كلها، ويقبل عليك كل شيء فلا جدوى، بل ضنكٌ، وحرجٌ، وشقاوةٌ، وبلاءٌ.

المال والولد، والصحة القوة، والجاه والسلطان، هذه حظوظ الدنيا.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف: 46)

المال والولد، والصحة والقوة، والجاه والسلطان، تصبح مصادر قلقٍ، وتعبٍ، ونصبٍ، ونكدٍ، وجهدٍ، إذا أُمسِكت عنها رحمة الله. أمّا إذا فتح الله أبواب رحمته، كانت هذه مصدر سكن، وراحة، وسعادة وطمأنينة، يبسط الله الرزق مع رحمته، فإذا الرزق متاع طيب، رغد في الدنيا، وزاد في الآخرة، ويمسك الله رحمته مع وفرة الرزق، فإذا الرزق نفسه مسارُ قلقٍ، وخوفٍ، وحسدٍ، وبغضٍ، وقد تحس بالحرمان ببخلٍ أو مرضٍ، وقد تتلف نفسك بإفراط، واستهتار.

5 ـ الرزق بين مصاحبة الرحمة ومفارقتها له:

الآن تطالعنا حالة جديدة، الرزق نفسه إذا رافقته رحمة الله أصبح رغداً في الدنيا، وزاداً في الآخرة، وأصبح مصدر سعادة وسرور، والرزق نفسه إذا غابت عنه رحمة الله عز وجل أصبح هذا الرزق مصدر حسدٍ، وبغضاء، وعداوة، وربما حرم الإنسان رزقه ببخله أو بمرضه، و ربما انقلب عليه، بإفراطه، واستهتاره.

يمنح الله الذرية مع رحمته، فإذا هذه الذرية زينة الحياة الدنيا ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر بالخلف الصالح، ويمسك رحمته فإذا هذه الذرية بلاءٌ، ونكدٌ، وعَنَتٌ، وشقاءٌ، وسهرٌ بالليل وتعب بالنهار تقول أحدهم: البلاء من الأولاد، وقد يكون الولد رحمة من الله عز وجل، كلمة رحمة عجيبة، تقريباً أردت أن أعرفها تعريفاً مبسطاً.

يعني جهاز كهربائي، بلا كهرباء عبء، مع الكهرباء أصبح مكيفاً، أصبح ثلاجة، أصبح غسالة، أصبح مسجلة، أصبح يقدم لك خدمة كبيرة، إذا ألغيت هذه الطاقة، أصبح قطعة من حديد، وعبئاً عليك، رحمة

الله عز وجل تسري في الولد فإذا هي سعادة، تمنع رحمة الله عن الولد، فإذا هو مصدر بلاء، وشقاء، وفي آخر الزمان يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيظ الكرام غيظاً، ورحمة الله إذا دخلت في بيت صار هذا البيت جنةً، على صغره، وعلى خشونته، وعلى بساطته، وإذا غابت رحمة الله عن بيت كبير كَبير مجهز بأوفر الأثاث، وبكلِّ جهاز، أصبح البيت قطعة من جحيم، والزوجة والزوج، إذا تجلى الله على الزوجين برحمته عاشا رغداً بجنة، وإذا تخلت عنهما رحمة الله عز وجل عاشا في نكدٍ وخصومة.

6 - رحمة الله سرٌ من أسراره:

ما هي رحمة الله ؟ إنها سر من أسراره، يعني إذا وجدت لا تحتاج معها إلى شيء، وإذا فقدت فأنت في حاجة إلى كل شيء، الصحة، والقوة مع رحمة الله نعمة وحياة طيبة، والتلذذ بالحياة، والصحة، والقوة نفسها إذا حجبت عنها رحمة الله عز وجل أصبحت بلاء يسلطه الله، فينفق صاحب الصحة والقوة صحته وقوته فيما يحطم جسمه، ويفسد روحه، ويدخر السوء ليوم الحساب، فهذه القوة، وهذه الصحة إذا شاعت فيها رحمة الله عز وجل، فإذا هي سعادة ورخاء، وصلاح في الدنيا والآخرة، وإذا غابت عنها رحمة الله أصبحت هذه الصحة، وتلك القوة مصدر شقاء وتعاسة، وعذاب في الآخرة.

إن الله يعطي القوة مع رحمته، فإذا هذه القوة أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار العمل الصالح في الآخرة، ويمسك الله رحمته مع هذه القوة والجاه، فإذا هذا الجاه يصبح أداة للطغيان، والعدوان والاستكبار، ولعذاب النار يوم القيامة أشد.

لعل في هذه الأمثلة ما يكفي، رحمة الله شيء عجيب، إذا سرت في أي شيء جعلته جنة، وإذا غابت عن أي شيء مهما كان عظيماً جعلته جحيماً، لذلك لما قال ربنا عز وجل:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف: 32)

النبي عليه الصلاة والسلام ماذا آتاه الله ؟ آتاه رحمة من عنده، أبيت عند ربي يطعمني، ويسقيني، لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب.

فلو شاهدت عيناك من حسـننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيـرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجـئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمَتْ من قربنا لك نسمة لمِتّ غريباً واشتـياقاً لقربنــا

***

هذه رحمة الله، الشيء الذي لا يصدق أنها قريبة من كل محسن، وفي متناول أيديكم جميعاً، يكفيكم توبة نصوح، وعمل صالح لوجه الله، فإذا أنت تتعرض لهذه الرحمة، يكفيك أن تخلص لله عز وجل، أن تعقد صلحاً معه، أن تتوب توبة نصوحاً، أن تلتفت إليه، أن تؤدي صلواتك بخشوع، يكفيك ذلك، فإذا قلبك غني، وإذا قلبك مطمئن، وإذا أنت تستمتع بأكلة خشنة، أضعاف ما يستمتع به أصحاب الأموال الطائلة في أفخر الولائم، تستمتع بهذا البيت وأولادك وأهلك أضعاف ما يستمتع به أولو الحول والطول، الذين اختاروا أجمل الزوجات، وعندهم أنجب الأولاد.

هذه رحمة الله يجب أن نبحث عنها، واقرأ قول الله تعالى فإنك واجدها:

(كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الذاريات: 17 - 18)

أيها الإخوة الأكارم:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ)

من الممكن أن نضع إنساناً بصحراء، والله عز وجل يتجلى عليه برحمته، فهو من أسعد الناس، وأن نضع إنساناً في أفخر بيت، ونطعمه أطيب الطعام، ومع ذلك يقول لك: كاد قلبي يُعصر، ضاقت نفسي، هذا معنى قول الله عز وجل.

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)

(سورة التوبة 118)

هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد، وقاطعهم النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه الكرام:

(حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

وقد تقف أمام الموت فتقول: مرحباً بلقاء الله عز وجل، واكربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه.

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام افتقد أحد أصحابه بعد معركة أحد، فسأل عنه، فكلف رجلاً أن يبحث عنه، ذهب إلى ساحة المعركة، فإذا هذا الصحابي الجليل على وشك الموت، في النزع الأخير، فقال له الرجل الذي جاء يبحث عنه: أميت أنت أم حي ؟ قال: بل أنا مع الأموات، أمَا واسمع أيها الأخ ما قال هذا الصحابي وهو في النزع الأخير، قال: أبلغ رسول الله مني السلام، وأبلغ أصحابه مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم عند الله، إذا خُلِصَ إلى نبييكم وفيكم عين تطرف.

أنا أتصور أن هذا الصحابي كان في قمة سعادته، وهو في النزع الأخير، واسأل أطباء القلب عن حالات الوفاة التي يشاهدونها كل يوم، لطم للوجوه، وصراخ بالويل، و بكاء وسلوك أطفال، من شدة

الخوف من الموت، ما هذه الرحمة ؟ تواجه بها الموت، فإذا هو كأطيب ما يكون، وتواجه من دون هذه الرحمة لذّات الحياة فإذا هي شقاء في شقاء:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ)

يكفي أن يكون الإنسان في غضب الله، خذ المال، وخذ الجاه، وخذ الصحة، واركب المركبات، و طِرْ في السماوات، و غُص في أعماق البحار، وتنقل من بيت إلى بيت، ومن منتجع إلى منتجع، ومن بلد إلى بلد، ومع كل ذلك فهو في شقاء.

أيها الإخوة الأكارم: البطولة أن تستحق رحمة الله، إذا جاءتك رحمة الله جاءك كل شيء، وما فقدت شيئاً، وما فاتك شيء، ولا تندم على شيء، وإذا غابت عنك رحمة الله ما نلت شيئاً، ولا حصّلْتَ شيئاً، وفاتك كل شيء:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

7 ـ الاستقامة ثمن الرحمة:

يا أيها الإخوة الأكارم: كل هذا الوصف والثمن بسيط، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ، ثمن هذه الرحمة في أيديكم جميعاً، يكفي أن تستقيم على أمر الله، غض بصرك عن محارم الله، اضبط لسانك، اضبط أذنك، أنفق من مالك، صلِّ والناس نيام، اقرأ القرآن، وانتهى الأمر، تشعر بهذه الرحمة، إن لم تقل: أنا أسعد الناس فهذا الدين باطل، يجب أن تقول في أي ظرف، في أي بيئة، في أي مكان، في أي زمان، قبل الزواج، وبعد الزواج، قبل الغنى، وبعد الغنى، سواء كنت في بحبوحة، أو في ضيق، أو في صحة، أو في مرض، يجب أنا تقول: أن أسعد الناس، لأني عرفت الله عز وجل، ولأنك إذا عرفت الله تجلى الله على قلبك، ما معنى ؟ إن بيوتي في الأرض المساجد، وزوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، ماذا في المسجد ؟ هل فيه كؤوس شاي ؟ أو أطباق حلويات، ما فيها شيء من المتع إطلاقاً، بل لا تجد كرسياً في المسجد، تجلس على الأرض، ومع ذلك يتجلى الله على قلب المصلين، وعلى قلب رواد المساجد برحمة، يقول لك أحدهم عند خروجه: صار معي زاد، يخرج من بيت الله وهو منتشٍ، يبقى يومين، أو ثلاثة، أو أربعة، وهو محتفظ بهذه السعادة، الثلاثاء والأربعاء تتناقص، ثم يأتي يوم الجمعة فيشحن مرة ثانية، وهكذا.

فلذلك:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

كلمة أخيرة حول هذه الآيات مادام الله عز وجل أراد أن يلفتنا إلى ذاته العلية، وأراد أن يبلّغنا أنّ كل هذه النعم التي أنتم فيها إنما هي من عندِ الله سبحانه، وأنكم إذا التفتم إليّ تسعدون، وأن الرحمة كلها بيدي، و أن هذه الرحمة كالكهرباء تسري في كل شيء، فإذا هو يتحرك، وإذا حجبت عن أي شيء، فإذا هو جماد ميت، هذه الرحمة إذا سعينا إليها بإخلاصنا، وتوبتنا، وطاعتنا، وأعمالنا الصالحة، هذه الرحمة كفيلة أن تقلب الحياة إلى نعيم، حتى في أقسى الظروف، وهناك من يقول لك وهو صادق: إنه مرّ بأقسى الظروف، وأصعبها، وأخشنها، ومع ذلك كان سعيداً، وحينما جاءه الرخاء، وحجبت عنه رحمة الله صار شقياً، إذاً رحمة الله تسعد كل مخلوق، وهي التي وعدنا الله بها:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف: 32)

8 ـ الراحمون يرحمهم الرحمن:

الراحمون يرحمهم الله، ما معنى هذا الحديث ؟ يعني إذا خدمت الناس، وأخلصت لهم ونصحتهم وقدمت لهم شيئاً من ذاتك، من علمك، من مالك، من جهدك، رحمك الله عز وجل، أسعدك، يعني إذا أردت أن تسعد فأسعدِ الآخرين، هذا معنى قول النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((رَحِمَ اللّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري عن جابر]

إذا كنت سمحاً بالبيع والشراء تحس بتجلٍّ، تحس بمكانتك، إذا كنت متشدداً وقاسياً تكون بعيداً عن رحمة الله عز وجل، وفي كل شيء إذا كنت محسناً تحس بسعادة، الأمر بسيط جداً، هذه السعادة يصعب وصفها، أما إذا كنت أخلاقياً، كنت محسناً، كنت متساهلاً، أميل للين، تشعر أن الله عوضك عما فقدته سعادة في قلبك، هذه الرحمة، فلذلك هذه الرحمة يجب أن تكون شيئاً واضحاً في حياتنا، إذا جاءت فأنت بخير وإن غابت عنك لم تحصّل شيئاً.

رحمة الله بين أيديكم:

1 ـ الرحمة بالتوبة:

مرة ثانية من شدة حرصي على هذه الفكرة، رحمة الله بين أيديكم وفي متناولكم، ويكفي أن تتوب إلى الله توبة نصوحاً، يكفي أن تعقد مع الله صلحاً، يكفي أن تتجه إليه، يكفي أن تخلص له، يكفي أن تنفق

في سبيله أي شيء، حتى تشعر برحمته، وقد ملأت قلبك، وسَرَتْ في جوانحك، وشَعَّتْ في نفسك، فإذا أنت إنسان متميّز، لست كبقية الآخرين، لست كهؤلاء الناس، الذين تفسدهم النعمة، و تسحقهم المصيبة، هؤلاء الذين يتضعضعون أمام الأغنياء، هؤلاء المنافقون، هؤلاء المنهزمون، هؤلاء الخانعون، هذه الصفات الخسيسة الدنيئة أنت بعيد عنها، لأن الله قد رحمك، الراحمون يرحمهم الله.

2 ـ الرحمة برحمة الخَلق:

آخر حديث: حديث قدسي:

((إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي))

أيّ إنسان مهما كان، تقول لي: فلان ليس مسلماً، أتقول: أي إنسان مهما كان اتجاهه إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي، حتى الحيوانات، حتى النبات، ارحمْه اسقِه ماءً، قلّمه في وقت التقليم، ارحم النبات، وارحم الحيوان، وارحم الإنسان تأتِكَ رحمة الله، وإذا جاءتك رحمة الله سعدت سعادة لا تقوى متاعب الدنيا كلها على تقويضها، وإذا حرمك الله هذه السعادة فلا تستطيع نعم الدنيا كلها أن تسعدك، الشقاء والسعادة بيدك، إذا اقتربت من الله جاءتك رحمته فأنت أسعد الناس، وإذا ابتعدت عنه بالمعاصي غابت عنك رحمته فأنت أشقى الناس.

خاتمة:

1 ـ الابتعاد عن رحمة الله يعني اللعنَ:

هذا ملخص مُلخص الملخص، إذا أقبلت على الله بطاعته جاءتك رحمته فسعدت بها في الدنيا والآخرة، وإذا ابتعدت عنه بمعصية غابت عنك رحمة الله، وهذا معنى اللعن.

(أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللَّاعِنُونَ(159))

(سورة البقرة: 159)

ما معنى إبليس اللعين ؟ إبليس ملعون أي بعيد عن رحمة الله، بعيد عن نور الله، عن تجلّي الله، عن سكينة الله، عن رحمة الله فالأمر بيدنا، والإنسان مخير، إذا عصيت الله جاء الحجاب بينك وبين رحمة الله، وإن أطعته كشف الحجاب، هذا ملخص مُلخص الملخص، ملخص الدروس كلها.

2 ـ لا أحد يستطيع أن يمنه نعمة الله عن أحدٍ:

آخر شيء:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

لا تستطيع قوى الأرض مجتمعة أن تمنعك رحمة الله عز وجل، وإذا كانت بيدك قوى الأرض كلها، وغابت عنك رحمة الله فأنت أشقى الناس:

(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (02-10): تفسير الآيات 2 - 5 ، الرحمة سر من أسرار الله العظيمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-04-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة فاطر، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثالثة من سورة فاطر، وكنا قد أنهينا الآية الثانية التي تبدأ بقوله تعالى:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

رحمة الله:

1 ـ رحمة الله سرّ من أسراره:

وقد بينت في الدرس الماضي أن رحمة الله عز وجل سرٌ عظيم قد تأتي مع الحرمان فيغدو عطاءً، وقد تُفقد مع العطاء فيغدو حرماناً قد تأتي مع المرض فيكون راحة، وقد تُفقد مع الصحة فيكون شقاءً، فالله سبحانه وتعالى جعل رحمته سراً من أسراره، فإذا تجلّى على عبد بالرحمة أسعده، في أي ظرف، في أي وضع، في أي مكان، في أي زمان، في أي مستوى، وإذا حجب رحمته عن عبده أشقاه، ولو كان في أعلى درجات الغنى، وأعلى درجات القوة، وأعلى درجات المجد والصحة.

2 ـ رحمة الله وعلاقتها بالعلم والعُمر:

أيها الإخوة الأكارم، العلم الغزير، والعمر الطويل، والمقام الطيب، هذه لها علاقة نفيسة برحمة الله عز وجل، فقد يكون علماً غزيراً لا ينتفع منه، وقد يكون عمراً طويلاً لا يستفاد منه، وقد يكون المقام مقاماً طيباً ومع ذلك يغدو شقاءً على صاحبه، لكن رحمة الله عز وجل إذا توافرت في عبدٍ علمه القليل يثمر وينفع، وعمره القصير أحياناً يغنيه الله بالأعمال الصالحة، ودخله القليل يبارك الله له فيه، فإذا بارك الله لك بدخلك القليل كان أنفع لك من دخل كثير، محجوب عن رحمة الله، وإذا كان لك عمر أغناه الله بالعمل الصالح كان خيراً لك من عمر مديد مفعم بالمخالفات و التقصيرات، وإذا منحك الله علماً استعملته.

قيل لأحدهم: ما هذا المقام الذي حصلته ؟ قال: بالعلم، فقال له: واللهِ هناك أناس تعلموا أكثر منك، فما السر ؟ قال: ذلك علم حُمل، وهذا علم استعمل، والفرق كبير بين العلم الذي يحمل، والعلم الذي يستعمل.

3 ـ مِن رحمة الله عز وجل الشعورُ برحمة الله:

أيها الإخوة الأكارم، مِن رحمة الله عز وجل أن تحس برحمة الله، فإن لم تشعر بها كنت محجوباً عنها، مِن رحمة الله عز وجل أن تنتظرها، فإن لم تنتظرها كنت محجوباً عنها، من رحمة الله عز وجل أن تثق برحمة الله فإن لم تثق بها، كنت محجوباً عنها، من رحمة الله أن تنتظرها، من رحمة الله أن تحسها، من رحمة الله أن ترجوها، من رحمة الله أن تجدها، من رحمة الله أن تثق بها، فإن لم تجدها، ولم تشعر بها، ولم تنتظرها، ولم تضع ثقتك فيها، كنت محجوباً عن رحمة الله، لهذا قال الله عز وجل:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف: 87)

4 ـ رحمة الله لا تعز على أيّ طالبٍ لها:

يا إخوة الإيمان، رحمة الله لا تعز على أيّ طالبٍ لها، أيُّ طالبٍ لرحمة الله يجدها، في أي مكانٍ، وفي أي زمان، أين وجدها إبراهيم عليه السلام ؟ وجدها في النار.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء: 69)

جاءته رحمة الله وهو في النار، فأصبحت النار برداً وسلاماً.

أين وجدها يوسف عليه الصلاة والسلام ؟ وجدها في الجب، حيث الموت، جوعاً، وخوفاً، ولكن رحمة الله عز وجل أنزلها عليه وهو في الجب:

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ)

(سورة يوسف: 19)

رحمة الله عز وجل وجدها يوسف عليه السلام وهو في السجن، والسجن وما أدراكم ما السجن، مكان ضيق، وظلام دامس، ورطوبة بالغة، وقسوة غير معقولة، ومع ذلك، إذا جاءت رحمة الله عز وجل أصبح هذا المكان الضيق جنة، والذين عرفوا الله عز وجل، وعرفوا رحمته، صادقون فيما يقولون، هذا النبي العظيم وجد رحمة الله عز وجل وهو في السجن.

سيدنا يونس أين وجدها ؟ وجدها وهو في بطن الحوت، ما من مصيبة على وجه الأرض أشد من أن تكون في ظلمات ثلاث، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، ومع ذلك، طلبها يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء: 87)

فجاءت رحمة الله عز وجل وأنقذته.

وجدها موسى عليه السلام وهو في اليم، في صندوق خشبي، طفل صغير رضيع عاجز عن أن يتنفس، ألقي في صندوق، وألقي الصندوق في اليم، لكن رحمة الله جاءته فسيّر الله هذا الصندوق إلى شاطئ قصر فرعون، وألهم امرأة فرعون أن تكون في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، على شاطئ نهر النيل، ووقعت منها التفاتة، فإذا صندوق يتحرك، أخذته وفتحته، فإذا هو غلام، قالت:

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص: 9)

جاءت رحمة الله وهو في قصر فرعون، قُتل أبناء بني إسرائيل جميعاً، من أجل ألا يأتي غلام منهم يقضي على ملكه، والذي سيقضي على ملكه رباه في قصره، هذه رحمة الله عز وجل.

أصحاب الكهف جاءتهم رحمة الله وهم في الكهف.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

(سورة الكهف: 16)

أيها الإخوة الأكارم، لعلكم تقولون: لقد أطال في تفسير هذه الآية، إنها رحمة الله، إذا سعينا إليها أسعدتنا، إذا سعينا إليها أنقذتنا، إذا سعينا إليها ألقت في قلوبنا نوراً، وحضوراً، وثقةً بالله عز وجل.

رحمة الله وجدها النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الغار، وقد تعقبه الكفار، وقال أبو بكر رَضِيَ اللَّه عَنْه:

((لَوْ أَنّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

إلى أن قال أبو بكر رَضِيَ اللَّه عَنْه يا رسول الله لقد رأونا، وقعت العين على العين، قال: يا أبا بكر، ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف: 198)

رحمة الله إذا جاءتك فأنت أسعد الناس، وإذا حُجبت عنك، فلو كنت أقوى الناس، لو كنت أغنى الناس، لو كنت أصح الناس، فهي شقاء في شقاء.

5 ـ لا ممسك لرحمة الله إذا فتحها:

أيها الإخوة الأكارم، متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، أقول لكم هذا الكلام، وهذا الكلام زبدة هذا الدرس: رحمة الله يجدها كل طالبٍ لها، يائس مما سواها، إن طلبتها صادقاً، ويئست مما سواها نلتها مهما كنت، كن أي إنسان في أي مكان، وفي أي زمان، لذلك من الدعاء الشريف، يا الله برحمتك نستغيث، المشكلة أن الإنسان حينما يتكئ على ما سوى الله، حينما يتكئ على صحة، وعلى مال، أو على جاه، أو على قوة، أو على زوجة، أو على ولد، أو على جارٍ، أو على معينٍ، أو على قريبٍ، أو على نصيرٍ، حينما يتكئ على ما سوى الله فلن يجد رحمة الله، أما إذا اتجه إلى الله عز وجل، مخلصاً، وقطع أمله مما سواه فإنها بين يديه، هذه رحمة الله، يصعب أن نشرحها، لكن تحدثنا عن آثارها.

لذلك فالاستنباطُ من هذه الآية الكريمة ملموسٌ:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

6 ـ من لوازم الشعور برحمة عدمُ الخوف من الناس:

إذاً: الاستنباط البسيط أنه ينبغي ألاّ تخاف أحداً، وألا ترجو أحداً، لأن أحداً لا يستطيع أن يمنحك إياها إذا حجبك الله عنها، وإن أحداً لا يستطيع أن يحجبها عنك إذا أرسلها الله إليك، الاستنباط الواضح القطعي ما دامت رحمة الله هكذا إنْ فتحَها فلا ممسك، وإنْ أمسكَها فلا مرسل، إن كانت كذلك إذاً فمن الغباء، وضيق الأفق، والحمق، أن ترجو أحداً، أو أن تخاف أحداً من الشرك، وضعف الإيمان، أن ترجو مخلوقاً، وأن تخاف من مخلوق، قلت أحداً، أعني به الإنسان، الآن قلت: مخلوقاً، أن ترجو مخلوقاً، أو أن تخاف من مخلوق، بل من الشرك أن ترجو شيئاً، أو أن تخاف من شيء، بل من الشرك أن تخاف فوْت الوسيلة، فإذا تجلّى الله عليك برحمته كان هو الوسيلة، وأن ترجُوه مع الوسيلة، فإذا حجب الله عنك رحمته لا قيمة للوسيلة، هناك أسباب، إن جاءت رحمة الله لا معنى للأسباب، وإن حجبت رحمة الله فلا معنى للأسباب.

إذاً: ملخص هذه الآية حديث شريفٌ بليغٌ موجزٌ جامعٌ مانعٌ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

[كنز العمال عن علي موقوفا]

لا ترجُ أحداً، ولا تخف أحداً، لا ترجُ مخلوقاً، ولا تخف من مخلوق، لا ترجُ شيئاً، ولا تخف من شيء، لا ترجُ وسيلةً إذا حجبت عنك رحمة الله، ولا تخف فوَتْ وسيلةٍ إذا جاءتك رحمة الله.

(إنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف: 56)

وهي مبذولة لكل عباده المؤمنين، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم، ولا بين غنيهم وفقيرهم، كلكم لآدم وآدم من تراب.

7 ـ الاستقامة سبب لرحمة الله:

أيها الإخوة الأكارم، قد تأتيك رحمة الله عز وجل، ولا شيء يتغيّر مِن حولك، ولكن شعورك برحمة الله هو من رحمة الله، لكن شعورك بالطمأنينة هو من رحمة الله، فإذا وجدت الله وجدت كل شيء، وإن فاتتك رحمة الله فاتك كل شيء، ورحمة الله تحتاج إلى معرفة أولاً، وإلى استقامة ثانياً، وإلى عمل صالح ثالثاً، فإذا توافرت لك المعرفة عن طريق التفكر، وعن طريق حضور مجالس العلم، وإذا توافرت لك الاستقامة عن طريق معرفة منهج الله عز وجل، والالتزام به، وإذا أكرمك الله بعمل صالح خالص لوجهه، فقد أصبت رحمة الله، ولا تنس قوله تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف: 32)

لأن الذي يجمعونه مهما كبر حجمه، يتركونه في الدنيا، ويدخلون في قبورهم حفاة عراة، لا شيء ينفعهم إلا العمل الصالح، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طماعة عوّدها القناعة.

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

و إذا العناية لاحظتك جفونها نـم فالمخاوف كلـهن آمـان

***

إذا كنـت في كل حال مـعي فعن حمل زاد أنا في غنـى

فأنتـم هو الحـق لا غيركـم فيـا ليت شـعري أنا من أنا

***

هذه رحمة الله، الشيء اللطيف أنها مبذولة، وأنها لكل الخلق.

أبلغ كلمة قالها سيدنا عمر رَضِيَ اللَّه عَن عمر لسيدنا سعد بن أبي وقاص، وسيدنا سعد بن أبي وقاص خال رسول الله، وكان يحتل مكانة عليّة جداً عند النبي عليه الصلاة والسلام، فهو الوحيد الذي كان إذا دخل عليه داعبه، وقال:

((هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[الترمذي عن جابر]

هو الوحيد الذي فداه النبي بأبيه وأمه، قال:

((يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أبي وَأمِّي))

[متفق عليه عن علي]

هذا الصحابي الجليل الذي قال مرة: << ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول، حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلا علمتُ أنه حق من الله سبحانه وتعالى >>، هذا الصحابي الجليل قال له عمر بن الخطاب: **<< يا سعد، لا يغرّنك أنه قد قيل لك: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >>.**

أنت بطاعة الله وحدها تصل إلى رحمة الله، وبمعصية الله وحدها تحجب عن رحمة الله.

(إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات: 13)

لا فضلَ لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، مَن يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، هذا هو الدين.

وقف بلال وصهيب، ووقف أبو سفيان زعيم قريش، سيد قريش، في باب عمر بن الخطاب ساعات طويلة فلم يؤذن له، وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان، فلما دخل أبو سفيان آلمه هذا الموقف، قال: زعيمُ قريشٍ يقف في بابك ساعات طوالاً، وصهيب وبلال العبدان الأسودان يدخلان، ويخرجان بلا استئذان، فقال عمر كلمة واحدة، قال: << أأنت مثلهما >> ؟ ليسوا سواء، من آمن من قبل الفتح وأنفق، الذي آمن برسول الله في زمن الضعف، وأنفق ماله لا يستوي هذا مع من أسلم عندما قوي الإسلام، وعظمت شوكته.

سيدنا بلال وضع سيدنا الصديق يده تحت إبطه، وقال: << هذا أخي حقاً >>، وكان أصحاب رسول الله إذا ذكروا سيدنا الصديق قالوا: **<< هو سيدنا، وأعتق سيدنا >>**، ما لك ميزة عند الله إلا بالعمل الصالح.

لا تقل أصْلي وفصلي أبــداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

كن ابن ما شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

***

هذه رحمة الله عز وجل، رحمة الله لمن عرف الله، واستقام على أمره، وعمل صالحاً، هذا يرفعه الله مكاناً عالياً، هذا يرفع الله له ذكره.

الآية التي بعدها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 ـ النفس مفطورة على حب مَن أحسن إليها:

يبدو أن الإنسان مفطور على حب المحسن، يا داود، ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفس جُبلت على حب من أحسن إليها، وبُغْض من أساء إليها، فإذا ذكرت نفسك بنعم الله عز وجل لعل هذا القلب يحب الله عز وجل، فإذا أحببت الله وجدت كل شيء، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

2 ـ نعمة الإيجاد والرشاد والإمداد:

اذكروا نعمة الوجود، من الذي منحكم نعمة الوجود ؟ الله سبحانه وتعالى، وهناك مخلوقات قميئة تزدريها أنت، ولكن وجودك شيء، ووجودها شيء آخر:

(اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الوجود، ونعمة التكريم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء: 70)

سخر لك ما في السماوات والأرض، نعمة الوجود مضافٌ إليها نعمة التكريم، مضاف إليها نعمة العقل، مضاف إليها نعمة الاختيار، مضاف إليها نعمة الأمانة، مضاف إليها نعمة الشهوات التي أودعها الله فيك، لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، مضاف إليها نعمة الفطرة السليمة، مضافة إليها نعمة الرسالة، نعمة الكتاب، نعمة العبادات:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

فممكن أن نلخص هذه النعم كلها بنعم ثلاث، نعمة الإيجاد، ونعمة الإرشاد، ونعمة الإمداد، أمدك بكل شيء وأيُّ شيء أنت محتاج إليه، خلقه الله لك في الأرض، وهو نعمة لك.

مثلاً، وإن كان هذا المثل بعيد عن سياق الدرس: هؤلاء الحجاج حينما يطوفون بالبيت الحرام، الحرّ هناك شديد، قد تصل حرارة المسجد الحرام إلى 59 درجة فوق الصفر، نوع من الرخام وجد في بقعة نائية من العالم، لو أن الشمس بقيت مسلطة عليه عشر ساعات لا تزيد حرارته على عشر درجات، وُضع في أرض الحرم، وفي مقام النبي عليه الصلاة والسلام، أليس هذا من نعمة الله ؟ مَن صمم هذا الرخام ليرفض امتصاص الحرارة ؟ الله سبحانه وتعالى، ما من شيءٍ نحتاج نحن إلا وقد وفره الله لنا، هذا الحديث يطول، لو وقفت في أحد أسواق المدينة، فرأيت أنواع السلع، وأنواع النباتات، وأنواع الخضراوات، وأنواع الأدوية، وأنواع الأدوات، وأنواع الآلات، وأنواع المعادن، وأنواع أشباه المعادن، شيء لا ينتهي، هذه نعمة الله نعمة الله في الإيجاد، ونعمة الله في الإمداد، ونعمة الله في الهدى والرشاد، هذا من نعمة الله، هذا الدرس من نعمة الله عز وجل، أن ينزل الله على نبيه كتاباً فيه منهج، فيه ذكر مَن قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم فيه أمرٌ ونهيُ، فيه حلال وحرام، فيه وعد ووعيد، فيه إنذار وبشارة فيه خبر الأقوام السابقين، فيه ما قبل أن نأتي إلى الدنيا، فيه ما بعد الموت، كتاب بين أيدينا، فيه تِبيان لكل شيء، هذا من نعمة الله عز وجل، نعمة الإيجاد، أنت موجود على سطح الأرض، لك اسم، لك حيز، وتأكل وتشرب، وتسكن بيتاً، ولك زوجة، وأولاد، ولك أجهزة وأعضاء، وغدد صم، وغدد غير صم، وقلب، ودسامات وأوردة، وشرايين، وأعصاب، وعضلات، و130 مليون مخروط بالشبكية، و300 ألف شعرة، لكل شعر وريد، وشريان، وعصب وغدة دهنيه، وغدة صبغية، وعضلة، وخلايا، وأجهزة، شيء لا ينتهي، نعمة الإيجاد.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان: 1)

من أنت قبل خمسين عاماً، لمن كانت سنه قبل الخمسين طبعاً، لا شيء، ما لك اسم.

مرة رأيتُ طفلاً في مكان في بهو عام، يبدو أن أهله كانوا مسافرين، وُضع له من الفوط حول وسطه ما جعله كالكرة، قلت: هذا الإنسان، بعد أن يكبر ينسى الله عز وجل، يقول: أنا، فمن أنت ؟ كنت طفلاً صغيراً بحاجة إلى كل شيء، فلما كبرت سنك، وقوي عودك نسيت الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

اذكروا نعمة أنه أوجدكم، وكرمكم، ومنحكم العقل، وسخر لكم الكون، وفطركم فطرة عالية، أودع فيكم الشهوات، أعطاكم هذا المنهج، رزقكم الطيبات، ستركم، أكرمكم.

الشيء الدقيق في هذه الآية:

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ)

3 ـ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ

يعني هل هناك خالق آخر ؟ خالق هذه النباتات، تأكل وتشرب، مرة تقول: أريد كأساً من الشاي، مرة كأسَ ليمونٍ، مرة تقول: أريد أن آكل هذا الطعام، هذه الأكلة، هذه الفاكهة، تنام على فراش وثير، تستنشق هواء عليلاً، هذه كلها نِعم:

هل هناك خالق آخر غير الله خلق هذه النعم ؟

هل من خالق غير الله ؟

هل تعتقد أن خالقاً غير الله خلق هذه الأشياء ؟

وهل تعتقد أن رازقاً غير الله عز وجل يرزق ؟

فإذا كان الخالق هو الله، والرازق هو الله، فكيف تنصرف عن الله عز وجل ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ مَن تصاحب ؟ إلى من تتجه ؟ ممن تخاف ؟ إذا كان الله وحده هو الرزاق، ووحده هو الخلاّق فمِن حكمة الله عز وجل، ومن نعمة الله عز وجل أن الله سبحانه وتعالى قطع أفعال الناس عن رزق العباد، الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فإذا ظن إنسان أنه يرزق الآخرين فهذا خطأ واستعلاء، فالله سبحانه وتعالى وحده يرزقهم رزقاً وفيراً من دونه.

إذاً: هذه الآية:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

مركز ثقل الآية:

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

4 ـ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

أيْ كيف تصرفون ؟ إلى أي مكان تتجه ؟ إلى أي عظيمٍ تتجه ؟ إلى أي جهة تنصرف ؟ بمن تؤمن ؟ من ترجو ؟ من تخاف ؟ هو الخالق، وهو الرازق، وأنت متجه إلى غيره.

وَاللَّهِ إنه موقف عجيب، إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغّضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيءٍ إلي، مَنْ أقبل علي منهم تلقيته مِن بعيد، مَن أعرض عني منهم ناديته مِن قريب أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب، لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

هذا العجب العجاب، إلى مَن تتصرف ؟ تعلق الآمال على زيد، أو على عبيد، إن الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيدَ لا يمنعك من الله، ترجو غير الله، تخاف من غير الله، تتأمل عطاءً مِن غير الله، تُرضي الناس وتسخط الله عز وجل، أتخشون الناس، وَاللَّهِ أحق أن تخشوه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

5 ـ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

العلماء قالوا: السماء هو المطر، كم هي الفرحة عارمة حينما نرى هذه الأنهار، وقد طفحت، وارتفع منسوبها إلى خمسة أضعافِ العامِ الماضي، من خمسة أمتار مكعبة في الثانية الواحدة إلى أكثر من 25 متراً مكعباً في الثانية الواحدة، غزارة بعض الأنهار، هذه الفرحة بهذه المياه الغزيرة، أين كانت لولا أن الله تفضل علينا بهذا المطر ؟ فالعلماء قالوا:

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ)

أي بالمطر.

(وَالْأَرْضِ)

بالنبات، السماء تمطر، والأرض تنبت، وأنت بين السماء والأرض، بين أن يتفضل الله علينا بمطر غزير، وبين أن ينمو النبات من دون آفات، من دون صقيع، صقيع واحد يقضي على مئات الملايين من الدنمات المزروعة في ساعة واحدة، فنعمة المطر لا تكفي، لا بد من نعمة الإنبات، ونعمة سلامة الإنبات، ونعمة غزارة الإنبات، لا بد من المطر، ولابد من الإنبات، ولابد من سلامة الإنبات.

قلت مرة لأحد الإخوة وعنده مزرعة نحل، أو خلايا نحل سألني: أفي النحل زكاة ؟ قلت: نعم، هكذا نص العلماء، زكاة النحل كزكاة الزرع، إن كان له أعشاش طبيعية فالعشر، وإن كان له خلايا صناعية فنصف العشر، قلت له: وإلا إنْ لم تدفع زكاة النحل فالقراد جاهز، القراد آفة تصيب النحل، آفة عظيمة، أصابت خلايا النحل قبل عامين، فطاشت عقول أصحاب المناحل، آفة اسمه قراض النحل، فإما أن تدفع وإما أن القراض جاهز، إما أن تزكي زكاة هذا النبات، وإما فالصقيع جاهز، تارة دودة، تارة فأر حقل، تارة حشرة، تارة ذبابة، ذبابة بيضاء أحرقت الحرث والنسل في الساحل، حتى الآن ليس هناك دواء لها، كل النباتات تتجعد، وتموت بفعل الذبابة البيضاء، فما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة، في الداخل وفي الخارج، وفي أي مكان، إذا حبست الزكاة تلف الزرع، فلذلك هذه قوانين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

من السماء بالمطر، ومن الأرض بالزرع والضرع.

أحياناً تقل أمطار البادية، فنضطرّ إلى استيراد علف بما يزيد على عشرات مئات الملايين من الليرات، إذا قلّ المطر في البادية قلّ العشب الطبيعي الذي يغني عن ألوف الملايين:

(مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

أنى تصرفون، أنى تتجهون، مَن تخافون، مَن ترجون ؟

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

1 ـ معركة الحق والباطل أزلية:

معركة الحق والباطل قديمة، فكلما تمرّس الإنسان في الحياة لا يستغرب ما يلاقيه من متاعب، هذه المتاعب من سنة الله في خلقه دائماً وأبدا الحق والباطل يتصارعان، دائماً وأبدا قوى الخير وقوى الشر تتعاكسان، دائماً الحق له أعداء، فهذا الشي واقع دائماً.

2 ـ تسلية النبي عليه الصلاة والسلام:

الله سبحانه وتعالى يسلّي النبي عليه الصلاة والسلام و يواسيه، قال يا محمد:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

لست أول مَن كُذب، ولن تكون آخر مَن كُذب، وقد ناجى موسى ربه فقال: يا رب، لا تبق لي عدواً، قال: يا موسى، هذه ليست لي، الحق دائماً هناك مَن يعارضه، هناك مَن يطعن فيه، هناك من يسخر منه، هناك من يكذبه، هناك من يكيد له، هناك من يريد أن يطفئه:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

3 ـ لا قرار إلا للحق:

لكن الأمر كله لله، الله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف: 128)

الأمور تدور وتدور، والقوى تصطرع، ولا يستقر إلا الحق:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران: 146)

الأمور تدور، والقوى تتصارع، وهناك مَن يعلو، وهناك من يخبو، وفي النهاية لا يستقر إلا الحق على قدميه.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء: 81)

ورأيتم بأم أعينكم كيف أن قوى الباطل قد تهافتت، وتساقطت لأسباب صغيرة جداً، ما كان يُظَن أن تتهاوى لهذه الأسباب، ولكن شاءت مشيئة الله ذلك، وإلى الله ترجع الأمور، ولو أنهم كذّبوك فالله معك، قال له: يا عدي بن حاتم، لعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين، أنك ما ترى من حاجتهم، كانوا فقراء، كان أصحاب النبي فقراء جداً، فعدي بن حاتم كان ملكاً من ملوك الجزيرة، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام، كان يظن أن رسول الله ملك، فلما دخل عليه، ما عرفه، لأنه كان بين أصحابه، فقال النبي له من الرجل ؟ قال: أنا عدي بن حاتم، فرحب به النبي عليه الصلاة والسلام، وانطلق به إلى البيت تكريماً له، قال: وفي الطريق استوقفته امرأة تكلمه طويلاً في حاجتها، فوقف يستمع لها، قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، إنه نبي، فدخلت بيته، فدفع إليّ وسادة من أدم محشوة ليفاً وقال: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، ليس في بيته إلا وسادة من أدم محشوة ليفاً، هذه واحدة، قال: يا عدي بن حاتم، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، وايم الله، ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها هذا لا تخاف، لاستتباب الأمن في المسلمين، ولعله إنها يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، وايم الله، ليوشكن أن ترى القصور البابلية مفتحة للمسلمين، ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى هذا كله بأم عينيه وهذه الثانية، وإلى الله ترجع الأمور، الأمر بيد الله، والله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف: 128)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة غافر: 51)

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأعراف: 128)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

1 ـ وعدُ الله واقع لا محالة:

وعد الله حق واقع لا محالة، ولا بد من أن يقع، وأن تزول السماوات والأرض أهون على الله من ألاّ يقع وعده، ووعيده لذلك فالمؤمن قيل له: كيف أصبحت يا فلان ؟ قال: أصبحت بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وبأهل النار يتصايحون.

أحيانا الإنسان يرى شيئاً له نتيجة حتمية، يتنبأ بهذه النتيجة قبل أن تقع، ليقينه بأنها لابد من أن تقع.

2 ـ الموتُ واقع لا مفر منه:

إذا كان شخص ـ لا سمح الله ـ راكباً مركبة، وتعطل معه المكبح فجأة، والطريق منحدر، والسرعة شديدة، وهناك منعطف حاد في نهاية هذا المنحدر، ولن تقف معه المركبة، أول صيحة يصيحها يقول لك: هلكنا، يستخدم الفعل الماضي، كأنه يتحقق الوقوع، يستخدم الفعل الماضي لتحقق الوقوع:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

الإنسان مهما عاش:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـازة فأعلم بأنك بعدهـا محـمولُ

***

ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خَلق جديد، وعلى عملك شهيد، تزوّد مني فإني لا أعود.

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[البخاري عن حذيفة]

ما دمتَ قد استيقظت، فقد سمح الله لك بيوم جديد:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

هذا الموت لا بد منه، مع وقف التنفيذ، والإنسان يمر في الطرقات، وفي كل يوم يقرأ عشرات النعي، ثم يمضي لسبيله، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وفي يوم من الأيام سيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا:

(إنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

لا بد من مغادرة الدنيا، لا بد من مغادرة بلا عودة، ولما يموت الإنسان مساء لا يقول أحد: لماذا لم يأتِ فلان، وقد تأخر، يقولون: لا يرجع، ما أحد يقول: تأخر، أما قبل أن يموت مثلاً الساعة العاشرة يقولون: ليس بالعادة أن يتأخر، يخبّر أو يتصل، ما دام حياً، أما إذا خرج من البيت أفقياً فلا يقول أحد مساء: أين فلان ؟ لن يعود، فإنه انتهى:

(إنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

وعدنا بالموت، لكن بين أن يكون الموت عرس المؤمن، وقمة سعادته وساعة لقائِهِ مع ربه، وبين أن يكون الموت أسوأ أوقات حياته، فالموت يتحدد بطريقة الحياة التي تحياها، فإذا أمضيت العمر في طاعة الله عز وجل، كان الموت عرس المؤمن، وكان القبر روضة من رياض الجنة، وكان البرزخ جنة، وإذا أمضى الإنسان حياته في معصية الله كان الموت أكبر مصيبة، وما بعد الموت أخطر من الموت نفسه.

(فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ)

فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ

الحقيقةُ أنّ الدنيا تغر وتضر وتمر، والناس دائماً يرونها بحجم كبير جداً، أكبر من حجمها الحقيقي. دخل الصحابة على سيدنا أبي عبيدة الجراح فرأوه يسكن غرفة، وهو قائد جيش المسلمين، يسكن غرفة فيها قدر ماء مغطى برغيف خبز، وسيفه معلق على الجدار، ويجلس على جلد غزال، فقيل له: ما هذا ؟ قال: هو للدنيا، وعلى الدنيا كثير، ألا يبلّغُنا المقيل ؟ يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ)

أيها الإخوة، هذه الآية تحتاج إلى تفصيل طويل، على كلٍ نقف عند كلمةٍ واحدة منها:

(فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

1 ـ الدنيا حظوظ، والغرور أن تراها بغير حجمها الحقيقي:

الدنيا فيها حظوظ، المال حظ، بمعنى نصيب، وفيها القوة، وفيها الجمال، وفيها الذكاء، وفيها البيت، وفيها الزوجة، وفيها الأهل، هذه الدنيا لها حجم عند الله، فما الغرور ؟ أن تراها بحجم كبير جداً، أكبر

من حجمها، إن عرفت حجمها، إن رأيتها زائلة، وماضية، وإن رأيتها ممراً وليست مقراً، وإن رأيتها دار عمل، وليست دار جزاء، إن رأيتها سرادقاً إلى الجنة، إن رأيت الدنيا مزرعة الآخرة، فهذه رؤية صحيحة، وهذا حجمها الحقيقي لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

فهي لها حجم، مالُها قد ينفع المؤمن في بلوغ الجنة، والعلم فيها ينفع المؤمن، وهي مزرعة الآخرة، ليس بخيركم مَن ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يأخذ منهما معاً، فإنّ الأولى مطية للثانية، أما أن نلتفت إلى الدنيا وحدها، وأن ننسى الآخرة، وأن نجعلها كبيرة جداً، تطغى على كل أهدافنا، وننسى ربنا من أجلها عندئذ وقعنا في الاغترار، والاغترار أن ترى الدنيا بحجم أكبر من حجمها الحقيقي، أو ألاّ تعرف حقيقتها، ولا سرّ وجودك فيها، ولا طبيعتّها المتقلبة، أما الغَرور هو الشيطان.

على كل لنا مع هذه الآية وقفة متأنية إن شاء الله تعالى في الدرس القادم، إلا أن الشيء الذي لابد من ذكره أن ربنا عز وجل يحذرنا من أن نرى الدنيا بحجم أكبر من حجمها، ويحذرنا أن نقع في المعاصي، وأن نطمع في مغفرته، وهذا فعل الشيطان، الغرور، يدفعك إلى المعصية، ويقول لك: سيغفر لك، أما إذا جاء يوم القيامة فتفاجئك، ويلأته، والشيطان يتبرّأ مما فعلت.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: 22)

يدعونا الله عز وجل في هذه الآية إلى أن نرى الدنيا على حقيقتها، أن نراها مزرعة الآخرة، أن نراها ممراً، وليست مقراً، أن نراها دار عمل، وليست دار جزاء، أن نراها مطية للآخرة، أن نرى أن أثمن شيءٍ فيها معرفة الله، والاستقامة على أمره والتقرب إليه، هذا أثمن ما في الدنيا، وما سوى الدنيا باطل في باطل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (03-10): تفسير الآيات 3 - 8 ، الموضوع - وعد الله حق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-05-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 ـ الإنسان خُلق للابتلاء بشتى أنواعه:

إنّ هذه الآية تبين أشياء كثيرة، تبين أول ما تبين أن الإنسان خلق في الدنيا للابتلاء، الدنيا أساسها الابتلاء، والابتلاء هو الامتحان، فمن ظنها للجزاء فقد وقع في وَهْم كبير.

أنت في الدنيا تمتحن بالفقر، وتمتحن بالغنى، تمتحن بالصحة، وتمتحن بالقوة، تمتحن بالتعظيم والتبجيل، وتمتحن بالتكذيب، فكل حالة لها موقف كامل، فإذا كُذبت فماذا تفعل ؟ هل تتخلى عن دعوتك، أم تتابع الطريق، وتستوحي همة عالية من قوله تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل: 79)

ألا تستوحي المثابرة على متابعة الدعوة ومواصلتها من قوله تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران: 146)

قلت لكم مرة: إن بعض المواد تفحص مقاومتها للشد عن طريق جهاز، فنقول: هذه المادة تضعف على وزن كذا، وهذه على وزن كذا، وهذا الإنسان لو جاءه التكذيب، لو جاءته المعارضة، لو جاءه من يكيد له، هل يتخلى عن دعوته ؟ فالله سبحانه وتعالى يعلمنا من خلال تأديبه لرسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلت لكم من قبل إن الله ربّى محمداً صلى الله عليه وسلم، وهذا يؤكده قوله صلى الله عليه وسلم:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

ثم ربّى الأمة العربية بمحمد صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وجعل من هذه الأمة شهداء على جميع خلقه ؟؟.

(لِيَكُونَ الرّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاسِ)

(سورة الحج: 78)

2 ـ تسلية الله للنبي عليه الصلاة والسلام:

إن الله عز وجل يسلي النبي عليه الصلاة والسلام، أو يخفف عنه، أو يواسيه، يقول: يا محمد:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

لست أول َمن كُذب، ولن تكون آخر مَن كُذب، هذه سنة الله في خلقه، من القديم وإلى يوم القيامة، هناك صراع بين الحق والباطل أهل الحق متمسكون بالحق، مدافعون عنه، وأهل الباطل يكيدون لأهل الحق، والمعركة سجال بينهم إلى يوم القيامة، ولأن الدنيا دار امتحان، فلو أصاب المؤمنين بعض المكروه، فهذا يرفعهم عند الله درجات عليّة، ولو حقق الكفار بعض النصر فهذا من باب الإمهال والاستدراج، كما يقول الله عز وجل:

(وَلَا يَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا أَنّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران: 178)

الإمهال غايته الاستدراج للكافرين، فما دامت الدنيا دار تكليف، وليست دار تشريف، ما دامت الدنيا دار امتحان، مادامت الدنيا دار ابتلاء، مادامت الدنيا قصيرة ومحدودة، ولابد من أن تنتهي، فماذا يبقى؟ العمل، فكأن الله سبحانه وتعالى وقد ربّى النبي عليه الصلاة والسلام فخفّف عنه بعض آلامه، وواساه، وسلاّه بهذه الآية:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

وأنت أيها المؤمن إذا قرأت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا قرأت سيرة أصحابه الكرام، ووجدت أن مِن أصحاب النبي مَن لاقى المتاعب، مَن تحمل الشدائد، مَن تجشم المشاق، مَن خسر الدنيا كلها، لأنه آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام، هؤلاء الذين هاجروا تركوا ديارهم، وأموالهم وأولادهم، وجاءوا إلى المدينة فقراء، ليس لهم عمل، وليس لهم دار، هكذا الدنيا.

أنا أحب أن أطمئِن كل أخ مؤمن على أنه إذا استقام على أمر الله، فالله جلا وعلا يتولى شؤونه ويحفظه، ويرعاه، ويؤيده، وينصره، لكن لا تنسوا أن هذا التطمين لا يعني أنك لن تمتحن، ولن تجرب، أو أنّك لن توضع على المحك.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت: 2)

أنت صالحٌ جداً، وأنت غني في فترةٍ ما، فما هي حالتك إذا جاءك الفقر، وأنت صالحٌ جداً، وأنت صحيح، فما حالك إذا جاءك شبح مرض، هل تنسى ربك ؟ ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهرهُ الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

هذا شأن المؤمن، وهو موقف للنبي، والنبي يعلّمنا.

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب: 23)

أنت عاهدت خالق الكون، عاهدته على الطاعة، يجب أن تطيعه في السراء، في الضراء، في إقبال الدنيا، في إدبارها، في الصحة في المرض، قبل الزواج، بعد الزواج، قبل العمل، بعد العمل، في شبابك، في كهولتك، في شيخوختك، وأنت مقيم، وأنت مسافر، إن الدنيا أقبلت، أو إن الدنيا أدبرت، رفعك الله، أو خفضك الله، هكذا:

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب: 23)

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

3 ـ علاقة هذه الآية بقوله: وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

لكن ما علاقة هذه الآية بقوله تعالى:

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

هناك علاقة دقيقة جداً، يعني أنت أيها الإنسان حينما تقوّي هذه الفئة على هذه، أو هذه على هذه، فالأمر بيد الله في النهاية، أنت إذاً في امتحان، فالله عز وجل يمتحن المؤمنين حينما يُضعفهم، ويمتحنهم حينما يُقويهم، يمتحنهم حينما يُعطيهم، ويمتحنهم حينما يحرمهم، يمتحنهم حينما يرفعهم، فإلى الله ترجع الأمور، الأمر كله لله.

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: 17)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود: 56)

لو رأيت زيداً قوياً وعبيداً ضعيفاً، هؤلاء رفعهم الله، وهؤلاء خفضهم الله، يجب أن تعلم أن رفعة هؤلاء ليست في قواهم الذاتية، وأن خفض هؤلاء ليس في تقصير منهم، ولكن شاءت مشيئة الله أن يرفع هؤلاء ليبتليهم، وأن يخفض هؤلاء ليبتليهم، أن يعطي هؤلاء ليمتحنهم، وأن يمنع هؤلاء ليختبرهم.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون: 30)

حقيقة الدنيا أنها دار ابتلاء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى.

4 ـ البطولة كمال الموقف عند المصائب:

أقول لكم الآن: ليست البطولة ألا تصاب بمكروه، ليست هذه بطولة، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام سمّى هذا الذي دائماً يأتي واقفاً على قدميه، ولا يلحقه أذىً، سماه عفريتاً نفريتاً، ليست البطولة ألا تصاب بمكروه، ولكن البطولة إذا جاءك المكروه أن تكون كاملاً في توحيدك، كاملاً في طاعتك، كاملاً في صبرك، كاملاً في تأديبك، فالبطولة لا أن تنجو من الابتلاء، ولكن البطولة أن تنجح في الابتلاء.

ليست البطولة ألا تقدم الامتحان، ولكن البطولة أن تدخل الامتحان، وأن تنجح في الامتحان، فإذا جاءت مشكلة، جاءت مصيبة، لاح شبح قضية متعبة، يكرهها الإنسان، ووراءها من الله عز وجل محض فضلٍ، ومحض رحمةٍ، ومحض عدلٍ، عدل ورحمة وفضل، إن رأيتها كذلك فقد نجحت، وإن شكرت الله عليها فقد تفوقت، إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه، مَن هذا الذي يشكر الله على مصيبة ألمت به ؟ إنه الذي يعرف أن الله عز وجل ساق له هذه المصيبة، رحمة به، وحرصاً عليه، وتقريباً له، ودفعاً إلى بابه، وترقية لجنابه، هكذا.

ليست البطولة أن تنجوَ من الامتحان، ولكن البطولة أن تنجح في الامتحان، ليست البطولة ألا يصيبك مكروه، ولكن البطولة أن تكون كاملاً في تلقي هذا المكروه أن تصبر.

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف: 35)

لماذا أصبر ؟ لو أن الأمر واضح كالشمس، جلي كرابعة النهار لماذا أصبر ؟ فحينما يأمر الطبيب أن تأخذ دواءً مراً، وتعلم أنت علم اليقين، أن هذا الدواء لصالحك، لماذا الصبر ؟ ولكن حينما لا تعرف

الحكمة، حينما يسوق الله لإنسان مؤمن شيئاً، دون أن يكشف هذا المؤمن حكمة ذلك، فهنا عليك بالصبر، أليست لك أسوة بالنبي عليه الصلاة والسلام، حينما قال وأنا نبيٌ مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم، لعل الله يمتحنني بالحرمان، أو يمتحنني بالعطاء، لعل الامتحان في العطاء، أو في الحرمان، في الضيق أو في الرخاء.

إذاً: حينما تنجح في مواجهة امتحان الله عز وجل، حينما تنجح في قبول المصيبة، وفي تفسيرها التفسير الصحيح، وفي رؤيتك أن هذه المصيبة، محض فضل، ومحض عدل، ومحض رحمة، عندئذ نجحت بالامتحان، ولا تنسَ هذه المقولة أيها الأخ الكريم: " مَن لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر "، الإنسان الذي لا يتعظ بالمصيبة فهو المصيبة عينها، وهو مصيبة تتحرك، لأنه متلبد الحس، لأنه بعيد عن الفهم عن الله عز وجل.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى: 30)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن: 11)

يهديه إلى حكمتها، وإلى سببها.

5 ـ بعد كل مصيبةٍ اتّهم نفسَك:

لكنّي أنصح إخوتنا الكرام، أنك إذا جاءتك مصيبة لا سمح الله فاتهم نفسك قدر ما تشاء، و لكن إياك أن تتخذ من هذه القاعدة وسيلة للطعن في المؤمنين، أقول هذا بشكل واضح جداً: إذا جاءك شيء تكرهه فلا عليك أن تتهم نفسك، أن تبحث عن السبب، أن تبحث عن العلة، وأن تقول إنّ الله عز وجل أفعاله كلها حكيمة، يا رب أنت غني عن تعذيبي، لكنك حينما عذبتني لحكمة تريدها، ما هذه الحكمة يا رب ؟ الله غني عن تعذيبنا، لكن هناك حكمة لابد من معرفتها، لك أن تفعل هذا مع نفسك قدر ما تشاء، لكن إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تتخذ من هذه الحقيقة الثابتة في القرآن والسنة، أن تتخذها سبباً في الطعن في أخيك المؤمن، فلان أصابته مصيبة لابد أنه مذنب، هذا من سوء الأدب، ومن سوء التصرف، ومن السلوك الذي لا يُرضي الله عز وجل:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

6 ـ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

يعني يرفع هذا، ويخفض هذا، هو الرافع وهو الخافض يعز هذا ويذل هذا، هو المعز، وهو المذل:

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

مقاليد الأمور بيده، القوة كلها بيده، خيوط القوى كلها بيده، فإذا رفع فَلِيمتحنَ، وإذا خفض فَلِيمتحن، هذه علاقة جزاء، والآية:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)

حينما سمح الله لهم أن يكذبوك ابتلاهم بالتكذيب، ابتلاهم بأنهم كَذبوا، وابتلاك بأنك قد كُذبت، ماذا يصنع المُكَذّب ؟ أيتخلى عن دعوته ؟ حينما يسلط الله إنساناً على إنسان ابتلى المتسلط، وابتلى المسلط عليه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

1 ـ وعدُ الله واقع لا محالة:

كلمة حق: أمرٌ استقر، وثبت، فوعدُ الله عز وجل حق لا ريب فيه، واقع لا محالة، واقع لدرجة أن الله عز وجل يعبر عما يعد بالزمن الماضي.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة: 116)

هذا أمر لم يحدث بعد، ولكن لِتحقق الوقوع، جاء بصيغة الماضي:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

النار حق، والجنة حق، والصراط حق والميزان حق، ونشر الصحف حق، وعذاب القبر حق، والبرزخ حق، والجنة حق:

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

إنّ أيّ وعد وعدَ الله به إنساناً يجب أن تؤمن أنه كأنه وقع، لشدة مصداقية وعد الله عز وجل، مصداقية وعد الله عز وجل تؤكد لك أن هذا الشيء قبل أن يقع كأنه وقع، وفي القرآن آية تشير إلى ذلك:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: 1)

معناها لم يأتِ بعد، فلا تستعجل قدوم الامتحان، والامتحان لم يأتِ بعد، فكيف يقول الله عز وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

ما دام أنه أمرٌ قد وعد به فهو واقع لا محالة، وكأنه قد أتى:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

لا بد من مغادرة الدنيا.

2 ـ علاقة القسم الأول من الآية بالقسم الثاني:

ما علاقة القسم الأول من هذه الآية بما بعده ؟

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

هذه الحياة الدنيا لا بد من أن نغادرها، لا بد من أن نتركها، لا بد من أن ننصرف عنها، فإذاً: هذا الذي اغتر بها، ورآها كل شيء، وعلق عليها الآمال، وباع من أجلها دينه وعرضه، وباع آخرته، وارتكب المعاصي والموبقات، وأكل المال الحرام، واعتدى على الناس، وبنى مجده على أنقاضهم، وبنى عزه على ذلهم، وبنى غناه على فقرهم، وبنى حياته على موتهم، من أجل دنيا محدودة، قال عليه الصلاة والسلام يعاتب الأنصار كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ:

((قَالَ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ، وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ

صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي رِحَالِكُمْ، فَوَ الّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللّهِ قِسْمًا وَحَظّا، ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَتَفَرّقْنَا))

[أخرجه أحمد في مسنده]

فالدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

3 ـ الموت حقّ آتٍ لا محالة:

كأن الله عز وجل يشير في هذه الكلمة إلى أنه لا بد من أن تغادرها، فعش ما شئت فإنك ميت، أحبب ما شئت فإنك مفارقه، اعمل ما شئت فإنك مجزِيّ به.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آله حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة   فأعلم بأنك بعدها محمولُ

***

كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

و العمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

أنا أسال الطلاب أحياناً، طلاب المدارس أو الجامعات، شهر أيلول أول العام الدراسي أقول لكم: موعد الامتحان بعيد، فيأتي أيلول، ويأتي تشرين الأول والثاني، وكانون الأول والثاني، ما بين غمضة عين وانتباهتها جاء حزيران، بقيت خمسة أيام، بل بقي يوم، اليوم الأول والثاني، لا بد من أن يستيقظ الطالب في أحد الأيام، على أن هذا اليوم هو يوم الامتحان، وأنت تنظره قبل تسعة أشهر، تقول: إنه بعيد، هذا البعيد جاء، دخلنا في الصيف، نحن في أول الصيف، ما هو إلا زمن يسير، حتى يأتي الشتاء، ثم يأتي الصيف، ثم يأتي الشتاء، ولا بد من مواجهة الموت في النهاية، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

كنت البارحة مع رجل أعرفه جيداً، وتسلم مناصب رفيعة، ذهب ليوصِلَ ابنته إلى المدرسة، في طريق العودة، قال: أشكو من صدري، فمال جسمه، ومال عنقه، وسلم روحه، المغادرة تمت في ثانية، كل هذه الدنيا التي حصّلها، خسرها في ثانية واحدة، ماذا في القبر ؟ القبر صندوق العمل.

البطولة أيها الإخوة أن تعمل عملاً يصحبك إلى القبر المقياس الدقيق، أن أيّ عمل تنتهي نتائجه عند القبر فلا قيمة له، هو مِن الدنيا، أي شيء لا يصحبك بعد الموت هو من الدنيا، وأي شيء يصحبك بعد الموت فهو من الآخرة، قد تفعل شيئاً في الدنيا للآخرة، فالذي يبقى عند القبر من الدنيا، الذي يبقى في البيت من الدنيا، أما الذي يدخل معك القبر فهو من الآخرة، يا قبيس، إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك.

أنا أقول: بُطولة، لأن الإنسان يتخيلها بجمع المال، يتخيلها بالقوة يتخيلها بالسيطرة، يتخيلها بالبيت الفخم، يتخيلها بالزوجة التي تروق له يتخيلها بأولاد نجباء، يتخيلها بالرحلات، يتخيلها بالحفلات، يتخيلها بإنفاق المال، يتخيلها بكسب المال الوفير، يتخيلها بالعزة والسلطان، هكذا يتوهم الإنسان دنياهُ، ولكن الدنيا زائلة، أقول: البطولة:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله بطل

***

أقول لك: يا أخي، هذا بطل في الجري، هذا بطل في اللعبة الفلانية، هذا بطل في رفع الأثقال، إذا قلت: البطولة من هذا النوع فليست من ميزة للإنسان إلاّ وفي غير الإنسان ما يسبقه بها، هذا الذي يفتخر بحاسة شمه هناك حيوان أترفع عن ذكر اسمه تفوق حاسة شمه الإنسان بمليون مرة، الذي يفتخر بحدة بصره، النسر يرى ثمانية أضعاف ما يراه الإنسان، فما من صفة يمكن أن تعد بطولة في الإنسان إلا وفي الحيوان ما يسبقه بها، إذاً: بطولة الإنسان بمعرفة الله، خلقتُ كلّ ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عمّا افترضته عليك.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

هذا الذي قال: وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وكأني بأهل النار يتصايحون، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((عرفت فالزم))

[ورد في الأثر]

4 ـ العاقل اللبيب يرى الشيء بتجربته قبل وقوعه:

مَثَلاً: ترى طالباً يمضي وقته بلا دراسة، مع أصدقاء السوء في سهرات لا طائل منها، في القيل والقال، في لعب النرد، أنت كإنسان عاقل حكيم عندك خبرة في الحياة، فإنك ترى مستقبله تعيساً، الآن يرتدي ثياباً أنيقة، لكنّك تعلم أنه إذا لم يبن مستقبله بنفسه، إن لم يهتم بتحصيل شيءٍ يعينه على مواجهة الحياة، فربما رأيته في مستقبل حياته في عمل لا يُرضي، وفي فقر مدقع، وفي زاوية مهملة في الحياة، فصاحب الخبرة والتجربة، يرى الشيء قبل أن يكون، يرى ما ينبغي أن يكون قبل أن يكون، هذه يسميها الناس الرؤية المستقبلية، ترى المرابي مصيره الدمار، يرابي وتنمو أمواله، ويزداد إنفاقه، وتعلو مكانته، ويغير بيته، ويغير مركبته، وينتقل من بلد إلى بلد، وهو يقول: أنتم الأغبياء، أنا الذي جمعت هذا المال من طريق حرام، لكني تفوقت عليكم، ما هو إلا وقت يسير حتى تأتي ضربة الله القاصمة فتذهب به، وبماله.

إن المؤمن يرى النتيجة، يرى وعدَ الله حقاً، لأن وعد الله حق لا مرية فيه، إذا وُعد المرابي بتدمير ماله فوعد الله حق، وإذا وُعد الشاب المؤمن الصالح المستقيم بحياة طيبة فوعد الله حق، وإذا وُعدت المرأة المؤمنة بزوج صالح فوعد الله حق، وإذا وعد الرجل الفاسق الفاجر بزواج تعيس فوعد الله حق، يعني أيّ وعد وعده الله عز وجل فهو حق، ولا بد من أن يقع، زوال الكون أهون على الله من ألاّ يقع، فلا بد من أن يقع، ولذلك البطل هو الذي يصدق كلام الله عز وجل.

أذكرَ قصة رجل قرأ حديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَشّرْ الزاني بالفقر ولو بعد حين))

[ورد في الأثر]

وجاءه خاطب لابنته، وكان في مستوى من الغنى يفوق حد التصور، فرفض أن يزوجه ابنته، قال له لماذا ؟ قال له: أنت في النهاية فقير، يعلم أنه منحرف الأخلاق، قال: كيف ذلك ؟ قال: فأنا أصدق النبي عليه الصلاة والسلام، فبدأ يسخر، ويضحك من هذا الوعد، ولم تمضِ أعوام عدة، حتى هبط دخله، وذهب ماله، ولم يمت إلا ماداً يده للناس، بَشّرْ الزاني بالفقر ولو بعد حين، بشر القاتل بالقتل، والمرابي بدمار ماله، مَن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله، البطولة أن تقرأ هذه الوعود الإلهية في القرآن، أو الوعود النبوية في السنة.

مثلاً: الأمانةُ غنىً، فوعدَ النبيُ الأمينَ بالغنى، وإذا وعد المنافق بالصغار، وعد الصادق بالعز، وعد المصلي ببركة الوقت، ابحث عن وعود الله عز وجل، بالقرآن والسنة، وكن كسيدنا سعد بن أبي

وقاص، حينما قال: **<< وما سمعت حديثاً من رسول الله صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلا علمت أنه حق من الله تعالى >>.**

5 ـ العاقل يكشف في القرآن والسنة قوانين معاملة الله للعباد:

مثلاً: زواج توافرت له كل أسباب النجاح، شاب وسيم، صاحب معمل بيته فخم، دخله كبير، صحته جيدة، تزوج فتاة في مستواه، هذا الزواج بمقاييس الأرض توافرت له كل أسباب النجاح، إن لم يبن على طاعة الله، تولّى الشيطان التفريق بين الزوجين، على الرغم من كل وسائل النجاح لهذا الزواج، لكنّه كثيراً ما ينتهي بالطلاق، وبالخصومة وبالشقاق، وبالملاعنة، وبالضرب، وبالشتم، لأن الشيطان يتولّى التفريق بين الزوجين، إذا بني زواج على طاعة الله عز وجل، وقد يكون هذا الزوج مفتقراً، إلى كل أسباب نجاح الزواج، فلا بيت ولا دخل، ولا عمل، ومع ذلك إذا جاءت رحمة الله، وشملت هذين الزوجين بالعناية، نما هذا الزواج، وازداد الوئام بين الزوجين وانبسطت لهما أسباب السعادة، وهناك قوانين يجب أن تضع يدك عليها، هي بطولة أيضاً، أن تكشف القوانين التي يعامل الله بها عباده، فإنسان ترقّع عن المال الحرام يجب أن توقن يقيناً قطعياً أن الله سبحانه وتعالى لابد من أن يكرمه بمال حلال قريباً أو بعيداً، وكلما سمعت قصة تؤكد هذه الحقيقة فلتقلْ: يا رب لك الحمد، هذه عدالتك، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

إذاً: إن وعد الله حق، وعد الله حق في مغادرة الدنيا، لابد من أن نغادرها، قال:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

6 ـ اعرف الحقيقة وأنت شابّ:

لا ينبغي أن تروها بحجم أكبر من حجمها، أن تظن المال كل شيء، لا، بل هو شيء، في وقت من الأوقات تراه شيئاً، وعند مغادرة الدنيا تراه لا شيء.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر: 24 - 26)

رجل كان عنده ملاهٍ، ودور قمار، مطاعم فخمة، وهو على فراش الموت، بلغت ثروته قريباً من ألف مليون، حينما أيقن بمغادرة الدنيا، وأيقن بأن مصيره ليس كما ينبغي، طلب أحد أهل العلم، وقال له: ماذا أفعل ؟ سامحه الله، قال له: والله لو أنفقت هذا المال كله لا تنجو من عذاب الله، كله محصّل بطريق غير مشروع، من قمار، من ملاهٍ، من حفلات لا ترضي الله عز وجل، استيقظ بعد فوات الأوان:

(فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

حينما كان شاباً يطرب لهذا المبلغ الضخم، يُسكره هذا الربح الوفير، فلما شارف على دخول القبر، الآن عرف الحقيقة، فلذلك اعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، قبل أن تقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدّمْتُ لِحَيَاتِي)

اعرف الحقيقة وأنت شاب، من أجل أن تشكل حياتك وفق الأسس الصحيحة، اعرف الله وأنت شاب، لكي تختار حرفة شريفة، ولكي تختار زوجة صالحة، ولكي تربي أولادك تربية صالحة:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

أن تغتر بالدنيا، أيْ أنْ تراها بحجم أكبر من حجمها.

مثلاً: رأى شخصٌ عُلبةً في الطريق، علبة أنيقة جداً، وقد لفت بورق فخم، وعليها شريط حريري، تُرى ساعة، ترى سوار، ترى لؤلؤ، ذهب به الخيال إلى أن في هذه العلبة شيئاً ثميناً، فلما فتح هذه العلبة وجد فيها كُناسة محل تجاري، فقال: وا أسفاه، أدرك الحقيقة المرة، وكذلك الدنيا، تُعلق عليها الآمال، وقد يأتي ملك الموت قبل أن نَسكن هذا البيت، وقبل أن نتزوج، وقبل أن نسافر، وقبل أن نقطف ثمار أتعابنا، إنسان فتح دار سينما، وجمع أموالاً طائلة، كان ابن أخته أحد طلابي، قال لي: حضرت نزع خالي، صار يبكي ويقول: أنا حصلت الملايين لأنفقها في خريف عمري، وأستمتع بها، هذا المرض قد عاجلني، ولم يسمح لي أن أستمتع بهذا المال الذي حصلتُهُ في هذه الدار، وصار يبكي، فلذلك:

(فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

إذا كسبت المال من حلال فلا شيء عليك، وأنفقته في حلال فلا شيء عليك، أنا أقول: هذا الذي يضحي بآخرته من أجل دنياه، هذا الذي يضحي بالحياة الأبدية من أجل سنوات معدودة، هذا الذي يبيع دينه، بعرض من الدنيا قليل، فهو في خسارٍ وبوارٍ.

خطر في بالي من أيام إذا كان الواحد ـ وهذا مثلٌ افتراضيٌ ـ معه خمسة ملايين دولار، وشعر ببرد شديد، فأشعل بها ناراً، وتدفأ بها، أيكون رابحاً بهذا العمل ؟ خمسة ملايين تساوي 250 مليون ليرة، تأخذ أفخر بيت، أفخر مركبة، أفخر مزرعة، أفخر عمل، تدفأت بها خمس دقائق، هذا مَثَلُ الذي اشترى بآيات الله ثمنا قليلاً.

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(سورة التوبة: 9)

باع دينه وآخرته بعرض من الدنيا قليل، باع هذه الحياة الأبدية بسنوات معدودة، مشحونة بالتعاسة والشقاء:

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أما القسم الثاني:

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

1 ـ الغرور هو الشيطان:

العلماء قالوا: هو الشيطان، لأنه يعدكم بالفقر، يوقع بينكم العداوة والبغضاء، يعدكم ويمنيكم.

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة النساء: 120)

الشيطان يوسوس، المَلَك يُلهم، فإذا استمعت إلى وسوسة الشيطان فقد خسرت كل شيء، لأن مهمته أن يضلك عن سبيل الله، قال تعالى:

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

(سورة الكهف: 50)

هذا الذي رفض أن يسجد لأبيكم تكريماً له ولكم أتتّخذونه ولياً لكم، بَلْ تتخذونه هادياً لكم إلى جهنم:

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

آية دقيقة جداً، إذاً الغَرور هو الشيطان.

2 ـ كيف نغتر بالله عز وجل ؟

يطالعنا سؤال الآن، يمكن أن نغتر بالدنيا، فنراها بحجم أكبر من حجمها الحقيقي، فكيف نغتر بالله عز وجل ؟ هل يعقل أن الله أقلّ مما تظن ؟ مستحيل، لكن الدنيا ممكن، الدنيا هي أقلّ مما تظن، لكن كيف تغتر بالله عز وجل ؟ العلماء قالوا: تغتر بالله إذا طمعت في رحمته، ولم تستجب لأمره، إذا طلبت الجنة بلا عمل، إذا أقمت على معصية، ورجوت الله أن يعفو عنك، إذا أكلت المال الحرام، وقلت: أنا تبت إلى الله يا رب، فرُدّ المال إلى أصحابه، أن تغتر بالله أن تطمع بعفوه من دون أن تتوب، أن تطمع بجنته من دون أن تستعد لها، أن تطمع بعطائه من دون أن تدفع ثمنه، هذا هو اغترارك بالله عز وجل.

هل من الممكن أن تدخل إلى بائع سجاد، وتطلب منه أفخر سجاده عنده، وثمنها أربعون أو خمسون ألف، هل تدفع له عشر ليرات ثمناً لها ؟! ماذا يفعل بك بعد أن أتعبته ساعة أو ساعتين ؟

فهذا الذي يطلب الجنة بركعتين، وليرتين وهو مقيم على معاصي الله عز وجل هذا مغتر بالله عز وجل، هذا هو الاغترار بالله عز وجل ؛ أن تظن أن هذا القاضي العادل يرتشي، أن تظن أن هذا الأستاذ العظيم يعطيك الأسئلة مقابل مبلغ من المال، هذا اغترار به، لن يفعل هذا أبداً.

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة النحل: 60)

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

3 ـ الشيطان أول عدوٍّ للإنسان:

الله عز وجل ينبئنا، ويؤكد لنا، ويبين لنا أن الشيطان لنا عدو، عدو لدود، يعني يتمنى دمارنا، يتمنى ضلالنا، يتمنى شقاءنا، يتمنى انحرافنا، يتمنى أن نقع في المعاصي، يتمنى أن تكون الخلافات في البيت، كلكم يعلم أن الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلم، قال الشيطان لإخوانه: أصبتم المبيت، نحن اليوم نائمون هنا، وإذا جلس إلى الطعام، ولم يسمّ الله قال: أصبتم العشاء، فإذا دخل ولم يسلم، وجلس إلى الطعام، ولم يسمّ الله يقول الشيطان لإخوانه: أصبتم المبيت والعشاء، تجد بعض البيوت فيها شياطين، خصومات، مشاحنات، صياح، كيد، كلمات قاسية، في هذا البيت شيطان يعمل، لذلك الغيبة تَفصم العرى تفتت الصلات، وهي من الشيطان، والنميمة من الشيطان، والاستعلاء من الشيطان، والسخرية من الشيطان، والبذاءة من الشيطان، والمزاح الرخيص من الشيطان:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

4 ـ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ

هذا الذي يستجيب لوساوس الشيطان كأنه يستجيب إلى عذاب النار، يستجيب إلى دماره، وفي الدنيا الذي يرتاد دور القمار، ويبيع بيته، ومركبته، ومحله التجاري، ويغدو فقيراً خلال أيام، فحينما توجه لهذه الدار فقد توجه إلى الدمار، وحينما توجه إلى هذه الدار توجه إلى الفقر، حينما توجه إلى هذه الدار توجه إلى الإفلاس، فالذي يستجيب لدعوة الشيطان ولوسوسته هذا حاله ومآله.

الإنسان أحياناً يشعر أن في نفسه صراعاً، قد يسمع أو قد يشعر أن هناك مَن يقول له: افعل، خذها، لا أحد يراك، وهناك مَن يقول له: لا تفعل إياك أن تعصي الله، الإلهام الطيب من المَلَك، والوسوسة من الشيطان، والإنسان بين إلهام ملك ووسوسة شيطان، فإياك أن تستجيب للشيطان، بل استجب للملك.

(الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

الّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

1 ـ الله العظيم يقول عن عذابه: إنه شديد:

عذابٌ شديد، من يقول: شديد ؟ هو الله سبحانه وتعالى، العظيم يقول: عذابُ شديد، فإذا قال لك طفل: سأضربك ضرباً شديداً، طفل عمره سَنَتَان، كم تكون ضربته، بحسب قوته، فكلمة شديد تنسب إلى القائل دائماً، إذا قال لك: أنا معي مال كثير، وكان شاباً ليس له دخل، كثير معه مائة ليرة، بحسب قلة دخله، أما إذا قال لك الغني: أنا معي مال كثير فالكلام ينسب لقائله دائماً، فإذا قال الله عز وجل:

(الّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

فقوله الصدق والحق، والعذاب حقاً شديد.

2 ـ العذاب الشديد أنواع كثيرة في الدنيا:

حدثني أخ طبيب يعالج مريضاً مصاباً بمرضين ؛ مرض في معدته، ومرض في قلبه، كل أدوية القلب تؤذي المعدة، وكل أدوية المعدة تؤذي القلب، وقف الأطباء حيارى، عذاب شديد.
أحياناً تواجهني مصيبة واحدة، فالإنسان يكرس كل طاقاته لمواجهتها، يقول لك: حاصرتها، وربنا عز وجل حينما يقرر أن يصيب الإنسان بعذاب شديد يبتليه بالفقر، وبالمرض، ليس معه ثمن الدواء، وقد يبتليه بالشقاق الزوجي مع مرضه وفقره، هو وزوجته في خصام شديد، وقد يبتليه بمشكلة خارج بيته، وقد يبتليه بعدة مصائب في آن واحد، فالإنسان أحياناً ربما استطاع أن يواجه مصيبة واحدة، أو مصيبتين، ولكن إذا أراد الله عز وجل أن يصيبه بعذاب شديد، تأتيه الشدائد من كل جانب، وتستحكم حلقاتها.

(الّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

3 ـ وَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

المغفرة شفاء، والأجر الكبير هو العطاء، شفاء وعطاء، تخلية وتحلية، تطهير وإكرام، عفوٌ وبلوغُ المرام:

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

والكبير يقول لك الأجر كبير، الآن إذا قال لك فلان: سيهديك هدية من فلان ؟ فلان صديقك، من أصحاب الدخل المحدود، فهي هديته رمزية، إذا كان الصديق إنساناً كريماً وغنياً، وسيهديك هدية، تقيسها بغناه وكرمه، فإذا قال الله عز وجل:

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

خالق الكون الكبير المتعالي يقول لك: الأجر كبير، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

أما الشيء الذي يعد مصيبة المصائب فهو قوله تعالى:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا

1 ـ مصيبة المصائب:

يعني أن يفعل الإنسان المعصية، ثم يتساءل: أهذه معصية ؟ هذا شيء مؤلم جداً، لكن الفرق كبير بين من يعصي الله، ويعلم أنه يعصيه، وبين من يعصي الله، ويعلم أنه على صواب، وأن هذا هو عين الذكاء، وأن هذا هو عين الفلاح، وأن هذا هو عين التفوق، يعصي الإله، ويرى نفسه مصيباً في هذه المعصية، هذه مصيبة المصائب، أن تفعل السيئات، وأنت تعتقد أنك تفعل الصالحات، أن تأكل المال الحرام، وتعد هذا ذكاء ومهارة منك، أن توقع بين الناس، وتعد هذا حيلة محكمة بيدك، أن تبني مجدك على أنقاض الناس، وتعد نفسك أذكاهم جميعاً، أن تستغل الناس لمآربك الشخصية، وتعد هذا تفوقاً منك، أن ترى الشر خيراً، وأن ترى الخير شراً، أن ترى الحق باطلاً، وأن ترى الباطل حقاً، أن ترى الإساءة إحساناً، وأن ترى الإحسان إساءة، أن ترى الضعف صفةً أخلاقيةً، وأن ترى الأخلاق ضعفاً في الإنسان، أن ترى أن المعتدي هو الذكي، وهو الذي يستحق الاحترام، إنها مصيبة ؛ أن تفعل السيئات وأنت لا تدري، تقول: ماذا فعلت ؟ لذلك:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)

2 ـ الإيجاز القرآني: كمن كان عمله صالحاً:

كمن كان عمله صالحاً.

في القرآن إيجاز:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا)

كمن كان عمله صالحاً، وابتغى به وجه الله عز وجل، هل يستويان:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة: 18)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: 21)

مستحيل.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم: 35 ـ 36)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص: 61)

مستحيل.

إذاً:

(أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

4 ـ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري:

الإضلال هنا إذا عُزي إلى الله عز وجل كما تعلمون سابقاً هو إضلال جزائي، مبنيٌّ على ضلال اختياري، كما لو أن رئاسة جامعة رأت طالباً لم يدفع القسط، ولم يداوم، ولم يشترِ الكتب، ولم يتعرف إلى أيّ مدرس، كل هذه الأفعال الإرادية تعني أنه لا يريد أن يلتحق بهذه الجامعة، فصدر قرار بفصله وترقين قيده، فهذا القرار الذي صدر بفصله وترقين قيده، هو قرار جزائي، أساسه موقف اختياري من الطالب، هذا واضح تماماً، قرار رئاسة الجامعة هو قرار جزائي، جزاء عدم التحاقه بالجامعة، وعدم

قراءته للكتب، وعدم تقديمه للامتحان جزاء تقصيره الاختياري، فكلما عُزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو إضلال جزائي مبني على ضلال اختياري:

(فَإِنّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (04-10): تفسير الآيتان 9 - 10، الموضوع -الآيات الكونية هي الطريق الوحيد لمعرفة الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-05-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)

مقدمة لقوله تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ

1 ـ ظاهرة الرياح والسحاب والمطر:

أيها الإخوة الأكارم، ظاهرة السحاب، وظاهرة المطر، وظاهرة الرياح، وظاهرة إحياء الأرض بعد موتها، وظاهرة النبات، هذه كلها أشياء مشاهدة مِن قبل جميع الناس، ولكن الإيمان لا في مشاهدتها، فكل الناس يرونها، وكل الناس يلاحظونها، وكل الناس يؤمنون أن حياتهم متوقفة عليها، ولكن المؤمن يرى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً، فكأن العقل البشري يصل إلى أن هذا النظام المُعجز لا بد له من خالق، لا بد له من مصمم، لا بد من عقل أول، لا بد من خالق عظيم، لا بد من رب كريم، لا بد من مُسيّر حكيم، يأتي الجواب في القرآن لهذا الإنسان، الله الذي فعل هذا، كذا وكذا.

يا أيها الإنسان هذا الذي تراه، هذا الذي تعاينه، هذا الذي تتوقف حياتك عليه الله هو الذي يفعله، هذا معنى قول الله عز وجل في هذه الآية، وفي كل الآيات المشابهة.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: 2)

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً)

(سورة النحل: 65)

2 ـ هذه الأفعال من الله تعالى:

كلمة (الله)، الذي فعل كذا وكذا، فهذه الظاهرة التي تراها رأي العين، هذه الآية التي يعرفها جميع الناس هي مِن فعل الله سبحانه، فالمؤمن يرى أن يد الله هي التي تحركها، المؤمن يرى أن الله هو الذي يفعل، أن الله هو الذي تفضل، أن الله هو الذي سير، أن الله هو الذي قدر، فهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ)

الله صاحب الأسماء الحسنى، أسماء الله الحسنى جمعت كلها في كلمة (الله)، وهي علَم على الذات الكاملة، فهذه الأسماء كلها تتلخص في وجود الله، وفي قدرته، وفي وحدانيته، وفي كماله، هناك أسماء قدرة، وأسماء كمال، في وجوده، وفي قدرته، وفي كماله، وفي وحدانيته، فكل هذه الصفات مجموعة في كلمة (الله) عز وجل، أو في اسم الله الأعظم (الله)، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى.

هل عرفت مَن الذي سير الرياح ؟ هل عرفت أيها الإنسان من الذي ينزل الأمطار ؟ هل عرفت أيها الإنسان من جعل هذه الأرض تهتز وتربو وتخضر وتزهر ؟ إنه الله.

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

3 ـ الآيات الكونية من أجل معرفة الله:

يا أيها الإخوة الأكارم، حينما يسوق لنا ربنا جل وعلا في كتابه العزيز بعض الآيات الكونية فما معنى ذلك ؟ ما المراد من ذلك ؟ المراد أن يا عبدي إذا أردت أن تعرفني فهذا هو الطريق، إذا أردت أن تعرف عظمتي، إذا أردت أن تعرف قدرتي، إذا أردت أن تعرف تربيتي، إذا أردت أن تعرف علمي، إذا أردت أن تعرف حكمتي، فأنت لا تراني، ولن تراني، لأن الله جل وعلا، لا تدركه الأبصار، ولكن إذا نظرت إلى الكون فإنه أثر من آثاره، تتجلى فيه حكمته ورحمته، وقدرته، وعلمه، وخبرته، ولطفه، وقوته، وغناه، كل أسماء الله الحسنى تتوضّع في الكون، بل إن بعضهم يقول: ما الكون إلا مظهر من مظاهر الكمال الإلهي، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وبالتعبير المعاصر الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، أسماء الله الحسنى لن تراها رأي العين، ولكن ترى آثارها، فإذا أردنا أن نؤمن بالله حق الإيمان، إذا أردنا أن نتوصل إلى معرفة الله حق المعرفة، المعرفة التي لا نعصيه بها، المعرفة التي تحملنا على طاعته، هذا هو الطريق، لذلك في آيات أخرى يقول الله عز وجل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية: 6)

4 ـ الكون بوضعه الراهن معجزة:

لو أنّنا رسمنا ترياقاً وحيداً للطب، فأي طريق آخر لن يوصل المرءَ ليكون طبيباً، فلو قرأ طالب المجلات الطبية كلها فلن يكون طبيباً، فشاءت حكمة الله أن يجعل من خلقه دليلاً عليه، شاءت حكمة الله أن يجعل الكون مظهراً لأسمائه، فإذا أردت أن تعرفه فكما جاء في الأثر: **" حسبكم الكون معجزة ".**
من دون خرق عادات، بوضعه الراهن، بوضعه الاعتيادي هو المعجزة.
هذه الأرض التي نحن عليها، شاءت حكمة الله أن تكون كرة، وللشكل الكروي ميزات كثيرة، الخطوط على هذا الشكل لا تنتهي، قال تعالى:

(وَهُوَ الّذِي مَدّ الْأَرْضَ)

(سورة الرعد: 3)

5 ـ كروية الأرض وأثر ذلك على المخلوقات:

الخط على جسم الكرة مستمر، تذهب من حيث أتيت، تدور، فشاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، وشاءت حكمة الله أن تكون بهذا الحجم فلو كانت أكبر من هذا الحجم، لأصبح وزن الإنسان عليها ثقيلاً جداً، ولو كانت أصغر من هذا الحجم لاستحالت الحركة عليها، إذاً: شاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، ذات شكل كروي لميزات كثيرة قدرها الله عز وجل، التكوير يحتاج إلى شكل كروي.

(يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى النّهَارِ وَيُكَوّرُ النّهَارَ عَلَى اللّيْلِ)

(سورة الزمر: 5)

فلو كان شكل الأرض مكعباً يأتي النهار فجأة، والليل يأتي فجأة، لكن هذا اللغز:

(يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى النّهَارِ وَيُكَوّرُ النّهَارَ عَلَى اللّيْلِ)

لاحظ بعد صلاة الفجر كيف يتداخل النهار مع الليل، ولاحظ بعد أذان المغرب كيف يتداخل الليل مع النهار، لولا الشكل الكروي لما كان ذلك.
إذاً: شاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، وأن يكون حجمها مناسباً وشاءت حكمة الله أن تكون الأرض فيها قسم يابس، أرض صلبة، وفيها قسم سائل، إذاً: هناك بحار، وهناك يابسة، والأرض مكونة من خمس قارات، ومن بحار، لكن هناك حكمة رابعة هي أن نسبة البحار إلى نسبة اليابسة نسبة محكمة، لو كانت المسطحات المائية أقل مما هي عليه لأصبحت الأرض قاحلة جرداء، هذه المسطحات المائية الواسعة التي تزيد على أربعة أخماس الأرض، هي التي تسبب الحياة على الخمس الأخير، إذاً: كرة بحجم معين، وبقوام معين، وبتوزيع بين الماء وبين اليابسة بشكل معين.

ويستحوذُ على العقل شيءٌ خامس، تداخُل اليابسة مع المحيطات أيضاً فيها حكمة بالغة، فكل المنخفضات متمركزة فوق قبرص، وهذه الجزيرة تؤدي أهدافاً كبيرة جداً في طبيعة الطقس، والمناخ، والأمطار والرياح، أمّا هذه الجزر، فجزر في شمال إنكلترا، وجزر في بعض المحيطات، جزر شرقي إفريقية، جزر في المتوسط، هذه لها وظيفة كبيرة، إذاً: فضلاً عن وجود اليابسة والماء، وعن نسبة الماء إلى اليابسة، تَوَزُّعُ اليابسة مع الماء، تَوَزُّعاً حكيماً، كيف تعرف الله عز وجل ؟ من خلال التدقيق في آياته.

6 ـ الغلاف الغازي:

شيء آخر، وهو أن اللهَ عز وجل جعل للأرض غلافاً غازياً ـ هواء ـ هذا الهواء له ميزات كثيرة، أولاً الهواء وسيط، وسيط لنقل الحرارة، ووسيط لنقل البرودة، وسيط لنقل الصوت، ومع ذلك لا يشكل الهواء حاجزاً يمنع الرؤية، الهواء لطيف، وقد يتجلى اسم اللطيف في الهواء، فهو شيءٌ موجود بيننا، وبين كل شخصين، لولا الهواء لما نُقل صوتي إليكم.

إنّ رواد الفضاء وهم على سطح القمر كانوا بحاجة إلى جهاز لاسلكي ليستمع بعضهم إلى بعض، وهم إلى جنب بعضهم، فلا تجدُ هواءً، عندهم إذاً لا يسمعون صوتاً، ومن نعمة الله عز وجل علينا أن زود هذه الأرض بغلاف هوائي، هذا الغلاف الهوائي لو كان ثابتاً والأرض تدور لدمر كل ما على سطح الأرض، لأن سرعة الأرض حول نفسها تزيد على 1560كم في الساعة، ونحن نعرف أنّ أشد أنواع الأعاصير تدميراً للمدن بأكملها سرعتها 800 كم في الساعة، طبعاً سرعة 800 كم للرياح تدمر كل شيء بإذن ربها، لكن هناك غلاف هوائي محيط بالأرض، لكنه متحرك معها، هذا من نعمة الله عز وجل.

7 ـ دوران الأرض:

الأرض تدور ولو أنها كانت لا تدور لانعدمت الحياة مِن عليها، بكل بساطة، لأن الأرض كرة، سطح من سطوحها يقابل الشمس، والشمس مسلطة عليها آلاف السنين، بل آلاف ملايين السنين، لا بد من أن ترتفع حرارتها إلى درجة مستحيلة، العلماء قدروها بـ 350 فوق الصفر، ولابد من أن تنخفض الحرارة في الطرف المقابل 270 تحت الصفر، الصفر المطلق، وعندها تنتهي الحياة، إذاً: شاءت حكمة الله أن تكون أرضنا كرة، وأن تكون بحجم معين، وأن تكون بقوام معين، وأن يوزع فيها الماء واليابسة توزيعاً حكيماً، وأن تتداخلاً اليابسة مع الماء تداخل حكيماً، وأن تغلف بغلاف غازي، هو

الهواء وكل صفات اللطف في الهواء، وفوق كل ذلك شاءت حكمة الله عز وجل أن تدور الأرض.
يا أيها الإخوة الأكارم: هذه أشياء بديهية، من مستوى طلاب الثانوي، الأرض تدور، لو أنها دارت على محورٍ، موازٍ مستوي دورانِها حول الشمس، الشمس هكذا، وهي تدور حول الشمس، هذا مستوى دورانها حول الشمس، لو أن الأرض تدور هكذا، حول محور يوازي مستوى دورانها حول الشمس، ما الذي يحصل ؟ كأنها واقفة، هذه الدورة هكذا تجعل نصف سطحها مقابلاً للشمس، والنصف الآخر باردا عديم الدفء والضوء، إذاً: لا وجود لإله حكيم، لدارت هكذا على نحو يخالف ما هي عليه، ممكن أن تدور هكذا، لو أنها هكذا دارت والمحور عمودي على مستوي الدوران دارت هكذا، الشمس جاءت موازية لكل سطح الأرض لانعدمت الفصول، ولما كانت الفصول الأربعة، لا صيفٌ، ولا شتاء، ولا ربيع، ولا خريف، لو كان المحور أفقياً لا نستفيد شيئاً، ولانتهت الحياة، لو كان المحور عمودياً تماماً لانعدمت الفصول وانعدم النبات، فمَن الذي صمّم أن يكون محور الأرض مائلاً هكذا، والشمس من هنا، الكرة مائلة وتدور هكذا، إذاً: أشعة الشمس تأتي إلى هنا عمودية، فيكون الصيف، وتأتي إلى هنا مائلة فيكون الشتاء، فإذا دارت الأرض دورة حول الشمس انعكست الآية فصارت أشعة الشمس عمودية هنا فيكون صيف، ومائلة هنا فيكون الشتاء، هذا تصميم مَنْ هذا ؟
لي صديق ركب طائرة من شمال أمريكة إلى البرازيل رأى العجب العجاب، في شمال أمريكة، أو في أمريكة الشمالية حيث الصيف الحار، والناس على شواطئ البحار، ويرتدون الثياب الخفيفة، فلما طارت به الطائرة إلى جنوب الكرة الأرضية رأى العواصف والأعاصير والثلوج، في يوم واحد، شمال الأرض صيف، وجنوبها شتاء، وبالعكس، فهذا تصميم مَن ؟ خلق مَن ؟ ترتيب مَن ؟ تنظيم مَن ؟ الله سبحانه وتعالى، فإذا أردت أن تعرفه فهذا هو الكون يدلك عليه.

8 ـ الليل والنهار:

أمّا الليل والنهار فإنّ الله عز وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الروم: 22)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

(سورة فصلت: 37)

الليل يأتي بعد النهار، لأن الأرض تدور هكذا، والشمس من هنا فيكون النهار، فلو أن الأرض دارت دورة كل مائة ساعة مثلاً لصار النهار خمسين ساعة، وأنت لك طاقة محددة، في أثناء النهار تنام، وتستيقظ، ثم تنام أيضاً، والنهار قائم، ثم يأتي الليل خمسين ساعة فتنام، وتستيقظ، وتنام، والليل قائم، من

جعل سرعة دورة الأرض حول نفسها، سرعة متناسبة مع طاقة الإنسان، الإنسان يعمل ثماني ساعات يأكل ويرتاح ساعتين أو ثلاثاً، يأتي الليل يسكن فيه، ينام ثماني ساعات، يصلي الفجر، يستيقظ فتشرق الشمس، هذا التناسب بين قدرة الإنسان وطاقته ودورة الأرض حول نفسها.

هناك كواكب سيارة تدور دورة كل خمسين عاماً، تدور دورة في ساعتين، والتنوع شديد جداً في الكواكب التابعة للمجوعة الشمسية، والأرض تدور حول نفسها دورة كل 24 ساعة، مَن صمم ذلك ؟ الله رب العالمين.

وهناك شيء آخر: طبعاً كل هذا مقدمة لهذه الآية:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ)

9 ـ كيف تتحرك الرياح ؟

الرياح كيف تتحرك ؟ ما دامت الأرض تدور بمحور مائل إذاً هناك منطقة حارة، ومنطقة باردة، المناطق الحارة في الأرض، مناطق شمالية باردة، وخط الاستواء حار، والجنوبية باردة، وهناك صحارى في أعماق القارات، وهناك سواحل بحار، وهناك بحار، ما الذي يحصل ؟ إنّ الهواء كغيره من الأجسام يتمدد بالحرارة، وينكمش بالبرودة، فالهواء في المنطقة الباردة ينكمش، يزداد ضغطه، يقول لك: ضغط مرتفع، وفي الأماكن الحارة، يتمدد، ويتخلخل، ويقلّ ضغطه، ما دام هناك منطقة في الأرض بارد فالهواء فيها كثيف، مضغوط، ثقيل.

أنا مرة في موسم الحج حينما أقلعت الطائرة بنا من جُدة شعرت أن إقلاعها في زاوية صغيرة جداً، في دمشق أقلعت على نحوٍ ما، في جدة على نحوٍ آخر، سألت أحد الطيارين فقال لي: إن الهواء ساخن هناك مخلخل، لا يحمل الطائرة، تحتاج الطائرة إلى مسافة طويلة جداً كي تقلع، لكي تصعد في الهواء، أما في دمشق فالحرارة أدنى من جدة، فالهواء إذا كان ساخناً يتمدد فيتخلخل فيقلّ ضغطه، فيقال: ضغط منخفض، كما يقال: مُنخفض جوي، وإذا برد الهواء، ويتكاثف يزداد ضغطه، ويثقل وزنه، فحينما تكون بالأرض منطقة باردة، هواؤها ثقيل، مضغوط، ومنطقة حارة هواؤها خفيف وممدد ينشأ اختلاف في الضغط، ودائماً الشيء المضغوط يهرب إلى المنطقة ذات الضغط الأقلّ، من هنا تنشأ الرياح، فهناك رياح تأتي من القطب الشمالي إلى خط الاستواء، ورياح تأتي من المناطق الحارة الساحلية إلى المناطق الباردة الداخلية، هذا هو سر تشكل الرياح على سطح الأرض، فمن صمم هذا ؟ من جعل الهواء يتمدد ؟ من جعل البرودة تجعل الهواء ينكمش ؟ الله جل وعلا.

إذاً: هل تعرف أيها الإنسان من صمم شكل الأرض ؟ ومن صمم حجمها ؟ ومن صمم سطحها ؟ ومن وزع الماء فيها ؟ ومن وزع القارات ؟ و من وزع الجزر ؟ ومن جعلها متداخلة ؟ ومن صمم الهواء فوقها ؟ ومن صمم دورانها على محور مائل ؟ ومن صمم الليل والنهار ؟ وصمم الصيف والشتاء والربيع والخريف ؟ من صمم كل هذا ؟ مَن جعلها بسرعة مناسبة لطاقة الإنسان ؟ الله رب العالمين، فلذلك:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا)

وكذلك هناك شيء آخر، هذا الماء في الدرجة الاعتيادية يكون سائلاً، إذا بردته في الثلاجة يصبح ثلجاً، من صمم العناصر، لها درجة تَجَمُّد، وكذلك درجة انصهارٍ، ودرجة تبخرٍ، كل ما على الأرض بدرجة تكون صلبة، وبدرجة تكون سائلة، وبدرجة تكون غازية، يمكن أن يصهر الحجر البازلتي، يمكن أن يُجَمّد الهواء، وفي الأصل الهواء غازي، وكذلك عندك هواء سائل، مع التبريد والضغط، وعندك هواء جامد، هذه قاعدة عامة، ومن تصميم ربنا عز وجل أن الماء حينما يسخن يتبخر، إن أشعة الشمس مسلطة على مساحات واسعة جداً على سطح الأرض، إذاً: يحدث ما يسمى بالتبخر.

التبخُّر:

ما هو التبخر ؟ التبخر يعني علاقة حكيمة صممها الله عز وجل بين الماء والهواء، فالماء إذا تبخر تداخل في الهواء، يقولون: هواء مشبع ببخار الماء، وأنت ائتِ بإبريق شاي في الشتاء، وضعه على المدفأة، ثم أوقد هذه المدفأة، بعد ساعتين أو ثلاثاً يفرغ ماؤه، أين أصبح ماءه ؟ في جو الغرفة، لو عندك جهاز رطوبة لرأين أن الرطوبة ترتفع عندك من 35 إلى 40، وفي الساحل الرطوبة 90 درجة، في الداخل 30، في الغابات 60 أو 65، من صمم أن الماء إذا تبخر حمله الهواء، إنه لقانون رائع جداً، أن هذا الهواء عند كل درجة من درجات الحرارة يحمل كمية ماء معينة، فمثلاً هواء في درجة فرضاً 50، يستوعب 20 غراماً بخار ماءٍ، لو هبطت درجته إلى 30 يتخلى عن قسم من الماء، وهذا هو سر تشكل الأمطار، المنطقة الحارة يكون الهواء مشبعاً ببخار الماء، فالله عز وجل يسوقه عن طريق الرياح الشديدة، ويدفعه إلى منطقة باردة، وفي هذه المنطقة الباردة يتخلى الهواء عن ذرات الماء التي احتجزها، ومن جعل بخار الماء يختلط مع الهواء، ويبدو شفافاً، وفي حالات يبدو سحباً، السحب حالة وسط بين الهواء المشبع ببخار الماء وبين الأمطار، قطرات المياه، إذاً: الله عز وجل هو:

(الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا)

بعض العلماء قال: الرياح الساخنة كثيرة بخار الماء، والرياح الباردة تعيد بخار الماء إلى ماء، الأمطار تتشكل من رياح ساخنة تبخر الماء في البحار، ومن رياح باردة تكثفه في طبقات الجو فيغدو أمطاراً.

إذاً:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ)

فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ

1 ـ فكِّر فيمن أحيا الأرض بعد موتها:

انظر إلى شجرة في الشتاء، لأنها حطب، انظر إلى أرض قاحلة في الشتاء فهي أرض ميتة ليس فيها شيء، انظر إليها في الربيع، اهتزت وربت، تصبح الأرض قطعة من الجنة، المروج كلها خضراء، من أين جاءت هذه الأزهار بنفسجية اللون، صفراء اللون، حمراء اللون موزعة، ذات ألوان وأشكال وروائح، أين كان كل هذا ؟ انظر إلى الأرض في الشتاء، لا شيء فيها، موت مطبق، الأشجار خشب يابس، فإذا هي في الربيع ترتدي حلية قشيبة، الأزهار، البراعم، الأوراق الثمار، من فعل هذا ؟ فقال:

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ)

بفضل الله عز وجل في هذا العام الأمطار وفيرة، إذا خرجت إلى أي منطقة تجد الأزهار ارتفاعها متر أينما ذهبتَ، الأزهار البرية التي تنبت من تلقاء ذاتها بحسب ما يظنه الناس ارتفاعها متر، أين كان كل هذا ؟ انظر إلى أرض في الشتاء تراها ميتة، فإذا جاءت الأمطار اهتزت وربت، وانبتت من كل زوج بهيج، هذا خلق الله قال:

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

هذه الظاهرة بربكم ألا ترونها كل عام ؟ إن الذي مضى عليه 30 سنة احذفْ منها 5 سنوات إذ لم يكن مدركاً، 25 مرة رأى الأرض يابسة ميتة، فالأشجار خشب ميت، جاء الربيع ازدهرت الأشجار، والأرض اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه الظاهرة يراها أحدنا 40 عاماً أو 30 عاماً، ألا يُفكّرُ في الذي خلقها من هو ؟ يدُ من ؟ صنع من ؟ خلق من ؟ الله جل في علاه.

إذاً:

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

النبات معجزة من معجزات الخالق:

أيضاً النبات، مَن الذي يدرك أن هذا الماء وظيفته أن يحل معادن التربة، التربة فيها معادن، فيها كلسيوم، فيها مغنزيوم، فيها فوسفات فيها آزوت، فيها قصدير، في كل الأسمدة معادن، أشباه معادن يأتي الماء فيحل هذه المعادن، تأتي هذه الشعريات المتوضعة على أدق الجذور، هذا الجذر الضعيف في رأسه قلنسوة تفرز مادة تذيب الصخر، وفي بعض الجبال ترى الجذور بين الصخور، قد تعجب، يا رب هذا الجذر الضعيف الرقيق، والنبات اللين الغض، كيف يدخل بين الصخر، لأن الله عز وجل زوده برأس ليس رأسَ الماس، ولكن هو رأسٌ هلامي فيه مادة تذيب الصخر، وقد يمتد جذر الشجرة إلى 30 متراً تحت الأرض، بحثاً عن الماء، الجذر يمشي، وعلى رأس هذا الجذر أشعار ماصة، هنا العظمة، شجرة فستق، شجرة لوز، إجاص، تَمْر، مشمش، تفاح، عنب، تسقى بماء واحد.

(وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

(سورة الرعد: 4)

كل فاكهة لها طعم، ولها قوام، ولها قشرة معينة، ولها شكل معين، ولها صفات معينة، وتسقى بماء واحد، العظمة أن هذا الجذر الذي لا يعقل، يختار من التربة ما يناسب نوع الثمرة التي سوف يحملها شجره، التفاح فيه حديد، واليخنة فيها فسفور، وفيها مواد معينة، وأكثر النباتات فيها معادن، معادن مُنحلة، حسناً فمن الذي أنبأ هذا الجذر أن يأخذ البوتاس، خذ الكلسيوم، خذ المنغنيز، خذ الفوسفات، خذ الآزوت، من قال له ذلك ؟ أيعقل أن يكون هذا الجذر عاقلاً، أم أن الله عز وجل هو الذي سير ذلك، كل شجرة تأخذ حاجتها من التربة، من المعادن المنحلة في الماء، هذا السائل الذي حلت فيه بعض المعادن يصعد بأوعية، الأوعية مدعمّة بألياف حلزونية لئلا يكون نمو الشجرة عرضاً، دافعاً لها لتضيق لمعتها، وفي النسغ الصاعد أنابيب مدعمة بألياف حلزونية لئلا تضيق لمعتها عند نمو النبات، تصميم مَن هذا ؟ يصعد هذا السائل إلى الورقة.

وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ، قرأتُ كتاباً في النبات فأدهشتني مقدمة كتبت في رأس هذا الموضوع، قال فيها: إن أعظم معمل صنعه الإنسان اليوم لا يرقى إلى مستوى الورقة، ما هذه الورقة ؟ هي معمل قائم بذاته، تأخذ الطاقة من الشمس، الفوتونات وفيها اليخضور، وفيها شلات الحديد، وتأخذ هذا السائل وتصنع منه نسغاً نازلاً، هذا النسغ سائل وحده يصنع الأوراق الجديدة، والأغصان الجديدة، والبراعم الجديدة، والثمار الجديدة، قل:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة: 111)

(هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة السجدة: 25)

تارة يصبح ثمرةً، وتارة يصبح غصناً، وتارة يصبح برعماً أو جذراً، أو قشرةً، أو لحاءً، ما هذا الإعجاز في الخلق.

أيها الإخوة الأكارم، أقرب شيء لنا جسمنا والنبات، أنا أقول لكم: وَاللّهِ الّذِي لا إلَهَ إلا هُوَ فينا آيات لو أمضيت كل حياتك، ووقفت عند دقائق جسمك لا تنتهي الآيات، وبإمكانك أن تعرف الله من خلال خلقك، وبإمكانك أن تعرف الله من ظاهرة النبات وحدها.

هذه الآية دقيقة جداً، ربنا عز وجل حينما يذكر في القرآن بعض الآيات الكونية إنما يذكرها لتكون منطلقاً لنا في تفكيرنا، وهي عناوين موضوعات، وما عليك إلا تأخذها، وأن تتابع التفكير فيها.

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

إثبات البعث: كَذَلِكَ النُّشُورُ

يا ترى ما هدف هذه الآية ؟ لماذا ؟ قال:

(كَذَلِكَ النُّشُورُ)

أنتم تستعظمون أن يعاد الخلق مرة ثانية، أن تخلق هذه الأجساد البالية في القبور، أن يعاد خلقها مرة ثانية، ألا ترى ظاهرة النبات ؟ ألا ترى ظاهرة الأمطار، والرياح ؟ فالذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن ينبت هذه الأجسام من جديد.

إذاً: ربنا عز وجل ساق لنا هذه الآية الكونية لتكون دليلاً ثانياً على إعادة الخلق، قال:

(كَذَلِكَ النُّشُورُ)

ألا ترى هذه الآيات جلية واضحة بأم عينيك، الذي خلق هذا كله، قادر على أن يعيد الخلق مرة ثانية:

(كَذَلِكَ النُّشُورُ)

وبعد فما الذي يمنع الإنسان من أن يؤمن ؟

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ

هنا نقطة دقيقة جداً، وهذه النقطة تبين علاقة الآيتين بعضهما ببعض، الإنسان أحياناً يحصّل مركزاً معيناً، أو دخلاً معيناً، أو تجارة معينة، أو شأناً معيناً، أو مكانة معينة، ربما خاف على هذه المكانة، هذا المركز ؛ فهو يرفض الحق حفاظاً على مركزه، هناك عوامل كثيرة يرفضها، وهناك أشخاص كثيرون يرفضون الدين، لا كراهية في الدين، لا لأنهم لم يقتنعوا به، هم مقتنعون به، ولكن يتوهمون لضعف

إيمانهم أنهم إذا تدينوا، أو إذا آمنوا، أو إذا صلوا، أو إذا تابوا، أو إذا انضبطوا يخسرون مكانتهم أو مناصبهم، أو دنياهم العريضة، أو دخلهم الكبير، أو مكانتهم في الأرض، فهذا الوهم الخطير، ربنا عز وجل بدده في هذه الآية، قال:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ)

1 ـ الحاجات الأساسية للإنسان:

والإنسان أيها الإخوة كما تعلمون، له حاجات أساسية.

أول حاجة من حاجاته: وجوده، لذلك هو يبحث عن طعام، والنفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت، الإنسان قبل كل شيء، فم مفتوح يأكل، فهذه هي الحاجة الأولى.

الحاجة الثانية: الإنسان بحاجة إلى أن يبقى نوعه، من أجل بقاء جسمه يحتاج إلى الطعام والشراب، ومن أجل بقاء نوعه يحتاج إلى الزواج، فشهوة البطن، أو الحاجة إلى الطعام، هي رقم واحد، وثانياً الزواج، حسناً لقد أكل وتزوج، ثم عنده حاجة السعادة، كإنسان مهم له شأن، تصور أحياناً الشريك، يكون أحد الشركاء أقوى من الثاني، فالقوي يذل الضعيف، وأحياناً الإنسان يحس أن كرامته قد جرحت فينسحب من كل هذه الشركة، لا يتحمل.

أريد أن أقول: إن الإنسان عنده حاجة للطعام والشراب، وعنده حاجة للزواج، وعنده حاجة إلى العزة، وإلى أن يشعر بعزته، أن يشعر بكرامته، أن يشعر بقيمته، أن يشعر بشأنه، أن ينتزع إعجاب الناس، هذه حاجة إما أن توظف بالحق أو في الباطل، إما أن تحقق هذه الحاجة عن طريق الالتزام بالحق وخدمة الخلق، وإما أن تحقق هذه الحاجة عن طريق إيذاء الخلق، هم يخافونك، فيعظمونك، أو تحسن إليهم فيحبونك، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان، وكل حاجة أودعها فيه، يمكن أن توظف في الحق أو في الباطل، في الخير أو في الشر، فالإنسان يحب أن يكون ذا شأن، وذا مكانة، وله قيمة، والناس يحبونه، أنت بحاجة ماسّة أن يحبك الناس، وإلى أن تحب الناس، فإذا توهمت أيها الإنسان أنك إذا آمنت بالله، وأعلنت توبتك له، واصطلحت معه، واستقمت على أمره وعملت الصالحات، إذا توهمت أن في هذا ضياعاً لمكانتك أو تشتيتاً لشأنك، أو ذهاباً لوقارك، فهذا هو عين الجهل، لماذا ؟ قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ)

هذا الكلام أقوله لكم بصراحة: الذي يحب الشأن والمكانة، الرفعة، الاحترام، وأن ينتزع إعجاب الناس، أن يعظمه الناس، أن يبجلوه، أن يحترموه، أن ينادوه بأعظم ألقابه:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ)

أنت بحاجة إلى هذه المشاعر، مشاعر التبجيل والتوقير والتعظيم فهي مفطورة في الإنسان.

(كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

1 ـ العزة لا تُنال إلا من الله:

لا يمكن لما سوى الله أن يمنحك هذه العزة، أية جهةٍ سوى الله، أي إنسان، أي عظيمٍ، أي غنيٍ، أي قويٍ، أية جهة على وجه الأرض، لا يمكن أن تمنحك هذه العزة إلا الله، هنا المشكلة، عن ابن عباس رَضِي اللَّه عَنْه عن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((ألا ! رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا ! رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

[أخرجه الرافعي]

وكفار قريش لماذا كفروا بمحمد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عرفوه رسولاً كما يعرفون أبناءهم هكذا قال الله عز وجل:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: 146)

لماذا كفروا به إذاً ؟ حفاظاً على مكانتهم، حفاظاً على زعامتهم، حفاظاً على تجارتهم، حفاظاً على انصراف الناس لهم، ما الذي حصل فيما بعد، هل بقيت لهم هذه المكانة ؟ هل بقيت لهم هذه العزة ؟ ألم يُصرعوا في معارك بدر وأحد والخندق، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام لهم: يا فلان، يا شيبة بن ربيعه، يا أمية بن خلف، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحِداً، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، قالوا أتخاطب قوماً جيفوا، قال: ما أنتم بأسمع لي منهم، ولكنهم لا يجيبونني.

التاريخ بين أيدينا، ما الذي حصل ؟ هؤلاء الذين قاوموا الدعوة، وكفروا بها، وكذبوا بها، وسفهوا النبي الكريم وأصحابه حفاظاً على مكانتهم، حفاظاً على وجاهتهم حفاظاً على تجارتهم، ما الذي حصل ؟ خسروا بلدهم وشأنهم، ألم يقف أبو سفيان في باب عمر بن الخطاب ساعات طويلة فلم يؤذن له ؟ وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان، فلما دخل عليه، قال: زعيم قريش يقف في بابك ساعات طويلة، ولا تأذن لي وهذان يدخلان متى يشاءان، قال له: أنت مثلهما ؟! من أنت أمامهما ؟

2 ـ طاعة الله سبيل العزة:

وأقول لكم الآن: إذا توهم الإنسان أنه بمعصية الله قد يرتفع، وإذا توهم الإنسان أنه بترك الدين يملك عزة وكرامة فهذا هو عين الجهل هذا كلام واضح كالشمس:

(كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعًا)

شأنك بين الناس، مكانتك، رفعتك، كرامتك، لا تكون إلا بطاعة الله، فإذا أردتها بمعصية الله، فلن تصل إليها. اسمعوا قول النبي الذي لا ينطق عن الهوى.

عن عائشة رَضِيَ اللّه عَنْها، عن النبي صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قال:

((من التمس رضا الله عنه بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان]

وَاللّهِ الّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ لقد سمعت مئات القصص تؤكد هذه الحقيقة، نعم مئات القصص، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ)

يا أخي أنا بودي أن أكون محترماً، معك حق، هذه حاجة طبيعية عندك، أنا أحب كرامتي، كرامتي فوق كل شيء، هذا حسن وجميل، وهذا طلب مشروع، أنا أحب أن أحفظ ماء وجهي، هذا كذلك كلام طيب، أنا أحب أن أكون كبيراً في بيتي، لي مكانة عند أولادي، جيد، أنا أحب أن أكون لي مكانة في عملي، جيد، ولكن لتعلمْ أن هذه المكانة، وهذه الرفعة، وهذا التوقير، وهذا التبجيل، وهذا الاحترام لا يكون إلا بطاعة الله، سبحان من جعل العبيد ملوك بطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته.

أتحب أن يحبك الناس ؟ أحِبّ الله، واستقم على أمره، فالله عز وجل يجعل قلوب المؤمنين تهفو إليك، فإذا أردت العزة بمعصية الله نفر الناس منك واحتقروك، وتحدثوا عنك بالأقاويل، واخترعوا عنك الأكاذيب، وأصبحت سمعتك في الوحل:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعًا)

3 ـ لا يملك العزة مخلوقٌ:

لم يقلْ: فلله العزة، هناك كلمة أساسية، وهي جميعا، العزة كلها من الله، وما من مخلوق في الأرض يملك هذه العزة، لا تجد جهة إذا مشيت معها تعطيك عزة، الأمور بخواتيمها، الأمور بما تستقر عليه،

طبعاً الله عز وجل جعل امتحانات كثيرة، جهات أرضية كثيرة تمنحك العزة الظاهرة، ولكن بعد حين يَتَخَلَّوْن عنك، فإذا جاء مرض عضال، فإذا جاءت مصيبة كبيرة، أين أنت ؟ فلذلك الإنسان الذي معه الحق، موقفه قوي جداً، موقعه قوي، أما مع الباطل فهو عرضة لانهيار سريع:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعًا)

معنى: فللّه:

بقي معنى فلله.

المعنى الأول:

أول معنى: أنك إذا آمنت بالله، خالقاً، ومربياً، ومسيراً، وأن الأمر كله بيده، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وأنه إليه يرجع الأمر كله، وأنه بيده الخلق والأمر، وأنه خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، إذا آمنت بهذا تشعر نفسك عزيزاً ولو انقطعت علاقتك مع الناس، كل أمرك بيد الله، صحتك بيده، دخلك بيده، أهلك بيده، أولادك بيده، الجيران بيده، إخوانك بيده، من هم دونك بيده، من هو فوقك بيده، أعداؤك بيده، انتهى الأمر، وإذا آمنت ووحدت فطبيعة الإيمان فيها عزة، انظر حال المنافق لماذا هو في الوحل، لأنه يرى أن فلاناً بيده مصيره، فيرضيه، ثم يرضي خصمه، وفي ظرف آخر يعلم الأول: لِمَ كنت عنده البارحة، فيقول: أنا مضطر أن أذهب إليه فقد ضعف مركزه، لأنه يرى مصيره مع كل هؤلاء، يراهم يرزقونه، يرفعونه ويخفضونه، ينفعونه ويضرونه، حينما تفكر هذا التفكير فأنت ذليل، فأنت في الوحل، وقد بذلت ماء وجهك، ولا يمكن لإنسان مؤمن أن ينافق، لماذا ينافق ؟ علاقته مع الله، مصيره بيد الله، الله عز وجل هو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت، وانتهى الأمر، إذاً: طبيعة الإيمان بخالق عظيم، ورب حكيم، ومسيّر كبير، وطبيعة الإيمان بلا إله إلا الله، تمنحك عزةً، والمؤمن عزيز، لا يضطر أن يتملق، ولا يمدح مدحاً كاذباً، ولا ينافق، ولا يداهن، ولا يذلّ، ولا يخنع، الخنوع والتذلل والضعف والنفاق والتملق هي صفات المشركين، صفات المنافقين، لذلك:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعًا)

المعنى الثاني:

هناك شيء ثانٍ: الآن أنت حينما تستقيم على أمره تكون عزيزاً، ودخلك كله حلال، معك أدلة، أما إذا كان الدخل حراماً فأنت تفقد شيئاً من عزتك، يعني أول ملاحظة، أول تفتيش، تجد أن قلبك ارتاع، ما دام في الدخل حرام، ما دام لديك كذب، ما دام عندك تدليس، وتزوير، ونفاق، وسعر خُلّبي، وسعر حقيقي، وهناك محضر ضبط شكلي مادام هناك لعب، وخوف، وتذلل، فإذا كشف الإنسان خطأ الآخرين يصيرون عبيداً له، أرجوك يا سيدي، من أين جاء ضَعفُك ؟ من أين جاء تذللك ؟ من انحرافك، فمن هو

العزيز ؟ هو الموحد، من هو العزيز ؟ المستقيم، لمجرد أن تستقيم فأنت عزيز، لمجرد أن تكون موحداً فأنت عزيزٌ، فالتوحيد يكسب العزة، والاستقامة تكسب العزة.

المعنى الثالث:

وكذلك شيء آخر ؟ العمل الصالح، يكسب العزة، لمّا الإنسان يخدم الناس بحسب أمر الله عز وجل، يخدمهم، يعاونهم، يبذل ما عنده من أجلهم، والمؤمن له طبيعة، يسمونها بالتعبير الحديث استراتيجية، أساس حياته العطاء، وليس الأخذ، بينما الكافر أساسه الأخذ، امتصاص دماء الناس، أخذ أموالهم، بالحق أو بالباطل، استهلاك جهودهم، يريد مَن يخدمه دائماً، أهل الدنيا يستهلكون جهود الناس، يستهلكون أموالهم، يعيشون على أنقاضهم، المؤمن عكس ذلك، أساس حياته العطاء، يا من جئت الحياة فأعطيت، ولم تأخذ، والمؤمن إذا صح التعبير مركبة حياته على العطاء، وما دامت حياته مركّبة على العطاء فهو محبوب بين الناس، موقر مبجل، محترم، يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، فإذا آمنت بالله، ووحدته فأنت عزيز، وأنت إذا آمنت بالله ووحدته، واستقمت على أمره فأنت عزيز.

المؤمن المستقيم لا يؤتى من جهة المال والنساء:

إذا كان الشخص غير مستقيم، وسافر إلى بلد أجنبي، ثم زلّت قدمه فصوروه، وأخذوا عليه وثيقة، أمسكوا به من خوانقه، أكثر الأشخاص يؤتون من زاوية النساء، ومن المال الحرام، المؤمن مستقيم، محصن من جهة النساء بطاعة الله، وغض البصر، وعدم الخلوة، ومحصن من جهة المال بكسبه الحلال، مركزه قوي، لا يضطر لأن يتذلل، وكثير من أساليب القذرة جداً بدول أجنبية تفخخ الناس، فإذا ذهب شخص مخلص لوطنه، ويريد أن يخدمه يضعونه في مآزق، يصورونه، ويعرضون عليه الصور، والنسخة الثانية عندهم فتجده انتهى واستسلم، ولا يقدر أن يفعل شيئاً، من أين جاء تذلله وخنوعه ؟ من هذه الصور التي أخذوها عليه، أما المؤمن فلا يسمح لأحد أن يدفعه إلى معصية، استقامته في كسب المال، وفي شرف علاقاته بالنساء سبب عزته، وليس عنده مشكلة، لا يشرب الخمر مثلاً، والذي يشرب حينما يثمل يتكلم بأشكالٍ وألوانٍ مذهلة، وبكلام غير معقول، يكشف أسراراً، ويحكي سقطات، ويحكي مخازي، ومغامرات قذرة، في ساعة السكر يحكيها كلها، فأين مكانته صارت ؟ لقد ضاعت عزته، ومن أين تأتي العزة ؟ تأتي من معرفتك بالله، من التوحيد، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله الغني، وتأتي العزة من طاعة الله عز وجل، ليس عندك مآخذ، ما لأحد عليك من مأخذ، لست أسيراً لواحد له عليك مأخذ، دخلك حلال، عملك شريف تعمل في رابعة النهار، تعمل تحت ضوء الشمس

والقمر، ما عندك شيء مخفي، ليلك كنهارك، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ يَقُولُ:

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا، قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ))

[أخرجه ابن ماجه]

انتبه ثم لاحظ ؛ يأتي الذل من الشرك، ويأتي الذل من النفاق، ويأتي الذل من الكذب، ومن التدليس، ويأتي الذل من المعصية، من كسب المال الحرام.

ذات مرة سمعت قصة، أن رجلاً زار صديقه، ويبدو أن لصديقه أخت، وحدثت مشكلة، وموقف حرج، يقول: إني بقيت سنتين أو ثلاثاً، كلما استعرضت هذا الموقف شعرت أنني صغير، وأحياناً الإنسان يحتقر نفسه، احتقاره لنفسه أشد من تعذيب الناس له، هناك مواقف مخزية، مواقف قذرة، مواقف دنيئة، فالمؤمن لأنه مستقيم مواقفه كلها مشرفة، ليس عنده مركز ضعف في حياته، ما من أحد يهدده لأنه مستقيم، أما لو كانت له انحرافات، له مداخلات، له أساليب ملتوية مع الناس، دائماً هو عرضة للتهديد، وعرضة لانكشاف أمره، أين عزته وكرامته ؟ ذهبت، فلذلك عين الكرامة الاستقامة، لماذا قال الله عز وجل:

(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)

إذا آمنت بالله كنت عزيزاً، وإذا استقمت على أمره كنت عزيزاً، وإذا عملت الصالحات أحبك الناس فعظموك، فكنت عزيزاً، وإذا اتصلت بالله، فذقت حلاوة القرب، استغنيت عن مديح الناس لك، فكنت عزيزاً، إذا كان عند الإنسان خواء روحي، عنده جفاف روحي، أحب أنه يسعد بالناس، والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، لمّا يصير للإنسان صلة بالله عز وجل يستغني بها عن الناس، يستغني بها عن سقطاتهم، عن اللقاء بهم لقاء ساذجاً، وسخيفاً، لقاءاته كلها تكون مثمرة.

أنا أعطي تحليلاً دقيقاً، حينما تؤمن فأنت عزيز، وَحّدْت، لا تخاف في الله لومة لائم، لا تنافق، لا تكذب، لا تدلس، لا تتملق، لا تخنع، لا تخضع لما استقمت فما عليك مأخذ، رافع الرأس دائماً، يمكن أن تحمل حاجتك بيدك، فما تأتي العزة بمركبة، ولكن تأتي العزة من شرف، من استقامة، قد تكون فقيراً وتحمل الحاجة بيدك، وأنت رافعٌ رأسك، وقد تكون في أعلى درجات الغنى، لكن الدخل مشبوه، فأنت ذليل.

إذاً: الإيمان بالله، الاستقامة على أمره، والعمل الصالح والاتصال بالله عز وجل، تُكسب الإنسان عزة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ)

هذا كلام رب العالمين، بشكل واضح جلي بسيط، يا عبادي، أحبوا العزة والكرامة والشأن والمكانة، وقد يُردّ الإنسان إلى أرذل العمر.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة النحل: 70)

إياكم والعزة الموهومة:

أحياناً يبني عزة موهومة في شبابه على الباطل، فربنا يُدّفِعُه الثمن باهظاً، قد يُذله أقرب الناس إليه، قد تذله زوجته، لو فرضنا واحداً أصيب بفالج، ففي أول أسبوع العناية فائقة، الأسبوع الثاني العناية أقل درجة، بعد شهر، بعد شهرين، بعد سنة تتدنى العناية، بقي ثماني سنوات طريح الفراش، ينظفونه، ثم صاروا يسمعونه كلمات قاسية، الله يخلصنا منك، يسمعونه هذه الكلمات، الله يخفف عنه، أقرب الناس له، تزوجت زوجته بعد وفاته، ثم أخذ منها البيت، فلما يبني الإنسان عزته على الباطل، يدفع الثمن باهظاً، أما الإنسان الذي بنى شبابه في طاعة الله، فيكون خريف عمره متألقاً دائماً، يزداد عزة وشأناً وكرامة.

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيّبُ)

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيّبُ

العمل الصالح يرفه الإنسان:

الكلم الطيب، الكلام الذي فيه دعوة إلى الله، دعوة إلى العمل الصالح، دعوة للاستقامة، وتعريف بالله،هذا الكلام الذي تقطف ثماره طيبة لكن هناك كلام خبيث، هناك كلام طيب، فكل كلمة طيبة أودت إلى عمل صالح، أو إلى معرفة بالله، أو إلى طاعة، أو إلى إصلاح ذات بين أو إلى نشر الخير، هذا كلام طيب، فالكلام الطيب يصعد إلى الله، لكن الذي يرفعك إلى الله هو عملك الصالح، تكلم ما شئت، تعلموا ما شئتم، فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، الكلم الطيب يصعد إليه، لكن الذي يرفعك إلى الله هو عملك الصالح.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: 132)

تكلم ما شئت، تفلسف ما شئت، مهما كان الكلام طيباً ومنمقاً وعظيماً، لا قيمة له إلا إذا طبق في الحياة اليومية، ومهما كان السامع أديباً ومصغياً، ولا همسة، لا قيمة لاستماعه ما لم يكن التطبيق واضحاً، لا قيمة لكلامي إن لم أطبقه فيما بيني وبين الله، ولا قيمة لاستماعكم إن لم يترجم إلى عمل، هذا كلام مختصر مفيد، وفروا أوقاتكم، لا المتكلم يفلح عند الله إن لم يطبق، ولا المستمع يفلح إن لم يطبق، يبقى الحديث كلاماً:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)

شيء جميل كلامك طيب، لكن أين التطبيق ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف: 2 - 3)

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ

وبعد فالمشكلة، أنه بخطط، يدبر، يمكر لإطفاء الحق، يبذل الأموال الطائلة، والجهود، ثم يخفق، ويعذب.

أحياناً الإنسان يعمل عملاً ما ليحقق مصلحة، فتفوته المصلحة ويعاقب، شخص جاهل، بلغه أنه إذا قلع أسنانه كلها يعفى من الخدمة الإلزامية، ذهب لأول طبيب والثاني والثالث والرابع فما أحد رضي، إلا واحداً رضي، فخلع له كل أسنانه، فلما فحصوه اعتبروه متحايلاً للتهرب من الخدمة، فجعلوا له خدمة مضاعفة، فقد أسنانه كلها، وألزموه بخدمة مضاعفة، فهذا مثل حاد.

(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

- على مكرهم -

(وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

لا يفلح ويدفع الثمن، يعني يعذب عذاباً شديداً، ولا يحقق هدفه هكذا.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: 36)

فالكافر يخسر كل شيء، والمؤمن يربح كل شيء، أبقوها ببالكم: مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، لا دنيا ولا آخره، واحد أسس دار سينما، وكل تخطيطه أنه يشتغل بشبابه فترة فيحصل على ثروة طائلة، يتمتع فيها طوال حياته، يقوم بسياحة حول العالم، يسكن ببيت فخم، ومركبة فارهة، فأصابه

مرض عضال، سرطان بالدم، في ريعان حياته بعد ما حصّل ثروة دخل عليه رجل، كان تلميذي سابقاً، وصاحب السينما خاله، قال لي: كان يبكي بكاء مراً، لأن تخطيطه لم يتحقق، كسب المعاصي والآثام ويعذب الآن عذاباً شديداً، والأموال لغيره فالمشكلة إذا ترك المرء طاعة الله عز وجل، فحياته سلسلة إخفاقات، سلسلة نكبات، سلسلة مصائب، سلسلة فشل:

(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

في الدنيا والآخرة، وفي النهاية:

(وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (05-10): تفسير الآيات 11 - 12
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-05-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة فاطر، وقد وصلنا إلى الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

1 ـ في القرآن الكريم إشارات إلى آيات كونية:

في القرآن الكريم من حين إلى آخر إشارات إلى آيات كونية، ولأن الله عز وجل جعل الآيات الكونية دالة عليه، وطريقاً إليه وسبباً لمعرفته، حيث قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية: 6)

إذاً: كأن الله عز وجل يدعونا إلى أن نعرفه، بهذه الطريقة، من هذا الأسلوب، بهذا السبب:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

أحياناً قد يزداد الإنسان علماً بأمر الله، ولا يزداد علماً بالله، فضعفه في تنفيذ مضمون هذه الآيات، لأنه إذا ازداد علمه بأمره، ولم يزدد علمه به، فبذلك ينشأ التناقض، فهو يعلم، ولا يطبق، يقتنع، ولا يسلك، من ازداد علماً، ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً، إذاً: لا بد من أن نتحرك على خطين، على خط معرفته، وعلى خط معرفة أمره، وإذا ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم آيات كونية، فهذه عنوانات لموضوعات التفكر، وقد أمضينا في الدرس الماضي جزءاً كبيراً منه في الحديث عن آية السحاب والأمطار والرياح، وما إلى ذلك.

واليوم ربنا عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ)

2 ـ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ

أنت أيها الإنسان العاقل لو رأيت قطعة من خشب، ورأيت علبة من خشب، فقطعة الخشب وعلبة الخشب كلاهما من خشب، لكن العلبة لا بد من يد صانع صنعها، تحكم بعقلك أنه لا بد لهذه القطعة من الأثاث المصنوعة من الخشب من صانعٍ صنعتها، ومن مصمم صممها، ومن مكوّن كوّنها، أسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ـ كما قال هذا الإعرابي ببساطة، البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، أ سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ)

مِن عجائب خَلق الله في الإنسان:

نقطة ماء تصبح طفلاً بعد أشهر تسعة، وشيء حسن، فمِمّ هذا الطفل كائن ؟ له جلد، فيه دماغ، وبدماغه 140 مليار خلية، و14 مليار خلية قشرية، أعصاب، هيكل عظمي، عظام متحركة، عظام ثابتة، مفاصل متحركة، مفاصل ثابتة، عضلات مخططة، عضلات ملساء، جهاز هضم، الفم واللسان، والبلعوم، والمريء، والمعدة، والأمعاء الدقيقة والغليظة، والامتصاص، والكبد، والبنكرياس، والرئتان، والقلب، و الدسامات، والأوردة، والشرايين، والغدد الصماء، والغدد ذات الإفراز الداخلي والخارجي، في هذا الطفل الصغير الكبد تقوم بـ5000 وظيفة، والقلب يضخ في اليوم الواحد ما يساوي 8 أمتار مكعبة من الدم، فلو قرأت أي كتاب بين يديك، كتابا بسيطا جداً في التشريح لرأيت العجب العجاب، هذا الطفل مَن خلقه.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

هو كائن، لكنّه أعقد كائن في الكون.

ماذا أقول لكم ؟ لو أن الإنسان عُلّق من رجليه، وأسقيناه كأس ماء لصعد الماء نحو الأعلى على خلاف قانون الجاذبية، لأن المريء مجهز بعضلات دائرية تتقلص تباعاً، وتدفع الطعام نحو الأعلى، الأشياء التي يمكن أن تقال عن جسم الإنسان شيء يفوق حد الخيال:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

مَن الذي صمم أن الشعر والأظافر ليست فيها أعصاب حس مثلاً ؟ لو أن الله عز وجل أودع في الشعر والأظافر أعصاب حس لاحتجنا إلى عملية في مستشفى كي نحلق رؤوسنا بتخدير عام، من جعل في العظام أعصاب حس ؟

الإنسان حينما ـ لا سمح الله ـ تكسر رجله لشدة الألم المتولد من أعصاب الحس يبقيها كما هي، وإبقاء رجله المكسورة كما هي أربعة أخماس علاجها، من جعل في الأنف هذا الشعر ؟ ولم يجعل في الفم ذلك الشعر، لو أن الشعر في الفم أيضاً كيف نأكل ؟ من جعل هذا المفصل في ساعده، لولا هذا المفصل لاضطر الإنسان أن يأكل كالقطة، ينبطح على الأرض، ويأكل الطعام بلسانه فقط، فمن حَمّمَ هذا المفصل.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين: 4)

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار: 8)

حسنٌ وطيّب، هذا الخلق ألا ينبغي أن يلفت نظرنا. فالله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ)

هذا الخلق العجيب، هل رأيت أن هناك تعديلاً طرأ على خلق الإنسان ؟ هل سمعت أن إنساناً له موديل مثلاً ؟ فمنذ أن خُلق الإنسان خلق خلقاً كاملاً، معنى ذلك أن خبرة الله قديمة، أما الإنسان فخبرته تنمو، كل سنة يُعدّل، ويتلافى نقصاً، يقوّي مكاناً ضعيفاً، أو يحل مشكلة في الآلة، كلما تقدم الزمن نمت خبرة الإنسان، أما ربنا عز وجل فخبرته قديمة، منذ أن كان الله عز وجل، كان الله ولم يكن معه شيء.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

(سورة النساء: 17)

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

(سورة النساء: 35)

خبرته قديمة.

أنا قصدي أن الله عز وجل يبيّن لنا أن هذا الماء المهين 300 مليون حوين في اللقاء الزوجي، والحوين في رأسه مادة نبيلة مغلفة بغشاء رقيق، فإذا اصطدمت بالبويضة، تمزق الغشاء فخرج هذا السائل النبيل، أذاب جدار البويضة، ودخل هذا الحوين، وتم اللقاح.

والله أيها الإخوة الأكارم، والله لقد خلق الإنسان في الرحم شيئًا لا يُصدّق، أو قُل: لا يستوعبه العقل، أما الولادة فشأنها عجيب.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

(سورة عبس: 20)

شيء لا يصدق، الأعصاب، العضلات، الأجهزة، الغدد.

الإنسان ينام، حينما ينام ماذا يحصل ؟ يحصل أن جسمه مؤلف من هيكل عظمي، وفوق العظام عضلات، وتحت العظام عضلات، فالعضلات التي فوق العظام وزنها يضغط على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، حينما تضغط هذه العضلات تضيق لمعة الأوعية الدموية، تضعف التروية، فيتقلب الإنسان، من الذي يعطي تنبيهاً للدماغ ؟ وأنّ هذه المنطقة قد ضغطت، وضاقت لمعة الأوعية الدموية فيها فيتقلب الإنسان على شق آخر، وهو نائم، ربنا عز وجل قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: 18)

من الذي جعل هذا الإنسان يتقلب في الليل ؟ ما بين 35 مرة إلى 39 مرة وهو لا يدري، لكن ليس على جنب واحد، وإلا لوقع من على السرير:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: 18)

مرة هكذا، ومرة هكذا، هذا صنع مَن ؟ وأنت نائم، يزداد إفراز اللعاب في فمك، فيأتي تنبيه إلى الدماغ، زاد اللعاب، فيعطي أمراً للسان المزمار بأن يفتح، يغلق على القصبات الهوائية، ويفتح المريء فيسيل اللعاب إلى مكانه الطبيعي، وأنت نائم.

من أعطى أمراً لهذه الحدقة تتسع إذا اشتد الظلام ؟ ومن أعطى أمراً وأنت لا تدري كي تضيق إذا اشتد النور، راقب عينك بمرآة تتسع الحدقة إذا ضعف النور، وتضيق إذا أشتد النور، صنع من ؟

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ)

هو الخالق.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: 21)

العين، والأنف، والأذن، واللسان، وجهاز الهضم، وجهاز الدوران، وجهاز التصفية، شيء عجيب جداً، هذه حقائق بسيطة جداً، يدرسها طلاب التعليم الثانوي، وفي الجامعة حقائق أعقد، والآن هناك بحوث ومعلومات أدق بكثير عن خلق الإنسان:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

الإنسان بين يديه وسيلة إيضاح وأداة لمعرفة الله، لا تنقضي طوال حياته، لو أمضى كل حياته في التفكر في خلقه لما انتهى من عجائب هذا الجسم العجيب.

إذاً: الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ)

هذا القوام، من الذي قال للعظام: توقفي عن النمو ؟ من قال ؟ أجيبوني، لا أحد يعرف، هذا العظم ينمو وينمو وينمو.

ذات مرة سئلت: من الذي يجعل هذا العظم يقف عند هذا الحد ؟ فقلت: الله، فالله قابض وباسط، فقال لي السائل: هذه إجابة مضحكة، ثم قال: كأن هناك خطاً في الفراغ تتحرك العظام نحوه، فإذا وصلت لهذا الخط توقف نموها، حسناً فمن الذي رسم هذا الخط يا أستاذ ؟ هو القابض ؟ لو أن الإنسان يزداد طوله إلى ما شاء الله، هذا مرض خطير اسمه العملقة، الأسنان تقف عند حد، والعظام عند حد، والشعر عند حد، هذا من فعل القابض حسناً فأنت تذهب لتنام، من الذي صمم جسمك أن حركة الرئتين تعملان آلياً ؟ لو أن الله عز وجل أوكل إليك التنفس، هل بإمكانك أن تنام، إذا نام الإنسان مات، ولحكمة أرادها الله عز وجل كل 200 ألف شخص إلى 500 ألف تجد إنساناً يصاب بمرض مركز تنبيه الرئتين، يصاب هذا المركز بتلف، هذا الإنسان لا يستطيع أن ينام أبداً، فإذا نام مات، بعد لأيٍ وجهد طويلين وصل العلماء إلى دواء، يأخذه هذا المريض كل ساعة الدواء ليستطيع أن ينام، وأعرف شخصاً بدمشق أصيب بهذا المرض، فهذا الدواء يجب أن يأخذه الساعة التاسعة، والساعة العاشرة، و11 و 12، و1، و2، وإلا فإنه يموت، فأنت تغطُّ في نومك، وأمور قلبك، أمور رئتيك، أمور لسان المزمار، أمور التقلب كلها تعمل بانتظام.

ابحث عن الحركات المعقدة، التي تجري وأنت نائم، الهضم، لو أوكل الهضم إليك، تعشيت ونمت، البنكرياس ما أفرغناها، لا حول ولا قوة إلا بالله، تأخرنا ساعة عن تفريغ البنكرياس، وساعة عن الصفراء، وساعة عن الأمعاء الدقيقة، لوقفت كلها، وما اشتغلت، والأمعاء الغليظة، أنا نائم، بتلاقي اللعاب والمري والمعدة الحركات والمواد الهاضمة، وحمض كلور الماء، والبنكرياس من جهة، والصفراء من جهة، والإفرازات الداخلية، وحركة الأمعاء اللولبية، إلى أن يصبح هذا الطعام دماً، وأنت نائم .

حركة القلب، لو أن الإنسان أوكل إليه حركة قلبه، لتعطلت أعماله كلها، لو أوكل إليه تصفية دمه، لتعطلت أعماله كلها، لو أوكل إليه التنفس فقط لأعجزه الحال، فهذا الرجل المريض اشترى أربع منبهات، آوى إلى فراشه الساعة العاشرة إذاً: الساعة الحادية عشرة يأخذ حبة، يرجع لينام، والساعة

الثانية عشرة يأخذ حبة، يرجع ينام، الساعة الواحدة يأخذ حبة، يرجع ينام، والساعة الثانية ليلاً يأخذ حبة:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور: 35)

لهذا الرجل المريض ابن في أمريكة رجع في العطلة، جاء من سفر بعيد، من فرحه به سهروا سهراً طويلاً، ثم ناموا، وضربت المنبهات فلم يستيقظ، فوجدوه صباحاً ميتاً، فأنت كم جهازا عندك في جسمك؟ جهاز حركة الرئتين الآلية، ضربات القلب الآلية، الهضم الآلي، التصفية الآلية، البلعوم الآلي، التقلب الآلي، هذا كله وأنت نائم، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

معنى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

خالق هذا الكون هو الذي خلقكم من تراب.

المعنى الأول:

أن الله جل وعلا خلق آدم من تراب، فهذا نسبة إلى الأصل، ما دمنا من آدم جميعاً، وآدم من تراب، إذاً نحن من تراب، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

حينما يأتيك صبي لتوه، وزنه 3 كيلو، بعد 20 سنة صار وزنه 70 كيلوا، أو 80، أو 60، اطرح 3 من 70 67 كيلو من أين جاءت ؟ من الطعام والشراب، من تناول الأطعمة والأشربة، طيبٌ، هذه الأطعمة من أين جاءت ؟ خطر في بالي وأنا في طريقي إليكم، أن 1000 بذرة خيار وزنها 16 غراماً، هذه 1000 بذرة تعطي في شروط عالية جداً 16 طناً، فإذا كان الغرام أعطى ألفاً، والألف أعطت ألفاً، يعني مليوناً، ألفَ ألف مليون ضعف، طيب من أين جاء هذا الوزن، 16 غراماً وزن البذور، تعطي 16 طناً، أليس من التراب ؟ من التربة، الآن أدخل إلى حقل زراعي تجد مجموعاً خضرياً كبيراً جداً، له وزن، فمن أين جاء هذا الوزن ؟ من التراب.

المعنى الثاني: أن هذا الوزن الذي حصلته فارق الوزن بين وزن الولادة والوزن الحالي، هو من الطعام والشراب، والطعام والشراب من التراب، فإذا قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

شيء رائع، فأنت من هذا التراب.

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

(سورة طه: 55)

فعلام الكِبَر ؟ إذا كنا من تراب ومصيرنا إلى التراب، والتراب يداس بالأقدام.

خفف الوطأة ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

سر إن استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

***

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ)

ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ

النطفة، الحوين 300 مليون حوين تخرج من الرجل في اللقاء الزوجي، تختار البويضة واحداً منها، الحوين يتحرك حركةً عن طريق ذيل، كيف أن السمكة تتحرك بالطريقة هذه، يتحرك هذا الحوين، يتحرك في الساعة عشرة سنتمترات تقريباً، وهذا الحوين له رأس، وله عنق، وله ذيل، وكما قلت قبل قليل: في رأسه مادة نبيلة، مغلفة بغشاء، إن اصطدمت بالبويضة تَمزّق الغشاء، وأذابت هذه المادة النبيلة جدار البويضة، ودخلت إليها، هذا شأن الحوين، هذا الكلام الذي أقوله لكم هو معلومات بسيطة جداً، وهذا الحوين عليه خمسة آلاف مليون معلومة، فأنت شعرك له لون، العينان لهما لون، واسعتان، صغيرتان، أنف أقنى، أنف طويل، خد أسيل، شعر جعد، كل الصفات الدقيقة، حتى أدق الصفات مصممة بهذا البرنامج، برنامج زمني، هذا الحوين عليه خمسة آلاف مليون معلومة والبويضة عليها خمسة آلاف مليون معلومة.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

(سورة الإنسان: 2)

أنا أذكر لقطات غير منظمة أيضاً عن خلق الإنسان، كيف تنقسم هذه الخلية الملقحة، البويضة الملقحة، تنقسم إلى عشرة آلاف جزء من دون أن يزداد حجمها، لأنها تسير في نفق، لو ازداد حجمها لوقفت، وكيف تصل إلى الرحم ؟ وكيف تنغرز بالرحم ؟ وكيف تتجه الأوعية الدموية لتغذية هذه البويضة الملقحة ؟ ثم كيف تتماوج ؟ تصبح دماغاً، وتصبح أحشاء، وأعضاء، بشكل عجيبٍ عجيب، وفي الشهر التاسع هذا الطفل يولد من بطن أمه كائناً سوياً له قوامٌ وعضلات وعظام وأجهزة وحواس وغدد، وما إلى ذلك.

أيها الإخوة الأكارم، أنت لا تذكر كيف ولدت، ولكن ابنك يعلمك بأنّه هكذا كان أصلك، هكذا ولدت بهذه الطريقة، فربنا عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)

1 ـ خصائص الذكر والأنثى بين الاتفاق والاختلاف:

مَنْ جعل ذكراً وأنثى، من أعطى الذكر خصائصه العقلية، وخصائصه الجسمية، البيولوجيا، وخصائصه النفسية، وخصائصه الاجتماعية، ومن أعطى الأنثى خصائصها الجسمية، وخصائصها النفسية، والعقلية والاجتماعية، من جعل بين الذكر والأنثى قاسماً مشتركاً، لتكون الأنثى سكناً للرجل، ومن جعل فارقاً دقيقاً بين الأنثى والذكر.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة الليل: 1 ـ 3)

من جهة هما متشابهان من نفس واحدة، ومن جهة وليس الذكر كالأنثى، الأنثى مجهزة بكل الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية لتكون أماً، زيد في عاطفتها، وزيد في حساسيتها، وزيد في انفعالاتها، واتجهت لأن تكون سكناً للرجل، والرجل زيد في قوته العضلية، وزيد في قوة محاكمته، وزيد في جلده ليكون كاسباً للرزق.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)))

[ابن ماجه]

ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا ـ أنا أُرَبّي، وهو لا يربي، وإن ضممتهم إلي جاعوا ـ أنا لا أكسب الرزق، هو يكسب الرزق.

2 ـ الذكر والأنثى كلٌّ له ميدانه:

الله عز وجل جعل للرجل خصائص، والمرأة لها خصائص، وهما متساويان تماماً في التكليف والتشريف، والثواب والعقاب، ومختلفان في البنية، لذلك أية عملية هدفها أن تحل المرأة محل الرجل، أو أن يحل الرجل محل المرأة فهي إفساد للحياة، إفساد كبير، كلاهما مساوٍ للآخر من حيث إنهما مكلفان بأركان الإيمان وأركان الإسلام، ومستحقان للثواب والعقاب، ولكن المرأة صممت، وجهزت

بوسائل وخصائص تعينها على أداء مهمتها في الحياة، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت: قال عليه الصلاة والسلام:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل الجهاد في سبيل الله، فأدبرت المرأة، وهي تهلل وتكبر استبشارا))

[البيهقي]

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)

3 ـ نظام الزوجية في الكون:

نظام الزوجية في الكون نظام رائع، نظام بديع، نظام معجز، كيف أن الزوج والزوجة ينجبان هذه المخلوقات، ينجبان الأطفال، كيف أن النبات أساسه الزوجية، كيف أن الحيوان أساسه التزاوج، ويكاد يكون التكاثر الزوجي هو النمط الأعم الغالب في الحياة، من صمم ذلك ؟ الله سبحانه وتعالى:

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

عملية الحمل عملية معقد جداً، فحمل الأنثى ووضعها بعلم الله عز وجل.

أريد أن أوضح لكم ناحية، حينما أنظر إلى أخ يحرك هذا الكأس، أقول: أنا أعلم ما تفعل، لأنني أشاهد ما يفعل، أما حينما أحركه بيدي، فهذا أبلغ من العلم، إذا كنتَ تراقب حركة، وقلتَ: أنا أعلم ماذا حصل، هذا شيء طبعاً بديهي، أما حينما تحرك هذا الشيء بيدك فهذا أبلغ من العلم.

مَن الذي كوّن هذا الجنين في بطن أمه ؟ الله سبحانه وتعالى، يد مَن ؟ هذا الرحم الذي حجمه تقريباً 7.5 سنتيمترات مكعبة، ثم يصبح الرحم بحجم كبير جداً حينما يمتلئ بالجنين في تسعة أشهر، ثم هذا الرحم يتقلص تقلصات لطيفة متزامنة متدرجة، الطبيب يعرف أن بعد ساعتين تلد، أو بعد خمس ساعات، من التوقيت ومن الزمن بين التقلصين، فكل ساعة تقلص، كل خمسين دقيقة تقلص، كل أربعين، كل ثلاثين، كلما اقترب زمن التقلصين اقتربت الولادة، من جعل هذا الرحم يتقلص هذا التقلص اللطيف، إلى أن يدفع الطفل إلى خارج الرحم، فإذا دفعه تقلص تقلصاً عنيفاً، وشديداً، ليسد هذه الأوردة والشرايين التي تمزقت من الولادة، فإذا رأى الطبيب أو القابلة أنّ هذا الرحم صخري التكوين فالولادة سليمة، فإذا كان رخواً فالحالة في خطر، فمعنى ذلك أن هناك نزيفاً، من جعل هذا الرحم يتقلص ؟ أهو يعقل ؟ ثم يتقلص تقلصاً عنيفاً العلماء، ولو انعكست الآية لماتت الأم نزيفاً، والولد خنقاً، لو انعكست

الآية، لو تقلص الرحم تقلصاً عنيفاً، والجنين في داخله لمات الجنين، فإذا تقلص تقلصاً رخواً بعد الولادة لماتت الأم نزيفاً، فربنا عز وجل يقول:

(ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)

الله عز وجل يعلم، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

شُبهةٌ لا قدَم لها ولا ساق:

هناك شيء آخر، قد يقول قائل، الله عز وجل يقول:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

(سورة لقمان: 34

هو سبحانه لم يقل: ويعلم من في الأرحام، فإذا توصل العلماء إلى تصوير الجنين، أو تحليل دمه، أو أخذ سائل الأمنيوسي، فعرفوا أن الجنين ذكر أو أنثى، وقد يخطئون حتى الآن، ليس معنى هذا أن الآية انتقضت، الله عز وجل يقول:

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

وهذه " ما " تشمل كل صفات الجنين، من يعلم أن هذا الطفل سيكون عالماً جليلاً، أو مجرماً خطيراً، من يعلم أن هذا الطفل سيكون ألمعياً أو غبياً، من يعلم أن هذا الطفل سيكون معمراً، أو قصير العمر، هذا كله يعلمه الله عز وجل.

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)

وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ

1 ـ الموت أخطرَ حدثٍ عند الإنسان:

ما دام حدثُ الموت أخطرَ حدثٍ عند الإنسان، فهو من فعل الله سبحانه وتعالى.

في قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك: 2)

فتقديم كلمة الموت على كلمة الحياة هذا تقديم اهتمام، تقديم خطورة، بما أن الموت أخطر حدث في حياة الإنسان، إذاً هو من فعل الله عز وجل، ولا يستطيع بنو البشر مجتمعين أو متفرقين أن ينهوا حياة إنسان، هكذا عقيدتنا، قد يبدو لك في الظاهر أن فلاناً قتل فلاناً، المقتول يموت في أجله، إنهاء الحياة لا يمكن أن يكون في يد البشر، لكنّهُ بيد خالق البشر، وإذا تم على يد البشر فبإذن خالق البشر، هذا كلام قطعي، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، إنهاء الحياة لا يكون إلا بيد الله عز وجل، فأن تقول: فلان طال عمره، وفلان قصر عمره، وفلان مات بحادث، وفلان لو لم يفعل كذا لما مات، لو أن الطبيب أسعفه لما مات، لو أن التخدير كان جيداً لما مات، كل إنسان محاسب عن تقصيره، أما أن تقول: فلانٌ أماتهُ ـ أي قتله ـ قبل أجله، هذا شيء مستحيل.

إذاً:

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)

2 ـ قيمة العمر في العمل الصالح لا في مدته:

وهناك تعليق لطيف على موضوع العمر، كلكم يعلم أن هناك عمرا زمنيا، فلان يعيش 80 سمة، 70، 60، 45، 38، 110، 130، 90، 115 هذه أعمار الإنسان، هذا العمر قيمته لا بمدته، بل قيمته بما ينطوي عليه من عمل صالح، فلذلك إذا سألت الله عز وجل أن يطيل عمرك، ليس معنى ذلك أن يزداد العمر أمداً، ولكن أن يزداد غنىً بالأعمال الصالحة، فالنبي عليه الصلاة والسلام عاش 63 عاماً، وكم من أمته من عاش فوق هذه السن، لكنه ترك أثراً في الحياة، لا يمحى إلى يوم القيامة، ترك أثراً في مشارق الأرض وفي مغاربها، كان رحمة مهداة، ونعمة مرجاة، العلماء العاملون تركوا آثاراً كبيرة جداً، فلا تقس عمرك بمدته، قِسْهُ بما ينطوي عليه من عمل صالح، تماماً كما لو فتحت محلك التجاري أربع عشرة ساعة، و بعت بألف ليرة، وإنسان فتح محله ساعة واحدة و باع بمليون ليرة، هل يفتخر الذي فتح المحل أربع عشرة ساعة ؟ أنا أداوم حتى الساعة العاشرة ليلاً، أما أنت فدوامك ساعة واحدة، مسكين على هذا الحظ، دوامه قليل، لكن بهذه الساعة باع بمليون ليرة، فحظه وافر، وهذا الذي فتح محله أربع عشرة ساعة باع بألف ليرة، قيمة العمل التجاري لا في أمد التجارة، بل في أرباحها، و كذلك قيمة العمر لا في أمده، بل في أعماله الصالحة، لهذا قالوا: إن الغنى غنى العمل الصالح، وإن الفقر هو فقر العمل الصالح، وسيدنا موسى حينما سقى لهاتين المرأتين قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص: 24)

3 ـ لا قيمة للدنيا، فسارعوا إلى الصالحات:

أنا فقير لعمل صالح، والذي يؤكد ذلك أن الإنسان حينما يغادر الدنيا، أو حينما يشعر بأن المغادرة اقتربت، حينما يشعر أن أجله قريبٌ لا يندم إلا على ساعة مضت لم يذكر الله فيها، أو لم يعمل فيها عملاً صالحاً، و قد ورد في الأثر أن الإنسان لو كانت الدنيا كلها بيديه، الأراضي في العالم كلها لك، وكل المحلات التجارية لك، وكل الشركات المتعددة الجنسيات لك، وكل أموال الأرض لك، وجاء ملك الموت تتمنى أن تعطي كل هذا لمن يسمح لك أن يزيد العمر ساعة واحدة تؤدي فيها ركعتين لله عز وجل، هذه حالة الإنسان حينما يغادر الدنيا، نحن والحمد لله في بحبوحة ونحن أحياء، القلب ينبض، يمكن أن تتوب، يمكن أن تصحح الماضي، يمكن أن تعاهد الله عز وجل، يمكن أن تدع هذا العمل السيئ، يمكن أن تتخلى عن هذا المبلغ الحرام، يمكن أن تصطلح مع زيد، يمكن أن تستسمح من عُبيد، فما دام القلب ينبض فأنت في بحبوحة، فلذلك:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران 133)

الآية الدقيقة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: 148)

4 ـ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا

لك أن تتجه إلى الحق أو إلى الباطل، إلى إرواء الشهوات أو إلى القربات، إلى أكل أموال الناس بالباطل، أو إلى إعطاء الناس الضعفاء مالاً حلالاً، لك أن تؤذي، لك أن تنفع، لك أن تستقيم، لك أن تنحرف، لك أن تعطي، لك أن تمنع، لك أن تؤمن، لك أن تكفر:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

لك أن تنصح، لك أن تغش، لك أن تخلص، لك أن تخون أنت مخير، فأنت في خيار، لكن الله يراقب.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر: 14)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

هنا يطالعنا سؤال: أيها الإنسان إياك أن تظن أن هذا الأجل إلى مالا نهاية، وأن هذا الاختيار مُنِحْتَهُ إلى ما لا نهاية، لا، الاختيار محدود، ينتهي عند الموت:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

ولِّ وجهتك كيف ما تشاء، افعل ما تشاء، اعملوا ما شئتم، هذا أمر تهديد، افعل ما تشاء، كله عليك مسجّل، كله محسوب عليك:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

ما دمت مخيّراً، وما دمت ممنوحاً هذه الحرية، وما دام بإمكانك أن تؤمن، وأن تستقيم، وأن تتوب، وأن ترجع، وأن تصطلح مع الله، وأن تؤدي الحقوق، وأن تصلح ذات بينك:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

إياك أن تظن أيها الإنسان أن هذا الاختيار مُنحتهُ إلى الأبد، لا، هذا الاختيار منح لك بشكل مؤقت، مُنح لك في الدنيا، فإذا جاء الموت أُلغِيَ الاختيار.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة: 7)

وأصبحت في قبضة الله عز وجل، تماماً كما لو أن الطالب في قاعة الامتحان يجيب عن الأسئلة، فبإمكانه أن يكتب، وأن يصحح، وأن يضيف، وأن يحذف، وأن يحل هذه المسألة، فإذا قرع الجرس، وسحبت الورقة من بين يديه، وانتهى، وصححت، ونالت علامة ثابتة، فإما أن ينجح، وإما أن يرسب:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

لكن هذه الوجهة أنت مخيّر فيها، ولكن هذا الاختيار ليس أبدياً، منح لك لوقت محدد، لهذا جاء قوله تعالى:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لأنه:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

(سورة النساء: 78)

الآية دقيقة جداً، الآن أنت مخير، واختيارك ينتهي عند الموت، وإذا جاء الموت طالك أينما كنت، في فراشك، في الطائرة، في بلد أجنبي، قبل الزواج، بعد الزواج، بعد نيل الدكتوراه، قبل مزاولة العمل، قبل العرس بيوم:

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ)

إذاً:

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ)

5 ـ من دلالات قوله: وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ

قال بعض المفسرين: أن يعمر المعمر، أو ينقص من عمره، حينما يسمح للإنسان أن يعيش يوماً إضافياً هذه نقطة دقيقة، كل إنسان مؤمن حينما يستيقظ يجب أن يعلم أن الله جل في علاه سمح له أن يعيش يوماً جديداً، لهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

[البخاري عن حذيفة]

النوم موت، لذلك ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، والإنسان العاقل يسأل نفسه قبل أن يأوي إلى فراشه: كيف مضى هذا اليوم ؟ ماذا فعلت فيه عملاً ينفعني بعد الموت ؟ ماذا عملت فيه عملاً يرضي الله عز ؟ هل عدتُ مريضاً ؟ هل نصحت إنساناً ؟ هل أمرت بمعروف ؟ هل نهيت عن منكر ؟ هل أصلحت ذات بين؟ هل وجهتُ أولادي ؟ هل رعيت زوجتي ؟ هل حققت هذه المصلحة ؟ ربنا عز وجل قال:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة النساء: 114)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا

كلام الناس في ندواتهم، في مجالسهم، في نزهاتهم، في رحلاتهم، في متاجرهم، في مكاتبهم، الموضوع الفلاني، والفلاني، هذا كلام لا طائل منه، ولكن ربنا عز وجل قال:

(إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ)

أي بعمل صالح، صلاح الدنيا:

(أَوْ مَعْرُوفٍ)

صلاح الآخرة:

(أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

أصلح فساداً، فصلاح الدنيا بالخير، أو صلاح الآخرة، بعمل صالح، إذا تكلمت كلاماً أدى إلى زواج شاب، أو إلى إيواء رجل، أو إلى خدمة إنسان، أو إلى تأسيس مسجد أو ميتم أو عمل طيب، أو حدثت الناس عن الله عز وجل حتى عرفوه، وحتى استقاموا على أمره، وحتى أحبوه، وحتى أقبلوا عليه، أو أصلحت خللاً أو مفسدةً، أو خصومة، أو خلافاً، أو مشكلة:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

يعني كن فيكون، زُلْ فيزول، الله عز وجل أمرُه بين الكاف والنون.

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ

1 ـ ملوحة البحر:

لو درستَ ملوحة البحر لرأيت العجب العجاب، تطالعك أرقام كبيرة، فمثلاً: لو أخذنا ميلاً مكعباً من مياه البحر، كيلو متر ونصف بكيلو متر ونصف، بكيلو متر ونصف تقريباً، هذا الميل المكعب من مياه البحر فيه ألوف الأطنان من الملح، ولا تزال نظرية ملوحة البحر موضع بحث، كيف كان هذا البحر ملحاً أجاجاً، ولو كان هذا البحر عذباً فراتاً لفسدت هذه المياه، ولأفسدت، حكمة ما بعدها حكمة، أن هذه المياه مالحة، وكيف أن هذه المياه المالحة تصبح بعد حين عن طريق التبخر والسحب والأمطار مياهاً عذبةً تشرب، ألم تسمعوا أن أناساً كثيرين ماتوا وهم على ظهر البحر ؟ ماتوا عطشاً، أنا قرأت قصة عن باخرة عظيمة غرقت في المحيط الأطلسي نجا قارب نجاة واحد عليه 60 راكباً، ومعهم ماء قليل، قائد هذا المركب أمر أن كل إنسان يشرب باليوم ملعقة ماء فقط، بحسب تقديره، فما وصل من هذا القارب إلى الشاطئ إلا راكبان فقط، لأنهم قتلوا بعضهم من أجل ملعقة ماء، رموا ببعضهم في البحر، من أجل ملعقة ماء، وهم على سطح البحر، فما قيمة حياتنا لولا هذا الماء العذب الفرات ؟ هذه آية:

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)

الآن يقول لك: تحلية المياه، يكلف متر الماء الواحد حسبما سمعت خمسة عشرَ ريالاً تقريباً، أجرة تحلية اللتر من المياه تقريباً، مبلغ ضخم فالتحلية، أغلى من البنزين، نحن عندنا التحلية مجاناً تتم عندنا من نبع الفيجة نأخذها خالصة، وقد سمعت خبراً من أيام أن الماء الفائض عن نبع الفيجة، وقدره 35 متراً مكعباً في الثانية يلقى في نهر بردى:

(عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ)

2 ـ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ

لذلك الإنسان إذا شرب كأس ماء عليه أن يشكر الواحد الديان.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك: 30)

الله جل جلاله في علاه جعل في بعض البلاد الآبار كلها مالحة، إلى جانب البحر، تأخذ من ملوحته، فهذا شيء لا يحتمل:

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)

هناك بحيرات مياهها عذبة.

(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا)

3 ـ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

من عجائب الأسماك:

هذه الأسماك من آيات الله الدالة على عظمته، هناك ما يزيد على مليون نوع من الأسماك في البحار، تنوع الأسماك في البحار شيء عجيب، منها أسماك متوحشة، أسماك كبيرة، هذه الحيتان 130 طناً، وذات مرةٍ حوتٌ جَرّ سفينة بخارية، أعملت كل محركاتها 48 ساعة بعكس اتجاه الحوت، وقد جرها الحوت، وزنه 130 طناً، منها 50 طناً من لحم، و 50 طناً دهنا، رضعته الواحدة 300 كيلو من الحليب من أمه، في اليوم يرضع ثلاث مرات طناً من حليب، وجبته المعتدلة أربعة أطنان حتى يشعر بالشبع، هذا بالنسبة للحوت، وهناك أسماك صغيرة جداً، فسفورية، سوداء، شفافة، لها ذيل لها أرجل، التنوع بعالم الأسماك شيء يُحيّر العقول، إنّ الله سبحانه أعطى هذا السمك جهاز ضغط، هناك خط على السمك بالقسم العلوي، هذا الخط أنبوب مفرغ من الهواء، فكلما أوغلت السمكة في أعماق البحر ازداد الضغط، فعرفت موقعها من البحر، الله عز وجل زود السمكة بطريقة تعرف أين هي من سطح الماء، وزودها بجهاز آخر هو محفظة بأسفلها حبات رمل، وعند حبات الرمل أعصابٌ حساسة، فإذا كان ظهرها نحو سطح البحر تعرف ذلك، فإذا عكست الآية تشعر أنها الآن مقلوبة، معها جهاز آخر يعرّفُها أين الأعلى وأين الأسفل، الجهاز الأول يعيّن بُعدها عن سطح البحر، والجهاز الثاني كيف وضعها، وهي في الماء، نحو الأسفل أو نحو الأعلى، والجهاز الثالث إن أرادت أن تطفو على سطح الماء تطلق الهواء من معدتها، السمكة قادرة على أن تصنع الهواء من الطعام، وتملأ به أكياسها الهوائية فتطفو، فإذا أرادت أن تغوص أطلقت هذا الهواء فغاصت، شيء عجيب جداً، وهذا السمك له زعانف للتوجيه،

وزعانف للتوازن، وزعانف للحركة، وزعانف عرضية، وزعانف طويلة، وزعانف متأرجحة في الخلف، شيء رائع جداً.

في البحار أنواع من الأسماك عجيبة، هناك أسماك طبيبة، يقف أمامها السمك في طابور، إنها تعيش على الإنتانات في جسم السمك، وقد أتفق كل أنواع السمك على أن هذه السمكة لا تؤكل، معها حصانة، لأنها تقوم بمعالجة القروح التي في حراشف الأسماك، هذه كلها بحوث علمية، فالعلماء راقبوها، ثم ذكروها في مؤلفاتهم، وصوروها، وعالم الأسماك لا ينقضي حديثه، ربنا عز وجل قال:

(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا)

4 ـ كلٌ بحر له أسماكه بحسب خصائصه:

بالمناسبة الأسماك التي تعيش في المياه العذبة لا يمكن أن تعيش في المياه المالحة، والأسماك التي تعيش في المياه المالحة لا تعيش في المياه العذبة، والدليل:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

(سورة الفرقان: 53)

البرزخ بين البحرين:

البرزخ بين كل بحرين حاجز لم تعرف طبيعته، لكن هذا الحاجز موجود فرضاً، لأن مياه كل محيط لا تختلط بالبحر الآخر، فمثلاً البحر الأحمر له كثافة، و له ملوحة، وله مكونات خاصة به، والبحر العربي له كثافة، وملوحة، و مكونات خاصة به، و قد رؤي هذا في الأقمار الصناعية، مياه البحر الأحمر لا تختلط بمياه البحر العربي، أو الهندي، والعكس صحيح، هذا البرزخ، هذه الآية بقي علماء التفسير قروناً في حيرة منها، كيف جعل الله بين البحرين برزخاً، هذا البرزخ مجهولة طبيعته، لكنه مفترض وجوده، لأن مياه كل بحر لا تختلط بمياه البحر الآخر، لا من حيث الملوحة، ولا الكثافة، ولا المكونات، هذا شيء واضح، و ثابت، الآن إذا ذهب شخص إلى البحر الأحمر يشعر أن الماء خفيف، أما في المتوسط فالماء ثقيل، والفرق واضح جداً بين البحرين، ومع ذلك فالبحران متصلان عند قناة السويس متصلان، وهذا البحر لا يختلط بهذا البحر، و هذا من بعض بحوث علماء البحار عن طريق مركبات الفضاء، الله عز وجل قال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن: 19 ـ 21)

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)

(سورة الفرقان: 53)

الحجر المحجور هو أن أسماك المياه العذبة لا تنتقل للمياه المالحة، و أسماك المياه المالحة لا تنتقل للمياه العذبة، فلو صب نهر عظيم في عرض المحيط، كالأمازون، فإنه يستمر سيره في البحر مسافة 80 كيلو مترا، ومع ذلك أسماكه تعيش فيه، ولا تنتقل إلى المياه المالحة:

(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

بقيت كلمات قليلة:

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

5 ـ كلٌ بحر له أسماكه بحسب خصائصه:

هذا اللؤلؤ المحار حيوان له هاتان الصفيحتان العظميتان، وهو في الداخل حيوان هلامي كيف يدافع عن نفسه ؟ إذا دخل إلى المحار جسم غريب دافع عن نفسه بإفراز مادة كلسية فسفورية، هذه المادة يفرزها بشكل كروي كي يقضي على هذا الجسم الغريب الذي دخل إلى مملكته، هذه المادة الكلسية الفسفورية الذي يفرزها المحار على المادة الغريبة هي اللؤلؤة، وقد أخذ العلماء المحار يفتحونه، ويضعون فيه حبة رمل، و يضعون هذه المحارات في صناديق مفتوحة في عرض البحر، وينقلونها من فصل إلى فصل، من مكان إلى مكان، هذه حبة الرمل يفرز حولها المحار مادة كلسية فسفورية يجعلها لؤلؤة، لكن هذه اللؤلؤة التي وضعتها أنت في المحار حبة رمل بمستواها الفني أقل بكثير من اللؤلؤ الطبيعي، هذا اسمه لؤلؤ مزروع، اللؤلؤ الطبيعي، فلا تجد وسط هذه اللؤلؤة أي شيء، صفاء ما بعده صفاء، فربنا عز وجل صمم هذا اللؤلؤ ليكون حلياً للنساء، وليست قضية عشوائية، أن هذه الحبات مناسبة للمرأة، فحينما خلقها الله عز وجل خلقت كما قال الله عز وجل:

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

مصممة خصيصاً لتكون حلية للمرأة:

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ)

6 ـ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ فِيهِ

من أعطى هذا الماء قوة تماسك ؟ قوة التماسك في الماء تمنع دخول الأجسام فيه، هذا ما سمي في علم الفيزياء دافعة أرخميدس.

أمسك أنت وعاء ماء، ثم ضعه في مستودع ماء، فقد نصف وزنه، أو فقد أربعة أخماس وزنه، معنى ذلك أن الماء يدفعه نحو الأعلى، لولا هذه الخاصة لما استخدم البحر ليكون أداة اتصال بين القارات، تعبيد طريق يكلف ألوف الملايين، أما البحر فهو طرق معبد، الباخرة حمولتها مليون طن، وأعظم البواخر تحمل مليون طن، وتسير في عرض البحر، و كأنه طريق ممهل.

ربنا عز وجل حينما صمم الماء بهذا الدافع القوي نحو الأعلى، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

الاستيراد والتصدير، ونقل البضائع، وأنت تحتاج إلى فواكه، إلى شاي، إلى سكر، إلى حاجات تنقلها لك السفن من كل أرجاء الأرض.

(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (06-10): تفسير الآية 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-05-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثانية عشرة، وهي قوله تعالى:

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

(سورة فاطر)

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

لعلّ في الدرس الماضي تبين لنا أن الله جل وعلا يريد أن يعرفنا بذاته، من خلال آياته، والآيات هي العلامات الدالة على وجوده، وعلى كماله وعلى وحدانيته، وعلى قدرته، فهو موجود، وقدير، وكامل، وواحد، أبرز الصفات والأسماء التي يمكن أن تجمع من خلالها كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى.
من هذه الآيات إيلاج الليل والنهار:

1 - معنى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلَ

أولج بمعنى أدخل، يتجلى اسم اللطيف في هذه الآية.
نحن في حياتنا اليومية نضع يدنا على زر فيتألق المصباح فجأة، نضعها ثانية فينطفئ فجأة، أما هذا التدريج اللطيف، تغيب الشمس، ولا تزال الدنيا مضيئة، كيف يدخل الظلام شيئاً فشيئاً، شيئاً فشيئاً، إلى أن يأتي وقت العشاء، فإذا الظلام قد عم الأرض، الله جل وعلا أولج الليل في النهار بلطف ما بعده لطف، لو أن الله جل وعلا يفعل كما نفعل نحن في حياتنا اليومية، وغابت الشمس فجأة، وغاب معها الضوء، لا شك أن الهواء الذي يغلف الأرض يقوم بعملية اسمها تناثر الضوء، هناك أشعة شمس، وهناك ظلام دامس، وهناك منطقة فيها ضياء، وليس فيها أشعة، الهواء الذي يغلف الأرض يقوم بمهمة تناثر الضوء، إذاً: الغلاف الهوائي نعمة من نعم الله عز وجل، هو الذي يجعل هذا الضياء يبدو بشكل تدريجي، وفي الصباح يولج النهار في الليل، ظلام دامس، يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وبعدئذٍ يزداد الضياء شيئاً فشيئاً، إلى أن تشرق الشمس، ويعم الضياء الأرض.

هذه الآية الدالة على عظمة الله عز وجل، ولولا أن شكل الأرض كرة لمَا تداخل الليل والنهار، ولولا أن سرعة الأرض سرعة بقدر لما تداخل الليل والنهار بهذا البطء وبهذا اللطف، ولولا أن الأرض يغلفها غلاف غازي لما تناثر الضوء، والإنسان إذا دخل إلى الظلمة فجأة لا يرى شيئاً، بعد حين تتسع حدقته شيئاً فشيئاً، حتى تتبدى له بعض ملامح الأشياء، لو دخل الإنسان إلى سوق الحميدية أو سوق مدحت باشا الآن، فجأة وهو يقود مركبة بعد أن يدخل هذا السوق لا يرى شيئاً إطلاقاً، لأنه انتقل من الشمس المتألقة إلى منطقة أقل إضاءة، وإذا انتقل الإنسان من مكان مظلم إلى مكان مضيء، فتضيق حدقة العين شيئاً فشيئاً، حتى تأخذ الضوء الكافي، وأنت لا تدري، لكن الله جل في علاه جعل تداخل الليل والنهار تداخلاً لطيفاً، وتداخلاً مريحاً، وتداخلاً يوحي بعظمة الله عز وجل، هذا معنى قوله تعالى:

(يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ)

أي أن الله عز وجل الذي أمرك أن تعبده، هو الله جل في علاه الذي أمرك أن تطيعه، والذي بيده مقاليد السماوات والأرض هو الذي يفعل هذا، هل أحدٌ من الناس مهما علا شأنه يستطيع أن يحرك الأرض ؟ أن يزيد حركتها ؟ أن يزيد من سرعة دورانها ؟ هذا من فعل الله جل وعلا.

أحياناً هناك دليل فطري على أن هذا الكلام كلام الله، دليل فطري يعبر عنه بالمثل التالي:

لو سمعت إنسانين يتحدثان من وراء حجاب أو في غرفة أخرى، بينهما باب ينتقل الصوت عبره، قال لك: البارحة عيّنا مديراً عاماً للبريد، من المتكلم ؟ وزير المواصلات، أنت لا تعرف من المتكلم ! لكن فحوى الكلام ينبئُك بالمتكلم، حسناً فحينما يقول تعالى:

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمّرُ مِنْ مُعَمّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلّا فِي كِتَابٍ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

(سورة فاطر)

من يستطيع أن يقول هذا الكلام إلا خالق البشر ؟

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ(12)يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ)

(سورة فاطر)

2 - وَسَخّرَ الشّمْسَ

الشمس تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، وإذا دخلتها أرض تبخرت في ثوانٍ معدودة، لأن درجة حرارة السطح ستة آلاف درجة، أما في أعماقها، وفي نواتها فتصل إلى عشرين مليون درجة، ستة

آلاف على السطح، وعشرون مليون درجة في مركز الشمس، فلو ألقيت فيها الأرض لتبخرت في ثانية واحدة

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

ويقدر العلماء أن عمر الشمس لا يقل عن خمسة آلاف مليون عام، ويقدر العلماء ثانية أن الشمس لن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون عام، ما هذه الطاقة ؟ أين الإمداد ؟ من يمدها بهذه الحرارة ؟ الله جل في علاه:

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

3 ـ وَالْقَمَرَ

القمر: للتقويم، نعرف من خلاله عدد السنين والحساب، للتقويم، فكل إنسان ينظر للقمر ويقول: خمس عشرة ليلة، ثلاث عشرة ليلة، عشر ليال، الشهر الأول والثاني والثالث، له مهمة، وله دلالة، وله حكمة من خلقه، لذلك فالنبي الكريم صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الهِلالَ قَالَ:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[سنن أبي داود]

فنحن نستفيد منه، ويدلنا على الله عز وجل.

وظيفة الآيات الكونية:

بالمناسبة أي شيء خلقه الله عز وجل من دون استثناء، له وظيفتان خطيرتان، الوظيفة الأولى أن يدلك على الله، والوظيفة الثانية أن تنتفع منه، أهل الكفر والإعراض استفادوا من الوظيفة الثانية، سخروا كل ما في الأرض لمصالحهم، استنبطوا ثرواتها، ركبوا الهواء، غاصوا في البحار، الهدف الثاني تحقق، لكن أهل الإيمان استفادوا من الهدف الأول.

يجب أن نعلم أن كل شيء خلقه الله عز وجل خلقه من خلال هدفين.

الأول: أن يدلك على الله.

والثاني: أن تنتفع منه، لذلك يمكن أن نقول: إن الله جل في علاه سخر للإنسان السماوات والأرض، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، فالتعريف يقتضي الإيمان، والتكريم يقتضي الشكر، فإذا عرفت الله آمنت به، وشكرته، فقد حققت المراد من خلقه، عندئذٍ تتوقف كل أنواع المعالجات، والمضايقات، لهذا قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء: 147)

هذا كلام دقيق جداً، الكون سُخِّر للإنسان بنص القرآن:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة)

خلق خصيصى لكم، صمم من أجلكم، خلق موافقاً لحاجاتكم.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

فالكون مسخر لهدفين، يستنبطان من قول النبي الكريم:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

لهدف كبير، وهو أن تعرف الله عز وجل، ولهدف آخر، وهو أن تنتفع به في الدنيا، وهناك هدف علمي، وهدف مادي، هدف إيماني، وهدف نفعي، هدف أخروي، وهدف دنيوي، إذاً: الكون مسخر للإنسان، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، التعريف يقتضي من الإنسان أن يؤمن، والتكريم يقتضي من الإنسان أن يشكر، فإذا آمن بالله وشكره، فقد حقق المراد من خلقه في الدنيا، وإذا حقق المراد فقد حقق عبوديته.

وإليك مثلاً من باب التقريب، ولله المثل الأعلى، وفي القرآن ضرب أمثلة كثيرة: أب كل طموحه أن يكون ابنه طبيباً، إذا رأى الأب ابنه عاكفاً على دراسته، وقد حصل علامات عالية، وكانت أخلاقه رضية، وسمته حسناً، وعلاقاته طيبة، فأي أب يمد يده على ابن مثل هذا ؟ لا يوجد مبرر ! هذا معنى قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء: 147)

تتوقف كل أنواع المعالجات، لأن الهدف تحقق، أيضاً الإمام الشافعي رضي الله عنه استنبط من قوله تعالى في الآية السابقة أن الله لا يعذب أحبابه، فأنت عرفت الله وأحببته، أنت في مجال التكريم، قال تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

لو أن الله أقرهم على أنهم أحبابه لما عذبهم، إذاً: إن الله لا يعذب أحبابه، هذا معنى دقيق جداً.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

المصائب تختلف باختلاف الناس:

لكن بالمناسبة، ما كل مصيبة تصيب الإنسان هي تعذيب، بعض المصائب هي تكريم، هي امتحان، رفع درجات، إذا قلنا: إن المصائب مضايقات وشدائد يسوقها الله للإنسان كي يدفعه إلى باب العبودية، فهذا من قبيل أن الحديث عن العصاة، أما المؤمنون فلهم معاملة خاصة:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة)

أي يريد الله عز وجل أن يعرف المؤمن بإيمانه، فأنت يا عبدي مؤمن والدليل: سقت لك هذه الشدة، فلا غيرت، ولا بدلت، ولا تركت الصلاة، ولا ظننت بالله ظن السوء، أنت على ما أنت عليه.

فحينما يصاب المؤمن بخوف، أو بنقص من الأموال، والأنفس، والثمرات، هذه مصائب ترقية، ومصائب الكشف، ومصائب الدفع، لكن مصائب أهل الدنيا العصاة، فهي مصائب القصم، والردع، وقد بينت هذا في دروس سابقة، أجل هنالك مصيبة قصم، قال تعالى:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

(سورة هود)

حينما يبتعد الإنسان بعداً شديداً عن الدين، ويستحيل عليه العودة يُقصم، أمّا حينما يقع في مخالفة شديدة، وفي معصية بليغة، تصيبه مصيبة الردع، فلعل الله جل وعلا يردعه بهذه المصيبة، أما أهل الإيمان فمصائبهم مصائب دفع وتسريع، ومصائب رفع، ومصائب كشف.

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة فاطر)

3 - كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

قالوا: إذا تحركت نقطة رسمت خطاً، الخط إذا تحرك رسم سطحاً، السطح إذا تحرك رسم حجماً، الحجم إذا تحرك شكل زمناً، وفي أحدث نظرية وهي النسبية: قراراً أن الزمن هو البعد الرابع للأشياء، فهذه الشمس تتحرك، والقمر يتحرك، والأرض تتحرك، ونحن نتحرك، هناك نهاية لهذه الحركات، هذا معنى: مالك يوم الدين.

(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة فاطر)

الشمس والقمر، والأفلاك، ونحن نتحرك لأجلٍ مسمى، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، نقرأ النعي، ونحضر التعازي، ونلقي الكلمات، لكن لا بد من يوم تُقرأ نعوتنا، ويحضر الناس تعزيتنا، ويلقون كلمة في مناسبة موتنا،

كل ابـن أنثى وإن طالت سـلامته يـوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملـت إلى الـقبـور جنـازة فـاعـلم بأنك بعـدها محمول

***

هذا هو الزمن، الزمن هو حركة محدودة، تنتهي بنقطة الصفر، يقول لك: عدّ تنازلي، تسع، ثمان، سبع، ست، خمس، أربع، ثلاث، اثنان، واحد، صفر. انتهى، تفضل تشرّف معنا، هكذا الدنيا..

الـدنيا سـاعـة اجعلها طاعـة

والنفس طمـاعة عـودها القناعة

***

سبحان الله ! الزمن يمضي سريعاً، كل واحد منا له عمر، كيف مضت هذه السنوات الثلاثون ؟ يقول لك: والله كلمح البصر، كيف مضت الأربعون عاماً ؟ الخمسون عاماً ؟ العشرون عاماً ؟ وعلى هذا فقس، والإنسان يسأل نفسه سؤالاً محرجاً: هل بقي بقدر ما مضى ؟ أغلب الظن لمن تجاوز الأربعين لا، لأن معترك المنايا بين الستين والسبعين، فمن بلغ الأربعين أغلب الظن أن الذي بقي أقلّ مما مضى، هذا معنى:

(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

مرة ثانية: ليست مشكلة الإيمان أن تؤمن أو لا تؤمن، لا بد من أن تؤمن، ولكن بعد فوات الأوان، فالبطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان، البطولة أن تؤمن وأنت شاب، وأنت في ريعان الشباب، فَلَكَ قدرة أن تشكل حياتك وفق قواعد الإيمان، أن تختار عملك الذي يرضي الله عز وجل، فأنت تتعلم كي تستفيد من علمك في الحياة الدنيا، لا أن تتعلم بعد فوات الأوان، بعد أن مضت السنون، وبعد أن دفعت الثمن بالغاً، يا ليتني فعلت كذا، يا ليتني لزمت مجالس العلم، يا ليتني أديت الصلوات كلها، يا ليتني فعلت كذا وكذا، كلمة ليت هذه تجرح الفؤاد.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

(سورة المؤمنون)

اقرؤوا الآيات التي تتحدث عن ندم الإنسان حينما يلقى الله عز وجل، فليست القضية أن تؤمن أو أن لا تؤمن، فلا بد من أن تؤمن، فرعون آمن، ولكن حين لا ينفع الإيمان، وبعد فوات الأوان:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90)أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

البطولة أن تؤمن في وقت ينفعك فيه الإيمان.

الشيء الثاني: ما من واحد على وجه الأرض ينكر حادث الموت، ولكن البطولة أن تستعد له، الموت خارج حساب الناس، يحسب لكل شيء حساباً، كنت في مكان أنتظر، وسمعت ما يلي بأذني: قال رجل لصاحبه: بعد عشرين عاماً إذا حدث أي خلل في الأنابيب، فلن أكسر البلاط، ولكن أجري تمديداً خارجياً بدلاً من التمديد الداخلي، هذا شيء جيد، بعد عشرين عاماً، فكأنه ضمن أن يعيش عشرين عاماً أخرى، يحسب الإنسان حساباً لكل شيء، إلا مغادرة الدنيا، يصعق حينما يأتي ملك الموت، فالمؤمن يستعد لها قبل أن تأتي، يستعد لها بالإيمان، يستعد لها بالاستقامة، يستعد لها بالعمل الصالح، يستعد لها بطلب العلم، يستعد لها بإنفاق الأموال، يستعد لها ببذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، حتى يشعر أنه في رضوان الله.

أيها الإخوة الأكارم، كلمة أقولها لكم: والله الذي لا إله إلا هو، ما من شعور يسعد الإنسان في الدنيا أعظم من أن تشعر بأن الله راضٍ عنك:

فليتك تحلو والحياة مريرة ولـيتك تـرضى والأنام غضاب

و لـيت الذي بيني وبينك عـامرٌ وبيـني وبين العـالمين خـراب

ولـيت شـرابي من ودادك سائغٌ و شـربي من ماء الفرات سراب

إذا صح منك الوصل فالـكل هينٌ وكـل الذي فوق التراب تـراب

***

المؤمن رباني، معنى رباني: أي أن علاقته مع الله حسنة، علاقة ود، علاقة حب، علاقة شوق، علاقة طاعة، علاقة عبودية، علاقة خضوع، علاقة انسياق لأمره، وقاف عند كلام الله.

إذاً: كلٌ يجري لأجلٍ مسمى، هذا الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً، هذا الذي جعل البحرين، هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، هذا الذي خلق السمك لتأكل منه لحماً طرياً، هذا الذي خلق اللؤلؤ والمرجان، ليكون زينة لزوجتك، هذا الذي أولج الليل في النهار بلطف شديد، وأولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر، كلٌ يجري لأجلٍ مسمى، هل عرفته ؟ جاء الجواب:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

(سورة فاطر)

1 ـ الله خالق الكون بكلّ ما فيه:

من هو الله ؟ الذي فعل كل هذا، الذي خلق الكون، الذي خلق السماوات، خلق المجرات، خلق الكازارات، خلق المذنبات، بين مجرتين ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، كلام ثابت.

والله مرة في سهرة من السهرات أجريت حسابات لأعرف ماذا يعني أقرب نجم ملتهب من الأرض، أحياناً الأرقام لا تعني شيئاً، يقول لك: عشرة قوة عشرين، هذه الأرقام لا تعني شيئاً، فأردت أن أوضح لإخواني أن هذا القرب نجم بعده عنا أربع سنوات ضوئية، شيء جميل، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر، وعلى الآلة الحاسبة، ثلاثمائة ألف ضرب ستين دقيقة ضرب ستين للساعة ضرب أربع وعشرون في اليوم ضرب ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة ضرب أربع سنوات ضوئية فالناتج رقم فلكي، كبير جداً، سنركب مركبة سرعتها مائة في الساعة، نقسمها على مائة، نتج كم يقطع في الساعة، حسناً كم ساعة إلى أن نصل ؟ تقسيم أربع وعشرين عدد الأيام، تقسيم ثلاثمائة وخمسة وستين عدد السنين، نتج معنا أن هذا النجم أقرب نجم إلى الأرض من أجل أن نصل إليه نحتاج إلى ثلاثة وأربعين مليون سنة، يجب أن تركب مركبة، وأن تقودها ولن تستطيع الوصول، ثلاثة وأربعون مليون سنة كي تصل إلى أقرب نجم ملتهب، أربع سنوات ضوئية، فكم تحتاج كي تصل إلى نجم القطب ؟ أربعة آلاف عام، أقرب نجم مسيرة أربع سنوات، القطب أربعة آلاف قفزة واحدة، المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، أحدث مجرة ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

(سورة فاطر)

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

لو تعلمون.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

2 ـ الله الخالق هو المستحق للعبادة:

هذا الذي تعصيه هذه هي أفعاله، ألا يستحق هذا الإله العظيم أن تطيعه ؟ أن تعبده أن تعظم أمره ؟ أن تدعو إليه ؟

الصراحة أن الإنسان حينما يضع كل إمكاناته في خدمة إنسان من جنسه فقد بخس نفسه، حينما يحب الإنسان غير الله فقد احتقر ذاته، أنا لا أعتقد أن هناك في الأرض رجلين أحبا بعضهما بعضاً كما أحب الصديقُ النبيّ عليه الصلاة والسلام، فداه بروحه، فداك أبي وأمي يا رسول الله، أعطاه كل ماله، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن مسعود يُحَدِّثُ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً...))

[صحيح مسلم]

معنى هذا أن الإنسان لا يجوز أن يحب غير الله، ولا أن يعطي شبابه لغير الله، ولا أن يعطي حياته لغير الله، ولا أن يعطي قلبه لغير الله، ولا أن يعطي ولاءه لغير الله، هذا الذي يوالي إنساناً، الإنسان فانٍ، في أحسن الدرجات ماذا يفعل معك هذا الإنسان لو جاءك شيء لا يقوى أن يرده عنك ؟ إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله، يعني أن الإنسان حينما يتجه لغير الله، وحينما يوالي غير الله، وحينما ينفق شبابه لغير الله، وحينما يفني عمره لغير الله، وحينما يعطي ماله لغير الله، وحينما يوالي غير الله، فقد احتقر نفسه، لذلك من عرف نفسه، عرف ربه، ويمكن أن تقول: من عرف ربه عرف نفسه..

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

3 ـ لَهُ الْمُلْكُ

مطلق الملك، اليوم قلت على المنبر: في الأنف عشرون مليون خلية عصبية للشم، عشرون مليون متمركزة في القرن العلوي من الأنف، بمساحة مائتين وخمسين مليمترا مربعا، هذه الخلايا الشمية كل خلية لها سبعة أهداب، على كل هدب يوجد مادة دهنية، فيها مادة مذيبة، مادة دهنية مع مادة مذيبة، فإذا لامستها رائحة تفاعلت معها تفاعلاً كيماوياً، هذا التفاعل شكل شكلاً، فقال العلماء: رائحة الأزهار كشكل المفتاح، رائحة بعض المواد الكيماوية كحوض السباحة، هذا الشكل يرسل إشارة للدماغ، وفي الدماغ عشرة آلاف رائحة، مركز الشم في الدماغ يميز بين عشرة آلاف رائحة، ويتم التمييز بالآلية التالية: هذه الرائحة تعرض على كل الروائح، في الذاكرة الشمية تمر عشرة آلاف ذاكرة، فإذا وافقت إحداها تقول: هذه ياسمين مثلاً، هذه فل، هذه مثلاً رائحة زنبق، هكذا التعريف، وفي الطعام كمون، شيء معجز، وهذه الأهداب تستطيع أن تستشعر روائح ذات تركيز يكاد يكون صفراً، فقالوا: نصف بالمليون من الميليغرام بالسنتمتر المكعب خلايا الشم تلتقطه، الميليغرام يساوي واحد بالمليون من الغرام، أي جزء من مليون المليون، من ألف بليون جزء سم مكعب خلايا الشم تتذوقه، أنت أحياناً لا تنتبه، أنت تحتاط بالبصر، ركبت مركبة، وجدت الجهاز فيه خلل، العدادات، هذه بالبصر، أحياناً تسمع

صوتاً، الصوت أوسع، أحياناً تشم رائحة، فأنت مرة تتقي الخطر بالرؤية، ومرة بالصوت، ومرة بالرائحة، تشعر بالخطر، أحياناً تسمع صوت وحركة فتقف ! أحياناً تشم رائحة كريهة فإذا بها فأرة ميتة، ليس لها أي صوت ولا صورة، وهي تحت السرير، ما الذي يشعرك أن هناك كائن متفسخ ؟ الرائحة، فربنا جل وعلا كامل.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

في أحسن تقويم.

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار)

هي الرائحة، ما دامت حاسة الشم تميز بين عشرة آلاف رائحة، والروائح الأساسية سبعٌ، مثل حروف اللغة، يمكنك أن تؤلف مليون كتاب من ثمانية وعشرين حرفاً، فالروائح الأساسية سبعة، وهناك من الروائح ما لا يعد ولا يحصى:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ)

حاسة الشم، حاسة البصر، السمع، أنت فلان على الهاتف، لقد عرفتك، معنى هذا أن لديك ذاكرة سمعية للأصوات، الدماغ، مركز التوازن، مركز البلع، البلعوم، هذا شرطي المرور الذي يعمل ثمانين عاماً بلا كلل ولا ملل، يفتح تارة طريق القصبة الهوائية، وتارة طريق المريء إنه المزمار..

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ)

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ

1 ـ الأصنام بأنواعها لا تضر ولا تنفع:

هذه الأصنام، وهي كل يدعون من دون الله، إما الأصنام التي كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، أو أيّ إنسان، فعندما يضع الشخص كل ثقته بإنسان، ويظنه قادرا على أن يفعل كل شيء، فهذا نوع من الشرك:

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

2 ـ القطمير:

القطمير غشاء رقيق يغلف النواة، نواة التمر، فيها القطمير والنقير والثالثة الفتيل، طبعاً هذا المثل من بيئة العرب، التمر شيء شائع عندهم، فالنواة لها نقير، أحد طرفيها له رأس مؤنث، ولها فتيل بين فلقتيها، ولها قطمير غشاء رقيق يغلفها، فهؤلاء الشركاء ما يملكون من قطمير.

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ

هذا الصنم أو الحجر ليس لديه قدرة سمعية، لا يسمع، أما الإنسان فله قدرة على التعرف، له سمع، له بصر، له إدراك وعقل، وأشياء كثيرة، هؤلاء الأصنام إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو كانوا من بني البشر، أصناماً ولو سمعوا ما استجابوا لكم، فلو أن إنساناً أصيب بمرض عضال، وله صديق، قوي في الحياة، ويده طولى، قال له: أرجوك، يقول له: ليس بيدي، وأحياناً الإنسان يتوهم أن المال يحل كل شيء، فمن توهم أن المال يحل كل شيء، هذا يؤدّب بطريقة أو بمشكلة لا يحلها المال أبداً.

المال لا يحل كل المشاكل والمصائب:

أنا مرة كنت عند طبيب، فجاءه هاتف: أيها الطبيب، أعطنا إشارة لأيّ مكان في العالم نأخذه، أيّ مبلغ ندفعه، قال له: والله ليس هناك أمل، الورم من الدرجة الخامسة، وهو مستعصٍ على الشفاء، شعرت أنا من خلال الهاتف أن ذوي المريض مستعدون أن ينفقوا عليه أكبر مبلغ، فهناك حالات لا يكون للمال قيمة فيها، لا يحل مشكلة أبداً، فكل من يعتقد أن المال يحل مشكلة يؤدب بمشكلة لا يحلها المال أبداً.
دققوا في هذه الناحية أيها الإخوة، أحياناً الإنسان إن اغتنى يقول لك: الدراهم مراهم، كل إنسان دعه يفعل ما يشاء بالمال، هذا الإنسان يؤدب بطريقة معينة، له تأديب خاص، الله يسوق له مشكلة لا قيمة للمال في حلها أبداً، إلا أن يقول: يا الله، فالإنسان المؤمن يقول: يا الله، دائماً، إن كان غنياً أو كان فقيراً، لذلك فالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام كان يستعيذ بالله مما يهتم له، ومما لا يهتم له، وأحياناً شيء بسيط جداً يعكر صفاءك، شيء بسيط جداً يعكر مشروعك، عقبة تافهة جداً تحول بينك وبين هدفك، فالإنسان يجب أن يستعيذ بالله، لا من شيء عظيم فقط، بل من شيء حقير أيضاً، إني أعوذ بك مما أهتم له، ومما لا أهتم له، والدعاء الشهير: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.

إذا عسّر الله عز وجل الأمر فتجده كله معقدًا، وإذا سهّله فشيء لا يصدق، لهذا الكلمة الشهيرة: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ تتبع المشكلات من بيته، من زوجته، من أولاده، من عمله، من شريكه، من سيارته، من تجارته، أينما تحرك تواجهه مشكلات، فالإنسان يجب أن يشعر أن الله راضٍ عنه أو غير راضٍ، من معاملة الله له.

أحياناً يكون هناك خلل فتبرز هناك مشكلة، الإنسان يفهم على الله عز وجل، وإذا بدأ يفهم على الله عز وجل، واستقام انحلت عقدته، هذه من أجل ذلك، هذه يا عبدي من أجل ذلك، من هذا الموقف، من هذه النظرة، من هذه الكلمة، من هذا الدفع، من هذا المنع.

حكى لنا أخ من إخواننا عنده محل تجاري، مبيعه بالجملة، دخل إليه أحدهم، وقال له: نريد قطعة أو اثنتين بالمفرق، اعتبرها إهانة له، قال له: أنا أبيع بالجملة، ولا أبيع بالمفرق، يقسم لي بالله أنه خلال ستةٍ وعشرين يوماً ما دخل إلى محله إنسان، قال لي: لقد جفّت دمائي في العروق، هذا تأديب إلهي، أنت تكبرت عن بيع قطعتين، فربنا عز وجل له ترتيب، فإذا دخل الإنسان في المعالجة فليفرح، إذا شعر أن الله يحاسبه، يتتبعه، يسوق له مشكلة لكل قضية، معنى هذا أنه ضمن العناية المشددة، معنى هذا أنه مطلوب، أما إن كان المريض لا أمل منه فيقول الطبيب لذويه: أطعموه ما يشاء، مهما طلب أطعموه، يكون مرضه خطيراً ومستفحل، فالطبيب لا يعطيه حمية شديدة، ولا يضغط على المريض، وينبهه من خطورة الملح، إلا إن كان هناك أمل في الشفاء، طالما هناك أمل فهناك ضغط، إن لم يكن الأمل فلن يكون الضغط، فإذا شعر الإنسان أن الله عز وجل يحاسبه حساباً دقيقاً، أي يعاتبه أحياناً، يحجبه أحياناً، يسوق له بعض الشدة أحياناً، فمعنى ذلك أنّه ضمن العناية المشددة، فليفرح، ومعنى ذلك أنه مطلوب، معنى ذلك أنه ليس ميؤوساً منه، هناك أمل، داخل بالزمرة التي يمكن أن تنجو، ليس من الناجين، بل يمكن أن تنجو..

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)

1 - يجب أن تدعو السميع المُجيبَ:

إذاً: يجب أن نعبد مَن إذا دعوناه سمعنا، قد تدعوه ليلاً، ونهاراً، صبحاً ومساءً، في سفر، في حضر، على سرير، في مستشفى، في بيتك، في مركبتك، في مكان موحش، في مكان آهل، الإله يجب عليك أن تدعوه في أي وقت وهو يسمع، أما إن كان لك صديق وأعطاك أرقام هواتفٍ لديه، وقال لك: في أي لحظة تخبرني. فأنت قد تكون في مكان لا هاتف فيه، وقد يكون لدينا هاتف ولكن هاتفه معطل، دعه يأتي الآن ليخلصك من الأزمة التي وقعت بها، تحدث كثيراً، يكون واثقاً لأن معه ثمانية أرقام هواتف،

كلهم شخصيات مهمة، ربنا كيف يؤدب هذا الإنسان ؟ بأن يعطل له هاتفه، أز يعطل هواتف الآخرين، تجده أسقط في يده، عاملوه معاملة في منتهى القسوة، ولو اتصل الشخص المطلوب لرفعوه لأعلى عليين، ولكن ربنا عز وجل يؤدب من اعتمد على غيره بهذه الطريقة، فلذلك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أوحى الله إلى داود: يا داود، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات بمن فيها، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه، وأسخت الهواء من تحت قدميه))

[الدر المنثور في التفسير بالمأمور للإمام السيوطي]

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)

يجب أن تعبد من يسمعك، وأبلغ من ذلك يجب أن تعبد من إذا دعوته في سرك استجاب لك، أحياناً الإنسان في موقف صعب يقول: يا رب، وهو مع أناس منكرين معرضين، لكني أقول لكم: والله من الممكن أن تدعو الله وأنت ساكت، في سرك، يا رب، ليس لي إلا أنت، وأنت ساكت، وهذا الفم مطبق، وتشعر أنه سمعك واستجاب لك، والدليل:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

(سورة مريم)

أي خفي عمّن حوله، فما قولك بإله عظيم، وأنت ساكت تقول له: يا رب ليس لي إلا أنت ؟ يا رب أنقذني، يا رب يسر لي هذا الأمر، يا رب لين قلوب الآخرين، يا رب هيئ لي أسباب الفرج، وأنت ساكت، وهذا الفم مطبق، واللسان صامت، والله يسمعك ويستجيب لك.

2 ـ العبد لا تجده في الخدمة دائما:

بينما الآخرون تدعوهم وترجوهم، وتتوسل إليهم، يعتذرون بلباقة، يقول لك أحدهم: ما عندي نقد، وآخر يقول: القضية ليست بيدي أتمنى أن أخدمك، على عيني ورأسي، ولكنني لا أستطيع، تشعر أنه انسحب من خدمتك بانتظام، فحينما تعلق الآمال على غير الله يأتيك الرد القاسي، يأتيك التخلي، يأتيك بأن يسلموك، وسبحان الله كل من اعتمد على غير الله، وبالغ في الاتكال عليهم فلابد من أن يؤدب، بمشكلة يظهر له تخليهم عنه، رحمة به، وتقريباً إليه، فهؤلاء يا عبدي لا ينفعونك، لذلك ففي أول ليلة يوضع فيها الميت في القبر يقول الله عز وجل: عبدي رجعوا وتركوك، رجعوا ليأكلوا على روحك وتركوك، وفي التراب دفنوك.

مرة فتحوا قبراً فوجدوا مياه الصرف الصحي محولة عليه، سألوا ابن المتوفى فقال لهم: ضعوه فماذا سنفعل ؟ فانتقل من منزل أربعمائة متر، فيه أثاث بمئات الملايين، إلى قبر في باب الصغير مفتوحةٌ عليه مياه الصرف الصحي، وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

فالبطولة أن تعرفه وأنت حي، أن تعرفه وأنت شاب، أن تعرف حقوقه عليك، وحقك إني لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)

وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ

كلُّ مَن تعتمد عليه من دون الله يتبرأ منك يوم القيامة:

يوم القيامة يقول لك ذاك الذي عبدته من دون الله: أنت اعتمدت علي من دون الله، أنت أحمق -لا سمح الله - أي أن هذا الذي اعتمدت عليه يتخلى عنك، ويتهمك..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم)

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

فمن الذي يجب أن تستمع إليه ؟ هو الخبير، من الذي خبرته قديمة ؟ هو الله عز وجل، هو الخبير، أحياناً أنا أترنم بكلمة تعليمات الصانع.

1 ـ يجب اتباع تعليمات الصانع:

نحن عرفنا أنه إن كان عندك آلة معقدة غالية، تخاف أن تصاب بالخلل، أو بالعطب، لأن منها الأرباح الجيدة، هناك بعض أصحاب المعامل إن تعطلت عندهم آلة يصلحها الساعة الثانية ليلاً، يقول لك:

وردية الليل مدفوع ثمنها، فعندما تكون الآلة غالية يكون كتاب الصيانة الخاص بها ترتيبه بعدها، وهذه هي تعليمات الصانع، فإن كنت أنت غالٍ على نفسك فأغلى شيء عليك يجب أن يكون القرآن الكريم، لأن هذا القرآن تعليمات الصانع، فمن أحب ذاته، من كان مفرطاً في الأنانية، عليه أن يتبع تعليمات الصانع، أي علامة حرصك على سلامتك، وعلى سعادتك اتباع تعليمات الصانع، فأحياناً لا تروق لي كلمة إلا أن أقول: تعليمات الصانع، لماذا تغض بصرك عن محارم الله ؟ لأن هذه تعليمات الصانع، لماذا لا تصافح النساء ؟ إنها تعليمات الصانع، لماذا لا تفعل كذا ؟ هكذا وجهني ربي عز وجل، فالإنسان السعيد يسير على منهج:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

أحياناً خبرات البشر يثبت أنها سيئة جداً، أو أنها مشحونة بالخلل، ماذا يقول لك الإنسان ؟ هكذا توقعت، ولكني أخطأت يا أخي، أما ربنا عز وجل فلا يمكن أن يقع خلل في كلامه، معنى قوله تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)

(سورة البقرة)

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت)

لذلك فهل عرفتم مقام الربوبية ؟

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(11) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ)

(سورة فاطر)

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

(سورة فاطر)

هل عرفتم من هو الله ؟

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ)

حسناً ومن أنتم ؟ قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

(سورة فاطر)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ

أنت مفتقر إلى كل خلية أن تعمل بانتظام، وإلا لو حصل نمو عشوائي لانقلبت حياة الإنسان جحيماً، لو توقفت كلية عن العمل انقلبت حياة الإنسان جحيماً، لو حصل خلل في الدسام، أو في الشرايين، أو في الأوردة، أو في القلب، أو في الأجواف، أو في الأعصاب، أو في البنكرياس، البنكرياس أصابه مرض السكر، بالصفراء أصبح هناك مرارة وفيها حصيات، فأنت مفتقر إلى الله عز وجل، في أية لحظة ينقطع عنك إمداد الله عز وجل فهناك مشكلة كبيرة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

إذاً يجب أن تتحقق من ربوبية ربك، ومن افتقارك إليه، من عبوديتك..

فأنتم هم الحق لا غيركم فيا ليت شعري أنا من أنا

يجب أن تعرف من أنت ؟ أنت لا شيء، أنت شيء بقدرة الله، شيء بتوفيق الله، شيء بلطف الله، شيء بإمداد الله، فإذا تخلى الله عنك فأنت لا شيء.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

1 ـ الله هو الغني، والعبد مفتقر إلى الله الغني:

أنت الفقير وهو الغني، أنت الضعيف وهو القوي، أنت الطارئ والحادث، وهو الباقي على الدوام، أنت الجاهل وهو العالم، حالة المؤمن هكذا.

مرة سمعت مثلاً أعجبني: أنت سمكة مملوءة ذهباً، فإذا قلت: أنا ذهب، لا، الذهب ليس منك، الذهب وضع فيك، إذا عرفت من أنت فأنت ذهب، فإذا قلت: أنا ذهب، فأنت لست بذهب.

أحياناً يضربون الأمثلة مثل المزاب، وهو ممر للماء من أسطحة المنازل، فإذا قال المزاب: انظروا إلى عطائي، أنت لا عطاء لك، أنت ممر للعطاء، فالإنسان إذا عرف قدره عرف ربه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

لذلك فالنبي الكريم كان يدعو قبل أن يفعل شيئاً:

اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين.

أنت طبيب، أو محامٍ، أو مهندس، أو تاجر، لا يوجد ذكي مع الله إطلاقاً، أحياناً يريك التاجر أن هذه الصفقة هي صفقة العمر، وبسببها يفلِّس الإنسان، إذ تكون خسارتها فادحة، لأنه ما اعتمد على الله تعالى، وأحياناً الطبيب إن اعتمد على علمه، أو ولم يعتمد على ربه يكون تشخيصه خاطئاً، يسوق الله له كل من سيموت، تجد على يده حالات موت كثيرة جداً، فإذا اتكل على الله عز وجل ساق له من أراد أن يشفيهم، فيقال: والله استفدنا، فالقضية قضية أن تعرف من أنت، أنت لا شيء، لذلك إذا سجد الإنسان يجب أن يتذلل، اللهم إني لا أعرف شيئاً، أنا لا أعلم وأنت تعلم.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النور)

ففي كل مهنة دلائل على عظمة الله عز وجل، التاجر يقول: يا رب تجبر عني، البضاعة جميلة **!** لا بالجميل الذي يباع وتنفق سوقه، فقد لا تباع هذه البضاعة، وتتراكم في المستودع حتى تصبح هماً على قلب صاحبها، لذلك ربنا لما تكلم عن التجارة قال:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

(سورة التوبة: 24)

2 - الافتقار إلى الله يجلب التوفيق:

الكساد شيء صعب جداً، بضاعة في المستودع لا تباع ولا تشترى، رأسمال مجمد، فالإنسان إن كان تاجراً أو طبيباً أو محامياً، أو كان مهندساً فبلطف الله، فكلما افتقر إلى الله وفقه الله، وكلما اعتز بفهمه وخبراته وقدراته تخلى الله عنه، هي عملية واضحة جداً، إن اتكلت على الله كفاك، وإن اتكلت على نفسك أوكلك الله لها، هذه هي القصة كلها، في حقل التجارة والصناعة، والزراعة، أحياناً يأتي صقيع فيحرق الموسم الزراعي، فكل ذكائك وكل خبرتك، لا تفيد شيئاً مع الصقيع..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

في الطب، في الهندسة، في التدريس، في المحاماة، في أي مصلحة، في أي مهنة، قل قبل أن تفعل شيئاً: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، حتى في الزواج، أريدها كذا وكذا، الحسب والنسب، ثم يقع على رأسه شك في النهاية، بعد كل هذه الشروط الصعبة تجدها من أسوأ الزوجات، وتجد حياته جحيما، فدائماً الأمور بحاجة إلى توفيق، بالتوفيق والتوكل والسعي يتم النجاح والفلاح..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(15)إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

فلا يتدلل أحدنا، ولا تتشوّف نفسه، فهي أمارة بالسوء.

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات: 17)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

إن الإنسان هذا المخلوق الأول المكرم إن استقام وُفِّق، أما إن لم يستقم فلا قيمة له عند الله، إذا هان أمر الله عليك هنت على الله، كما ترون، إذا هان أمر الله على الناس هانوا على الله، فتصير أمورهم بأيدي أعدائهم.

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(16)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

الإنسان يجب أن يتواضع لله، يجب أن يتذلل، يجب أن يعد أن وجوده نعمة عظمى من الله عز وجل، نعمة الوجود ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، هذه النعم عظمى، ويجب أن تعلم أنك إذا أطعت الله عز وجل فإنك تنفع نفسك:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

الخير كله عائد إليك، كما لو أن إنساناً اشترى صندوقاً، ووضع فيه المال، ومعه مفتاحه، يقول: دفعت اليوم كذا، وأدخلت للصندوق كذا، والصندوق مفتاحه معك، وهذا المال لك، فالأمور كلها تعود إليك.

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ(17)وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (07-10): تفسير الآيات 16 - 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-05-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السابع من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(15)إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(16)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

(سورة فاطر)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

1 ـ الافتقار إلى الله من مقامات العبودية:

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى بعد أن بيّن أنه هو الذي خلقنا من تراب، ثم من نطفة، ثم جعلنا أزواجاً، وهو الذي جعل البحرين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وهو الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل، الذي فعل هذا كله هو الله جل في علاه، أما أنتم أيها العباد فأنتم فقراء، والافتقار إلى الله مقام عليّ جداً، هو مقام العبودية، حينما تتأكد من أنك لا شيء، وأن الله كل شيء، حينما ترى ضعفك، وجهلك، وافتقارك إلى الله عز وجل فقد تحققت من مقام العبودية.

إن الإنسان ـ كما قلت لكم في الدرس السابق ـ كلما ازداد افتقاراً إلى الله أمده الله، إن افتقر في العلم أمده الله بالعلم، إن افتقر في القوة أمده الله بالقوة، وما يقع الإنسان في مشكلة في الأعم الأغلب إلا لأنه اتكل على نفسه، لأنه من اتكل على الله كفاه الله كل مؤونة، ومن اتكل على نفسه أوكله الله إليها، وربما كانت هذه الحقيقة حقيقة أساسية جداً في الدين، لأن الإنسان بين أن يعتد بنفسه، وبين أن يفتقر إلى الله عز وجل، وقد مر بكم في التاريخ الإسلامي أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، حينما افتقروا إلى الله في بدر نصرهم، نصراً عزيزاً مؤزراً، وحينما قالوا في أنفسهم: لم نغلب من قلة، خذلهم الله عز وجل:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبة)

وهذه القصة بشقيها، حينما افتقروا في بدر نصرهم الله نصراً عزيزاً مؤزراً، وحينما اعتدوا بقوتهم في حنين تخلى الله عنهم، وأوكلهم إلى أنفسهم، وولوا مدبرين، هاتان الحادثتان الأولى والثانية درس لنا على مدار الدوران.

أيها المؤمن إن افتقرت إلى الله فقد أويت إلى الحصن الحصين، إن افتقرت إلى الله أمدك الله بالعلم، أمدك بالقوة، أمدك بالحكمة، أمدك بالصبر، أمدك بالتماسك، أمدك بالجلد، وإن قلت: أنا لي خبرة كما قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص)

فكان الله عليه حاسماً..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص)

لذلك حينما قالوا: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ونهاية العلم التوحيد، ألاّ ترى مع الله أحداً، أن تعرف من أنت، أنت لا شيء، لكنك بالله كل شيء، أنت لا تعلم، لكنك إذا افتقرت إلى العليم صرت أعلم العلماء، أنت ضعيف، وبالله قوي، أنت فقير، وبالله غني، فهذا الموضوع تم شرح بعضه في الدرس الماضي، وتم شرحه تفصيلاً في درس جامع العثمان في مقام الافتقار إلى الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

2 ـ الاستغناء والتوكل على النفس مآله الفشل والإخفاق:

كل إنسان له مهنة، له حرفة، له اختصاص، عنده ملكات، عنده قدرات، فحينما يتوجه إلى ذاته، ويعتمد عليها، ويتكل عليها، يتخلى الله عنه، ويكله إلى نفسه، ويقع في شر عمله، ويعرف حقيقته الضعيفة، وحينما يعتمد على ربه، ويتوكل عليه، يمده بقوة منه، وبعلم، وبحكمة، وبثبات، وبجلد، وبتماسك، فإذا أردت كل شيء فافتقر إلى الله في كل شيء، وإذا أردت الإخفاق، إذا أردت أن تفاجأ في وقت عصيب جداً أنك ضعيف، بعد أن ظننت أنك قوي فاعتمد على نفسك.

3 ـ الإنسانُ بَيْنَ اتخاذ الأسباب وتأليهها:

مرة ثانية: خط دقيق جداً بين الشرك والمعصية، ألاّ تأخذ بالأسباب فهذه معصية، وأن تأخذ بها وتعتمد عليها فهذا شرك، لكن الإيمان أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد على رب الأرباب، لأنه أنْ تبقى في منطقة ضيقة جداً، وفي خط رفيع فهذه بطولة، أما أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها هذا منزلق خطير، يقع

به معظم الناس، يقول لك من خلال كلامه: أنا متمكن، أعددت لكل شيء عدته، أنا أملك خبرة طويلة في هذا المجال، هذه كلها كلمات خلاصتها: الاعتداد بالنفس.

وقد يفاجأ الخبير بموقف خطير، وحينما يطمئن الإنسان من جهة يأتيه الله من جهة طمأنينته، هذا تحدثت عنه في الدرس الماضي بفضل الله عز وجل، لكن أريد أن أؤكد أن كل إنسان إن افتقر إلى الله في حرفته أمده الله، كذلك في زواجه إذا استعان بالله ألهمه الله البحث عن زوجة صالحة، وإن كانت عنده زوجة ليست كما يريد أصلحها الله له، العبرة أن تكون مع الله، أن تكون شديد الصلة بالله، أن تكون حسن الصلة بالله، العبرة أن تكون ربانياً، حتى تشعر أن الله عز وجل يمدك بكل شيء، الله عز وجل مع المؤمن المفتقر، ويتخلى عن المعتد بنفسه، والمستغني عن الله، كلكم يعلم قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

حينما يرى الإنسان نفسه قوياً ربما طغى، حينما يرى نفسه غنياً ربما طغى، الطغيان يتأتى من الاعتداد بالنفس، وليس من السهل أن تفتقر إلى الله، هذا يحتاج إلى جهد كبير، مرتبة الافتقار مرتبة علية جداً، هي مرتبة العبودية، مرتبة أن تعرف من أنت، أنت لا شيء، لكنك بالله كل شيء، أنت ضعيف، لكنك بالله قوي، أنت فقير لكنك بالله غني، الإنسان أخرق، لكنه بالله حكيم، إذا أردت الحكمة، وسداد الرأي، صواب القول، وثبات الجنان، والتوازن، إذا أردت العلم، والقوة، والصبر فافتقر إلى الله. الآن

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

4 ـ الله وحده هو الغني الحميد:

هو وحده الغني، هو تفيد القصر، هو وحده الغني، أنتم لستم أغنياء، لكن الله عز وجل، غني حميد، مع أنه غني لا يعامل عباده إلا معاملة يحمدونه عليها، هذا معنى غني حميد، الإنسان إذا اغتنى، ترفع، وتعالى، وتكبر، يتذلل إذا كان بحاجة إلى الخلق، فإذا استغنى عنهم يستعلي عليهم، هذا شأن الإنسان، لكن شأن الواحد الديان، أن الله عز وجل مع أنه غني يريد من عباده أن يقبلوا عليه، يطلبهم، مع أنه غني عنهم.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ...))

[صحيح مسلم]

أتمنى على كل أخ كريم لو أنه كان طبيباً مثلاً، قبل أن يضع يده على هذا المريض يقول له: يا رب، إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين، فإنه يرى كيف أن الله يلهمه التشخيص الصحيح، وكيف أن الله عز وجل يجري الخير على يديه، ولو أن القاضي قبل أن يدقق في قضية استعان بالله، لو أن المدرس قبل أن يلقي درساً استعان بالله، لو أن التاجر قبل أن يعقد صفقة استعان بالله، لو أن المهندس قبل أن يرسم مخططاً استعان بالله، لو أن أي إنسان واجهته مشكلة واستعان بالله، لرأى أن الله عز وجل يمده بالحل المناسب، وبالرأي الصائب، وبالموقف الحكيم، وما الحمق والخطأ إلا حالة بعد عن الله عز وجل، فالإنسان كلما استعان بالله عز وجل أعانه، وإذا استنصره نصره، الحديث القدسي عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ...))

[صحيح مسلم]

لكن الإنسان حتى لا يتوهم، بل ليعلم أنه مطلوب، والكون كله مسخر للإنسان، أجل هو مطلوب، كأن الله يريد منه أن يؤمن لئلا يظن أنه بحجم أكبر من حجمه لئلا يظن بأن الله عز وجل بحاجة إليه، قال:

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

(سورة فاطر)

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الحجرات)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

1 - إيّاك أن تمنّ على الله في شيء، فإن الله لا ينتفع بشيء منك:

أي يجب أن تشعر أنك مطلوب من قبل الله عز وجل، وأن الله يحب أن تهتدي، وأن الله حريص على سعادتك، وأن الله خلقك ليسعدك، لكن في الوقت نفسه يجب ألا تشعر أنك إذا اهتديت نفعت الله عزوجل.

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

هذا الشعور أحياناً ينتاب من أجرى الله على أيديهم الخير، يظنون أنهم أشخاص مهمون، وأنهم أحد أركان الدعوة إلى الله، الله عز وجل يستغني عن أي إنسان، إياك أن تمّن بعملك على الله عز وجل، إياك أن ترى عملك، فربما كان عملك الصالح حجاباً بينك وبين الله، ربما كان عملك الصالح إذا أجرى الله على يديك الخير، وشعرت أنك إنسان مهم جداً هذه بداية الانزلاق، هذه بداية بأنك تستغني عن الله عز وجل، فاحذر، فكلما ازددت معرفة بالله ازددت معرفة بضعفك، وفقرك، وحاجتك إليه، وكلما شعرت بهذا الافتقار فأنت في المكان الصحيح، أنت في مقام العبودية، ومقام العبودية هو المقام الأمثل للمؤمن:

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

يجب ألاّ يشعر أي إنسان أنه مهم جداً، وأن الحياة متوقفة عليه، العوام تقول: النبي مات والأمة من بعده دبّرها الله، فهذا الشعور بالافتقار شعور صحيح، أما الشعور بالأهمية والخطورة شعور مَرَضي، فينبغي أن تبقى مفتقراً إلى الله عز وجل.

2 ـ أكثر الناس افتقارا إلى الله أكثرُهم عبودية له:

بالمناسبة قلت لكم في درس سابق: ما من مخلوق على وجه الأرض أكثر افتقاراً إلى الله، وتواضعاً لله، وانصياعاً لأمر الله، واتكالاً على الله من رسول الله، وبالمقابل ما من مخلوق أعزه الله، ورفع ذكره، ورفع شأنه، كرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه عملية فيها مفارقة عجيبة: كلما ازددت تواضعاً ازددت عند الله رفعة، كلما ازددت افتقاراً ازددت غنىً، كلما ازددت ضعفاً أمام الله عز وجل ازددت قوة عند الناس، لكن أهل الدنيا إذا استعلوا على من دونهم، وتذللوا لمن فوقهم، قد يستعلون ويتغطرسون على من دونهم، لكنك لو تراهم أمام من هم أعلى منهم، رأيتهم أذل من الشاة، لكن المؤمن يمرغ رأسه على أعتاب الله عز وجل، يتذلل إلى الله، يفتقر إليه، فالله يرفع شأنه بين الناس، ويعلي قدره، ويرفع ذكره، مفارقة دقيقة، العلاقة ليست طردية بل عكسية، كلما ازددت افتقاراً زادك الله علواً، كلما ازددت تواضعاً زادك الله عزاً، كلما تخليت عن صفات الربوبية، وتحققت بصفات العبودية، رفع الله لك ذكرك، وأوطأ عقبك، وكلما قلت أنا وأنا هويت.

3 ـ أربع كلمات مهلكات:

كلكم يعلم أن هناك أربع كلمات مهلكات: أنا ولي وعندي ونحن:

(نَحْنُ أوْلُوا قُوّةٍ وَأولُوا بَأسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل)

فأهلكهم الله عز وجل:

(أنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة ص)

إبليس، فأهلكه الله عز وجل:

(ألَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف)

لي: أهلكه الله عز وجل:

(قالَ إنّمَا أوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص)

أهلكه الله عز وجل، أربع كلمات مهلكات: أنا ونحن ولي وعندي، فلا تقل: لي، الملك لله، قل: هي لله في يدي، وقد سئل إعرابي يقود قطيعاً من الإبل: لمن هذه الإبل ؟ فقال: " هي لله في يدي "، وهذا البيت لله في يدك، يمكن أن تضطر إلى بيعه، وأنت في أتم درجات عقلك، لو أن خللاً أصاب عضواً خطيراً في جسمك، وثمن إصلاح هذا الخلل يقابل ثمن هذا البيت، تبيعه وأنت راضٍ، قل: هذه المركبة لله في يدي، وهذه الدكان لله في يدي، وهذه الحواس الخمس التي أكرمني الله بها، قل: اللهم مالك الملك، من يضمن أن يستمر بصره حتى نهاية حياته ؟ من يملك السمع والبصر والفؤاد ؟ من يملك هذا اللسان؟ من يملك هذه الأعضاء ؟ الله في علاه.

فقل:

(اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران)

إذا عرفت أن كل ما عندك من المالك تواضعت له، فأي جهاز في جسم الإنسان لو أصابه خلل لأصبحت حياته شقاءً، هذا الجهاز بيد من ؟ بيد الواحد الديان، لذلك النبي الكريم كان يقول:

((اللّهُمّ مَتِّعْنا بأسْماعنا وأبْصَارنا وقُوّتِنا ما أحْيَيْتَنا، واجْعَلْهُ الوَارِثَ منّا))

[الترمذي عن ابن عمر]

(إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(16)وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ)

وبعد هذا كله فهذه آية جديدة فيها حقيقة خطيرة، قال تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

1 ـ معنى الوزر:

هذا مبدأ خطير جداً في الدين، وِزْر بمعنى حِمْل، الوازرة الحاملة.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

2 ـ لا تحمل نفسٌ وزرَ أخرى:

إنّ أيّة نفس لا تحمل حمل غيرها، كل نفس تحمل حملها، أي أن كل إنسان محاسب على أعماله، ولن يحاسب الإنسان على أعمال غيره، ولا يتحمل تبعة غيره.

هذا المبدأ مبدأ أساسي يورث حالتين: يورث قلقاً وطمأنينة في الوقت نفسه، فالمنحرفون الذين يتكلون على أن فلاناً أغراهم بهذه المعصية، وأنهم لا ذنب لهم، فيأتي هذا الكلام ليقلقهم، لن يحاسب عنك أحد، لن تستطيع أن تعزو ذنبك إلى أحد، لن تستطيع أن تحمِّل الآخرين أخطاءك، أخطاؤك لا يحملها أحدٌ عنك.

3 ـ الإنسان مختارٌ، وهو ابنُ ذاتِه:

لا تقل: أنا ربيت في بيئة سيئة، الإنسان ابن بيئته، وابن محيطه، وابن أسرته، وابن وراثته، ولكنه في الأصح وفي الأعم الأغلب هو ابن ذاته، وابن اختياره، فإياك أن تعزو ذنبك إلى الآخرين.

سيدنا عمر حينما جاءه رجل، وقد ألقي القبض عليه بتهمة شرب الخمر، فقال له: **<< والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر علي ذلك، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.**

أنت لست مضطراً أنت مخير.

4 ـ علاقتك مع الله:

أيها الإخوة الأكارم، لا تستطيع أن تفلت من عقاب الله، أنت في قبضة الله، فإياك أن تعزو ذنبك إلى الآخرين، فلان دلني على الشر، أنا ليس لي ذنب، لا بل أنت مخير، ولك عقل، ألم تسمعوا أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أرسل سرية، وأمّر عليها أنصارياً، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ـ بعضهم أجرى المحاكمة التالية ـ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنّمَا تَبِعْنَا النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُهَا ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[صحيح البخاري]

لا تقبل شيئاً من دون دليل من كتاب أو سنة، ولا ترفض شيئاً من دون دليل، ألم تسمعوا إلى هذا الإنسان الذي حدث عنه النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَنْ أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((... وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ...))

[صحيح البخاري]

طليق اللسان، قوي البيان، ناصع الحجة، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام في خصومة مع إنسان، وأدلى بدلوه وبيّن، وفصّل، لو أن النبي قال له: معك الحق، من يقول له: معك الحق ؟ سيد الأنبياء، المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، لو أن النبي قال لإنسان: معك الحق، وليس معه الحق فربما كان في الأمر خطأ، بل قال:

((فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النّارِ، فَلا يَأْخُذْهَا))

[صحيح البخاري]

فعلاقتك مع من إذاً ؟ مع الله وحده، مع الله وحده، لن تنجو من عذابه ولو أقر لك النبي بأنك على حق، إن لم تكن على حق، الحديث من البخاري..

عَنْ أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النّارِ، فَلا يَأْخُذْهَا))

]

[صحيح البخاري]

إذاً: لا تستطيع أن تحمِّل أحداً وزرك، لا تستطيع أن تنجو من ذنب فعلته باختيارك.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

أي: لا تحمل نفسٌ حمل نفسٍ أخرى، لن تحاسب نفس عن نفس، لن يعاقب إنسان مكان إنسان، هذه حقيقة، حقيقة أساسية جداً.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

5 ـ توجيهٌ لطيف لآيةٍ قرآنية:

لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، كل إنسان محاسب بعمله، أما حينما يتوهم بعضهم أن الله عز وجل حينما قال:

(وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ)

هؤلاء الضالون المضلون، وهذا إذا كان الإنسان فاسداً مفسداً، ضالاً مضلاً، فعَنْ جَرِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... وَمَنْ سَنّ سُنّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِ شَيْءٌ))

[سنن الترمذي]

الإنسان يحمل تبعة ذنب إنسان آخر إذا دله عليه، من دون أن ينجو الإنسان الآخر من تبعة ذنبه، صار هناك حسابيان، مرتكب الذنب لا بد من أن يحاسب لأنه مخير، أين عقله ؟ لكن الذي أفسده ودله عليه يحاسب مرتين، فكل إنسان يدل على شر يحاسب عليه كل من اقترف هذا الشر، من دون أن ينجو أصحاب الأعمال الشريرة من تبعة أعمالهم.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

حينما يوهم الإنسان نفسه أن المسؤول عن عمله فلان، هكذا ربانا والدنا، أنت أين عقلك ؟ الأب محاسب عن ابنه قبل أن يبلغ، فإذا بلغ يحاسب كل إنسان على عمله، فالذي يعزو أخطاءه لأبيه، أو لمعلمه، أو لمدرسته، أو لجماعته، أو لبيئته، أو لوراثته، هذا الإنسان يتنصل من ذنب لاصق به.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

6 ـ لا تَعْزُ أخطاءك إلى القدَر:

إياك أن تعزو ذنباً أو تقصيراً، أو انحرافا، أو معصية إلى جهة ما، الناس أَلِفوا أن يعزو أخطاءهم إلى القضاء والقدر، ما رأيت واحداً في حياتي يعمل عملاً صالحاً يقول لك: يا أخي إن الله قدر علي هذا

العمل الصالح، لا، فالعمل الصالح ينسبه لنفسه، يقول: أما فعلت، أما إذا وقع في معصية فإنه يقول: الله مقدرٌ علي ذلك، هذا هو عين الخطأ، لماذا في الأعمال الطيبة تعزوها إلى نفسك ؟ ولماذا حينما تزل قدمك، وينحرف سلوكك، تعزو هذا إلى القدر ؟

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا أشد أنواع الكذب، أن تعزو أخطاءك إلى الله، أن تقول: الله مقدرٌ عليَ هذه المعصية، ليس لي ذنب، يا رب إن سيئاتي من قضائك، لا ذنب لي، هذا هو عين الجهل، وهذا الكلام لا ينجي صاحبه يوم القيامة، العبرة أن يكون الكلام مقبولاً أو مسموعاً، هذا الكلام غير مسموع..

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة)

أنت مسؤول.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

أنت مسؤول في حدود ما كلفت، أنت مخير في ما كلفت به، كلفت بأركان الإسلام، مخير، كلفت بأركان الإيمان، مخير، كلفت بغض البصر، مخير، كلفت بكسب المال الحلال، مخير، كلفت بأداء الصلوات، مخير، أنت مخير في حدود ما كلفت به، أما الشيء الذي لا خيار لك به فلست محاسباً عليه، لست محاسباً لماذا كنت ابن فلان، هذا شيء أنت بـه مسيَّر، هو لمصلحتك، ولكن لا يحاسب الإنسان على شيء لا خيار له به، فأنت مخير في كل ما كلفت، ومسير لتحقيق ما اخترت، ثم بدفع ثمن ما اخترت.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى

1 ـ لا تنفع قرابةٌ ولا نسبٌ يوم القيامة:

ألم تقرؤوا قول الله عز وجل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

من أبو لهب ؟ عم النبي الكريم، ألم تقرؤوا حديث رسول الله:

((سلمان منا آل البيت))

((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

[ورد في الأثر]

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((... النّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ))

[مسند الإمام أحمد]

هذه عظمة الإسلام.

<< يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية >>.

ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعة خالق الناس، الذي يرفعك طاعة الله عز وجل:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات)

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

عَنْ عَائِشَةَ أَنّهَا ذَكَرَتِ النّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَا يُبْكِيكِ ؟ قَالَتْ: ذَكَرْتُ النّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَمّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا عِنْدَ الْمِيزَانِ، حَتّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ:(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)، حَتّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أَفِي يَمِينِهِ، أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنّمَ))

[سنن أبي داود]

لو رأى الرجلُ أمّه يوم القيامة هل يتعرف عليها ؟ أمه ! أقرب الناس إليه، رأى زوجته، رأى أخته، رأى أخاه، رأى جاره، رأى شريكه:

((فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَمّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ، حَتّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ:(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)، حَتّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أَفِي يَمِينِهِ، أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنّمَ))

في هذه المواطن الثلاثة نظراً لشدة الهول فالإنسان لا يذكر إلا نفسه، ولو أن الإنسان وقعت عينه على عين أمه لتجاهلها لشدة الهول، وقد تلتقي الأم بابنها، تقول له: يا بني، جعلت لك صدري سقاءً، وحجري

غطاءً، وبطني وعاءً، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ هل تعطيني شيئاً من حسناتك ؟ يقول هذا الابن لأمه: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنني أشكو مما أنت منه تشكين.

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام بيّن أن الذي يغتاب الآخرين يوم القيامة يقف هذا الإنسان مع الذي اغتابه، يقول هذا الذي اغتيب: يا رب، اطلب لي مظلمتي من فلان، لقد اغتابني، فلا بد من أن يعطيه من حسناته، فإذا فنيت حسناته طرح عليه من سيئاته، فهذا الذي يهرف بما لا يعرف، ويطعن، ويتكلم على الناس بغير بينة، وبغير علم، وينهش أعراض الآخرين، هذا سوف يقف موقفاً صعباً يوم القيامة، سوف يضطر إلى أن يتخلى عن كل حسناته، وسوف يأخذ كل سيئات هؤلاء الذين اغتابهم، فقبل أن ينطق اللسان، يجب أن تكون وقافاً عند الكتاب والسنة..

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(سورة الحجرات)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات)

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ)

نفس مثقلة.

(إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

2 ـ لن يُحاسَب أحدٌ عن أحدٍ:

الآن هناك معنى دقيق جداً وحقيقة مهمة، قبل أن نبدأ بها لا بد من تعليق آخر متعلق بالآية السابقة: إذا توهم الإنسان أن أحداً من الناس سيحاسب عنه، وأن تبعة أعماله ربما تحملها زيد أو عبيد، إذا قرأ هذه الآية فإن طمأنينته الموهومة سوف تتبدد، وإذا كان الإنسان مستقيماً، وحوله بيئة سيئة جداً، وكان يخشى متوهمًا أن يصيبه الله بعذاب، لا لشيء إلا لأنه مع هؤلاء، فليطمئن إذا قرأ هذه الآية:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لن يحاسب ابن عن أبيه، ولن يحاسب أب عن ابنه إذا نصحه، وقدم له كل ما ينبغي، لن تحاسب زوجة عن زوجها، إذا أدت ما عليها، ولن يحاسب زوج عن زوجته، إذا نصحها فلم ترعو، لن يحاسب إنسان عن إنسان.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

(سورة الانفطار)

هذه الآية تبعث القلق فيمن توهّم أن أحداً سيحاسب عنه، وتبعث في النفس الطمأنينة، فيمن خاف أن يؤخذ المطيع بذنب العاصي.

3 ـ لكنّ البلاء قد يعمّ:

هناك توضيح دقيق جداً كما يقال: البلاء يعم، والبلاء يعم إذا كفّ الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحريق متى ينتشر ؟ إذا رأى أحد أن الحريق في آخر الشارع، وأنه بعيد عن بيته، إذاً فهو لا علاقة له به، فرجع للبيت ونام، إن لم يسهم هذا الجار في إطفاء الحريق، ربما وصل الحريق إلى بيته، فإذا ظهرت فتنة في المجتمع الإسلامي، ولم ينطلق المسلمون إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذه الفتنة توسعت، وتوسعت حتى دخلت بيوت المسلمين، وما من بلاء انتشر إلا بسبب ترك الفريضة السادسة.

قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما الفريضة السادسة، لقوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران)

فحينما نكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ربما تحملنا تبعة غيرنا، لأننا عصاة في هذه الحالة، وإذا قال الإنسان: لا شأن لي في هذه الحالة، أنا عليّ من نفسي، حينما يمكنك أن تنصح أخاك المؤمن ولا تنصحه يعم البلاء، ويصل إليك، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

أما دقة الآية:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)

إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ

1 ـ مَن يتّعظ الذكرى والنذُر ؟

قبل ذلك، من هذا الذي يرعوي ؟ من هذا الذي يتعظ ؟ من هذا الذي يستفيد ؟ من هذا الذي يستجيب ؟ الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا)

أداة قصر، أي إنذارك يا محمد لا يجدي مع كل الناس، وهذا الكلام موجه لنا أيضاً، لو أنك التقيت بإنسان لا يعرف الله أبداً،ل ما خطر في باله مرة أن يتعرف إلى الله، ما معنى قولك له: إن الله حرم هذا الشيء، وحلله ؟ إن الله يغضب. يقول لك: ما شأني بهذا الكلام؟ لن تستطيع أن تنصح إنساناً إلا إذا كان على معرفة بالله عز وجل.

مثلاً لو جاء طبيبٌ جراح كبير زائراً إلى بلدنا، من الذي يهتم بهذه الزيارة ؟ الأطباء، ولو جاء عالم جليل، من يهتم به ويعرف قدره ؟ من كان على شاكلته، فالإنسان كيف يستجيب ؟ إن لم يفكر في ملكوت السماوات والأرض، ويتعرف إلى الله، ويتصل به فلن تجدي معه النصيحة.

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

2 ـ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

الله جل في علاه لا يرى، ولكن آثاره بادية للأنظار، كما قال هذا الأعرابي ببساطة: **" البعرة يدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ ".**

أنت أمام كون معجز، أمام آيات لا تنقضي.

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

لو نظرت إلى جسمك لانتهت حياتك قبل أن تنقضي آيات جسمك، لو نظرت إلى طعامك، لو نظرت إلى ما فوقك، إلى ما تحتك، إلى السماء والأطيار، والنجوم والكواكب، إلى البحار والأسماك، إلى الأنهار، إلى الجبال، إلى النباتات، إلى الحيوانات، إلى الألوان، إلى المشمومات، إلى المبصرات، لرأيت العجب العجاب.

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

مثلاً: إنسان ما عرف في حياته شيئاً عن النظام العسكري، قل له: هذا أمر من عميد، يقول لك: ما معنى عميد ؟ لكن الذي ينخرط في السلك العسكري يعرف ما معنى عميد، ومعنى لواء، هذه الرتب يعرف حجمها بالضبط، وماذا تفعل، فلن تستفيد، ولن تتعظ، ولن تخشى، ولن تستجيب إلا إذا كنت على معرفة بعظمة الله، معرفة ما عنده من إكرام، وما عنده من عقاب، وما عنده من جنة أو نار..

(إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)

3 ـ وَمَنْ تَزَكّى فَإِنّمَا يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ

قد يبدو أنه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا)

(سورة الشمس)

أنت في الدنيا من أجل أن تزكي نفسك، أنت أمام أحد خيارين، إما أن تزكي نفسك فتسعد إلى الأبد، وإما أن تدسّيها فتشقى إلى الأبد

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا)

(سورة الشمس)

إذا غمستها في الآثام والمعاصي فقد أفسدتها، وقد أضللتها، وقد أشقيتها، وقد أبعدتها عن منبع السعادة، وقد أهلكتها.

لكن بين قوسين ما قال الله عز وجل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها ؟! بل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا)

أن تتعلم كيف تزكي النفس، دون أن تزكي نفسك فهذا شيء لا قيمة له إطلاقاً، والإنسان إذا تفكر في ملكوت الله، وصلى الصلوات الخمس، وغض بصره عن محارم الله، وتقصى أن يكون دخله حلالاً، أنفق المال في وجوهه، طهّر نفسه من المعاصي والآثام، ومن الشك والشرك.

(وَمَنْ تَزَكّى فَإِنّمَا يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ)

(سورة فاطر)

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

القضية لك، لك وحدك، فإذا كنت محباً لذاتك، محباً لوجودك، محباً لاستمرار وجودك، محباً لكمال وجودك، محباً لسلامة وجودك، فزكِّ نفسك، لأنه..

(وَمَنْ تَزَكّى فَإِنّمَا يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...))

[صحيح مسلم]

(وَمَنْ تَزَكّى فَإِنّمَا يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ)

4 ـ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

المصير إلى الله، سوف نحاسب على أعمالنا، وعلى مواقفنا، وعلى عطائنا، وعلى منعنا، وعلى غضبنا، وعلى لهونا، وعلى حزننا، وعلى كل شيء نفعله، فلتحذر الحذر كله.

الآن تطالعنا آيات دقيقة جداً، يقول الله عز وجل:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

الكافر أعمى:

ما من تشبيه أروع من هذا التشبيه، المؤمن بصير، والكافر أعمى، انظر إلى الأعمى، بإمكان طفل صغير أن يهزأ به، ويسخر منه، لو أن طفلاً قال لأعمى: على يمينك حفرة، والحفرة نحو اليسار، فاتجه الأعمى نحو اليسار وقع فيها، فالأعمى أي إنسان يتلاعب به، فلذلك الكافر أعمى، أيٌ مجلة، أي مقالة، أي نظرية، أي محاضرة تجدها قلبت عقله، لأنه ليس عنده أساس، كقشة في مهب الريح، لأنه أعمى، كما قلت قبل قليل: الأعمى لا يرى شيئاً، أما البصير فهو يرى كل شيء، لأنه يستمد قدرته من الله.

ربنا عز وجل شبه المؤمن بالبصير، فهو على بينة من ربه..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة)

أنت في النور، أنت بصير، أنت متمتع بعينين حادتين، أما الكافر فأعمى..

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الأعمى قد يقع في حفرة، قد يصطدم بأكمة، قد تزل قدمه بشيء زلق، قد تلدغه حشرة، قد يقع في شر عمله، لأنه لا يرى شيئاً، فربنا عز وجل يقول:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

المؤمن بصير، والكافر أعمى..

(وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ

الظلمات هي الباطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

(سورة النور: 40)

1 ـ النور واحد، والظلمات متعدِّدة:

والنور هو الحق، والنور مفرد، والباطل جمع، هناك أباطيل، هناك أكاذيب، هناك عشرات المذاهب الوضعية الضالة المضلة، الباطل متعدد، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا خط مستقيم واحد، لـكن بين هاتين النقطتين يمر آلاف، بل مئات ألوف الخطوط المنحنية والمنكسرة، لكن لا يمرّ إلا خط مستقيم واحد..

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلَا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام)

الحق واحد، الحق لا يتعدد، الباطل يتعدد ويختلف، إذاً:

(وَلَا الظّلُمَاتُ وَلَا النّورُ)

الحق نور، والباطل ظلمات، والباطل كلام لا معنى له، دغدغة للشهوات، رغبة في فعل الموبقات، هذه الرغبة الجامحة تفلسف بنظريات، تقولب بمقولات، لأنه باطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

(سورة النور: 40)

فالأعمى والبصير، الكافر والمؤمن، الظلمات والنور، الحق والباطل، ربنا شبه الحق بالنور، فهو واضح، عنَ العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَوْعِظَةً... قالَ:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ...))

[مسند الإمام أحمد]

والباطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)

(سورة النور: 40)

وكلكم يعلم كيف أن بعض النظريات الوضعية عاثت في الأرض فساداً، وانحرفت بالإنسانية إلى مصير سيئ، ثم تهاوت كبيت العنكبوت، بشكل لا يصدق، هذا هو الباطل..

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

(سورة النور: 40)

قال:

(وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ)

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ

المؤمن في سكينة وظل ظليل:

المؤمن في سكينة، وكأنه في ظلٍ ظليل، والكافر في نار متأججة، وكأنه بركان، قلق، لأنه خرج عن فطرته، لأنه خرج عن طبيعته، عن جبلته، لماذا المؤمن مرتاح ؟ لأن حركته اليومية توافقت مع فطرته، واطمأنت نفسه..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

ولما اتصل بصلاته لم يبقَ هلوعاً، ولا جزوعاً، ولا منوعاً، فالظل تعبير عن جزاء العمل الطيب، اتصال بالله، وسكينة وطمأنينة، وتجلٍّ، وراحة، والبعد عن الله قلق، واضطراب، وحسد، وحقد، وطمع، واستعلاء، وكبر، ثم يأتي الموت، ويفاجئ الإنسان.

إذاً: من أروع تشابيه القرآن أن المؤمن بصير، والكافر أعمى، والحق نور، والباطل ظلمات، وجزاء العمل أن المؤمن في ظلٍ ظليل، والكافر في نار مستعرة، أما كملخص فالمؤمن حي، والكافر ميت..

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ

المؤمن حيٌّ:

المؤمن حي، عرف الله، وعرف سر وجوده، وعرف أين المصير، وعرف حقيقة الدنيا، وعرف حقيقة الآخرة، وعرف مهمته في الدنيا، حي، وعمل الأعمال الصالحة، التي تنفعه في الدنيا والآخرة، بالضبط مثل المؤمن بين الكفار كالحي بين الأموات، ربنا عز وجل قال:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان)

مثله كمثل الكلب..

(إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف)

غارق في حب الدنيا إلى قمة رأسه، إذاً أربعة تشبيهات رائعة، المؤمن بصير، الكافر أعمى، ألا ترى معي أيها الأخ الكريم أنك حينما تلتقي مع إنسان بعيد عن الله ويرى أن البطولة في كسب المال الحرام، ويرى أن البطولة في اقتناص اللذات المحرمة، ويرى أن البطولة في غش الناس، والتلاعب عليهم، ألا ترى أنه أعمى ؟ وأن الله سوف يحاسبه حساباً عسيراً ؟ وسوف يدمره قبل أن يدمر ماله ؟ أنت تراه أعمى.

أنا أقول لكم هذا الكلام: المؤمن الصادق يشعر أن الذين كفروا بالله، وابتعدوا عنه، ولم يعبؤوا بشرعه، يراهم عميانا، يراهم يتحركون في طريق هلاكهم، يراهم كالأعمى يخبط يميناً ويساراً من دون علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، المؤمن بصير، الكافر أعمى، الحق نور، الباطل ظلمات، حالة المؤمن النفسية في ظلٍ ظليل..

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند الإمام أحمد]

إن الله يعطي الصحة، والذكاء والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، فأنت بصير، في مكان منير، وفي ظلٍ ظليل، إذاً أنت حي، والكافر أعمى، وفوق أنه أعمى في ظلمات بعضها فوق بعض، وفي نار مستعرة، إذاً: هو ميت القلب، المؤمن حي، والكافر ميت، المؤمن في ظلٍ ظليل، والكافر في نار مستعرة، على فوهة بركان، المؤمن في أنوار الحق، والكافر في ظلمات الباطل، المؤمن بصير والكافر أعمى، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

هذا ميت، أنى له أن يسمع ؟

إنّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

دعوة الدين إلى الحياة، الإنسان ميت ما لم يؤمن، كيف تقول: ميت ؟ وهو في أشد حالات نشاطه، وتقول عنه: ميت، ومن كلام سيدنا علي: **<< يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والمال يزكو على الإنفاق، يا كميل مات خزان المال وهم أحياء - وهم في أوج حياتهم أموات - والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، الناس ثلاثة، عالم، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق،لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم >>.**

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

لا يُعامَل المسيء كما يعامَل المحسن:

بالمناسبة حينما يأتي القرآن بموازنة، هناك موازنات رائعة جداً:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

إذا توهمت ثانية واحدة أن الله يمكن أن يعامل المسيء كما يعامل المحسن، أن يعامل العاصي، كما يعامل التائب، أن يعامل المستقيم كما يعامل المنحرف، فأنت لا تعرف شيئاً..

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

إياك أن تظن أن العاصي يمكن أن يستوي مع الطائع، وأن المحسن يستوي مع المسيء، وأن المؤمن يستوي مع الكافر، لا ! أين الثرى من الثريا ؟

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة)

أنا أطمئن المؤمنين فأنت إذا عرفت الله، واستقمت على أمره فلا بد من أن يكرمك الله عز وجل، بطريقة أو بأخرى، لا بد من أن تشعر أن عملك محفوظ عند الله، ولن يَتِركم أعمالكم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

(سورة فاطر)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ

1 ـ إنْ نافية بمعنى ما:

(إنْ) هذه حرف نفي، يعني: ما من أمة إلا وجد فيها نذير ينذرها.

2 ـ ما هو النذير ؟

والنذير كما تعلمون أشياء كثيرة:

قال بعض المفسرين: حين يعاتب الله الإنسان الضال يوم القيامة يقول الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

من هو النذير ؟ حينما قال الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

العلماء قالوا: النذير هو القرآن ؛ النذير والبيان التوضيحي، فيه كل شيء، تعليمات الصانع، تحذيرات، صور مستقبلية، مشاهد لم تقع بعد، إخبار عما مضى، إخبار عما سيكون، فيه كل شيء، فيه أمر، فيه نهي، فيه وعد، فيه وعيد، فيه حلال، فيه حرام، فيه تاريخ الأقوام السابقة، فيه ما سيكون في المستقبل، البعيد والقريب، فيه نبأ ما قبلكم، خبر ما بعدكم، حكم ما بينكم، هذا كلام الله، هو النذير، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام هو النذير، والشيب هو النذير، وموت الأقارب هو النذير، والمصائب هي النذير، المصيبة نذير.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

للمؤمنين.

(وَنَذِيرًا)

للمعرضين.

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ(24)وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(25)ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

(سورة فاطر)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (08-10): تفسير الآيات 27-34

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-06-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى نهاية الآية السادسة والعشرين، واليوم نبدأ بالآية التالية، وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27)وَمِنْ النّاس وَالدّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

(سورة فاطر)

قبل أن نمضي في شرح هذه الآية نقف وقفة متأنية أو قصيرة عند سر ترتيب آيات الله عز وجل.

لمَ لمْ يكن القرآن مرتبًا ترتيباً موضوعياً ؟

تلاحظون أن الله عز وجل في السورة الواحدة ينوع بين آيات كونية إلى أحكام فقهية إلى أخبارٍ عمن قبلنا إلى وعد إلى وعيد، قد يسأل سائل: لمَ لم يكن القرآن مرتب ترتيباً موضوعياً ؟ لم لا تكون آيات الكون في فصل، والأحكام الفقهية في فصل، والتاريخ في فصل ؟ هذا السؤال جوابه فيما يلي: إن هذا القرآن كتاب هداية، ومادام كتاب هداية فينبغي أن يتماشى مع طبيعة النفس، فإذا جلست إلى طعام ينبغي أن تأكل طعاماً دسماً وفواكه ومقبلات وشراباً وحلويات، أيعقل أن تأكل لأسبوع بشكل مستمر طعاماً من نوع واحد مقبلات أو فواكه ؟

فربنا عز وجل جمع في السورة الواحدة موضوعات شتى كل هذه الموضوعات في مجملها تشكل وحدة إرشادية، فتارة تحتاج إلى آية كونية ترقى بها إلى الله، وتارة تحتاج إلى حكم فقهي تطبقه لتصلح دنياك، وتارة بحاجة إلى خبر عن الأقوام السابقة لتتعظ، فتنوع الموضوعات في السورة الواحدة من لدن حكيم خبير، وترتيب القرآن كما تعلمون ترتيب توقيفي جاء به الوحي السماوي، فحينما ننتقل من حديث عن الدنيا والآخرة إلى حديث عن الكون إلى حديث عن الأمم السابقة إلى وعد إلى وعيد إلى مشهد من مشاهد الآخرة، هذا الترتيب يجب أن نأخذه بعين الاعتبار، ويجب أن نعتقد جميعاً أن هذا الترتيب ترتيب خالق الكون، ترتيب منزل هذا القرآن.

الآن ننتقل إلى صفحة من صفحات الكون، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ تَرَ)

أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

1 ـ أَلَمْ تَرَ

هذه الرؤيا رؤية القلب أو العلم، يعني ألم تعلم ؟ كلكم يعلم أن فعل رأى على نوعين، رأى بصرية ورأى قلبية، قد تقول: رأيت الشمس ساطعة، هذه رأى البصرية، وقد تقول: رأيت العلم نافعاً هذه رأى القلبية، فهذه رأى هنا تشير إلى رؤية القلب أو إلى العلم، ألم تر أيها الإنسان ظاهرة إنزال المطر، أليست ظاهرة بين يديك ؟ ألا تراها في كل فصل ؟ الذي عاش أربعين عاماً مضى عليه أربعون شتاءً، ألم ير خلال عمره هطول الأمطار ؟ كيف أن هذه المساحات الواسعة ـ البحار ـ من المسطحات المائية تتعرض لأشعة الشمس فتتبخر، فينشئ الله بها سحاباً، وتأتي الرياح فتسوق هذا السحاب إلى أرض عطشى تنعقد مطراً، تنبت زرعاً، تأكل منه أنعامنا ونأكل منه نحن..

هذه الآية في متناول الناس جميعاً، فإذا قال الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ)

أي أن هذه الآية بين يدي الإنسان.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً)

2 ـ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً

للحديث عن هطول الأمطار، وعن تشكل السحاب، وعن علاقة الهواء بالماء، وعن علاقة الهواء ببخار الماء، وكيف أن الهواء يتحمل بخار الماء وفي كل درجة من درجات حرارة الهواء يتحمل بها كمية من الماء، فإذا انخفضت هذه الدرجة تخلى عن بعض الماء الذي حمله، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجّاجًا)

(سورة النبأ)

طبيعة المطر، وإنشاء السحاب، وانعقاد حبات المطر، وهطول الأمطار هذا موضوع دقيق جداً يحتاج إلى دراسات طويلة، لكنه آية من آيات الله الدالة على عظمته، وهي بين أيدي الناس، الأرض عطشى، الأشجار يابسة، تأتي الأمطار فتجعل الأرض جنة، وتجعل الأشجار منتعشة مروية تحمل الثمار وما يلذ للإنسان.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً)

لكن محور هذه الآية يتحدث عن ظاهرة الألوان، الآية كلها عن ظاهرة اللون، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ونوره، فالشمس جعلها الله جلّ وعلا مصدر الضياء.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

(سورة يونس)

فاللون هو شيء دقيق جداً، حينما يسلط الضوء على شيء ما فهذا الشيء يمتص كل الألوان، عدا لونٍ واحدٍ، اللون الذي لا يمتصه هذا الشيء هو لونه، طبقة الهواء تمتص ستة ألوان عدا اللون الأزرق، إذاً: لون السماء أزرق، الماء كذلك، فموضوع اللون متعلق بالضوء، فإذا لم يكن هناك ضوء فلا لون، والضوء كما تعلمون مؤلف من سبعة ألوان، فإذا اجتمعت هذه الألوان ظهر اللون الأبيض، وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذه الظاهرة ضع مرآة في قعر إناء تحت أشعة الشمس لترى أن هذا الضوء الأبيض قد تحلل على الحائط إلى سبعة ألوان، فالضوء الأبيض مؤلف من سبعة ألوان، وما قوس القزح إلا تحليل لضوء الشمس، فهذه الألوان السبعة المجتمعة بلون واحد هو الأبيض، إذا سلطت أشعة الشمس على شيء فهذا الشيء يمتص الألوان الستة عدا اللون الذي يبدو لأعيننا أنه لون هذا الشيء، فظاهرة اللون يتحدث الله عنها في هذه الآية:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)

3 ـ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

اختلاف الثمرات شكلا وطعمًا ولونًا صغرا وكبرًا هذا من نعم الله:

انظر إلى لون التفاحة الأصفر، ثم إلى لون التفاحة الأصفر المشرب بالحمرة، أو إلى لون تفاحة أحمر، أو إلى لون تفاحة أحمر داكن، كل فاكهة لها لون يأخذ بالألباب، بل إن المهندسين ليهتدون بألوان الفواكه وألوان الفراشات وألوان النباتات في تصميم ألوانهم.

إذاً: ربنا سبحانه وتعالى يلفت النظر إلى قيمة اللون في حياة الإنسان، إن بعض الحيوانات لا ترى إلا الأبيض والأسود، وفرق كبير بين أن ترى صورة ملونة بمنظر طبيعي وبين أن ترى صورة بالأبيض والأسود، فاللون من نعم الله العظمى على الإنسان، يبعث البهجة في النفس، وأحد أسباب متعة العين الألوان التي صممها الله عز وجل في هذا الكون، واللون كما قلت قبل قليل: لا يظهر إلا بالضوء، والله سبحانه وتعالى نور السماوات والأرض، فإذا نظرت إلى الفاكهة ربما كان اللون له دلالة على نضجها، فربنا عز وجل يقول:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

فالإنسان الذي يعمل في الزراعة يهتدي إلى نضج الفواكه والثمار والخضراوات باللون، ادخل إلى حقل الطماطم ـ البندورة ـ ماذا ترى ؟ هذه العناقيد كلها خضراء، أما الحمراء فتقطفها، كلما وجدت ثمرة حمراء اللون تقطفها هي الناضجة، فاللون علامة النضج، وهذا من فضل الله على الإنسان، فكل شيء أعطاه علامة دالة على مضمونه، فاللون من جهة متعة بالغة للإنسان ومن جهة ثانية مؤشر على حالة معينة للفاكهة، فالفاكهة الخضراء لا تؤكل.

(انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)

(سورة الأنعام: 99)

ينعه أي نضجه، كيف نعرف نضجه ؟ من لونه، فالإنسان إذا أمسك فاكهة ليأكلها فإنه ينظر إلى دقة هذا اللون.

الآن: الكرز له لون رائع المشمش له لون ناضر جذاب، ومثله التفاح العنب..إلخ، أحياناً اللون يثير الشهية، كما يثير المتعة، متعة العين، واللون الذي تصطبغ به الفاكهة يثير شهية الإنسان، واللون مؤشر على نضج الفاكهة، فهذه الآية الكونية التي أشار الله إليها في هذه الآية يجب أن نهتم بها.

الإنسان لا ينبغي أن يأكل كما تأكل بقية المخلوقات، بل يجب أن يأكل كما يأكل الإنسان العاقل، أن يجعل من طعامه دليلاً على الله عز وجل، وهكذا قال الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

انظر إليه، انظر إلى لون الفاكهة، أضف إلى اللون حجم الفاكهة، أضف إلى حجمها رائحتها، أضف إلى رائحتها شكلها، قوامها ما فيها من مواد غذائية، اجمع بين المواد الغذائية مع النضج مع القوام مع الحجم مع الشكل مع اللون مع الرائحة مع طريقة التناول، مع امتداد فترة القطاف، لو أن الفواكه تنضج في يوم واحد لأتلفناها، لكن الفواكه التي نأكلها تنضج تباعاً، وهذا من نعم الله العظمى، بينما المحاصيل تنضج في يوم واحد، أكمل شيء في المحاصيل أن تنتج في يوم واحد، وأكمل شيء في الفاكهة أن تنضج تباعاً، بل إنها مجموع الفواكه التي نستفيد منها في فصل واحد تنتج أيضاً تباعاً بحسب أنواعها.

فمن كان لديه بستان فيه من كل الثمرات فهو يقطف نوعاً نَوعاً بالتدريج، وهذا من فضل الله، هذه اسمها برمجة، الفواكه مبرمجة، والنوع الواحد مبرمج، وهذا من فضل الله عز وجل.

حدثني أحدهم أنه ضمن حقلاً للبطيخ خلال ثلاثة أشهر كان يقطف منه ما يملأ سيارة شحن كل يوم ! إذاً هذا الحقل يعطيك هذه الفاكهة الصيفية على مدار تسعين يوماً، هذه برمجة، لو أن هذا البطيخ نضج كله في يوم واحد، ماذا نستفيد منه ؟

إذا نظر الإنسان إلى الفاكهة، وتأمل في ألوانها علم أن اللون له وظيفة، تارة يثير الشهية، وتارة يدل على النضج، وتارة يمتع العين، بل إن هناك من يضع صورة للفواكه في غرفة الطعام على أنها قطعة فنية، منظر الفاكهة بألوانها اليانعة، بعد أن تصبح يانعة هذا لون يثير الحاسة الجمالية في الإنسان، فربنا عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)

التركيز في الآية لا على فائدة الفاكهة، ولا على طعمها، ولا على ما فيها من مواد غذائية، ولا على تناسبها مع طبيعة الإنسان، التركيز هنا على اللون، ظاهرة اللون.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)

مع أنها تسقى بماء واحد، هذه البذرة فيها قوام النبات وفيها عمر النبات، وفيها عطاء النبات، وفيها نوع الفاكهة، وطعمها ولونها، وقوام الفاكهة كلها معلومات موضوعة في نويّتها، وهذه المعلومات كما قلت قبل حين تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة !

هذه البذرة تزرعها في التراب، فإذا هي شجرة زيتون أو شجرة تفاح لها طباع، ولها عمر معين، ولها إنتاج معين، حتى إن الفاكهة الواحدة منها أنواع منوعة أي بالمئات، وأية فاكهة تخطر في بالكم ففي العالم أنواع منها بالمئات !

هناك نوع كبير الحجم، نوع صغير الحجم، نوع يظهر متأخراً، نوع باكوري، نوع حامض الطعم، أنواع منوعة لا يعلمها إلا الله، يكفي أن من العنب في بعض حقول التجارب عندنا ما يزيد على ثلاثمائة نوع، والتفاح كذلك، وكل أنواع الفواكه والثمار أنواع منوعة، هذه للنقل، وهذه للمائدة وهذه للصناعة، وهذه للعصير، وهذه نسيجها متماسك، وهذه ماؤها كثير، وهذه كروية الشكل، وهذه صلبة النسيج، أنواع منوعة، فإذاً نوع الفاكهة ونوع الطعام هذا دليل على عظمة الله عز وجل، والإنسان العاقل ينبغي أن يجعل من طعامه دليلاً على عظمة الله عز وجل.

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ)

الجبال:

ومثل الفواكه ؛ أيضاً هذه الجبال، فإنك تذهب إلى مكان فترى جبلاً أحمر اللون، وفي مكان آخر ترى جبلاً أبيض، وفي بلاد الحجاز الجبال سوداء اللون بلون الفحم، وبعض الأماكن جبالها حمر، وبعضها جبال كلسية بيضاء اللون، فهذه ظاهرة اللون كما أنها في الفواكه هي في التضاريس، وكل تربة لها

لونها الخاص، كل منطقة لها طبيعتها الخاصة، فإذا ذهبت إلى منطقة حوران فالتربة لها لون، إذا ذهبت لمنطقة أخرى فالتربة لها لون آخر، وإذا ذهبت إلى جبال معينة فهذه الجبال فلها لون تتميز به، قال تعالى:

(وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)

وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

ـ جُدَدٌ

الجدد هي الطرق، الطرق في الجبال، تراها تارة بيضاء، وتارة حمراء، وتارة سوداء، حسب لون صخور تلك الجبال.

(وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)

حتى لو أن هذه الطرق حمراء اللون، إلا أنها متفاوتة في هذا اللون، فاللون الواحد قد يكون متفاوتاً.

(وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

وَغَرَابِيبُ سُودٌ

دعك من الجبال، ودعك من الفواكه والثمار، وانظر إلى لون الإنسان، فهذا أبيض ناصع، وهذا حنطي اللون، وهذا أسمر داكن، وهذا أسود غربيب، فما هذا اللون الذي منحه الله لبني البشر ؟

1 ـ لون الإنسان:

قرأت مقالة عن اللون، فيها أن أشد الناس تلوناً فيه مادة لا يزيد وزنها على واحد بالألف من الميليغرام! موزعة في جلد الإنسان، يصبح لونه بهذا الشكل أو بشكل آخر، فلو جئت بآلة تصوير، وصورت عشرة أشخاص لرأيتهم بلون واحد في الصورة، أما لو نظرت إليهم بعينيك لرأيت كل إنسان منهم ينفرد بلون لا يزاحمه في أحد، وهذا اللون من فضل الله على الإنسان، الإنسان من تكريم الله له أنه جعله فرداً متميزاً، ومن علامة فرديته أنه يتميز بلون خاص، وملامح خاصة، ونبرة خاصة، ورائحة جلد خاصة، هذه الفردية في الإنسان تكريم من الله عز وجل.

إذاً..

(وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

2 ـ معنى: غَرَابِيبُ سُودٌ

غرابيب سود أي أسود داكن شديد السواد، أو لون أحمر مختلف في درجاته، أو لون أبيض مختلف في نصاعته.

(وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ)

وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ

ـ ظاهرة اللون في المخلوقات:

أيضاً هذه الدواب انظر إلى ألوان البقر، بقرة صفراء فاقع لونها، بقرة سوداء بقرة بيضاء، بقرة بيضاء وسوداء، هذا من حيث البقر، والجمال كذلك، هناك جمل أسود، وجمل أشهب، وجمل أبيض، وجمل أشقر، وكذلك الغنم والماعز، فحتى الدواب بشكل عام، والأنعام بشكل خاص لها ألوان متفاوتة، فكأن هذه الآية أرادت أن تلفت نظر الإنسان إلى ظاهرة اللون، وكيف أن الإنسان مكرم بأنه أعطي عينين يرى بهما الألوان، فلو أن هذه الألوان الصارخة الجميلة التي بثها الله في الكون موجودة، ولكن عيني الإنسان لا تريان إلا الأبيض والأسود فما قيمة ذلك ؟ لو أنك صورت منظراً جميلاً فيه من الأزهار من كل الأنواع، والفيلم أبيض وأسود، كل هذه الألوان تنطمس، ولا قيمة لها، وشتان بين صورة ملونة وصورة بيضاء وسوداء، فرق كبير بينهما، فلذلك:

(وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)

ظاهرة اللون في البشر، وفي الحيوانات، والنباتات، وفي الجماد، فربنا عز وجل ذكر ظاهرة اللون في كل الأنواع، في نوع الجمادات، ولا سيما الجبال، وفي نوع النباتات، ولا سيما الثمار، وفي نوع المخلوقات، ولا سيما الحيوانات، وفي الأخص الأنعام، وفي نوع الإنسان، فظاهرة اللون ظاهرة تلفت النظر، وهي موضوع للتفكر في خلق السماوات والأرض.

أب وأم يأتيان بأولاد مختلفي الألوان، من ولد ناصع في بياضه، إلى ولد داكن لونه، والأم والأب من نوع واحد ! وهذا أيضاً من دلائل الله عز وجل على عظمة خلقه.

1 ـ العلماء وحدهم الذين يخشون اللهَ:

أيها الإخوة الأكارم، في هذه الآية تعقيب دقيق جداً، هذا التعقيب يقول:

(إنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

ومعروف لديكم أن كلمة (الله) لفظ الجلالة مفعول به مقدم، و(العلماء) فاعل مؤخر، أي: إنما العلماء يخشون الله، ولو قلنا: العلماء يخشون الله، فلا يمنع من أن يخشى الله غير العلماء، لكن حينما قال الله عز وجل:

(إنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

2 ـ العلمُ طريق الخشية:

وهذا كلام خالق الكون، يجب أن نعلم علم اليقين أن العلماء وحدهم يخشون الله، وهذا يعطينا معلومات دقيقة في أن طريق الخشية هي العلم، ليس هناك من طريق إلى الله عز وجل إلا العلم، لأن الخشية في هذه الآية محصورة ومقصورة على العلم، فإذا أردت الله عز وجل فعليك بالعلم.

أولاً: العلماء وحدهم يخشون الله.

وثانياً: من لم يخش الله عز وجل فليس عالماً، ولو قال لك: أنا أحمل أعلى شهادة في العالم، ولو أظهر لك شهاداته كلها، مادام يعصي الله، ولا يخشى الله عز وجل فليس بعالم، بإمكانك أن تدمغه بالجهل.

3 ـ العاصي مدموغ بالجهل:

إنّ أيّ إنسان يعصي الله، ومعنى يعصي الله أنه لا يخشاه، فهذا الإنسان مدموغ بالجهل بنص هذه الآية، فإذا كنت مصدقاً لكلام الله عز وجل، وكان هذا الكلام كلام الله ملء سمعك وبصرك وملء جوانحك، وأنت معتقد أن كل ما فيه حق، وأن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذا كنت معتقداً أن هذا كلام الله، كلام خالق الكون، وهو يقول:

(إنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

استنبطت الحقائق التالية: أولاً طريق الخشية هي العلم، ولا شيء غير العلم.

ثانياً: من لم يخشَ الله فليس بعالم، ولو حفظ آلاف الكتب، لذلك كفى بك علماً أن تخشى الله، كل من خشي الله فهذا وسام شرف أنه عالم، كل من خشي الله، يؤكد لك من خلال هذه الآية أنه يعرف الله، لو أنه لا يعرفه لم يخشه، وكل من يعص الله عز وجل فثمة عار في جبينه ! إنه جاهل، فلك أن تؤكد أن الذي يعصي الله جاهل، ولك أن تؤكد أن الذي يطيعه عالم بالله بحالٍ أو بآخر.

و(إنما) تفيد القصر، أي العلماء وحدهم، ولا أحد غيرهم يخشى الله، فالعلم هو طريق الخشية.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ)

4 ـ مفهوم الخشية:

الخشية أيها الإخوة، قد يفهمها بعضهم خوف العقاب، هذا معنى ضيق، المعنى الضيق للخشية أن تخشى عقابه، لكن المعنى الواسع للخشية من دون أن تخشى عقابه حينما تتصور عظمته ينكسر قلبك خضوعاً له، انكسار القلب وخضوعه لعظمة الله عز وجل هي الخشية.

وقال بعض العلماء: هذه الخشية إما أن تحصل بطريق التصور، وإما أن تحصل بطريق التجلي، إما أنك من خلال التفكير في الكون تتصور عظمة الله عز وجل فيخشع قلبك، وإما أن يتجلى الله عليك فتخشاه، على كلٍّ الأول كسبي، والثاني وهبي، خشية الله من خلال بالتفكر في الكون كسبية، وبإمكان أي إنسان أن يحصل عليها، إذا فكر في آيات الكون الدالة على عظمته يمتلئ قلبه استعظاماً لله عز وجل، فإذا تصور عظمة الله عز وجل خضع قلبه لله، أما إذا تجلى الله عليه بأنواره خشع قلبه.

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: 21)

5 ـ علاقتها بالعلم علاقة طردية:

شيء آخر الخشية علاقتها بالعلم علاقة طردية، كلما نما العلم نمت معها الخشية، فإذا أردت مؤشراً للعلم فعليك بالخشية، الذي يخشى الله هو الذي يعرفه، والذي لا يخشى الله لا يعرفه، تكاد تكون الخشية متوازية في حركتها مع الخط العلمي، فإذا أردت مزيداً من الخشية فعليك بمزيد من العلم، وإذا بدا منك مزيد من الخشية فهذه علامة أنك على علم جيد بالله عز وجل، وهناك علم حجمه لا يكفي لخشية الله عز وجل، إذاً: هذا العلم ليس منجياً، العلم المنجي هو الذي في مجموعه يحملك على خشية الله عز وجل، والنبي أعلمنا بالله، فإذاً هو أشدنا لله خشية، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام، وفي الحديث:

((أنا أخشاكم لله))

أخرجه البخاري من حديث أنس:

((والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له))

وللشيخين من حديث عائشة:

((والله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية))

والعبرة هي الخشية، العلم ثمرته الخشية، فمن تعلم ولم يخشَ فلم يتعلم، كطالب يدرس حتى يكون له دخل معقول، فلو تعلم ولم يُوظف مثلاً ما قيمة هذه الشهادة ؟ في نظام الحياة العلم الديني مؤداه الخشية، فمن لم يخشَ فما قيمة هذا العلم ؟

الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها، بل من فرائضها، والفلاح في القرآن جاء مرة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

وجاء مرة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فلذلك الخشية والخشوع من ثمرات العلم، فإذا أردت أن تخشى الله عز وجل فعليك بالعلم، والعلم بلا خشية كالشجر بلا ثمر.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27)وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)

ظاهرة اللون في الجماد تظهر في الجبال، أما في النبات ففي الثمار، وعند الحيوانات في الأنعام، وفي البشر، ظاهرة اللون ظاهرة معقدة جداً، علاقتها بالنور وبإسقاط النور على الأشياء، وبامتصاص الشمس للألوان، وعدم امتصاصه لبعض الألوان، واللون له عدة وظائف مرة يثير المتعة في الجبال، وفي مظاهر الطبيعة، ومرة يثير الشهية في الفواكه والثمار، ومرة يدل على حقيقة متعلقة بالنبات، تحت قوله تعالى:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل)

هذه معرفة الله من خلال الكون، الكتاب المفتوح، وهناك معرفة بالله من خلال قرآنه، يقول الله عز وجل بعد هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ)

إنّ الّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ

معنى: يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ

يتلونه حق تلاوته، ومعنى يتلون كتاب الله يتلونه بتدبر، ومع التدبر إدراك، ومع الإدراك خشوع، ومع الخشوع عمل، وبعد العمل سعادة، تدبر، إدراك، خشوع، تطبيق، سعادة، كل هذه المعاني منطوية في قوله تعالى:

(إنّ الّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ)

مادام المرء قد تلا كتاب الله فقد شعر بحاجة إلى أن يتصل به، وأقاموا الصلاة، تلوا كتاب الله ؛ يتلون كتاب الله حق تلاوته، ينطقونه حق النطق، يفهمونه حق الفهم، يطبقونه حق التطبيق، كل هذه المعاني معنى التلاوة: القراءة، ومعنى الفهم، ومعنى التطبيق كلها تحت قوله تعالى:

(إنّ الّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَأَقامُوا الصّلَاةَ)

يعني الدين في مجمله: معرفة واتصال، وإحسان، معرفة بالله واتصال به، وإحسان إلى خلقه.

(إنّ الّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَأَقامُوا الصّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً)

وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً

ـ الإنفاق مطلَق:

هؤلاء تعرفوا إلى الله إما من خلال الكون، أو من خلال كلامه، أو منهما معاً، وأقاموا الصلاة، فاتصلوا بالله عز وجل، وأنفقوا مما رزقناهم، وهذه آية مطلقة، إذا آتاك الله علماً، أو جاهاً، أو قوة، أو خبرة، أي شيء آتاك الله إياه يجب أن تنفق منه.

(وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

ـ التجارة مع الله رابحة بكل المقاييس:

في الحقيقة: التجارة أن تنفق شيئاً، وتأخذ أكثر منه، التجارة مهما تنوعت فهناك رأس مال، وهناك مبيع، والفرق بينهما هو الربح، فأنت في الدنيا تتاجر مع الله، والله جل في علاه يحب أن تتاجر معه، وأن تربح عليه، لكنك في تعاملك مع الله لا تربح الربح القانوني الذي يربحه التجار، بل تربح مع الله أضعافاً مضاعفة، حينما ترى مقامك في الجنة ترى أن هذا المبيع لا يتوازن أبداً مع ثمن الشراء، الذي بذلته في الدنيا لا يتناسب أبداً مع العطاء في الآخرة، إنه ألوف ملايين الأضعاف، لذلك المؤمن من علامات خجله أنه يعرق حينما يرى مقامه عند الله عز وجل، ماذا فعل ؟

بالتجارة تشتري بمائة وتبيع بمائة وخمسين مثلاً، أو مائتين، وهو ربح فاحش، أو بثلاثمائة بالألف، لكنك مع الله عز وجل:

(مَثَلُ الّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

الربح أضعاف مضاعفة، لذلك قال الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة)

معنى التجارة وارد في آيات أخرى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة الصف)

اسأل تاجراً اشترى شيئاً ما بمائة، وباعه بعشرة آلاف ! تجده يكاد يقفز عن الأرض قفزاً، هذه بيعة دونها أية بيعة، إذا اشترى شيئاً بثمن بخس، وباعه بأضعاف مضاعفة فهو ربح مسعد، التجار يعرفون طعم الربح، لكنك إذا تاجرت مع الله عز وجل فالأرباح مضمونة، وأضعافها كثيرة، ولا يعلمها إلا الله، لذلك:

(إِنّ الّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَأَقَامُوا الصّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)

التجار حينما تزدحم عليهم الزبائن، وحينما تروج بضاعتهم، وحينما يبيعون بأرقام خيالية ينسون صلاتهم وعبادتهم، ويظنون أنهم سعداء بهذه الأرباح، بينما الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة من مسجد إلى مسجد، ومن درس علم إلى درس علم، ومن طاعة إلى طاعة، ومن بذل إلى بذل، فهؤلاء يبدو لأهل الدنيا أنهم خاسرون، ولكن ما قولكم لو عكست الآية ؟ هؤلاء الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية هؤلاء وحدهم يرجون تجارة لن تبور ! وهم فقط الرابحون.

هذه هي التجارة الرابحة التي صفقتها مع الله، أحياناً الإنسان بعمله يكون له هداية ودعوة إلى الله، أنا إذا رأيت أخاً كريماً له حرفة وله دعوة، أقول له: والله إن سعيك لهداية فلان أربح تجارة تفعلها في حياتك، وإن كل أعمالك التجارية مهما كبر حجم أرباحك لا تساوي هداية إنسان، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِي اللَّه عَنْه سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ:

((لأُعْطِيَنّ الرّايَةَ رَجُلا يَفْتَحُ اللّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فقامُوا يَرْجُونَ لِذلِكَ أيُّهُمْ يُعْطى، فغَدَوْا وَكُلّهُمْ يَرْجُو أنْ يُعْطى فقالَ: أيْنَ عَلِيٌّ ؟ فقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأمَرَ فَدُعِيَ لَهُ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ ! مَكَانَهُ حَتّى كَأنّه لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ فقالَ: نُقاتِلُهُمْ حَتّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فقالَ: عَلَى رِسْلِكَ حَتّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمّ ادْعُهُمْ إلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللّهِ لأنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النّعَمِ))

[صحيح البخاري]

فالإنسان السعيد الذي يتاجر مع الله، إذا تاجرت مع الله الربح مضمون، والربح نسبه عالية جداً، نسبه فلكية، وخيالية وقد لا يصدق حجم الربح مع الله عز وجل، لكنك إذا تاجرت في الدنيا الربح له سقف، يوجد من ينافسك في البيع، وقدرتك على الاستمتاع بهذه الأموال محدودة، فإذا جاء الموت فليس لك شيء، القدرة على الاستمتاع بالمال محدودة، مهما كنت غنياً ليس بإمكانك أن تأكل فوق ما يملأ معدتك، وليس بإمكانك أن تنام إلا على سرير واحد، وألا تلبس إلا ثياباً معدودة، وألا تكون إلا في مكان واحد، في وقت واحد، فالقدرة على الاستمتاع بالمال محدودة، والأرباح محدودة، والسقف موجود، وحينما يموت الإنسان يَدَع كل شيء حصله في حياته يوماً بيوم يفقده في ثانية واحدة، بينما إذا تاجرت مع الله عز وجل كانت الأرباح مضمونة لا سقف لها، وبإمكانك أن تسعد بها إلى أبد الآبدين ! فلذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً. هؤلاء:

(يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ

1 ـ أجر الله وافٍ مع الزيادة:

إنّ تعبك في الدنيا، أداؤك الصلوات في أوقاتها، ذهابك إلى مجالس العلم، غض بصرك، ورعك عن مال حرام، قولك دائماً: إني أخاف الله رب العالمين، ضبط شهواتك، ضبط جوارحك ولسانك، إنفاق مالك، وإنفاق وقتك، تحمل المشاق، الصبر على الطاعات، الصبر عن الشهوات، والصبر على الملمات، هذا كله سوف تجده في صحائفك يوم القيامة، ولن يضيع عليك شيء منه عند الله عز وجل، ولن يَتِرَكَ عملهم.

(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

من فضله فوق الأجور التي يستحقها، هذا الشيء ثمنه ألف مثلاً، فيعطيك مليوناً **!** أخذت الثمن وزيادة.

(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

2 ـ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ

غفر لهم أخطاءهم وذنوبهم، وشكرهم على أعمالهم الصالحة، غفور شكور: أخطاؤك غفرها لك، وحسناتك ضاعفها لك، وشكرك عليها.

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

1 ـ وحيُ الله حقّ:

هذا القرآن الذي أوحاه الله جل في علاه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو الحق، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يعدل ولا يلغى، والباطل الشيء الزائل، فأنت إذا كنت مع الحق فأنت في طمأنينة ويسر وبحبوحة، أما إذا كنت مع الباطل فأنت مغامر ومقامر، تغامر بسعادتك الأبدية، وتقامر بها، لأن الباطل كان زهوقاً، فإذا زهق الباطل زهق الإنسان معه، فكن مع الحق، وإلا فهناك مغامرة ومقامرة.

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

2 ـ إنّ اللّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

من اتبع كلام الخبير فهو في سعادة وطمأنينة:

خبير هو الذي خلقهم، يعرف طبيعة النفس، وما يصلحها، ويسعدها، ويطمئنها، ويعرف ما يشقيها، وما يبعدها، فإذا اتبعت كلام الخبير فأنت في سعادة، وأنت في حياتك الدنيا في كل قضية تبحث عن الخبير، إذا أردت أن تشتري مركبة تبحث عن خبير يفحصها لك، وإذا أردت أن تشتري بيتاً يجب أن تبحث عن خبير، يقدر لك ثمن هذا البيت، وإذا أردت أن تشتري آلة يجب أن تبحث عن خبير، فأنت بحاجة ماسة إلى الخبير، فإذا أردت أمر آخرتك، وكنت حريصاً على سلامتك وسعادتك ونجاتك وعلى دخولك الجنة فعليك بكلام الخبير، لأن الله عز وجل يقول:

(إنّ اللّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

3 ـ اجتماع صفة الخبرة والبصر في الله تعالى:

خبير بهم، وبصير بأحوالهم، هناك خبير غير بصير، وبصير غير خبير، لكن اجتماع الخبرة مع البصر في الله عز وجل شيء عظيم، خبير وبصير، فكم من خبير ليس بصيراً، فيتلاحى الرجلان: أنت لم تقل لي، لماذا لم تقل لي ؟ أنك لست بصيراً ؟ وكم من بصير ليس بخبير، شاهدت لكن لا أعرف أن هذا الشيء خطير، هناك من يرى، وليس عنده خبرة، وهناك من عنده خبرة، وعلمه محدود لا يرى، طبيب في بيته وأخوه في منزل آخر قد ارتفع ضغطه مثلاً، فالطبيب خبير، لكن ليس بصيراً، يقول الطبيب: لماذا لم تخبرني يا أخي ؟ مادام ضغطك بهذا المستوى أخبرني، فقد تجد الخبير ليس بصيراً، وقد تجد البصير ليس خبيراً، لكن الله جل في علاه خبير وبصير.

(إنّ الّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَأَقَامُوا الصّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(29)لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ(30)وَالّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ)

الحق هو الشيء الثابت الهادف الذي لا يتبدل ولا يتغير.

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

4 ـ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

من الكتب السماوية لأن المصدر واحد، بيد يدي النبي التوراة والإنجيل، جاءت قبله والقرآن يصدقها لأن الحق لا يتغير ولا يتعدد.

(بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(31) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(32)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(33)وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ

هذا الكتاب ؛ القرآن أورثه الله جل في علاه لعباده، اصطفاه لهم وأورثهم إياه، هذا الكتاب منحة السماء إلينا منهج فيه كل شيء، فيه خبر من قبلنا، ونبأ من بعدنا، وفيه حكم الله في كل شيء، هذا حلال، هذا حرام، هذا مقبول وهذا مرفوض، هذا يرضي الله، وهذا لا يرضي الله، فيه وعد ووعيد، وأمر ونهي، وحلال وحرام، وفيه مشاهد مستقبلية ومشاهد مضت.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

1 ـ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ

لم يعبأ به وجعله وراءه ظهرياً، لم يهتم به قرأه تبركاً، لكن حياته في واد، وأحكام القرآن في واد، هذا الذي لم يفقه مراد الله من هذا الكتاب، لم يفهم حكمه، ولم يأخذ بأوامره، ولم ينته عما عنه نهى، قرأه قراءة جوفاء، ولم يقف عند حقائقه الدقيقة فكأنه ظلم نفسه بذلك، هناك من أعطاك تعليمات خطيرة جداً في شأن موضوع خطير، وأنت لم تستخدمها فلماذا ؟ لأنك لم تعبأ بها، عدم اهتمامك بها جعلك تهملها، فهذا الذي ظلم نفسه.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)

فمن عبادنا ليس من الذين اصطفينا من عبادنا.

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

أحياناً يقول طبيب للمريض: مرضك ليس خطيراً، إذا اتبعت هذه التعليمات تشفى، أما إذا أهملتها يتفاقم، وعندئذٍ يصبح خطيراً، فهذا المريض إذا لم يعبأ بهذه التعليمات، ولم يهتم بها، بل سخر منها،

يكون ظلم من ؟ ظلم نفسه، ولم يظلم أحداً آخر، الطبيب قال لك: هذه الأكلات تؤذيك، وهذه الحركات تؤذيك، وهذه الشدائد النفسية تؤذيك، ابتعد عن هذه وهذه وتلك، إذا أردت أن تشفى من مرضك فعليك بهذه التعليمات، فإن أخذت بها فقد نجوت، وإن أهملتها فقد ظلمت نفسك، فهذا الذي ظلم نفسه بعدم تطبيق كلام الله عز وجل.

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

2 - وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

المقتصد بعضهم قال: هو الذي يجمع الحسنات والسيئات، هذا تفسير، التفسير الآخر: أنه يقف في الحدود الدنيا، أحل الحلال وحرم الحرام، لكنه ليس سباقاً إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

3 - وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

فهناك السابقون وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وهناك هالك وناجٍ ومتفوقٌ، المتفوق جعل كل حياته، وكل جهده، وكل وقته، وكل ماله، وكل شبابه، وكل عمره لله عز وجل، هذا باع نفسه لله، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمْ الْجَنّةَ)

(سورة التوبة)

باع حياته كلها.

(قُلْ إِنّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

وقته لله، عضلاته لله، خبراته لله، عقله لله، قلمه لله، لسانه لله، زواجه لله، حرفته لله، كل سكناته وحركاته في سبيل الله، هذا هو السابق.

(وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ(10)أُوْلَئِكَ الْمُقَرّبُونَ)

(سورة الواقعة)

كم عندكم الزكاة يا سيدي ؟ قال له: عندنا أم عندكم ؟ قال: ما عندنا وما عندكم ؟ قال: عندكم واحد في الأربعين، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، فأنت مخير بين أن تكون من المقتصدين، وبين أن تكون من السابقين، لكن إياك أن تكون من الظالمين.

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

(وَأَصْحَابُ الشّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشّمَالِ)

(وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ(10)أُوْلَئِكَ الْمُقَرّبُونَ)

موازنة بين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات:

فحينما تصلي الصلوات المفروضة، وحينما تحرص على صلواتك، وحينما تصلي صلوات النفل، وتنفق زكاة مالك، وفوق الزكاة صدقة، وحينما تتعلم ما كان فرض عينٍ، وما كان فرض كفاية، وحينما تعمل آناء الليل وأطراف النهار بما يرضي الله عز وجل، فأنت من السابقين، وأنا أعجب ممَن يطمح لنيل الدنيا ولا يطمح لعطاءات الآخرة، ممن يزهد في الآخرة، أو يرضى فيها بأدنى المراتب، ولا يرضى في الدنيا إلا بأعلى المراتب، من هو الزاهد ؟ هو الذي زهد في الدنيا ويؤثر الآخرة.

(ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

هذا أدى الصلوات الخمس، وغض بصره عن الحرام، وتحرّى الحلال في دخله، ثم أعطى نفسه المباحات، لا أقول: المحرمات، بل المباحات، فهذا الذي فعل من الدين الحدود الدنيا لم يفعل إلا الفرائض والأوامر، وترك المنهيات وأطلق نفسه للمباحات، هذا مقتصد، وأما الذي وقع في الحرام، وترك الأمر والنهي فهذا ظالم، أما الذي فعل الأوامر وترك النواهي، وفعل النوافل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إِنّ اللّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرّبَ إِلَيّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبّ إِلَيّ مِمّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرّبُ إِلَيّ بِالنّوَافِلِ حَتّى أُحِبّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنّهُ...))

[صحيح البخاري]

(ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)

الله أعطى التعليمات والمنهج الذي عليه يقوم فلاح العبد وسعادته، هدانا وانتهى الأمر، هدانا لهذا الكتاب، هذه التعليمات والتوجيهات، وافعل ولا تفعل، والحرام والحلال والمباح، والخير والشر، والسعادة والشقاء، وطريق الإيمان والتفكر كله في هذا الكتاب، هذه هداية الله عز وجل.

(ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

بإهماله، وهذا الكتاب بين يدينا، إن أحببت أن تقرأه، وتطبقه هنيئاً لك، وإن أحببت أن تهمله ليس لديك وقت، فقط وقتك لقراءة الجرائد كل يوم وتسمع أخباراً فقط وأحاديث فارغة، لا يهمك إن ظلمت نفسك بعدم اتباع الكتاب، أقول: أن يطّلع الإنسان على ما يجري من أحداث يومية فلا يأمن بأس عليه، لكن على ألا ينسى كلام الله عز وجل، إذا ترك القرآن نهائياً فقد ظلم نفسه، يجب أن تفقه ما حولك، هذا

شيء واجب، لكن أن يشغلك عن ذكر الله، أن يشغلك عن كلام الله عز وجل وتلاوة القرآن، هذا ظلم كبير للنفس.

(وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

يؤدي مما عليه الحدود الدنيا فقط، الخطبة فقط يحضرها، أما الدروس فلا يحضرها، هذه فرض، وهذا مقتصد، أما السابق بالخيرات فيريد مزيداً من العلم، يريد أن يتعلم كلام الله، والحديث الشريف والسيرة المطهرة، أمر الله عز وجل به ونهى عنه، يريد أن يصبح داعية ويهدي الناس، فهو طموح.

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

هذا التفوق والفوز والنجاح والفلاح، هذه السعادة وهذا الذكاء، فاختار أن يكون سابقاً بالخيرات، فالإنسان لا يكون في الدنيا سباقاً وفي الآخرة زاهداً ليعكس الآية، ليكن في الدنيا قنوعاً وفي الآخرة سباقاً، وليكن طموحاً إلى مراتب عليا عند الله عز وجل.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

كلمة (هو) تفيد القصر، هذا وحده هو الفضل، لا زهرة الحياة الدنيا، فالإنسان أحياناً يرى بيتاً فخماً يسيل لعابه، ويظن هذا البيت فضلاً كبيراً منحه الله لصاحبه، يرى سيارة فارهة يظنها فضلاً كبيراً، يرى منصباً رفيعاً يظنه فضلاً كبيراً، يرى فلاناً اقترن بزوجة من مستوى رفيع يظن ذلك فضلاً كبيراً، يرى فلاناً عنده بساتين ومزارع وأموال منقولة وغير منقولة، يظن ذلك فضلاً كبيراً، لكن الله عز وجل يخبرنا أن الفضل الكبير أن تكون سابقاً في الخيرات، أن يكون باعك بالخيرات كبير، الغنى غنى العمل الصالح.

ما هو الفضل الكبير ؟ ثمنه هذا السبق في الخيرات، ثمرته:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

أوصاف الجنة ليس لنا أن نزيد فيها، الله أعلم ما نوع الذهب، وما نوع اللؤلؤ، وما نوع الحرير الذي يلبسه أهل الجنة، لكن الأصل في أن الأوصاف الغيبية أن نكتفي بنصها دون أن نزيد عليها، لأن أية زيادة على الإخباريات زيادة ظنية ليست راجحة، بل مرجوحة.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

1 ـ الحياة كلها أحزان:

الدنيا كلها أحزان، لا أعتقد أن هناك إنسانا إلا والحزن معه دائماً، يكون المرء طفلاً صغيراً فيدخل المدرسة، أمامه عقوبة إذا لم يكتب الوظيفة، أو لأنه تأخر، من مرحلة لأخرى، كل مرحلة فيها متاعب، كان طفلاً بالابتدائي، ثم بالإعدادي، وبالثانوي، ثم دخل الجامعة، ومن بعد تزوج وجاءه أولاد، كبر سناً فواجهته متاعب صحيّة، الحياة كلها أحزان، من عرفها لم يفرح برخاء، ولم يحزن لشقاء، أجمل كلمة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

إذاً: الدنيا كلها حزن وقلق ومتاعب وهموم، هكذا شاء الله أن تكون، ركبها على ذلك كي نتوق إلى الله عز وجل.

عن قتادة بـن النعمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أنزل الله جبريل في أحسن ما كان يأتيني في صورة فقال: إن الله تعالى يقرئك السلام يا محمد، ويقول لك: إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري، وتكدري، وتضيقي، وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي...))

[البيهقي في شعب الإيمان تصحيح السيوطي: ضعيف]

لكن ليس في الآخرة قلق، أما في الدنيا إذا كبر الرجل يحزن، فإن شاب شعره اعتراه همٌ، فإن ضعف بصره يتألم، وإن ضعف جسمه يتألم، الزمن ليس في صالح الإنسان في الدنيا، الزمن يسير نحو الأضعف والنهاية، إذاً: الحياة مركبة على الحزن، لكن الآخرة ليس فيها حزن.

الإنسان انتقل من دار إلى دار فقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

معنى ذلك أن الدار الأولى كلها حزن، كأن الدنيا مركبة على الحزن أساسها الهموم، واكبر حزن فيها تركها ومفارقتها، وإذا تعلق الإنسان بالدنيا تعلقاً شديداً، ولم يعمل للآخرة تقطع قلبه حسراتٍ على فراقها حينما يشعر بدنو أجله يعتريه حزن لا يوصف، هذه الدنيا دار عمل، وليست دار أمل، ممر وليست مقراً، دار تكليف لا دار تشريف، فأساسها أن من عرفها، وعرف حقيقتها جعلها دار ممر فحسب، ومن لم يعرفها جعلها دار مقر، فإذا نزعت منه ذابت نفسه حسراتٍ، فالانتقال من دار لدار لابدّ أن يكون على بصيرة.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

الحزن إذا وصف للدار الأولى (الدنيا)، فمن أجل ألا تكون دار حزن فلنجعلها دار عمل، لنجعل التعلق في الآخرة، لنجعل محط الرحال في الآخرة، لنجعل الدنيا كلها مسخرة للآخرة، إذا جعلت الدنيا مزرعة الآخرة ومطية الآخرة، وجعلت كل ما فيها في خدمة الآخرة فقد فزت واللهِ، ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: 77)

كل شيء آتاك الله في الدنيا من صحة وشباب، ومال وجاه وعلم، وخبرة ووقت، وعضلات اجعلها في سبيل الله، عندئذٍ لا تكون الدنيا دار حزن على بل العكس.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى أول الآية الرابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

(سورة فاطر)

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

1 ـ من نِعم الله الشدائد الحاملة على طاعته:

هؤلاء الذين قالوا: هم أهل الجنة، حينما دخلوا الجنة قالوا: الحمد لله، يعني أن كل شيء ساقه الله لهم في الدنيا إذا أوصلهم إلى الجنة فملخص العلاقة بينهم وبين الله في الدنيا والآخرة أن الحمد لله، وأهل الجنة يمتلئ قلبهم امتناناً وشكراً لله عز وجل، فإذا ساق الله للإنسان في الدنيا بعض الشدائد ليعينه على نفسه، ليحمله على طاعته فهذه نعمة باطنة.

توضيحاً لهذا المعنى: لو أن مؤسسة أرادت أن تعين موظفاً فيمكن أن تجعل من شروط التعيين أنه لابد من ستة أشهر كمدة تدريبية اختبارية، ثم إن هذا الموظف التحق بعمله وتصرف، فمديره كلما رآه أخطأ سجلها عليه، فأخطاؤه تراكمت، فلما انتهت ستة الأشهر قال له: ليس لنا بك حاجة وصرفه.

هذا موقف فيه عدل كامل، امتحنه المدير، ورسب في الامتحان فصرفه، هناك موقف فيه رحمة، فحينما يخطئ هذا الموظف يأتيه التوجيه: افعل كذا، ولا تفعل كذا، يضغط عليه تارةً، يعنفه تارةً، يشدد عليه تارةً، إلى أن يستقيم عمله في هذه الشركة، فإذا مضت ستة أشهر صار مَرْضياً عند أصحابها، واستمر في العمل، فالموقف الثاني إذاً موقف رحمة.

ربنا سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى كان من الممكن بعد أن أعطانا عقلاً، وخلق كوناً، وفطرنا فطرةً، وأنزل كتاباً، وتركنا وشأننا فقد نغفل، وقد يجمح عقلنا، وقد تنطمس فطرتنا، وقد ننسى الآيات الدالة على عظمته، فإذا جاء ملك الموت كنا ـ صفر اليدين ـ واستحققنا دخول النار، لكن موقف الله جل وعلا هو التضييق، والتشديد، والتربية، والمعالجة، فإذا انتهت كل المعالجات وكل الشدائد، وكل المضايقات،

وكل الأهوال، إلى أن عرفنا الله، واستقمنا على أمره، وزكت نفوسنا وأصبحت أهلاً لدخول الجنة، عندئذٍ تنقلب كل هذه الشدائد إلى نعم باطنة.

الإنسان حينما يعالج، وحينما تنجح المعالجة، حينما يصاب بمرض، ويأتيه الطبيب، ويعطيه تعليمات قاسية، ويشدد عليه إلى أن يشفى من مرضه تماماً يمتلئ قلبه امتناناً لله عز وجل، إذاً: حال أهل الجنة كذلك المريض، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون في طريقهم.

النبي عليه الصلاة والسلام كان يسأل الله الجنة، وما قرّب إليها من قول أو عمل، ويعوذ به من النار وما قرب إليها من قول أو عمل.

إن أهل الجنة حينما يرون الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وحينما يرتاحون من عناء الدنيا، من القلق، من الخوف، من توقع المصائب من الكِبَر، من المرض، حينما يصلون إلى الجنة يقولون: الحمد لله، لكن هذه الكلمة لسان حالهم، نحن نستمع في الدنيا إلى آلاف الأشخاص، وهم يقولون: الحمد لله، قد تصبح هذه الكلمة جوفاء لا معنى لها، تقول له: كيف الصحة، يقول: الحمد لله، يقولها وهو ساهٍ لاهٍ، ولكن هذه الكلمة حينما يقولها أهل الجنة يقولونها بكل وجودهم، قال تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

2 ـ الدنيا أحزان بعضها فوق بعض:

وكأن الله جل في علاه لخص الدنيا كلها بأنها حزن في حزن، وما من مرحلة من مراحل الحياة إلا وفيها أحزان لا تنقضي، إن كان في التعليم، في الزواج، في تزويج البنات، في معاملة الأصهار، في العمل التجاري، والحياة هكذا جعلت، وهكذا صممت، فقد أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي وتمرري، وتكدري، وتضيقي على أولياءِ حتى يحبوا لقائي.

هذه الدنيا تلخص بالحزن، والآخرة تلخص بالسرور، فشتان بين من يؤثرها على الآخرة فيخيب ظنه، وشتان بين من يؤثر عليها الآخرة فيسعد في الدنيا والآخرة، تسعد بها متى ؟ إذا عرفتها، إذا عرفتها أنها مبنية على النقص، إذا عرفتها أنها مبنية على الحزن، إذا عرفت أنها مبنية على الابتلاء، إذا عرفتها أنها دار مرور، وليست دار مقر، إذا عرفتها أنها دار تكليف، وليست دار تشريف، إذا عرفتها أنها دار عمل وليست دار جزاء.

لذلك أجمل كلمة تقال في شرح هذه الآية خطبة النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء ـ وسل أيّ إنسان شئت: هل تخلو حياة الإنسان من بعض المتاعب، من بعض النقص، من بعض الهم، من بعض الحزن ـ إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء))

[ورد في الأثر]

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34))

3 ـ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

غفور لما وقعنا فيه من ذنوب، وشكور لما فعلناه من صالحات، اثنان يغطيان كل أحوالك إذا زلت قدمك، فهو غفور، وإذا عملت صالحاً فهو شكور، إذا أخطأت فهو غفور، وإذا أحسنت فهو شكور، إذا منعت فهو غفور، وإذا أعطيت فهو شكور، إذا خرجت عن المنهج فهو غفور، وإذا التزمت المنهج فهو شكور، غفور شكور اسمان من أسماء الله الحسنى يغطيان كل أحوالك.

(إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34))

ربنا ماذا ؟

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ)

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ

1 ـ الرعاية والحفظ والتأييد من فضل على المؤمن:

لولا أنه هدانا، لولا أنه ذكرنا، لولا أنه ربانا، لولا أنه جمعنا مع أهل الحق، لولا أنه ضيق علينا حينما غفلنا، لولا أنه عاقبنا حينما انحرفنا، لولا أنه سما بنفوسنا، لولا أنه أنار لنا الطريق، لولا أنه تولانا، كلكم يدعو في صلاة الفجر: اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت.

أيها الإخوة الأكارم، حينما يشعر المؤمن أن الله يتولاه بالرعاية، والحفظ، والتأييد، والمعالجة، فليطمئن قلبه، ولتطب نفسه، لأنه مطموع فيه، ومطلوب إليه أن يقبل على الله عز وجل، أما حينما يعصي الإنسان الله عز وجل، والله عز وجل لا يعاقبه فهو في حالة صعبة جداً، في حالة ميؤوس منها، لذلك إذا شعرت أن الله يتابعك وأن الله يدقق عليه، وأنك حينما زلت قدمك جاء العلاج، وحينما غفلت جاء

التذكير، وحينما قصرت جاءت بعض المصائب فهذه بادرةٌ طيبة جداً، لأنك مؤهل لأن تكون مؤمناً خالصاً.

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ)

2 ـ الدنيا دارٌ دنية، والآخرة دار المقامة الأبدية:

لقد سمح لنا أن ندخل هذه الدار، دار المقامة، الله عز وجل سمى الدنيا الحياة الدنيا، وقد نغفل أحياناً عن معاني الكلمات، حياة دنيا، والآخرة حياة عليا، دنيا في كل شيء، دنيا في مدتها، والإنسان حتى يستقر يحتاج إلى أربعين سنة، وهذا في أحسن الظروف حتى يتزوج، ويكون له بيت معقول، ودخل معقول، وسيلة نقل، مركز مرموق، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، معنى هذا أنه بقي له نصف المدة، نصف المدة إعداد، ونصف المدة قطف ثمار، ولا تخلو حياة الإنسان في النصف الثاني أو في الثلث الأخير من منغصات.

الله سماها حياة دنيا، حياة دنيا في مدتها، دنيا في متاعبها، لذلك قال سيدنا علي: **<< يا دنيا، طلقتك بالثلاث، غري غيري، يا دنيا، شأنك قليل، وأمدك قصير >>.**

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ)

الإنسان العاقل أيها الإخوة هو الذي ينقل اهتمامه وكل أهدافه إلى الدار الآخرة، لأنها دار المقامة، والدار الآخرة مهيأة لإسعادك، أما هذه الدنيا فمهيأة كي تعرف الله فيها، مهيأة للعمل صالح، مهيأة للاختبار، مهيأة للابتلاء، تبتلى بالفقر، تبتلي بالغنى، بالصحة، بالسقم، كل شيء في الدنيا فيه ابتلاء.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

إذاً: الدنيا كلها دار حزن، والآخرة كلها دار نعيم.

(إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34)الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ)

3 ـ الجنة محض فضلٍ، والنار محض عدلٍ:

لذلك قال علماء التوحيد وعلماء العقيدة: الجنة محض فضل، بينما النار محض عدل، إذا دخل الإنسان النار فبعدل الله، وإذا دخل الجنة فبفضل الله، وعمله مفتاح للجنة، وليس ثمن الجنة، وشتان بين المفتاح و الثمن، كبيت يساوي ثلاثون مليونًا مفتاحه يساوي خمسا وعشرين ليرة، فإذا كان معك مفتاح البيت شيء، وإذا كنت قد دفعت الثمن فشيء آخر، فالجنة بفضل الله، والعمل الصالح مفتاح للجنة.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)

لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ

فلان أجرى فحصًا، وقال له الطبيب: قلبك متعب، الشرايين متعبة، وكذلك الكليتان متعبتان، الأعصاب متعبة، فيها توتر عصبي، دائماً الإنسان متعب، كلما التقى بطبيب يقول له: هذا الجهاز، هذا النسيج، هذا العضو يشكو من قصور، من تعب، حتى لو أن الإنسان كان في أعلى درجات الصحة فهناك أمراض الشيخوخة سببها تقدم السن فقط، يصبح لديه تصلبٌ في الشرايين.

إذاً، في الآخرة لا نصب، وليس من الممكن أن يكون هناك نصب إطلاقاً.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)

1 ـ معنى المسّ:

إذا وضع الإنسان يده في النار شيء، وإذا مس بإصبعه مكواةً شيءٌ آخر، هذا مس بأقل زمن ممكن، وأقل مساحة ممكنة، والإنسان أحياناً يحب أن يجرّب المكواة، يا ترى التيار يعمل فيها ؟ يضع إصبعه بعد أن يبله بلعابه بأقل مدة ممكنة، وأقل مساحة ممكنة، هذا المس، حتى على مستوى المس لا يوجد نصب، لم يقل لا يصيبنا فيها نصب، بل قال:

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35))

2 ـ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ

واللغوب هو الإعياء، والإعياء أعلى درجات التعب، أحياناً يضع الإنسان على يده ثقلاً، ويرفعه زمناً، وبعد حين يشعر بتعب، ولكن بعد حين أطول يشعر بالإعياء، ولا يستطيع أن يتابع، وإنسان يركض، بعد حين يشعر بالتعب، لكن بعد حين أكثر يقف، ويقول: لا أستطيع، كلمة (لا أستطيع) يعني أصابه الإعياء، ربنا عز وجل نفى الإعياء، وهو شدة التعب، ونفى النصب، فأيّ نوع من أنواع التعب ليس وارداً في الجنة، وكلمة (نصب) جاءت نكرة.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)

يعني أدنى حالات النصب غير موجودة، أدنى حالات التعب غير موجودة، وأشد حالات التعب غير موجودة.

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35))

هذه هي الجنة، أيستغنى عنها ؟ أنسعى إلى الدنيا، ونغفل عن الجنة ؟ أنسعى إلى دنيا قصيرة مشحونة بالمتاعب والهموم، ولا تستقيم على حال فيها ؟ وهي دار التواء لا تصفو لإنسان، ونترك الجنة التي أعدها الله للمؤمنين، وطريق الجنة ميسور، وطريق النار موجود مبذول.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا)

هذه صورة مشرقة من مشاهد أهل الجنة، أناس متنعمون في جنة وارفة الظلال، تجري من تحتها النهار، الأشجار قطوفها دانية، العسل مصفى، اللبن لم يتغير طعمه، في تجلٍ من الله عز وجل، مع كل هذا النعيم رضوان من الله عز وجل أكبر من كل نعيم، هذه حال أهل الجنة، وقد ورد في بعض الأثر أن المؤمن حينما يطلع على مقامه في الجنة يصيح صيحةً يقول: لم أرَ شراً قط.

كل المتاعب التي ساقها الله له في الدنيا ينساها، الطالب أحياناً حينما ينجح بتفوق ينسى كل المتاعب، عام دراسي أمضاه في غرفة قمئة، وقد قطع علاقته بالناس، وبذل جهداً جهيداً، حينما يقرأ اسمه في الجريدة، وقد تفوق في المجموع ينسى كل التعب، وحينما يرى الكافر مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط، كل العز المادي الذي ناله في الدنيا ينساه، وكل الطيبات التي استمتع بها ينساها، وكل اللذات، وكل الموبقات التي غرق بها ينساها، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35))

وَالَّذِينَ كَفَرُوا

الآن إليك مشهداً آخر من مشاهد أهل النار، الصورة المقابلة، وربنا عز وجل يريدنا أن نتجه إليه رغباً ورهباً، أحوال أهل الجنة ترغبنا في الجنة، وأحوال أهل النار تخوفنا منها، والإنسان أحياناً ينطلق إلى الله عز وجل حينما يجتمع في قلبه رجاء وخوف، الرجاء وحده يدعو إلى التقصير، والخوف وحده يدعو إلى اليأس، فلابد من أن يمتلئ قلب المؤمن بالخوف تارةً، وبالرجاء تارةً أخرى، وقد يدل على ذلك الحديث الذي ورد في الأحاديث القدسية:

((قال، يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

فالآلاء من أجْل التعظيم، والنعماء من أجل الحب، والبلاء من أجل الخوف، فلابد من أن يكون في قلب المؤمن قدر أدنى من التعظيم ومن الخوف، ومن الحب، فربنا عز وجل ذكر صورتين: الصورة الأولى مشرقة تصف أهل الجنة، قال تعالى:

(ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(32)جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(33)وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَذْهَبَ عَنّا الْحَزَنَ إِنّ رَبّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

(سورة فاطر)

أما أهل النار فجاء وصفهم في الصورة الثانية، فنعوذ بالله من أهل النار، قال تعالى:

(وَالّذِينَ كَفَرُوا)

1 ـ معنى الكفر ودلالته:

معنى الذين كفروا أي كذبوا بالحق، ومعنى كفروا أي أعرضوا عن الله، الكفر له صفة عقلية وصفة نفسية، بعقله كذب الحق، يكفي أن يقول هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمان هذه كلمة الكفر، أحد ممن كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم سمعه ابن زوجته يقول: والله لو أن محمداً صادق فيما يقول لكنا شراً من الحمر. ربنا عز وجل قال:

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

(سورة التوبة)

هذه كلمة الكفر، فإذا كذبت النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كذبت هذا القرآن فهذا كفر.

الحقيقة هناك موقف دقيق جداً، آية قرآنية تضمّنت حكماً قرآنياً، فلو أنك قرأت قوله تعالى مثلاً:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية 30)

هذا كلام الله، فلابدّ أن تأخذ، وتعمل به، فحينما لا تغض البصر ما موقفك ؟ هل أنت على صواب ؟ إن كنت على صواب كأنك تقول: القرآن ليس واقعياً، وإذا كنت تعصي الله عز وجل فكيف تستقيم نفسك ؟ كيف تتوازن مع ربك إذا كان هذا أمره، وأنت تخالف أمره ؟ فالإنسان ينبغي أن يأخذ موقفاً واضحاً إذا ثبت له أن هذا كلام الله، وأن هذا حكم الله، وأن هذا أمر الله، وأن هذا نهي الله عز وجل فكيف تسعه الدنيا إذا عصى أمر الله عز وجل ؟

(وَالّذِينَ كَفَرُوا)

1 ـ الكفر لكليّ والكفر الجزئيّ:

كذبوا وأعرضوا، كذبوا بالحق، كذبوا بالدين، كذبوا بالقرآن، كذبوا بنبوة النبي، وهناك تكذيب كلي وتكذيب جزئي، فحينما لا تعتقد أن الربا محرم، وتقول: هذا ليس ربا، بل هذا معونة مثلاً، حينما لا

تعتقد أن الربا محرم فهذا كفر جزئي لبعض أحكام القرآن، وكذلك حينما لا تعتقد أن هذه الفريضة واجبة وقد قال الله عز وجل:

(وَلِلّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ)

(سورة آل عمران: من الآية 97)

فهذا كفر جزئي بهذا الفرض، فالكفر كلي أو جزئي، فحينما تكذب هذا الدين كله، أو حينما تكذب القرآن كله فهذا كفر كلي، وحينما لا تعتقد أن بعض أحكامه القرآن صحيحة، أو معقولة، أو مناسبة، فهذا كفر جزئي.

(وَالّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا)

لَهُمْ نَارُ جَهَنّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا

حالة صعبة جداً، لا هم موتى ولا هم أحياء، قال تعالى:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

(سورة طه)

(لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلّ كَفُورٍ(36))

الموت مريح، والحياة الناعمة مريحة، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياةً ناعمة، يحيا حياةً متعبة يذوق فيها ألوان الحريق:

(والّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلّ كَفُورٍ(36))

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا)

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا

كلهم يصيح، هذا يقذف بالتهمة إلى فلان ؛ لولا أنت لما كنت في هذا المكان، وهذا يتأوه، وهذا يتألم، وهم يصرخون، إنها صورة معبرة، يَصْطَرِخُونَ، أما المؤمنون فعلى سرر متقابلين، مدعوون إلى حفلة راقية، ويجلسون على أرائك مريحة، ويتبادلون أطراف الحديث بصوت معتدل، وبعبارات لطيفة، وأهل النار يتصايحون.

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الّذِي كُنّا نَعْمَلُ)

راقب عملك، فإن العمل السيئ سببُ دخول النار:

إذاً: بشكل ملخص ومكثف: سبب دخولهم النار عملهم السيئ، ونحن نستفيد من هذه الآية في الدنيا، عملك ما نوعه ؟ هل عندك إساءة بعملك ؟ هل عندك خروج عن منهج الله عز وجل ؟ هل كنت سبباً لإيذاء الخلق ؟ هل تبني غناك على فقر الناس ؟ هل تبني عزك على إذلالهم ؟ هل تبني مجدك على أنقاضهم ؟ هل تبني أمنك على خوفهم ؟ هل تبني حياتك على موتهم ؟ هل لك عمل طيب ؟ هل أساس حركتك في الحياة أخذ أم عطاء ؟

أهل الدنيا تركيبة حياتهم قائمة على الأخذ، يأخذون كل شيء، يأخذون أموال الناس، يأخذون خدمات الناس، يأخذون جهود الناس، يأخذون العز من إذلال الناس، هؤلاء أهل الدنيا، بينما أهل الآخرة يعطون الناس، يعطون من العلم، من المال، من الخدمات ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم.

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

يا أيها الإخوان، كل إنسان له عمل طبعاً، له حركة في الحياة، له حرفة، فهل فيها غش وفيها كذب، وتدليس، وابتزاز لأموال الآخرين ؟ وهل فيها سيطرة، فيها احتكار، وتحكم، واستغلال ؟ لك وظيفة، فهذه الوظيفة هل تستخدمها في ابتزاز أموال الناس أم في خدمة الناس ؟ كل إنسان له حرفة، هل تنصح المسلمين أم تغشهم ؟ هل تصدقهم أم تكذبهم ؟ هل تنفعهم أم تضرهم ؟ هل تأخذ أموالهم حلالاً أم تبتز أموالهم ؟ عملك شيء أساسي، وكل إنسان له عمل، فليفحص عمله، وليختبر تصرفاته.

علاقتك في البيت، هل أنت محسن أم مسيء ؟ علاقتك مع جيرانك، علاقتك مع من فوقك، مع من دونك، مع من حولك.

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

إذاً: لم يكونوا يعملون الصالحات، كانوا يعملون السيئات، إذاً: علامة المؤمن أنه يعمل الصالحات في كل مناحي حياته.

يأتي الجواب، جواب رب العزة:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ

1 ـ أما نظرت حولك في سنوات عمرك كلها !؟

عشت ستين سنة، ستين صيفاً، ستين خريفاً، ستين ربيعاً، ستين شتاءً، أنجبت الأولاد، وهذا درس بليغ لك، هكذا كنت من ماء مهين، من حوين، وهذا الطفل الذي أمامك من خلق الله عز وجل، هذا درس يعرّفك حقيقتك، فطعامك آية، أولادك آية، شرابك آية، ماء المطر آية، السحاب آية، التضاريس التي حولك آية، الأطيار آية، الأسماك آية، الأنعام آية النباتات آية، الفواكه آية، الخضراوات آية.

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ)

بث في الأرض آيات للموقنين، الكون كله ينطق بعظمة الله، ينطق بتوحيد الله، ينطق بوجود الله، ينطق بكمال الله، في كل شيء له آية تدل على أنه واحد، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، تجسيد لصفاته الفضلى سخر لك الكون، أعطاك العقل، أعطاك الفطرة، أعطاك الكتاب، أعطاك الأنبياء والمرسلين، عن كل هذا غفلت، إنها قاصمة الظهر.

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

2 ـ لقد كان العمر كافيًا للتذكُّر والتفكّر:

يعني عمّرناكم عمراً كافياً كي تتذكّر، القرآن الكريم نذير، اقرأ القرآن فهي تعليمات الصانع، توجيهات الصانع، افعل ولا تفعل، إنه منهج قويم، وصراط مستقيم، وحبل الله المتين، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، يهدي للتي هي أقوم، يهدي إلى صراط مستقيم، نور مبين، هكذا القرآن بين أيدينا، نقرؤه آناء الليل وأطراف النهار، أقرأ ما فيه، تدبر ما فيه، مسكين هذا الذي يقرؤه ولا يتدبر ما فيه.

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ

أحياناً ترى طالباً طول العام الدراسي نائماً يلهو ويلعب، يدخل إلى قاعة الامتحان يصفِن واجماً، يُقرع الجرس، وحين سحب الورقة من بين يديه يقول: دقيقة أستاذ، طول العام الدراسي نائم وثلاث ساعات

يصفن ساهياً، وعند انتهاء وقت الامتحان يطلب دقيقتين أو ثلاثاً، وحين تشد الورقة منه تتمزق، هذا كلام فارغ، إذاً: هذا قائم على استهتار وعبث..

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

ما هو النذير ؟

1 ـ القرآن:

أيها الإخوة الأكارم... أولاً القرآن هو النذير، اقرأه بشكل جدي، اقرأه مع تدبر، اقرأه على أنه تعليمات خالق الكون، اقرأه على أنه كتاب خطير جداً، فيه تحديد لمسارات الحياة، فالقرآن نذير.

2 ـ النبيُّ:

والنبي عليه الصلاة والسلام بأحاديثه النبوية الشريفة هو النذير.

ذكرت في الخطبة اليوم حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي، أحمد]

الإنسان يعيش يا ترى إلى ما شاء الله ؟ نستيقظ، ونعمل، وننام، ثم هناك مفاجأة، بعد سنة أو أقل أو أكثر، بل هناك مفاجآت، وسوف ينتهي الأجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((... بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا...))

فقر ينسينا كل شيء، أو غنىً مطغياً، كما حصل لثعلبة الذي عاهد الله، قال تعالى:

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة التوبة)

فالغنى مطغ، والفقر منس، والمرض مفسد، والهرم مفند، وعند سن الشيخوخة يرد الإنسان إلى أرذل العمر، فيضعف تفكيره، ويغيب عن وعيه.

حدثني صديق له أم توضع في مكان جلوسها وتربط، قلت له: لماذا ؟ قال: لكيلا تأكل من نجسها، ضعف تفكيرها، وانتهى أمرها إلى أرذل العمر.

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

فالنبي نذير بلغنا، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ: لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ: قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلاسِلِ))

[أحمد]

أقرأ الأحاديث كما ينبغي أن تقرأ كلام الله قراءةً جادة فيها تدبر، تعقل، فيها فهم، فيها دقة، فيها عمق، كذلك ينبغي أن تقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو النذير أيضاً، كتاب الله هو النذير، والنبي هو النذير.

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

2 ـ سن الأربعين:

كذلك قالوا: النذير سن الأربعين، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف)

في الشباب طيش، وجهل، واندفاع، ومراهقة، أما إذا بلغ الأربعين توازن، فكل تقصير ربما يعزى إلى المراهقة، إلى السن الصغيرة، أو إلى الطيش، أو إلى الاندفاع، أما إذا بلغ أربعين عاماً فقال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

(سورة الأحقاف)

الأربعون أيضاً نذير، يعد عذرا، قد أعذر من أنذر، وسن الأربعين نوع من النذير في كتاب الله، وهناك عمر أشد، أشد حساباً، وهو الستون.

2 ـ سن الستّين:

ومن بلغ الستين أيعصي الله عز وجل في الستين ؟ أو يجلس في المقاهي ويلعب النرد ؟ وفي الستين يملأ عينيه من الحرام ؟ وفي الستين أيغتاب الناس ؟ هو على وشك أن يغادر الدنيا وهو متلبس بمعصية الله عز وجل، لذلك قال الله عز وجل في بعض الأحاديث القدسية:

((أبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد))

[ورد في الأثر]

في الستين وهو سهرة مختلطة، في الستين وتستمتع بامرأة لا تحل لك أعوذ بالله.

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

فصار القرآن هو النذير، والنبي هو النذير، وسن الأربعين هو النذير، وسن الستين هو النذير.

3 ـ المرض:

وقالوا: الحمّى هي النذير، المرض هو لفت نظر، الله عز وجل من رحمته التامة أنه يرسل المرض أحياناً فيوهم صاحبه بأنه دنا أجله لعله يتوب.

حدثني شخص عن رجل كان يقود سيارته في أحد شوارع دمشق، وهو يقود سيارته وزوجته إلى جانبه، فجاءته أزمة قلبية، ومن غرائب الصدف أن أحد أصدقائه كان إلى جانب السيارة، فنزل ووضعه في المقعد الخلفي، وقاد السيارة إلى أحد المستشفيات، بعد أن صحا قليلاً قال: ائتوني بآلة تسجيل، وقال بالحرف الواحد: المحل الفلاني ليس لي، بل لإخوتي فلان وفلان، وقد أخذته منهم اغتصاباً، والأرض الفلانية لفلان، وبدأ يعترف بالأموال التي ليست له، وكان قد اغتصبها، لكن بعد أسبوع شعر أن هذه الأزمة انحسرت كلياً فقال: أين الشريط ؟ أعطوه إياه فكسره، وعاد إلى سيرته الأولى، وبعد ثمانية أشهر جاءته أزمة أخرى فأودت به.

إذاً: حكمة الله جل في علاه شاءت أن أرسل له الأولى !! الأولى نذير، فإذا كان الإنسان تاركًا الصلاة، آكلا المال الحرام، مغتصبا أموال الآخرين فهو في ظلمات، فيأتي المرض نذيراً، أن انتبه يا عبدي، المغادرة أصبحت وشيكة، يجب أن نعلم علم اليقين أن بعض الأمراض تعد نذيراً من الله عز وجل.

فصار القرآن نذيراً، والنبي نذيراً، والأربعون نذيراً، والستون نذيراً.

4 ـ الشيب:

والشيب نذير، فما حكمة الله في شيب الشعر ؟ طريقة لطيفة جداً، إشعار لطيف جداً من قِبل المولى جل وعلا أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعد ؟ أحياناً في بعض القرى الكهرباء ليست مستمرة في الليل، فالساعة الثانية عشرة ينقطع تيار الكهرباء، فقبل عشر دقائق تطفأ ثانية واحدة، يعني استعدوا، هيئوا أغراضكم، توجهوا إلى السرر، فهذا الإطفاء المؤقت لثوان معدودة قبل الإطفاء النهائي نذير، إنذار مبكر، فربنا عز وجل لرحمته بعباده جعل كل هذه الإنذارات، فالشيب إنذار، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أن عبدي، كبرت سنك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، فاستحي مني فأنا أستحي منك))

هذا يضع نظاراته، هذا ظهره منحنٍ، هذا سمعه ضعيف يحتاج إلى مقوٍ للسمع، هذا معه ديسك في فقراته، هذه كلها نذرٌ من الله عز وجل أنّ اللقاء اقترب يا عبدي، فإذا أعطى الله الإنسان صحة تامة فما شكا شيئاً طوال حياته، ثم جاء الموت فمات فجأةً فليس هذا في صالحه.

أيها الإخوة، ليس هذا في صالحه أبداً، لعل المرض يحمله على التوبة، لعل هذه المشكلة تدفعه إلى الطاعة، لعل هذا يمنعه عن فعل الإساءات، لعل هذا يحجزه عن اقتراف الموبقات.

5 ـ موت الأقارب:

وقال بعض العلماء: وموت الأقارب هو النذير.

الله عز وجل كان بإمكانه أن نأتي إلى الدنيا دفعةً واحدة، وأن نغادرها دفعة واحدة، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتيها تباعاً، وأن نغادرها تباعاً، ففلان توفاه الله كان بيننا، الأقرباء البارحة كنا معاً، منذ أسبوع كنا معاً في نزهة ثم جاء أجله:

ما بين غمضة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال

***

يكون الإنسان ملء السمع والبصر، معروف، وله مكانته، فجأةً صار خبراً على الجدران، الله تعالى قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

كان إنساناً مخيفاً له تصرفاته، وله هيبته، والناس يرهبون جانبه، ويحسبون له حساباً.

أحد السلاطين أمر شيخ النجارين أن يأتيه بمائة كيس نشارة، وإن لم يأته بها فلابد من أن ينهي حياته، فهذا أيقن أنه ميت، فكتب وصيته، طرق بابه صباحاً، وقيل له: مات السلطان.

أحياناً الإنسان فجأةً يصبح خبراً، يكون شخصاً مليئاً قوياً، غنياً، شديداً، عتيداً، فالمصائب هي النذير، وموت الأقارب هو النذير.

إذاً: النذير هو القرآن، والنبي، والأربعين، والستون، والشيب، المصائب، حتى الحمى، والأمراض، وموت الأقارب، هذه كلها نذر. (والنذر جمع نذير).

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37)إِنّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38))

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

1 ـ علاقتك مع الله:

لتعلم أن علاقتك مع الله، والمشكلة أنك مكشوف عنده، كل ما في خاطرك، كل ما يدور في خلدك، كل الصراعات في نفسك، كل طموحاتك، كل نواياك مكشوفة عند الله عز وجل، فالإنسان ينبغي أن يستحي من الله.

قال سبحانه في الحديث القدسي: " طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة ؟ " ما منظر الله عز وجل ؟ القلب، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

2 ـ هنيئاً لمن كان قلبه سليماً:

هنيئاً لمن كان قلبه سليماً، ليس فيه غش، ولا حسد، ولا حقد، ولا انحراف، ولا كبر، ولا استعلاء، قلب سليم، النبي عليه الصلاة والسلام قال: يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فجاء أحد الصحابة، ثم إن صحابياً جليلاً أراد أن يقتدي به، فافتعل مشكلة مع أهله، وقال: أريد أن يبيت عندك ثلاثة أيام، فرحب به، هذا رآه يصلي الصلوات المفروضة فقط، ما رأى في عبادته شيئاً يزيد على الحد الأدنى، فقال له: أنا والله أردت أن أقيم معك في البيت لأرى عباداتك فما رأيتها تزيد على عباداتي، فملخص القصة أنه قال له: فو الله ما يكون في قلبي غل على أحد، فكانت سلامة قلبه سبباً لدخول الجنة، كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا هو القلب السليم.

كان لرجل خصوم، ينهشون عرضه، ويتحدثون عنه، فقال له أحدهم: **" إني أشفق عليك مما يقوله الناس عنك، فقال هذا العالم: أو سمعتني أقول عنهم شيئاً ؟ قال: لا فقال: عليهم فأشفق ".**

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

سبب دخول الجنة هو هذا القلب السليم.

(فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37)إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38))

3 ـ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

شعور الإنسان بأن الله يعلم فهذا شيءٌ مريح، وقد يكون تعاملك مع إنسان أمراً صعباً، قد تكون بريئاً، ويتهمك بشيء، أنت بريء منه، تحلف له الأيمان، تقدم له الأدلة، فيقول: انتهى الأمر، واعتقد هذا الاعتقاد، لكنك مع الله الأمر سهل جداً، يعلم السر وأخفى، لا تحتاج لا إلى حلف يمين، ولا إلى إبراز وثيقة، ولا إلى إشارة، ولا إلى عبارة، يعلم ما أنت عليه، وإذا علمت أن الله يعلم حلت كل المشكلات، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ

ثم يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ)

وهذه الآية دقيقة جداً.

مرة قرأت كتاب قصص العرب، هو كتاب ممتع، فيه حديث عن قصص وقعت في العصور الإسلامية المختلفة، وبعد أن انتهيت منه شعرت أن الأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والعلماء ماتوا، والجهال ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والحمقى ماتوا، وأن هذه الحياة لا تدوم لأحد، وأنه بعد حين سنصبح خبراً من الأخبار، كلمة:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ)

سوق الحميدية مثلاً، الآن فيه طقمٌ من أصحاب المحلات، قبل خمسين سنة كان هناك طقم آخر، وقبل مائة سنة كان هناك طقم ثالث، وبعد خمسين قادمة سيكون طقمٌ رابع، هذه البيوت، هذا البيت فلان عمّره، وزينه، أسسه، ثم مات، البيت كبير، له أبناء عدة، باعوه، واشتراه رجل آخر بدل وغيّر، أقام حائطاً، نزع حائطاً، أنشأ شرفة، أيضاً كبرت سنة، ومات، وبيع البيت بعد وفاته، واشتراه جاء رجل ثالث، هذه البيوت يأتيها الناس تباعاً، المحلات يأتيها الناس تباعاً، المزارع يأتيها الناس تباعاً، هذه البلاد كان فيها الرومان، كان فيها الآشوريون، الكلدانيون، الكنعانيون، أقوام سحيقة سكنت هذه البلاد، وعاشت فيها، واستعلت، ثم جاءها أقوام، وأقوام، وأقوام.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ)

على مستوى بلاد، على مستوى بيوت، على مستوى محلات، على مستوى مزارع، على مستوى بساتين، بعد هذا الأقوياء يتناوبون، فلان قوي انهار فجأةً ظهر مكانه رجل آخر، هكذا، حتى الأعمال فلان يشغل هذا المنصب، أحياناً تقرأ ببعض الكتب أن هذا المنصب تولاه أحد عشر مديراً على الترتيب التالي، أكثرهم في عداد الموتى، آخر مدير حي، وهكذا، فالمناصب، والمزارع، والبيوت، والمحلات، والبلاد، والعباد كلهم في تبدل، مادام في الحياة تبدل، أي كلنا إلى زوال، هذا المسجد، وهؤلاء جميعاً، وأنا معكم بعد مائة عام في الأعم الأغلب لن يبقى أحد منا حياً، والله أعلم، يلينا طقم ثانٍ، وقبل مائة عام ما كان أحد منا مولوداً، هذه المائة من باب الاحتياط فأخذنا أعلى رقم، قبل مائة عام لم يكن أحد منا موجوداً، وبعد مائة عام لا أحد منا في عداد الأحياء، وهكذا.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ

في القرآن دقائق ورقائق، قال:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

المهتدي فوق الهدى، الهدى يرفعه، الهدى يعزه، الهدى يعلي قدره، الهدى يجعله علماً، الهدى يجعله نجماً متألقاً، أولئك على هدى من ربهم، أما من كفر فعليه كفره، صخرة تسحقه، الكفر فوقه، أما المؤمن فهو فوق الهدى، والهدى يرفعه، لكن الكافر فالكفر يسحقه.

(فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلا مَقْتًا)

وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلا مَقْتًا

1 ـ المقت:

المعنى: المقت أشد أنواع الكراهية، إذا اجتمع مؤمن في مجلس مع رجل كذاب، وكلما تنفس نفساً يكذب معه كذبة، هل لك أن تسهر معه سهرة، أو أن تخرج معه نزهة، أعوذ بالله، هو رجل قذر، أو بذيء اللسان، أو هو رجل مزاحه رخيص، المؤمن رقيّ النفسي يجعله إيمانه يترفع عن هذه المستويات، هذا هو المقت، انظر، فالمستقيم يكره المنحرف، والأمين يكره الخائن، والصادق يكره الكاذب، والنظيف يكره القذر، هذا هو المقت.

ربنا عز وجل كامل كمالاً مطلقاً، فإذا رأى عبداً يكذب، عبداً منحط الأخلاق، عبداً خائناً، لئيماً،، غداراً مثلاً، منتقماً، حريصاً، بخيلاً، جشعاً، فالله عز وجل يمقته، والمقت أشد أنواع الكراهية، قد يقول لك قائل: ولو أن الله مقته فماذا حدث ؟ جاء الجواب:

(وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا(39))

وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا

إذا مقت الله عز وجل الإنسان خسر وخاب، وأصبح في أشد البوار والخسارة، ويمكن أن يكون المؤمن يمقته كافر، قال تعالى:

(قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ)

(سورة آل عمران)

ممكن أن يكره رجل كافر مؤمناً، يكرهك منحرفٌ، وأنت مستقيم، قطعت عليه بعض النفع، فكرهك، وكاد لك، هذا لا قيمة له، أما إذا مقتك الله عز وجل فهذه كل الخسارة، وأنت لست على شيء عندئذٍ، كل الخير في رضوان الله عز وجل.

أقول لكم هذا الكلام: أعلى شيء يناله إنسان في الدنيا أن يرضى الله عنه، وأسوأ شيء يصيب الإنسان أن يسخط الله عليه، لأن الله عز وجل هو كل شيء، فإذا رضي عنك رضي عنك الناس جميعاً، إذا أحبك الله ألقى حبك في قلوب الخلق، وإذا مقتك الله عز وجل ألقى مقتك في قلوب الخلق، فلا أحد يحبك، وينصرف الناس عنك، فلذلك:

(وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا(39))

مقت وخسارة.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ

1 - لا ينبغي للإنسان أن يبيع نفسه لغير الله:

هذا الذي تعتمد عليه، تتكل عليه، تعطيه شبابك، تعطيه عقلك، تعطيه ذكاءك، تعطيه قلمك، هذا الذي علقت عليه الآمال، هذا الذي عبدته من دون الله ماذا فعل ؟ مخلوق ضعيف مثلك، مفتقر إلى مولاه مثلك، فالإنسان لا يليق به أن يبيع نفسه لغير الله، تبيع حياتك، تبيع جهدك، تبيع عرقك، تبيع تعبك، يتبع

شبابك، لغير الله عز وجل فهذا أخسر الخاسرين، من وهب شبابه لغير الله، من وهب لسانه لزيد أو عبيد، تفكر في محاسن زيد أو عبيد، وتثني عليه، وتتحمس لإنسانٍ مثلك ضعيف لا ينفعك، ولا يضرك، فهذا اللسان ينبغي أن يكون لله، أن ينطق بذكر الله، هذه الخبرات، هذه الإمكانات، هذه الطاقات، هذا العمر، هذا الشباب، هذا المال، هذا الجهد، هذه الخبرة، ينبغي أن تكون كلها لله، لذلك فالله عز وجل يقول:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ)

2 ـ لم يخلق الشركاءُ شيئا:

هل هناك قارّة هم صنعوها، أهم خلقوا البحر مثلاً ؟ هل هناك شيء في الأرض بر أو بحر، جبال أو وديان أو أشجار، أو فواكه، أو أطيار أو أسماك، هم صنعوها أو خلقوها ؟ هل لهم شيء ؟ هل لهم حصة ؟ هل يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق شيئاً في الأرض.

ربنا عز وجل يرينا ضعف الإنسان، فمثلاً تنحبس الأمطار، فهل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تجتمع، وتقرر إنزال الأمطار، تفضلوا واجتمعوا، وإذا صدر معكم قرار والمادة الأولى فيه: يجب أن تهطل المطار يوم كذا، فهل هناك جهة في الأرض تستطيع أن تفعل هذا ؟ أحياناً يأتي مرض فيروسي يحار منه العلماء، الله عز وجل يؤدب الناس بأمراض بسبب انحرافهم، فيقف العلم عاجزاً، ومرض الإيدز مثلاً هو عقاب من الله عز وجل لانحراف العصر، شبح مخيف، العلماء والجامعات، والمخابر، يقفون عاجزين أمام هذا المرض، وكم من أمراض تحدّت كلّ العلماء إزاءها عاجزين.

أحياناً زلزال يجعل الأرض عاليها سافلها، تجد بناء من ثلاثين طابقاً أصبح ركاماً، مدينة على الساحل الأطلسي فيها فسق وفجور إلى ما لا نهاية يأتيها السياح من كل أطراف الدنيا ليستمتعوا بالمعاصي، ففي ثلاث ثوان أصبحت تحت الأرض، وهناك فندق شهير وكبير جداً يزيد على ثلاثين طابقاً غاص كله تحت الأرض، وبقي الطابق الأخير عليه، وبقيت لوحته كالشاهدة على قبر، أي هنا دفن هذا الفندق، الله عز وجل بيده كل شيء.

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)

هل تجد مجرةً صنعوها، يقولون غزونا الفضاء، كلمة فيها سوء أدب، فيها تعالٍ قطعوا ثانية ضوئية واحدة، كلمة غزوا القمر أي قطعوا ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر بمركبة بقيت يومين أو ثلاثة أيام

بسرعة أربعين ألف كيلو في الساعة، والقمر يعد لصيق الأرض، كيف يقطعون مثلاً ثماني دقائق ضوئية إلى الشمس، أو ثلاثة عشر ساعة قطر المجموعة الشمسية، أو مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، قطر المجرة، أو أربع سنوات ضوئية أقرب نجم ملتهب إلينا، أو مليون سنة ضوئية المرأة المسلسلة، أو ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، بُعْدُ بعض المجرات، قطعوا ثانية ضوئية واحدة، أنسب ثانيةً ضوئية واحدة إلى ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية فماذا تجد ؟ غزونا الفضاء كلام فيه سوء أدب.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا)

هذه الآية تشير إلى أنه لا إله إلا الله، وأن كل الشركاء عباد فقراء عاجزون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة فاطر 035 - الدرس (10-10): تفسير الآية 41 ، إلى الأخير
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس العاشر والأخير من سورة فاطر، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى في الآية الأربعين:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة فاطر)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

1 ـ الكون معجزة:

الحقيقة أن هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فالسماوات والأرض تعبير قرآني عن الكون، والكون كل ما سوى الله، الله واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، فالكون يعبر عنه القرآن الكريم بكلمة السماوات والأرض.

2 ـ كل مجرات الكون متحرّكة خاضعة لنظام الجاذبية:

في أحدث البحوث العلمية المتعلقة بالفلك عدد المجرات يقترب من مليون مليون مجرة، وعدد نجوم المجرة المتوسط يقترب من مليون مَليون، وكل نجم في هذه المجرات يتحرك، ولولا تحرك النجوم لأصبح الكون كتلة واحدة، لأن كل نجم حينما يتحرك ينشأ عن تحركه قوة نابذة، هذه القوة النابذة تكافئ القوة الجاذبة، لأن كل كتلة في الكون تنجذب إلى أختها، وهذا نظام الجاذبية، فالترابط بين النجوم أساسه الجاذبية، فلولا حركة الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة، ولانضم بعضه إلى بعض، فهذه الحركة الدائبة كل نجم يتحرك في مسار مغلق، المسار غير مفتوح، الخطوط غير المغلقة خطوط مفتوحة، لأن الله جل جلاله يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

يعني أنّ أيّ كوكب في السماء يتحرك في خط مغلق، فيرجع إلى ما بدأ به.

الكون يقترب من مليُون مليون مجرة، وهذا أحدث رقم، وكلما تقدم العلم اكتشف عدداً أكبر من الذي اكتشف من قبل، وفي كل مجرة ما يزيد على مليُون مليون كوكب ونجم، وكل هذه الأجرام تتحرك في مسارات مغلقة لينشأ من تحركها قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، هذه النجوم تتحرك في مسارات مغلقة، وفي سرعات دقيقة، لو اختلفت سرعاتها لانجذبت إلى الأرض.

أرجو أن تتحملونا قليلاً، الموضوع علمي محض، المسار إهليلجي على شكل بيضوي، الأرض تدور حول الشمس في مسار بيضوي، والمسار البيضوي له قطر أصغر وقطر أكبر، فإذا وصلت الأرض إلى جهة القطب الأصغر فلابد من أن تنجذب إلى الشمس، فماذا يحصل ؟ تزداد سرعتها، من يزيد سرعتها ؟ الله جل جلاله، تزداد سرعتها فتزداد قوة النبذ حتى تتكافأ مع قوة الجذب القوية، إذاً لو اختلفت السرعة لانجذبت الأرض إلى الشمس، فمن الذي يمسك هذه الأرض ؟ ولنأخذ الأرض مثلاً ولنبتعد عن بقية النجوم، أرضنا تسير حول الشمس دورةً في كل عام، وحينما قال الله جل جلاله:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

معنى: أَنْ تَزُولَا

أي أن الأرض في كل شهر تقابل برجاً من بروج السماء، وبروج السماء التي تسير في مجالها الأرض اثنا عشر برجاً، ففي دورة الأرض حول الشمس تسير في مسار مغلق، السؤال: إن الله خالق الكون يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

المعنى الأول:

المعنى الأول: الزوال معناه الانحراف، ووقت الظهيرة يكون مع زوال الشمس عن كبد السماء، إذا كانت الشمس في كبد السماء فالصلاة مكروهة كراهة تحريمية، الصلوات مكروهة في ثلاثة أوقات، عند طلوع الشمس حتى ترتفع، وعند توسطها في كبد السماء حتى تزول، وعند اصفرارها حتى تغيب، في أوقات ثلاثةٍ الصلوات مكروهة كراهة تحريمية.

إذاً معنى الزوال، زوال الشمس عن كبد السماء يعني انحراف الشمس:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

المعنى الثاني:

لو أن الأرض انحرفت عن خط سيرها أية قوة في الأرض تستطيع أن تعيدها إلى مسارها ؟ لو أن قطاراً خرج عن سكته أية نملة بإمكانها أن تعيده إلى مساره ؟

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

ما الذي يربط الأرض بالشمس ؟ هنا السؤال، الذي يربط الأرض بالشمس قوة الجاذبية التي أشار إليها القرآن في سورة الرعد، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من الآية 2)

(ترونها) قيدٌ لـ (عمد)، فالأعمدة التي رفعت بها السماوات لا نراها، لكنها موجودة.

بعض العلماء الأجانب قال: لو أن الشمس كفّت عن جذب الأرض، أو توقفت عن جذب الأرض فلابد لهذه الأرض من أن تزول عن سيرها، أي أن تبتعد عن مسارها، وأن تستمر في متاهات الفضاء الخارجي، ما الذي يعيدها إلى حظيرة الشمس ؟ قال: تعيدها قوةٌ، و هذه القوة تتمثل في مليون مليون حبل فولاذي، من الفولاذ المضفور، والفولاذ المضفور أمتن العناصر في الكون، أي أمتن شيء في تحمل قوى الشد هو الفولاذ المضفور، فالأرض تحتاج إلى مليون مَليون كبل أو حبل من الفولاذ المضفور، والفولاذ المضفور يجب أن نزرعه على الأرض بينه وبين الشمس، فيجب أن يكون هناك حبل بين الأرض والشمس طوله مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، مليون مَليون حبل مزروع على وجه الأرض المقابل للشمس، ما الذي يحصل ؟ نحن أمام غابة من الحبال الفولاذية، بين كل حبلين مسافة حبل واحد، الزراعة مستحيلة، البناء مستحيل، حتى هذه الغابة تحجب عنا أشعة الشمس، وكل حبل يقاوم ملايين الأطنان.

ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

أيّ نجم لو خرج عن خط سيره لجذب إلى نجم آخر، وهكذا، إذاً لاجتمع الكون كله في كتلة واحدة فمن الذي يمسك السماوات والأرض أن تنحرف عن خط سيرها ؟

عندنا نقطة دقيقة: الكون أوجده الله من عدم، هذه حقيقة، لا شيء قبله ولا شيء بعده، فالكون ممكنٌ، وأوجده الله من عدم، وعندنا خلق آخر، إيجاده من عدم، الخلق الآخر أن يستمر موجوداً، أن يخلق من عدم خلقاً، ثم لابد من أن يخلق خلقاً آخر يريد الله أن يستمر وجوده، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون من لا شيء، ثم أراد استمرار الكون، فالاستمرار شيء آخر، قد تنطلق من مركبتك شيء، ولكن أن تبقى بها إلى ما شاء الله فهذا أمر آخر، قد تحركها شيء، ولكن أن تبقى تحركها شيء آخر.

الآية إذاً:

(إِنَّ اللَّهَ)

فهل تعرفون من هو الله ؟ هو خالق السماوات والأرض، هو رب العالمين، هو القوي، هو القدير، فهو يخلق خلقاً من عدم، وهو يخلق خلقاً آخر ليستمر موجوداً.

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ أنْ تَزُولا)

أي نجم في حركته حول نجم آخر يسير على مسار مغلق من الذي يبقيه على هذا المسار المغلق ؟ هو الله سبحانه وتعالى، لأن الأرض لو خرجت عن مسارها ما الذي يحصل ؟ ابتعدت عن الشمس، ودخلت في الظلام الكوني، وأصبحت حرارتها بتقدير بعض العلماء مائتين وسبعين درجة تحت الصفر، وهذا ما يسميه علماء الفيزياء بالصفر المطلق، وفي رأي علماء الفيزياء أن الصفر المطلق تتوقف فيه حركة الذرات، ومتى توقفت حركة الذرات تلاشت المادة، إذاً: إذا زالت الأرض عن مسارها زالت، وفنيت، فكم معنى عندنا لكلمة (زالت) ؟ معنيان المعنى الأول زال أي انحرف، والمعنى الثاني زال أي تلاشى وفني.

الله جل في علاه هو وحده هو وحده الذي يحفظ الأرض وأي كوكب آخر على خط سيره، أو أي نجم آخر على مساره المغلق فلو لم يكن هناك خالق خلق من عدم ثم أراد أن يستمر هذا الخلق والخلق مستمر إلى ما يشاء الله، قال تعالى:

(وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سورة يس)

إذاً: شاءت مشيئة الله أن يخلق هذا الكون، وأن يستمر هذا الكون إلى أن يشاء الله زواله، مادامت الأرض تسير حول الشمس، وما دمتم ترون شمساً كل يوم فالأرض مع الشمس، ولو أنها انحرفت عن خط سيرها لغابت عنا الشمس، ولدخلنا في ظلام دامس، وحينما تستيقظ صباحاً كل يوم على قرص الشمس في الأفق تذكر هذه الآية:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ أنْ تَزُولا)

لأنها لو خرجت لاحتجنا نظرياً طبعاً إلى مليون مَليون حبل فولاذي، وكل كبل يتحمل قوى شد مليوني طن، هي قوة جذب الشمس للأرض، وكل هذه القوة من أجل أن تجعل الأرض تتحرك بخط منحنٍ، وكل ثانية تنحرف ثلاثة مليمترات، ويتشكل مسار الأرض المغلق حول الشمس، أما لو أن الشمس كفّتْ عن جذب الأرض لسارت في مسار مستقيم بعيداً عن خط سيرها السابق، ولدخلت في ظلام دامس، ولأصبحت حرارتها مئتين وسبعين درجة تحت الصفر، ولتوقفت حركة الذرات، ولزالت بمعنى فنيت بعد أن زالت بمعنى انحرفت، فهناك معنيان للآية:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ أنْ تَزُولا)

أي أن يمسك كل نجم عن أن ينحرف عن خط سيره، ولو انحرف عن خط سيره لعمت الفوضى في عالم المجرات والكواكب، ولاجتمع الكون كله في كتلة واحدة، ولانتهت الحياة.

أما إذا انحرف كل كوكب عن خط سيره، وسار في ظلمات الفضاء، وأصبحت حرارته صفراً مطلقاً، مائتين وسبعين تحت الصفر لتوقفت حركة الذرات الداخلية، ولتلاشى الكون، فلذلك هذه الآية كلما تقدم العلم كشف جوانب من عظمة خلق الله عز وجل.

إذاً: أن تستيقظ كل يوم، وأن ترى الشمس مشرقة، وأن ترى الضحى مشرقاً، ثم تغيب الشمس، ثم تشرق، معنى ذلك أن الأرض لازالت على خط سيرها.

كلكم منذ أن نشأنا على التقويم الذي يقول لنا: شروق الشمس يوم ثلاثةٍ وعشرين من أيلول الساعة السادسة وثلاث وعشرين ثانية، كل سنة منذ خمسين سنة ما تغير، من مئة سنة، منذ أن خلقت الأرض، وإلى أن تتوقف عن حركتها تسير الأرض بهذا الخط المستمر، إذاً: التقويم له معنى كبير، فأنت تتنبأ بشروق الشمس قبل مئة عام بعد مائة عام يوم ثلاثة وعشرين من أيلول الشمس تشرق الساعة السادسة وثلاث وعشرين ثانية، ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك:

(إِنّ اللهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

خلق الكون من عدم وأراد أن يخلق خلقاً بعد الوجود، إذاً فهناك خلق من عدم، وخلق بعد الوجود، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

هل عرفتم من الله ؟ هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، هو الذي خلق من لا شيء، واستمر الخلق بمشيئته هو.

الآية الكريمة:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

المعنى الأول: الزوال، الانحراف، والمعنى الثاني الفناء، إذا انحرفت الأرض عن خط سيرها زالت: فنيت، لأن في متاهات الفضاء الخارجي درجة الصفر المطلق تنهي حركة الذرات، وإذا انتهت حركة الذرات تلاشت المادة، لأن كل مادة قوامها حركة الذرات حول النواة، لها مجموعة مسارات، مجموعة كهارب إلكترونات تتحرك بسرعات هائلة حول النويّات، فإذا توقفت حركة الذرات تلاشى الكون، قال تعالى:

(وَلَئِنْ زَالَتَا)

وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

أي إذا انحرفت الأرض أو أي كوكب آخر عن خط سيره المغلق حول الشمس، أو حول أي كوكب آخر.

(إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

ليس في الكون جهة يمكنها أن تمسك السماء والأرض:

هذه (إنْ) نافية، يعني ما أمسكهن أحد من بعد الله عز وجل، أهل الأرض جميعاً لو أن الأرض انحرفت، أو لو أن الشمس لم تعد تشرق، فلو اجتمعوا بمؤتمرات وقرروا، واتخذوا توصيات، هل بإمكان أهل الأرض كلهم أن يعيدوا الأرض إلى مسارها، أو أن يحرفوها عن خط سيرها ؟ إذاً من هو الله ؟ الذي بيده هذه الأرض، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة الزمر)

لذلك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

(سورة فاطر)

فهذه الآية إذا قرأها عالم فلكٍ ذابت نفسه خشوعاً لله عز وجل، لأن هذه الآية تتفق مع أحدث الحقائق العلمية المتعلقة بالفلك، وعظمة القرآن في كلمة (تزول)، كلمة واحدة بمعنيين، الانحراف، أولاً يجعلها تخرج من مسارها، ثم يجعلها تفنى إذا انحرفت عن خط سيرها.

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

ليس في الكون كله جهة مهما عظمت ومهما قويت بإمكانها أن تعيد الأرض إلى خط سيرها إذا انحرفت، أو أن تخلقها ثانية إذا زالت وفنيت.

المعنى الأول: أن تعيدها إلى خط سيرها حول الشمس إذا انحرفت، أو أن تخلقها ثانية إذا زالت أو فنيت.

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا

مع أن الله بيده أمر الأرض، ومن قدرته أن يجعلها تزول، لكن الله يرى عباده غارقين في المعاصي، الفساد في البر، والبحر، وفي الجو، الآن الطائرات تعرض أفلاماً في أثناء الطيران، وربما كانت هذه الأفلام ماجنة، الفساد ظهر في الأرض، وفي البحر، وفي الجو المعاصي، الموبقات، أكل المال الحرام، الربا، الزنا، اللواط الخمر، المخدرات، الميسر، القمار، الفتن، الأرض تعج بالفتن، وهو يحلم عليهم، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة يونس)

لولا حلمُ الله ومغفرتُه:

الآن قد يسأل سائل: ما دام أنّ الله عز وجل بيده هذه الأرض، وفي أية لحظة قادر على أن يجعلها تزول، حينما تنحرف عن خط سيرها، أو حينما تتلاشى ذراتها، فلماذا ربنا جل جلاله يرى عباده غارقين في المعاصي والآثام، يناصبونه العداء، يكفرون به، يجحدون نعمه، يعادون أولياءه، وكيف لا يدمرهم ؟ جاء الجواب:

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

الإنسان لا يتحمل، الإنسان أحياناً يتمنى أن يسحق أعداءه سحقاً عن آخرهم، والحروب الحديثة حروب إبادة لا هوادة فيها ولا رحمة، والنبي عليه الصلاة والسلام في الطائف جاءه جبريل، وقال: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، فلو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده.

النبي كان حليماً، وربنا عز وجل حليم، وإن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، فإذا رأيت هذه المفارقة فالأمور كلها بيد الله، والسماوات كلها بيد الله، وأرضنا بيد الله، وحركتها بيد الله، وسرعتها بيد الله.

لو أن الأرض أيها الإخوة لم تزدد سرعتها حينما تقترب من القطب الأصغر لانجذبت نحو الشمس ولاحترقت، والأرض إذا دخلت في الشمس تبخرت في ثانية واحدة، لأن الشمس حرارتها في السطح ستة آلاف درجة، أما في الأعماق فعشرون مليون درجة، نحن عندنا الحديد ينصهر بالألف وخمسمائة، الحجر البازلتي الأسود الذي لا يمكن أن ينصهر، ينصهر في ثلاث آلاف درجة، ويصبح سائلاً،

الأرض بأكملها إذا دخلت في الشمس ستة آلاف درجة، وفي أعماقها بعشرين مليون درجة، تتبخر كلها في ثانية واحدة، فلو أن سرعتها لم تزدد عند القطر الأدنى لانجذبت نحو الشمس، واحترقت، وتلاشت. تقول: هذه الطائرة سقطت، ومات جميع ركابها، لو أن الأرض سقطت في الشمس لمات جميع سكان الأرض دفعة واحدة:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

آية دقيقة جداً ما دمت ترى شروق الشمس كل يوم فالأرض على خط سيرها، ومادامت لم تنحرف عن خط سيرها فأنت في نعمة وفي بحبوحة، الذي يبقيها على حالها ربنا عز وجل، هو الذي يبقيها على خط سيرها والذي يبقيها موجودةً، قائمة، لأن الله عز وجل يخلق ويأمر ببقاء الخلق، والخلق مستمر إلى أن يشاء الله وهناك شيء آخر، قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2)وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5)وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(6)وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

(سورة التكوير)

الكون له نهاية، وله بداية، أما الآن فالكون مستمر والعلماء قالوا الشمس يرجح أنها متقدة منذ خمسة آلاف مليون عام، والمرجح بحسب نظرياتهم أنها تبقى متقدة إلى ما بعد خمسة آلاف مليون عام قادمة، هذا معنى القرآن:

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

حليم يصبر على عباده، ومن أسماء الله الصبور، حليم يتجاوز عن ذنوب عباده، حليم يعطي لعباده فرصة لعلهم يتوبوا، فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه)

ربنا عز وجل أعطى لكل إنسان أجلاً، وأعطى كل أمة أجلاً، وأعطى الكون كله أجلاً، فكل واحد كفرد له أجل، فإذا انتهى أجله لا يستقدم ساعة ولا يستأخر، كل واحد منا عنده لحظة النهاية، وفي علم الله هذا الإنسان مقرر له أن يعيش ثلاثة وستين عاماً وثمانية أشهر، وثلاثة أسابيع، وخمسة أيام، وثماني ساعات، وأربع دقائق، وثلاث ثوان، فكل إنسان له أجل، وكل أمة لها أجل، والأمم تتعاور، بالتعبير الفصيح: تأتي أمة، وتذهب أمة، كل قرن فيه أمم يتألق نجمها، وأمم تذهب، وتصبح خبراً، كل أمة لها أجل، والبشرية كلها لها أجل، وهو قيام الساعة.

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(41))

حليم يعطي عباده فرصة، أحياناً مدير يضيق ذرعاً بطالب فيفصله، وهناك مدير أشد حلماً، يعطيه فرصةً لعله يرجع، لعله يغير من خطته، لعله يجتهد، لعله يلتزم، لعله يتوب، فكلما ازداد الكمال أعطى الكامل فرصة لمن حوله فلعلهم يرشدون.

(إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا)

يعطي الفرصة:

(غَفُورًا)

لو أنهم عادوا تائبين لغفر لهم.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

هؤلاء العرب كفار مكة عاشوا مع اليهود، واليهود أهل كتاب، وقد علمت العرب أن اليهود كذّبوا رسلهم، وقتلوهم، ووقفوا موقفاً لا يليق بهم، فكان العرب يقولون: لو جاءنا رسول لصدقناه، ولآمنا به، ولنصرناه، ولا نكون كاليهود في تكذيبهم رسلهم، وفي قتلهم أنبياءهم.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)

أي بالغوا في حلف الأيمان.

(لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ)

ويقصدون إحدى الأمم أهل الكتاب الذين جاءت رسلهم بالبينات فكذبوهم وقتلوهم.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا(42))

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا

وهو النبي عليه الصلاة والسلام، بدل أن يؤمنوا به، وأن يصدقوه وأن يوقرون، وأن ينصروه، وأن يتبعوه، وأن يفرحوا به، قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا(42))

النذير هو الرسول عليه الصلاة والسلام:

وهذه المفارقة سمة من سمات الكافر، يقول لك: إذا الله أعطاني سأفعل كذا وكذا، فالله يعطيه ولا يفعل، إذا الله هداني لأفعلن، إذا: الله أكرمني لأفعلن، يسوّف، وكما تعلمون هلك المسوّفون.

اسْتِكْبَارًا

1 ـ كفرُ الاستكبار:

لماذا لم يؤمنوا ؟ هنا السؤال، جاءهم نذير معه القرآن الكريم، معه دليل على أنه رسول، معه معجزة، لماذا لم يؤمنوا ؟ فقال الله عز وجل:

(اسْتِكْبَارًا)

2 ـ الكِبْر ينافي العبودية لله:

الإنسان بين حالين، بين أن يكون عبداً لله وأن يستكبر، فإذا استكبر فهذا تغلق دونه أبواب السماء، إذا استكبر لم يلج في الإيمان، إلا إذا ولج الجمل في سم الخياط، هل يعقل أن يدخل الجمل في سم الخياط ـ ثقب الإبرة ـ هل هذا تعجيز ؟ لا، إنه متكبر كالجمل حجماً، ولن يستطيع أن تفتح له أبواب السماء إلا إذا عاد إلى حجمه الحقيقي، وإلا إذا عاد عبداً لله عز وجل، الذي زادهم نفوراً هو استكبارهم، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، والإنسان يكون في أكمل أحواله حينما يكون عبداً لله، حينما يعرف أنه فقير، حينما يعرف فقره إلى الله عز وجل وحاجته إلى الله عز وجل، وأنه جاهل، والله هو الذي يعلم، وأنه فقير، والله هو الغني، وأنه ضعيف، والله هو القوي، إذا عرفت حدك جاءتك الخيرات، وجاءتك الإمدادات، وجاءك الدعم الإلهي، وجاءك التوفيق، وجاءك النصر، وجاءك التيسير، أما إذا استكبرت فعندئذٍ تغلق أبواب السماء في وجه الإنسان، قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إلا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ)

قد يسأل سائل: لماذا يعفو الله عن ذنوب كثيرة ؟ أما الكبر فلا يقبله، ولو كان طفيفاً ؟ عبدي إذا بلغت ذنوبك عنان السماء غفرت لك ولا أبالي، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

لماذا يغفر الله كل الذنوب مهما كثرت، ولا يقبل ذرة كبر ؟ قيل: لأن الكبر يتناقض مع عبودية الإنسان، إذا كان هناك طبخة يمكن أن يقل فيها مقدارٌ اللحم، أو يزداد، بعض مكونات هذا الطعام ممكن أن تزداد أو تقل، يتفاوت الطعم، لكن هذا الطعام لا يقبل نقطة واحدة من البترول، وهناك أشياء تقبل الزيادة والنقصان، ويتفاوت الطعم، أما أن توضع مع الطعام مادة بترولية فيفسد الطعام كليّة، ويلقى في

سلة المهملات الإنسان قد يخطئ، ولكن مادام معترفاً بذنبه، مادام مستغفراً، مادام خاضعاً لله، مادام تائباً، ما دام نادماً، ما دام مبتهلاً، ما دام يرجو الله عز وجل، فالله عز وجل يقبله، ويعفو عنه، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال)

أما المتكبر فقد تستنكف نفسه أن يستغفر الله عز وجل، تستنكف نفسه أن يسجد لله عز وجل، تستنكف نفسه أن يخضع للحق، تستنكف نفسه أن يأتمر بأمر الله، عندئذ يرفض، الذي حمل بني إسرائيل على تكذيب أنبيائهم، ورد دعواتهم استكباراً في الأرض، ومع استكبارهم مَكْر السّيّئ.

(اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئ)

اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئ

المتكبّر ماكر وصاحب خديعةٍ:

المكر خطة يتبعها الماكر ليصرف خصمه عن قصده، الله عز وجل قال:

(وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

الله عز وجل مكره كله خير، لماذا ؟ لأنه قد يصرف عبده عن طريق الشر، فإذا صرف الله عبده عن طريق الشر بخطة حكيمة، فالله قد مكر به لكن مكر الله عز وجل يعود بالخير على عباده، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

لكن الإنسان الكافر البعيد عن الله عز وجل يمكر ليصرف الآخرين عن طريق الخير، لذلك قال تعالى:

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء:

(اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئ)

اسمعوا لهذه الفقرة من الآية:

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

هذا كلام لو صدقناه، لو أدركنا أنه قطعي الثبوت والدلالة.

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

يتوقف الماكر فوراً عن مكره، لماذا ؟ الآن هناك بعض الأمم تمكر ببعض الأمم الأخرى، الأمم الماكرة تأتيها أمراض وانحرافات وتمزقات داخلية أكثر من الأمم التي مكرت بها:

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

المكر يدور ويدور، فقد يسأل سائل: حينما يمكر إنسان بإنسان هذا الذي مكر به، ألا يناله السوء ؟ نقول: نعم، ولكن هذا السوء ينتهي بالموت، أما الذي مكر فيعذب بمكره إلى أبد الآبدين، المكر السيئ. كأن ترى دولاً ضعيفة ودولاً سيئة، شعوباً ضعيفة جداً يمكر بها بخيراتها، بثرواتها، بمقدراتها، يبقيها الآخرون جاهلة، يبقيها الآخرون ضعيفة، هؤلاء تضرروا، نقول: هؤلاء الماكرون الذين مكروا مكر السوء سيعذبون بمكرهم إلى أبد الآبدين، وهؤلاء الذين مُكر بهم، وتحملوا بعض المتاعب من مكر الآخرين بهم هؤلاء حينما تنتهي حياتهم، تنتهي آثار المكر الذي لحق بهم، وتبقى حياتهم الأبدية في منجاة مما مكر بهم، لكن الشيء الدقيق:

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

كلام خالق الكون، أي عملية مكر أو خداع، يخادعون الله، وما:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة البقرة)

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِه)

لذلك قيل: فاعل الخير خير من الخير، لأن الخير مهما كان عظيماً ينتهي مع نهاية العالم، لكن الذي فعل الخير يسعد بفعله إلى أبد الآبدين، إذاً: فاعل الخير خير من الخير نفسه، وفاعل الشر شر من الشر، فالذي أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما في نهاية الحرب العالمية الثانية مضى على إلقائها أعتقد أكثر من خمسين عاماً، الذين ماتوا وقتها لو أن هذه القنبلة لم تلقَ عليهم فلابد من أن يموتوا، الآن انتهت

أعمارهم، إذاً: أثر هذه القنبلة يكون قد انتهى، أما الذي أمر بإلقائها ليدمر ثلاثمائة ألف إنسان في ثانية واحدة، هذا يشقى بقراره إلى أبد الآبدين، إذاً: فاعل الشر شر من الشر، وفاعل الخير خير من الخير، الإنسان يسعد إلى الأبد بأعماله الصالحة قد ويشقى إلى الأبد بأعماله السيئة.

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ)

وأعتقد أنكم سألتم، أو اطّلعتم، أو إذا تتبعتم لوجدتم أن حياتنا طافحة بقصص تؤكد هذه الآية، لذلك ورد في بعض الأدعية: اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، الكافر يفكر، ويخطط، ويشتغل، وبسبب تخطيطه وتدبيره ومكره يدمر، اجعل تدميرهم في تدبيرهم، واجعل الدائرة تدور عليهم.

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة الأنفال)

أنا أشعر لو أن الإنسان أيقن بهذه الآية لما استطاع أن يمكر بإنسان، لأن آثار المكر سوف تعود عليه شاء أم أبى، وأنا موقن أنه لو تتبعنا كل ماكر لرأيناه يدمر نفسه بهذا المكر، لكن لو رأيته إلى حين متفوقاً مستعلياً، يتيه بمكره لقد فعلت كذا، وفعلت كذا، هذا إلى حين، فإذا شد الحبل أصبح في قبضة الله عز وجل، ودفع ثمن مكره غالياً.

يجب أن تؤمن أيها الأخ الكريم أن زوال الكون أهون عند الله من أن يضيع مؤمناً، ومن أن يقوي ماكراً، الماكر مدمر، لذلك الآية الدقيقة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً(43))

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً

هذه الثوابت، المؤمن يوجد في حياته ثوابت يعني سنة الله في خلقه أن كل ماكر يحيق مكره به، وأن كل مخادع يخدع نفسه، وأن كل ناكث ينكث على نفسه، وأن كل منافق يدفع ثمن نفاقه هو، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

(سورة الجاثية)

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(سورة الروم)

إذا أيقنا بذلك توقف الإنسان فوراً عن كل مكر، وعن كل سيئة وعن كل تدبير، وعن كل مخادعة، وعن كل نقض لعهد الله عز وجل، العلماء قالوا في قوله تعالى:

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)

1 - لا تُبدّل سننُ الله:

أي أن هذا القانون لا يبدل، من شأن الناس أن يبدلوا القوانين يعدلوها، يعطلوها، أحياناً يعطل هذا القانون، ويوقف التنفيذ به إلى إشعار آخر، تعدل بعض مواده، أحياناً لا يعمل إلى حين استبداله، فإما أن يعطل، وإما أن يعدل، وإما أن يبدل، وإما أن يفسر تفسيراً ما، لكن الأمر يختلف مع قوانين الله عز وجل، فقوانين الله عز وجل أو سنن الله عز وجل لن تجد لها تبديلاً.

أنت مؤمن، وتعاملك مع خالق، مع إله، مع رب، هذا الرب الخالق الرب الإله قوانينه ثابتة مستمرة، لا تتبدل بتبدل الأيام، أو الشهور، أو الأمكنة، أو الأزمنة، أينما ذهبت في أي عصر، وفي أي مصر، في أي إقليم، قديماً حديثاً، في القرى، في الأرياف، في دول متقدمة، مع العلم، مع الجهل، قوانين الله عز وجل نافذة لا يوقف العمل بها إطلاقاً، فالماكر يحيق مكره به.

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً(43))

المذنب يعاقب، ولن يعاقب المحسن مكان المذنب، فهذا القانون لا يعطل، ولا يتحول إلى جهة بريئة، القوانين الصارمة التي قننها الله عز وجل لا يعطلها، ولا يحولها إلى جهات بريئة لا تستحقها، فهناك عدالة مطلقة في السماء، سبحان الله ! هذه لن للمستقبل أيضاً، لن تفيد تأبيد النفي، لكنك أيها الإنسان لن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد أيها الإنسان لسنة الله تحويلا، فالإنسان العاقل إذا قرأ القرآن، وقرأ مثل هذه الآية يطمئن.

أمثلة لقوانين الله وسننه:

مثلاً: هناك بعض الآيات تأخذ طابع القانون.

المثال الأول:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس)

هذا قانون أول.

المثال الثاني:

وقال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

هذا قانون ثانٍ.

المثال الثالث:

قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

هذا قانون ثالث.

المثال الرابع:

قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف)

وهذا قانون رابع، لا بد للخائن من أن يفتضح، إن الله لا يهدي كيد الخائنين:

المثال الخامس:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج)

فإذا قرأ الإنسان القرآن، وتتبع القوانين التي وردت فيه، هذه القوانين هي سنن الله عز وجل لن تبدل، ولن تحول، فالسعيد من صدقها، وعمل بها فنجا، والشقي من لم يصدقها، وكذبها، ولم يعمل بها فهلك.

الملخص: هذه تعليمات الصانع، هذه قوانين الله عز وجل، هذه سننه، هذه الثوابت، كيف أن عندنا قاعدة مثلاً: المعادن تتمدد بالحرارة، هذا قانون فيزيائي، فأي مهندس لم يضع فواصل تمدد في أي بناء، البناء ينهار، هذا قانون ثابت، فإما أن تصدقه، وتأخذ به، ويسلم بناؤك، وإما أن تكذبه، ولا تأخذ به، فينهار بناؤك، وعلى هذه الشاكلة قوانين ربنا كلها ثابتة، لذلك البشر نوعان: موصول بالله محسن منضبط بأمر الله ونهيه، ناجٍ، سعيد ؛ والآخر منقطع، متفلت من قوانين الله، مسيء، شقي في الدنيا والآخرة، وليس هناك شخص ثالث.

يجب أن نأخذ هذه الآية مأخذاً كافياً:

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً(43))

لو ذهبت إلى بلاد الغرب، إلى بلاد الشرق بعد مائة عام، بعد ألف عام، في أي حال ؛ لذلك كنت أضرب مثلاً بسيطاً، رجل كذب قانون السقوط، وقال: هذا قانون غير صحيح، هذا قانون وضعه دجال، فأنا سأهبط من الطائرة بلا مظلة، لأن ذاك القانون ليس له أصل، طبعاً المظلة مبنية على قانون السقوط على حجز كمية هواء كبيرة جداً تتناسب مع وزن الإنسان، فينزل بتباطؤ، فإذا رجل كذب هذا القانون فألقى بنفسه من الطائرة من دون مظلة، إذا كذب بهذا القانون فهل يتوقف مفعول هذا القانون ؟ لا، بل تدق رقبته، إن تكذيب القانون لا يعطل مفعوله، وكل إنسان كذب بأوامر الله عز و جل، كأن قال لك:
غضّ البصر كلام لا يتناسب مع العصر، إذا قبلت منه، وخالفت هذا القانون وجدت الشقاء الزوجي في بيتك، يمحق الله الربا قانون، لابد من محق المال، والله يربي الصدقات، ولابد من أن ينمو المال الذي فيه صدقات.

أتمنى على إخواننا الكرام أن يقرؤوا القرآن، وينتبهوا للقوانين، قال تعالى:

(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذا قانون، قال تعالى:

(فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

كلما وجدت آية تأخذ طابع القانون، طابع السنة الثابتة، طابع المبدأ، طابع القانون الثابت، التقطتها واكتبها، وانتبه فإنه كلام خالق الكون، كلام من بيده كل شيء، والعالم بكل شيء، والقادر على إنفاذ كل حكم.

(أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

أوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هذه الأمم، إذا زار إنسان مصر، ورأى الأهرامات، ودخل إليها، ودخل إلى مقابر الفراعنة يعلم من هم الفراعنة، أهرامات جلبت أحجارها من أسوان، ونقلت من شاطئ نهر النيل إلى مسافة تزيد على ستة عشر كيلو متراً، وكل حجر حجمه نصف هذا المسجد، كيف حمل ؟ وكيف رفع ؟ وكيف أصبح هذا الهرم ؟ وكيف أن الشمس تدخله في يوم واحد ؟ إذا أحضرت كل مهندسي العالم، هل يمكن أن تصنع نافذة لبناء بحسب حركة الشمس أن تدخل الشمس إلى هذا البناء في يوم واحد، هناك أشياء في الحضارات السابقة تكاد تكون معجزة، ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل، ودمرهم، وجعلهم أحاديث، طبعاً كل أمة لم تؤمن بالله عز وجل مهما كانت قوية تدمر، أو ما رأيتم كيف أن أمماً كبرى وعظمى دمرت

في سنتين، وانتهت، يقول لك: كانت تسمى من قبل كذا، فالله عز وجل يدمر أمماً، وشعوباً، وأقوى الكيانات.

(أوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا(44))

علمه يطولك، وقدرته تطولك، والإنسان إذا أيقن أن علم الله يطوله، و أن قدرته تطوله فلابد من أن يستقيم، قال تعالى:

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة النحل، من الآية 61)

أنت لديك فسحة في العمر إلى أجل معلوم، ولك أن تؤمن، ولك ألا تؤمن، ولك أن تكفر، لك أن تشرك، ولك أن تجحد، لك أن تلحد، لك أن تستقيم، لك أن تحسن، لك أن تصلي، لك ألا تصلي، أنت مخير، لك عند الله هذا الأجل، لكن حينما ينتهي الأجل يبدأ الجزاء، قال تعالى:

(وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

أنت الآن في دار عمل، و سوف يأتي الجزاء، فهذه دار تكليف، وهناك دار تشريف، لذلك:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

انتهى الخيار، وبدأ الجزاء، و نرجو الله سبحانه و تعالى أن نعرف حقيقة هذه الدنيا، وأن نعرف سر وجودنا فيها، و أن نعمل صالحاً يرضي الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-12، الأحاديث المتعلقة بفضل سورة يس على الأحياء قبل الأموات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-07-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة يس.

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

الأحاديث المتعلقة بسورة يس:

أيها الأخوة الكرام: قبل أن نشرع في تفسير هذه السورة الكريمة، أورد لكم طائفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلقة بهذه السورة:

((اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ))

[سنن أبي داود عن معقل بن يسار]

ومعنى موتاكم أي الذين شارفوا على الموت:

((حَدَّثَنِي الْمَشْيَخَةُ أَنَّهُمْ حَضَرُوا غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ الثُّمَالِيَّ حِينَ اشْتَدَّ سَوْقُهُ فَقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ يس ؟ قَالَ: فَقَرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنْهَا قُبِضَ، قَالَ: فَكَانَ الْمَشْيَخَةُ يَقُولُونَ إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خُفِّفَ عَنْهُ بِهَا))

[أحمد عن أم الدرداء]

هذا حديث آخر.

الأحاديث المتعلقة بفضل سورة يس على الأحياء قبل الأموات:

أما الأحاديث المتعلقة بالأحياء قبل الأموات:

((مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ))

[الدارمي عن أبي هريرة]

((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ يس مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ))

[أخرجه الدارمي عن أنس]

هذا حديث آخر:

((إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها وهي سورة يس))

[ورد في الأثر]

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ قرَأَ يس حِينَ يُصْبِحُ أعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّى يُمْسِيَ وَمَنْ قرَأهَا فِي صَدْرِ لَيْلِهِ أعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّى يُصْبِحَ))

[الدارمي عن ابن عباس]

إن قرأتها صباحاً فطول النهار أنت في يسر، وإن قرأتها ليلاً فطول الليل أنت في يسر، إذاً لابد من أن نحفظها، لابد من أن نقرأها صباحاً أو مساءً أو مرة في اليوم، وفي حديث آخر هذا الحديث مقطوع بمعنى أن صحابياً ذكره: **" بلغني أنه من قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي".**

هذه بعض الأحاديث الشريفة التي وردت في حق هذه السورة الكريمة.

تفسير كلمة يس:

(يس (1))

النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام علي كرم الله وجهه يقول:

((إن الله تعالى أسماني في القرآن الكريم ـ أي سماني ـ محمداً و أحمداً وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله))

[ورد في الأثر]

1 ـ يس اسم للنبي عليه الصلاة و السلام:

النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أن يس اسماً له، وقد جاء في بعض التفاسير أن الله عز وجل خاطبه بهذا الاسم.

2 ـ أو تدل على عصمة النبي عليه الصلاة والسلام عن كل خطأ:

وقد فسره بعض المفسرين إما سليماً من العيوب، أي أن النبي معصوم عن كل خطأ، فهو سليم في قلبه، سليم في قوله، سليم في أفعاله.

3 ـ أو هي نوع من أنواع الإعجاز:

بالإضافة إلى قول بعض المفسرين أن هذه الحروف التي تفتتح بها بعض السور هي من نوع الإعجاز، أي من مثل هذه الحروف نظم القرآن.

4 ـ أو الله أعلم بمراده:

بعضهم قال: الله أعلم بمراده.

5 ـ أو يس اسم من أسماء الله تعالى:

قال بعضهم: يس اسم من أسماء الله عز وجل. وأغلب المفسرين على أن يس هي اسم للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد وجه هذا التوجيه إما سليماً من العيوب، ويدل على ذلك:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ (3))

فالكاف للخطاب:

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

قسم الله عز وجل بالقرآن الكريم:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

ربنا سبحانه وتعالى يقسم بالقرآن الكريم، هذا القرآن بهذا القسم وصف بأنه حكيم.

حكيم كلمة لها عدة معان منها:

1 ـ محكم في نظمه و معانيه:

معنى حكيم أي محكم في نظمه، محكم في معانيه، محكم في بنائه، محكم في مضمونه، محكم في شكله، محكم في فحواه، محكم لأنه من عند الحكيم:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (1))

(سورة هود: الآية1)

أي يوجد ترابط، يوجد نظم معجز، يوجد معاني متسلسلة، يوجد دقة متناهية، يوجد حكمة بالغة. هذا المعنى الأول:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أنه محكم في نظمه، محكم في معانيه، ليس في نظمه خلل، وليس في معانيه خطأ، ليس في نظمه ضعف، أو ركاكة، أو تناقض، أو تنافر، وليس في معانيه خطأ أو انحراف.

2 ـ كتاب ينطق بالحكمة:

المعنى الثاني للحكيم: أي ذو حكمة أي كتاب ينطق بالحكمة، وما الحكمة ؟ يعني من باب التمثيل والتقريب: لو أن إنساناً عنده آلة يعاني من بعض المشكلات، ثم قرأ بعد حين تعليمات صانع الآلة، فقال: ليتني قرأت هذا الكتاب، لو أنني قرأت هذا الكتاب لعرفت كيف استعمله، لتلافيت كل متاعبي فيها.

إذاً الحكمة هي حقيقة، لو أخذت بها، لسعدت في الدنيا والآخرة، الإنسان أحياناً يكتشف الحقائق من خلال التجارب، وقد يدفع الثمن باهظاً، فمعظم الناس يقعون في شر أعمالهم، ولكن بعد فوات الأوان وقبيل الوفاة في خريف العمر، يقول آه ! ليتني عرفت الحقيقة في مقتبل حياتي.

العاقل من يستقي الحقائق من الخبير ليسعد في الدنيا و الآخرة:

الإنسان الكامل إما أن يستقي الحقائق من خبير فيهتدي بها ويتلافى الشقاء في الدنيا والآخرة، وإما أن يكتشفها بنفسه، اكتشاف الحقائق من خلال التجارب العملية فيها مغامرة وفيها مخاطرة، مثلاً لو أن قنبلة على الأرض !! سألت نفسك هل هذه قنبلة أم لا ؟ قلت سأختبرها بنفسي، لو أنك اقتربت منها لتختبرها فانفجرت لم تبق في الحياة، وقتها تستفيد من هذه الخبرة، ولكن بعد أنْ دفعت الثمن باهظاً جداً لمعرفتها، أما لو جئت بخبير والخبير يعرفها ما إذا كانت موقوتة أو غير موقوتة، نزع فتيلها إن كانت قنبلة حقيقية أو خلبية فحينما تأخذ كلام الخبير تنجو، أما حينما تكتشف الحقيقة بنفسك ربما كان الثمن باهظاً جداً، فلذلك نجد في القرآن الكريم تعليمات الصانع:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أي والقرآن المفعم بالحكم، وبالحقائق، لو أن الإنسان أخذ بها لسعد في الدنيا والآخرة، الإنسان في مقتبل حياته قد يظن المال كل شيء، وفي كهولته يظن المال شيئاً من الأشياء، لكن قبيل الموت يرى أن المال ليس بشيء، ويرى أن طاعة الله هي كل شيء.

من عرف الحقائق آثر طاعة الله على كل شيء:

لو عرف أن طاعة الله هي كل شيء في مقتبل حياته لسعد في الدنيا والآخرة، المشكلة مشكلة وقت، يا أخوان عند الموت لابد من كشف الحقائق:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق: الآية22)

المشكلة أن تعرف الحقائق في الوقت المناسب، أن تعرفها في مقتبل الحياة، قبل أن تتزوج، قبل أن تختار مهنتك، وقبل أن تختار طريقك، لأنك إذا عرفت الحقائق، آثرت طاعة الله على كل شيء.

لا يمكن للإنسان أن يسعد في حياته إلا بالاتصال بالله عز وجل:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

المعنى الأول: إنه محكم في نظمه، محكم في معانيه.

المعنى الثاني: القرآن الحكيم أي ذو حِكَم، مثلاً الله عز وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (124))

(سورة طه: الآية 124)

هذه حقيقة: إذا ظننت لدقيقة واحدة أنه يمكن أن تسعد وأنت مُعْرِض عن الله عز وجل، فهذا وهم كبير وهذا خطأ فادح، أما إذا أيقنت وأنت في مقتبل الحياة أنه لا سعادة إلا بالاتصال بالله عز وجل، وأنه لا سعادة إلا بالإقبال عليه، ولا سعادة إلا بطاعته، هذه حقيقة أساسية فإما أن تكتشف هذه الحقيقة في خريف العمر بعد فوات الأوان، وإما أن تقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (124))

(سورة طه: الآية 124)

لكل إنسان عند الله عز وجل معاملة خاصة تتعلق بإيمانه واستقامته:

إذاً معنى:

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2))

أي أنه ذو حكم أو ذو حقائق، مثلاً قد تتوهم أن الحياة بالذكاء، والشطارة، وكثرة الأموال، واغتنام الفرص، واقتناص المناسبات، ويفوتك أن التوفيق بالحياة أساسه الاستقامة، يقول الله عز وجل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

هذه الآية إذا قرأتها في مقتبل حياتك وأيقنت بمضمونها، وعلمت أن الله لن يعامل المؤمن المستقيم كالمسيء الغافل الكافر، وأن لكل إنسان معاملة خاصة تتعلق بإيمانه واستقامته.

في القرآن الكريم حقائق تتعلق بسعادة الإنسان و صحته و كل ما يهمه:

(وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2))

أي ذو حكم، فيه حقائق تتعلق بسعادتك، تتعلق بصحتك:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا (31))

(سورة الأعراف: الآية 31)

في كل شيء، هذه حقيقة تتعلق بصحتك.

(لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ (11))

(سورة الحجرات: الآية 11)

السخرية أحيانا تسبب كل المتاعب طبعاً ليس المجال هنا متسعاً لذكر الحكم التي في القرآن، القرآن طافح بالحكم، إذا قرأت القرآن، وكشفت الحكم، أو القواعد، أو الثوابت، أو القوانين، أو السنن، هذه من عند خالق الكون فإذا عرفتها في الوقت المناسب، وأخذت بها، سعدت بالدنيا والآخرة، وإن توهمت شيئاً خلافها كشفت بعد فوات الأوان أنك في خطأ كبير ووهم كبير، هذا المعنى الثاني والقرآن الحكيم أنه ذو حكم.

3 ـ ذو حكمة في مخاطبة الإنسان:

والمعنى الثالث:

(وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2))

أي ذو حكمة في مخاطبة الإنسان، يخاطب عقله تارة، ويخاطب قلبه تارة، ويخاطب عقله وقلبه معاً تارة أخرى، يذكر له أخبار الأقوام السابقة ؛ كي تستخلص العبر والحقائق، يذكر ما كان قبل الحياة، وما سيكون بعد الممات، يذكر الدار الآخرة بمشاهد رائعة، مشاهد محببة عن أهل الجنة، ومشاهد مخيفة عن أهل النار، يذكر الآيات الكونية، فهو محكم في نظمه وفي معانيه، ذو حكم تنفعك في حياتك وفي

سعادتك، وهو ذو حكمة في التنويع في مخاطبة الإنسان وفي الترفق به، في الإيجاز تارة في الإطناب تارة أخرى، في التفاصيل عن أخبار الأمم السابقة، فيما سيكون، هذا كله متعلق بالحكمة.

القرآن الحكيم يدل الإنسان على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله:

ربنا عز وجل يقسم بهذا القرآن الحكيم المحكم، و ذو الحكم، و ذو الحكمة، يقسم بأنك يا محمد

(لمن المرسلين)

و قد نستنبط بأن الدليل القاطع على أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله هو ذلك الكتاب الذي جاء به، حينما يمسك سيدنا موسى العصا فتنقلب ثعباناً مبيناً، أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ لأنه جاء بشيء يعجز عنه البشر، كذلك نبينا عليه الصلاة والسلام جاء بهذا القرآن، فالقرآن الكريم والقرآن الحكيم والقرآن المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي إعجازه مستمر إلى يوم القيامة لقوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت: الآية 53)

هذا القرآن الحكيم يدل على أنك من المرسلين، فالنبي رسول، هنا ليس المقام مقام تمييز رسول عن رسول، المقام أن هذا الإنسان الذي تعرفون نسبه، وتعرفون أمانته، وتعرفون صدقه، وتعرفون عفافه، وتعرفون ماضيه، وتعرفون نقاءه ونظافته، هو رسول الله، القرآن الذي بين يديه يؤكد أنه رسول رب العالمين.

مهمة النبي الكبرى إقناع الناس بأفعاله و كلامه:

(وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3))

معنى ذلك أن الرسل كثيرون، وأن الله عز وجل اقتضت رحمته ألا يدع العباد معطلين عن الأمر والنهي، ألا يدع العباد معطلين عن توجيهات الخالق جلّ وعلا، فربنا عز وجل خالق رحيم، هو نور السماوات والأرض، هو خلقها ونورها بكتبه التي أنزلها على أنبيائه المرسلين:

(يس (1) وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3))

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، جاء بالحق من عند الله، عرّفنا بحقيقة الكون، وحقيقة الدنيا، وحقيقة الإنسان، وما مهمة الإنسان في الدنيا ؟ أين كان ؟ وإلى أين المصير ؟ لكن لا يكفي أن

تكون مهمة النبي عليه الصلاة والسلام فقط مهمة إبلاغية، ليست فقط مهمة علمية، ليست فقط مهمة كلامية، مهمته الكبرى: أنه قدوة، يقنعك بلسانه وبأفعاله.

انعدام قيمة الدعوة إلى الله إن لم يرافقها تطبيق عملي:

لذلك:

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

وهذه حقيقة مهمة جداً، أي ما قيمة الدعوة إلى الله إن لم تكن على أساس من التطبيق ؟

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا (33))

(سورة فصلت: الآية 33)

إذاً: مهمة النبي عليه الصلاة والسلام كقدوة حسنة وأسوة حسنة ومثل أعلى، لا تقل عن مهمته كمبلغ وكرسول.

المؤمن الحقيقي من استقام على أمر الله و التزم بما أمره:

لذلك جاء في هذه الآية هذا الجمع بينهما:

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

ويكفينا قول الله عز وجل:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (112))

(سورة هود: الآية 112)

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، يعني هذا الذي يقوله عامة الناس: يا أخي أنا لست نبياً، من قال إنك نبي، إنك مؤمن، وأنت كمؤمن مأمور بالاستقامة على أمر الله عز وجل،

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك)

من حيث الأعمال الصالحة افعل منها ما تطيق، ابذل بقدر استطاعتك، لكن من حيث الاستقامة والالتزام ؛ لابد من أن تلتزم أمر الله عز وجل، حتى تستحق أن تكون مؤمناً مخاطباً كما خوطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (112))

(سورة هود: الآية 112)

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

النبي عليه الصلاة والسلام المَثل الأعلى للإنسان:

يا أيها الأخوة الأكارم: القرآن الكريم يأمرنا أن نأخذ ما آتانا النبي:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر: الآية 7)

القرآن الكريم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

(سورة الأحزاب: الآية 21)

إذاً أنت مأمور أن تأخذ بأقواله، وأن تتبعه بأفعاله، إذاً لابد أن تعرف هذا النبي العظيم:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69))

(سورة المؤمنون: الآية 69)

لابد من أن تعرفه، من خلال أقواله، ومن خلال أفعاله، كي تأخذ أقواله كأمر ونهي، وتأخذ أفعاله كقدوة ومثل أعلى في حياتك، وكل إنسان له في حياته مثل أعلى، والمؤمن مثل الأعلى النبي عليه الصلاة والسلام.

على الإنسان أن يتعرف على أفعال النبي الكريم حتى يقتدي به:

الإنسان عادةً في ذهنه إنسان يعظمه، فإن كان من أهل الدنيا قلده في انغماسه في الدنيا، وإذا كان هذا المثل الأعلى في النبي عليه الصلاة والسلام، قلّده في أفعاله، وفي أقواله، النبي عليه الصلاة والسلام كيف يدخل على أهله ؟ كيف كان متواضعاً ؟ كيف كان حليماً ؟ كيف كان عذب الروح ؟ كيف يتصابى للصبيان ؟ كيف إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً ؟ كيف كان يفعل مع أهله ؟ مع أصحابه ؟ كيف كانت مواعيده ؟ كيف كان كلامه ؟ كيف كان حياؤه ؟ كيف كانت شجاعته ؟ يجب أن تقرأ أقوال النبي حتى تأخذ بها كأمر ونهي وكمصدر تشريعي، ويجب أن تأخذ بأفعال النبي حتى تقتدي به.

نزول القرآن الكريم من عند خالق الكون:

إذاً:

(يس (1) وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4))

هذا القرآن من عند مَنْ ؟

(تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5))

من عند خالق الكون، العزيز.

العزيز كلمة لها عدة معان منها:

1 ـ الذي لا يُنال جانبه:

معنى العزيز الذي لا يُنال جانبه.

2 ـ الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء:

العزيز في اللغة: هو الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويصعب الوصول إليه.

3 ـ الفرد الذي لا ثاني له:

العزيز هو الفرد الذي لا ثاني له، العزيز الرحيم ليس إلا الله عزيزاً، وليس إلا الله رحيماً، وهذا الكتاب من عنده.

فالعزيز تشير إلى صفة العظمة، والرحمة تشير إلى صفة الكمال، فإذا أردت أن تلخص أسماء الله الحسنى كلها في ثلاث كلمات: الله موجود ؛ إذا أيقنت بوجوده ؛ تقول ما صفاته ؟ تقول: عزيز، رحيم، قوي أي لا شريك له، كامل لا ند له، موجود وواحد وكامل.

الله عز و جل رحيم لا يدع عباده من دون إنذار و توجيه:

(وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6))

في بعض التفاسير توجيه لطيف جداً لهذه الآية: لتنذر قوماً إنذاراً كما أنذر آباؤهم، هذه الـ (ما) موصولة، وليست نافية، لتنذرهم كما أنذر آباؤهم، لأن الله سبحانه وتعالى رحيم، لا يدع عباده من دون إنذار، فعباده يتلقون توجيهاتهم من الله والإنذارات بشكل مستمر:

(لِتُنْذِرَ قَوْمًا (6))

أي أهل مكة:

(مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ (6))

لتنذرهم إنذارا كالذي أنذر به آباؤهم:

(فَهُمْ غَافِلُونَ (6))

غافلون عن الله عز وجل، غافلون عما ينتظرهم من عذاب أليم، غافلون عما أعدّ لهم من نعيم مقيم، غافلون عن هذا التشريع العظيم.

من يكذب برسالات الله عز وجل يشقى في الدنيا والآخرة:

(لَقَدْ حَقّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

أيها الأخوة: أتمنى على الله جلّ وعلا أن نفهم هذه الآية فهماً دقيقاً:

(لَقَدْ حَقّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ (7))

أي قول هذا ؟! ربنا سبحانه وتعالى له سنن في الحياة، وله قوانين، هذه نواميس الكون، هذه سنن الخلق، مثلاً: لو أن مادة تقول: إذا انقطع الطالب عن المدرسة أسبوعين يفصل، فإذا سأل مدير المدرسة أحد الموجهين: ائتني بدوام هذا الطالب، فجاءه بغياب سبعة عشر يوماً، يقول له لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد انطبقت عليه المادة الثانية من النظام الداخلي بوجوب فصله.

معنى

(حق القول على أكثرهم)

أي هذه السنن التي سنّها الله عز وجل، هذه القواعد التي قعّدَها الله عز وجل، هذه القوانين التي قننها الله عز وجل، هذه المبادئ التي وضعها الله عز وجل، تقتضي أنه من يكذب برسالات الله عز وجل، يشقى في الدنيا والآخرة.

الهلاك عاقبة من اتبع أهواءه و نزواته:

(لَقَدْ حَقّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ (7))

حقت هذه القاعدة عليهم، انطبقت عليهم، هذا المعنى الذي يُفْهم من هذه الآية، لا كما يقول بعضهم: إن هذا الإنسان خلق كافراً، وقد حق القول عليهم أن يكونوا كفاراً، ما معنى إذاً إنزال هذا الكتاب ؟ إذا كان هذا الكافر ما كفر إلا لأن الله قدر عليه الكفر وانتهى الأمر، ما معنى إبلاغه

(لقد حق القول على أكثرهم)

أي القواعد التي قعدت، القوانين التي قننت، النواميس التي سنت، الثوابت التي ثبتت، هذه انطبقت عليهم، ما هذه الثوابت ؟ ما هذه القوانين ؟ أن كل من يكذب برسالات الله عز وجل ولا يعبأ بها، وينطلق في الحياة وفق شهواته، وأهوائه، ونزواته سيشقى في الدنيا والآخرة، سيهلك في الدنيا والآخرة.

من انحرف عن منهج الله عز وجل وجب له العقاب:

إذاً:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ (7))

حق القول بأنه:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (124))

حق القول:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33))

(سورة يونس: الآية 33)

لو أنك استنبطت القواعد التي قعدها الله في القرآن الكريم، لرأيتها تنطبق على هؤلاء، لو أن إنساناً ارتكب جريمة بقصد وتصميم وإصرار وسابق تصور، وجاء القاضي ليحاكمه، فقال له المادة العاشرة من قانون العقوبات تنطبق عليك إذاً لابد من حكم الإعدام.

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

لقد حق القول على أنهم إذا اتبعوا الشهوات لا يؤمنون، إذا انحرفوا عن منهج الله لا يؤمنون، إذا اتبعوا الشهوات ينحازون إلى شهواتهم، ويعرضون عن الحق، إذا اتبعوا الشهوات واستمرؤوها يرون الحق ثقيلاً عليهم إذاً يكفرون به، إذا جعلوا من شهواتهم دليلاً أنهم على حق كانوا في خطأ كبيرٍ.

من صدق برسالات الله سعد في الدنيا و الآخرة و من كذب بها دفع الثمن باهظاً:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

فإذا غاب طالب، ولم يحضر الامتحان، نقول له: لقد انطبقت عليك مواد النظام الداخلي وقد اقتضت ترقيم قيدك هذا العام، هكذا المعنى !!

فإما أن تصدق برسالات الله عز وجل فتسعد في الدنيا والآخرة، أمّا إذا كذبتها فتدفع الثمن باهظًا:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

كيف يؤمنون ولم يفكروا في هذا الكون ؟ كيف يؤمنون ولم يبحثوا عن منهج الله عز وجل ؟ كيف يؤمنون ولم يطبقوا منهج الله عز وجل ؟ كيف يؤمنون و قد جعلوا من شهواتهم آلهة لهم ؟ كيف يؤمنون وقد جعلوا مصالحهم هي التي توجههم إلى مستقبلهم ؟

من رفض الحق قبل الباطل و من رفض العقل سَيّرته الشهوة:

(لَقَدْ حَقّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

كأن الله جل جلاله يبين لنا: أنك إما أن تستجيب لرسالات الله عز وجل:

(وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ (2) إِنّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرّحِيمِ (5))

وإما أن يحق القول على الإنسان الذي رفض رسالات الله، ورفض منهج الله عز وجل، وسار في الدنيا وفق أهوائه، لقد حقّ القول عليه أنه لا يؤمن، الله عز وجل الآن يبين لنا: أن هذا الكافر حينما أعرض عن ذكر الله، وحينما رفض رسالات الله، وحينما رفض منهج الله، وحينما انطلق في حياته وفق شهواته، وفق نزواته، وفق مصالحه، حينما فعل هذا، ما الذي حصل له ؟ استحكمت فيه شهواته، الإنسان إما أن يقوده الحق، وإما أن تقوده شهواته، قلب الإنسان إما أن يمتلئ حباً لله، وإما أن يمتلئ حباً للدنيا، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لشهوة أو لنزوة أو لإنسان لئيم، لا يوجد حالة وسط، فحينما رفض الإنسان الحق، قبل الباطل، حينما رفض الإنسان العقل ؛ سيّرته الشهوة.

تصوير حال الكافر الذي اتخذ من شهوته قدوة له:

الله عز وجل يصور لنا حال هذا الكافر الذي أعرض عن الله عز وجل، وجعل إلهه هواه والشهوة قدوة له:

(إِنّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8))

الأغلال وضعت في أيديهم، وسحبت أيديهم إلى أعناقهم، وحينما سحبت إلى أعناقهم، رفعت رؤوسهم، وغضوا أبصارهم، إنسان لا يستطيع أن يرى أمامه، مقيد على أن يفعل شيئاً، يعني الشهوات كالأغلال، يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، الشهوة غل (قيد):

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

فالشهوات أغلال، فالغارقون في الزنى، الغارقون في شرب الخمر، الغارقون في المخدرات، الغارقون في حب المال، الغارقون في حب النساء، هذه الشهوات جعلت منهم عبيداً مقيدين، عبيداً لشهواتهم، إنا جعلنا في أعناقهم لكن جعلنا هذه على رأي علماء التفسير تحصيل حاصل، يعني طبيعة الإنسان إن لم يستنر بنور الله، سوف تقوده شهوته، إن لم يمتلئ قلبه حبًا لله، سوف يمتلئ شهوة خبيثة، هذا قانون الله عز وجل، هذا من: لقد حق القول على أكثرهم.

من استحكمت به شهوته و جعل إلهه هواه خسر الدنيا و الآخرة:

الآن الوعاء لابد من أن يكون ممتلئاً، فإذا فرغته من الهواء، عندئذ عنده قابلية سحب أي شيء، فنفسك كالوعاء المفرغ من الهواء، إما أن يمتلئ حقاً، وإما أن يمتلئ باطلاً، إما أن يمتلئ قيماً، وإما أن يمتلئ شهوات، فلذلك حينما رفض الإنسان الحق، ورفض منهج الله، ورفض ما عند الله من نعيم مقيم، هذه النفس الفعالة امتلأت شهوات مستعرة، حاله وقد استحكمت به شهوته، حاله وقد جعل إلهه هواه ؛ كإنسان قيدت يداه، وربطت إلى عنقه، فهو لا يستطيع أن ينظر أمامه، ولا أن يفعل شيئاً، لا يرى ولا يفعل، الإنسان إدراك وحركة، تعطل إدراكه فالشهوة حجاب، تعطلت حركته فالشهوة قيد:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8))

مقمح: أي رفع رأسه وأغمض عينيه ورفع رأسه بسبب تقييد يديه إلى عنقه:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ (29))

(سورة الإسراء: الآية 29)

وصف دقيق تشبيه تمثيلي لحال الكافر الذي رفض الحق واتبع الباطل، رفض العقل واتبع الشهوة، رفض حب الله عز وجل وأحبّ الدنيا، رفض أن يكون العقل رائده فجعل الشهوة قائداً له.

الشقي من ضيع دنياه و آخرته:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(9))

سد أمامهم يحول بينهم وبين سعادة الدنيا، وسد خلفهم يحول بينهم وبين سعادة الآخرة، بالإضافة إلى أنهم مقيدون لا يستطيعون حراكاً، و رؤية شهوتهم أعمت أبصارهم، وقيدت أفعالهم بالإضافة إلى ذلك، جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، أراد الدنيا فشقي بها، وفاتته الآخرة، ضيع الدنيا والآخرة، سُدًا أمامهم، عاشوا في الدنيا أشقياء:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

وحينما رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق، رأوا مصيرهم المحتوم في جهنم و بئس المصير، إذاً جعلنا من بين أيديهم سداً، هذه حقيقة واضحة، اسأل أهل الدنيا، اسأل ملوك المال، اسأل عظماء الدنيا ممن جاءتهم الدنيا من كل جانب، هل أنتم سعداء ؟ أنا أقول لكم وأنا متأكد من كلامي أنهم من أشقى الناس لأن الله عز وجل يقول:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

(سورة الروم: الآية 7)

ما عرفوا حقيقة الدنيا وإنما عرفوا ظاهرها، ظنوا أن المال فيها هو كل شيء، أو أن المتعة هي كل شيء، أو أن العلو في الأرض هو كل شيء، أو أن تألق الإنسان في سماء الشهرة هو كل شيء.

من أعرض عن الله عز وجل شقي في الدنيا قبل الآخرة:

لماذا ينتحر من بلغ أوج النجاح في حياته ؟ لماذا ينتحرون ؟ سمعت بالأخبار، ملكة حاولت الانتحار ست مرات لماذا ؟ الإنسان إذا أعرض عن الله عز وجل، يصبح شقياً في الدنيا:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9))

وصف دقيق، صورتان صارختان معبرتان لمن امتلأ قلبه بالشهوات، يداه مقيدتان تمنعانه من الحركة، مقيدتان إلى عنقه، ورأسه مرفوع يمنعه من أن ينظر، لا يدرك ولا يفعل، ذلك شأن الشهوة، أعمت بصره، وقد قال عليه الصلاة والسلام:حبك الشيء يعمي ويصم، شهوته أعمت بصره، وقيدت حركته، شقي في الدنيا، وشقي في الآخرة، سدّ بينه وبين سعادة الدنيا، وسدّ بينه وبين سعادة الآخرة، هذا الذي يرفض رسالات الله:

(يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

من آثر الدنيا على الآخرة سَوَاء محياه و مماته:

حينما انطبقت عليهم قوانين الله عز وجل، حينما رفضوا دعوة الله عز وجل ولم يستجيبوا لها، رفضوا منهجه، آثروا الشهوة، آثروا الدنيا:

(لَقَدْ حَقّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7))

عندئذ ترى حالهم كحال الذي:

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(9))

عندئذ ماتت قلوبهم:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ (21))

(سورة النحل: الآية 21)

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10))

(سورة فاطر: الآية 22)

عدم إيمان الإنسان الذي أغلق عقله و أدار ظهره للحق:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10))

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حيـاة لمن تنـادي

ونـار لو نفخت بها أضاءت ولكنك تنفخ في رمـــاد

* * *

هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10))

أنت يا محمد تنذر مَنْ ؟ إنما تنذر من اتبع الذكر.

من جعل القرآن أمامه قاده إلى الجنة:

هذا الذي قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، اتعظ بآياته، اعتبر بأخباره، هذا الذي قرأه ليلاً ونهاراً، هذا الذي قرأه قراءة كما أراد الله عز وجل، قرأه على النحو الذي أراده الله:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

(سورة البقرة: الآية 121)

هذا الذي فهمه، هذا الذي فهم معانيه، هذا الذي طبقه، قرأ وفهم وتدبر وطبق، هذا معنى من اتبع الذكر، هذا الذي جعل القرآن إماماً له، مَنْ جعله أمامه، قاده إلى الجنة. ومن جعله خلفه، ساقه إلى النار.

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان: الآية 30)

من اتبع القرآن الكريم سعد في حياته و بعد مماته:

يكفي أن تقول لإنسان قال الله عز وجل، يقول: يا أخي هذه الآيات ليس وقتها، هذا الكلام جعله وراء ظهره، يكفي أن يقول الله عز وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (221))

(سورة البقرة: الآية 221)

شخص خطب فتاة، الأب سأله عندك بيت ؟ قال عندي، قال أريد الطابو، أحضر ورقة الطابو، أريني البيت، رأى البيت، عندك سيارة أين الميكانيكا و أين السيارة ؟ رآها، عملك ؟ قال عندي معمل، أين المعمل الرخصة فرآه مناسباً جداً، بيت وسيارة ومعمل فوافق، فمرةً دخل لعنده شخص قال: هذا صهري، نظر هذا الشخص وقال: هذا إنسان من غير دينك: قال تعال هنا، ما سألتني عن ديني سألتني عن عملي وعن سيارتي فقط !! فالإنسان حينما لا يعبأ بكلام الله عز وجل، يدفع الثمن باهظاً والله يقول:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (221))

(سورة البقرة: الآية 221)

فالذي لا يتبع القرآن الكريم:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء: الآية 9)

هكذا قال الله عز وجل.

علامة المؤمن أن يتبع ما في القرآن الكريم:

فالذي أريده أن أقول لكم:

(إِنّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتّبَعَ الذّكْرَ (11))

المؤمن دائماً وقاف عند أمر الله عز وجل، في هذا الموقف ما أمر الله عز وجل؟ ما نهيه ؟ ماذا يريد ؟ ما الحكم الشرعي ؟ إنما تنذر من اتبع الذكر، قبل أن تسافر، قبل أن تتاجر، قبل أن تتعين في هذه الوظيفة، هذه الوظيفة هل ترضي الله عز وجل ؟ هل فيها نفع للمسلمين أم فيها إيذاء لهم ؟ قبل أن تتاجر هل هذه التجارة مشروعة أم غير مشروعة ؟ وقبل أن تمارس هذه التجارة المشروعة هل في هذه الممارسة انحراف عن الحق أم اتباع له ؟ إنما تنذر من اتبع الذكر، أي علامة المؤمن أنه يتبع ما في القرآن الكريم، هذا الإنسان إذا أنذرته، ارتعدت فرائصه، هذا الإنسان إذا أنذرته بادر إلى التوبة، هذا الإنسان إذا أنذرته استجاب لك:

(إِنّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتّبَعَ الذّكْرَ وَخَشِيَ الرّحْمَنَ بِالْغَيْبِ (11))

أي في هذه الآية شيء متعلق بالإيمان.

الإنسان إذا فكر بالكون عرف الله عز وجل و عرف عظمته و قدرته:

الله عز وجل غاب عن أبصارنا، وغاب عن حواسنا، ولكن هذا الكون يدل عليه، إذا فكر في الكون عرف الله عز وجل، وخشيه في الغيب دون أن يراه، فالإنسان إذا فكر بالكون عرف الله عز وجل، فإذا عرف عظمته، وعرف جلاله، وعرف قدرته، وعرف رحمته، وعرف حكمته، وعرف أنه هو الفعال، وأنه الواحد المتعال، وأن الكون كله بيده، خشيه، وهذا كلامه فاتبعه، فهذا الإنسان الذي عرف الله متفكراً، واتبعه مستقيماً، هذا الإنسان إذا أنذرته، رأيته يعطيك أذناً صاغية، هذا الإنسان إذا ذكرته بالله عز وجل ذكر، إذا خوفته خاف، إذا بشرته استبشر، إذا حذرته يحذر، إذا أنذرته يتبع ويقف عند حده، قال:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ (11))

من فكّر في ملكوت الله عز وجل آمن به و اتبعه:

أي الله عز وجل قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص: الآية 61)

كأن الله عز وجل يبلغنا بشكل غير مباشر، يعني يا عبادي: فكروا بالكون، وآمنوا بي حتى تخشوني، واقرؤوا القرآن واتبعوا ما فيه، حتى إذا ذكرتكم ذكرتم، وإذا خوفتكم خفتم، وإذا بشرتكم استبشرتم، وإذا حذرتكم وقفتم عند حدّكم:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11))

الإنسان إن استجاب لهذا القرآن أو لم يستجب لابد أن يموت و يدفع الثمن باهظاً:

مرة ثانية هذه السورة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ يس...))

[الدارمي عن أنس]

يا أخوتي كثيراً ما أتمنى على الله عز وجل أن يعطوا هذه السورة حقها:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى (12))

أي الإنسان إن استجاب لهذا القرآن أو لم يستجب لابد أن يموت، لأن كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر:

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبــور جنازة   فاعلم بأنك بعدها محمـول

* * *

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى (12))

أنت أيها الإنسان، إما أن تستجيب أو لا تستجيب، إمّا أن تتبع هذا الهدى أو أن تتبع الشهوة، إمّا أن تستجيب لله عز وجل، أو أن تستجيب للطواغيت من الإنس والجن، على كلٍ: لابد من الموت وبعد الموت تدفع الثمن باهظاً.

من عرف الله عز وجل وأناب إليه أحياه الله بعد الموت:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى (12))

بعضهم فسر هذه الآية، أن الإنسان إذا كان ميت قلبه، ميتة نفسه، وعرف الله عز وجل وأناب إليه، يحييه الله بعد الموت:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (122))

(سورة الأنعام: الآية 122)

هذا هو المعنى الآخر:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (12))

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1))

(سورة النساء: الآية 1)

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر: الآية 14)

كل أقوال الإنسان و أفعاله مسجلة عليه ليحاسب يوم القيامة حساباً عادلاً:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14))

(سورة الإسراء: الآية 14)

كل أقوالك مسجلة، كل أفعالك مسجلة، كل نواياك مكشوفة عند الله عز وجل، كل أسرارك معلنة، كل طويتك منشورة، كل أفعالك ممهورة، هذا هو المرقوم، كتاب مرقوم: يعني مرقم، لا تند عنه صفحة، وكتاب مرقوم من رقم، يعني كل مخالفة مع صورتها، كأن الإنسان يوم القيامة تعرض عليه أعماله وكأنه شريط سينمائي: فعلت كذا، وقفت هذا الموقف، ذهبت إلى هذا المكان، كذبت هذه الكذبة، احتلت هذا الاحتيال، أخذت مالاً حراماً، اعتديت على أعراض الناس، كله مسجل:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14))

(سورة الإسراء: الآية 14)

أحياناً المذنب يُصَوَر وهو لا يدري، فإذا دخل للتحقيق، عرضوا عليه فيلماً عن كل حركاته المشبوهة، فماذا يفعل ؟ يسكت، كذلك الإنسان يوم القيامة، فأنت إما أن تؤمن وإما ألا تؤمن، إما أن تتبع الهدى وإما أن تتبع الضلال، إما أن تكون الشهوة رائدك وإما أن يكون الحق رائدك.

من سنّ سُنّة حسنة كان له أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة:

على كلٍ:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (12))

ما قدموا من أعمال قبل أن يموتوا، ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت لآخرتك ؟ ما العمل الذي ادخرته للقاء الله عز وجل ؟ إذا قال لك الله يا عبدي، ماذا فعلت لي في الدنيا ؟ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ أعطيتك جاهاً فماذا فعلت به ؟ أعطيتك علماً هل أنفقته ؟ كيف أفنيت شبابك ؟ كيف أمضيت عمرك ؟ ماذا عملت بما علمت ؟ كيف اكتسبت مالك وكيف أنفقته ؟ هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَا وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ (12))

وآثارهم يعني هذه الفتاة التي أغواها فلان من الناس كان يمكن أن تكون زوجة صالحة ؟ وأن تكون ربة منزل مثالية ؟ وأن تكون في كبرها جدة أغواها زيد من الناس فجعلها ساقطة، فأنجبت ذرية ساقطة؟ وقد تنجب إلى يوم القيامة مئات الألوف من الساقطات، كل هذا السقوط في رقبة من أغواها أول مرة.

((مَنْ سَنّ سُنّة حَسَنَة فعُمِلَ بهَا كَانَ لَهُ أجْرُهَا ومِثلُ أجْر مَنْ عَمِلَ بهَا لا يَنْقُصُ مِنْ أجُورهِمْ شَيْئًا، ومَنْ سَنّ سُنّةً سَيّئَةً فعُمِلَ بهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

[ابن ماجه عن المنذر بن جرير]

أي عمل يفعله الإنسان سيحاسب على آثاره الإيجابية أو السلبية:

شيء مخيف أي عمل فاسد، كل من فعله، كل من اقتدى به، كل من قلده، إلى يوم القيامة **!!**هذا من آثار العمل. يعني أضرب لكم مثلاً: رجل كان مسافراً من مكان إلى مكان، في الطريق اضطر إلى إصلاح مركبته، صاحب هذا الكراج ما أتقن هذا العمل، في الطريق انقطعت مركبته، وكان الجو حاراً، أصابته ضربة شمس فمات، يحاسب هذا الإنسان على إهماله بحسب الآية، يحاسب على أن إهماله سبب موت هذا الإنسان، ضع هذه الحقيقة في ذهنك، أي عمل تفعله ستحاسب لا عنه بالذات، لا عن حجمه، بل على آثاره ؛ الخطيرة الخيرة أو الشريرة الإيجابية أو السلبية، يعني أحياناً إنسان دون أن ينتبه يفعل شيئاً يقلده الآخرون، فإذا قلدوه وكان مبطلاً في هذا العمل، فكل من قلده في صحيفته، هذا من آثار الأعمال.

كل إنسان ميت لا محالة و سيحاسب على أعماله و نتائجها:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (12))

أخطر ما في هذه الآية، أنك تحاسب لا على المعصية فقط، على المعصية وآثارها، على الانحراف وآثاره، الآية واضحة جداً فقبل أن تسن سنة سيئة، وقبل أن تنحرف انحرافاً بسيطاً، أنت أب أو معلم أو صاحب متجر أو صاحب معمل أو موظف كبير، يكفي أن الإنسان إذا قصر في أداء طاعة الله عز وجل على مرأى من أولاده يتبعونه، فمن آثار تقصيره انعكاس هذا التقصير على أولاده، يكفي أن تسلك سلوكاً منحرفاً في تجارتك وأنت يشار إليك بالبنان في هذا السوق، فإذا اتبعك التجار في هذا الغش، أو في هذا الاحتيال، أو في هذه الطريقة في كسب المال، فإنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، يعني أنت إن استجبت لله عز وجل فلك، وإن لم تستجب فعليك، لابد من الموت ولابد من بعد الموت من حساب دقيق، ولابد أن تحاسب لا عن أعمالك فقط، بل عن نتائجها، لا عن انحرافاتك فقط بل عن أبعادها ومضاعفاتها.

من أفسد عقيدة الناس و أخلاقهم تحمل وزر من اتبعه إلى يوم القيامة:

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (32))

(سورة المائدة: الآية 32)

هذا الضال قد يضل أقواماً، إذا أنت أفسدت العقيدة، إنسان يعمل في التعليم، علم ثلاثين سنة، عنده كل سنة خمس شعب، خمس ضرب مئتين و خمسين طالباً بثلاثين سنة أفسد حوالي عشرين ألف إنسان، أفسد عقيدتهم، إذا ألقى الشبهات، أنت أفسدت عقيدة واحد فقط، هذا الواحد صار مدرساً، دخل على الطلاب وأدخل هذه الشبهات في أذهانهم، فكل هؤلاء الطلاب في صحيفة المفسد الأول، إن كان إفساد عقائد، إن كان إفساد أخلاق، إن كان إفساد فتيات، إن كان إفساد شباب، يكفي شاب إنسان يفسده في بعض المخدرات، هذا الشاب ومن أفسد ومن اتبعه وأسرته كله في صحيفة الأول.

على الإنسان أن يعدّ للمليون قبل الإقدام على أي عمل لأنه سيحاسب عليه:

الآية خطيرة جدا أيها الأخوة:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ (12))

قد يكون العمل صغيراً في مظهره، لكن كبير في آثاره، ومعظم النار من مستصغر الشرر، قد تكون أنت أردت أن تستمتع ببعض الشهوات قليلاً على مرأى من أولادك، أنت الأب أفسدتهم وأنت لا تدري، فقبل أن تقصر في أمر إلهي، قبل أن تقترف مخالفة للقرآن الكريم نصّ عليها القرآن الكريم، عد للمليون، لأن آثار العمل محاسب عليها:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12))

الأحاديث المتعلقة بهذه السورة الكريمة:

أيها الأخوة الأكارم: في نهاية هذا الدرس ألقي عليكم بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بهذه السورة الكريمة:

قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ))

[الدارمي عن أبي هريرة]

((إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها وهي سورة يس))

((مَنْ قرَأَ يس حِينَ يُصْبِحُ أُعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّى يُمْسِيَ وَمَنْ قرَأَهَا فِي صَدْرِ لَيْلِهِ أُعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّى يُصْبِحَ))

[الدارمي عن ابن عباس]

((من قرأها نهاراً كفي همه ومن قرأها ليلاً غفر ذنبه))

[ورد في الأثر]

((حَدَّثنِي الْمَشْيَخَةُ أَنَّهُمْ حَضَرُوا غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ الثُّمَالِيّ حِينَ اشْتَدَّ سَوْقُهُ فقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ يس ؟ قالَ: فقرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ، فلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنْهَا قُبضَ، قالَ: فكَانَ الْمَشْيَخَةُ يَقُولُونَ إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خُفِّفَ عَنْهُ بهَا))

[رواه أحمد عن المشيخة]

((اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ))

[سنن أبي داود عن معقل بن يسار]

هذه بعض الأحاديث التي وردت.

إذاً لابد أن تحفظ وتقرأ في كل يوم صباحاً أو مساء أو صباحاً و مساءً، والذي يلفت النظر أن فيها من كل موضوع، فيها آيات كونية، وفيها ذكر لما بعد الموت، وفيها بيان لرسالة النبي عليه الصلاة والسلام، وفيها بشارة، وفيها إنذار، النبي عليه الصلاة والسلام قال: هي قلب القرآن.

وأرجو الله تعالى في دروس قادمة أن يعيننا في فهمها وما تنطوي عليه من حكم ومن دلالات والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (2-7): تفسير االآيات 13-32، من وجد توجيهاً بشرياً يتناقض مع توجيه إلهي فلا يعبأ بكلام البشر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-07-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

من لم يتبّع رسالة الرسل تعمى بصيرته ويحجب عن سعادة الدنيا والآخرة:

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس الثاني من سورة يس، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13))

أيها الأخوة: في القرآن الكريم ترابط تسلسل، كل آية تفضي إلى أختها، آيات السورة الواحدة يأخذ بعضها برقاب بعض، ومن قدر الله له أن يفهم السورة الواحدة كوحدة مترابطة متسلسلة، فهذا من نعم الله عليه، في الدرس الماضي بينت لكم أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء وأرسل المرسلين ومعهم الحق ومعهم الكتاب، لينذروا قوماً كالذي أنذر آباءهم من قبل.

وبيّنت لكم أيضاً أن الذي يرفض رسالة الرسل يُقَيّدُ بقيدٍ، فإمّا أن تؤمن بالحق، أو أن تتبع الهوى، ليس هناك حالة بين حالتين، إما أن تكون مع الحق أو مع الباطل، مع العقل أو مع الشهوة، مع الآخرة أو مع الدنيا، فإن لم تكن مع الآخرة فأنت مع الدنيا، إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل، إن لم تكن مع العقل فإنك مع الشهوة.

فالإنسان حينما يرفض رسالة الرسل، تستحكم الشهوة في نفسه، ومن تستحكم الشهوة في نفسه، يصبح مغلول اليدين، أعمى البصيرة، سَدٌّ أمامه وسَدٌّ من خلفه، محجوب عن سعادة الدنيا، ومحجوب عن سعادة الآخرة، لا يرى الحقائق، مغلولة يداه، هذا وضع مَنْ يرفض رسالة الرسل، أما الآيات الآن تتكلم عمن يتّبِع هذه الرسالة:

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(11))

وإن لم يتبّع الإنسان هذه الرسالة، تعمى بصيرته، وتقيد يداه، ويصبح محجوباً عن سعادة الدنيا وعن سعادة الآخرة.

الإنسان إما أن يفهم بالأفكار أو أن يفهم بالحوادث:

بعد أن بيّن الله لنا نتائج مَنْ يَقْبَل رسالات الله ومن يرفضها، ضرب لنا أمثلة واقعية، ربنا عز وجل يقول: يا محمد:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ (13))

من هم ؟ كفار قريش الذين بُعِثَ النبي إليهم.

(وَاضْرِبْ لَهُمْ (13))

فالإنسان أحياناً إما أن يفهم بالأفكار، وإما أن يفهم بالحوادث، مثلاً هناك من يقرأ مقالات عديدة عن مضار التدخين وهو يدخن إلى أن يرى قريباً له أصيب بسرطان في رئتيه، أو بجلطة في دمه، أو بأزمة صحية ضارية، عندئذ يرعوي، فالإنسان كلما كان أكثر عقلا، وأكثر ذكاءً، يتعظ بالفكر فقط، قد تقرأ مقالة عن مضار شيء، هذه المقالة تكفي أن تتعظ بها، وأن تدع هذا الشيء، لكن هناك أناس أقل مستوى من هؤلاء لا يتعظون إلا بالوقائع، إلى أن يمر بتجربة مريرة، إلى أن يمر بخبرة مؤلمة، إلى أن يدفع الثمن باهظاً، عندئذ يقول: إن الله حق، وإن الربا محرم وإن الله يدمر المرابي، الإنسان العاقل يخاف بفكره، وكلما نقص عقله خاف بعينيه، أقل درجات الإنسان عقلاً: مَنْ يخاف بعينيه وأعظمها رفعة من يخاف بفكره.

العاقل من وقف عند الآيات الكريمة دون محاولة البحث عن شيء أغفله الله:

ربنا عز وجل بيّن هذه الرسالات وبَيّنَ بشكل نظري مصيرَ مَنْ يرفضها، مِنْ غِلٍ في يديه، وعمىً في بصيرته، وحَجْبٍ عن سعادة الدنيا وعن سعادة الآخرة، ومن لم يفهم بشكل نظري... من لا يفهم إلا بالتطبيق العملي!! إليكم هذه القصة: ربنا عز وجل قال:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (13))

الآن هناك سؤال ؟ أية قرية هذه ؟ من هم أصحاب القرية ؟ من هم القوم الذين كانوا أصحاب هذه القرية ؟ لِمَ لَمْ يذكر ربنا جلّ جلاله اسم هذه القرية ؟ لِمَ لَمْ يذكر موقعها ؟ لِمَ لَمْ يذكر أصحابها ؟ هنا السؤال.

قال بعضهم: إذا أبهم القرآن شيئاً فلا تبحث عن تعريفه، إذا أغفل الله اسم القرية إياك أن تبحث عن اسمها، لأن لله حكمة بالغة في إغفال اسم أهل القرية، لأنه لو ذكر اسم القرية، وموقعها، وزمانها، ومكانها، واسم أصحابها، وأعطاك التفاصيل، ما الذي يحدث؟ تظن أن هذه قصة وقعت مرة واحدة، أما حينما يغفل الله اسم القرية، واسم أصحابها، واسم الزمان، والمكان، والتفاصيل، أراد أن يجعلها نموذجاً

متكرراً، إذا أنت بحثت عن اسم القرية، واسم أصحابها، وعن زمانها، وعن مكانها، كأنك تفسد على الله حكمته، قف عند الآيات الكريمة ولا تحاول أن تبحث عن شيء أغفله الله، لماذا ؟ لأنك يمكن أن تأخذ الموعظة البالغة من الآيات من دون أن تعرف اسم القرية، هذا هو الموضوع. أنا مرة عبّرت عنه بمَثَلٍ: أستاذ في الجامعة في كلية التجارة، أراد أن يبين لطلابه عوامل نجاح التجارة، فقال: لي صديق اشترى محلاً في موقع مزدحم، أول بند الازدحام، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الرزق عند تزاحم الأقدام))

وتعامل بالبضاعة الأساسية في حياة الإنسان، وانتقاها من أجود الأنواع، وكان سعره معتدلاً، وعاملَ الزبائن معاملة لطيفة، فربح أرباحاً جيدة، واشترى بيتاً وتزوج وعاش حياة جيدة، أي أراد أستاذ الجامعة أن يبيّن لطلابه عوامل نجاح التجارة، الموقع، نوع البضاعة، مستوى البضاعة، السعر، المعاملة الطيبة، وأنه ما باع دَيْنَاً. فقال له طالب: هذا القريب يا أستاذ ما اسمه ؟ وهذا القريب ما لونه ؟ أبيض أم أسمر ؟ طويل أم قصير ؟ هذه التفاصيل لا علاقة لها بمغزى القصة، الأستاذ أراد من هذه القصة أن يعطي الطلاب عوامل نجاح التجارة، فجاء الطالب ووجه الأستاذ أو سأل الأستاذ عن اسم هذا التاجر، وعن عِرْقِهِ، وعن لونه وعن صفاته، وعن بيته. وكل هذه التفاصيل لا علاقة لها إطلاقا بمغرى هذه القصة.

الأدب مع الله عز وجل:

ترى البعض قد أجهد في البحث، أية قرية هذه ؟ قالوا: أنطاكية، من هم أصحاب القرية ؟ قوم فلان، من هم المرسلون ؟ قال فلان أو فلان، دخلت في متاهة طويلة لانهاية لها وأنت في غنى عنها، لأن الله أغفلها، وكان من الممكن أن يذكرها، وقد قال في آيات أخرى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل: الآية 1)

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

إذاً: هناك آيات أخرى ذكر الاسم، إذاً فالأدب مع الله عز وجل أنه إذا أغفل تفاصيل، جزئيات، أسماء أماكن، أزمنة، فيجب أن تتجه لا إلى هذه التفاصيل، بل إلى المغزى الكامن من وراء هذه القصة. في هذه القصة مغزى عظيم، ودلالات كبيرة جداً يمكن أن تضع يدك عليها من دون أن تفهم التفاصيل التي لو ذكرت لانقلبت القصة من قانون إلى حدث تاريخي وقع ولن يقع مرة ثانية، الله عز وجل لا يريد أن يقول لكم هذه قصة تاريخية وقعت ولن تقع... لو قلت لكم: إن فلاناً ابن فلان أمه فلانة، بيته في

المكان الفلاني، طوله كذا، لونه كذا، فعل كذا وكذا، فلقي النتائج التالية هذه التفاصيل، لو بالغت في ذكرها، لغفلنا عن الحكمة، أما أي طالب يدرس ينجح، قانون !

من أعرض عن رسالات الأنبياء فله جهنم و بئس المصير:

لذلك ربنا عز وجل إذا ذكر لنا أحداثاً، وقصصاً، وأشخاصاً، وأقواماً، القصد المغزى، الحقيقة القصد أن تنقلب هذه القصة إلى نموذج متكرر، إلى سنة من سنن الله عز وجل، إلى قاعدة، إذاً إذا أغفل الله شيئاً لا تبحث عنه، إذا سكت الله عن شيء فاسكت عنه، وابحث عن المغزى الذي أراده الله عز وجل، هذا الذي يدعوني أن أُعْرِضَ قصداً عما ورد في كل التفاسير، عن من هم أصحاب هذه القرية هل هي أنطاكية ما هو الدليل ؟ بعض روايات بني إسرائيل وما الدليل ؟ هناك دليل ضعيف ودليل قوي، من هم المرسلون ؟ ما أسماؤهم ؟ من أرسلهم ؟ هم رسل من عند عيسى بن مريم يا ترى ؟ كل هذه متاهات نحن في غنى عنها.

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13))

هنا لنعد قليلاً:

(إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(3))

يا محمد:

(عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(4)تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(5)لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(6))

حينما أعرضوا عن هذه الرسالات انطبقت عليهم القوانين:

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(7)إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ(8)وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(9))

هذا كلام نظري وأما التطبيق العملي:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا (14))

سبب تكذيب الكفار للأنبياء:

هنا سؤال: لماذا يكذب الكفار عادة الأنبياء ؟ الأنبياء جاؤوا بمنهج، والمنهج: افعل ولا تفعل، المنهج فيه أمر ونهي، وغالباً النواهي تحد من شهوات الكفار، لذلك فالإنسان إذا أقام على شهواته واتبع أهواء نفسه، أغلب الظن أنه يرفض الهدى والدليل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

المرابي الذي يصر على أكل الربا، لن يقنع معك أن الربا حرام ! يحاور، ويناقش، ويماري، ويخادع، والذي يقيم على معصية من نوع آخر لن يقنع معك.

لذلك لماذا رفض الكفار دعوة الأنبياء ؟ لأنهم مقيمون على المعاصي، متبعون للشهوات. ومنهج الأنبياء يحد من شهواتهم ويوقفهم عند حدهم، وكيف يتوازنون مع أنفسهم؟ لو جاء النبي بمنهج والكافر رأى في هذا المنهج ما يحد من شهواته، فإذا أقرّ به وقع في مشكلة مع نفسه، ماذا ينبغي أن يقول لك ؟ أيها النبي إنك كاذب.

إذاً: الكافر حتى ينسجم مع نفسه يكذب دعوة الأنبياء...! فمنهج الأنبياء يحد من شهواته، ولأنه مُصِر على شهواته يرى من السهولة بمكان أن يكذب الأنبياء.

التعزيز أسلوب من أساليب الله عز وجل ليعود الإنسان إلى الطريق الصحيح:

هؤلاء أصحاب القرية شأنهم شأن كل الكفار الذين تشبثوا في الدنيا، واستحكمت فيهم الشهوات، وأصروا عليها، فأعمت أبصارهم، فكذبوا الأنبياء، واتهموهم بالكذب،

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

انظر التعزيز هو من أسلوب ربنا عز وجل، فيجعل صديق لك يذكرك بالحق، هذا أول تنبيه، ما استجبت، يرسل لك مشكلة، المشكلة تعزيز، تقرأ القرآن، يقول لك ربنا في القرآن:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

هذا كلام رب العالمين، تعرض عن ذكر الله، تلقى الحياة الصعبة، تلقى المعيشة الضنك، فالمعيشة الضنك تعزيز للآية الكريمة، تغض بصرك عن محارم الله تشعر بسعادة في بيتك، هذه السعادة تعزيز للآية الكريمة، تكسب مالاً حراماً فيتلف الله مالك كله، إتلاف المال تعزيز لقول الله عز وجل، إذاً دائماً أنت مع القرآن والأحداث كلها تعززه، معنى تعززه أي تؤكده:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

تستمع إلى قرية دمرها الله بزلزال أو بحرب أهلية، تجد أن فيها الزنى، واللِواط، والخمر، والمخدرات، والدعارة، كأن الأحداث تعزز القرآن الكريم، فربنا عز وجل يستخدم دائما أسلوب التعزيز، لكن ربنا رحيم، يبدأ معك بالموعظة النظرية، يلهم أحداً أن يعظك، تستمع إلى خطبة، تجلس في مجلس علم، كلام نظري طيب لطيف، إن لم تستجب !! يبدأ التعزيز، هناك مشكلة، إن لم تستجب

يرفع مستوى المشكلة، هذا هو العذاب الصعد، من هو السعيد إذاً ؟ من استجاب لله عز وجل استجابة طوعيه من دون تعزيز، التعزيز الطبيب، أحياناً يعطيك عيار خمسين، لم ينجح، يعطيك عيار مئة ما أثر خمسمئة، ألف، كلما رأى الطبيب أن هذا الدواء لا أثر له في الشفاء يرفع مستوى الفعالية، هذا هو التعزيز، فربنا عز وجل قال:

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

فكلما ساق الله عز وجل لك دعوة أو أسلوباً ولم تستفد منه، رفع الله عز وجل المستوى.

المؤمن سريع الفهم و الإنسان كلما ارتقى يفهم على الله بأدنى إشارة:

لذلك الإنسان كلما ارتقى يفهم على الله بأدنى إشارة، وإذا كان حسه تلبد، لم يعد يفهم إلا بمرض خبيث، ما عاد يفهم إلا بمرض عضال، ما عاد يفهم إلا بإهانة شديدة، ما عاد يفهم إلا بإفلاس كامل، المؤمن سريع الفهم، يرى أن الأمور تغيرت، من الذي غيرها؟ الله عز وجل

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

أنا أكاد أقول: كلما رأيت أخاً كريماً بدأ يفهم على الله، يعرف هذه من أجل هذه، أقول له: والله فرحت لك، وهنيئاً لك فهمك على الله، لقد قطعت أربعة أخماس الهدى، حينما تفهم كل شيء يسوقه الله لك، حينما تُفسّر الأشياء تفسيراً إلهياً لا دنيوياً، هذا من نعم الله عليك.

إذاً دائماً الله يعزز، أول شيء يدعوك دعوة لطيفة من خلال صديق، من خلال أخ، من خلال أستاذ، من خلال مدرس، من خلال خطيب مسجد، من خلال مقالة تقرأها، يدعوك إليه دعوة لطيفة، فإن لم تستجب هناك تعزيز، هناك تضييق، شبح مصيبة، فإن لم تستجب مصيبة حقيقية، فإن لم تستجب مصيبة أعلى، لن يدعك الله وشأنك لأنه يحبك، ولأنه يريدك، ولأنه يطلبك، ولأنه خلقك ليسعدك، فأنت مطلوب.

بعض الأقوال المأثورة: **" يا داود لو يعلم المعرضون حبي لهم، وانتظاري إليهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، يا داود هذه إرادتي في المعرضين فكيف إرادتي في المقبلين ؟ "**. مع المعرض هكذا.

مَنْ لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر:

إذاً:

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

أردت أن أنطلق من كلمة عززنا إلى أسلوب التعزيز الذي يستخدمه الله عز وجل مع عباده، فأنت كثيراً ما يأتيك دعوة لطيفة: أحياناً ترى مناماً، إذا كنت موفقاً جداً، وحساساً جداً، وعلى مستوى عال من الإدراك، يكفيك منام تحذيري، أحياناً كلمة، أحياناً انقباض، هذا الطريق فيه انقباض لا يحبه الله، هذه النزهة لا ترضي الله، هذه السهرة لا ترضي الله، هذه الشركة لا ترضي الله، هذه الصفقة لا ترضي الله، هذا الدخول لهذا البيت لا يرضي الله، اللقاء مع فلان لا يرضي الله، الانقباض إشارة من الله عز وجل، فإذا الإنسان فهم على الله عز وجل، هذه نعمة كبيرة، أحياناً رؤيا، أحياناً انقباض، أحياناً كلام واضح، صديقك ينصحك يا أخي أنت أخ مؤمن، وهذا الذي أنت فيه لا يرضي الله، احذر...مادام أنت على مستوى أن تستجيب لنصيحة، لدعوة، أو لآية كريمة، أو لحديث شريف، أو لمنام حقيقي تراه، فأنت تفهم على الله تماماً، هذه نعمة، أما الذي لا يفهم إلا بالمشكلة الكبيرة، والضيق الشديد، والتضييق، فهذا حسه متلبد.

أيها الأخوة اسمعوا هذه الكلمة: مَنْ لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، هذا الذي تأتيه المصيبة من الرحمن الرحيم، لتلفت نظره، لتدفعه، لتقربه، لتجعله يتوب، لتحمله على طاعة الله، لتجعله يزداد من الله قرباً وحباً، فلا يستفيد منها هو المصيبة، نفسه هي المصيبة.

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ (14))

جميعاً.

النبي الكريم سيد البشر تجري عليه كل خصائص البشر:

(إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (15))

أي إذا كان النبي بشراً، يأكل كالبشر، ويجوع، ويشبع، ويعطش، ويرتوي، ويتعب، ويعرق، ويحس بالحر، ويحس بالبرد، ويأوي إلى الظل، ويتزوج، إذا كان الرسول تجري عليه كل خصائص البشر، هذا مما ينقص قدره !!؟ بالعكس هذا الذي يعلي قدره، لأن الذي لا يخاف لا يسمى شجاعاً، لو وضعنا في ساحة معركة قطعة خشب، تبقى واقفة لا تخاف، ليس فيها إدراك، قطعة خشب هل لها فضل ؟ أما الإنسان لأنه يخاف ويبقى ثابتاً ويقبل على العدو فيسمى شجاعاً، لولا أنك تخاف لما كنت شجاعاً، ولولا أنك تجوع لما صرت صائماً وصابراً.

فالنبي الكريم لو لم يكن من البشر، ولو لم تجري عليه كل خصائص البشر لما كان بهذه العظمة، لأن لو أن الله عز وجل أرسل مَلَكاً مكانه، وقال المَلَكُ يا أيها الناس: غضوا أبصاركم وأنا أغض بصري،

الجواب أنت مَلك ولست بشراً، أنت لا تحس بما نحس، أنت لا تشتهي ما نشتهي، أنت غير واقعي، لا يستطيع نبي أن يقنع الناس بأحقية الحق إلا إذا كان من بني البشر.

للنبي الكريم مهمتان:

لذلك النبي له مهمتان: المهمة الأولى مهمة إبلاغية وهذه مهمة إذا قيست بالمهمة الأخرى فهي ضئيلة، والمهمة الكبرى مهمة القدوة والأسوة. أي أنت أيها الإنسان مهما كان الكلام دقيقاً، ومنمقاً، وواقعياً، ومعه أدلة وبراهين، و معه تحليل، إن لم تجده مطبقاً بالحياة فلا قيمة له، يقول لك كلام بكلام، حكي **!!** لكن إذا رأيت إنساناً يضحي فعلاً، إن رأيت إنساناً وقافاً عند كلام الله، ينفذ وعده، وقد كلفه ذلك ثمناً باهظاً، إن رأيت منصفاً، إن رأيت من يقول الحق ولو كان مراً، عندئذ تخشع، لا يستطيع أحد أن يلفتك إليه إلا بأعماله لا بأقواله، لذلك الأنبياء كانوا قدوة، معهم منهج، وقد طبقوا هذا المنهج، لولا أنهم طبقوا هذا المنهج، لا قيمة لهذا المنهج، المناهج لا قيمة لها من دون تطبيق.

فمهمة النبي أنه قدوة وأسوة ومثل أعلى أبلغ بكثير من مهمته كمبلغ، والدليل بعد الأنبياء والرسل آلاف آلاف الدعاة، والمتكلمون، والخطباء، والعلماء، والكتاب، والمؤلفون، لماذا لم يؤثروا في الناس ؟ لأنهم في واد وكتاباتهم في واد، الإنسان إذا لم يطبق المنهج لا قيمة لمنهجه إطلاقاً، مثلاً دخل النبي على زوجته السيدة عائشة جاءها طبق من عند أختها صفية ـ طبق طعام ـ أصابت الغيرة السيدة عائشة، فألقت الطبق على الأرض فجاء مهشماً، أليس هذا فيه استفزاز للنبي عليه الصلاة والسلام ؟ أليس بإمكانه أن يفعل كذا وكذا **!؟** خرج من البيت وقال: غضبت أمكم غضبت أمكم. هذا الموقف الكامل. الله جعله أسوة لنا.

الزوجة إذا أصابتها الغيرة، قل:غضبت أمكم غضبت أمكم، انظر الموقف اللطيف الكامل، دخل المعركة وجرحت وجنته، وكسرت ثنيته، تجري عليه كل خصائص البشر، تزوج زوجات عديدات لسن في المستوى المطلوب، كبيرات في السن ولهن أولاد، و ثيبات لأسباب ترضي الله عز وجل، ألا يشتهي الأبكار ؟ يشتهيها لأنه من بني البشر، فكل عظمته، وكل فضله، وكل كماله، لأنه بشر، ولأنه تجري عليه خصائص البشر. وأنت إن لم تجع فلست صابراً، وإن لم تخف فلست شجاعاً، وإن لم تحب المال فلست سخياً، لماذا فلان سخي ؟ يعاكس ما جبل عليه:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية: 14)

هذه الشهوات نرقى بها إلى رب الأرض والسماوات.

لولا أن الرسول بشر لما أقتنعا بهذه الرسالة:

إذاً كل من يقول: هو بشر، نعم وأكرم به من بشر، ولأنه بشر كان سيد البشر، ولأنه بشر كان سيد الخلق، ولأنه بشر كان حبيب الحق، ولن يكون عظيماً إن لم يكن بشراً:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف الآية: 110)

أي تجري علي كل خصائص البشر:

((كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ آنْتِ هِيَهْ لَقَدْ كَبِرْتِ لا كَبِرَ سِنُّكِ.... فَقُلْتُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه]

هو محمد بشر وليس كالبشر فهو ياقوتة والناس كالحجر

***

الياقوت حجر ولكنه ليس حجراً عادياً، يقال: قطعة صغيرة من الألماس ثمنها مئة ألف، خمسمئة ألف، خمسة ملايين ثمن قطعة صغيرة جداً، وتجد بالمقابل حجاراً في بعض السهول عدد الحصى، محمد بشر وليس كالبشر، أي أنت تجوع تصبر، تحس بالحر إذا كنت بالحج هناك حر شديد فلأنك بشر والحر شديد وأنت صابر، تلبي دعوة الله عز وجل، لبيت نداء الله عز وجل هذا الذي يرقى بك، إنك تحس بالحر، تحس بالجوع، في رمضان في الصيف تحس بالعطش، إذا استفزك إنسان ولأنك تغضب وكظمت غيظك لذلك ترقى.

(قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (15))

نعم بشر، لولا أن الرسول بشر لما أقتنعا بهذه الرسالة لأن النبي قدوة لنا:

(وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ (15))

حتى يتوازن الكفار لأنهم مقيمون على شهواتهم، لأنهم مصرون عليها، كذبوا الرسل وقالوا:

(وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15))

من نعم الله علينا أن الله يعلم:

أيها الأخوة الأكارم: من نعم الله علينا أن الله يعلم، قد تكون بريئاً وتتهم، قل: الله يعلم، قد تكون صادقاً وتتهم بالكذب قل: الله يعلم، قد تكون ناوياً للخير ويأتيك من يشكك في نواياك قل: الله يعلم، قد يُطْعَنُ فيك وأنت عفيف لكنك إذا عرفت نفسك ما ضرتك مقالة الناس بك، أنت احرص على أن تَجبّ عن نفسك الغيبة، لكن إذا كنت حريصاً والناس اتهموك والله يعلم إنك بريء فلا ضير عليك.

مع الله عز وجل لا تحتاج إلى يمين تحلف له، يعرف، ولا حتى لإيصال... معي إيصال يا ربي..أي إيصال هذا !! يعرف أنك أنفقت هذا في سبيله، يعرف كل إنفاقك، كل نواياك، مواقفك، كل ورعك، كل مطالبك، فلذلك الحمد لله على وجود الله، الحمد لله على أن الله يعلم، كم من متهم وهو بريء !؟ كم من مكذب وهو صادق !؟ كم من مطعون فيه وهو نقي !؟ كم من متهم بما هو شائن وهو عفيف !؟ لذلك كلام لطيف:

(رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16))

أنتم تقولون: إنّا كاذبون، لكن الله يعلم وكفانا راحة وطمأنينة أن الله يعلم.

كل إنسان له اختيار فليس عليك إلا أن تنصح و تبين و على الله الباقي:

(قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(17))

أنت مخيّر، الإنسان مخير، كثير من الأخوان يسألني ماذا أفعل ؟ لا أستطيع إلا أن أنصحه، لأنه مخيّر.

أحياناً قد يكون لك ابن، أو قريب، أو شريك منحرف، ماذا تفعل ؟ انصحه إذا النبي وعظمته الله عز وجل قال:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: الآية 272)

أي لست مسؤولاً عنهم، والآية الثانية

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (56))

(سورة القصص: الآية56)

لا تستطيع، الإنسان لأنه مخير، فكل إنسان له اختيار، ليس لك إلا أن تنصح، إلا أن تبين، إلا أن توضح، إلا أن تأتي بالبراهين بالأدلة، وعلى الله الباقي، أنت عليك النصح.

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه: الآية132)

بيّن لفلان أنه على خطأ، وبيّن له الدليل، بيّن حكم الله عز وجل، أما إنسان يقدر أن يلقي الهدى بقلب إنسان فهذا شيء فوق طاقة البشر، وحتى ليس في إمكان الأنبياء، كل إنسان أعطاه الله اختياراً، فالنبي يبين، يؤدي، اللهم نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة لكن:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت: الآية 46)

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

(سورة الروم: الآية 44)

فالقضية متعلقة بك، و الآية لطيفة جداً.

من فقد الحجة لجأ إلى الخزعبلات والأباطيل والترهات والأوهام:

(قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(16)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(17)قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ (18))

إنّا تشاءمنا منكم، التشاؤم كلام فارغ، كلام فارغ مضحك، هناك أناس يتشاءمون من يوم الأربعاء، أو من رقم 13، أو دخل شخص على المحل ففشلت البيعة، قدمه شؤم، كله كلام فارغ،

(قَالُوا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

تشاءمنا منكم، فقدوا الحجة، الإنسان يلجأ للخزعبلات وللأباطيل وللترهات والأوهام متى ؟ إذا فقد الحجة:

(تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

تشاءمنا منكم:

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18))

الإنسان قوي بالمنطق و الحجة:

بالمناسبة إذا كان هناك حوار بين شخصين، من هو الضعيف في النقاش ؟ هو الذي يسب، حينما يلجأ الإنسان للسباب فهو ضعيف في النقاش، يقول: كذاب، كلمة كذاب دليل ضعف النقاش، والأشد ضعفاً أن تضربه، تفقد الحجة الكلية عندها تهجم، لو معك حجة !...جاء ببيان ائته ببيان آخر، جاء برأي بيّن له حقيقة الرأي، الإنسان قوي بالمنطق، قوي بالحجة، قوي بالعلم، إذا ضعفت حجته وعلمه ضعف، يلجأ للسباب، فالسباب سلاح الضعيف، والضرب سلاح الأضعف، درجتين: أولا الخرافات،

(تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)

تشاءمنا منكم، مثلاً إنسان لا يصلي تدعوه للصلاة، عندما يصلي يقول: والله بعدما صليت الأمور ساءت، الغلة قلت، الناس يتجادلون في المحل، لا أريد هذا الدين كله، الإنسان عندما يريد الحق يريده بشكل مضحك، بشكل خرافي، ثم يلجأ للسباب دجال كذاب....، إذا اكتشف أن هناك إصرار وكان هو قوياً يلجأ للضرب:

(قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18))

العلماء قالوا:" العذاب الأليم هو التعذيب قبل القتل "، سلخ الجلد مثلا، بقر البطن، قلع العينين:

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(18))

من أصابه خير فمن حسن استقامته و من أصابه شرّ فمن تقصيره:

يا أيها الأخوة الأكارم: سورة يس هي قلب القرآن:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

والله على هذه الكلمة تكتب مجلدات، خيرك منك وشرك منك، كل شيء خارجي بريء، إذا أصابك الخير فمن حسن استقامتك، ومن نواياك الطيبة، من إخلاصك، من حبك لله، من التزامك لأمر الله، وإن أصابك الشر فمن تقصير، و من ذنب.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى: الآية30)

الإنسان لا يتشاءم، التشاؤم لا معنى له، خيرك منك وشرك منك، النبي الكريم بحديث موجز قال: " لا يخافن العبد إلا ذنبه "، لا تخف أحداً، لأن أي أحد بيد الله، لا تخف من الشريرين، الأشرار بيد الله، الأشخاص المخيفون بيد الله، الحيوانات المفترسة بيد الله، حتى الأخطار في الطرقات بيد الله، أخي هذا السائق نام فاصطدم بنا !، أرواحنا بيد الله، لا بيد السائق.

التشاؤم لا معنى له لأن خير الإنسان منه وشره منه:

لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، انظر دقة الفكرة كل شيء مخيف بيد الله:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

هناك أشخاص شريرون مخيفون، أقوياء جبابرة، بطاشون لا يخافون الله، لا يرحمون، أي ليس في قلبهم رحمة إطلاقاً.

من علامات الساعة: أن ينزع الحياء من وجوه النساء، وتذهب النخوة من رؤوس الرجال، وتنزع الرحمة من قلوب الأمراء، لا يوجد رحمة، ولا حياء، ولا نخوة، نساء كاسيات عاريات وأزواجهن يفتخرون بهن، فلذلك:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

خيرك منك وشرك منك، الشر من الذنب، "لا يخافن العبد إلا ذنبه"، صار هناك تقصير دائماً خذ النصيحة، كلما أصابك شيء لا ترضى عنه فاتهم نفسك، اسمعوا الحديث القدسي:

((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ، وَلَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيّكُمْ وَمَيّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيّكُمْ وَمَيّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيّكُمْ وَمَيّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إلا كَمَا لَوْ أَنّ أَحَدَكُمْ مَرّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إبْرَةً ثُمّ رَفَعَهَا إلَيْهِ ذَلِكَ بِأَنّي جَوَادٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلامٌ وَعَذَابِي كَلامٌ إنّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

[مسلم عَنْ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه]

كما أن الله عز وجل يعطي فيدهش كذلك يأخذ فيدهش، حدثني أخ كريم: شخص معه مئات الملايين، الآن لا يوجد معه ثمن رغيف خبز، يتكفف الناس، لأنه إذا أعطى أدهش وإذا سلب أدهش، في الحالتين

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

الله تعالى غني عن تعذيب العباد فمن وجد شيئاً لم يعجبه فليبحث عن المعصية التي ارتكبها:

القاعدة:" **الخير بيدي والشر بيدي، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** "

فكل إنسان أصابه شيء لم يعجبه، الله غني عن تعذيبه، غني عن ظلمه، يدقق هل في دخله مال حرام ؟ هل بعلاقاته علاقات غير شرعية ؟ ندواته، بسهراته، بنزهاته، ببيعه، بشرائه يوجد غش، يوجد كذب، يوجد احتيال ؟ مثلاً هذا دفّعنا خمسمئة ألف، الله لا يوفقهم، لماذا ؟ انظر أنت ماذا فعلت ؟ لأن ذلك مثل الذباب يأتي مكان القذر، فدائما أنت ابحث عن المعصية !.. بالأمن الجنائي عندهم قاعدة كلما رأوا جريمة يقولون: ابحث عن المرأة، أنا أعطيتهم قاعدة أخرى دينية: ابحث عن المعصية لم يعجبك إنسان،

أهانك، مال ذهب منك بشيء مزعج، ابحث عن المعصية، ابحث عن كلمة قلتها متجبراً، لعل الله أدبك بها.

أخ كريم حكى لي: شخص دخل إلى معمله يريد قطعة أو قطعتين من إنتاجه، هو يبيع مئتا دزينة، وجدها إهانة له، قال له بانزعاج: أنا لا أبيع مفرقاً، قال: أمرك، يقول هذا الأخ: ثلاثة و عشرون يوماً لم يدخل إنسان لمعمله ليشتري، الله أدبه، ترفع عن بيعة شخص فقير فأدبه الله، فإذا رأيت شيئاً لم يعجبك ابحث عن المعصية، اتهم نفسك، الله غني عن تعذيبنا، وغني عن إيلامنا، وغني عن مضايقتنا، لكن الله عز وجل يحب أن نكون كُمّل، فإذا كان هناك خطأ لسان حال المؤمن يقول: اللهم عالجني قبل أن أموت، لا تمتني قبل أن ترضى عني.

المؤمن الصادق يتمنى أن يعالجه الله ويهذبه ويكمله في الدنيا:

المؤمن الصادق يتمنى أن يعالجه الله ويهذبه ويكمله في الدنيا، حتى إذا جاء ملك الموت استحق الجنة فوراً:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

هذه الآية يجب أن يُكتب عنها مجلدات: خيرك منك وشرك منكم، لا تتشاءم، ولا تقل فلان: هذا البيت شؤم، إذا أنت طبعاً اخترته في حي ساقط طبعاً شؤم، صار هذا ذنبك، هذه الزوجة شؤم، النبي قال: شؤم في الزوجة إذا اخترتها لجمالها، ولم تعبأ بأخلاقها ودينها هذا ذنب من ذنوبك تحَمّل إذاً !... إياكم وخضراء الدمن... بيت في حي ساقط، في حي فيه أجانب، معاصيهم كثيرة جداً، سهراتهم حمراء، انحرافاتهم مكشوفة، طبعا إذا كان عندك أولاد، عندك فتيات، ابحث عن حيِّ محافظ، الشؤم في البيت، وفي المرأة، وفي الفرس، هذا شؤم أساسه معصية، أما:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (19))

أي خيرك منك وشرك منك،

(أئن ذكرتم)

أي يا أهل هذه القرية، يا أصحاب القرية، تتوعدوننا أن ترجموننا، وأن يمسنا منكم عذاب أليم لأننا ذكرناكم،

(أئن ذكرتم)

كل هذا الوعيد والتهديد لأننا ذكرناكم، هذا جزاء الإحسان، وهذا الذي يقع، كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ الفسق والفجور مقبول، أما التدين غير مقبول، المعاصي كلها

مقبولة، يقول: سبور أما الطاعات مرفوضة، يقول: أصلي ؟ كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ كيف بكم إذا خوّن الأمين وأؤتمن الخائن، وكُذب الصادق وصدق الكاذب ؟ طبعا هذا من مفارقات الحياة، "إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها".

الله عز وجل أكرمنا بهذه الدعوة حيث كنا في ضلال فاهتدينا و في شقاء فسعدنا:

سورة يس كما تكلمنا في الدرس الماضي، من السنة أن تقرأها كل يوم، فإذا إنسان كان يمشي في الطريق، عوضاً أن ينظر في المحلات، يقرأ سورة يس، راكب بالسيارة إلى بيته فليقرأ ست صفحات، عوّد نفسك أن تقرأها باليوم مرة أو مرتين والأكمل مرتين، إن قرأتها صباحاً فأنت في سرور حتى المساء، وإن قرأتها ليلاً فأنت في سرور حتى الصباح، لأن هناك آيات دقيقة:

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ (19))

كل هذا التهديد والوعيد لأننا ذكرناكم:

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19))

هذا إسراف، إسراف العدوان، إنسان نصحك، قدم لك النصيحة، أراد لك الهداية، أراد لك الرشاد...هناك صنف آخر، هؤلاء أصحاب القرية رفضوا دعوة الأنبياء.

الصنف الآخر:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

استفاد من هذه الدعوة، جزاه الله خيراً، الله عز وجل أكرمنا بهذه الدعوة، كنا في ضلال فاهتدينا، كنا في شقاء فسعدنا، كنا في حيرة فوجدنا أنفسنا، عرفنا قيمتنا، عرفنا مهمتنا، عرفنا أننا مكلفون، عرفنا ربنا، عرفنا ماذا ينتظرنا من نعيم مقيم، ماذا ينتظرنا من عذاب أليم لو حدنا عن طريق الحق:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

هنا يوجد حركة للإنسان، آمن فتحرك، لم يبق قاعداً، تجد شخصاً قانعاً بالحق وقاعداً ببيته، لا منه خير ولا شر...! تحرك حركة، تكلم كلمة، انصح أخوك، انصح ابن أخوك، اعمل درساً صغيراً لأولادك، لك جيران، ولك شركاء، ولك أقرباء، لك أخوات بنات، اعمل كلمتين ثلاثة، زرهم بالأسبوع مرة، فسر آية سمعتها من خطيب مسجد، لا يوجد شيء غير تجارته، بيعه وشراؤه، ليس لك حركة ! ليس منك شيء أبداً.

المؤمن يبتغي عند الله الأجر و الثواب:

انظر:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

هذه الحركة دليل الإيمان والهدى، أنت إذا مؤمن يجب أن يكون لك نشاط، لك دعوة إلى الله عز وجل ! تسمع دروساً من عشرين سنة، من خمس عشرة سنة، من عشر سنوات من خمس سنوات من سنتين، ألم يحن الأوان أن تلقي وتعطي ؟ أَخْذ أَخْذ إلى متى تأخذ ؟ يجب أن يظهر لك تأثير في أولادك، في أسرتك، في زوجتك، في جيرانك، في أخواتك البنات، في أخواتك الذكور، فيمن يلوذ بك، في عمالك، في موظفيك، انصح، وَجِّهْ، بَيِّنْ تفسير آية، تفسير حديث، انظر إلى هذا الرجل سمع الحق فانطلق إلى أصحاب هذه القرية:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

من هم ؟ الصادقون:

(اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

كل إنسان له هدف، إن كان مادياً يريد أجراً، وإن رأيته منزهاً عن الأجر معنى هذا أنه يبتغي ما عند الله من أجر، أما إنسان يتحرك بلا ثمن فلا تصدق ! حتى المؤمن، لكن المؤمنين يبتغون عند الله الأجر، يتعب معك، يجلس معك، يبذل الوقت، يبذل ماله، أحياناً يبذل خبرته، يبذل الجهد الكبير، يبتغي عند الله الأجر، يبتغي عند الله الثواب، يبتغي أن يرضى الله عنه، أن يكون عند الله مقرباً.

ترفع أهل الحق عن كل أجر:

فكل إنسان يترفع عن الماديات:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

هي علامة، هذه علامة في القرآن الكريم، قطعية الدلالة على أن أهل الحق يترفعون عن كل أجر، لا معنوي، ولامادي، ولا قريب، ولا بعيد، ولا كبير، ولا صغير، لا يبتغي إلا رضاء الله عز وجل، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي:

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

من وجد توجيهاً بشرياً يتناقض مع توجيه إلهي فلا يعبأ بكلام البشر:

السيدة بلقيس عرفت ذلك:

(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(35))

(سورة النمل: الآية 35)

فإذا قبلوها ورحبوا بها فهم كاذبون، وإن رفضوها فهم مرسلون، ثم يقول هذا الرجل بأسلوب ذكي جداً، بأسلوب تربوي، أحياناً أنت تريد أن تنصح إنساناً: استقم، آمن بالله عز وجل، هذه التجارة كلها حرام، اتركها!! هناك طريق لطيف يقول: يا أخي أنا فكرت بمستقبلي، وجدت مستقبلي مع الله، وجدت عند الموت لا ينفعني إلا عملي الصالح، بدل أن توجه الكلام للطرف الآخر، اذكر للطرف الآخر ما فعلته بنفسك أنت، هذا أسلوب لطيف ليس فيه إحراج، يقول هذا الرجل:

(وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(22)أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ(23))

أي إذا الله عز وجل أراد لإنسان شيئاً مزعجاً، أو مرضاً عضالاً، أو مشكلة في كرامته، إهانة، حجز حرية، إفقار، من يستطيع أن ينقذك ؟ أقرب الناس إليك يزورك، يقول: والله قلبنا عندك، أكثر شيء يحضر باقة ورد، و الآخر يتلوى من الألم و هو خائف و مصاب بآلام نفسية، العواد يقدمون له كلاماً لطيفاً وهدية متواضعة وانتهى الأمر:

(إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِي(23))

كما قلت لكم سابقاً: الحسن البصري كان عند والي البصرة، جاءته رسالة من يزيد، يبدو أن فيها توجيهاً لا يرضي الله عز وجل، فسأل الحسن البصري ماذا أفعل ؟ فقال له كلمة ـ هذه الكلمة تكتب بماء الذهب ـ قال **" إن الله يمنعك من يزيد لكن يزيد لا يمنعك من الله "**، طبقها بكل حياتك، قال إنسان قوي لك: افعل كذا و كذا، قُل أنت: إذا نفذت أمره والله أراد أن يعاقبني لا يمكن لهذا الشخص أن يوقف العقوبة، لكن إذا نفذت أمر الله عز وجل وغضب الله يحميني منه، هذا مبدأ.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

يا أخوان: كلما وجدت توجيهاً بشرياً يتناقض مع توجيه إلهي لا تعبأ بكلام البشر، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قل: إن الله يمنعني من فلان لكن فلاناً لا يمنعني من الله، أكثر المعاصي تكون من ضغط من إنسان قوي، يكون جاهلاً، قل: إن الله يمنعني من فلان لكن فلاناً لا يمنعني من الله.

(وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(22)أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ(23)إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24))

هذا الرجل آمن بهؤلاء الرسل، وانطلق إلى أصحاب هذه القرية يدعوهم إلى الإيمان، وقال هذا الكلام، لكنهم قتلوه.

المؤمن لا يقبل أي ضغط لأنه يرى أن الله هو كل شيء:

اسمعوا:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِي(25)قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ (26))

بدل أن يدعو عليهم:

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(27))

فالإنسان حينما يطّلع على مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط في حياتي. مركز الثقل بالآية هو:

(إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِي(23))

أقل مثل: هو وزوجته لو أنها ضغطت عليه ليعصي الله، ليؤمن لها حاجة بدخل غير مشروع، لو أن الله أراد أن يعالجه، هل تمنعه الزوجة ؟ أما لو غضبت، الله يرضيها، هذه قاعدة أساسية في حياتنا، كلما جاءك ضغط لتعصي الله قل: إن الله يمنعني من فلان لكن فلاناً لا يمنعني من الله، فهذا المؤمن لا تأخذه في الله لومة لائم، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، السيد الصديق قال:**" أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيت.... "**

فالمؤمن لا يقبل أي ضغط، يرى أن الله هو كل شيء، وأن الخير كله بيده، وأنه يصرف عنه كل شرٍّ، فأنت اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

نسيان المؤمن المتاعب التي عانى منها في الدنيا عندما يرى ما أعدّ الله له:

الشيء المهم أن المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويرى ما أعدّ الله له من نعيم مقيم قيل يعرق.. عرق الخجل، كل المتاعب ينساها حتى لو أنه قتل، هنا قتلوه، ولكن عندما أراه الله عز وجل مقامه في الجنة:

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(27))

لو علموا هذا ما قتلوني، لاستجابوا إلي... هؤلاء القوم الذين كفروا.

من مات عاصياً أو كافراً تتولد عنده حسرة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم:

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(28))

هم أهون على الله من أن يعذبهم بجنود من السماء عذبهم بصيحة واحدة:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29))

أي أن الله عز وجل قوله: كن فيكون، زل فيزول، لا يوجد حاجة لجند من السماء:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (29))

تجد شخصاً ملء السمع والبصر، قلب ومات بلا سبب، يقول: سكتة دماغية، خير إن شاء الله، سكتة قلبية خير إن شاء الله، موت مفاجئ، هي صيحة واحدة:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29)يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ (30))

حينما يموت الإنسان عاصياً، أو كافراً، أو رافضاً دعوة الرسل، يتولد عنده حسرة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم... قيل: الكافر إذا رأى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا لهولها:

(يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(30)أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ(31))

ما بعد الموت أشد من الموت:

أين عاد وثمود ؟ أين الفراعنة ؟ أين الرومان ؟ الذي عتوا، وبغوا، واستطالوا، واستعلوا، وكفروا، أين هم الآن ؟ أحاديث، الله قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (19))

(سورة سبأ)

(وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(32))

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فهذا مثل حقيقي، هؤلاء الذين رفضوا دعوة الرسل:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29))

أهلكوا، وما بعد الموت أشد من الموت، والذي آمن وقتل، أكرمه الله بالجنة، فلما رأى مقامه في الجنة:

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ(27))

أول السورة دعوة نظرية، وهذا مثل عملي:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13))

الذين استجابوا ما مصيرهم ؟ والذين لم يستجيبوا ما مصيرهم ؟ قُتِلوا فدخلوا الجنة، وكَذّبوا فجاءتهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 20-35 ، إن لم يتبع الإنسان رسالة الأنبياء تعمى بصيرته و يدخل النار
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-07-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة يس.

القصص في القرآن الكريم مقصودة لاستنباط قواعد للوصول إلى الله عز وجل:

في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (33))

لكنا شرحنا الآيات الأخيرة شرحاً سريعاً، فوجدت من المناسب أن نأتي عليها مرة ثانية فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعنا ببعض المعاني الدقيقة التي يمكن أن نستنبط منها قواعد في حياتنا.
مرة ثانية وثالثة القصص التي وردت في القرآن الكريم ليست مقصودة لذاتها، إنما هي مقصودة لاستنباط قواعد تلقي لك ضوءاً في الطريق إلى الله عز وجل، فمر بنا في الدرس الماضي أصحاب القرية إذ أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19))

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19))

هؤلاء الذين كذبوا رسالة الرسل.

قيمة العلم والعمل القيم الوحيدة للترجيح بين العباد:

النموذج الآخر نموذج المؤمنين، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ (20))

أقصى المدينة أي من أطراف المدينة، ماذا نستفيد من هذه الكلمة ؟ العادة أن الأغنياء يسكنون في أوجه الأحياء، والفقراء يضطرون إلى أن يسكنوا في أطراف المدينة، هذا الذي سكن في طرف المدينة، رفعه الله عز وجل إلى مرتبة الصديقية، انظروا أيها الأخوة كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يعتمد من كل القيم التي تعارف الناس على أنها قيم للترجيح بين العباد، إلا قيمة واحدة، هي قيمة العلم والعمل، وما سوى ذلك من الفقر والغنى، الذكاء وعدم الذكاء، الوسامة والدمامة، الصحة والمرض النسب والحسب، وأن يكون الإنسان مغموراً، هذه كلها لا شأن لها عند الله، فهذا الرجل الذي ارتفع إلى مرتبة الصديقية في بعض الأحاديث الشريفة، أين كان يسكن ؟ في أقصى المدينة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام دققوا في هذا الكلام قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

الرزق المطغي قد يكون طريق الإنسان إلى النار:

هناك رزق لا يكفي، وهناك رزق يكفي، وهناك رزق يطغي، فالمطغي بلاء كبير، لأن هذا الرزق المطغي ربما كان الطريق إلى النار، والنبي عليه الصلاة والسلام استعاذ من الرزق المطغي قال:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

عدّ النبي عليه الصلاة والسلام الرزق المطغي بلاء كبيراً، أما أن يكون الرزق لا يكفي، فهذا حالة قد تكون مزعجة، ولكن هناك من يصبر، وهناك حكم لا تنتهي أن يكون رزق الإنسان لا يكفي، قد يدفعه الله إلى بابه، قد يلين نفسه، قد يجعله متواضعاً، قد يطهره من ذنوب كثيرة.

لأن النبي كما تعلمون عليه الصلاة والسلام لما قال: يا رب ارحمه... دخل على أحد أصحابه فقال: ادع الله أن يرحمني، فوقع في قلب النبي يا عبدي كيف أرحمه مما أنا به ارحمه.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء، شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

أي هناك رزق لا يكفي، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، لو كشف لك الله عن السر الدفين وراء هذا الرزق الذي لا يكفي، لذابت نفسك كالشمعة حباً لله عز وجل، وهناك رزق يكفي، وهناك رزق يطغي،

فإذا سألت أحد الأخوة الأكارم عن حاله وعن معاشه، عن عمله، عن رزقه، وقال لي: والله يا أستاذ لا يوجد شيء زيادة، الحمد لله مستورين، أقول له: لقد أصابتك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً.

راحة البال نعمة لا تقدر بثمن:

الإنسان إذا كان الله عز وجل أنعم عليه براحة البال، قال تعالى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

(سورة محمد: الآية 5)

أنعم عليه بجسم لا يشكو مرضا عضالاً، أنعم عليه برزق يكفيه، فهو ملك من ملوك الدنيا، مرة قلت لكم: ملك سأل وزيره، من الملك ؟ قال: أنت، قال: لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، عاش مستور الحال. هذه راحة البال لذلك:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ (20))

من أطراف المدينة، لعله من الطبقة الفقيرة، لعله من الطبقة المستضعفة، لعله ممن لا شأن له، لعله من الضعاف الذين ليسوا من أهل الحل والعقد، لعله من هؤلاء، ومع ذلك رفعه الله عز وجل إلى مرتبة الصديقية.

من خرج من بيته يبتغي وجه الله هذا السعي يرضي الله عز وجل:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ (20))

كلمة رجل أيها الأخوة في القرآن الكريم لا تعني دائماً أنه ذكر، لا، تعني شيئاً أعظم من ذلك تعني أنه بطل، يعني اكتملت فيه صفات الرجولة، من صدق، من أمانة، من نجدة، من مروءة، من سخاء، من وفاء، من حمية، من شهامة.

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20))

السعي لربك، تخرج من بيتك إلى أين ؟ إلى شراء، إلى بيع، إلى عقد صفقة، إلى سهرة، إلى نزهة، هذا الذي يخرج من بيته لا يبتغي إلا وجه الله، لا يبتغي إلا طلب العلم، لا يبتغي إلا نشر العلم، لا يبتغي إلا خدمة الناس، لا يبتغي إلا عملاً صالحاً يرضي الله عز وجل:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات: الآية 61)

لمثل هذا:

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) ﴾

(سورة المطففين)

شتان بين إنسان عرف الله و إنسان ابتعد عن الله عز وجل:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا (58) ﴾

(سورة يونس: الآية 58)

حينما تخرج من بيتك إلى المسجد، حينما تخرج من بيتك لتدعو إلى الله عز وجل، حينما تخرج من بيتك لتعمل عملاً صالحاً، لتتعاون مع إخوتك على البر والتقوى، هذا السعي الذي يرضي الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل:

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) ﴾

(سورة الليل: الآيات 1-4)

شتان بين إنسان وإنسان، ألق نظرة على الناس في شارع مزدحم، كل إنسان في مخيلته هدف، وما أسمى هدف المؤمن:

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ (114) ﴾

(سورة النساء: الآية 114)

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى (20) ﴾

إذاً السعي، والحركة، والنشاط، وزيارة الناس، وخدمتهم، وإغاثة ملهوفهم، ومعاونة ضعيفهم، وإعطاء فقيرهم، وعيادة مريضهم.

من لم يتفقد شؤون المسلمين ليس منهم:

سيدنا الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان في أعلى مرتبة في العالم الإسلامي، كان خليفة المسلمين، وقبل أن يكون خليفة للمسلمين، كان من عادته أن يقدم خدمات لجيرانه، كان يحلب لهن الشياه، فلما أصبح خليفة للمسلمين، دخل إلى بيت جيرانه حُزْنٌ لأن هذه الخدمات لن تستمر أصبح خليفة المسلمين، وفي صبيحة توليه الخلافة، طُرِقَ باب أحد الجيران، فتحت بنت صغيرة الباب، سألتها أمها من الطارق يا بنيتي ؟ قالت يا أماه جاء حالب الشاة، جاء حالب الشاة المعهود ليحلب لنا الشياه، هكذا كان سيدنا الصديق، المؤمن حركته نشيطة جداً، هذا الذي يجلس في بيته يستريح يسترخي لا يعنيه أحد، هذا ليس

مؤمناً، من لم يتفقد شؤون المسلمين فليس منهم، المؤمن حركي، عملي، نشيط يزور، يتفقد، يعود مريضاً، يدعو إلى الله، ينصح، يقول، يتعلم، يطلب العلم،

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى)

هي صفات المؤمنين.

لا ينفع الإنسان عند الموت إلا العمل الصالح:

الدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة، كل شيء يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، لا يبقى لك إلا عملك الصالح، كل شيء يفنى، انظر إلى الدنيا، لو أن الدنيا كلها بيديك وجاء الموت لا تنفعك شيئاً، لا ينفعك إلا عملك الصالح يؤكده قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا (100))

(سورة المؤمنون: الآية 100)

فمادام هذا كلام الإنسان إذا جاءه الموت، لِمَ لا نتعظ نحن بهذا الكلام:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

تروي بعض الأحاديث: أن هذا مؤمن يس، كان صِدِّيقاً، و عندنا مؤمن آخر مؤمن فرعون، مؤمن فرعون كان صديقاً، ومؤمن يس كان صديقاً، وأنعم بهذا المقام:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا (21))

ما هذا المقياس ؟ هل هذا مقياس دقيق ؟ الإنسان يكذب لمصلحة دنيوية، يدجل، يُزَوِّر الحقائق، يبالغ، يعظم، يفخم، يتملق، ينافق إذا كان في مصلحة، أما إذا انتفت المصلحة الدنيوية كلية، فالكذب لا معنى له.

إنسان أحياناً من أجل أن يبيع هذه السلعة أحياناً يمدحها، من أجل أن يأتيه خير من هذا الإنسان يثني عليه، يثني عليه كاذباً، فالكذب مرتبط بمصلحة دائماً...

علة الكذب المصالح المرسلة المادية:

قصة تروى (هي قصة عادية لكن لها مغزى كبيراً): إنسان كان يعمل عتالاً وله دابة، فلما ماتت هذه الدابة أصبح بلا دخل، جاءته فكرة شيطانية دفنها وأقام عليها قبة، وسماها باسم ولي من أولياء الله، وتوافد الناس عليه وقدموا له الهدايا والخراف وعاش في بحبوحة كبيرة وهو يثني على هذا الولي

المدفون، لماذا يكذب ؟ لمصلحة راجحة عنده، هذا مقياس دقيق حينما تنتفي المصلحة ليس هناك كذب إطلاقاً:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20))

إنسان ما طلب منك شيئاً مادياً، ولا معنوياً، ولا مديحاً، ولا ثناء، ولا أي شيء إطلاقاً، حينما تنتفي المصلحة ينتفي الكذب معها، لأن علة الكذب المصالح المرسلة المادية هذه علة الكذب، لو ألغيت المصالح ألغيت الكذب إطلاقاً.

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

الآن هناك نقطة دقيقة جداً، أحياناً الإنسان يتلقى العلم من مسجد سنوات طويلة، لكنه إذا أراد أن يدعو إلى الله عز وجل يقول لفلان: احضر معنا، لكنك أنت في هذه السنوات العشر ما تعلمت شيئاً تقوله له، لا يكفي أن تدعو الناس إلى المسجد، لابد من أن تنطق بالحق، أنت أيضاً لابد أن تبين الحق لذلك قال:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

ثم نطق بالحق:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

من هي الجهة التي يمكن أن تعبدها وحدها ؟ إنها الله الخالق المربي المسير الرحيم الغني القدير العليم السميع البصير الرؤوف الرحيم.

ليس في الكون جهة تستحق أن تعطيها شبابك وجهدك وإخلاصك إلا الله:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

أي هل هناك جهة تستحق العبادة غير الله عز وجل ؟ هل هناك جهة تستحق أن تعطيها شبابك ؟ والله حينما أرى إنساناً يقدم شبابه لجهة غير الله عز وجل، والله أرى عقله صغيراً، أقول: مسكين فلان ما عرف قيمة نفسه، ليس في الكون جهة تستحق أن تعطيها شبابك وجهدك وإخلاصك وحياتك وعمرك إلا الله، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، إما أن تقدم شبابك وعمرك وطاقاتك أو ذكاءك أو علمك لإنسان ؟ ماذا يقدم لك هذا الإنسان ؟

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22))

ألم يقل الله عز وجل لهذا الميت الذي يبيت في القبر أول ليلة: (عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت). من لك غير الله ؟

حينما يموت الإنسان هو في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفذ عذابها:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

(سورة المدثر: الآية 8)

حينما يموت الإنسان ويتوزع أولاده أو أخوته: شخص عند حفار القبور ليشتري له قبراً، شخص لطبع النعوة، و شخص للكراسي، وشخص للتعزية، في هذه الساعة العصيبة حينما يسجى الإنسان على فراشه، ويجلل بالأقمشة، ويقرأ له القرآن، في هذه الساعة العصيبة من له غير الله ؟ من له ؟ ماذا ينفعه؟ ماله، هل ينفعه ماله ؟ أولاده ؟ زوجته ؟ أقاربه ؟ أنسباؤه ؟ جماعته ؟ عزوته ؟ مكانته منصبه ؟.

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22))

هو للأبد: إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفذ عذابها.

لا أحد في الكون مؤهل أن تطيعه في معصية الله عز وجل:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

هل ترى أنّ إنساناً في الكون مؤهل أن تطيعه في معصية الله عز وجل !

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً (23))

أي إنسان أُعطيه كل حبي، أعطيه كل ولائي، أعطيه كل شبابي، أعطيه طاقاتي، قلمي إن كنت أديباً، لساني إن كنت خطيباً، ألا يستحي الإنسان أن يقدم طاقاته وقدراته الخاصة لغير الله عز وجل ؟ أحد الأدباء، نقده بعض النقاد، لأنه باع قلمه لجهة ما، فغضب غضباً شديداً، قال: أنا لم أبع هذه القلم، ولكني أجرته ! الإنسان!! أيبيع قلمه ؟ أيبيع لسانه ؟ أيبيع علمه ؟ أيبيع مكانته لمخلوق ضعيف مثله ؟

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

((عبدي خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تلعب، وخلقتك من أجلي فلا تتعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

[ورد في الأثر]

خلقك الله عز وجل له، من أجل أن تعرفه، من أجل أن تعبده، من أجل أن تطيعه، من أجل أن يجعلك من سعداء الدنيا والآخرة.

لا يوجد في الكون جهة تستطيع أن تحمي الإنسان من عذاب الله عز وجل:

كلام دقيق:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

إذاً لم يكتف مؤمن يس بأن دعا قومه إلى سماع كلام المرسلين، بل دعاهم أيضاً إلى الهدى مباشرة، قد يقول لك إنسان: بقيت في الدرس عشر سنوات، حدثني من عندك، ماذا سمعت من كلام الله ؟ من تفسير كلام الله ؟ من تفسير حديث رسول الله ؟ من قصص أصحاب رسول الله ؟ حدثني، الإنسان إذا لم يكن طليق اللسان في الحق، مشكلته مشكلة، لكن ماذا استفدت من هذه الدروس كلها ؟ مؤمن يس قال:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً (23))

هنا:

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ (23))

أي أن الله عز وجل إذا أراد بإنسان شيئاً، إذا أراد به سوءاً، إذا أراد به مكروهاً، إذا أراد به مرضاً، إذا أراد به فقراً، إذا أراد به ذلاً، إذا عذبه، هل في الكون كله جهة تستطيع أن تمنع عنه العذاب ؟ أن تحميه من عذاب الله عز وجل !!

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

أفضل نعمة على وجه الأرض أن تعرف الله عز وجل:

أيها الأخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو، ما من نعمة على وجه الأرض، ما من نعمة في الدنيا أثمن من أن تعرف الله، من أن تعرف من أنت ؟ لماذا أنت في الدنيا ؟ أين كنت وأين المصير ؟ ما مهمتك الحقيقية ؟ هذه الآلهة لابد من أن يهدمها بالدعوة إلى الله عز وجل، يجب أن تحطم الأصنام التي تعبد من دون الله، شهوة النساء، صنم شهوة المال، صنم شهوة العز والسلطان، صنم هذه الآلهة التي يعبدها الناس من دون الله يجب أن تحطمها لهم، لأنك إذا أقررتهم على ما هم فيه من شهوات وانحرافات، كانت حجاباً بينهم وبين الله عز وجل، مؤمن يس دعا إلى عبادة الله عز وجل:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22))

بشكل استفهام استنكاري، ثم تعجب قال:

(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً (23))

هذه الآلهة ماذا تنفع أو تضر، إن الحكم إلا لله، الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له الخلق والأمر، لكل شيء حقيقة، وما بلغ الإنسان حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، يعني الدين كله ملخص في كلمة التوحيد.

في دعوة الرسل دليلان على أنهم مهتدون:

((يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

[الترمذي و أحمد عن ابن عباس]

أي أن الناس جميعاً لا يقدمون ولا يؤخرون، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً، علاقتك بالله وحده، هذا هو التوحيد، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها مطمئن علاقتك مع جهة واحدة، مع الله. إنه سميع بصير عليم عادل محب غني قدير يجيب الدعاء، الحقيقة في دعوة الرسل دليلان على أنهم مهتدون: أول دليل شكلي وثاني دليل عملي أو مضموني.

1 – دليل شكلي:

الشكلي: أنهم لا يسألون الناس أجراً:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

هذا دليل ولكن شكلي.

2 ـ دليل مضموني:

أما إذا سمعت دعوتهم، سمعت منطق التوحيد، سمعت التعريف بالله عز وجل، سمعت منهج الله عز وجل، هذا دليل آخر أقوى من الأول، فأنت إذا أردت أن تبين للناس الحقيقة يجب أن تنوع لهم الأدلة، دليل نقلي، دليل عقلي، دليل واقعي، دليل الفطرة، دليل شكلي خارجي، دليل داخلي وهكذا:

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23))

من تخلى الله عنه لن يستطيع أحد أن يحميه:

قلت في الدرس الماضي: دائماً وأبداً إذا جاءك ضغط، أو توجيه، أو أمر من قوي، أو مِنْ مَنْ تحرص على رضائه، أو ممن تخاف على حزنه، إذا جاءك هذا الأمر، دائماً وأبداً قل هذه المقولة: إن فلاناً لا يمنعني من الله ولكن الله يمنعني من فلان، إذا أراد الله أن يحميك منه يحميك وإذا تخلى الله عنك لا يستطيع أحد أن يحميك من الله عز وجل:

(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

من قادته ظروفه السيئة إلى أن يعصي الله عندئذ عليه أن يجهر بمعتقده:

الآن مؤمن يس جهر بالحقيقة وجهر بانتمائه، قال:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25))

أنا مؤمن، افعلوا ما تريدون، قال فرعون:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ(71))

(سورة طه: الآية 71)

الآيات كثيرة وردت ماذا قالوا ؟ قالوا:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا (73))

(سورة طه: الآية 72)

أحياناً تجامل، تداور، تحاور، تعتذر، أما حينما يضيق عليك إلى درجة لابد من أن تعصي الله، تقول: لا أعصي الله، أنا مؤمن، أنا لا أفعل هذا، افعلوا ما تشاؤون، أي إذا قادتك الظروف الصعبة إلى درجة لا خيار لك إلا أن تعصي الله، عندئذ اجهر بمعتقدك ولا تخشى في الله لومة لائم:

(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25))

فرز الناس يوم القيامة إلى مؤمن ومجرم، مسلم وكافر:

يبدو أنهم قتلوه:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

هنا ليس من يقطع طرقاً بطلاً، إنما من يتق الله البطل، اسمعوا هذا الكلام أيها الأخوة، الدنيا يعيش فيها البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والمستقيم والمنحرف، والكاذب والصادق، والأمين والخائن،كل الناس

يعيشون، ويأكلون، ويشربون، ويلبسون، ويتمتعون، ويتنزهون، الأوراق الآن مختلطة، لكن حينما يأتي ملك الموت تنكشف الأوراق:

(إنّ أصْحَابَ الْجَنّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدّعُونَ (57) سَلَامٌ قوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

صار هناك فرز، الآن الناس كلها مع بعضها، هذا مؤمن، الله يعرفه وأقرب الناس إليه، لكن مظهره إنسان عادي، لكن يوم القيامة يفرز الناس إلى مؤمن ومجرم، مسلم وكافر.

بطولة الإنسان أن يعدّ لساعة النزول في القبر:

(إِنّي آمَنْتُ بِرَبّكُمْ فاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنّة (26))

لو يعلم الإنسان ما هو عليه بعد الموت كما قال عليه الصلاة والسلام ما أكل طعاماً عن شهوة ولا دخل بيتاً يستظل فيه ولا ذهب إلى الصعدات يبكي على نفسه، البطولة أن تعد العدة لهذه الساعة، لساعة الفراق، لساعة النزول في القبر، لساعة أن كل الدنيا لا تنفعك عند هذه الساعة، الأهل، الأموال، المكانة، السمعة، الجاه، السلطان هذا كله لا ينفعك:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنّة قالَ يَا لَيْتَ قوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

النبي عليه الصلاة والسلام قال في بعض الأحاديث:

((رحم الله مؤمن يس نصح أمته في حياته وبعد مماته))

[ورد في الأثر]

أي حينما نقل لنا ربنا عز وجل قوله بعد الموت، فكأنما نصح الأمة في حياته وبعد مماته:

(قالَ يَا لَيْتَ قوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غفرَ لِي رَبّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

من ذاق مشاعر الإيمان يتمنى أن يكون كل عمره في سبيل الله:

أحياناً الإنسان المؤمن يتلقى من الله تجليات، يشعر بالطمأنينة، يوفقه الله في عمله، لكنه ملتزم، مطبق، مستقيم، قد يقول له رجل فاسق فاجر: أنت شاب أول حياتك لِمَ هذا التزمت ؟ لِمَ هذا التضييق على نفسك ؟ لأنه لم يذق مشاعر هذا المؤمن، المؤمن حينما يذوق مشاعر الإيمان يتمنى أن يكون كل عمره في سبيل الله:

(قالَ يَا لَيْتَ قوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غفرَ لِي رَبّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

أي إذا الله عز وجل أكرم أكرم، إذا أكرم إنساناً شيء لا يوصف قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

(سورة آل عمران: الآية 169)

نظام الحياة شيء ونظام ما بعد الموت شيء آخر، هذا الذي رأيته مقتولاً هو عند الله في سعادة لا توصف، خالق الكون يقول لنا:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

(سورة آل عمران: الآية 169)

الهلاك عاقبة قوم يس:

واستحق قومه الهلاك لكنهم لا شأن لهم عند الله عز وجل، قال الله عز وجل:

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28))

أي لا يستحقون الجند من السماء:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29))

ما الإنسان ؟ الإنسان كن فيكون زل فيزول، الإنسان يكون بأعلى درجات مكانته الاجتماعية بساعة واحدة يفقد عقله ؛ أقرب الناس إليه يصرفه إلى مستشفى المجانين، أنت لك مكانة في مجتمعك لأنه يوجد عقل في رأسك، فإذا أخذ الله هذا العقل، أصبحت في المستشفى، لك مكانك مادامت أعضاؤك تعمل بانتظام، فإذا تعطلت هذه الأعضاء استثقل الناس حياتك، ولو كنت أعظم الناس ؛ أقرب الناس إليك يتمنى لك الموت، يقول اللهم خفف عنه، فالإنسان على أي شيء يتكبر ؟ مليون مليون مليون باب بجسمك فقط تنقلب حياتك فيه إلى جحيم !!! كل إنسان، هاتان الكليتان إذا توقفتا أصبحت حياة الإنسان جحيماً، الكبد إذا تشمع عاش أياماً معدودة، القلب، الأوعية، الشرايين، الأعصاب، الدماغ، العضلات.

على الإنسان أن يُكثر من ذكر الموت لأنه مفرق الأحباب و مشتت الجماعات:

قال تعالى:

(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (22))

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (29))

الإنسان أحياناً يكون ملء السمع والبصر، فإذا هو خلال ثانية واحدة خبر أو نعوة على الجدران، أنا أقول لكم كل جمعة: واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا،

أما دخلت بيتاً فخماً، صاحبه أصبح تحت الثرى، انظر إلى الرخام، وإلى التزيينات، وإلى الغرف الواسعة، والثريات، والأثاث الفخم، أين صاحب البيت ؟ تحت التراب، نصف متر بمترين، هذه هي الحياة.

لذلك: عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارق واعمل ما شئت فإنك مجزي به، أكثروا ذكر هاذم اللذات مفرق الأحباب مشتت الجماعات، قال تعالى:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ (30))

من آمن بعد فوات الأوان فلن ينفعه إيمانه شيئاً:

والله أيها الأخوة، قلت لكم سابقاً مشكلة الإنسان ليست في أن يؤمن أو لا يؤمن، لابد من أن يؤمن، ولكن المشكلة القضية متى يؤمن ؟ إما أن تؤمن وأنت شاب فتنتفع من إيمانك، أو أن تؤمن بعد فوات الأوان لينطبق على الإنسان قول الله عز وجل:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق: الآية 22)

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87))

(سورة الواقعة: الآيات 83-87)

تفضلوا ارجعوها، يبذلون المئات، الملايين:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ (11))

(سورة الرعد: الآية 11)

فالكلام يجب أن نعمل لهذه الساعة، لساعة اللقاء مع الله عز وجل، يجب أن نعمل لساعة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الاستهزاء أشد أنواع الكفر:

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30))

الله عز وجل خلق الإنسان، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم، أعطاه العقل: قوة إدراكية ليكون هذا العقل أداة التعريف ومناط التكليف، أعطاه حرية الاختيار، فَطَرَهُ فِطْرَةً سليمة، أودع فيه الشهوات، أعطاه قوة فيما يبدو، أعطاه الحواس، أعطاه التشريع، أعطاه من يدعوه إليه ومع ذلك كفر وعصى واستكبر وأدبر:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25))

(سورة المدثر: الآيات 19-25)

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30))

والاستهزاء أشد أنواع الكفر، الإنسان قد يقول هذه الفكرة غير قانع بها، هذا كفر، أما الاستهزاء أشد أنواع الكفر، حينما لا تؤمن وتسخر من هذه الأفكار فهذا كفر شديد.

الحياة مرة واحدة إما أن تسعد بعدها إلى الأبد وإما أن تشقى إلى الأبد:

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (31))

من الأمم، اذهب إلى مصر وانظر إلى آثار الفراعنة، أين هم الفراعنة ؟ انظر إلى آثار التدمريين، انظر إلى الحميريين، انظر إلى الأنباط، انظر إلى عاد وثمود هذه الأقوام التي أشادت حضارات عريقة أين هي الآن ؟ تحت أطباق الثرى وقد خُتِمَ عملها:

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (31))

من الأمم:

(أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31))

أي ما عندنا إلا فرصة واحدة للحياة، لا يوجد دورة ثانية إذا غلطنا، بعد الموت لا يوجد دورة ثانية، الحياة مرة واحدة، إما أن تسعد بعدها إلى الأبد وإما أن تشقى إلى الأبد، إما أن تستغل الحياة بمعرفة الله عز وجل وبمعرفة حقيقة الإنسان وسرّ وجوده، وإما أن ينغمس في الشهوات حتى يأتيه ملك الموت وهو غافل.

من أيقن أن الله موجود و سيحاسب لابدّ من أن يستقيم على أمره:

الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا:

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32))

كل هؤلاء الأمم والشعوب، كلها سيقت إلى الله عز وجل، المرجع والمآل إليه:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية: الآيات 25-26)

إذا أيقنت أيها الأخ الكريم: أن الله موجود، وأنه يعلم، وأنه سيحاسب، لابد من أن تستقيم على أمره، موجود ويعلم وسيحاسب قضية مصيرية، ليست قضية درس تباركنا فيه، والله درس لطيف، القضية أعظم من ذلك، أخطر من ذلك، قضية مصير أبدي وليس مصير دنيوي سنة سنتين ويمضوا، الإنسان أيام يقول: يمضوا، كم سنة ويمضوا، الإنسان أحياناً يفقد حريته عشر سنوات ومضوا، العشر سنوات ليست قضية عشر سنوات خمسين سنة قضية أبد، إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها.

لن يعرف الإنسان ربه إلا من خلال خلقه سبحانه:

الآن ربنا عز وجل بعدما بيّن مغبة الكفر برسالات الأنبياء والمرسلين، وأعطانا أمثلة واقعية عن أمة كفرت بدعوة أنبيائها، وكيف أن الله أهلكها الآن، بيّن الطريق إليه، كيف تعرفه ؟ كيف تعرف الله عز وجل ؟ تعرفه من خلال خلقه قال:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (33))

التراب ميت، التراب لا حياة فيه، لكن ربنا عز وجل أودع في التراب ملايين الكائنات، البكتيريا الأحياء الدقيقة، لا نعرف قيمة الحياة في التراب إلا إذا ألقيت قنبلة ذرية على أرض فعقمتها !! الآن في بعض البلاد، في اليابان، أرض معقمة لا تنبت شيئاً لأن القنبلة الذرية أتلفت فيها عناصر الحياة، فالأرض ميتة من أحياها ؟ من جعل فيها هذه الكائنات التي لا تعد ولا تحصى ؟

النفس الميتة يحييها الله عز وجل إذا اتجهت إليه كما يحيي الأرض الميتة:

والله مرة قرأت مقالة عن ديدان الأرض والله شيء لا يصدق ؟ قال: يمكن أن يموت بني البشر جميعاً وتبقى الحياة مستمرة، أما إذا أبيدت ديدان الأرض لا يبقى على وجه الأرض حياة لأن هذه الديدان تحول التراب إلى سماد، لها دور خطير جداً في التربة، نحن لا نعلم ذلك:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا (33))

انظر إلى الأرض في الشتاء، وانظر إليها في الربيع، كيف أنبتت العشب الأخضر، والأزهار، والثمار، والمحاصيل، والخضار، والفواكه، هذا الحجم الخضري أين كان ؟ من بذرة صغيرة أصبحت شجيرة كبيرة، قال:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا (33))

يوجد بالآية إشارة لطيفة، أي كما أن الأرض الميتة يحييها الله عز وجل بمعجزة منه، كذلك القلب الميت، النفس الميتة إذا اتجهت إلى الله عز وجل يحييها، لذلك قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال: الآية 24)

وصف الكفار بأنهم أموات غير أحياء.

القمح آية من آيات الله الدالة على عظمته:

وأخرجنا منها حباً، هذا القمح، أنت حاول اليوم أن تستعرض ما تأكله من أغذية يدخل القمح في صنعها، شيء عجيب، أكثر الأغذية يدخل فيها القمح، الحلويات، المعجنات، الخبز، البرغل، أكثر الأغذية القمح عنصر أساسي فيها، من جعل هذا القمح ينضج في وقت واحد ؟ انظر إلى الفواكه تنضج بالتدريج، وهذا من نعمة الله عز وجل، حقول البطيخ تنضج خلال ثلاثة أشهر، يعني أنت تأكل البطيخ قرابة ثلاثة أشهر، كل يوم تنضج بعض الثمار، في برمجة من الله عز وجل، هذا النبات مبرمج أن يعطي ما عنده خلال أشهر ثلاثة، لكن القمح ولحكمة بالغة أرادها الله عز وجل ينضج في يوم واحد، يحصد في وقت واحد !! من جعل هذه القمحة تنبت سنابل كثيرة في كل سنبلة مئة حبة ؟ أنا والله بأم عيني رأيت قمحة أنبتت خمساً وثلاثين سنبلة من قمحة واحدة، أخذت سنبلة بيدي وفرطت حباتها فإذا هي خمسون حبة، فهذه الحبة أنبتت ألفاً وسبعمائة وخمسين حبة، هذا عطاؤنا، قبل سنوات بلغت محاصيل القمح من سبعين ضعفاً إلى ثمانين ضعفاً.

(وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا (33))

القمح هو المادة الغذائية الأولى في العالم:

القمح هو المادة الغذائية الأولى في العالم، أي كان هناك حرب نفط وحرب قمح وحرب ماء، المادة الأساسية في العالم القمح، هذه من آيات الله عز وجل، ثلاثة آلاف و خمسمئة نوع من القمح في العالم، ولأنه غذاء أساسي ينبت في جميع الأماكن، في الأماكن الحارة، والأماكن الرطبة، والأماكن الدافئة، والمنخفضات، والأغوار، والمرتفعات، والجبال، في أي مكان ينبت، وعلى مدى العام ينبت وله أنواع لا يعلمها إلا الله، النوع القاسي والنوع الفلاني والنوع الفلاني هذا من آيات الله، ومن له خبرة في هذا المحصول يعرف آية الله عز وجل، من صمم السنبلة لها ساق هذا الساق غذاء أول للحيوان، كما أن القمح متناسب تناسباً رائعاً مع طبيعة الإنسان وأجهزته وحاجاته، كذلك ساق القمحة متناسب تناسباً كبيراً مع حاجة الحيوان، طبعاً هذه موضوعات للتفكر: موضوع المحاصيل، اسأل نفسك هذا السؤال القمح العدس الشعير الحمص هذه المحاصيل ذات الطاقات العالية في التغذية من صممها ؟ من جعلها

بهذه الأنواع المنوعة ؟ من جعلها بهذه الصفات ؟ من جعلها بهذه الطباع ؟ من جعلها بهذا الإنتاج؟ بهذه الغزارة ؟ قال تعالى:

(فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

على الإنسان أن يفكر في طعامه ليصل إلى الخالق سبحانه:

يقول أحدنا: شدة القرب حجاب، يقول: أين الخبز ؟ هاتوا خبزاً، يمسك الرغيف ويأكله حسب العادة ؟ فكر !!هذا رغيف خبز، أصله دقيق، أصل الدقيق قمح، أصل القمح مزروع، من أنبت القمحة ؟ من صممها بهذه الطريقة ؟ الله عز وجل قال:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس: الآية 24)

أمر إلهي، فكّر في طعامك، قبل أن تقول هاتوا الخبز، أين الخبز ؟ وسخن الخبز، انظر في هذا الخبز ! من صممه ؟ من خلقه ؟ إن أكلت بسكويت، إن أكلت معكرونة، إن أكلت برغل كله قمح، إن أكلت معجنات، إن أكلت حلويات كله قمح.

الفواكه و الثمار و الطعام مادة أساسية للتفكر في خلق الله عز وجل:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ (34))

في بساتين تجد التفاح، والكرز، والأجاص، والكمثرى، والدراق، والأعناب، والنخيل، يقول: جنة، هذا البستان من صممه ؟

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (4))

(سورة الرعد: الآية 4)

ممكن تصف لي طعم الأجاص من دون كلمة أجاص ؟ ممكن أن نذوق التفاح والأجاص والدراق والتوت والمشمش ثم نقول لك: اكتب لنا طعوم هذه الفواكه من دون أن تذكر أسماءها، لا تقدر !! هذا تفاح سكري، هذا كولدن، هذا ستارغن، هذا تفاح شتوي، كم نوع تفاح يوجد ؟ كم نوع عنب ؟ كم نوع كمثرى ؟ هذا أبو سطل، وهذا كوشي، اسأل إخواننا المزارعين، والدراق هذا مخملي، وهذا يقشر، وهذا دراق من نوع ثانٍ، أنواع منوعة، ومشمش وزري وبلدي وإلى آخره، انظر الأنواع شيء للعصير، وشيء للصناعة، وشيء للمائدة، وشيء للنقل، وشيء للاستهلاك، أنواع منوعة الطعام والفواكه والثمار مادة للتفكر أساسية جداً، الفكر يجب أن ينطلق، لا تأكل كما يأكل عامة الناس، كُلْ كما يأكل المؤمنون، قل: بسم الله الرحمن الرحيم.

نضج الفواكه تباعاً لحكمة أرادها الله عز وجل:

من صنع هذه الفاكهة ؟ من برمّج الفواكه ؟ لو أن الفواكه كلها تنضج في يوم واحد ! تصبح للتلف كلها، أولاً الكرز ينتهي بعده المشمش بعد المشمش التفاح ثم الدراق، الأمور مبرمجة الكرز على أسبوعين، ثلاثة، شهر، تأكله يعطي الشجر، من برمّج النبات الواحد؟ من برمج النباتات مع بعضها ؟ الله عز وجل، من جعل أنواع منوعة، كم نوع يوجد للكرز ؟ شيء غامق، شيء فاتح، وشيء له حز كبير، صغير، حامض، حلو، كبير، صغير، قاسٍ، أنواع منوعة تصميم مَنْ ؟ كله إكرام لك من أجلك:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (70))

(سورة الإسراء: الآية 70)

الأنهار و الينابيع آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34))

هذه الينابيع يقال: هذه السنة خمس وثلاثون متراً مكعباً في الثانية نبع الفيجة، ماء عذب فرات زلال، من خَزّنَهُ ؟ الله جل وعلا، هذه الأنهار، هذه الينابيع، الثمار، الفواكه، المحاصيل:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

شكر الله عز وجل على نعمه:

وما عملته أيديهم لها معانٍ كثيرة:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

أحياناً تأكل صناعة غذائية راقية أساسها تفاح، أساسها مشمش، أساسها قمح، أي إما للصناعة، قد تأكل شيئاً مصنعاً لا تنسى أن أساسه قمح، والله أكلنا بسكويت لذيذ جداً، أساسه قمح من صنع الله عز وجل، الإنسان عمل مداخلات طفيفة، أما الأصل القمح، الأصل مثلاً فواكه:

(أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36))

هذه آية دقيقة تتحدث عن نظام الزوجية في الكون إن شاء الله تعالى نشرحها في درس قادم بالتفصيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 33-50 ، كل شيء في الكون آية من آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-07-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس الرابع من سورة يس.

الطريق إلى الله يبدأ بمعرفته:

وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية الثالثة والثلاثين في قوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

بعد أن بيّنَ الله جل جلاله مغبة الصد عن سبيل الله، ورَفْضَ رسالات الأنبياء، وضرب لنا مثلاً حياً عن أقوام كذبوا رسلهم، وأهلكهم الله عز وجل، وأوقعهم في شر أعمالهم، وكيف أن الذي عرف الله عز وجل لقي الله وهو عنه راض فدخل جنة الخلد.

بعد أن بيّنَا الأمور النظرية والأمثلة التطبيقية، بيّنَ الله جل وعلا الطريق إليه، الطريق إليه يبدأ بمعرفته، ومعرفة الله عز وجل هي أصل الدين، أصل الدين معرفة الله عز وجل، هذه أصول، وفروع الدين كثيرة، إذا خضنا في فروع الدين ولم نملك هذا الأصل القويم فإننا في متاهات كثيرة، ماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة ؟ لماذا الآيات المكية كلها تتحدث عن الله وعن آياته الكونية ؟

مراحل الدعوة إلى الله:

إذاً مرت الدعوة إلى الله بمرحلتين: مرحلة مكية، ومرحلة مدنية، في المرحلة المكية تم التعريف بالله من خلال آياته، وإذا قرأت الآيات المكية لوجدت العجب العجاب، كلها إشارات إلى آيات الله في الأرض:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1))

(سورة الشمس:الآية1)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4))

(سورة الليل:الآية1)

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1))

(سورة الانفطار: الآية1)

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1))

(سورة التكوير: الآية1)

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

(سورة الذاريات: الآية47)

قيمة الأمر من قيمة الآمر:

لو تتبعت الآيات الكونية لوجدتها كلها حول محور واحد: الإيمان بالله من خلال آياته والإيمان باليوم الآخر، إذا صحّ إيمانك بالله صحّ إيمانك بكل شيء، عندئذ يأتي دور الفروع: دور التشريع، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام البيوع، كل هذه الأوامر والنواهي لها معنى عندئذ إنها طريقٌ إلى الله، إنها تنفيذٌ لأمر الله، إنها طاعة لله.

الأمر والنهي لا معنى له قبل معرفة الآمر والناهي، لذلك ما من دعوة تنجح إلا إذا بدأت بتعريف الناس بالله، وما من دعوة بدأت بالعكس، بدأت بتعريف الناس بشرع الله دون أن يُعَرِّفُوهم بأمر الله عز وجل، هذه الدعوة لا تنجح، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، فإذا لم تعرف للآمر قدراً، هل تعرف للأمر قدراً ؟ ربنا عز وجل قال:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (91))

(سورة الأنعام: الآية91)

من أراد أن يتعلم أو يعلّم عليه أن يعرف الناس بالآمر أولاً:

لذلك دائماً إذا أردت أن تعلم أو أردت أن تتعلم، ابدأ بالآمر قبل الأمر، ابدأ به، من هو الآمر ؟ هذا الذي أمرني أن أفعل كذا وكذا، من هو الله عز وجل ؟ قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (54))

(سورة الأعراف:الآية54)

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ (2))

(سورة الرعد:الآية2)

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ (96))

(سورة الأنعام:الآية96)

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9))

(سورة المزمل:الآية9)

حينما يُسَلِّم المريضُ نفسه لطبيب، نقول: هذا الطبيب دَرَسَ في بلد أجنبي، معه بورد، متفوق باختصاصه، شهادته امتياز، أجرى عشرة آلاف عملية كلها نجحت، يطمئن المريض، حتى المريض يسلم نفسه لطبيب، يجب أن نُعَرّفَهُ بهذا الطبيب.

آيات الله عز وجل كلها تعرفنا بذاته العلية:

لكي يستسلم الإنسان لله عز وجل في تنفيذ أمره وفي الانتهاء عما عنه نهى، يجب أن يعرفه، هنا النقطة، الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام: أنه أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة يُعَرِّف أصحابه بالله وباليوم الآخر من خلال الآيات الكونية، فلما جاء للمدينة بدأ الشرع ينزل تباعاً: آيات الدَيْن، آيات الطلاق، آيات البيوع، هذا كله جاء في مرحلة مدنية، فالله عز وجل حينما أراد أن يعرفنا بذاته، بدأ بهذه الآيات قال تعالى:

(وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ (33))

انظر بشكل بسيط إلى الأرض في الشتاء، تراب، انظر إلى الأشجار في الشتاء، خشب يابس، أرض ترابية قاحلة وخشب مغروس فيها، انظر إليها في الربيع: الحشيش الأخضر، الأزهار الورود، الرياحين، الأشجار اكتست حلة قشيبة، أين كان هذا الجمال كله في الشتاء ؟ أين كان مخبئاً ؟

(وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ (33))

النبات من آيات الله الدالة على عظمته:

أي انظر إلى الأرض بأشجارها وترابها في الشتاء، وانظر إليها بالربيع.

(وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا (33))

اذهب إلى سهول حوران في الربيع تراها بساطاً أخضر كلها، حبوب أُنبِتَت، الحبة: عبارة عن رشيم هذا الرشيم له سويق وله جذير وهو كائن حي وله محفظة غذائية وله قشرة، فإذا جاءته الرطوبة، نما جذيره ونما سويقه على حساب المحفظة الغذائية إلى أن تتمكن جذوره أن تمتص الغذاء من التربة، عندها تصبح نبتة، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

(وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

تناسق غذاء الإنسان مع حاجاته تناسقاً عجيباً:

تحدثت في الدرس الماضي: أن القمح هو الغذاء الأول، الغذاء الرئيسي في حياة الإنسان، وهو متناسق تناسقاً عجيباً مع حاجات الإنسان، الأمر الذي يدعو إلى أن تقول يقيناً: إن الذي خلق هذه الحبة حبة القمح والذي خلق الإنسان هو إله واحد ؛ للتناسق الدقيق بين بنية هذه القمحة وبين مكوناتها الأساسية وبين بنية الجسم وحاجاته الطبيعية: فيه نشاء، فيه حديد، فيه منغنيز، فيه فوسفور، فيه كذا ستة معادن في القشرة كذا فيتامين، مواد سكرية، مواد نشائية، كلها في هذه القمحة، والقمح خبز وأنواع منوعة، يمكن إذا نظرت إلى محل يبيع المواد الغذائية لرأيت معظم مكونات هذه البضاعة من القمح، الحلويات وأنواع المعجنات وأنواع الخبز كل هذه المواد الغذائية أساسها القمح:

(وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33))

فعندما الإنسان يشتري ربطة خبز، ويقول بسم الله الرحمن الرحيم، هل تعرف ماذا تعني كلمة: بسم الله الرحمن الرحيم ؟ يعني أيها الإنسان هل فكرت في هذا الخبز ؟ هل نفذت أمر الله في تناول الطعام ؟ هذه البسملة كي تَذْكُرَ أمر الله في تناول الطعام، والبسملة كي تذكر نعم الله عز وجل، بسم الله الرحمن الرحيم أأكل، يعني هذه أأكل بعد بسم الله الرحمن الرحيم، أي وفق أمره ومستنيراً بنوره، فإذا شربت فقل بسم الله الرحمن الرحيم، أي هذا الماء من نعمة الله علينا أن جعله عذباً فراتاً، وسوف أشربه وفق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نضج المحاصيل في وقت واحد لتسهيل الأمر على الإنسان:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ (34))

الأرض غير القمح وغير محاصيل القمح والشعير والعدس والحمص إلى آخره...الأصناف يعلمها الأخوة الذين يعملون بالزراعة، المحاصيل لحكمة أرادها الله تنبت في وقت واحد، تنضج في وقت واحد تسهيلاً على الإنسان، وفوق هذا وذاك يصيبها السوس بعد حين، لولا هذا السوس الذي يصيب هذه الحبوب والمحاصيل لاحتكر الإنسان قوت أخيه الإنسان، ولأمكن للإنسان أن يجمع القمح كله ولأن يبيعه بمئة ضعف عن رأسماله، لكن هذا السوس الذي يصيبه هو الذي يفقده ثمنه بعد حين إذاً لابد من أن يبيعه هذا من حكمة الله عز وجل حكمة بالغة.

النخل من آيات الله الدالة على عظمته من فوائده:

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ (34))

الحقيقة العلماء قالوا ": إن أطول الأشجار عمراً هي النخيل "، بعض أشجار النخيل عمرها أكثر من ستة آلاف عام، أطول الأشجار عمراً من دون استثناء هو النخيل، وهناك صفات أخرى للنخيل، أنه إذا قطع رأسها لا تنمو كالإنسان، وأن ثمار النخيل عقدت عليه مؤتمرات: أنا قرأت عن مؤتمر في العالم عقد لدراسة بنية ثمرة النخيل، حتى أنهم قالوا عن ثمرة النخيل إنها صيدلية، إذ أنّه ستة وأربعون مادة داخلة في تركيب التمر.

1 ـ التمر مادة مسكنة لأعصاب الإنسان:

التمر مادة مسكنة إذا إنسان أعصابه مشدودة ينصح بأكل التمر.

2 ـ التمر مادة مهدئة:

إذا طفل شرس الطباع تُنصح أمه بإطعامه التمر، فيه مادة مهدئة. ولما ربنا عز وجل قال:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي (26))

(سورة مريم:الآية25)

3 ـ احتوائه على مادة تقبض الأوعية:

التمر فيه مادة تقبض الأوعية، فالمرأة التي ستولد أخطر شيء في الولادة النزيف، لأن مئات الألوف من الأوعية التي في الرحم سوف تتمزق، فإذا كان هناك مادة تقبض هذه الأوعية فالولادة سليمة، فلذلك التمر يفيد المرأة التي على وشك الولادة لأن المادة في التمر تقبض الأوعية فتسهم في انقطاع النزيف.

4 ـ في التمر مادة ملينة:

في التمر مادة ملينة، لأن الأمعاء في المرأة إذا كانت ممتلئة بالفضلات تعسر الولادة، مما يسهل الولادة أن تفرغ أمعاءها، في التمر مادة مسهلة ملينة، وفي التمر مادة قابضة، وفي التمر مادة مضادة للنزيف، وفي التمر مادة تسرع في تقلص العضلات، يعني كل المواد التي في التمر لها علاقة مَسِيسة بالولادة، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25))

5 - التمر لا يتلوث:

وفوق هذا وذاك، التمر لا يتلوث، لأن شدة تركيز المادة السكرية فيه تمتص ماءه أية جرثومة تقع عليه، التمر معقم دائماً ويخزن التمر يعني كما قرأت عنه صيدلية في حبة، حتى أن أخوة كثر حدثوني عن النتائج الطبية التي عاينوها في أجسامهم بعد تناول التمر.

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (34))

والتمر أنواع منوعة، سمعت عن تمر ثمن الكيلو مئة ريال يعني ألف ليرة سوري للكيلو الواحد، يعني أفخر أنواع الحلويات لا يرقى إلى مستواه أنواع منوعة.

العنب من آيات الله الدالة على عظمته:

(مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (34))

العنب يعدّ المادة الغذائية الأولى في الفواكه، أي فيه سكريات وفيه فيتامينات وفيه مواد مرممة لدرجة أنه يعد الفاكهة الأولى، أيضاً أنواع منوعة، العنب يمكن أن يخزن زبيباً قوت أساسي، نعم.

الينابيع وطبقات الأرض آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34))

كل كلمة في هذه الآية موضوع للتفكر، موضوع تفجر الينابيع موضوع طويل أساسه تصميم طبقات الأرض، طبقة نفوذة، طبقة كتيمة، طبقة نفوذة، طبقة كتيمة، حوض مثلاً فتحت هذا الحوض صخور معدنية تذاب قليلاً قليلاً في الماء، الماء الذي يخرج منها ماء معدني يرمم الجسم البشري، حديث طويلٌ طويل حول:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34))

الماء آية من آيات الله الدالة على عظمته:

الماء أساسه مالح، والبحر لولا أنه مالح لما تمت حياة على سطح الأرض، ثم يبخر، يقطر هذا الماء عن طريق السطوح المائية الواسعة، وعن طريق أشعة الشمس، وعن طريق سطوح التبخر، وعن

طريق تحمل الهواء بخار الماء، وعن طريق سوق الرياح لهذه السحب، وعن طريق انعقاد السحاب على شكل حبات مطر،...وبحث طويل طويل كيف يتخلى الهواء عن بخار الماء إذا برد، وكيف يستوعب هذا البخار إذا سخن، وكيف قال الله عز وجل:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14))

(سورة النبأ:الآية14)

كيف أن الضغط الجوي يسهم في تحويل بخار الماء إلى قطرات ماء، وكيف أن هذه القطرات لا تنعقد إلا على ذرات من الغبار في السماء، بحث طويل.

الثمار آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ (35))

يعني هذه الثمار، قف أمام بائع فاكهة: كل هذه الثمار مصممة لك، لإكرامك، في لونها، في حجمها، في قوامها، في رائحتها، في شكلها، في طعمها، الطعم والرائحة والحجم والقوام والشكل واللون هذه كلها تسهم في إكرام الإنسان، الفواكه لها منظر جميل بحد ذاتها قبل أن تأكلها، الفاكهة من حيث الجمال قطعة فنية، تصميم مبدع، تصميم إله عظيم، فهذه الفاكهة.

فوائد النبات لا تعدّ و لا تحصى:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

هذه إشارة دقيقة في القرآن على أن النبات له فوائد لا تعد ولا تحصى تزيد على أنه نبات تأكله. الآن الأساس من الخشب، أكثر الأدوية النافعة المفيدة من النبات أدوية نباتية، الأصبغة من النبات، الأدوية من النبات، الخشب من النبات، الفلين أصله نبات، المطاط أصله نبات، السواك أصله نبات، الخلة أصلها نبات، أدوات التنظيف القش هذا أصله نبات، القش الخشن والقش الناعم كله نبات، أشجار الزينة نبات، أشجار الحدود نبات، يوجد نبات أوعية، نبات سبحات، أي لو أن الإنسان حصر ذهنه في الفوائد العظمى التي يجنيها الإنسان من النبات لما انتهى إلى إحصائها، قال:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

النبات خلقه الله عز وجل لإمتاع العين و إكرام الإنسان:

الخشب من النبات، انظر إلى البيت: النوافذ وغرفة الضيوف وغرفة النوم، الطاولات والكراسي كلها أساسها من النبات، قد تستخدم القماش من النبات: الكتان والقطن من النبات، فالنبات تارة كساء، تارة دواء، تارة صباغ، تارة شيء يمتع البصر، كم نوع من نباتات الزينة ؟ يعني كتب مؤلفة، كتاب ضخم، كتاب نبات الصالونات هذه النباتات التي تعيش في غرف الضيوف في الشتاء بحث قائم بذاته، الورود باب آخر، الأبصال باب آخر، الأزهار باب آخر، العدد يأخذ بالألباب.

ادخل عند أخ بائع زهور: كم نوع عنده ؟ هذه مستحية، خير إن شاء الله، هذه الشاب الظريف، اسمع الأسماء، شيء يضحك، أسماء وأنواع، وهذه ساعة، وهذه قنديل، وهذه ياسمينة عراتلية، شيء عجيب، هل هذه خلقت للطعام ؟ لا والله، للزينة، لإمتاع العين ولإكرام الإنسان.

النبات من تصميم الخالق سبحانه:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ (35))

النبات أحياناً أساس الصناعات الغذائية، الشاي نبات، البن نبات، أنواع منوعة من الزهورات، هذه للسعلة وهذه لترطيب الجوف وهذه مسكن وهذه مقشع...، تجد كتباً ضخمة جداً في التداوي بالأعشاب الآن، يوجد موسوعات ومعاجم عن الأعشاب يعني ألفي صفحة: كل نبات صورته ومقوماته فوائده استعمالاته تصميم من هذا ؟

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

لن تعذبوا إذا شكرتم وآمنتم:

يا أخوان، إذا آمنت بالله وشكرته حققت المراد من وجودك لقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء:الآية147)

يعني إذا شكرتم وآمنتم فلن تعذبوا، يعني إن آمنتم وشكرتم حققتم المراد الإلهي من خلقكم لذلك:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، مهما دقت النعمة تعظم عند الله عز وجل، فالمؤمن إذا شرب كأس ماء أو إذا أكل تفاحة، إذا تناول طعاماً، إذا أكل رغيف خبز، إذا شرب كأس حليب، دائماً فكره يفكر في هذه النعم من خلقها ؟

الانتقال من النعمة إلى المنعم:

أيها الأخوة: يجب أن نعلم، الآن سأذكر لكم شيئاً تحدثت به سابقاً، كل شيء خلقه الله عز وجل له هدفان أساسيان: الهدف الأكبر أن تعرف الله من خلاله، والهدف الأصغر أن تستفيد منه، فإذا استفدت منه ولم تتعرف إلى الله من خلاله ضيعت أثمن ما فيه، يعني إنسان أكل العسل وما عرف الله من خلال النحل والعسل، خسر خسراناً مبيناً ولو أنه أكل آلاف الكيلو غرامات من العسل في حياته كلها، وإنسان ما أتاح له دخله أن يأكل لعقة عسل، لكنه قرأ كتابا عن العسل ففاضت عيناه بالدموع خشية لله عز وجل، هذا الإنسان الذي لم يذق العسل في حياته حقق المراد من خلق النحل وخلق العسل، لهذا قال عليه الصلاة والسلام حينما رأى هلالاً قال هلال خير ورشد.

دائماً أيها الأخوة إذا فكرك أعملته في نعم الله عز وجل معنى ذلك أنك حققت المراد الإلهي من خلقه، الانتفاع بالشيء فرع من فروع وجوده.

دعوة الله عز وجل الإنسان إلى التفكر:

عند الأجانب وعند أهل الدنيا الانتفاع بالشيء هو أصل الوجود، عند المؤمنين الانتفاع بالشيء فرع من فروع وجوده، لكن الاهتداء به إلى الله أصل وجوده، لذلك:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات:الآية21)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس:الآية24)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5))

(سورة الطارق:الآية5)

دعوة إلهية إلى التفكر:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

نظام الزوجية في الإنسان والذرات والمجرات والنبات والجماد يؤكد وحدة الخالق

الآن ربنا عز وجل أشار بهذه الآية القادمة:

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ (36))

يوجد في الكون ظاهرتان اثنتان: الأولى ظاهرة التنوع والثانية ظاهرة التوحد، الآن للنظر: كل إخواننا الحاضرين كل واحد له وجه غير وجه الآخر، لو دققت في ألوان الوجوه لرأيت أن كل واحد له لون لا يشركه فيه آخر، أبداً كل إنسان له لون خاص بقزحية عينه، له رائحة خاصة، إذاً الله عز وجل خلق خمسة آلاف مليون إنسان، كل إنسان له رائحة تختلف عن الآخر، والدليل تتبع المجرمين عن طريق الكلاب البوليسية، إذا أعطيت الكلب البوليسي شيئاً من حاجات الملاحق فشمها، تتبع رائحته من بين آلاف الأشخاص، فالآن العلم يؤكد أن لكل إنسان رائحة لا تتشابه مع رائحة إنسان آخر، ولكل إنسان لون لقزحية العين لا تشترك مع قزحية عين آخر أبداً، ولكل إنسان تركيب لدمه لا يشترك مع تركيب دم آخر، ولكل إنسان بنية نسيجية، عندنا زمر دموية معروفة، عندنا الآن بنية نسيجية، أحدث بحث عن البنى النسيجية أن عدد البنى النسيجية الآن 2.5 مليار وحدة يعني تقريباً في الأرض في واحد آخر يشبهك بتركيبك النسيجي، وهذا ما يدعو الذين يزرعون الكلية في اختيار إنسان معين مقترب إلى حد ما من نسيج الآخذ.

كل شيء في الكون أساس توالده النظام الزوجي:

إذاً هناك بنىً نسيجية تتميز بها، هناك بلازما للدم تتميز بها، هناك رائحة خاصة تتميز بها، هناك شكل خاص للقزحية تتميز بها، هناك بصمة تتميز بها، هناك نبرة صوت تتميز بها، نبرة الصوت، وقزحية العين، وتركيب الدم، ورائحة الجلد، وبصمة اليد، هذه كلها أشياء منوعة.

أما إذا تناولت دواء صنع في كندا فرضنا تناوله إنسان يعيش في أستراليا، هذا الدواء مسكن يسكن ألمه، ما معنى ذلك ؟ أن الخمسة آلاف مليون إنسان مصممة وفق بنى واحدة، إذاً من أسماء الله الواحد، تحس أن في الكون وِحْدَة، من أسمائه الواسع، تحس أن في الكون سعة، في تنويع شديد، وفي وحدة.

ونظام الزوجية: مما يؤكد وحدة الخالق، كل شيء في الكون أساس توالده النظام الزوجي.

التلقيح في النبات:

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ (36))

عملية تأبير النخل عملية مزاوجة، والآن في مخابر أرقى شركات البذور يتم التلقيح باليد، يلقحوا النبات باليد، ويغلقوا الزهرة بملقط لئلا يدخل غبار طلع آخر يفسد هذه المزاوجة، إذاً التقليح في النبات في نبات مؤنث، في نبات مذكر، فالتلقيح يتم تارة عن طريق النحل، وتارة عن طريق الرياح، وتارة

عن طريق الإنسان نفسه، أشجار التين تلقح عن طريق الإنسان، والنخل يلقح نفسه، تأبير النخل يتم عن طريق الإنسان، وفي نباتات تلقح عن طريق الرياح:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (22))

(سورة الحجر:الآية22)

وفي نباتات تلقح عن طريق النحل، والنحل ربما كانت وظيفته الأولى تلقيح النباتات.

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36))

قانون الله عز وجل يشمل كل شيء:

الآن نظام الذرة أصغر وحدة وظيفية في الكون هي الذرة، أصغر وحدة وظيفية وليست وحدة بنيوية، فيها إلكترون سالب وموجب وفي مدارات، نظام الزوجية في الذرات، نظام الزوجية في المجرات، في كواكب مزدوجة تترافق مع بعضها، فنظام الزوجية في الإنسان وفي النبات وفي الجماد، إذاً في وحدة، إذاً في مصمم واحد، في خالق واحد يتضح قانونه في كل خلقه.

الليل آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ (37))

هذا الليل الله جعله سكناً، الإنسان ينام في النهار ساعات طويلة ويبقى مشدود الأعصاب، ساعة في أول الليل لا تعدلها ثلاث ساعات في آخر الليل، من جعل الليل سكناً؟ والذي صمم حجم الأرض لو أن حجمها أكبر لكان انجذابها للشمس مختلفاً، وإذا كان انجذابها مختلفاً تبدل الليل والنهار، فالليل والنهار متعلق بحجم الأرض ومتعلق بسرعة دورتها حول نفسها، لو أن الأرض تدور حول نفسها كل ساعة لكان نصف ساعة ليل ونصف ساعة نهار، يعني على طول في ليل و نهار، ظهر وصبح. لو كان الليل ثلاثين ساعة تنام ثمان ساعات تكتفي من النوم ولازال الليل قائماً، في أربع ساعات أخرى. صار الليل يساوي النهار تقريباً، ففي تناسب. من صمم هذا التناسب ؟ من نسق بين الليل والنهار وبين حاجة الإنسان؟ الله سبحانه وتعالى، وآية لهم الليل، الليل موضوع للتفكر.

الشمس من آيات الله الدالة على عظمته:

(اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ (37))

النبي الكريم كان يقول:

((سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟))

[ورد في الأثر]

تجد الشمس مشرقة، الجبال متألقة، السهول نضرة، يأتي الليل: فإذا هو ظلام دامس موحش، أين كان ذلك الأنس مع الضوء ؟ وأين ذهب ذلك الأنس مع ذهاب الضوء ؟

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ (37))

انسلاخ لطيف، أحياناً الإنسان يتألق المصباح فجأة فتنبهر عيناك أو ينطفئ فجأة فلا يرى شيئاً، لكن هذا التدرج في ذهاب الشمس شيء عجيب، فأثناء غيابها تجد الضوء يضعف قليلا قليلاً، فإذا جاء وقت العشاء وغاب الشفق الأحمر، رأيت الظلام الدامس، هذا معنى قوله تعالى:

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي (38))

التناسق بين الليل و النهار و بين حاجة الإنسان:

الأرض تدور حول نفسها دورة وحول الشمس دورة وحول نفسها كل أربع وعشرين ساعة، يعني سرعتها عند خط الاستواء ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، أسرع طيارة يركبها الإنسان تجارية ألف كيلو متر، الطائرات العسكرية تصل ألف وستمئة، الطائرة العسكرية ممكن تنطلق من كراتشي إلى أمريكا والشمس هِي هِيَ تنطلق مع الغياب وتصل بعد سبع عشرة ساعة طيران مع الغياب ما معنى ذلك ؟ هذا يعني أنها سارت بسرعة الأرض، فالشمس بقيت في مكانها، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، لكن حول الشمس تدور بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، نحن بدأنا الدرس ثمانية وربع الآن التاسعة إلا عشر دقائق، أي مضى على بدء الدرس خمس وثلاثون دقيقة، كم ثانية ؟ ضرب ستين بخمس و ثلاثين، ضرب ثلاثين كيلو متراً، نحن الآن قطعنا مسافة تقدر بمئات ألوف الكيلو مترات، هذه أشياء بديهية جداً، الأرض تدور حول الشمس بسرعة تزيد على ثلاثين كيلو متراً في الثانية، أما الآن بالآية الكريمة:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي (38))

الشمس تدور حول نفسها كل خمسة وعشرين يوماً دورة، وتجري بسرعة مئتي كيلو متر في الثانية الواحدة، أي المجموعة الشمسية كلها تجري، هذه حقيقة ثابتة، نحن في مجرة درب التبان قطرها ثلاث عشرة ساعة.

درب التبان المجرة التي نحن فيها المجموعة الشمسية كلها نقطة في طرفها:

بالمناسبة بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة أي ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، عندما أرسلوا مركبة للقمر وهي أول مركبة حيث كلفت أربع وعشرين ألف مليون دولار، وبقيت في الطريق إليه ثلاثة أيام، وسرعتها أربعون ألف كيلو متر بالساعة، بعد ثلاثة أيام وصلت للقمر، أي قطعوا ثانية ضوئية واحدة، بعد الشمس ثماني دقائق، الآن: المجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة ضوئية، أي الضوء يقطع قطرها في ثلاث عشرة ساعة، أما درب التبان المجرة التي نحن فيها المجموعة الشمسية كلها نقطة في طرفها بكل نجومها وكواكبها، نقطة في طرف درب التبان، درب التبان طوله مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، الرقم دقيق ! الآن أقرب بعد نجم ملتهب إلى الأرض في المجموعة الشمسية أربع سنوات ضوئية، هذا النجم لو أردنا أن نصل إليه بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام، أربع سنوات 60 ضرب 60 ضرب ثلاثمئة وستين إلى آخره، تجد رقماً قسمه على أربع و عشرين ثم على مئة بالساعة تمشي المركبة، يظهر رقم قريب من خمسين مليون عام، إلى أن تصل لأقرب نجم ملتهب للأرض، نجم القطب أربعة آلاف سنة، إذاً المرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، أحدث نجم 16 ألف مليون سنة، فربنا عز وجل قال:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38))

تمشي الشمس لمستقر لها، الشمس آية من آيات الله تتسع لمليون و ثلاثمئة ألف أرض، ستة آلاف حرارة سطحها، بأعماقها عشرين مليون درجة لو ألقيت فيها الأرض لتبخرت في ثانية واحدة، ومع ذلك تجري، يقدر العلماء أنه مضى على تألقها خمسة آلاف مليون عام.

القمر آية من آيات الله الدالة على عظمته:

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (39))

أول القمر هلال (قيل كهلال الشك) هلال رفيع يزداد حجماً إلى أن يصبح بدراً أي كتقويم في السماء.

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (39))

في آية أخرى:

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5))

(سورة يونس:الآية5)

يعني القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور، لو جاءت سرعة القمر في دورته حول الأرض مع سرعة الأرض في دورتها حول نفسها لأصبح القمر في مكان واحد ثابت، لكن حكمة الله عز وجل أنه هناك تفاضلاً بين سرعة دورة الأرض حول نفسها وسرعة دورة القمر حول الأرض، من هذا التفاضل تجد القمر يشرق ويرتفع ويغيب، لولا التفاضل لبقي القمر مع الأرض في مكان واحد ثابت، هذا التفاضل هو روعة الخلق، تفاضل سرعة القمر في دورته حول الأرض، وسرعة الأرض في دورتها حول نفسها سَبَّبَ شروق القمر، لأن القمر لو تحرك مع الأرض هكذا لما كان شروق وغروب ولبقي القمر مثلاً فوق أمريكا دائماً.

الهلال قبل أن ينمحق يبدو فيه لون أقل تألقاً من لونه عندما يولد:

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ (39))

عزق النخيل، عنقود النخيل إذا نزعت عنه التمر يبقى خيطاً أصفر اللون، فربنا عز وجل شبه القمر بالعرجون، أما كلمة

(القديم)

ما معناها ؟ العلماء قالوا: " الهلال عندما يولد يبدو متألق اللون، أما حينما يقترب من نهايته يبدو شاحب اللون "، فجاءت كلمة القديم إشارة إلى أن الهلال قبل أن ينمحق يبدو في لون أقل تألقاً من لونه عندما يولد.

الكون آية من آيات الله الدالة على عظمته:

هذا معنى قوله تعالى:

(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ (40))

نحن نسمع كل يوم عن اصطدام قطارين، طائرتين، أو بين باخرتين عملاقتين اصطدمتا تلوث البحر بالبترول، طائرتان اصطدمتا، قطاران تداخلا ببعضهما بعضاً، في كوارث كثيرة ولكن لم نسمع أبداً أن خطأ حدث في الجو:

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

واستنبط علماء التفسير أن هذه الآية:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))

أن كل تفيد الشمولية المطلقة، يعني كل شيء خلقه الله في فلك يسبح، ابتداء من الذرة وانتهاء بالمجرة:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40) وَآيَةٌ لَهُمْ (41))

آية ثالثة:

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41))

قانون دفع الماء للأشياء نحو الأعلى آية من آيات الله الدالة على عظمته:

نظام الماء: المادة الصلبة يثبت شكلها وحجمها، والمادة السائلة يثبت حجمها لا شكلها، والمادة الغازية حجمها غير ثابت وشكلها غير ثابت، فتعريف السائل حجمه ثابت لكن شكله متغير بحسب الإناء، هذا الماء أودع الله فيه قوة تماسك، هذه القوة هي التي تجعله يحمل السفينة، يعني السفينة مبنية على دافعة أرخميدس (هذا العالم الذي وضع يده في وعاء الماء وهو في الحمام فشعر بقوة تدفعها نحو الأعلى فخرج عاريا وقال وجدتها وجدتها) وجد قانون الإنسان يحمل وعاء يملأه ماء و يغمسه في البحرة ذهب نصف وزنه، ذهب ثلاثة أرباع وزنه أين ذلك الوزن ؟ هناك في الماء قوة تدفعه نحو الأعلى، هذا قانون أرخميدس له قانون دقيق بقدر الماء المزاح، فالناقلات الضخمة مكونة على أساس أنها تزيح ماء أكبر من وزنها، أما لو فرضنا ألقينا قضيب حديد يسقط إلى أعماق البحر لأنه يزيح ماء أقل من وزنه لا يطفو الحديد على سطح الماء إلا إذا أزاح ماء أكثر من وزنه، لذلك تبنى السفن على أساس مجسمات كبيرة جداً وسطها فارغ كي تزيح ماء كثيراً وتتسع لبضاعة كبيرة جداً.

الآن الناقلات أكثر من مليون طن صار الآن في ناقلات تحمل ألفَ ألف طن كلها مبنية على قاعدة أرخميدس قانون دفع الماء للأشياء نحو الأعلى هذه آية.

إكرام الإنسان بتسخير البر و البحر له:

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41))

أي الفلك إن كان بخارياً، وإن كان رياحياً، وإن كان على الشراع، وإن كان على الذرة الأساس واحد، لولا أن الله خلق في الماء قوة تدفع نحو الأعلى لما كانت هذه السفن، انتهى الأمر، كله طبعاً في هذه الآية إشارة إلى سفينة نوح التي حملت ذرية البشرية:

(وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (4))

في البحر هناك سفن، وفي البر هناك جمال و خيول و بغال و حمير، ويخلق ما لا تعلمون، هذه السيارات والقطارات والطائرات والصواريخ ويخلق ما لا تعلمون:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل: الآية8)

دخلت فيها كل المركبات.

الله عز وجل قادر على كل شيء:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ (43))

لا يتذوق هذه الآية إلا من ركب البحر، أضخم سفينة عملاقة هي سفينة صنعت بعام 1912 اسمها التيتانيك، مشهورة كثيراً، سفينة قيل في كتيب أصدرته الجهة الصانعة أن هذه السفينة لا يستطيع القدر إغراقها، فهي من أضخم السفن التي بنيت في وقتها، وقامت بأول رحلة من بريطانيا إلى أمريكا، ركب في هذه السفينة علية القوم في أوربا، أغنياء أوربا حملوا من الذهب من الحلي من الألماس من الأحجار الكريمة ما يقدر ثمنه بألوف الملايين، طبعاً السفينة مدينة عائمة ففيها: الحمامات، المسابح، المطاعم، الأثاث، الثريات، أي أفخر ما في أوربا وضع في هذه السفينة باعتبار أنها لا تغرق، صنعت من جدارين اثنين وبين الجدارين حواجز عرضية، فلو أنها أغرقت من مكان أغلقت الحواجز فمنعت دخول الماء، فهذه السفينة من عجائب صنعها أنها لم يصنع لها قوارب نجاة لأنها لا تغرق، وفي أول رحلة لها غرقت في عرض المحيط الأطلسي حيث اصطدمت بجبل جليدي شطرها إلى شطرين، وأرسلت استغاثات ولكن كل السفن التي حولها ظنت أنها تحتفل بأول رحلة، وقرأت عنها مقالة قبل حين قبل سنة أخرجوها عثروا عليها قبل عام لأنهم يطمعون بما فيها من ثروات وذهب وألماس عثروا عليها بقاع المحيط الأطلسي قال:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43))

من جاء أجله لا يستأخر ساعة و لا يستقدم ساعة:

مَنْ قرأ منكم غرق الباخرة المصرية بين جدة وبين مصر، أنا قرأت تفاصيل عنها، شيء عجيب، تحس بقدرة الله عز وجل، ليس إلا الله، إنسان بقي على خشبة ثلاثة أيام وفي بطنه تحويشة العمر كما يقولون ونجا، وأشخاص كانوا في أفخر درجات هذه السفينة في غرف فخمة ماتوا غرقاً أي الرقم وصل إلى ثمانمئة إنسان غرقوا في هذه السفينة وغرقت في ثواني أقل من عشر دقائق كانت في قعر

البحر الأحمر، أقل من عشر دقائق يعني خطأ بعض التفسيرات حصل فاتجه باتجاه الجزر المرجانية فانشطرت شطرين فغرقت فوراً، فهي إن نشأ نغرقهم، شخص راكب طائرة فهو برحمة الله وبلطفه وأي خلل تسمع خبر سقوط الطائرة وموت جميع ركابها، في الأخبار حوادث طيران كثيرة ومات جميع ركابها، بالطيران إن نشأ نسقطهم، وفي البحر إن نشأ نغرقهم، وفي البر إن نشأ نصدمهم، فلا صريخ لهم، إنسان راكب سيارته بفضل الله عز وجل وبتوفيقه ورحمته، أي هناك الكثير من الحوادث، انفجار عجلة يموت كل ركاب السيارة، عجلة واحدة، إذا انفجرت العجلة الأمامية بسرعة فوق الـ120 تساوي حادث مميت لكل ركاب السيارة، أحياناً جمل يقع من عليه يدق عنقه، لو ركب جمل لو ركب حصان في حالات وفاة، بالسيارة وفاة، بالطيران وفاة، بالبواخر:

(وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44))

أي أنت سُمِحَ لك تعيش كذا سنة، لماذا لم يصبني أي حادث ؟ لأنك مسموح تعيش لسن معين، لماذا لم يحدث هذا الحادث ؟ لأن الله عز وجل كتب لك عمر معين:

إن الطبيب له علم يدل بـــه إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلتـــه حــار الطبيب وخانته العقاقير

* * *

من انتهى أجله يأتيه الموت لأتفه سبب:

عندما ينتهي الأجل تجد لأتفه سبب جاء الموت، الآن ربنا عز وجل سيشير بعد قليل إلى أقاويل الكفار قال:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(46))

أي لم يعد هناك تأثير، يا أخي الله عز وجل خالق الكون يقول لك، صح يوجد موت، يقول الموت حق، طب في شرع، يقول صح، إذاً لماذا لا تستقيم ؟ حتى الله يهديني، كلام فارغ، ليس لك أي حجة، الله عز وجل موجود، وهذا الكون يدل عليه، وهذا الكتاب كلامه وإعجازه يدل عليه، وهذا النبي نبيه وهذا الكتاب يدل عليه، في عندك إله له كلام وله نبي وله سنة إذاً لماذا لم تستقم ؟

المؤمن بنى حياته على العطاء والكافر بنى حياته على الأخذ:

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46))

إذاً لماذا لا تعاون الناس ؟ ادفع يا أخي أنت رجل غني:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ (47))

هذا منطق الكفار يا أخي، لا يكفي العباد إلا الله عز وجل، إذاً عاونه، له رب لا ينساه، هذا كلام ظاهره فيه تلبيسة، لكن باطنه فيه بخل..، لا يكفي العباد إلا رب العباد، إذاً الله عز وجل أمرك أن تعمل الصالحات.

امتحان الغني بالإنفاق و امتحان الفقير بالصبر:

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47))

الإنسان الله جعله غنياً ليتصدق، وجعله قوياً ليعاون الضعيف، وجعله عالماً ليعلّم، إذا الله أعطاك شيئاً ! الله عز وجل وصف المؤمنين أنهم:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

(سورة البقرة:الآية3)

فيقول الإنسان أنا ليس لي علاقة، الإنسان له رب لا ينساه، الله عز وجل لا ينساه عن طريقك أفقره وأمرك أن تعطيه، من أجل أن تمتحن أنت ويمتحن هو، هو بالصبر وتمتحن أنت بالإنفاق، فهذا منطق أهل الدنيا.

على الإنسان أن يتوب إلى ربه قبل أن يأتيه الموت فجأة و هو لا يعلم:

ثم يقولون استهزاءً:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48))

أحياناً الإنسان يستهزئ متى يا سيدنا ؟ هذا ليس سؤالاً هذا استهزاء:

(مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48))

قال تعالى:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49))

هو له قضية بقصر العدل ضد خصمه أثناءها مات أحد الخصمين، أثناء الحساب مات أحد المتحاسبين، أثناء مشادة ما مات أحد الطرفين وهم يخصمون:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

لا يتمكن من أن يكتب وصية ويتصل بأهله وهذا موت الفجاءة نعوذ بالله منه، لا وصية، ولا توبة، ولا إشارة، ولا عبارة، ولا تنبيه، ولا تبيين إطلاقاً:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 45-65 ، السعيد من اتعظ بآيات الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-08-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الخامس من سورة يس.

على الإنسان أن يتقي عذاب الدنيا بطاعة الله عز وجل:

وصلنا في الدرس الماضي من حيث التفصيلات لقوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

الحقيقة ربنا جلّ جلاله ذكر لنا بعض الشُبُهات التي يتعلق بها المعرضون، فحينما يُدْعَوْن إلى طاعة الله. كلمة

(اتقوا)

التقوى من الوقاية، والوقاية لا تكون إلا من الخطر، فالإنسان كيف يتقي عذاب الدنيا ؟ الدنيا فيها مذلات وفيها متاعب وفيها آلام لا يعلمها إلا الله، قد يسأل سائل لماذا جعل الله عز وجل طبيعة الحياة الدنيا قائمة على الهموم والأحزان والمشكلات والأمراض وضيق ذات اليد ؟ إن هذه المضايقات كلها من أجل أن يعود الإنسان إلى الله عز وجل، فحينما يُقال لهذا الكافر

(وإذا قيل لهم اتقوا)

أي اتق عذاب الدنيا بطاعة الله:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء:الآية213)

اتق عذاب النفس بالتوحيد، اتق الكفر بالإيمان، اتق العقاب بالطاعة، الإنسان إذا دعي إلى طاعة الله من أجل أن يقيه الله عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

من كان معذباً في الدنيا و لم يكن يعرف الله عز وجل دخل في عذاب آخر في الآخرة:

(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (45))

هناك تفسيرات كثيرة لما بين أيديكم وما خلفكم، لكن من أدق هذه التفسيرات وأقربها إلى المنطق:

(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (45))

في الدنيا:

(وَمَا خَلْفَكُمْ (45))

في الآخرة، الإنسان إذا كان معذباً في الدنيا، ولم يكن يعرف الله عز وجل، فإذا جاء الموت هل انتهى عذابه ؟ لا والله دخل في عذاب آخر.

على الإنسان أن يتقي عذابات الدنيا المادية و المعنوية:

هناك عذابان: عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، وهناك جنتان: جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، فهذه دعوة:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (45))

أي اتق أنْ تكون ذليلاً، اتق أن تكون متألماً، اتق أن تكون قلقاً، اتق أن تكون هائماً على وجهك معذباً مشتتاً، اتق كل عذابات الدنيا المادية والمعنوية:

(وَمَا خَلْفَكُمْ (45))

ما ينتظر الإنسان بعد الموت من آلام، من شقاء، من ندم شديد، من حريق في جهنم.

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

لأن رحمة الله خير مما يجمعون.

من اتق المحارم كان أعبد الناس:

الإنسان أحياناً يكون في كسب الرزق يبحث عن رزقه، أحياناً يتجاوز كسب الرزق إلى الجمع، يدخل إلى عالم الجمع، فالله يقول:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32))

(سورة الزخرف:الآية32)

لأن كل الذي تجمعه في الدنيا لن تأخذه معك إلى الآخرة، سوف تدعه في الدنيا شئت أم أبيت، فربنا عز وجل قال:

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

أي أنا أرحمكم في الدنيا بحياة هانئة مستقرة هادئة مطمئنة فيها رضا وفيها سرور، وأرحمكم في الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض، وثمن هاتين الرحمتين مجتمعتين أن تتقوا مابين أيديكم و ما خلفكم، أن تطيعوني، لذا اتق المحارم تكون أعبد الناس:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (13))

(سورة الحجرات:الآية13)

أدق مقياس لنجاح الإنسان هو طاعته لله عز وجل، قال هؤلاء (أهل الدنيا) حينما أعرضوا عن الله عز وجل وامتلأت أنفسهم بالشهوات الخبيثة، أصبحت الشهوات حجاب بينهم وبين الله، لأن حبك الشيء يعمي ويصم وحب الدنيا رأس كل خطيئة، إذاً هم هنا كما قال الله عز وجل:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

(سورة البقرة: الآية18)

كل إنسان محاط بآيات الله و هو في غفلة عنها لأن الشهوة حجاب بينه وبين الله:

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46))

والله أيها الأخوة إن الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، إن الآيات الكونية أو الآيات التي تتحدث عن أفعال الله عز وجل لا تعدّ ولا تحصى، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، حياتك كيف بدأت ؟ وكيف تنمو ؟ وما الأحداث الكبرى التي جاءت ؟ ولماذا جاءت ؟ وما الحكمة من مجيئها ؟ هذه آيات دالة على وجود الله وعلى وحدانيته وعلى كماله، أحياناً بعض الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للإنسان يلقي في روعه أن هذه الشدة من أجل كذا، هذه آية، ما حولك من آيات دالة على وجوده وعلى كماله وعلى وحدانيته هذه أيضاً آيات، فالآيات هي العلامات الدالة على وجوده، والدالة على كماله، والدالة على وحدانيته، وما أكثر الآيات في نفسك، آيات في الآفاق، آيات في الكون، آيات في طعامك، آيات في شرابك، آيات في أفعال الله، آيات فيما يعامل الله به عباده، أنت محاط بالآيات بل أنت غارق بها، لكن هذا البث المستمر محتاج إلى جهاز استقبال فإذا لم يستقبل الإنسان هذه الآيات أنى له أن يؤمن بها، قد يكون في وسط الآيات، وقد يكون غارقاً بالآيات، وقد تكون الآيات من حوله بشكل عجيب، ومع ذلك هو في عمى أو في غفلة لأن الشهوة حجاب بينه وبين الله، وهذا مصداق قوله عز وجل في أول السورة:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9))

هنا جعلها تحصيل حاصل.

من يعرض عن ذكر الله يعمى عن سعادة الدنيا و الآخرة:

حينما أعرض الإنسان عن الله عز وجل أصبحت الشهوات كالأغلال قيدته وعطلت حركته وأعمت بصيرته إذا هو في عمى عن سعادة الدنيا وفي عمى عن سعادة الآخرة، إذاً:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45))

الإنسان إما أن يرحم في الدنيا والآخرة وإما أن يعذب في الدنيا وفي الآخرة:

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4))

آيات الله يسوقها للإنسان لحكمة أرادها هو:

أنا لا أريد أن أفصل فيه لكن كلكم يعلم أن ما يجري حولنا من أحداث إن هي إلا آيات صارخات:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112))

(سورة النحل:الآية112)

ما يجري من زلازل، من أمطار غزيرة أحياناً، من مجاعات، كل هذه الآيات إنما يسوقها الله عز وجل لحكمة بالغة، وفوق هذا وذاك يلقي ربنا في روع المؤمن أن هذه الظاهرة من أجل كذا لقوله تعالى:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ (11))

(سورة التغابن:الآية11)

لسر المصيبة.

امتحان الله عز وجل الغني بالغنى و الفقير بالفقر:

الآن الشبهة الثانية:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(47))

الله عز وجل أغنى الغني وأمره أن يعطي الفقير، وأفقر الفقير لحكمة أرادها وأمره أن يتجمل وأن يتعفف، فحكمة الله عز وجل لا يلغيها التكليف، أو التكليف لا يلغي حكمة الله عز وجل، لا حكمة الله تلغي التكليف، ولا التكليف يلغي حكمة الله، إذاً حينما يُؤمر الغني أن يعطي الفقير فلحكمة بالغة أرادها الله عز وجل، الغني امتحن بالغنى والفقير امتحن بالفقر، والأغنياء أوصيائي والفقراء عيالي ومن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي:

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47))

استهزاء الكفار بالموت و هو أسرع مما يتيح للإنسان أن يوصي:

الآن هناك استهزاء بليغ، أي:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ (48))

متى: حرف استفهام أو اسم استفهام لكن الاستفهام هنا خرج عن قصده الأصلي إلى استفهام إنكاري يشبه الاستهزاء، أي متى... متى يوم القيامة ؟ متى الوقوف بين يدي الله عز وجل ؟ متى الجنة ؟ متى النار ؟ هذا ليس استفهاماً عادياً بل استفهام إنكار واستفهام استهزاء:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49))

أي الله عز وجل قادر أن يجعل الموت أعجل من أن توصي، أسهل شيء يفعله الإنسان أن يقول كلمة: البيت لفلان، التوصية سهلة جداً ومهمة جداً وضرورية جداً، ومع ذلك قد يأتي الموت بأسرع مما يتيح للإنسان أن يوصي قال:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (49))

صرخة واحدة تزهق أرواحهم.

العاقل من يعدّ عدته قبل أن يدركه الموت:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

دقق بالرجوع إلى البيت، الإنسان يخرج من البيت ويرجع، يسافر ويرجع، يسافر للدراسة أربع سنوات ويرجع، يسافر يقيم ببلد عشر سنوات ويرجع، يغترب ويرجع، موضوع الرجوع للبيت أمل كل إنسان، لكن الميت إذا خرج من بيته لن يرجع، لا يعود إلى بيته، أثاث بيته، مقتنيات بيته، ما أودعه في هذا البيت من قطع نفيسة جداً، مقتنياته الخاصة، ممتلكاته، مكتبه، مزرعته، قصره:

(وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يعدّ العدة لهذه الساعة والتي يغادر دون أن يرجع، يغادر بلا عودة، خروج بلا عودة.

لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا القلب السليم:

كنت أقول للأخوة الأكارم: الإنسان يدخل إلى المسجد ليصلي أو ليحضر مجلس علم، لكن لابد له من أن يدخل مرة ليصلى عليه، والبطولة أن تعد لهذه الصلاة، الإنسان يخرج من بيته قائماً ولابد من أن يخرج مستلقياً مرة واحدة عند الموت، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لابد من نزول القبر.

أيها الأخوة الأكارم: هذه الآية ! الإنسان عندما يفكر بهذه الواقعة التي لابد من أن تقع، ابتعدت أو اقتربت، طالت أو قصرت، يكون بأعلى درجات الذكاء وأعلى درجات العقل، لأن هذه الساعة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَلاهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ قَالَ: مَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلا تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ))

[الترمذي و أحمد و الدارمي عن أبي سعيد]

عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارق

***

و من عدّ غده من أجله فقد أساء صحبة الموت.

من أخذ إلى الله عز وجل انتهى اختياره وختم عمله:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (49))

سبحان الله قد يموت الإنسان بعد مرض طويل، وقد يبقى عشر سنوات في الفراش ويحار فيه الأطباء ويتمنى أقرب الأقرباء له أن يموت ويخفف الله عنه وهذا القلب ينبض، وقد يقف القلب لأتفه سبب، قد يموت الإنسان وكأنه خطف، وقد يموت بعد معاناة طويلة، فيا ترى من أدراني أن نهاية أجلي سوف تكون بعد معاناة طويلة أو انتقال مفاجئ ؟ موت الفجأة أو الفجاءة فالإنسان مادام ممكن أن يموت بعد معاناة طويلة وممكن أن يموت فجأة، إذاً موت الفجأة للإنسان إذا ما كان مستعداً، ما كان تائباً، ما كان ضابطاً أموره، مؤدي الحقوق، مؤدي الواجبات، موت الفجأة مصيبة كبيرة، لأنه مغادرة بلا استعداد. فربنا عز وجل يشير إلى ذلك فيقول:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ (49))

تأخذهم إلى الله وإذا أخذ الإنسان إلى الله عز وجل انتهى اختياره وختم عمله وتعطل كل شيء.

جدال الكفار في شأن البعث و الرسالة:

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49))

بعض العلماء قال **" يخصمون في شأن البعث والرسالة "**، يا ترى في موت ؟ ما في موت ؟ في جنة؟ ما في جنة ؟ ما هو دليلك ؟ قال لك هذا القرآن ليس لهذا الزمان**!!!** إنسان يتناقش مع إنسان بأحقية الموت ثم جاءه ملك الموت ليخطفه فمجيء ملك الموت ونقله إلى الآخرة أبلغ جواب على مناقشته، مرة خبير أجنبي يتناقش مع بعض المرافقين، فالخبير الأجنبي لا يؤمن بوجود الله إطلاقاً، يتناقش مع بعض المرافقين، فجاء ذكر لفظ الجلالة بأن الأمر بيد الله، فامتعض امتعاضاً شديداً جداً وقال إن هذا كله خرافة، وبقدرة قادر دخل طرف ثوبه بعجلة مع شريط فارتطم في السقف ونزل ميتاً.

أي الموت أسرع من ذلك وهو يناقش بوجود الله عز وجل فحدث له حادث جعله من أهل الآخرة مباشرة، قصص كثيرة جداً أثناء المناقشة جاءت الصيحة فأخذته

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

وهم يخصمون: آية لها عدة معان منها:

1 – يختصمون في شأن البعث و الآخرة و الموت:

المعنى الأول: يختصمون في شأن البعث وشأن الآخرة وشأن الموت وشأن ما بعد الموت.

2 - هم في تجارتهم و خصوماتهم يأتي ملك الموت فيخطف هذا الإنسان:

وفي معنى آخر: هم في تجارتهم، وفي خصوماتهم، وفي قضاياهم، وفي منازعاتهم، وفي قيلهم وقالهم، وفي تحزباتهم، في هذه المعمعة، يأتي ملك الموت فيخطف هذا الإنسان وقد يخطفه وهو في قضية مرفوعة إلى القضاء يظهر قرار صغير: تشطب الدعوى لموت المدعي، اثنتا عشرة سنة دعوى كلفت مئات مِئات الألوف، ومحامين، وقضايا، ومذكرات، وانتقلت من محكمة لمحكمة، آخر شيء تشطب الدعوى لوفاة المدعي:

(وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49))

فالموت هو نهاية كل حي.

مادامت مغادرة الإنسان سريعة عليه أن يستعدّ لهذا اليوم:

قال:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

أعرف رجلاً وهو في محله التجاري، انحنى رأسه وفارق الحياة، قال الأطباء: إنها سكتة دماغية، وهو غائص في أمور التجارة إلى أقصى حد، بايع وشاري شفهي دون عقود، بقي أهله سنوات وسنوات بعد وفاته وهم يخلصون هذه العلاقات المالية، ما تمكن أن يقول مَنْ شريكه ؟ ولا تمكن أن يقول أنّ شريكه له هذه النسبة ؟ ولا تمكن أن يقول هذا البيت لمَنْ ؟ دافع دفعات وقابض قبضات وعامل شركات كله شفهي، بقي أهله سنوات طويلة وهم يحلون هذه المشكلات، أي:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50))

مادامت المغادرة سريعة وقد تكون فجائية فلابد من الاستعداد لهذا اليوم، عين العقل أن تستعد لهذا اليوم، والإنسان لا يقول أنا صغير، أنا شاب، أحداث الموت تؤكد أن الموت لا يفرق بين شاب وشيخ، هناك رجل أعرفه عمره حوالي 32 سنة، شاب في ريعان الشباب له زوجة صار معها تشمع في الكبد، وصار معها استسقاء، فالأطباء يخففون عنه أن موتها قريب، وأنّ أجلها انتهى وانتهت حياتها، موضوع ساعات، موضوع أيام، وكان موظفاً أنا كنت حاضراً مرة فدخل الآذن وقال: مات، فقلنا: ماتت ؟ فقال: لا مات زوجها، نحن فكرنا الزوجة توفت لكن المفاجأة أن الزوج توفي، كان عمره 32 سنة هو ينتظر وفاتها فإذا هو يسبقها.

العاقل من يحتاط للموت قبل مجيئه:

إذاً أحداث الموت سريعة جداً تأتي بسبب أحياناً وأحياناً بلا سبب، مرة رجل ورث مبلغاً فلكياً، حوالي ألف مليون، أحد الورثة نصيبه من هذا الإرث تسعين مليون، فسعى ليلاً نهاراً ليحصّل هذا المبلغ وبقي ستة أشهر يسعى سعياً حثيثاً لتجميع هذا المال ولأخذه، دخل إلى الحمام وهو يغسل يديه وقع ومات ولم يقبض درهما من هذا المال، الموت سريع جداً.

لذلك الإنسان العاقل يحتاط للموت قبل مجيئه، السمكة العاقلة لما سمعت الصياد يقول إنه سيعود ليصطاد هذه السمكات قال: السمكات ثلاث كيسة و أكيس منها وعاجزة أما الأكيس فإنها ارتابت وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، خذوا هذه القاعدة، والأقل عقلاً حين وقوعها، والغبي الجاهل لا يحتاط لا قبل وقوعها ولا أثناء وقوعها و لا بعد وقوعها، هذا العاجز، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

[ابن ماجه عن عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

الحقيقة الأماني لا أعتقد واحداً إلا ويتمنى أن يكون من أهل الجنة، لكن ربنا عز وجل لا يتعامل مع عباده بالأماني إطلاقاً لقول الله عز وجل:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ (123))

(سورة النساء: الآية123)

ربط الرجاء بالسعي والعمل وأي رجاء بلا عمل تمنيات باطلة:

لذلك: الله يغفر لنا، الله عز وجل كريم إن شاء الله يغفر لنا ويسامحنا، والله يدخلنا الجنة، هذا كلام إذا ما في معه عمل، قد يقول قائل ما الدليل على ذلك ؟ اسمعوا الدليل: ربنا عز وجل لخص القرآن كله في آية واحدة:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (6))

(سورة فصلت:6)

انتبهوا الآن:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف:الآية110)

الله عز وجل بهذه الآية ربط الرجاء بالسعي والعمل، وأي رجاء بلا عمل تمنيات باطلة لا شأن لها عند الله إطلاقاً قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف:الآية110)

أي لا يشرك بالعبادة أي ليطع الله وحده، والطاعة لله وحده تجعل الطريق إلى الله سالكا هي الاستقامة.

الاستقامة و العمل الصالح أساس الإيمان:

أما الذي يدفعك إلى طريق الإيمان:

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف:الآية110)

فالاستقامة تمهيد للطريق والعمل الصالح حركة إلى هذا الطريق، فأي رجاء من دون عمل فهو رجاء الكسالى ورجاء المتمنين، والتمنيات كلها لا شأن لها عند الله إطلاقاً:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51))

الأجداث جمع جدث وهو القبر، معنى ينسلون فلان له نسل أي شيء خرج منه، كيف أن هذا الطفل يخرج من بطن أمه فهو من نسلها، وكأن القبر رحم يخرج منه الميت كما يخرج الجنين من بطن أمه.

للصور نفختان: نفخة لا تبقي حياً ونفخة لا تبقي ميتاً:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (51))

هناك نفختان للصور: نفخة لا تبقي حياً ونفخة لا تبقي ميتاً، جميع الأحياء يموتون في النفخة الأولى، وبعد حين تنفخ النفخة الثانية فيبعث الله كل الأموات:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (51))

طبعاً هذه النفخة الثانية:

(فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51))

حشر الناس يوم القيامة للحساب:

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة:30-36)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا (52))

فيقول الملائكة:

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52))

النقطة الدقيقة أيها الأخوة أن الناس تسمع في الدنيا أنه يوجد آخرة، ويوجد جنة، و نار، و حساب، و عذاب، و صراط مستقيم فوق جهنم، و نفخة بالصور أولى، و نفخة ثانية، و حوض، و صحف نشرت هذا كله يسمعه، الويل لمن لا يصدقه.

الويل لمن لا يأخذ أحداث يوم القيامة مأخذ الجد:

تستمع في القرآن إلى الجنة والنار والناس في جهنم يتصايحون وهم يصرخون فيها وأهل الجنة ونعيمها على سرر متقابلين هذه المشاهد والصور في الجنة والنار وهذا الوعد الذي وعد الله به عباده المؤمنين والوعيد للكافرين هذه كلها أخبار لم تقع بعد، مادام الله هو المخبر، خالق الكون هو المخبر، فالويل لمن لم يصدقها، الويل لمن لا يعبأ بها، الويل لمن لا يأخذها مأخذ الجد:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا (52))

عذاب النفس يوم القيامة أصعب من عذاب الحريق لأنها ضيعت فرصتها الأبدية

شخص وهو بالعام الدراسي يفكر أن الأمور من دون امتحان، كله دعاية لا يوجد امتحان، و لا يوجد شيء، لكن عندما يقرع جرس الامتحان، ويدخل مع الطلاب، وتوزع أوراق الأسئلة، ولا يفهم شيئاً يكتبه، هل يوجد كفالة عليه أو بعثة أو مشكلات ؟ عندئذ يحق الحق:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))

الله يحمينا من الخزي والعار يوم القيامة، كل الخلق بين يدي الحق وأعمال الخلق كلها مسجلة تعرض عليهم بأدق تفاصيلها، أي الإنسان عندما يعاين عمله السيئ يذوب، لذلك ورد في بعض الأحاديث: أن العار يلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب، أي عذاب الحريق لا يحتمل، والعذاب الذي لا يقل عنه عذاب النفس، حينما تشعر أنها ضيعت الآخرة كلها، ضيعت فرصتها الأبدية الوحيدة خسرت نفسها.

فرق كبير بين من يذهب إلى الله وفداً و بين من يأتيه مهاناً:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))

راقب أحياناً بعض صور المجرمين ملامح صور المجرم حينما يصور وهو في قفص الاتهام، أولاً وجههم كالح، ثانياً بصره كسير، عينه للأرض لا يستطيع أن ينظر في المصور، هذه لحظة الندم ومشاعر الندم مشاعر مؤلمة جداً، أحياناً الإنسان ببعض حالات الندم ينتحر لا يحتمل شعور الندم:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53))

والله عز وجل قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص:الآية61)

هناك مسافة كبيرة جداً بين إنسان يطرق بابه، يلقى القبض عليه، تكبل يديه مهاناً معذباً، وبين إنسان يطرق بابه فتأتيه بطاقة دعوة بيضاء مذهبة، وفيها عبارات الشكر والامتنان لو أنه حضر الدعوة، فيذهب في الوقت المناسب فيجد الاستقبال الحار، والمكان المريح، والطعام الطيب، والمؤانسة، والابتسامة، والتكريم، والهدايا، شتان بين من يذهب إلى الله وفداً وبين من يساق مجرماً، فرق كبير.

إذا لم يكن الإيمان باليوم الآخر أحد ركائز الإنسان فمشكلته كبيرة جداً:

لذلك أحد العلماء سئل كيف القدوم على الله ؟ قال: أما المؤمن فكالغائب يرد إلى أهله، وأما الكافر فالعبد الآبق ردّ إلى مولاه.

تلاحظون ملاحظة أن ربنا عز وجل في أكثر الآيات يقول: آمن بالله واليوم الآخر.

أي إذا لم يكن الإيمان باليوم الآخر أحد ركائز تصوراتك، أحد ركائز عقيدتك، أحد ركائز حركتك في الحياة، فالمشكلة كبيرة جداً، قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تأخذ، قبل أن تعطي، قبل أن توافق، قبل أن تغضب، قبل أن تضرب، قبل أن تُطلِّق، قبل أن تتزوج، قبل أن تشارك، قبل أي حركة، تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، وهو يسألك لماذا فعلت هذا يا عبدي ؟ الشهوات انتهت، الميزات المتع انتهت، المباهج انتهت، بقيت المسؤولية.

كل إنسان محاسب يوم القيامة على عمله:

لذلك الميت حينما يُشَيَّع في الجنازة، يشيع إلى قبره، ورد في بعض الأحاديث: **" أن روحه ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي جمعت المال مما حلّ وحرم فأنفقته في حله وفي غير حله فالهناء لكم والتبعة علي ".**

الكافر الذي أعطاه الله مالا فأنفقه على ملذاته وعلى شهواته يسأله الله يوم القيامة يقول له عبدي أعطيتك مالاً فماذا فعلت فيه ؟ سؤال كبير !!

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[الدارمي عن معاذ بن جبل]

والله أيها الأخوة: لو واحد منا سيسأل من قبل إنسان مهم لا ينام الليل، لو قيل له تعال إلينا بعد يومين فقط، لا ينام الليل لأنه سيسأل ماذا قال ؟ ماذا تكلم ؟ ماذا فعل ؟ لا ينام، يقول: ما غفلت، إذاً رب العالمين رافع السماوات بغير عمد سوف تقف بين يديه وسوف يسألك عن كل أعمالك ولا تستطيع أن تكذب أبداً.. الآن بعد قليل تأتي الآية يوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم... كيف بك أيها الإنسان إذا عرضت عليك أعمالك كلها عمل عَمل، لماذا فعلت كذا ؟

حشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة:

فيا أيها الأخوة نصيحة لوجه الله عز وجل أنصح بها نفسي قبلكم، قبل أن تفعل شيئاً تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، ويقول لك: يا عبدي لماذا فعلت كذا ؟ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ لا يوجد كذب، قال: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال: ألم تعلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يقول لعبد آخر قد أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي أنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، يقول: أنا الحافظ لأولادك من بعد.

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة: فريق جمع المال من حرام أنفقه في حرام فيقال خذوه إلى النار، حسابه سريع جداً، وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام، حرام حَرام إلى النار، حلال حرام إلى النار، حرام حلال إلى النار، بقي الصنف الرابع وفريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال قال هذا قفوه فاسألوه هل تاه بماله على عباد الله؟ هل قال أصحابه يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ هل شغله ماله عن فرض صلاة ؟ عن مجلس علم ؟ عن عمل صالح ؟ عن واجب ديني ؟ فالنبي كان بليغاً قال: فما زال يسأل ويسأل انتظر، انتظر، قائمة أسئلة فتركه يسأل وذهب، فما زال يسأل ويسأل.

كل عمل يعمله ابن آدم محفوظ عند الله عز وجل:

إذاً:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(54))

أي دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء هذا المستوى تسأل عنه..، قشة نزعتها من المسجد وضعتها في جيبك ما قيمة هذا العمل ؟ قال الله:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: الآيات7-8)

نملة أثناء الوضوء حاولت ألا تغرق بالماء، نملة أنقذتها من الغرق، هذا العمل محفوظ عند الله عز وجل، فما قولك بما هو فوق ذلك ؟ دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، امرأة تدخل النار من أجل هرة، وامرأة أخرى يغفر لها من أجل كلب سقته كاد يموت عطشاً:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

هذا هو القرآن الكريم.

لا يرقى الإنسان إلى الخالق سبحانه إلا إذا طبق كل آية سمعها:

أحد الأعراب سأل النبي الكريم وقال: " عظني وأوجز ـ أو لا تطل ـ فتلا عليه الآية الكريمة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

فقال هذا الأعرابي: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: **فَقُهَ الرجل ".**

أيها الأخوان تعليق على هذه الآية كل واحد منا يعرف من القرآن أو الحديث أضعاف أضعَاف أضعاف ما هو مطبّق له، فالمشكلة ليست في زيادة العلم، المشكلة في تطبيق ما تعلم، ماذا عملت بما علمت ؟ هنا المشكلة، نتعلم كل درس أحلى من الثاني، أخي والله الدروس حلوة، ليس هنا القصيد المشكلة ماذا عملت فيما علمت ؟ إذا الإنسان وطّن نفسه كما فعل الصحابة ألا ينتقل من آية إلى أخرى حتى يطبقها يرقى إلى الله سريعاً، رقي بدرجات سريعة جداً لا تنتقل من شيء حتى تطبقه:

(فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54))

فالفوز كل الفوز، والنجاح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والعقل كل العقل، والذكاء كل الذكاء، أن تكون من أصحاب الجنة.

وصف أصحاب الجنة:

اسمعوا الآن وصف أصحاب الجنة:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55))

قال العلماء **" مشغول بإكرام الله له، مشغول بضيافة الله له، مشغول في هذا النعيم المقيم، مشغول في النظر إلى وجه الله الكريم "**، ورد في بعض الأحاديث:

((أن المؤمن ينظر إلى وجه الله يوم القيامة لأن النبي يقول إنكم سوف ترون ربكم يوم القيامة فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة، في بالجنة حور عين))

[ورد في الأثر]

ألم يقل أحد الصحابة لزوجته عندما طلبت منه شيئاً، قال: اعلمي يا أمة أنه في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك.

أعلى شعور للإنسان يوم القيامة النظر إلى وجه الله الكريم:

يوجد في الجنة حور عين، و أنهار من عسل مصفى، و ثمار قطوفها دانية، الفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، و أنهار من لبن لذة للشاربين، و لبن لا يتغير طعمه، وجنات تجري من تحتها الأنهار:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة: الآيات19-24)

وأبلغ من كل ذلك أن تنظر إلى الله عز وجل، ومع هذه النظرة إحساس بأن الله راض عنك، وهذا أعلى شعور وأشد المشاعر إسعاداً للإنسان.

لجنة أساسها الطلب و الدنيا أساسها العمل:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55))

أي على الأرائك في إكرام ما بعده إكرام:

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ (56))

زوجته التي في مستواه فإن كانت في الدنيا زوجته في مستواه كانت زوجته يوم القيامة، وإلا فله زوجة تكون رفيقته في الجنة:

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57))

بالمناسبة نظام الجنة نظام يختلف اختلافاً كلياً عن نظام الدنيا، فنظام الدنيا بالسعي، ونظام الجنة بالطلب، أنت في الدنيا لا يمكن أن تصل إلى شيء إلا ببذل جهد واضح، هذا السعي، إن الله كتب عليكم السعي في الدنيا، فتحتاج إلى مهنة، إلى عمل، إلى كسب مال، إلى شراء بيت، إلى تجهيز البيت، إلى زواج، إلى مهر، إلى شراء بيت في مصيف، يحتاج إلى مال، إلى جهد إضافي، فكل شيء تناله في

الدنيا نظير تعب وجهد حقيقي، لكن في الجنة يكفي أن يخطر في بالك شيء ليتحقق فوراً، الجنة أساسها الطلب، الدنيا أساسها العمل.

إكرام الله عز وجل للإنسان في الآخرة يفوق كل إكرام:

قال:

(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57))

أي ما يدعون أي ما يطلبون، أي طلب يطلبه المؤمن يتحقق فوراً، إذاً هو مشغول بإكرام الله له، ومشغول بنعيمه مع زوجته، ومشغول بما يقدم له من طعام نفيس وفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفوق كل هذا تأتي قمة السعادة:

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

أي إكرام الله له يفوق كل إكرام، أحياناً تدخل بيت فيه طعام طيب لكن صاحب الدعوة مقطب تقطيباً، صاحب الدعوة يذهب لذة الطعام، لكن إذا دخلت إلى بيت وجلست على أريكة وثيرة وقدم إليك الشراب البارد، جاء الطعام النفيس، جاءت الفواكه ودائماً صاحب البيت يقول: أهلاً وسهلاً، شرفتنا، نورتنا، إيناس صاحب البيت لا يقل إسعاداً لك عن الضيافة التي يقدمها لك، فربنا عز وجل في هذه الآيات الثلاث:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55))

مشغول في نعيمه المقيم:

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ(58))

أعظم شيء يذوقه الإنسان يوم القيامة أن يكون محجوباً عن ربه:

لكن أعظم شيء يذوقه يوم القيامة أن يكون عن ربه محجوباً:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين:الآية15)

حيث أنّ الحجاب من أشد أنواع العذاب:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

فرق كبير بين إنسان في ضيافة الرحمن و إنسان مُبعد عن الله:

إنسان في ضيافة الرحمن، خالق الكون يسلم عليه:

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

أنت إذا شخص سلم عليك ذو شأن تصبح أسبوعاً و أنت فرح ؛ صافحني وتصورت معه ؛ انظر الصورة ذو شأن، فإذا سلّم عليك النبي بالمنام تبقى أشهر وأنت في نشوة هذا المنام، هذه الرؤية الصادقة، فكيف وخالق الكون يقول لك:

(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

خالق الكون يسلم عليك، أما المجرم:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

أبعدوا عنهم المجرمين، لا يوجد خير أبداً، أي كل حركاته بالمال، لا يتحرك حركة إلا بأجر باهظ، تحس أنه يذبحك بهذا الأجر، هكذا أهل الدنيا شيء لله لا يوجد، يغادر الدنيا ولم يترك عملاً صالحاً واحداً، حتى لو خدم له عمولة، حتى خدماته بغير اختصاصه يريد عليها أجرة، هذا الذي يتحرك بالأجر الباهظ وكل شيء حاسبه...، الله عز وجل ألم يقل كذلك ؟

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (245))

(سورة البقرة: الآية245)

أي عمل صالح للإنسان هو قرض لله عز وجل:

يا أخوان أي عمل صالح هو قرض لله عز وجل، خدمت إنساناً، علمت إنساناً عاونت إنساناً، نصحت إنساناً، دللت إنساناً، أي بذلت من وقتك، من جهدك، من طاقاتك، من فكرك، من عضلاتك، من مالك، هذا كله قرض حسن لله عز وجل. أنت إذا بذلت خدمة، بذلت لإنسان شيئاً أعطاك ثمنها سعراً باهظاً، لو فرضنا معك حاجة ثمنها عشر ليرات بعتها بمئة ليرة بألف، لكن لو أنك أقرضتها لله عز وجل لجاءتك السعادة الأبدية مقابلها، فلذلك أخسر إنسان هو الذي يتقاضى عن أعماله الصالحة أجراً.

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59))

هذا هو الشقاء، بيته اشتراه بعشرين ألف صار ثمنه 25 مليون، بيته بالجنة، لا ليس بيته بالجنة، سوف يغادر الدنيا إلى دار الحساب، والحساب دقيق، فالبطولة أن تبني قصراً في الجنة، البطولة أن تحتل عند الله مقعد صدق، البطولة أن تكون من أصحاب الجنة، أن تكون في شغل متفكه، أنت وزوجتك في ظلال

على الأرائك، أما إذا الإنسان حصل على الدنيا ولم يعبأ إن كان من حلال أو حرام، ولم يعبأ إن كان مستقيماً أم منحرفاً، ثم جاء ملك الموت فهو في خسارة كبيرة.

نصيحة خالق الكون للإنسان ألا يتحرك بوسوسة من الشيطان:

الآن العتاب الإلهي:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (60))

الشيطان ماذا يعمل ؟ قال: إنما يأمر بالفحشاء، الشيطان يخوفك، يقول لك على الله ما لا تعلم، يخوفك من العمل الصالح، من طاعة الله عز وجل:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60))

خالق الكون نصحك في القرآن كله ألا تتحرك بوسوسة من الشيطان، أن راقب الناس فتجد خصوماتهم داخل فيها الشيطان، فمعظم حالات الطلاق أساسها الشيطان، تجد الشيطان يحمس الزوج ويكرهه بزوجته، ويحمس الزوجة ويكرهها، يزيد الشيطان البيت جحيماً، لو في البيت صلاةً لما صار هذا الشيء، لو فيه قرآن ما صار هذا الشيء، لو فيه طاعة لله ما صار هذا الشيء، لأن الرحمن يكون قد دخله.

الناس نوعان شيطاني و رحماني:

الناس نوعان: شيطاني و رحماني، الشيطاني: يتحرك بدافع الشيطان، اضربه مثلاً، كُلْ ماله، دائماً في دوافع عدوانية، المؤمن يقول لك: سامحه، عاونه، اعف عنه، فهنيئاً لمن يتحرك بإلهام الملك، والويل لمن يتحرك بوسوسة الشيطان:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(61))

هناك أدلة كثيرة، فمثلاً عندما ترى إنساناً تدمر نتيجة كسب المال الحرام، أو العدوان، أو الانحراف الأخلاقي، دُمِّرَ وفضح، أفلس مثلاً، أو حكم عليه بالسجن، أو أعدم، قل هذا من عمل الشيطان. فمسافة كبيرة جداً بين إنسان رحماني يهتدي بهدي الله عز وجل وبين إنسان الشيطان يؤزه أزاً.

من تمسك بكتاب الله و سنة نبيه فلن يضل أبداً:

(وَأَنِ اعْبُدُونِي (61))

يا رب كيف نعبدك ؟

(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61))

هذا منهج القرآن فيه كل شيء، والسُنّة فيها كل شيء، عندك الكتاب والسنة، ما إن نتمسك بهما فلن نضل أبداً، معك منهج من خالق الكون، معك تعليمات الصانع، معك دستور، مع قانون، معك مفتاح السعادة، معك مفتاح السلامة، معك نور مبين مع حبل متين، معك حصن حصين هو كتاب الله، انظر هذه الآية:

(وَأَنِ اعْبُدُونِي (61))

كيف يا رب ؟

(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62))

السعيد من يقرأ القرآن الكريم و يتعظ بآياته:

ألم تر أمماً دمرها الله عز وجل، شعوباً فسقت فأهلكها الله عز وجل، أمما ذات حضارة عريقة انتهت وطويت صفحاتها، أين هم ؟ هم أسرى أعمالهم، الله عز وجل قال:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا (46))

(سورة غافر:الآية46)

مثلاً: الفراعنة مضى على دمارهم 6000 عام وكل عام فيه 365 يوم وباليوم مرتين، والخير لأمام:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62))

الآن العالم الشرقي والعالم الغربي يعاني من أمراض الانحرافات الأخلاقية، الآن هناك مليون إصابة إيدز بالغرب، بينما من يحمل المرض يقدر عددهم بعشرين مليون حامل لمرض الإيدز، والتقدير لعام ألفين أن يكون عدد الإصابات 15 مليون إصابة غير الحاملين لهذا المرض، فهو مرض مخيف أساسه الانحراف:

(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا (62))

أمماً، شعوباً، قروناً:

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64))

هذا هو الجزاء.

فرق كبير بين من صدق الله عز وجل و بين من كذب بالقرآن الكريم:

أيها الأخوة الكرام: هذا كلام خالق الكون، هذا الكلام لم يحصل بعد، ربنا عز وجل رحمة بنا ذكره لنا قبل أن يقع كي نتلافى هذه الأخطار الوبيلة، لذلك السعيد يقرأ القرآن ويتعظ بآياته، فلعل الله عز وجل ينجيه من مغبة تقصيره أو انحرافه، فشتان بين من صدق الله عز وجل واتقى النار وبين من كذب بهذا القرآن فجاء بهذا الموقف العصيب الحرج، وقيل له:

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64))

السعيد من جعل عمله وفق الشرع والشقي من حاد وانحرف ودفع الثمن باهظاً:

الإنسان أحياناً يكون طليق اللسان، ذكي جداً، يتمكن من أن يقنع الناس بموقفه المنحرف، فهذه الطلاقة وهذا الذكاء وهذا اللسان وقوة الحجة لا تنفعه يوم القيامة إطلاقاً، مصدر قوة الكافر أحياناً طلاقة لسانه، فلسفته، تعمقه، يقنع أنه على حق، فربنا عز وجل في هذا الموقف العصيب:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

تعرض أعمال الإنسان عليه عملا عملاً، لسانه معقود:

(نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

فلذلك يا أخوان قبل أن تفعل شيئاً تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، وهذا اليوم لابد من أن يأتي مهما طال الأمد، لابد من أن نقف جميعا لنسأل عن كل أعمالنا، فالسعيد من جعل عمله وفق الشرع، والشقي من حاد وانحرف ودفع الثمن باهظاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 66-77 ، السمع و البصر و الفؤاد من آيات الله الدالة على عظمته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-08-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس السادس من سورة يس.

الله عز وجل خلق للإنسان هذه العين ليرى بها آياته الدالة على عظمته:

مع الآية السادسة والستين وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لطمَسْنَا عَلَى أعْيُنِهِمْ فاسْتَبَقُوا الصِّرَاط فَأنّى يُبْصِرُونَ (66))

هذه الآية أيها الأخوة معناها الظاهري واضح، لو أن الله سبحانه وتعالى طمس على أعين الناس أي ألغى بصرهم، ألغى أعينهم، ألغى هذه القدرة على الرؤية لتاهوا وضلوا ولاستبقوا وتزاحموا.

هذا معناها الظاهر، لكن ما معناها الدقيق العميق ؟ ما معناها السياقي ؟ أي أيها الإنسان إذا توهمت أن الله خلق مؤمناً وخلق كافراً وأنه أراد من الكافر أن يكفر وأنه خلقه كافراً ولا جريرة له بذلك، إذا توهمت أن الله أجبر الإنسان على الكفر، إذا توهمت ذلك فلماذا أعطاه عيناً يرى بها الآيات ؟ لماذا أعطاه سمعاً يسمع به الحق ؟ لماذا أعطاه عقلاً يكشف به الحقائق ؟ أليست هذه العين المبصرة دليلاً على أن الله خلق العين لترى بها آياته الدالة على عظمته ؟ أليست هذه العين نافذة تطل بها على العالم الخارجي ؟

لو شاء الله عز وجل للإنسان الضلال لطمس على عينه:

لو أن الله عز وجل ما أراد لك الهدى ! لو أنه أجبرك على الضلال، لو أنه أراد لك الضلال، فلماذا هذه الحواس الخمس، لماذا ؟

هذا الكون الذي يطفح بالآيات الدالة على عظمة الله عز وجل:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطمَسْنَا عَلَى أعْيُنِهِمْ (66))

لو نشاء لهم الضلالة، لو نشاء لهم العمى، لطمسنا على أعينهم، هذه العين التي زودنا الله بها، والله أيها الأخوة لو أمضينا كل حياتنا في كشف دقائقها ما استطعنا.

الطبقة القرنية الشفافة التي تتغذى عن طريق الحلول وحدها، كل غذاء الجسم البشري ينتقل عن طريق الأوعية الشعرية إلا قرنية العين فالخلية الأولى تأخذ حظها وحظ جارتها من أجل أن تكون الرؤية واضحة جلية نقية، من جعل هذه القرنية شفافة شفافية مطلقة ؟ ومن جعل تحتها القزحية تأتمر بأمر لا علم لك به ؟ تضيق وتكبر بحسب قوة الضوء، أنت بآلة التصوير تتحكم بفتحة الآلة، فإذا أخطأت بفتحتها احترقت الصورة، والآلات الحديثة جداً تزيد الضوء عن طريق توسيع الفتحة وتقلل منه عن طريق تضييقها بشكل أوتوماتيكي.

هذه العين بقرنيتها وقزحيتها وجسمها البلوري، هذه العدسة المرنة التي يزداد احددابها بحسب بعد المنظور، من قاس المسافة ومن أبلغ هذا الجسم البلوري ومن ضغط هذه العضلات الهدبية ؟ من أمرها أن تضغط بالميكرونات حتى يقع الخيال على الشبكية ؟

العين وحدها كافية كي يذوب الإنسان تعظيماً لله عز وجل:

هذه العين التي يحار بها العلماء ولا تزال بعض أسرارها مجهولة ترى الألوان كلها بأدق الألوان، ثمانمئة ألف درجة من اللون الواحد تفرق العين بينها.

لو درّجنا اللون الواحد ثمانمئة ألف درجة فإن العين السليمة بإمكانها أن تميز بين درجتين تارة بالألوان وتارة بالبعد الثالث وتارة بالأحجام، إنك ترى الشيء بحجمه الحقيقي، لو أتيت بآلة تصوير وصورت منظراً طبيعياً وسحبت الصورة لوجدتها لا تزيد على 10×8 سم، لكن هذه العين ترى الجبل جبلاً بحجمه الحقيقي، فالأشياء تراها بأحجامها وألوانها الدقيقة وبأبعادها الثلاثة، وتراها من دون تحنيط، بالعين نرى المنظر مباشرة وبأدق تفاصيله، بينما لا نستطيع رؤية المنظر عن طريق آلة التصوير إلا بعد خطوات متعددة.

هذه العين وضعها الله في محجر وقاية لها، جعل لها هذا الجفن لتنظيفها، جعل هذا الدمع القلوي الذي يذيب المواد الصلبة، هذه الأشفار وهذه الأحداب، جعل هذا الجفن، جعل هذه العضلات العلوية والسفلية والأنسية والوحشية، جعل هذا العصب البصري، تسعمئة ألف عصب تمر في حبل لا يزيد عن مليمتر، تسعمئة ألف عصب وهذه الشبكية بطبقاتها العشر وهذه الشبكية بـ130 مليون ليف عصبي ومخروط من أجل التقاط أدق تفاصيل الصورة وأدق الألوان يد من فعلت هذا ؟ من شق هذه العين ؟ من شق هذا السمع ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35))

(سورة الطور: الآية35)

والله يا أخوان: العين وحدها كافية كي يذوب الإنسان تعظيماً لله عز وجل.

من أساء الظن بالله عز وجل لم يعرف الله تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ (66))

الإنسان يرى الضوء، يرى الشمس، يرى السماء، يرى النجوم، يرى الأزهار، يرى الأطيار، يرى الأسماك، يستمتع بالألوان، ما قيمة جمال ابنك الذي بين يديك لولا هذه العين ؟ كل ما في الكون من جمال تنعدم قيمته لولا هذه العين، لقد شقّ الله هذه العين من أجل أن ترى الآيات، من أجل تسبيح الله عز وجل، من أجل أن تنقل لك هذه العين صور المحيط الخارجي فيخشع قلبك وتستقيم سيرتك، لو لم نشأ لهم الهداية، لو لم نشأ لهم السعادة، لو لم نشأ لهم القرب، لو لم نعدهم لحياة أبدية فيها سعادة لا تنقضي:

(لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ (66))

أي لما الأب، ولله المثل الأعلى، يقدم لابنه أعلى مصروف للدراسة وأرقى جامعة وأعلى قسط وغرفة خاصة، يعفيه من كل الخدمات، يقدم له كل المراجع، يهيئ له كل المدرسين المتفوقين، يبذل نفقات باهظة، ما مراد الأب من كل هذا ؟ أن يبقيه جاهلاً ؟ هل يقول ابن لأبيه أنت تريدني أن أرسب ؟ كل هذه الخدمات، كل هذه العنايات، كل هذا الإنفاق، كل هذا الترتيب، كل هذا التدبير، وأنا أريدك أن ترسب ؟ هذا افتراء على الله عز وجل، فهذا الذي يظن أن الله عز وجل خلق الكافر كافراً وأراده أن يكون كافراً وسوف يعذبه إلى الأبد لا لأنه كفر ولكن لأن مشيئة الله هكذا، هذا الذي يسيء الظن بالله عز وجل لا يعرف الله عز وجل.

من أراد أن يعبد الله فعليه بقراءة القرآن و من أراد أن يعرفه فعليه بالكون:

لذلك لو أردنا لهم الضلالة، لو أردنا أن نشقيهم، لو أجبرناهم على الانحراف، لو أجبرناهم على الكفر، لما خلقنا لهم كل هذا الكون ولا كل هذه الحواس ولا كل هذا الإدراك:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ (66))

الله عز وجل أعطانا سمعاً، أعطانا دلائل، إذا أردت أن تعرف الله فذلك الكون. ورد في الأثر:

((حسبكم الكون معجزة))

[ورد في الأثر]

وإذا أردت أن تعبد فذاك القرآن منهج قويم، صراط مستقيم، حبل الله المتين، نور من السماء للأرض، هذا القرآن. إذا أردت أن تعرفه فذلك الكون، وإن أردت أن تعبده فهذا هو المنهج، وإن أردت أن تتقرب إليه أعطاك حركة، قوة، أعطاك طاقة عضلية، وطاقة فكرية، وطاقة نفسية، أعطاك ملكات، مهارات،

لذلك لو أننا أجبرناهم على الضلال، لو أردنا منهم أن يكونوا كذلك، ولو نشاء كما يدعون لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط، تنازعوا، تدافعوا، ضلوا، فسدوا:

(فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (67))

الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم:

لو أن الله جعل الإنسان كتلة من لحم وعظم، لا أرجل ولا أيدي، لا يوجد عضلات، لا يوجد جهاز عظمي مثل المتحول الزحاري، مثل الرخويات، لو أن الإنسان كان من النوع الرخوي، عضلة ملقاة على الأرض. من أعطاك الجهاز العظمي ؟ من ربط الجهاز العظمي بهذه العضلات بالمئات، العضلات بعضها مخطط، بعضها أملس، بعضها إرادي، بعضها لا إرادي، شيء يحير العقول، وبعض العضلات وأنت في أتم الراحة هي في أشد الانقباض، ولولا هذه العضلة لكانت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، بهذه العضلة تحفظ لك كرامتك، بهذه العضلة التي في أشد حالات انقباضها أنت مرتاح، لولا هذه العضلة لاحتاج الإنسان إلى فوط يحفظ بها ما يخرج منه من نجاسات، لولا هذه العضلة لذهب ماء الوجه، لولا هذه العضلة لأصبح الإنسان مهاناً، هذه العضلة التي هي في أشد حالات الانقباض تضمن لك كرامتك ورفعتك وشـأنك ونظافتك ومهارتك، عضلات قابضة، عضلات باسطة، عضلات مخططة، عضلات ملساء، عضلة إرادية، عضلة لاإرادية وأنت لا تدري.

إكرام الله عز وجل الإنسان بأن خلقه بأحسن صورة:

لو أن الله عز وجل جعل عضلة القلب بيدك ليس بإمكانك أن تنام، إذا نام الإنسان توقف قلبه، لو جعل حركة الرئتين منوطة بك، خيار صعب، النوم معناه الموت واليقظة من أجل تحريك الرئتين معناها الجهد الذي لا يحتمل:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

أعطاك جهازاً عظمياً متيناً، العظم ميناء الأسنان لا أدري بالضبط يأتي قبل الألماس أم بعده من حيث القساوة، عظم عنق الفخذ، الفخذ له عظم والعظم ينتهي بمشاشة، فقط من أجل جمال القوام، لو أن عظم الفخذ ينتهي بالحرقف بلا عنق لصار منظر الإنسان دميماً، جعله بحيث يكون العظم له عنق وبعده المشاشة. عظم الفخذ هذا يتحمل ضغط 250 كغ لكل رجل، صاروا 500 كغ، أي نصف طن يتحمل جسمك ضغطاً:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

أنت جعلك تتحرك، جعلك تمشي، أعطاك أرجلاً، أعطاك قدماً، الكعب في القدم هذا النتوء الصغير، هذا يتفق مع أدق نظريات الميكانيكا، النتوء، الأصابع في القدم، الأخمص في القدم، عضلات القدم، الركبة، هناك مستشفيات بالعالم متخصصة بمفصل الركبة، لأنه ليس مفصلاً، عظمتان متقاربتان وأربطة في غاية الإحكام وعظمة صغيرة يسميها العوام (صابونة الرجل) عظمتان متقاربتان وأربطة بمنتهى الإحكام هذه الركبة، خلق الإنسان في أحسن تقويم.

لو أراد الله عز وجل للإنسان الضلال لما أتقن صنعه:

لو نشاء له الضلال، لو نشاء أن نشقيه لما أتقنا صنعه، لما أتقنا عضلاته وعظامه، لما أتقنا أجهزته. جهاز القلب والدوران، تجد الإنسان يقول: دفعت ثمن صمام 130 ألف ليرة، صمام صغير، ينام له صوت، لا ينام الليل، الصمام الصناعي له صوت، لا يتعرف قيمة الصمام الطبيعي حتى تركب صماماً صناعياً، طبعاً سوف يفتح القلب والعملية خطيرة جداً والصمام ثمنه 130 ألف وله صوت بالليل، أثناء النهار باعتبار في ضجيج لا تشعر بصوته لكن بالليل عند السكون تشعر بصوته.
إذاً القلب والرئتين الأوعية والأعصاب، الأوردة والشرايين، المعدة والأمعاء، الكبد والطحال، البنكرياس، والكليتين، جهاز تنقية، جهاز هضم، جهاز دوران، جهاز عضلي، جهاز عظمي، جهاز عصبي، أعصاب حس، أعصاب حركة.

الدقة و الإبداع في خلق الإنسان من أجل أن يعرف الله عز وجل:

اليوم في الخطبة ذكرت قشرة الدماغ وزنها مئة غ سمكها 2 ملم فيها ألياف عصبية طولها ألف كم، فيها أربع عشرة مليار خلية هي القشرة. هذه القشرة فيها كل شيء مركز السمع، مركز البصر، مركز الحركة، مركز الإحساس، مركز التوازن، فيها مركز الإدراك، مركز المحاكمة، مركز التذكر، مركز التدبير، شيء لا ينتهي، فيها من خمسين إلى مئة مركز لم تعرف بعد وظائفها الدقيقة، أما الدماغ 140 مليار خلية لم تعرف وظيفتها بعد.
أيها الأخوة: الدماغ عاجز عن إدراك ذاته لماذا هذه الدقة وهذا الإبداع وهذه العناية ؟ من أجل أن لا تعرف الله ؟ من أجل أن تخلق للتعذيب ؟ من أجل أن تشقى ؟ لا والله كل هذا من أجل أن تعرف الله عز وجل.

تكريم الله الإنسان بأن جعله فرداً لا مثيل له:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (67))

كتلة لحم ملقاة في طرف الغرفة، في حيوانات هكذا وحيدة خلية، فيروسات، في هلاميات، في رخويات، في حيوان ليس له حواس، أنت أعقد حاسة من حواسك، حاسة السمع، الله عز وجل أعطاك نبرة تختص بها، أبداً.

الإنسان له هويات وليس هوية واحدة. كان يظن من قبل أن له هوية واحدة وهي بصمته، لا، الآن قزحية العين هوية، أحدث بحث أفاد لي أحد الإخوان أنه لا يوجد إنسان بالخمسة آلاف مليون إنسان يشبهه آخر في قزحية العين، فالآن في أجهزة، تضع عينك على الجهاز فيعرف هويتك، لا يوجد تزوير هنا إطلاقاً، العين هوية، رائحة الجلد هوية، بلازما الدم هوية، وحدة النسيج في جسمك هوية، نبرة الصوت هوية، بصمة اليد هوية، من أسماء الله أنه فرد وقد منحك هذا الاسم، كرّمك فجعلك فرداً لا مثيل لك.

إذاً كل هذه الدقة هي من أجل أن يشقيك في الدنيا والآخرة ؟ أهكذا تظن به ؟

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ (67))

العقل الذي وهبنا الله إياه لا نعرف قيمته إلا حينما نراه في بعض الناس ضعيفاً:

أنا أعرف أشخاصاً كثيرين تقدمت بهم السن ضعفت ذاكرتهم، رجل رحمه الله من إخواننا الكرام في آخر حياته خرج من معمله وبحث عن بيته ساعة ونصف نسي بيته والذي سكن فيه خمس و ثلاثين سنة، عاد إلى بيت ابنه قال له: يا بني أين بيتي ؟

أعرف رجلاً آخر كان صيدلياً جاء ابنه من أمريكا قال له: من أنت ؟ قال: أنا ابنك ماهر. قال: ما أعرفك.

أعرف رجلاً قد بلغ أعلى الدرجات في حياته الدنيا، مرة اضطرت أن تخبر زوجته قسم الشرطة أن فلاناً خرج ولم يعد، بحثوا عنه وجدوه بالقنوات وهو بيته بالمهاجرين، خرج لم يعد يعرف كيف يرجع.

أنت أحياناً، تضع شمعة بالسقيفة على الرف، بعد ستة أشهر تنطفئ الكهرباء تقول: يا بني اطلع على السقيفة، في شمعة على الرف بالسقيفة. معناها كل شيء تفعله أخذ محلاً بالذاكرة، الذي عنده قطع تبديل أو الصيدلي، يُسْأل: هل عندك الدواء الفلاني...يجيب مثلاً لدي قطعة واحدة، أحضرها يا بني فهي بالرف الثالث على اليمين وراء العلبة هذه، معناها بذاكرتك مسجلة.

ما هي الذاكرة ؟ مشكلتك كبيرة إن ضعفت، ضعف بسيط ويبدأ الإنسان ينسى. أحياناً يضيع مفاتيحه يبحث عنهم ساعة وتكون بجيبه و ينسى.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

فهذا الإدراك، وهذا العقل الذي جعله الله مناط التكليف، أداة التعريف، هذا لا تعرف قيمته إلا حينما تراه في بعض الناس ضعيفاً.

أرذل العمر ليس لمن أمضى حياته في طاعة الله:

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (68))

الإنسان يولد لا يعلم شيئاً تنمو ملكاته شيئاً فشيئاً، تنمو قدراته شيئاً فشيئاً، تنمو مفاهيمه، تنمو مدركاته إلى أن يكتمل في الأربعين، وبعدئذ يميل خطه البياني في النزول إلى أن يرد إلى أرذل العمر، لكن أيها الأخوة أرذل العمر ليس للمؤمنين أطمئنكم، أرذل العمر، ضعف الملكات، ضعف الذاكرة، الحشرية، إعادة القصة مئات المرات، الظل الثقيل، التدخل فيما لا يعنيه، أرذل العمر هذا ليس لمن أمضى حياته في طاعة الله، أرذل العمر ليس لمن كانت له بداية محرقة، من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة. يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

من يحفظ الله في صغره يحفظه الله في كبره:

والله أعرف أناساً صالحين والله في التسعين، في السادسة والتسعين، مئة و ست سنوات بأعلى درجات يقظتهم وإدراكهم. أعرف رجلاً والله كنت أزوره كل عيد، والد صديق من أصدقائي، يحدثني عن بعض قصصه وتمنيت أن يعيد القصة، لم يعد قصة مرتين أبداً، قال: عملنا فحصاً يا أستاذ فلان، الحمد لله كله تام، عمره 96 سنة، عمل فحصاً كاملاً لدمه وبوله...كامل مكمل، قال لكن والله بحياتي ما أكلت قرشاً حراماً ولا أعرف الحرام، لم يأكل قرشاً حراماً ولا يعرف الحرام من النوع الثاني بحياته، يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

أي إذا حدثناكم عن أرذل العمر هذا لمن أمضى شبابه في معصية الله، لمن لم يطلب العلم في شبابه، لمن شاب على ما شب عليه، لمن أَلِفَ المعاصي، لكن المؤمن: أنا أرجح، طبعاً لا أتألى على الله لكن أرجح، أن المؤمن له خريف مشرق، له شيخوخة منيرة، له مكانة مرموقة، هذا لأن الله عز وجل قال:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

أي أنتم هل تعتقدون بذلك ؟

وهب الله عز وجل الإنسان سمعاً و بصراً و فؤاداً من أجل أن يطيعه و يعبده:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

في الحياة:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية: الآية21)

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68))

إذاً أعطاك السمع والبصر، أعطاك الحركة، يُفهم من هذه الآيات أن الإنسان عنده قوتان كبيرتان: قوى إدراك متمثلة بالحواس والعقل، وقوى حركة. فأنت في الدنيا بحاجة إلى علم وعمل، أنت بحاجة إلى علم وإلى عمل والدين كله علم وعمل، وفحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء: الآية25)

يجب أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، ويجب أن تعبده.

تكريم الله الإنسان بمنحه السمع و البصر و الفؤاد:

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، فأنت بين شيئين علم وعمل، إيمان واستقامة، إدراك وحركة، فمن أجل الإدراك أعطاك الله السمع والبصر والفؤاد - الفؤاد إذا جاء مع السمع والبصر فهو: العقل:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36))

(سورة الإسراء: الآية36)

فقواك الإدراكية متمثلة بالسمع والبصر، الأحاسيس كلها، الإدراك أي هو العقل. والقوى الحركية، أعطاك جسماً يتحرك، عضلات توازن، مثلاً لو أن الإنسان لا يوجد عنده قنوات نصف دائرية فوق الأذن حتى يقف على قدمين، لابد له من قاعدة استناد كبيرة جداً، كما ترى بعض التماثيل في بعض المحلات التجارية للملبوسات الجاهزة لها قاعدة استناد 70 سم من أجل أن يقف الإنسان، كانت قنوات التوازن في الأذن (في ثلاث قنوات فيهم سائل وفيهم أهداب)، وهو يحتاج إلى أرجل كل رجل قاعدتها 20-30 سم، إذا الإنسان استخدم حذاء ودخل في أرض فيها طين، تعلق بكل حذاء أكثر من 5كغ طين ويصبح المشي فيه مشقة كبيرة جدا، فلو كان الشخص رجله وزنها 5 كغ ؛ شيء لا يحتمل، إذاً الله عز

وجل لطيف جعل لك قدمين لطيفتين، والدليل هل نستطيع أن نوقف ميت على الواقف، مادام تعطلت قنواته الدائرية فهو لا يستطيع الوقوف. الميت دائماً ملقى على الأرض، أما الوقوف فيحتاج إلى توازن، إذا هذا من تكريم الله للإنسان.

الله عز وجل أعطى الإنسان قوى إدراكية و حركية و مهارات من أجل أن يؤمن به:

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68))

إذاً هذه الآيات الثلاثة: الله أعطاك قوى إدراكية حواس وعقل، أعطاك قوى حركية تتحرك، أعطاك مهارات، أعطاك خبرات، أعطاك قدرات، أعطاك مفاهيم، أعطاك حرفة تزاولها ترتزق منها، هذا كله أعطاك الله إياه من أجل أن تؤمن به وأن تعمل صالحاً يسعدك في الآخرة، من أجل أن تؤمن به وقوى إدراكية، والعمل الصالح بدون جهاز حركي تتحرك تأتي إلى الدرس، تذهب لبيتك، تشتغل، تحضر معك طعاماً لأهلك، تقوم بعمل نافع.

كلمة الشعر هنا ليست مقصودة لذاتها:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (69))

يا أخوان بالمناسبة كلمة الشعر هنا ليست مقصودة لذاتها، دائماً الإنسان له نوازع شهوانية ونوازع رحمانية، النوازع الرحمانية متمثلة بالحق، بالقرآن، بالسنة، والنوازع الشهوانية متمثلة بالشعر، كلام مزين مزخرف، ممتع لكن ليس فيه حقائق، فيه أباطيل، فيه دجل، فيه تزوير، مثلاً هناك شاعر يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي و أسمعت كلماتي من به صمـم

أنام ملء جفون عن شواردهـــا و يسـهر الخلق جراها ويختصم

الخيل والليل والبيداء تعرفنـــي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

القصيدة طويلة جداً كلها فخر. هذا الشاعر كان مرة بين البصرة وحلب في رحلة فخرج عليه عدو فولى هارباً، قال له غلامه: ألم تقل: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ؟ ألم تقل الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟ قال: قتلتني قتلك الله فعاد فقاتل حتى قتل، كلام فارغ، فالشعر ليس المقصود بذاته، الشعر أي كلام فارغ، أي كلام مزخرف، مزين، مشقق، مدعم بالشواهد والطرائف والنكت، لكن ليس فيه حقائق، فكلام الناس، محاضراتهم، ندواتهم، أحاديثهم، مناقشاتهم،

مجلاتهم، كتبهم، كلها تتحدث عن شهواتهم، وعن أباطيلهم، وعن نزواتهم، وعن فراغهم، وعن انحرافهم، فهذا كله جمع في كلمة الشعر. قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224))

(سورة الشعراء: الآية224)

أعذب الشعر أكذبه:

مرة شاعر هجّاء لم يبق أحد إلا وهجاه حتى أمه هجاها، ما بقي إلا أن يهجو نفسه قال:

لي وجه قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

* * *

هذا هجاء، بالجاهلية شخص مرة مدّ رجله وقال: من كان أشرف مني فليضربها، بقيت حرب بين القبائل عشر سنوات، أحرقت الأخضر واليابس، هكذا كنا في الجاهلية، جاهلية عصبيات، انحيازات، فخر، باطل، إنسان تافه ينفخ نفسه. توفيت أم المعتصم مرة، بعض الشعراء قال فيها:

ولو أن النساء كمن فقدن لفضلت النساء على الرجال

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

* * *

مبالغة كبيرة:

إن في بردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

* * *

قال أحد الشعراء: أعذب الشعر أكذبه.

الحي هو الذي يستنبط من حقائق الكون حقائق يؤمن بها:

لذلك هنا قال:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآَنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70))

الحقيقة: من هو الحي ؟ الحي هو الذي يفكر ويعقل ويدرك، الحي هو الذي يستفيد من تجارب الآخرين، الحي هو الذي يستنبط من حقائق الكون حقائق يؤمن بها.

(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70))

أما إذا لم تؤمن فقوانين الله عز وجل تنطبق عليك.

النبوة لا يليق بها الشعر فالشعر فيه كذب و نفاق و مبالغة:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (69))

ما يعني وما ينبغي له ؟

أي مرة دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام فرآه نائماً على حصير، أثر فيه الحصير على خده الشريف. قال: رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟ قال: يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً، هي قضية متعلقة بهذه النبوة، هكذا قدوة النبوة، تواضع النبوة، تقشف النبوة، حب للآخرين، فالنبوة لا يليق بها الشعر فالشعر فيه كذب، فيه نفاق، فيه مبالغة، فيه هجاء، فيه غزل مكشوف، فيه غزل غير عفيف، فهذا الذي يتغزل يصف أعضاء المرأة، هذا الذي يثير الشهوات في الناس، هذا الذي يتحدث عن عواطفهم الخسيسة، عن حبهم، عن مشكلاتهم دون أن يرقى بها، هذا شاعر لكن لا يعبر عن الحقيقة.

لذلك قال:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(70))

الحي من استجاب لله عز وجل و من لم يستجب أقيمت عليه الحجة و دفع ثمن عمله:

إذا أنت ذكّرت الإنسان واستجاب فهو حي، الطبيب يضع أحياناً يده على المريض فإن لم يجد نبضاً، عمل تخطيطاً (الحركة المنكسرة معناها حركة) أما التخطيط خط مستقيم والنبض صفر والتنفس صفر والقزحية لم تتأثر بالضوء الشديد عندها يقول: عظّم الله أجركم، فمن هو الحي إذاً ؟ هو الذي إذا دعي يستجيب، إذا استمع يستجيب:

(لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70))

أما الذي لا يستجيب أقيمت عليه الحجة، وحق عليه القول، ودفع ثمن عمله.

تذليل الأنعام للإنسان بقدرة الله عز وجل:

يقولون شدة القرب حجاب:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (71))

أنت ألست تلبس كنزة صوف ؟ ألا يوجد في بيتك سجادة صوف ؟ ألا يوجد عندك جلد تضعه بالشتاء بغرفة الجلوس ؟ ألم تشرب كأساً من الحليب ؟ ألم تأكل قطعة جبنة؟ قشطة ؟ زبدة ؟ ألم تشرب لبناً ؟ ألم تلبس حذاء ؟ يقول لك هذا ثمنه ألف ومئتين اشتريته من مضايا مثلاً، فهذا الحذاء مم صنع ؟ من الجلد، وهذه الكنزة الموهير الغالية من أين أحضرتها ؟قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71))

الأنعام، الخروف: صوفه يقدم لك شيئاً عظيماً، وجلده يقدم لك خدمات جلى، والحليب، إنّ كل حياتنا مبنية على الألبان ؛ الجبن والحليب واللبن والسمن والزبدة فهو غذاء أساسي جداً. هذا كله من الأنعام، اللحم مادة أساسية في الحياة، من صمم هذه الغنمة ؟ لو أن الله عز وجل أودع طباع الضبع في الغنمة يقول لك فلان مثل الغنمة، ماذا يعني مثل الغنمة ؟ أي القيادة سهلة، تسحبها بقليل من الحشيش على الذبح لا تتكلم ولا كلمة، الله ذللها، من جعلها لك مذللة ؟ الله جل جلاله.

موضوع الغنم بالذات من آيات الله الكبرى الدالة على عظمته:

لذلك:

(أَوَلَمْ يَرَوْا (71))

هي آية بين أيديهم، لو لم تكن الغنم مذللة، من يقدر أن يجمع مئة غنمة مع بعضهم؟ تجد متكاتفين متداخلين مع بعضهم، لو كانوا مثل الكلاب مبعثرين فرعي الغنم صار عملية شاقة، لو أن الله جعل بطباع الغنمة التبعثر، أيستطيع أحد أن يجمع مئتي كلب مع بعضهم ويقودهم معاً ؟ تجد كل واحد بجهة، أما الغنم يمكن جمعه كله بقطيع واحد، تجد بحركة، بصفرة، يتجه نحو اليمين أو نحو الشمال، طَبْعٌ لطيف، طواعية، انسياق للراعي.

موضوع الغنم بالذات، من آيات الله الكبرى، ويمكن أن تُرى بالعين. يجب على الإنسان أن لا يكون غافلاً إذا أكل، وإن شرب كأس حليب، إن أكل قطعة جبنة، يجب أن لا ينسى الإنسان أن كل هذا من صنع ربنا، يقول لك هذا من عند فلان، صناعته نظيفة تماماً، قبل فلان الله عز وجل هو الذي صمم لنا هذه الغنمة وصمم حليبها وجلدها وصمم لحمها وصمم صوفها:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72))

الإنسان مصمم على الإيمان فإن لم يؤمن وأشرك وقع بمصيبة كبيرة:

أحياناً الإنسان، يركب هذه الدابة تحمله إلى بلد لا يبلغه إلا بشق الأنفس، أحد إخواننا كان في بلد غربي، قرأ بحثاً علمياً عن أن استعمال الفرس يقي الإنسان من أمراض القلب والكبد والكليتين، أمّا المركبة التي صممها الإنسان قد تسبب أمراض القلب والكبد والكليتين، حيث أن الإنسان مصمم على بذل الجهد، فإذا كف عن بذل الجهد تفاقمت مشكلاته، ضعف قلبه، ضعف كبده، ضعفت كليتا ه، الطبيب يقول لك امش، طبيب الكليتين يقول لك امش، طبيب القلب يقول لك اعمل رياضة، تمشى صباحاً، الإنسان مصمم على بذل الجهد فإذا كف عن بذل الجهد، كل حركاته أصبحت بالمصعد والسيارة من الباب للباب، مكتبه مريح، حتى حركات السيارة كلها أوتوماتيكية، كبس أزرار، الغسيل كبسة زر، لم يعد هناك شيئاً صعباً، فالإنسان وقع بمصيبة جسمه، لأن الإنسان مصمم على بذل الجهد، فإن لم يبذل الجهد تعب قلبه وضعف، ومصمم على الإيمان فإذا لم يؤمن وأشرك يخاف. فنحن بين مشكلتين: بين كسل عضلي وبين شدة نفسية. وهذه وراء أكثر أمراض الإنسان المستعصية. أمراضه أكثرها المستعصية هي نتيجة للشدة النفسية مضافاً إليها الكسل العضلي، وأجدادنا حياتهم كان فيها بذل جهد وكان هناك راحة نفسية، الراحة النفسية مع بذل الجهد تساهم في وقاية الإنسان، والشدة النفسية مع الكسل العضلي يبقى الإنسان في مرض مستمر.

كل شيء في الكون مصمم للإنسان تصميماً كاملاً:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73))

منافع ومشارب أي أنواع الأشربة الحليب واللبن وما إلى ذلك:

(أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73))

حتى ما يخرج من بطنها يقول لك ثمن طن من السماد يتراوح بين ثمانية آلاف ليرة و عشرة آلاف، أرقى أنواع السماد، لم يبق فيها شيء، حتى الأمعاء تصدّر بأسعار باهظة، لا يوجد شيء بالغنم إلا يستفاد منه، سبحان الله هذه هدية الله لنا، مصممة تصميماً كاملاً.

كل إنسان سره كعلانيته عند الله عز وجل:

ومع كل ذلك:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74))

اتخذ إلهاً من دون الله، اتخذ شخصاً، اتخذ صنماً. قال:

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75))

كان العرب في الجاهلية إن صنعوا صنماً يحرسوه، يعتنوا فيه، إذا شخص ناله بأذى يضربوه. فهذا الصنم من الحجر يحتاج إلى من يحرسه وإلى من يرعاه وإلى من يدافع عنه، فإذا كنت أنت ترعاه، فكيف تعبده من دون الله ما هذا المنطق ؟ واتخذوا من دون الله آلهة:

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76))

الإنسان مكشوف يا أخوان، مكشوف عند الله عز وجل، أي سريرته كعلانيته، سره كظاهره، ما يخفيه كما لو أنه أعلنه، فالمؤمن حينما يرى رقابة الله عليه يستقيم على أمر الله، ويشعر حينما ينحرف قليلاً سوف يأتيه العذاب من قِبل الله عز وجل.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ (77))

ذا قال أنا ما كنت وقتها، لم أكن في وعيي ! تقول: انظر إلى ابنك ألم تعلم أن هذا الابن جاء من نطفة من ماء مهين، ألم تعلم أن هذا الماء المهين يزيد على ثلاثمئة مليون حوين وأن الإنسان مخلوق من حوين واحد، حوين واحد مخلوق منه،

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)

والحوين الواحد له رأس مدبب، له عنق وله شريط لتحريكه وهذا الرأس المدبب له مادة نبيلة شفافة مغطاة بغشاء إذا اصطدمت بالبويضة تمزق الغشاء وجاءت هذه المادة النبيلة فأذابت جدار البويضة حتى يدخل إليها، وأن هذا الحوين يحتوي على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة بأوقات متفاوتة:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ (77))

فإذا كبر ودرس فلسفة أو درس طب صار يتفلسف على الناس، أخي أنا لا أرى إلا الأشياء المادية، هي ما وراء الطبيعة، هي (ميتافيزيقا)، نحن يجب أن نكون واقعيين، لا نريد غيبيات، لا نريد خيالاً، لا نريد أن نتعلق بما بعد الموت، نريد الحياة فقط، الآن تحكي هذا الكلام.

على الإنسان ألا يكثر من الجدال:

مرة كنت بالمطار، رأيت طفلاً يظهر أهله من كثرة ما وضعوا له فوطاً خوفاً من البلل صار كرة بوسطه، قلت: هذا لو كبر وصار بمنصب رفيع ونسي كيف كان صغيراً بهذا الوضع المضحك:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77))

الإنسان تجده كان يحتاج لمن ينظفه، من يرعاه، من يطعمه، كان ضعيفاً، كان يتكلم الحرف، كلام مضحك، لو كبر وسمع كلامه، فبعد أن كبر وصار شخصية فذة، يريد أن يناقش الإله: أثبت وجودك، وأنا لا أؤمن إلا بالواقع، هؤلاء الماديين، الجدليين:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(78))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة يس 036 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 77-83 ، إبداع الله عز وجل في كل شيء خلقه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-08-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جل جلاله حضّ الإنسان على التفكر في خلقه:

أيها الأخوة الأكارم: مع الدرس السابع والأخير من سورة يس ومع الآية السابعة والسبعين. يقول الله جل جلاله في أواخر سورة يس:

(أوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77))

هذه الصيغة في علم البلاغة هي استفهام إنكاري، والإنسان إذا عُرّفَ بـ (ال) فهذا تعريف الجنس أي: أيّ إنسان، ومعنى ذلك أن أي إنسان مزود بقوى إدراكية تعينه على معرفة خالقه ومربيه من خلال الآيات التي بثها في الكون

(أولم ير الإنسان)

وكلمة يرى هذه تعني العلم، رأيت العلم نافعاً، رأيت الفقر موجعاً، هذه الرؤية تعني العلم فكأن الله جل جلاله يحض الإنسان على أن يرى، يرى ماذا ؟ يرى عظمة الله من خلال خلقه، ويرى ضعفه،

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)

كلكم يعلم أن النطاف (جمع نطفة) تزيد في اللقاء الزوجي عن ثلاثمئة مليون حوين في سم3 للسائل المنوي، وأنّ كل نطفة أو كل حوين إنْ هو إلا خلية لها رأس ولها عنق ولها ذيل وأما هذه النطفة أو هذا الحوين أو هذه الخلية عليها مورثات فيها معلومات تزيد عن خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، تسهم هذه المعلومات في تشكيل الإنسان بأدق تفاصيله مع برنامج زمني دقيق دقيق، فعلى كلٍ إن شاء الإنسان أن يغوص في التفاصيل التي عرفها العلماء أو أن يبقى في الكليات، في كلا الطريقين هناك طريق موصل إلى الله عز وجل.

إعجاز خلق الله جل جلاله في خلق الإنسان من نطفة:

(أوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ (77))

أي ماء مهين، ومعنى مهين أي يستحي به الإنسان و ثلاثمئة مليون حوين في سم3 للسائل المنوي، ويُخْلَق الإنسان من حوين واحد، وهذا الحوين يدخل إلى البويضة وكما ذكرت في الدرس الماضي في رأسه مادة نبيلة مغلفة بغشاء رقيق إذا اصطدم هذا الحوين بجدار البويضة تمزق الغشاء وساهم هذا السائل النبيل في إذابة جدار البويضة ؛ فإذا دخل الحوين إلى البويضة وتم التلقيح بدأ الانقسام، ولا تزال البويضة في الأنبوب الواصل بين المبيض والرحم، تنقسم الخلية الملقحة إلى عشرة آلاف جزيء من دون أن يزداد حجمها لأنه لو ازداد حجمها لتعثرت في طريقها إلى الرحم.

يد من صممت ؟ ويد من نفذت ؟ وهذه البويضة أحياناً الله عز وجل قال:

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا (50))

(سورة الشورى: الآية50)

أي هذا الحوين لا يستطيع الدخول إلى البويضة إذا كان الرجل عقيماً، من يستطيع أن يتدخل في مثل هذه الحالات. قد يكون العقيم ملكاً ولا يستطيع أن ينجب، وينفق الأموال الخيالية الفلكية ليكون منجباً فلا يستطيع.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا (50))

(سورة الشورى: الآيات49-50)

فهذا هو خلق الله عز وجل أما كلمة يرى، فالإنسان إن لم يقرأ هو يرى بعينيه، إن لم ير خلقه ير خلق ابنه ويرى خلق من حوله، فهذه آية ليرى من آيات الله الدالة على عظمته وفي آيات أخرى يقول الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8))

(سورة الطارق: الآيات 5-8)

أي إذا قرأ أحدكم علم الجنين أو علم الأجنة لا يملك إلا أن يقشعر جلده، وأن تنهمر دموعه لعظم الآيات التي يراها في خلق الإنسان، بالغة العظمة، بالغة الدقة، بالغة التعقيد لدرجة أنه لابد من يد حكيمة هي أحكم ما تكون، قديرة هي أقدر ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، تُسَيِّرُ هذا الجنين في بطن أمه ليكتمل خلقه في تسعة أشهر وعشرة أيام، على كل لا مجال للتفاصيل الدقيقة لكن من أراد أن يزداد علماً في هذا الموضوع فليرجع إلى الكتب التي تتحدث عن علم الأجنة.

الإنسان المتكبر إنسان جاهل ومنقطع عن الله عز وجل:

الإنسان مادام نطفة خرج من عورة ودخل إلى عورة ثم خرج من عورة، والماء المهين والحوين الصغير لا يرى بالعين المجردة يرى بالمجهر، والبويضة في المرأة هي أكبر خلية بالنوع البشري ومع ذلك صغيرة جداً، فهذا الخلق يجب أن يورث الإنسان الشعور بالعبودية لله عز وجل، فالإنسان كلما ازداد علماً كلما ازداد طاعة لله عز وجل وإكباراً لخالقه.

المتكبر جاهل: هذا الإنسان هذه بدايته، حينما أصبح شاباً أو أصبح كهلاً ونال بعض الشهادات بدأ يناقش ويجادل ويخاصم ويدعي الفهم ويدعي العلم ويطرح نظريات ويقول مقولات ولا يؤمن إلا بما يرى، ويتهم كل ما لم يره بأنه غيبيات، فهذا الإنسان وهذه بدايته وهذا أصله وهذا ضعفه.

الذي لا نبصره ليس أقل عظمة من الذي نبصره:

كيف أصبح الإنسان يافعاً أو راشداً أو كهلاً يخاصم ربه ويقول: أنا لا أؤمن إلا بما أرى، أنا واقعي، هذا الدين شيء خيالي، شيء مغيّب، خصيم مبين، ربنا عز وجل قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة: الآيات38-39)

الآن هناك كتب فيها صور بالمجهر الإلكتروني عن خلق الإنسان، عن الكريات الحمراء، عن شبكية العين، عن الأذن، عن الحواس، المنظر لا يصدق لعظمته هذا كله لم نكن نبصره من قبل، فربنا عز وجل حينما قال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة: الآيات38-39)

معناه الذي لا نبصره ليس أقل عظمة من الذي نبصره، هذه العين لها عتبة، لكن هناك أشياء لا تراها العين الآن تراها المجاهر الإلكترونية التي تكبر الشيء 40-50 ألف مرة وبعض الصور أربعمئة ألف مرة تكبرها، أي ترى الثقب في الجلد أو مسام الجلد وكأنه كهوف، ترى الشعر وكأنه غابات، ترى الكريات الحمراء وكأنها أقراص، ترى شبكية العين وكأنها نبات كثيف جداً ينمو إلى جانب بعضه بعضاً، فالشيء الذي نراه في هذه الصور لا يصدق فهذا معنى قوله:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة: الآيات38-39)

خلق الله عز وجل الحواس لتتناسب مع حاجة الإنسان:

الله عز وجل قال:

(إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرِ (49))

(سورة القمر: الآية49)

الحواس لها قدر تتناسب مع حاجاتك، أما لو اشتدت الرؤية لرأيت كأس الماء الصافي يغلي بالكائنات الحية، إذا الإنسان وجد قشة تعاف نفسه عن شرب كأس الماء، فلو زاد الله عز وجل القدرة الإبصارية في الإنسان فرأى الكائنات الحية، مشكلة.

أي كما يقولون: أشد الناس تعقيماً في الصاد الموصد عليه بالميليمتر كذا جرثوم وكذا كائن حي بعد التعقيم، فالعالم الذي لا نشاهده ليس أقل عظمة من العالم الذي نشاهده، وعلى كل لا يلقى من المعلومات في المساجد إلا النذر اليسير، الأشياء الواضحة الجلية، أما دقة المعلومات، إذا رجعتم إلى الأصول ترون العجب العجاب.

على كل بالشكل الظاهر: نقطة ماء أصبحت إنساناً سوياً له دماغ وله أعصاب، أعصاب حس، أعصاب حركة وله قلب وأربعة تجاويف ودسامات وشرايين وأوردة وله جهاز تنقية وله جهاز هضم وله جهاز عظمي وله جهاز عضلي وله غدد صماء ولا تزال هذه الغدد أسرارا يجهلها الإنسان.

إبداع الله عز وجل ظهر بالإنسان ومع ذلك فهو يدّعي ما ليس له:

مركز توازن السوائل لو اختل لاحتجت إلى أن تقبع بجانب صنبور الماء طوال الليل والنهار لاحتجت إلى إفراغ هذا السائل أي تعطلت حياتك، مركز التوازن الحراري أحياناً يختل، 40 درجة تصبح حرارته مستمرة إلى أن يموت، في أجهزة بالإنسان، مراكز ضبط تحار بها العقول، مركز ضبط بلازما الدم، إذا كلور الصوديوم ازداد في الدم فوق ثمانية بالألف لمات الإنسان، إذا قلّ عن سبعة بالألف مات الإنسان، جهاز الكليتين هو الذي يضبط هذه النسب، لو تعطل جهاز ضبط النسب لمات الإنسان، بالكبد في هرمون التجلط وهرمون التميع، من إفراز هذين الهرمونين بشكل متوازن نرى الدم بهذه الميوعة الصحية، فلو أن هرمون التجلط زادت نسبته لأصبح الدم وحلاً في الأوعية ولمات الإنسان، ولو زاد هرمون التميع لسال دم الإنسان من جرح بسيط وانتهت حياته، الصفائح الدموية، الكريات البيضاء، عوالم الجسم عوالم لا تنتهي.

فهذا المخلوق المعتنى به، إبداع الله عز وجل ظهر بالإنسان وهذا الإنسان يخاصم ربه، يدعي ما ليس له، يدعي أنه فعال، يدعي في أوروبا أنه إله هذا العصر.

(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77))

الإنسان الكافر يتوهم أن الله لا يحيي الإنسان بعد موته:

رجل جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وفي يده عظمة بالية، فربنا عز وجل أنزل في هذه الحادثة قرآناً قال:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ (78))

لو أنه تذكر خلقه لما ضرب هذا المثل، متى ضرب هذا المثل ؟ عندما نسي خلقه، والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فالإنسان قبل أن يأتي ملك الموت وقبل أن يندم ولات ساعة مندم ليذكر قبل أن لا ينفعه التذكر.

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78))

من ؟ هذا الإنسان الكافر توهم أن هذه العظمة، أن هذه القطعة من العظم البالية التي تتفتت باليد، من يحييها ؟ فجاء الجواب: من قبل الله عز وجل:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (79))

أنشأ الشيء، صنعه لأول مرة ابتداء وإبداعاً.

خلق الإنسان خلق تام لم يطرأ عليه أي تعديل:

الإنسان حينما خلق، خلقه الله عز وجل، هل طرأ عليه تعديل ؟ منذ أن خلق كان خلقه كمالاً مطلقاً، الإنسان حينما يصنع الآلات يضيف ويحذف ويقوي هذه الناحية ويتدارك هذه الناحية في العام القادم، ويختصر هذه الناحية، ويضع خبرته لهذه الناحية، ولا أدل على ذلك من أن كل آلة صنعها الإنسان يجري عليها تطويراً وتعديلاً إلى ما شاء الله.

الإنسان مادام تتنامى خبرته ويتنامى علمه وخبرته يُعدّل مصنوعاته، لكن الله عز وجل علمه قديم وخبرته قديمة، فخلق الإنسان خلق تام لم يطرأ عليه أي تعديل:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (79))

خلق الله للإنسان معجز و بأحسن تقويم:

لا أدري ماذا أقول ؟ الإنسان إذا تحرك لولا جهاز التوازن لوقع على الأرض، من صمم هذا الجهاز، ثلاث قنوات نصف دائرية فيها سائل، فيها أشعار، فإذا مال الإنسان يميناً أو شمالاً فإن السائل ارتفع

عند الميل ولامس الأشعار، الإنسان شعر أن توازنه قد اختل يعطي أمراً للعضلات بالتقلص أو الانبساط حتى يستعيد توازنه، من صمم هذا الجهاز ؟ الله جل جلاله، الأصوات حينما يسمعها الإنسان يعرف جهتها، وإذا عرف جهتها تكيف معها، وهذا من دقة خلق الإنسان.

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 ـ الأذن:

العين لها بحث طويل. الأذن لها بحث طويل. كيف يفرّق الإنسان بين الصوت والنغم، هذه الذاكرة السمعية من صممها، كيف الآن تعرف فلان على الهاتف ؟ يقول لك: عرفتني ؟ تجيبه: نعم فلان، 1000-2000 صوت بذاكرتك السمعية كلما سمعت صوتاً تذكرته وقلت هذا فلان.

2 ـ الشم:

في الذاكرة الشمية، آلاف الروائح والطعوم تعرفها، تقول: هذا الطعام فيه المادة الفلانية.

3 ـ الذاكرة:

هناك ذاكرة الأرقام وذاكرة الأسماء، الذاكرة وحدها علم قائم بذاته.

4 ـ القشرة الدماغية:

القشرة الدماغية سمكها 2 ملم، أربع عشرة مليار خلية فيها ألياف عصبية طولها ألف كم، فيها من خمسين إلى مئة مركز تقوم بأدق الأعمال، أعمال التفكر والتدبر والمحاكمة والاستقراء والاستنتاج والتصور والتخيل والتذكر، أعلى ما في الإنسان هذه القشرة الدماغية فيها تلافيف متعرجة المساحة قليلة والسطوح كثيرة، هذا الإنسان من صممه ؟ من صمم هذا الدماغ ؟.

5 ـ الدماغ:

الإنسان لو شاهد شيئاً مخيفاً، هذه الصورة تنتقل إلى الشبكية وهو الإحساس، حتى هذه الساعة كيف تصبح هذه الأحاسيس مدركات، صورة انطبعت على الشبكية، خط أسود طويل، أفعى مثلاً، الإنسان

لماذا ينفعل ؟ لماذا يصيح ؟ لماذا يخاف ؟ كيف تحول هذا الإحساس إلى إدراك في الدماغ ؟ وإذا تمّ هذا الإدراك ما الذي حصل ؟ لماذا اصفر لونه ؟ ولماذا خفق قلبه ؟ ولماذا تسارعت أنفاسه ؟ ولماذا أفرز كبده المواد السكرية الاستثنائية ؟ من أعطاه هذا الأمر؟ إنسان رأى أفعى في بستان لماذا ينفعل ؟ لأنه انتقل من إحساس إلى إدراك. أدرك أنها أفعى، ما الذي حدث ؟ أي الدماغ عن طريق مركز اتصال فيه نظام الأعصاب ونظام الهرمونات.

6 ـ الغدة النخامية:

الغدد لها نظام ولها جنود ولها تسلسل ولها ملكة إنها الغدة النخامية. والأعصاب لها نظام ولها مراكز ولها تسلسل ولها ملك إنه الدماغ. إذاً الغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني والدماغ ملك الجهاز العصبي، لهذا الملك أدرك الخطر أرسل إلى الغدة النخامية أمراً عاماً أن هناك خطر، عليك أن تتصرفي أيتها الملكة. الغدة النخامية أرسلت أمراً هرمونياً ـ أمراً كيماوياً ـ إلى الكظر، الكظر أعطى أربعة أوامر، أمر إلى الأوعية بالتضييق، تجد الخائف اصفر لونه لأن الخائف ليس بحاجة إلى تورد الوجنتين بل بحاجة إلى سلامته، لذلك هذا الدم الذي يسهم في توريد الجلد يوفر للعضلات، من أعطى هذا الأمر فوراً لكل الأوعية بالتضييق، ضاقت الأوعية، من أعطى الأمر للقلب ؟ القلب له مركز كهربائي ذاتي يضخ ثمانين ضخة بالدقيقة أما أن ترتفع هذه الضربات إلى مئة و ثمانين ضربة فهذا يحتاج إلى أمر خارج القلب، من الدماغ، الدماغ مركز الإدراك، فالإنسان إذا خاف أسرع قلبه من أجل ماذا ؟ من أجل أن يسرع الدم في الأوعية ليصل إلى العضلات، وازداد وجيب رئتيه، لو فحصنا دمه لوجدنا فيه كمية كبيرة من السكر، هذا النظام من صممه؟

نظام الوقاية: من جعل بالعظام أعصاب حس، فإذا أصيبت العظام بكسر، الألم الشديد يسهم في أربعة أخماس العلاج ؟ الله جل جلاله.

7 ـ الطحال:

من جعل الطحال معملاً لكريات الدم الحمراء ؟ الإنسان وهو في بطن أمه قبل أن يتشكل عظمه تشكل نهائي يحتاج إلى دم، من يصنع هذا الدم ؟ معمل دم مؤقت هو الطحال فإذا نما عظم الجنين، وفي عظم الجنين نقي العظام وفي نقي العظام معامل كريات الدم الحمراء، فإذا نمت العظام توقف الطحال عن صنع الكريات الحمراء وبدأ نقي العظام بتصنيع الكريات، انقلب الطحال إلى معمل احتياط وإلى مقبرة لكريات الدم الحمراء ومعنى مقبرة، تحللها إلى عواملها الأولى وترسل تارة إلى الكبد لتكون الصفراء

وتارة إلى نقي العظام، الحديد يذهب إلى هناك ليعاد تصنيعه ويبقى الطحال مخزناً للدم يصرف في حالات النزيف وارتفاع الحرارة وما شاكل ذلك، هذا الطحال عالم قائم بذاته، يمكن أن يكتب عنه أطروحة دكتوراه، الطحال لوحده !.

8 ـ البنكرياس:

البنكرياس: الذي معه مرض سكر يعاني كثيراً، البنكرياس يفرز مادة الأنسولين يجعل السكر يحترق في الجسم بدرجة 37 درجة مع أن السكر يحتاج لمئة درجة ليحترق فيها، أما بالجسم فالسكر يحترق احتراقاً تاماً في درجة 37 درجة، هذا الإنسان صنع من ؟

(أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة)

أي معقول نطفة، حوين لا يرى بالعين يرى بالمجهر فيه هذه البرمجة فيه هذه الأجهزة الدقيقة.

9ـ العصب البصري:

العصب البصري تسعمئة ألف ليف عصبي، لكل عصب غمد من أجل نقاء الصورة.

ماذا أقول لكم عن الجمجمة، الدماغ، المفاصل، العظام، المعامل، الأجهزة، الحواس الخمس، كل حاسة العلم حتى الآن ما وصل لشيء فيها، وصل إلى لمسات.

كيف تفرق الأذن بين الضجيج وبين النغم ؟

لكن مثلاً الإنسان لو سمع شيئاً يسحق تحت باب يكاد يخرج من جلده هذا اسمه الضجيج، فإذا سمع صوت شلال يطرب له، هذا اسمه نغم. كيف تفرق الأذن بين الضجيج وبين النغم ؟ لا أحد يدري.

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ (78))

لو أنه ذكر خلقه لما ضرب هذا المثل، ولآمن بالله عز وجل. إذاً ماذا نستنبط نحن ؟ يجب أن نذكر كيف خلقنا ؟ نذكر أجهزتنا، نذكر آيات الله الدالة على عظمته في خلقنا ربنا عز وجل يقول:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت: الآية53)

وفي آية ثانية:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذرايات)

10- الرئتين:

أقرب شيء إليك جسمك، فالإنسان كلما تحرك، السعال مثلاً ما هو السعال ؟ الآن العقبة الكبرى التي تقف أمام الأطباء في زرع الرئتين هي أن الرئة المزروعة صاحبها لا يسعل، ما معنى السعال ؟ معناه أن هناك أهداب في الرغامى (في القصبة الهوائية) تتحرك نحو الأعلى تدفع كل شيء نحو الأعلى، فإذا دخل شيء للرئة غريب عن طبيعتها، الإنسان يسعل لكي يخرج هذا القشع، فإذا زرعت رئة، توصيل أعصاب السعال فوق طاقة العلماء، فالإنسان إذا لم يسعل يموت، تصبح رئتيه كلها إنتانات إذا دخلت قطرة ماء، قطرة ماء، الإنسان يسعل حتى يخرج كل شيء إلى خارج الرئة، وماء قليل في الرئة قد يميت الإنسان، من جعل الأهداب المتحركة نحو الأعلى ؟ الله عز وجل. بالمناسبة الدخان النيكوتين بالدخان يشل هذه الأهداب، كل إنسان يدخن، أهداب الرئة تصاب بالشلل، لها أثر سلبي على حركته.

11- لسان المزمار:

هذا لسان المزمار، شرطي مرور يشتغل ثمانين سنة بلا كلل وبلا ملل وأنت نائم يزداد اللعاب بفمك، الدماغ يأخذ إشارة، الدماغ يعطي أمراً وأنت نائم بتصغير الفتحة، يفتح المري وتغلق القصبة الهوائية ويمر اللعاب في المعدة، صُنْعُ مَنْ هذا ؟ الله جل جلاله.

12- الجهاز العظمي:

وأنت نائم يزداد الضغط على جسمك، الجهاز العظمي وما فوقه من عضلات له وزن ضاغط على ما تحته، هذه العضلات إذا ضغطت ضاقت لمعة الأوعية الدموية، قلت رجلي اخضرت، ماذا يعني الاخضرار والتنميل ؟ يعني التروية ضعفت، صار هذه اللمعة انضغطت فقلّت حركة الدم في الأوعية، فشعر الإنسان بهذا التنميل، أي وأنت نائم في مراكز ضغط تشعر بالضغط تعلم الدماغ، الدماغ يعطي أمراً للعضلات وأنت نائم بالتقليب، الله قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (18))

(سورة الكهف: الآية18)

وهذه من آيات الله، لولا تقلب الإنسان في النوم لتسلّخ جلده، لذلك الذي معه سبات دائم أول علاج له التقليب، وإلا هذه الأوعية التي ضاقت لمعتها يقل الدم فيها فتصاب النسج اللحمية بالموات وتموت هذه النسج، الإنسان كلما فكر بجسمه يشعر بضعفه وافتقاره إلى الله عز وجل، وعظم فضل الله عليه، فيأخذ حجمه الطبيعي.

خالق الكون لا حدود لعلمه:

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

ألا تشعر أن خالق الكون علمه مطلق ؟

(بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

البعوضة أصغر كائن من آيات الله الدالة على عظمته:

هل الإنسان فقط دقيق ؟ أي مخلوق، البعوضة لها ثلاثة قلوب، البعوضة لها جهاز رادار، لها جهاز تخدير و جهاز تمييع، والبعوضة ترف أجنحتها أربعة آلاف رفة إلى مستوى الطنين وأرجلها لها مخالب ولها محاجم، أي خلقها تام كامل، البعوضة لها جهاز تخدير حينما تمتص دم الإنسان، لا يشعر إلا بعد أن تطير والبعوضة معها جهاز تحليل، أخوان ينامان على فراش واحد هناك دم تحبه ودم لا تحبه وتتجه في الليل إلى جبين أحدهما بجهاز الرادار وتحلل الدم وتميعه وتخدر الملدوغ ثم تطير:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

(سورة البقرة: الآية26)

لا ترى في خلق الله من تفاوت في خلق الذبابة:

الحشرات، الذبابة ! يقولون: لا يوجد طائرة ترقى إلى مستواها في المناورة في الهواء، يمكن للذبابة أن تحط على السقف، سقوط نحو الأعلى، تناور بزوايا حادة، تكون ماشية بأعلى سرعة فوراً تأخذ زاوية حادة بجهة معاكسة، لو درسنا حركة الذبابة بالفضاء شيء لا يصدق !

صنعة الله المتقنة في خلق العنكبوت:

العنكبوت يخرج منها سائل خيط، هذا الخيط لو سحب الفولاذ بقطر هذا الخيط لكان أضعف من خيط العنكبوت والفولاذ أمتن معدن يتحمل قوى الشد، بيت العنكبوت آية من آيات الله، عندها سائل لزج خيط لزج وخيط متين، فبيتها مصنوع من خيوط متينة مثل الأساسات وخيوط لزجة من أجل صيد الحشرات، والقرآن يذكر أن التي تنسج البيت هي أنثى:

(اتَّخَذَتْ بَيْتًا (41))

(سورة العنكبوت: الآية41)

والعلم الحديث أثبت ذلك أن العنكبوتة النساجة هي الأنثى وليس الذكر. ليس الإنسان فقط كامل الخلق ما من مخلوق إلا وكامل.

الحوت خلق الله التام:

الحيتان في البحار، الحوت وزنه 150 طن فيه زيت 90 برميلاً، يقول لك: زيت كبد الحوت 90 برميل، اللحم 50 طناً، الدهن 50 طناً، وجبة طعامه 4 طن وسط، إذا أراد أن يعمل ريجيم أي 4 طن، رضعته الواحدة 300 كغ، ثلاث رضعات 1000 كغ باليوم يرضع الحوت، البعوضة بهذا الصغر والحوت بهذا الكبر كله خلق تام، هذا يعني قول الله عز وجل:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك: الآية3)

الله عز وجل إتقانه متقن بينما عجز الإنسان في إتقان صناعته:

لا تفاوت في إتقان الصنعة، البعوضة متقنة، والذبابة متقنة، والحوت متقن، والحصان متقن، والصقر عنده قوة إبصار ثمانية أمثال الإنسان، هذا الصقر، وبعض الكلاب عندها قوة شم تزيد عن حاسة الإنسان بمليون ضعف، يكفي أن تعطي هذا الكلب شيئاً من أدوات القاتل حتى يصل إليه من الرائحة فقط، لا يزال العلم في بداياته، أجمل كلمة قرأتها لعالم قال: **" لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة "**، لازلنا في البدايات.

عالم الحيوان، عالم الأسماك، عالم الأطيار، قرأت في مجلة عن الطيران مقدمة قال: إن أرقى طائرة صنعت حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر، حتى في الأسماك الغواصات كلها تحاول تقليد السمك.

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79))

ليس فقط في الإنسان، الإنسان يتقن شيئاً و يهمل أشياء كثيرة هي من عادته، يقول لك: هذه اعتنيت فيها، يتقن شيئاً ويهمل أشياء، لكن ربنا عز وجل إتقانه مطلق.

الإعجاز في خلق النبات:

(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

قرأت أنه في الحياة العربية في الجاهلية كان هناك نباتان خضراوان رطبان إذا احتكا ببعضهما أورث ناراً، فهذه الآية تُفسر بادئ ذي بدء على أبسط تفسير، أن الله عز وجل جعل في الجزيرة نباتين

خضراوين رطبين إذا احتكا ببعضهما أشعلا النار فكان العرب يستخدمون هذين النباتين في إشعال النار، لكن هذا المعنى يتناسب مع الذين عاصروا هذا النبات، لكن كلما تقدم العلم ألقى ضوءاً كاشفاً على بعض الآيات:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا (80))

صنعة الله المتقنة في النبات:

يوجد عملية تتم بالنبات الأخضر هي من أعجب العجائب، هذا النبات الأخضر فيه مادة اسمها اليخضور هي سرّ لونه الأخضر، إذا جاءها ضوء ولاسيما أشعة الشمس تحولت هذا المادة إلى مفاعل حراري من أضخم المفاعلات ومعنى مفاعل حراري أي يشطر الماء شطرين.

ما الماء ؟ الماء مادة مشتعلة جداً هي الأوكسجين، ومادة معينة على الاشتعال وهي الهيدروجين، أي الماء نار، مادة مشتعلة ومادة معينة على الاشتعال، فشطر الماء يحتاج إلى طاقة بخارية تعادل تسخين الماء 2500 درجة، هذه الطاقة البخارية بإمكانها أن تشطر جزيء ماء.

اليخضور حينما تصيبه أشعة الشمس يصبح مفاعلاً حرارياً يشطر الماء الذي في الورقة إلى أوكسجين وإلى هيدروجين، النبات يمتص من الهواء غاز الفحم ثاني أكسيد الكربون يمتصه، يتفاعل غاز الفحم مع الهيدروجين ومع 18 معدن المذابة في الماء الذي يمتصه النبات من التربة فيشكل ما يسمى النسغ النازل (الكامل) (النسغ الصاعد ماء ومعادن) يقول لك هذه التربة بحاجة إلى حديد، منغنيز، فوسفات هي كلها أسمدة، المعادن أسمدة، فالنبات يمتص الماء مع المعادن، اليخضور يشطر ماء الورقة إلى هيدروجين و أوكسجين، الهيدروجين يتفاعل مع غاز الفحم الممتص من الهواء ومع المعادن ويشكل النسغ النازل (الكامل) وهذا يشكل كل أغذية الإنسان بدءاً من القمح والشعير والحمص والحبوب إلى الخضراوات إلى الفواكه إلى الأزهار، هذا هو النبات ! فالنبات يطرح الأوكسجين، الجلوس تحت النبات منعش، أعظم النباتات طرحاً للأوكسجين هو الصنوبر، إذا الإنسان معه ضيق صدر وجلس بغابة صنوبر يحس براحة كبيرة كما لو وضعت على فمه كمامة أوكسجين، فالنبات يطلق الأوكسجين ويمتص غاز الفحم بعكس الإنسان، الإنسان يستنشق الأوكسجين و يطرح غاز الفحم من أجل التوازن.

الورقة في النبات هي أعظم معمل صنعه الله عز وجل:

هذا النبات يقوم بعملية، والله أنا هكذا أعتقد، أن أعظم معمل صنعه الإنسان، وهكذا قرأت، لا يرقى إلى مستوى الورقة الخضراء....اليخضور ما هذا السر الذي أصابه! بالضوء صار مفاعلاً حرارياً

شطر الماء في الورقة إلى أوكسجين وإلى هيدروجين خرج الأوكسجين وحقق التوازن في الجو، نحن نأخذ الأوكسجين ونطرح غاز الفحم، النبات عكسنا يأخذ غاز الفحم ويطرح الأوكسجين. صار في توازن وغاز الفحم مع الهيدروجين مع الـ 18 معدن المذابة في الماء تسهم في صناعة كل الغذاء للبشر: الخضراوات بأنواعها، الفواكه بأنواعها، حتى هذا النسغ النازل يصنع الجذر ويصنع الساق والأوراق والأزهار والثمار، فأنا لا أعرف أنه يوجد سائل يصنعه الإنسان ثم يحقنه يصير حديداً مرة، ومرة خشباً، ومرة إسفنجاً، ومرة بلاستيكاً، من غير المعقول سائل واحد تحقِنُهُ يصبح كل مرة مادة مستقلة عن الأخرى، هذا النسغ النازل يسهم في صناعة الجذور، والجذع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار في كل نبات، فربنا عز وجل في هذه الآية أشار إلى اليخضور.

أحدث نظرية للبترول:

قال تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

بعضهم قال إن هذه الطاقة التي أودعها الله في الأرض، النفط أساسه غابات عملاقة تشكلت في العصور المطيرة، أحدث نظرية للبترول غابات عملاقة تشكلت في عصور مطيرة ودفنت تحت الأرض وحللت فكانت البترول، النبات أساسه اليخضور أي كلمة الشجر الأخضر لولا هذه الورقة الخضراء لما كان هذا النبات، تجد نبتة صغيرة زرعتها أنت، أحياناً بذرة خيار بعد أربعين يوماً تجدها طولها أصبح مترين ونصف وثخن جذعها حوالي 3 سم ومجموع خضري كبير جداً، من أين جاء كل هذا ؟ من الأوراق، الأوراق معمل يصنع الجذع ويصنع الساق ويصنع الأوراق ويصنع الثمار، فربنا عز وجل أشار بهذه الآية إلى هذه المادة العجيبة التي لولاها لما كان النبات على وجه الأرض إطلاقاً.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

القرآن الكريم حمال أوجه محتملة، نفهم الآية على أساس أن هذه الآية إشارة إلى هذا البترول الذي صنع عن طريق الأوراق الخضراء، وقد قيل إن كل شيء يحترق هو تخزين للطاقة الشمسية في الأساس، فاليخضور لولا هذه الطاقة الشمسية لما شطر الماء فكأن هذا الخشب فيه جزء من الطاقة الشمسية:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

الشجر نفسه كان أخضر، كان أساسه الماء ثم أصبح يابساً فجعلته وقوداً، أو أن هذا الشجر أصبح بترولاً خاماً.

(فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

أو أن هذا الشجر لولا هذا اليخضور لما كان، أو أن هذين النباتين الخضراوين الرطبين إذا احتكا ببعضهما أورثا ناراً، هذا المعنى الأول الذي كتبه المفسرون.

قدرة الله عز وجل في إعادة الخلق مرة ثانية:

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (81))

يوم القيامة، أي البدء أهون أم الإعادة ؟ الإعادة أهون فالإنسان حينما ينكر البعث ينكر يوم القيامة، على أي شيء يعتمد ؟ الذي خلق هذا الكون بسماواته وأرضه يا ترى أليس قادراً على أن يعيد خلقه مرة ثانية ؟ ربنا قال:

(بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81))

خلاق صيغة مبالغة أي كثير الخلق عدداً وكثير الخلق نوعاً و كثيره كمّاً.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82))

الإنسان حياته مبنية على أن الإنسان فقير وضعيف يقوى بأشياء خارجة عنه، الإنسان يتصل الآن ببلد بعيد بالهاتف فهو ضعيف صوته لا يصل إلى هذا البلد لكن يكمن ضعفه بشيء خارج عنه هكذا طبيعة الإنسان.

الإنسان أحياناً يكسر شيئاً في آلة، يقطع شيئاً بسكين لأنه ضعيف يكمن ضعفه بشيء خارج عنه، لكن الإله العظيم شأنه غير هذا الشأن يكفي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وانتهى الأمر.

إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته متعلقة بالخير المطلق:

لذلك إذا أراد الله شيئاً وقع، كل ما أراده الله وقع وكل ما وقع أراده الله، عكس بعضهم أو يكملوا بعضهم، كل شيء أراده الله وقع وكل شيء وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته متعلقة بالخير المطلق لذلك ورد بالحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر الغفاري]

((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إلا مَنْ أَغْنَيْتُ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلامٌ وَعَذَابِي كَلامٌ إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

[مسلم عن أبي ذر الغفاري]

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83))

أوجه التفاسير لكلمة ملكوت:

الملك التام خلقاً وتصرفاً ومصيراً:

أوجه التفاسير لكلمة ملكوت هي الملك التام أوضح لكم ذلك: أنت في الدنيا قد تملك بيتاً ولا تنتفع به، باسمك البيت معك ورقة طابو لكن مؤجره وأجرته رمزية والمستأجر يحميه القانون يحميه هو وأهله من بعده، فهذا ملك ناقص لأنك لا تنتفع منه، وقد تنتفع ببيت ولا تملكه، في قلق مستمر إذا تعدل قانون الإيجار تصبح بالطريق، وقد تملك رقبة البيت وتنتفع به لكن معرض لقانون الاستملاك، يظهر أمامك شارع يستملكونه منك، ما هو الملك التام ؟ هو أن تملك الشيء رقبة ومنفعة ومصيراً، فإذا قلنا الله عز وجل ملك أو بيده ملكوت كل شيء أي ملك الله عز وجل للكون ملك تام خلقاً وتصرفاً ومصيراً:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ (26))

(سورة آل عمران: الآية26)

الإنسان ليس له شيء، عينه فجأة يتعطل مركز الرؤية بالدماغ لم يعد باستطاعته أن يرى، من منا يملك عينه ؟ سمعه ؟ من يملك عقله ؟ يكون بأعلى درجة من الوقار والهيبة يختل شيئاً بعقله يصير محله بمستشفى الأمراض العقلية أهله خافوا منه ابتعدوا عنه.

الإنسان لا يملك شيئاً كل شيء بيد الخالق سبحانه:

الإنسان لا يملك شيئاً، من يملك قلبه ؟ من يملك انتظام نمو الخلايا ؟ يكون شخص بأعلى درجات الصحة، فجأة اختل نمو الخلايا بجسمه يقول لك: والله لم يطول، من يملك كبده ألا يتوقف عن العمل ؟ من يملك كليتين لا يتوقفوا عن العمل ؟ من منا يملك طحاله ؟ لا يوجد عضو من أعضاء الإنسان إلا يسبب وفاته لو تعطل، فالإنسان لا يملك شيئاً:

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (83))

قال بعض المفسرين:" الملك ملك الأجسام والملكوت ملك الأرواح لكن أوجه التفاسير أن الملكوت هو الملك التام " أي أعلى درجات الملك هي ملك الله لخلقه خلقاً وتصرفاً ومصيراً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (01-14): تفسيرالآيات 01 - 05
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الصافات:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالصّافّاتِ صَفًّا(1)فَالزّاجِرَاتِ زَجْرًا(2)فَالتّالِيَاتِ ذِكْرًا(3)إِنّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(4)رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

وَالصّافّاتِ صَفًّا (1) فَالزّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتّالِيَاتِ ذِكْرًا

أيها الإخوة، هذه العبارة أو هذه الصيغة:

(وَالصّافّاتِ صَفًّا)

1 ـ الحكمةُ من قسم الله بالآيات الكونية:

هذا قسم، وقد بيّنت لكم من قبل أن الله عزّ وجل إذا أقسم بذاته فمن أجل أن يجذب نظرنا إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، أما إذا أقسم بآياته فليلفت نظرنا إلى هذه الآيات.

وشيءٌ آخر، ربنا جل جلاله مرةً يقول:

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75))

(سورة الواقعة)

ومرةً يقسم فيقول:

(وَالشّمْسِ وَضُحَاهَا(1))

(سورة الشمس)

فإن لم يقسم فبالنسبة إلى ذاته، وإن أقسم فبالنسبة إلينا، وإذا أقسم بمخلوقاته فهذا يعني جلب نظرنا إلى هذه الآية، فنحن أمام ثلاث آيات:

(وَالصّافّاتِ صَفًّا(1)فَالزّاجِرَاتِ زَجْرًا(2)فَالتّالِيَاتِ ذِكْرًا)

2 ـ الصافات هم الملائكة:

فبعض التفاسير تبيّن أن الصافات هي الملائكة تصفُّ أجنحتها امتثالاً لأمر ربها، وهي تزجُر الكفار والعصاة عن معاصي الله عزّ وجل.

(فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)

3 ـ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا

هي التي وكّلها الله جلّ جلاله بالوحي تُلقيه على الأنبياء، وهذا وجهٌ من وجوه هذه الآيات، فالملائكة صافةٌ أجنحتها انتظاراً لما يأمرها الله به من مهام أوكلها إليها، أو تزجر الشياطين أو الكفار عن المعاصي، أو تتلو الذكر على الأنبياء والمرسلين.

وقد يقول قائل: نحن لم نشاهد الملائكة، والجواب: أن إخبار الله جل جلاله يرقى إلى مستوى الرؤية، لأنه إخبار خالق الكون، والدليل قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

مَنْ مِنَ الناس ممن أنزل عليهم القرآن، أو ممن عاصروا نزوله، أو ممن جاءوا بعده رأوا أصحاب الفيل ؟ ولكن إخبار الله يرقى إلى مستوى الرؤية.

إذاً: يمكن أن نفهم من هذه الآيات أن الملائكة التي خلقها الله عزّ وجل للتسبيح، والحمد، والعبادة قد أوكل إليها مهامّ عظيمة، فهي تارةً تنتظر أمر الله لتنفّذهُ، وتارةً تزجر الشياطين أو العصاة عن المعاصي، وتارةً تتلو على الأنبياء الذكر الحكيم، وقد أخبرنا الله عن هذه المخلوقات، وإخبار الله كما قلت قبل قليل يرقى إلى مستوى الرؤية.

ولكن القرآن أيها الإخوة حَمّال أوجه، ولا يستطيع أحدٌ أن يحصر آية بمعنى محدود، لأن كلام الله لا نهاية لمعانيه.

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف)

والقرآن كما وصفه الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: حمال أوجه، فبعضهم قال: الصافّات كل شيءٍ يصطف، الطير صافّات، كما وصفها الله عزّ وجل، وكل شيءٍ يزجر، وكل شيءٍ يتلو الذكر الحكيم.

4 ـ الصافات هي السحب:

وبعضهم قال: الصافّات هذه السحب لتي اصطفّت إلى جانب بعضها بعضاً، والزاجرات تلك الرياح التي تسوق السحب إلى مواقع القطر، والتاليات ذكرا هذه الآية ؛ آية السحاب، وآية الرياح، تتلو علينا شيئاً عن عظمة الله عزّ وجل، كأنها تتلو علينا بلسان الحال لا بلسان المقال.

5 ـ الصافات هم المجاهدون في ساحة المعركة:

وبعضهم قال: المجاهدون إذا اصطفّوا صفاً واحداً ليقتحموا العدو، وليزجروه، وهم يذكرون الله حتى في أثناء لقائهم مع العدو، فهذا أيضاً يُقْبَل.

6 ـ الصافات هم الدعاة إلى الله:

وبعضهم قال: الدعاة إلى الله الذين يصطفّون لعبادة الله، ويزجرون العصاة عن المعاصي، ويتلون على الناس ذكراً.

وعلى كلٍ، فهناك الصافات، والزاجرات، والتاليات، وإن شئت أن تقول: هي الملائكة، فهناك أكثر من قولٍ في هذا الموضوع، وإن شئت أن تقول: هي السحب قد اصطفت، والرياح قد زجرت، ولسان حال السحب والرياح تتلو علينا شيئاً عن عظمة الله عزّ وجل، فهذا صحيح، وإذا قلت: هي الطير، وإذا قلت: هم المجاهدون، وإذا قلت: هم الدعاة، وعلى كلٍ القرآن مطلقةُ على إطلاقه، وفيه إيحاء، فقد يوحي المعنى غير التفصيلي بمعانٍ كثيرة يستنبطها كل فريقٍ بحسب اهتمامه.

جواب القسم: إِنّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ

والذي يعنينا من هذه الآيات، على أي شيء هذا القسم ؟ فما موضوع القسم ؟ وما المُقْسَمُ عليه ؟ قال:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

1 ـ التوحيد أمانُ العبيد:

وكأن هذه الآيات تشير إلى التوحيد، وكلكم يعلم أنه ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، فإذا وحدت الله أيها الأخ الكريم فقد بلغت منتهى العلم، ونجوت من عذاب النفس، لقول الله عزّ وجل:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ)

(سورة الشعراء)

فالذي يحملك على المعصية هو الشرك، ويدعوك إلى الخوف وإلى التبعثُر والتشتت، والذي يجمع كل طاقاتك في بؤرةٍ واحدة هو التوحيد، ويطمئنك، ويرفع معنوياتك، ويجعلك تعيش عزيز النفس، فلا تخاف أحداً ؛ بل تخاف الله جلّ جلال، ويكاد أن يكون علم التوحيد أجَلّ علوم الدين، إنك إذا عرفت أن أمرك كله بيد الله، ارتاحت نفسك مما سواه، واتجهت إلى الله، إذا عرفت أن أحداً لا يستطيع أن يفعل معك شيئاً ؛ لا عطاءً ولا منعاً، ولا إكراماً ولا إهانةً، ولا إحساناً ولا إساءةً..

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر: من الآية 2)

إذا أدركت حقائق التوحيد دخلت في عالم الطمأنينة، وعالم الحرية، والعِزّة، والثقة، والإشراق، فلذلك كيفما أردت فسِّر هذه الآيات، إنها آياتٌ دالة على عظمة الله، والإيمان بالملائكة إيمان إخباري هكذا أخبرنا الله، عن ظاهرة الأمطار والسحب التي هي مصدر الرزق..

(وَفِي السّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

(سورة الذاريات)

هذه آية.. والذين..

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

(سورة المائدة: من الآية 54)

آية، والذين يعلمون العلم، آية.. وعلى كلٍ فهذا كله يؤكد:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

(وَقَالَ اللّهُ لا تَتّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة النحل: من الآية 51)

فالله جل جلاله ما دعاك إلى عبادته إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله راجعٌ إليه.

الخالق والرب والإله:

بالمناسبة هذه المصطلحات: الخالق الذي خلق، والرب الذي ربّى، والتربية في أدق معانيها إمداد ؛ أي إمدادٌ بما تحتاج، كإمدادٌ النفس بما تحتاج من تربية، تربية نفسية، وعقلية، وشعورية، ومادية من الله رب العالمين، فالله خالق إذ هو خلق، والله ربٌ يربي هذه النفوس.

كنت أمشي في الطريق فسمعت رجلاً يصيح بأعلى صوته إثر مشكلةٍ أو مشادةٍ حول يتيمٍ، فقال كلمة هزت مشاعري، قال: **" وجدت إنسانا ليس له أب أليس له رب ؟ "**، ومنذ أن سمعت هذه الكلمة وحتى

الآن أشعر أن الله هو الرب، وأنه ليس عند الأب من الرحمة والعلم والحرص شيء يذكر أمام رحمة الله عزّ وجل، فلو وجدت الطفل يتيماً فله ربٌ يربّيه، ويدله على الخير، ويحفظه ويأخذ بيده.

وأنت أيها الأخ الكريم إذا رأيت إنساناً ضعيفاً فلا تستهن بضعفه، فله رب يأخذ بحقه، وإن رأيت إنساناً مقطوعاً، كما لو تزوّجت امرأةً ليس لها أهلٌ كُثُر، وليسوا أقوياء، لا تقل: هذه مقطوعة، فلها رب، والرب ينتقم، فالله رب العالمين.

أما الإله ـ ارتقينا ـ الخالق خلق، والرب أمد، وربى كل أنواع التربية، من تربيةٍ جسميةٍ، إلى تربيةٍ عقليةٍ، إلى تربيةٍ نفسيةٍ، إلى تربيةٍ شعوريةٍ، لكن الإله هو الذي تعود الأمور كلها إليه، الأمر راجعٌ إليه، وهو بيده، وبيده ملكوت كل شيء.

أيها الإخوة، أنا أقول لكم هذا المثل المتكرر على هذا المعنى: إذا دخلت إلى دائرةٍ حكومية، وأنت في أمسّ الحاجة إلى أخذ موافقةٍ على السفر، فإذا قيل لك: هذه الطوابق الثلاثة على ما فيها من موظفين، ورؤساء دوائر، وكتبة، وحُجّاب، ورؤساء أقسام، ومعاون مدير عام، لا يستطيع أحدٌ أن يكتب لك مع الموافقة إلا إنسان واحداً، إنه المدير العام، فبربك هل تتجه إلى أحدٍ غيره ؟ هذا شأنك مع بني البشر، وهذا شأنك من أجل موافقة سفر، فكيف لو علمت أن كل أعضائك بيد الله، وأن كل أجهزتك الدقيقة بيد الله، وأن عمل كل الأعضاء الخطيرة بيد الله، فمن يستطيع أن يُحْكِمَ دَسّام القلب ؟ من يستطيع أن يبقي هذه الأوعية مرنة ؟ ومن يحفظ لك أجهزة التصفية ؟ من يضمن للإنسان ألا تنمو الخلايا نمواً عشوائياً، فإذا هو مرض خبيث ؟ من يضمن لك ألا يفقد بصره ؟ قل اللهم مالك الملك، الله هو الذي يملك كل هذه الأعضاء والحواس.

الله وحده المستحق للعبادة:

إذاً: الإله هو الذي بيده كل شيء، وما دام كل شيءٍ بيده فينبغي أن تتجه إليه وحده بالعبادة، انظر لهذه العلاقة، ما دام الأمر كله راجعاً إليه، إذاً: هو المعبود، فمن المعبود منطقاً وعقلاً ؟ الذي ترجع الأمور إليه.

في هذا المثل البسيط البسِيط: من أجل موافقة تدع كل الناس، وكل الطوابق، وكل رؤساء الأقسام، حتى معاون المدير، وتدع كل الحُجّاب، وتتجه إلى إنسانٍ واحد بإمكانه أن يكتب لك مع الموافقة، أو مع عدم الموافقة، فكيف إذا علمت أن الأمر كله بيد الله ؟ هذا هو التوحيد.

أيها الإخوة الأكارم، ولولا التوحيد لعاش الناس في شقاءٍ كبير، قلت لكم منذ حين: إن مرض القلق هو الذي يأكل أكباد الناس، القلق هو الخوف من المجهول، فالخوف من المرض مرض، والخوف من الفقر

فقر، وتوقُّع المصيبة مصيبة، وربنا عزّ وجل يقول لك: انظر إلى هذه السماوات وما فيها من آيات، وهذا السحاب من يسوقه ؟ إلى بلدٍ ميت فيحي به الأرض بعد موتها أإلهٌ مع الله ؟ ليس في الكون إلا إلهٌ واحد، وإن الذي يدير هذه الكواكب والمجرّات، والذي يسوق لك السحب الماطرة والمُمطرة هو الذي يرزقك..

(إِنّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

نحن عندنا قاعدة: هل هناك إلهٌ آخر ادعى أنه خلق الكون ؟ ما دام لم يدّع أحدٌ خَلْقَ الكون، والله عزّ وجل يقول:

(وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللّهُ)

(سورة آل عمران: من الآية 62)

إذاً:

(إِنّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

فهنا موطن الشاهد، وهنا بيت القصيد، محور الدَرس، إلهك واحد، لكن متى يعصي الإنسان ؟ ولماذا تعصي الخالق، وترضي زيداً ؟

معصية العبدِ ربّه من ضعف توحيده:

أقسم لك ولا أبالغ إنك لا تعصي الإله لإرضاء زيد ـ وقد تكون كلمتي قاسية ـ إلا لأنك ترى زيداً أقوى من الله، كيف تعصي خالق الكون، وتطيع زيداً أو عبيداً ؟ إذاً: هناك ضعفٌ في الإيمان، ضعفٌ كبير في الإيمان، حينما تُرضي إنساناً، وتعصي خالقاً، وهذا الإنسان ماذا يملك ؟! لماذا تقول في الصلاة: الله أكبر ؟ معنى الله أكبر أي أكبر من كل شيء، رأيت الله أكبر كل شيءٍ، ولذلك تستهين أنت بكل شيء، فماذا فعل سحرة فرعون ؟

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنّهُ لَكَبِيرُكُمْ الّذِي عَلّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنّ َأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنّكُمْ فِي جُذُوعِ النّخْلِ وَلَتَعْلَمُنّ أَيّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

(سورة طه)

استمع إلى قول السحرة، وقد عرفوا الله.

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدّنْيَا(72)إِنّا آمَنّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

متى يَغُش الإنسان ؟ لضعفٍ في توحيده، ولأنه ما تحقق من اسم الرازق، يرى أنه إذا غش يضاعف أرباحه، ونسي أن الله هو الرزّاق، ولا رازق سواه، ومتى يُنافق الإنسان ؟ لضعفٍ في توحيده أيضاً، فإذا علم أن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً فإنه لن ينافق.

فمن أين تأتيك العِزّة ؟ من التوحيد، ومن أين تأتيك الجُرأة ؟ من التوحيد، ومنه يأتيك الحرصُ على طاعة الله ؟ ومن أين يأتي النفاق ؟ من ضعف التوحيد، ومن أين تأتي المعاصي ؟ من ضعف التوحيد، ولذلك: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نهاية العلم.

(وَالصّافّاتِ صَفّا(1)فَالزّاجِرَاتِ زَجْرًا(2)فَالتّالِيَاتِ ذِكْرًا)

المُقْسَمُ عليه:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

هل تحققت من هذا ؟ لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَاعْلَمْ)

(سورة محمد: من الآية 19)

أمر في القرآن، وكل أمرٍ يقتضي الوجوب..

(فَاعْلَمْ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ)

(سورة محمد: من الآية 19)

إدراك التوحيد كفكرة أمر سهل، ولكن حينما تأتي مشكلة من زيد، يجب أن تراها من الله عزّ وجل، أما حينما تمتلئ حقداً على زيد، وضغينة على عُبيد، وتقول: فلان قطع رزقي، وفلان أصابني بالأذى، والله لأفعلن به كذا وكذا، تنسى خالقك، ومربيك، ومسيرك، فهذا هو ضعف التوحيد.

التوحيد لا يأتي بجلسةٍ واحدة، ولا بكتابٍ تقرأه، ولا بخطبةٍ تسمعها، إنه لا يأتي إلا بمتابعة البحث، مع الإصرار على معرفة الله، لأنه ليس هناك في الكون إلا الله، وأي شيءٍ قرّبك منه فهو حق، وأي شيءٍ أبعدك عنه فهو باطل، أي شيءٍ قرّبك من الله الذي لا إله غيره فهو عملٌ صالح، وأي شيءٍ قطعك عنه فهو عملٌ سيئ، وهذه كُلِّيَات الدين.

وهناك سؤال قبل أن تتحرك، وقبل أن تخطو خطوةً، وأن تقول كلمةً، وأن تُمضي هذه السهرة، السؤال هو: هل هذا النشاط يقربني أم يبعدني ؟ إذا كان يقرّبك فافعله، وإن كان يبعدك فدعه، لأن كل السعادة عند الله عزّ وجل، وكل الأمن والطمأنينة عند الله، وكل الفوز والفلاح، والنجاح والخسارة، والخيبة والخزي والعار إذا كنت بعيداً عن الله.

أيها الإخوة الأكارم، هذه حقيقة أتمنى عليكم أن تستوعبوها، إذا اعتقدت لحظةً واحدة أنه بإمكانك أن تسعد بعيداً عن الله فهذا هو الجهل الأكبر، إنك لا تسعد إلا به، ولا تسعد إلا بطاعته، وبتطبيق منهجه والإقبال عليه، والعياذِ به، وتلوذَ بحماه، فلا ملجأ منه إلا إليه.

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

الشمس تنطق بهذا، والقمر والنجوم ينطقن بهذا.

العناية الربانية بالأنبياء:

حينما أوحى الله جل جلاله لأم موسى قال لها:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من الآية 7)

أمر..

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ)

(سورة القصص: من الآية 7)

مَنْ مِنَ الأمّهات تستطيع أن تضع مولودها الذي هو فلذة كبدها في صندوقٍ، وتلقيه في بحر، أو في نهر كنهر النيل، إن لم تكن واثقة أن هذا الصندوق لا يتحرّك قيد أنملة إلا بأمر الله، وأن الله هو المسير؟ وهذا المثل دقيق جداً، فأنا لا أضع فلذة كبدي في صندوق، وألقي هذا الصندوق في اليم، إن لم أكن واثقة أن الله بيده الماء، وبيده الصندوق، وشاطئ قصر فرعون، وقلب امرأةِ فرعون، وحركة امرأة فرعون إلى شاطئ النهر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، وأن هذا الصندوق يتحرّك بأمر الله، فتارةً تقذفه موجةٌ نحو اليمين، وتارةً نحو الشمال، وتارةً تعتري طريقه شجرة، إلى أن يسوقه الله إلى شاطئ قصر فرعون، ويوحي إلى امرأة فرعون أن تنزل إلى شاطئ النهر لترى الصندوق، تفتحه، فيقع حبٌ هذا الطفل في قلبها..

(لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُون)

(سورة القصص)

وقد رأى فرعون في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فقال القضية سهلة جداً: أنا سأقتل أطفال بني إسرائيل جميعاً، ما لكم من إلهٍ غيري، هكذا يقول، والطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاه في قصره، انظر:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أيها الإخوة الأكارم... والله قصص القرآن فيها من البيان، والعمق، والدلالات، والاستنباطات ما يحار فيها الإنسان، فالذي سيقضي على ملكه رباه في قصره وهو لا يدري.

وسيدنا يوسف ألقوه في الجب، وما علموا أن الله معه، وسوف يخرج من هذا الجب، ويدخل قصر العزيز، وسيكون في وقتٍ لاحق عزيز مصر، وسيأتيه أخوته خاضعين، قالوا:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة يوسف)

فما مؤدى هذه القصص ؟ مؤدّاها أن تثق بالله، أن تكون معه، ومع أمره، ونهيه، ومنهجه، وقرآنه، ولا تخشى أحداً، ولا تخاف في الله لومة لائم ـ " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " ـ أي إنسان تطيعه وتعصي الله، لو أراد الله أن يؤدِّبك أو أن يعالجك، لا يستطيع هذا لذي عصيت الله من أجله أن يخلِّصك، لكنك إذا لُذْتَ بالله وأرضيته، وأغضبت مخلوقاً، فإن الله يمنعك منه، ويحول بينك وبينه.

وقفت عند كلمة:

(إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

لأن الدين كله توحيد، وعندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ)

(سورة هود: من الآية 50)

ماذا قال ؟ لخص الله عزّ وجل دعوة الرُسل كلها بكلمة، قال:

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود: من الآية 50)

اعْبُدُوا، أي أطيعوه، لماذا ؟ لأنه:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود: من الآية 50)

فهذا الربط ما دام الأمر كله بيد الله، إذاً هو وحده يستحق أن تعبده، لأنه المعبود الحقيقي ؟ الذي بيده الخَلق والأمر، في أذهانكم مثل الموافقة، من هذا الذي ينبغي أن تدخل غرفته، وأن تقف بأدبٍ أمامه، وأن تعرض له قضيتك ؟ هو الذي بيده حق التوقيع على الموافقة، أما هل يعقل أن تقف أمام حاجب، وتنحني له نصفين، وتقبّل الأعتاب، وتقول له: يا سيدي، أرجوك أن توافق لي، يبتسم، ويقول لك: الأمر ليس بيدي، وإذا أوهمك أن الأمر بيده، وانطلى هذا عليك، فهذا غباءٌ شديد، إذا أوهمك إنسان بسيط أن

الأمر بيده، فهذا الإنسان الذي قبل بهذا مغفل، وإذا أوهمك إنسان أن بيده الأمر، وأنت قبلت هذا الشيء، فأنت مغفل، إذا قال: أنا سأفعل معك كذا، قل له: إن شاء الله، إن سمح الله لك أن تفعل، هذا التوحيد..

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

آياتُ التوحيد تطمئِن المسلمَ:

يا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو، إن آيات التوحيد تقع في النفس موقعاً مريحاً، إن أردت آية ترتاح لها، وتنام ملء عينيك ؛ ولا تخشى أحداً، ولا تخشى تهديداً، ولا وعيداً، ولا توعُّداً، وإذا أردت أن تنام مرتاح البال فوحِّد، وحِّد يا موحِّد، أو قل: لا إله إلا الله، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، الله بما تعملون بصير.

هناك صناعات غذائية فيها مواد كيماوية تجعلها رائجة أكثر، لكنها تؤذي الأجسام، فالمؤمن يجب أن يبحث عن مرضاة الله عزّ وجل، يمكن أن تضيف مواد ضارة ومؤذية إلى بعض الصناعات الغذائية، ولكن الله تعالى بصير بما تعملون..

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(11))

(سورة سبأ)

أي أعرفُ ما تعملون، أُقدِّرُ عملكم، فإذا وضعت سعراً معتدلاً لهذه السلعة حتى يتيسّر على المسلمين شراؤها، والله عزّ وجل يعلم ذلك.. قل: حسبي الله ونعم الوكيل، وقل:

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

(مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: من الآية 56)

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة المؤمنون: من الآية 88)

(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: من الآية 41)

ألا تجعلك كل هذه الآيات تطمئن إلى أن الأمر كله بيد الله ؟ تنام عندئذٍ قرير العين، تنام مرتاح البال، تُحِسُّ بعزتك، وتحس أن الله الذي أمرك أن تعبده ما سلمك إلى أحدٍ أبداً، ويقول لك: عبدي، كل أمرك راجعٌ إلي، فاعبدني وحدي، الذي أمرك أن تعبده ما سلّمك إلى أحد، أما هذا الذي يمتلئ قلبه خوفاً، يقول لك: يا أخي، أنا أمري بيد فلان، وإذا غضب فلان علي أوقع بي الأذى والضُر، ونقلني إلى مكان بعيد، ومنعني من الدراسة، وفعل بي كذا وكذا !! هذا هو الشرك بعينه، يقول الناس تارةً: إذا لم نغش لا نربح، ولا نعيش، وعندنا أولاد !! أين الله ؟ هذا هو الشرك، لا تعيش إلا إذا غششت الناس، يقول لك: إن وضعت هذا المال في البيت دخل علي السارقون وقتلوني، ما الحل إذاً ؟ أن تثمِّرَهُ عن طريق الربا !! فهل هذا هو الحل، أم إذا أطعت الله عزّ وجل، وبحثت عن سبيلٍ صحيح لتثمير المال، عندئذٍ تأتيك الأخطار، إذا عصيته فأنت في أمنٍ وبحوحبة، أهذا منطق ؟! الله عزّ وجل آمر، وهو آمر خالق، والآمر الخالق ضامن، قد يكون الآمر من بني البشر غير ضامن، كأن يقول لك الطبيب: خذ الدواء الفلاني، هو غير متأكدٍ منه، أو غير منتبهٍ لبعض الزوايا الأخرى في جسمك، فيحدث ضرٌ، هو أمرك، وهو ضرك، قد يقع ذلك، لأنه بشر، وكل بني آدم خطاء، آمر يأمرك بشيء، ولا يضمن لك النتائج، هذا مستحيل، ولكن الله أمر ضامن، فما أمرك أن تستقيم على أمره إلا ليكرمك، وما أمرك أن تخاف منه إلا ليطمئنك، إن خفت من الله خافك كل شيء، وإن لم تخف من الله أخافك الله من كل شيء، وفرقٌ كبير بين أن تخاف كل شيء ؛ وبين أن يخافك كل شيء، فرقٌ كبير بين أن تهاب كل شيء ؛ وبين أن يهابك كل شيء، ذلك هو المؤمن، انظر إلى قوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 5)

هكذا الآية:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

أما..

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

(سورة الروم: من الآية 44)

وكأن الكفر يسحقه سحقاً، لكنك إذا اهتديت فالهدى يرفعك إلى أعلى عليين، يرفعك نفسياً، ويرفعك مادياً، وعقلياً.

رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

من هو الإله الواحد ؟ قال: هو نفسه:

(رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هناك وحدة في الكون، الإله الذي تعبده هو:

(رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الرب خالق الكون بما فيه:

هو الذي يحرّك المجرات، فما هذه المجرات ؟ بُعد إحدى المجرات ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، علماً بأن الضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، فكم يقطع في الدقيقة، والساعة، واليوم، والسنة؟ أربع سنوات بُعد أقرب نجم ملتهب ؟ أربعة آلاف سنة بُعد نجم القطب ؟ مليون سنة بُعد المرأة المسلسلة ؟ وهناك مجرة تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، الله هو الذي يحرك هذه المجرات، لكن نحن كيف عرفنا بُعدها ؟ وصلنا ضوءها.

أيها الإخوة، لقد كانت في موقعها قبل ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، والآن وصلنا ضوءها، فأين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الواحد الديان ؟ الذي يسيّر المجرّات هو الذي يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، الذي يسيّر هذه المجرات هو الذي يحرك هذه الذرات، فما هي الذرات ؟ ألوفُ ألوف الملايين من الذرات على رأس دبوس، وكل ذرة لها نواة، وكهروب، ومدار أول، ومدار ثان، ومدار ثالث، فإن دخلت في الصغر فشيء يحار له العقل، وإن اتجهت إلى أشياءٍ كبيرة فشيء تعجب له العقل، لذلك:

(رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

السماوات والأرض هذا اصطلاح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، والله الخالق، وما سوى الله هو الكون، أي السماوات والأرض.

(رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

حدثني شخص قال لي: هناك جبل شاهق جداً في بلاد المشرق، وعلى رأس هذا الجبل نبع ماء، تعيش بعض الحيوانات على قمم الجبال، ومن أجل أن تعيش لابدّ لها من ماء، والإخوة الكرام الذين درسوا الفيزياء والكيمياء، ودرسوا نظام الأواني المستطرقة، يعلمون أنه لا يمكن لهذا النبع أن يفسّر إلا بمستودعٍ في جبلٍ آخر أعلى منه، ومعنى ذلك أن هذا النبع موصول بتمديدات إلى جبل آخر أعلى منه يحوي مستودع هذا النبع، فمن أجل بعض الوعول التي تعيش في قمم هذه الجبال سيَّر الله نبعاً من الماء

تتصل تمديداته بقمم الجبال البعيدة الأخرى، فبلد كإندونيسيا تحوي أربعة آلاف جزيرة، ولكل جزيرةٍ نبع ماءٍ يتناسب مع مساحتها ومع سكانها، وعلماً أن كل الأمطار التي تهطل على هذه الجزيرة لا تكفي لغزارة هذا النبع، إذاً لابدّ من تمديداتٍ تحت سطح البحر إلى جبالٍ شامخة في القارة الأسيوية، وهذه التمديدات من أجراها ؟ الله عزّ وجل هو:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وهذا النبات الأخضر، وهذه الكتلة الخضراء في الأرض، إنها تعيش على ثاني أوكسيد الكربون، وتعيش على غاز الفحم الذي تطرحه الكائنات البشرية والحيوانات، غاز الفحم مادة سامة جداً، إذا غطى الإنسان رأسه بغطاء يضيق نفَسُه بعد دقيقة، فما الذي حصل ؟ حصل أن الأوكسجين قلّ، وازداد غاز الفحم، وغاز الفحم غاز سام، ويعدمون الإنسان في بعض البلاد بالغاز إعداماً بطيئاً، إذا أشعل أحدهم منقلاً كما كان في السابق، أو دخل إلى حمام محكم الإغلاق، وفيه موقد غاز أو موقد على الوقود السائل، وكان احتراقه غير تام، أعطى غاز الفحم، فيموت المستحم، وهو لا يدري، فمن جعل هذه الكتلة الخضراء تأخذ غاز الفحم وتطرح الأوكسجين ؟

إذا تجوّل الإنسان داخل غابة صنوبرية، يحس بانتعاش عجيب، لأن غابة الصنوبر أعلى أنواع الأشجار التي تطرح الأوكسجين، إذا مشيت في غابة الصنوبر فكأنك تضع واضع كمّامة أوكسجين على أنفك، الله جعل الأشجار أشجاراً تزيينية جميلة جداً، وجعلها نافعة جداً، ولذلك ينصح المصابون بالربو بأن يقيموا في جبال مكسوّة بالصنوبر، فمن جعل هذا النبات يأخذ غاز الفحم، ويعطيك الأوكسجين من أجل هذا التوازن ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فمن أودع هذه الينابيع ؟ فلو أنك محتاج إلى مستودع للماء يكفيك طوال العام لاحتجت إلى مستودع يعادل مساحة بيتك، إذ يحتاج من مساحة بيته ثلاثمائة متر إلى مستودع ثلاثمائة متر، قال الله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

فمن الذي خَزّنَ المياه ؟ ومن أجرى الأنهار ؟ ومن فجر الينابيع ؟ ومن صفى هذا الماء، يقول لك: تحلية كل لتر تكلف ستة ريالاً، ستة بثلاثة عشر ليرة، أي حوالي مائة ليرة سورية، تحلية كل لتر تكلف مائة ليرة سورية، كم تكلف تحلية ماء الفيجة ؟ إنه تحلية ربنا، وهي تكلف مياه معدنية كذلك، حيث إن مياه التحلية مياه مقطرة لا تصلح للشرب، ولابدّ من أن تخلط بمياه الآبار كي نأخذ بعضاً من المعادن المنحلّة فيها.

قيل: إن الإنسان بحاجة إلى عنصر اليود بمقدار خمسة، وقبلها ستة أصفار بعد ذلك فاصلة (000005، 0) أي خمسة بالمليون، وإذ نقص هذا اليود عن هذه النسبة الضئيلة جداً أصيب الإنسان بأمراض أخطرها أمراض الغدة الدرقية، حيث يضعف استقلاب الإنسان، فمن الذي أودع بالماء هذه المعادن ؟ هو الله جل جلاله، رب العالمين.

وهذا الطفل الصغير يولد وليس في حليب الأم حديد، فيودع الله في طحاله كمية حديد تكفيه عامين إلى أن يأكل أنواع الطعام، من فعل هذه ؟ إنه ربنا. وهذا القلب من فتح بين الأذينين ثقباً كشفه عالم ـ اسمه بوتال ـ فسمي باسمه، ثقب بوتال، فالطفل وهو في بطن أمه ليس هناك تنفُّس، هناك رئتان، وأنف، وخيشوم، وقصبة هوائية، وبلعوم ولكن لا يوجد هواء، إذاً لا يتجدد الدم من حيث الأوكسجين وهو في الرحم، والله فتح ثقباً بين الأذينين حتى ينتقل الدم من أذين إلى أذين، وبعد الولادة ـ كما قال لنا أستاذ طبيب حينما كنا في التعليم الثانوي ـ قال: تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، فيد من تصل إلى وسط القلب ؟ الآن عملية القلب المفتوح تكلف مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف، وقد قال لي طبيب كريم جرّاح قلب من أخوتنا: ينشرون القفص الصدري، ويحضرون كلابات، ويفتحون الصدر، ويحقنون القلب بمادة باردة لكي يهدأ ويسكن، ثم يصلون الشرايين بقلب صناعي، ويفتحون فتحة بالقلب، أربعة ساعات بهذا القلب، لكي يغلق هذا الثقب ـ ثقب بوتال ـ مئات ألوف الأطفال الذي يأتون، تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، يد من هذه ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

شاهدت مرة إنساناً الساعة الثانية عشر حول مستشفى وهو شديد الاضطراب، فأركبته السيارة، وسألته: خير ؟ قال: والله ابني مصاب بداء الزرقة، أي أن الثقب لم يسد ـ وربنا يترك من كل مائة ألف طفل طفلاً واحداً كشاهد لكي يعرف الناس قيمة هذا الثقب، فأين هذا من هذا الذي يحتاج لعملية ؟ لي صديق عنده بنت ثقبها لم يسد، تحتاج نصف ساعة لصعود ثمانين درجة، تتعب رأساً، ويزرق لونها، لأن القلب عندما يضخ الدم بدل أن يذهب إلى الرئتين يختصر المسافة، ويأتي للأذين الثاني، فسبب كل نشاطك وكل حيويتك وتورد وجهك أن الثقب مسدود، من الذي سده لك ؟ فيد من ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ

ألم تلاحظ أن الشمس تشرق مرة من هذه الجهة، ومرة من هذه الجهة ؟ يلاحظ من كان بيته مرتفعاً ومطلاً على الأفق أن شروق الشمس في الصيف غيره في الشتاء، هناك كل يوم شروق، هناك رب

المشرق والمغرب كجهة، ورب المشرقين والمغربين كنهايات عظمى ودنيا، وهناك رب المشارق، لأن في كل يوم هناك شروق.

أتمنى على الله أن أنقل ما في نفسي حول هذه الكلمة:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

1 ـ المطيع لغير الله جعل الإله إلهين اثنين:

الذي يطيع إنساناً، ويعصي الله جعل الإله إلهين، الإله وهذا الشخص الذي يطيعه، فالمشكلة هي توحيد الألوهية، فأنت حينما تخشى جهة غير الله فقد أشركت، وهنا الكلمة:

(إِنّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ)

إله واحد هو الآمر والناهي، وهو رب السماوات والأرض، وليس إله الأرض فقط، فإلهك الذي أمرك أن تعبده بيده السماوات والأرض كلها..

(وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)

فلذلك هذا التفكر في الكون، وهذا التأمُّل، يجب أن يقودك إلى التوحيد، والتوحيد يقودك إلى الطاعة، والطاعة تقودك إلى الراحة، والكون ينقلك إلى إن إلهكم لواحد، وإذا كان إلهاً واحداً لا يوجد غيره عليك أن تطيعه، فإذا أطعته ارتاحت نفسك، وسعدت في الدنيا والآخرة، كلام بسيط مختصر، فكِّر، وحِّد، أطع، تسعد، لكن هذا الإله الذي قال لك: أطعني، بيده الكون كله، فأنت تلوذ بعظيم، وأحياناً يربط الإنسان مصيره مع إنسان يبدو قوياً، ولكن لسبب أو لآخر يخسر قوته فجأةً، يضيع معه من ربط نفسه به، أليس من الخطأ والغباء أن تربط مصيرك بمخلوق كائناً من كان، مهما كان قوياً، ومهما كان قريباً، هو مخلوق..

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

أما الشيء اللائق بك، باللغة الدارجة ـ حوينتك ـ (خسارتك) أن تربط نفسك بجهة غير الله عزّ وجل، ومرة ثانية (حوينتك) أن تضيع شبابك لغير الله عزّ وجل، تفني شبابك، وعمرك، وتستهلك ذهنك لغير الله عزّ وجل، ويستهلك هذه الطاقات، وهذا الذهن، وهذه الأعضاء، هذه الأجهزة، تستهلكها في معصية الله، لأن كل هؤلاء لا ينفعونك، وعندنا ينام الإنسان أول ليلة بقبره يقول الله:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

أنت شاب، وأنا أرى أمامي شباباً كُثُراً، وكل مستقبلك بيد الله، زواجك، وعملك، وجسمك، فهل يعرف أحد ماذا يوجد في جسمه ؟ قد يأتي مرض عُضال لإنسان في سن مبكرة، فإذا كنت مع الله فالله جل وعلا يطمئنك..

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

كلمات مطمئنات، والله عند المؤمن أمن، وطمأنينة، وثقة، وشعور بالتفوق، ولو وزع على أهل بلدٍ لكفاهم، فخالق الكون يطمئنك، ومن عادة الناس إذا كانت لأحدهم صداقة مع شخص، لو كان شرطياً في مخفر، تجده يمشي بالعرض، يقول لك: فلان صاحبي، وأنت تمشي مع خالق الكون، مع الذي بيده ملكوت كل شيء، مع الذي بيده أمر عدوك، وأمر خَصْمك، مهما كان خصمك شديداً وقوياً، وهو بيد الله عزّ وجل.

(إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

(سورة يس)

ألا تطمع أن تكون مع هذا الخالق العظيم ؟!

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ)

ولكن بشرط فقط..

(لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة: من الآية 12)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

2 ـ كن مع الله ولا تُبالِ بأحَدٍ:

أيها الإخوة، إذا لم يكن الله مع إنسان تخلى عنه أقرب الناس له، الذي أفنى حياته من أجل زوجته تسيء إليه، وتهينه في آخر حياته، وإذا كان الله معك يجعل عدوك في خدمتك، العدو اللدود، أنا لا أريد أخاً قانعا بالدين، أريد أخاً يعيش الدين، أريد أخاً يقول لي: كلام الله حق، والله حينما اصطلحت مع الله، وحينما تبت إليه، وحينما راجعت حساباتي كلها، وحينما عاهدت الله على طاعته انقلبت حياتي رأساً على عقب، شعرت بطعم الإيمان، وذُقت حلاوته، وحلاوة القُرب، وشعرت بمعنى التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، فلا تخف في الله لومة لائم، قل: الحمد لله وكفى.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من الآية 53)

اقرأ القرآن، احفظ هذه الآيات التوحيدية عن غيب، لأنها مطمئنة، ولا سيما ونحن نعيش أيها الإخوة في عصر مخيف، كيفما تحركت تحس بقوى مخيفة تتربّص بنا الدوائر، كأن العالم كله يحارب الإسلام، فأنت حينما تطمئن إلى أن الله بيده الأمر كله تشعر براحة كبيرة.

فهذا الإعصار الذي حدث في بلاد آمنة، مطمئنة، غنية، قوية، تتحكم بالعالم كله، هل نجت من عذاب الله ؟ سرعة الرياح ثلاثمائة كيلو متر، فأصابت ما أصابت، وقد بلغت الخسائر ثلاثين مليار دولار، قدر نفقات حرب الخليج، أصابت البلاد، ودمّرت الأبنية، والطائرات، واليخوت، والقوارب، والسيّارات، والأشجار، مليون مشرّد في الطريق، من يمنعنا من الله ؟

مهما كنا أقوياء، مهما كنا أغنياء، مهما كنا متمكنين في الأرض، فهذه آية من آيات الله العظمى، آية من آيات الله، يهلكنا الله بالرياح، ويهلكنا بالأمطار، بالأمراض، مرض الإيدز، هذا المرض يبلغ عدد المصابين به إلى سنة ألفين أرقاماً فلكية، إنه شيء مخيف، فأنتم تلاحظون بأعينكم أن آيات الله تترى، متتابعة، ولا ينجينا من عذاب الله إلا أن نكون على منهجه، إلا أن نطيعه..

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا في الرضى من أحبنا

ولذ بحمانا واحتم بجنابنا

***

فالذي عمر بناء هو يسكن مطمئناً، زلزال شدته خمسة رختر يجعل البناء بالأرض عاليه سافله، أين أصبح البلاط، والرخام، والسيراميك، والألمنيوم، والشرفات ؟ أين ذهب ؟ هناك الكثير من الزلازل، فمرة زلازل، ومرة فيضانات، ومرة حروب أهلية، وأمراض وبيلة، وأمطار حامضية، نرى بأعيننا، والأخبار تترى، ولا ينجينا إلا طاعة الله عزّ وجل، والإله عظيم وعادل، لا يأخذ إنساناً بجريرة آخر..

(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من آية 164)

وعندما تستقيم لك معاملة خاصة، ولو كنت واحد..

(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(35)فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الذاريات)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)

(سورة التحريم: من الآية 8)

(فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا)

(سورة الأعراف: من الآية 72)

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

أنت استقم وانظر، فالله ينجيك من كل هم، وغم، وضائقة، وعدو، لكن الحقيقة أننا ابتعدنا عن الله، واعتمدنا على غيره، فأذاقنا الله ضعف الحياة وضعف الممات، إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني، لكن ربنا عزّ وجل يطمئننا، قال:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ)

(سورة القصص)

لعل الله جل جلاله يجعل هذه الضائقة التي تعُم المسلمين لخيرهم، ولمصلحتهم، ولمستقبلهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (02-14): تفسير الآيات 6 - 10
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة الصافات، ومع الآية السادسة، والتي هي قوله تعالى:

(إنّا زَيّنّا السّمَاءَ الدُّنْيَا بزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

إنّا زَيّنّا السّمَاءَ الدُّنْيَا بزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ

1 ـ الصيغ القرآنية في التحدّث عن أفعال الله وصفاته:

(إنّا) تشير إلى أن أفعال الله جلّ جلاله يدخل فيها كل أسمائه الحسنى، وقد جرى عادة البيان الإلهي على أنه إذا تحدّث الله عن ذاته قال:

(إنّنِي أنَا اللّهُ لا إلَهَ إلا أنَا)

(سورة طه: من الآية 14)

وإذا تحدّث عن أفعاله قال:

(إنّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى)

(سورة يس: من الآية 12)

(إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

(إنّا زَيّنّا السّمَاءَ الدُّنْيَا بزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

2 ـ أفعال الله وصفاته كلّها حسنى:

أي إن أفعال الله فيها كل أسمائه الحُسنى ؛ فيها اسم القدير، واسم الجليل، واسم الغني، واسم العليم، واسم العَدل، وكل أسمائه داخلة في أفعاله، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يكرهه كان يدعو ويقول:

((لا إلَهَ إلا اللّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إلَهَ إلا اللّهُ رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالأرْض وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم))

[صحيح البخاري عن ابن عبّاس]

وفي هذا الدعاء إشارة إلى أن الفعل فعل الله، ولا إله إلا الله، ولا رافع ولا خافض، ولا قابض ولا باسط إلا الله، وأن أسماء الله جلّ جلاله حسنى، إذاً: أفعاله حسنى، فما دام الفعّال هو الله، والله ذو الأسماء الحسنى، إذاً أفعاله تعود بالخير العميم على كل خلقه..

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا)

3 ـ كلُّ ما علاكَ فهو سماءٌ:

كل ما علاك كما تعلمون فهو سماء، لكن ما علاك من طبقة الهواء هذه سماء دنيا، والهواء يسمح بانتقال الشعاع، وبانتثار الضوء، ولذلك لو خرج الإنسان عن طبقة الهواء إلى الفضاء الكوني فهو لا يرى في الكون إلا ظلاماً، ومن خلال هذا الظلام تبدو بعض النجوم، فلا يرى ضياءً، بل يرى منابع ضوئيّة فقط وظلاماً دامساً، لعدم وجود الهواء الذي ينثر الضوء، فالضياء الذي تراه في النهار هذا بسبب الهواء، الله جلّ جلاله زيّن السماء الدنيا..

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(9)إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

هذه الآيات أيها الإخوة إذا قرأناها، وقلنا: كيف يهوي هذا الشهاب الذي نراه في السماء ؟ وهذا الشهاب بنصّ هذه الآية قذفٌ من الله عزّ وجل لشيطانٍ أراد أن يسمّع للملأ الأعلى، قبل الحديث عن هذه الظاهرة ـ ظاهرة الشهاب الثاقب، أو ظاهرة رجم الشياطين ـ قبل الحديث عن هذا أريد أن أضع بين أيديكم موضوعاً دقيقاً جداً.

1 ـ في القرآن الكريم دعوةٌ إلى التفكُّر:

هذا الموضوع هو أن في القرآن الكريم دعوةً إلى التفكّر، وفي القرآن الكريم إخبار من الله عزّ وجل، بحثت عن مثلٍ يوضِّحُ هذه الحقيقة وأنا في طريقي إلى المسجد، إنسان فتح محلاً تجارياً، هو في أمسّ الحاجة إلى ميزان، لكن ماذا سيبيع في هذا المحل ؟ سيبيع المواد الغذائيّة، أي من زنة كيلو إلى خمسة إلى عشرة كيلو، هو بحاجة ماسّة إلى ميزان دقيق جداً حسّاس جداً، ولكنه لا يحتاج إلى استعمالات تفوق عشرين كيلوا، إذاً: يحتاج إلى ميزان حسّاس ضمن هذا الاستعمال.

لكنه لو أراد أن يعرف وزن مركبته، هذه بالأطنان، عنده برّاد ضخم كم وزنه يا ترى ؟ هذا الميزان الحسّاس الذي بين يديه لا يُمَكِّنَهُ من وزن هذه الأوزان الكبيرة، يمكن أن نقرأ كتيّبَ التعليمات للشركة الصانعة فتقول: وزن هذه المركبة ألف ومائتا كيلو، وهذا ممكن.

وقد أردت من هذا المثل أن أوضّح لكم أن الله حينما أودع العقل في الإنسان إنّما أودعه لمهمّةٍ محدودة، وهي الاستدلال، فبالعقل ترى شيئاً مادياً تستنبط منه أشياء كثيرة، من الماديّات إلى المُغَيّبات، ترى آثار عجلة سيارة فتقول: هذه سيّارة صغيرة، لأن المسافة بين العجلتين قليلة، وعرض العجلة قليل، ويمكن أن تكتشف حجم المركبة ونوع المركبة من آثار عجلاتها، فهذا شأن الفِكر، وشأن الاستنباط، تريه شيئاً مادياً فيكتشف ما وراء المادّة، تريه عملاً مُتقناً فيكتشف أن المصممِّ والصانع مُتقَن، وينتظر عملاً منظّماً فيكتشف أن وراء هذا النظام مُنَظِّم، وعملاً محكماً فيكشف العقل أن وراء هذا الإحكام عقلاً راجحاً مُحْكِماً، هذه مهمّة العقل.

ولكن إذا كلّفنا العقل أن يبحث عن أشياء غائبة عنه، لا يعرف، لا يعرف إلا أن يُخْبَر، ميزان هذا المحل التجاري يسمح بوزن من كيلو إلى عشرين كيلوًا، لكنه لا يسمح بوزن مركبة، إلا أن الشركة الصانعة أخبرتني أن وزن المركبة ألف ومائتا كيلو، ولا يعقل أن تكذب.

2 ـ عالَم الجنّ غيب يثبت بالدليل الشرعي:

إذاً: أنا أمام القرآن الكريم بين موضوعاتٍ تحقيقيّة، وموضوعاتٍ تصديقيّة، أي بين موضوعاتٍ خاضعةٍ للبحث والدرس، والنظر والتأمّل، وبين موضوعاتٍ خاضعةٍ للتصديق فقط، فنحن الآن أمام آيات لا يمكن أن نُحَكِّم عقولنا بها، أو أن نكتشفها بأنفسنا، فلو صعدنا إلى الفضاء الخارجي بمركبةٍ، أين هي الشياطين ؟ لا نرى شيئاً، لأن الله عزّ وجل يقول:

(إنّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: من الآية 27)

لو خرجنا إلى الفضاء الخارجي لنبحث عن الشياطين فنحن لا نجدهم، ما اسم هذا الموضوع ؟ موضوع إخباري، خالق الكون أخبرنا عنه، فأنت إذا آمنت به ؛ آمنت بوجوده، وآمنت بوحدانيّته، وآمنت بكماله، وآمنت بأن كلامه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلّما نما إيمانك بالله عزّ وجل نما مع إيمانك بالله تصديقك له فيما أخبرك عنه، والله عزّ وجل يخبرك عما يعجز عقلك عن إدراكه، والشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه يخبرك به، فالحاجةُ في المحل التجاري التي يعجز ميزانك عن وزنها، ترى الصانع قد كتب لك وزنها كذا، فهذه اللوحة التي أُلصِقَت على هذا البرّاد الضخم كُتِبَ عليها أن وزنه ألفا كيلو، وهذه المركبة التي يعجز ميزانك عن وزنها قالت لك الشركة

الصانعة: وزنها ألف ومائتا كيلو، أنت قد تكون أمام شيء بإمكانك أن تزنه بنفسك، وأن تتحقّق منه، أحياناً يحضر الإنسان اثنين كيلو من الفاكهة، فيشعر أنه من غير المعقول أن يكون وزنها كذلك، وعنده في البيت ميزان يزينهم، ميزان البيت للتأكّد لعل في خطأ، لكن ميزان البيت مصمّم لوزن حاجات لا تزيد على عشرين كيلوا، ولكن هناك أشياء ضخمة لا يوجد عندك ميزان تزنها به، فالصانع أخبرك أن وزنها كذا.

نحن الآن أمام آيات ليست خاضعة لميزاننا، فميزاننا يحتاج إلى أشياء محسوسة، الجن نحن لا نراهم بنصّ القرآن الكريم، نحن نرى أن شهاباً يسقُط، فالشُهُب نراها بأعيننا ؛ ولكن خالق الكون أخبرنا أن هذه الشُهُب الثاقبة إنما هي رجومٌ للشياطين.

3 ـ الحكمة من إيراد موضوع إرسال الشهب على الجن:

وقد يسأل سائل: لماذا ساق الله لنا هذا الموضوع ؟ لأن العرب كانوا يزعمون أن بين الله وبين الجِنَّةِ نسباً، وأن الشياطين يعلمون الغيب، ولأنهم يعلمون الغيب كان بعض العرب يعبُد الشيطان من دون الله، ولماذا يعلمون الغيب ؟ لأنهم يتصلون بالملأِ الأعلى، إذاً حينما ساق الله عزّ وجل هذه الآيات لينفي أسطورةً شاعت في الجاهليّة وهي: أن بين الله وبين الجِنّة نسباً، وأن الشياطين يعلمون الغيب لاتصالهم بالملأِ الأعلى، إذاً: لابدّ من أن يُعْبَدوا من دون الله.

ولذلك ربما عزّ وجل يحدثنا في هذه الآيات الإخباريّة عن الجن ـ من الآن فصاعد يجب إذا قرأت القرآن أن تعرف أن هذه الآية إخباريّة خاضعة للتصديق فقط، وأن هذه الآية تحقيقيّة خاضعةٌ لوزنها بميزان العقل ـ الأشياء التي توزن بميزان العقل، ويجب أن تكون ضمن طاقة العقل، يجب أن تكون ماديّة محسوسة، أنا أنظر إلى آلةٍ أتأمّل، أدقِق، أحقِق، أستنبط أن صانعها على أعلى درجة من الإتقان، أو أن هناك بعض الإهمال، أو أن هناك نقصاً في علمه، أو على التجريب كانت سريعة العَطَب، إذاً لم تكن متقنةً، كل هذا أكشفه بعقلي، ولكن هناك أشياء ليس عندي جهاز يكشف الخَلَل، إذاً استسلم فيها لمقولة الصانع.

إذاً: نحن أمام آيات تتحدّث عن الجن، وعن اختراقهم للسماء.

4 ـ الجن لا يعلمون الغيب:

أولاً: القرآن الكريم يبيّن بشكلٍ واضح قطعي الدلالة أنه لا يعلم الغيب إلا الله، الله وحده يعلم الغيب، لذلك أنت يجب أن تدقق الآن أية قراءةٍ، أية مقولةٍ، مثلاً ظهرت بالصين، بجنوب شرق آسيا قبل أسابيع

جماعة تدّعي أن يوم القيامة يوم كذا، وقد مضى هذا اليوم ولم يحدث، أربعة عشرَ مليوناً ـ العدد كبير جداً ـ يعتقد أن فلاناً أو علاناً يعلم متى يوم القيامة، وجاء هذا اليوم ولم يحدث شيء، فأنت يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا يعلم الغيب إلا الله، النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق لا يعلم الغيب، والآية:

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام: من الآية 50)

أما إذا أخبرنا عن أشراط الساعة، وعن آخر الزمان، فهذا ليس علماً بذاته، إنما هو إخبار من الله عزّ وجل..

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

فأنا كأي مسلم بعقيدة، ولا أقبل أن يدعي إنسان كائناً من كان أنه يعلم الغيب، وأرفض هذا، وأسخر منه معتمداً على نصٍ قطعي الدلالة في كتاب خالق الكون إذ يقول:

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللَّهُ)

(سورة النمل: من الآية 65)

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

هكذا المسلم معه نور من الله عزّ وجل، ومعه مبادئ ثابتة، وأدلّة قاطعة، ولا يستسلم لخرافةٍ، ولا لمقالةٍ قرأها، ولا (لشطحةٍ) سمعها، ولا لفريةٍ وصلَت إليه، المسلم معه مقاييس، وهذا الموضوع مرفوضٌ شكلاً ومضموناً، لأنه لا يعلم الغيب.

في السماء الملائكة، والملائكة مخلوقاتٌ مكلّفةٌ بمهمّات، ولعلّ بعض المهمات إهلاك القُرى، فالزلازل، والأمطار، ونقل أعمال العباد إلى الله عزّ وجل، تنزُل الملائكة بأوامر الله عزّ وجل، والملائكة مخلوقات مقرّبة إلى الله عزّ وجل، دائماً تسبّحه وتمجّده، وقد كلّفها الله بمهمّات، ولعلّ الشياطين كانوا يسترقون السمع.

فلو انعقد مجلس وزراء، واتخذ قراراً بتقديم الساعة، ولم يعلن القرار بعد، سمع الآذن وهو يقدِّم القهوة عن تقديم الساعة، فجلس في قريته أو بين عشيرته، وقال: أنا أعلم ما سيكون ـ هو أخفى أنه سمع هذا القرار ـ بعد أسبوع سوف تُقدّم الساعة، فهذا الآذن استرق السمع، وبدأ يتاجر بهذا الفكرة، ويتصدّر بها المجالس، ويقول: سيكون كذا وكذا، وسيفعلون كذا وكذا، والله عزّ وجل قال:

(إنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)

5 ـ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ

والشيطان المارد هو الشيطان العاتي، المتمرِّد على طاعة الله عزّ وجل، ومعنى المارد القوي، والمتمرّد، والعاتي، والعاصي..

(يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

6 ـ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

أي لا يسّمعون فيسمعون، هم يحاولون أن يسمعوا ؛ ولكن لا يسمعون..

(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

أي مستمر، والآن أي تعاون بين الإنس والجن تعاونٌ غير مشروع هدفه إضلال البشر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

((من أتى ساحراً فلم يصدِّقه لم تُقْبَل له صلاة أربعين صباحاً ولا دعاء أربعين ليلة))

[ورد في الأثر]

إذاً نحن حيال الغيب نلتزم بما قاله الله عزّ وجل، أما ما نراه في بعض المجلات ؛ حظُّك هذا الأسبوع، وفلان برجه كذا، وسيأتيه عدوٌ يأخذ منه شيئاً، فهذا كلّه كلام باطل، وكلام الشياطين، والأفّاكين، إنه كلامٌ مرفوضٌ نصّاً وروحاً، جملة وتفصيلاً، وقلباً وقالباً، قبل أن نمضي في الحديث عن هذه الآية:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ

أولاً: جعل الله سبحانه وتعالى الجمال في الكون مقصوداً لذاته، فكل شيء خلقه الله فيه كمال في أداء الوظيفة، وفيه جمالٌ في تكوينه، فيمكنك أن تركب مركبة عبارة عن عمود حديدي عليه محرّك ولها مقعد، فالمركبات لها جمال، إن هدف المركبة الأول نقلك من مكان إلى مكان، إذاً: فيها محرِّك وعجلات، لكن لها هدف آخر ؛ هو أن يروق لك منظرها، ففيها نوافذ، وأبواب، وهي مطليّة بطلاء متألِّق، وفيها مقاعد وثيرة، وفيها ألوان منسجمة، وفيها جمال في خطوطها وفي انسيابها، إذاً حينما

صُنِعَت هذه المركبة مثلاً لتنقلك من مكانٍ إلى مكان، فهناك هدفٌ آخر رافقها، وهو أن تكون زينة لك، إن هذا الشيء ملاحظ في الكون.

فالفواكه مثلاً هدفها الأول أن نتغذّى بها، لكن التفّاحة لها منظرٌ جميل، ولها لونٌ جميل، ولها رائحة طيّبة عطرة، فربنا عزّ وجل يجمع في خلق الشيء بيِّن فائدته، وأداءه لوظيفته أداءً تاماً كاملاً، وبين تحقيق المتعة للإنسان، إذاً ربنا عزّ وجل، بل إن من الأدلّة على وجود الله وعلى أسمائه الحسنى أنه جعل الجمال مقصوداً في خلقه تعالى.

وبعض الأطيار الجميلة مثلاً، ترى فيها الألوان مدرّجة بشكل معجز، بل إن المهندسين يستوحون تصاميمهم من الألوان التي في الطيور، والألوان التي في الفراشات، وألوان الأزهار، إذاً الكون لا يؤدي وظيفةً فقط ؛ بل يؤدي وظيفة وفيه جمالٌ يعدُ صميمياً من مبادئ الكون.

شيءٌ آخر، ربنا عزّ وجل قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من الآية 8)

فالفرس لها قِوام رشيق، ولها لون مُمْتِع، ولها طباع، ويركبها الإنسان لينتقل عليها، وهو يفتخر بركوبها، لأنها تحقِق له متعة، لذلك كمال الخلق أن يحقِق نفعاً ومتعةً في وقتٍ واحد، أن يجمع الشيء بين جمال التكوين وأداء الوظيفة أداءً تاماً.

إذاً: ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

وظيفة النجوم:

فالكواكب كما قال بعض العلماء: لها وظائف ثلاث.

1 ـ الاهتداء بها في ظلمات البرّ والبحر:

أولاً: نهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، مثلاً نجم القطب ثابت، وهناك نجوم ثابتة ونجوم متحرّكة، فالنجوم الثابتة نهتدي بها، والمتحرّكة نعرف من خلالها مُضِيّ الوقت، طبعاً نحن في المدينة لا نتعامل مع السماء بشكلٍ واضح، لوجود الأضواء، والكهرباء، والشوارع المضاءة، أما إذا سكن الإنسان في الريف، أو قام برحلة، واستلقى على ظهره، ونظر إلى السماء في ليلةٍ ظلماء لرأى العجب العُجاب، وأنا كنت أرى مجموعة من النجوم تشرق عند المغيب، وتغيب عند الشروق، فإن استقيظت في الليل أعرف

من الساعة في أي وقتٍ أنا في الليل، إن رأيتها في منتصف قبّة السماء فنحن في الساعة الثانية عشرَة تقريباً، تماماً كالشمس تشرق وتغرب، فالنجوم الثابتة نهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، والمتحرّكة نعلم بها الوقت، وكأنها مؤقِت، أو كأنها ساعة موضوعة في السماء، فالنجوم من وظائفها أن نهتدي بها في طُرُقاتنا، وفي مسالكنا، ونهتدي بها في معرفة أوقاتنا.

2 ـ زينة للسماء الدنيا:

النجوم لها وظيفةٌ ثانية، فقد جعلها الله زينة للسماء الدنيا، لكن هناك سؤال: كم كلفت هذه النجوم التي جعلها الله زينة ؟

مرّة قلت لكم: تمر الأرض في دورتها حول الشمس باثني عشرَ برجاً، من هذه الأبراج برج العقرب، برج العقرب مجموعة نجوم نراها في نيسان، في فصل معيّن، الأرض في دورتها حول الشمس تمر باثنتي عشرة مجموعة من النجوم، وكل مجموعة سميت برجاً ـ والله جلّ جلاله يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

من هذه الأبراج برج العقرب، هناك في برج العقرب نَجْمٌ متألِّق اللون أحمر، يبدو صغيراً جداً، ولكنه يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، طبعاً المسافة بينهما مائة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، الله عزّ وجل جعل هذه النجوم في السماء الدنيا زينة، فكم كلّفت هذه الزينة ؟ وكم أن الإنسان مكرّمٌ عند الله عزّ وجل حتَّى يجعل له هذه الكواكب الضخمة العملاقة، وهذه المجرّات البعيدة يجعلها له زينةً فقط ؟ أنت قد تزيّن البيت بحبلين من الكهرباء يكلِّفونك ألف ليرة، هل يمكن أن يكون ثمن بيت مليونين، وأن تكلف الزينة مئتي مليون ؟ فهذا غير معقول، ومعنى هذا أن الإنسان غالٍ كثيراً على الله عزّ وجل..

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)

(سورة الملك: من الآية 5)

الزينة والجمال في الكون:

إذاً: نحن وقفنا عند الزينة، الإنسان يستنبط أشياء كثيرة، طعامك فيه زينة، الإنسان يضع في بعض الأحيان على المائدة فواكه، قبل أن تأكلها تراها جميلة جداً، وهناك كثير من المحلات يضعون ألواحاً زيتيّة فيها صور فواكه، ومعنى هذا أن الفاكهة التي تأكلها لها منظرٌ جميلٌ جداً، أحياناً الأشجار المثمرة جميلة جداً، في قِوامها، وفي مجموعها الخضري، وفي شكلها الكروي، أو شكلها المنبسط، أو

البيضوي، الأوراق جميلة جداً، كل شيء في الكون يؤدِّي وظيفةً تلمح فيه جمالاً أساسياً، وهذا الجمال الذي نلمحه في الكون دليل وجود خالقٌ عظيم، وإن الله جميلٌ يحبُ الجمال، ولكن هناك جمال الأفعال، وهناك جمال الأقوال، يقولون: جمال الرجل فصاحته، الفصاحة جمال في الإنسان، فأنت تشعر أن الفصاحة شيءٌ عظيم.

وقد دخل وفد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فتقدّم هذا الوفد غلامٌ صغير، فتألّم الخليفة وانزعج وقال: **" اجلس أيها الغلام، من أنت ؟ ليقم من هو أكبر منك سنّاً "، قال الغلام بأدبٍ جم: " أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً فقد استحقّ الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمّة من هو أحقٌ منك بهذا المجلس "**، ما هذا الجمال ؟ أعجب بفصاحته.

ومرّ سيدنا عمر على أطفالٍ يلعبون، فتفرّقوا إلا واحداً، جذب نظره، فلما وصل إليه قال له: **" يا غلام، لمَ لم تكن مع مَن هرب ؟ "**، قال له: **" أيها الأمير، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك "**. (الطريق واسع، تفضّل مر) الفصاحة جمال.

دخل وفد على عبد الملك بن مروان وفيهم غلام، عندما نظر إليه الخليفة تألّم، فوبّخ الحاجب وقال له: " ما شاء أحدٌ أن يدخل عليّ إلا دخل، حتّى الصبيان ؟ " ما هذه (البهدلة) ؟ فقال له هذا الغلام: " أيها الأمير إنّ دخولي عليك لم ينقص قدرك ولكنّه شرّفني ـ أنت كما أنت بقيت ملك ـ أصابتنا سنةٌ أذابت الشحم، وسنةٌ أكلت اللحم، وسنةٌ دقّت العظم " ـ الشحم يذوب، واللحم يتآكل، والعظم يُدّق فينكسر ـ وبيدكم فضول مال، فإن كانت لله فعلامَ تحبسونها عن عباده ـ نحن عباد الله ـ وإن كانت لكم فتصدّقوا بها علينا، وإن كانت لنا أعطونا إيّاها "، أي احسبها مثل ما تحب فأُعْجِب به الخليفة، وهذا من جمال الفصاحة، والنبي الكريم قال:

((إنّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا))

[من صحيح البخاري عن ابن عمر]

وهناك جمال القِوام، وجمال اللون، وجمال التصرُف، والجمال أحياناً بالأخلاق، ولو كان الشخص قميء المنظر، فالأحنف بن قيس كان قصير القامة، أسمر اللون، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، أحنف الرجل، مائل الذقن، ليس شيٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيّد قومه، إن غضب غَضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيمَ غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

مرّة أحرجه معاوية بن أبي سفيان بموقف، عندما أخذ البيعة لابنه يزيد، أثنى كل الحاضرين على

يزيد، وأشاد بتقواه وصلاحه، وبقي الأحنف ساكتاً، قال له: يا أحنف تكلّم، فقال: **" أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت "**، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح.

فالذي أريد أن أقف عنده، قول ربنا عزّ وجل قال:

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

أي أن عنصر الجمال واضحٌ جداً في الكون، لو لم يكن هناك تفاعلات ذاتيّة لصار الجمال غير مقصود، فنحن لدينا أسماك زينة ليس لها هدف، فهي صغيرة، لا تؤكل أساساً، وزنها أقل من غرام، فسفوريّة أو شفّافة، وهذه لمن خُلِقت ؟ خُلِقت للإنسان ليستمتع بها، وكذا أنواع الورود، والأبصال، والنباتات الخضراء، فهي بالآلاف، من يعملون بحقل الزراعة وحقل نباتات الزينة يرون العجب العجاب، هناك كتب، ومجلّدات تقدّم لكم صوراً لهذه النباتات بالألوف، بمئات الألوف، أنواع منوّعة، وكل نبات له طبع، وله زهر معيّن، وله نظام معيّن، وله سُقيا معيّنة، إذاً: إنك ترى في الكون أداءً لوظائف ثابتة وجمالاً في التكوين.

انظر إلى الهيكل العظمي لإنسان تجده مخيفاً، حتى إذا أرادوا أن يحذّروا إنساناً من التوتُّر العالي يضعون جمجمة وعظمتين، وازن بين جمجمة ووجه مكسو بالعضلات المستقيمة، وبالجلد المشدود، ولون أزهر، فرق كبير جداً بين هيكل عظمي وبين الإنسان في أحسن تقويم، بين عضلاته وبين جلده، إذاً في الإنسان جمال التكوين، بيت من دون طينة فرضاً، من دون دهان قد تكون غرفة واسعة، وأبوابه محكمة، كله جيّد لكنه مزعج، منظره مزعج جداً، فالله أودع بالإنسان حب الجمال، وربنا عزّ وجل خلق الكون على نحوٍ يؤدي الوظيفة أداءً كاملاً، ويؤدي متعةً جماليّةً، وهذا مما يدلُّ على اسم الجميل..

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ)

فالذي أخبرنا الله به عن عالم الجن، وعن عالم الملائكة، وعن رَجم الشياطين، وعن استماع الشياطين، هذا لا نملك إلا تصديقه، لأنه موضوعٌ إخباري، غير خاضع للتحقُّق، لكن خاضعٌ للتصديق، فكل إنسان أراد أن يناقشك بآيات متعلِّقة بالغيبيّات فقل له: هذا موضوع إخباري لا تجوز المناقشة فيه، لأن الميزان لا نملكه، ميزاننا يقودنا إلى الله ؛ وجوداً، وكمالاً، ووحدانيّةً، وإلى معرفة كتاب الله، وإلى معرفة رسول الله، ولكن ميزاننا لا يستطيع أن يقدِّم لنا حقيقة هذه الإخباريّات، لأنه أضعف من ذلك، وهذا ليس نقصاً فيه ؛ بل لأنه مصمّم لموضوعاتٍ محدودة لا لموضوعاتٍ مُطْلَقَة.

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

إذاً: هؤلاء الذين يعبدون الشياطين، أو الجن، أو يتعاونون معهم لإضلال البشر، ويزعمون أن الشياطين يعلمون الغيب، نقول لهم: هذا كذبٌ محض، فالشياطين لا يعلمون الغيب، والدليل أن الله عزّ وجل يقول:

(لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

1 ـ وقفة مع كلمة ملأ:

ففي الحديث القدسي:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ما معنى الملأ ؟ الملأ في المعجم أشراف القوم، أي أنهم يملئون العين مهابة، هناك شخص تمتلئ عينك بجمال طلعته، وكمال قوامه، وفصاحته، وجماله وأناقته، فالملأ هم أشراف القوم الذين يملئون العين لا بقوامهم فقط بل بأفعالهم، بأخلاقهم، بعلمهم، قد يسمع الإنسان محاضرة من إنسان، وزنه الجسمي قليل، ولكنه يقول لك: بقيت شهراً متأثراً بهذه المحاضرة، فالإنسان قيمته بعمله وبأخلاقه، فكلمة ملأ أي يملأ العين، والسمع، والذهن..

(لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

2 ـ مَن هم الملأ الأعلى ؟

مَن هم الملأ الأعلى ؟ الملائكة، فهم موكّلون بأعمال كالزلازل، والأعاصير، ولعل الأعاصير التي حصلت أعمالٌ أوكلها الله للملائكة، فنحن نقول: هؤلاء أقوياء، وهؤلاء أغنياء، وهؤلاء بيدهم مقاليد الأمور ولكن الله عزّ وجل على كل شيء قدير، هواءٌ سرعته ثلاثمائة كيلو متر في الساعة، جعل بلاداً بأكملها قاعاً صفصفاً، الأبنية دُمِّرَت، الأشجار قُلِعَت، المركبات حُطِّمَت، واليخوت في البحر تلاطمت، الطائرات حُطِّمَت، إنها رياحٌ عاتية سرعتها ثلاثمائة كيلو متر في الساعة، واسمها الأعاصير، أحرقت الأخضر واليابس، فلعلّ الزلازل والأعاصير، وما شاكل ذلك، هذه مهمّاتٌ أوكلها الله للملائكة، فهؤلاء الجن، الشياطين الذين تمرّدوا على أمر الله عزّ وجل وعصوه، هؤلاء ما كان لهم أن يستمعوا لهذه الأخبار الغيبيّة، لهذا قال الله عزّ وجل:

(وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

فإذا حاولوا الاستماع ليأخذوا هذه المعلومات، ويتاجروا بها في الأرض أصابهم شهاب ثاقب، فلو فرضنا فرضاً أن مجلساً ينعقد لتداول أمورا اعتياديّة، يمكن لمستخدم أن يسمع بعض الكلمات في أثناء دخوله أو خروجه، مثلما قلنا قبل قليل، ثم يتصدّر بعض المجالس في قريته، ويقول لك: سيصير كذا، وسيصير كذا، وأنا معي معلومات دقيقة، وأخذوا رأيي بالموضوع، هو دخل يقدِّم القهوة فقط، ولم يأخذوا رأيه، لكن لو فرضنا أن هناك أمراً خطيراً جداً فهو يُمْنَع من الدخول، فحينما جاءت بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(8)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(9))

(سورة الجن)

لم يبقَ هناك أي مجال، كان الجن يتاجرون بهذه المعلومات التي يسترقون السمع من الملائكة، فلمّا جاءت رسالة النبي، مُنِعَ الشياطين من أن يستمعوا ضماناً لنقائها، فإذا حاولوا جاءهم شهابٌ ثاقب، وهذا الموضوع ليس خاضعاً للمناقشة، ولا للتحقّق، لأنه موضوعٌ إخباري، وقال علماء الأصول: إن أي موضوعٍ إخباري لا يجوز أن نزيد عليه إطلاقاً، لأن أية زيادةٍ فيه زيادة ظنية لا تقوم على برهانٍ ولا على دليل..

وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ

(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا)

مدفوعين..

(وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

أي مستمر، قال:

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ

أي أنه إذا تمكّن هذا الشيطان أو ذاك الجني من أن يستمع إلى بعض مهمّات الملائكة، وأن يأخذها ليتاجر بها، تبعه شهابٌ فأحرقه..

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

الآن:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ

انظر إلى هذه المجرّات، وإلى هذه الكواكب، وهذه المذنّبات، وهذه المجموعات الكبيرة من النجوم..

(أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا)

تجد باخرة تحمل مليون طن، ناقلة نفط حمولتها مليون طن أصابتها عاصفةٌ بحريّة فشقّتها شقين، أين هذا الجسم العظيم الحديد المتين ؟ الله عزّ وجل هو أشدُّ خلقاً، فأي شيءٍ رأيته قوياً فالله عزّ وجل أشدُّ قوة منه.

ملخص الدرس:

1 ـ المبصرات، والمسموعات، والمشمومات، والملموسات وسبيل معرفتها:

أيها الإخوة... ملخّص الدرس على الشكل التالي: الإنسان أحياناً يرى شيئاً مادياً فسبيل معرفته الحواس، لهذا المصباح متألِّق، أرى بعيني أنه متألِّق هذا يقين حسي، أستمع إلى الآذان، فهذا الصوت انتقل إليّ عن طريق الأذن، فهذا يقين حسي، وأحياناً ألمس شيئاً صُلْباً هذا يقين حسي، أشم رائحةً عطرة فهذا يقين حسي، فالمبصرات، والمسموعات، والمشمومات، والملموسات هذه كلُّها أشياء ماديّة، والحواس الخمس تكفي لمعرفتها، فالشيء الذي ظهرت عينه سبيل الوصول إليه الحواس، ويشترك الإنسان وغير الإنسان في معرفة الأشياء الماديّة.

فالدابّة ترى حفرةً فتحيد عنها، ضع يدك أمام نملة تقف وتغيّر الطريق، فالحيوانات عندها حواس ؛ أي عندها بصر، وسمع، وشم.. إلخ.

دقِقوا الآن، لكن الشيء إذا غابت عينه وبقيت آثاره، فسبيل معرفة هذا الشيء العقل ـ الآن دخلنا في موضوع جديد ـ أنا أرى أن هذه المروحة تدور، وأن هذا المصباح متألِق، أنا أحكم بعقلي حُكماً قطعياً أن الكهرباء موجودة في المسجد، فمن هذا الصوت الذي يُضخَّم، ومن هذه المروحة التي تدور، ومن هذا المصباح المتألِق، أما عين الكهرباء فقد غابت عني لا أراها بالعين، إذا نظرت إلى أحد الأسلاك الكهربائية هل فيه كهرباء أو لا، هل تعرفه بالعين ؟ لا تعرفه، لكن تعرفه من المصباح، أو من الصوت، أو من الحركة، أو من التبريد، فإذا غابت عين الشيء وبقيت آثاره فالآن هذا دور العقل، يستنبط من آثار الشيء صفات عين الشيء، هذا اليقين الاستدلالي.

فاليقين الأول يقين حسي، والثاني استدلالي، أما إذا غابت عين الشيء وآثاره فلا سبيل لمعرفته إلا الإخبار، لأن العقل معطّل، فأنت تجلس في غرفة الجلوس وتقول: هذه ثريّا، وهذه مروحة، وهذا طقم استيل، وهذا مطرح، وهنا اللون مناسب للطقم، يمكن أن تتفكَّر وتتأمّل، لكن هناك غرفة داخليّة هل تعرف ما فيها من أثاث ؟ لا تعرف إلا أن تسأل صاحب البيت، فالشيء الذي غابت آثاره وغابت عينه لا سبيل لمعرفته إلا الإخبار.

2 ـ التصديق بخبر الله:

أردت من هذا الدرس أنه كلّما مرّ معكم مقطع إخباري، إذا وجد من هو ضعيف الإيمان يقول: هذا غير معقول، هذا موضوع لا شأن للعقل به، هذا موضوع إخباري، موضوع تصديقي لا تحقيقي، فهذا الموضوع لو كان حسياً لعرفته الحواس، ولو غابت عين الشيء وبقيت آثاره الفكر يعرفه، وما دامت قد غابت عينه وآثاره فلا سبيل لمعرفته إلا بالتصديق.

لا تتعب نفسك، إن رأيت آيات متعلِقة بالجن، والملائكة، ويوم القيامة وبالحوض، والصراط، بالصراط فوق جهنّم، والصور، والبرزخ، والقبر، فهذه أشياء كلها إخباريّة، أنت عليك أن تؤمن بالله أولاً من خلال الكون، وأن تؤمن بهذا القرآن أيضاً من خلال إعجازه، وتؤمن بنبوّة النبي من خلال قرآنه، وبعدئذٍ تتلقّى من الله الأخبار.

أخبرك عن قوم عادٍ وثمود، وأخبرك عن بدء الخلق من آدم وحوّاء، وعن نهاية الأرض، إذا نفخ في الصور، هذا كلّه أخبار، لكن قيمة الأخبار من قيمة المُخْبِر، من هو المخبر ؟ هو الله عزّ وجل، فبقدر إيمانك بالله عزّ وجل تصدّق أخباره، وبقدر ضعف إيمانك بالله عزّ وجل تُشكِّك في أخباره، وبقدر ضعف إيمانك تقول: غير معقول ومعقول، هذا بقدر ضعف الإيمان ؛ أما كلّما قوي الإيمان بالله قوي معه تصديق أخبار الله عزّ وجل.

فلذلك قال بعض العلماء: حينما قال الله عزّ وجل:

(لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

طبعاً الجواب: لا، والله أنا ما رأيت، لمَ قال الله:

(أَلَمْ تَرَ)

قال: لأن إخبار الله عزّ وجل يرقى إلى مستوى الرؤية لصدقه، إذاً: هذا المقطع وهو قوله تعالى:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)

بزينةٍ هي الكواكب، هذه إعرابها بدل..

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(7)لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى)

لا يسّمعون بمعنى أنهم يحاولون السمع ولكن لا يسمعون، هو يسّمّع، ولكن لا يسمع..

(وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(8)دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(9)إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(10)فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

هذه آيةٌ نبدأ بها إن شاء الله تعالى الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (03-14): تفسير الآيات 11 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الصّافات، ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ

هذه الآية دليل على إمكان البعث:

هذه الآية فيها دليلٌ عقليٌ على إمكان البعث، فإذا وجدوا أنه يصعُب أن يعادوا خلقاً آخر، فربنا عزّ وجل وجّه نظرهم إلى خلق السماوات والأرض ؛ فهذه المخلوقات والمجرّات والكواكب والكازارات، المذنّبات والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار، هذه المخلوقات التي خلقها قادرٌ على أن يعيد خلق الإنسان مرةً ثانية..

(أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)

أي طينٍ ليّن.

مركز الاهتمام في الآية التالية:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ

1 ـ كلما نما علم الإنسان نما خوفه وقلقه:

أيها الإخوة... الإنسان أحياناً يستمع إلى خبر، إن استمع إلى خبر، وكان هذا الخبر خطيراً يعجب، ويتأمل، ويقلق ؛ وأما الجاهل إذا استمع إلى خبرٍ خطير فإنه يسخر، فالفرق بين العالم والجاهل فرقٌ كبير، فكلما نما إدراك الإنسان نما خوفه، وكلما قلّ إدراكه قلّ خوفه، فإذا كان مؤشّر الخوف يتحرك فمؤشر الإدراك يتحرك، وتحرك الإدراك موافقٌ لتحرك الخوف، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

من الذي لا يبالي بالجراثيم ؟ الجاهل، أما الإنسان المثقف فيبالي، ويغسل الخضراوات مرة أو مرتين، أما الطبيب الذي يرى تحت المجهر مئات ألوف الكائنات الحية الدقيقة التي تؤذي الإنسان، فإنه يبالغ بغسل الخضار والفواكه.

النقطة الدقيقة: أنه كلما نما علم الإنسان نما خوفه وقلقه، وإذا خاف الإنسان ربه في الدنيا أمّنه يوم القيامة، ولا يجتمع أمنان وخوفان، إن خفته في الدنيا أمّنك يوم القيامة، وإن أمنته بسذاجةٍ في الدنيا أخافك يوم القيامة.

2 ـ إن وسّعت الصراط عليك في الدنيا ضاق عليك يوم القيامةً:

إن وسّعت الصراط عليك في الدنيا ضاق عليك يوم القيامة، إذا كل قضية قلت: لا تؤثر، والله غفور رحيم، ولا تدقق، والقضية فيها مرونة، وهذه قضية خلافية، وهناك مذهب يغطيها، وقرأت في مجلة عن وجود فتوى لها !!! إذا وسّعتَ الصراط في الدنيا ضاق عليك يوم القيامة، وإذا ضيقته في الدنيا، وقلت: هذا حرام، وهذه شبهة، وهذه لا أفعلها، وهذه لا أفعلها تأثُماً، وهذه لا أفعلها ترفُعاً، وهذه أخرج من الخلاف ولا أفعلها، فكلما ضيّقت عليك الصراط في الدنيا اتسع عليك يوم القيامة، القضيةُ دقيقة جداً، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت.

فأنا أنصح الأخ الكريم أن لا يتسع، وأن لا يوسع صراطه، وأن لا يتعلق بفتوى ضعيفة، وبرأي ضعيف، وألا يتعلق بفتوى من إنسان غير ملتزم، ولا ورع، فإذا خرجت من الخلاف، وبقيت في الذي سمح الله لك به، إذا تركت ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فأنت من الورعين.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[ورد في الأثر]

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

3 ـ السخرية دليل الجهل:

السخرية دليل الجهل، فطفل صغير دون سن الوعي، طفل عمره سنتان، أو عمره سنة واحدة، لو رأى ثعباناً أرقم ثخيناً وطويلاً لا يخافه إطلاقاً ؛ بل يضع يده عليه، يلمسه برفق، لكن رجلاً واعياً راشداً كبيراً إن رأى ثعباناً يقفز قفزةً، ويصيح صيحةً يكاد يخرج من جلده خوفاً، فهذا الكبير خاف، وهذا

الصغير لم يخف ؟! نقول: الصغير لا إدراك عنده، لأن الخوف يتناسب مع الإدراك، وكلما نما عقلك نما خوفك.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

***

إذا قرأ الإنسان القرآن فلا ينبغي أن يقرأه تبركاً، فهذا كلام رب العالمين، وموقفك يجب أن يكون واضحاً، فهل أنت مصدِّقٌ هذا الكلام ؟ أم أنت في مخالفة، وهل أنت مصدق أن الله عزّ وجل سيحاسبك حساباً دقيقاً ؟ كيف تنام الليل ؟ وسيدنا عمر يقول: **<< عجبت لثلاث: لمؤملٍ والموت يطلبه، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أو راضٍ >>.**

ومن غرائب المصادفات أني التقيت مع شخص ـ قبل أسبوعين أو ثلاثة ـ في حفل عقد قران، وكان من ألمع شخصيّات الحفل، حركة، ونشاطا، وابتسامة، وحيوية، وأناقة، وبعد يومين كان من أصحاب القبور، قلت في نفسي: لو علم هذا الإنسان أنه قد بقي له يومان في حياته ماذا يفعل ؟ فقضية الموت قضية خطيرة.

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

لا يسخر إلا الغبي، ولا يسخر إلا محدود التفكير، والأعمى، والأحمق، والغافل، وغرق بشهواته إلى درجة العمى، لذلك قال النبي الكريم:

((حبك الشيء يعمي ويصم))

[الجامع الصغير]

((حب الدنيا رأس كل خطيئة))

[الجامع الصغير عن الحسن مرسلا]

" ما أحب عبدٌ الدنيا إلا التاط منها بثلاثٍ: بشغلٍ عناه، وفقرٍ لا يبلغ غناه، وأمل لا يدرك منتهاه "، أمل هوائي، وشعور بالفقر مستمر، وشغل يسحقه..

لقد استوقفتني هذه الآية:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

خبر واحد يجعل العالِمَ ترتعد فرائصه منه، وخبر واحد يدل على جهل الجاهل، يتلقّاه بالسخرية، والسذاجة، وعدم المبالاة، والنبي الكريم يقول:

((لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ما أكلتم طعاما على شهوة أبدا، ولا شربتم شرابا على شهوة أبدا، ولا دخلتم بيتا تستظلون به، ولمررتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم، وتبكون على أنفسكم))

(الجامع الصغير عن أبي الدراداء)

مثل من واقع الحياة: لو أن إنساناً توعدك وهو يفعل ما يقول، بعد أسبوع أو بعد شهر، لا تنام الليل، إذا كان قوياً، وإذا قال فعل، وتوعدك بمشكلةٍ يحدثها لك، فالقرآن الكريم كلام رب العالمين، تقرأه صباح مساء، وينبئك أنه لابد من وقفةٍ بين يدي الله عزّ وجل، لابدّ من سؤالٍ دقيق..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إياكم والظلم:

لي صديق حدثني عن قصةٍ أرويها لكم لشدة وضوحها: له قريبة يحبها حباً جماً، توفيت، فرآها في المنام مراتٍ عديدة بحالةٍ تعيسة، وبقي يراها بهذه الحالة ثماني سنوات، إلى أن رآها مرةً بحالةٍ طيبة، قال: يا فلانة ما فعل الله بك ؟ قالت: كأس الحليب، فلما سأل، وبحث عن كأس الحليب، كان لهذه المرأة أولادٌ من زوجها ليسوا منها، وكان لها أولادٌ منها، فكانت إذا أرادت أن تطعمهم سقتهم حليباً، لأولاد زوجها نصفه ماء ونصفه حليب، وأما أولادها فحليبٌ كامل الدسم، هذا موقف فيه ظلم..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

فالذي عنده أيتام، الذي عنده صانع يأكل حقه، الذي عنده زوجة لا يعرف حقوقها، هؤلاء الذين أكلوا أموال الناس بالباطل، هؤلاء الذين اعتدوا على حُرُمات الله، هؤلاء الذين بنوا مجدهم على أنقاض الناس، وبنوا غناهم على فقر الناس، وأمنهم على خوف الناس، سيحاسبون حساباً عسيراً.

لذلك أيها الإخوة الأكارم، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً، كان حسابه يوم القيامة عسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، هذا:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

خبر واحد.

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ

1 ـ الكفر مانع من التذكّر:

لأنه:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 88)

الكفر غلّفَ قلوبهم..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

إذا عزي الإضلال إلى الله عزّ وجل، فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري..

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

2 ـ المؤمن إذا ذُكِّرَ يَذْكُر:

أقول لكم هذه الكلمة: المؤمن إذا ذُكِّرَ يَذْكُر.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)

(سورة الأنفال: من الآية 2)

فالمؤمن سريع الاستجابة، عنده حساسة إيجابية، يصغي للحق، ويقبل النصيحة، إذا ذُكِّرَ يَذْكُر، فهو قريب المأخذ، ولكن الكافر كلما غرق في المعاصي اشتد الحجاب بينه وبين الله عزّ وجل، إلى أن يعلم الله عزّ وجل أنه لن يستجيب، وعندئذٍ يعطيه الدنيا كما يريد.

يا أيها الإخوة الأكارم... إن جاءتك الدنيا كما تريد، ولست مستقيماً فهذه علامةٌ خطيرةٌ جداً، لأن الله عزّ وجل يقول:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

لم يفتح باباً واحداً بل فتح أبواباً، ولم يفتح باب شيءٍ، أو أبواب شيءٍ، بل أبواب كل شيءٍ..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام: من الآية 44)

فكل واحد منا يعرف كيف يعامله الله عزّ وجل، فإذا عامله بالشدة، أي تابعه، وعاقبه على انحرافٍ، أو تقصيرٍ، أو ذنبٍ، أو معصيةٍ، أو مخالفةٍ، فهذه علامةٌ طيبةٌ، ومعنى ذلك أنه ضمن العناية المشددة، وأنه في رعاية الله، وأنه مطلوب، وأن الله يحبُّه، لأن الله إذا أحب عبداً عَجّلَ له العقوبة، أما إذا أبغض عبداً تركه هملاً، ثم تأتيه عقوبةٌ واحدة تقصمه وتنهيه، فالكافر دائماً خطه البياني يصعد صعوداً حاداً، وكلما علا خطه البياني السقوط مريع، بينما المؤمن يصعد صعوداً بطيئاً معتدلاً ثابتاً مستمراً إلى أبد الآبدين، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط، لا تفرح بالدنيا إذا أقبلت عليك، ولست مستقيماً على أمر الله فهو استدراج، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غِنَىً مُطغِياً، أو فقراً مُنْسِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الشاهد:

((إلا غِنَىً مُطغِياً))

فمن المصائب الكبيرة أن يأتيك المال الوفير وأنت على جهل، فيكون هذا المال سبب انحرافك، وسبب طغيانك، وسبب معصيتك، إذاً: قليلٌ تؤدِّي شكره خيرٌ من كثيرٍ لا تؤدي شكره، وقليلٌ يكفيك خيرٌ من كثير يُطغيك.

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[سنن الترمذي عن سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أبيهِ]

هذا معنى قوله تعالى:

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(12)وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

قرأت في الأثر أن الإنسان إذا جاءه ملك الموت، وكان يملك الدنيا بما فيها، يتمنى أن يعطي الدنيا كلها نظير أن يؤخَّرَ في أجله ساعة، لعله في هذه الساعة يُصلي ركعتين، ولعله في هذه الساعة يستغفر الله، ويؤدِّي حقوق الخلق، لذلك ما دام القلب يخفق، وما دام النَّفَسُ يخرج ويدخل، فإننا في بحبوحة، وفي فُسحة، فهذا الوقت ينبغي أن نستغله، وهذا الوقت يمرُّ علينا ونحن محاسبون عليه، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، فلابد أن يشعر كل واحدٌ منكم أنه حينما يفتح عينيه صباحاً، أتمنى أن يتصور أن الله جلّ وعلا سمح له أن يعيش يوماً جديداً، فالنبي كان يدعو ويقول:

((إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وَإنْ أَرْسَلْتَّها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصّالِحِينَ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ

الكافر يسخر من آيات الله الدالة على عظمته:

أي أن آيات الله الدالة على عظمته يسخرون منها، بعوضة، فالله عزّ وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة)

هذه البعوضة يمكن أن تتعرف إلى الله من خلالها، إنك تحتقرها، وتقتلها فوراً، وكأنك لم تفعل شيئاً، هذه البعوضة فيها من آيات الله الدالة على عظمته الشيء الكثير، فلها ثلاثة قلوب، ولديها جهاز رادار، وجهاز تحليل دم، وجهاز تمييع دم، وجهاز تخدير، وأجنحة البعوضة في الثانية الواحدة ترفُ أربعة آلاف رفة، ولأرجلها محاجم ومخالب، وربنا عزّ وجل يقول:

(إنّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

فالبعوضة آية، والخروف آية، وكأس الحليب آية، والرياح آية، والأمطار آية..

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً)

أنواع الآيات:

1 ـ الآيات الكونية:

أية أي علامة، ذكرت اليوم في الخطبة: أن الآيات أنواع ثلاث، فهناك آياتٌ كونية، وآياتٌ تكوينية، وآياتٌ قرآنية، وكلها دالةٌ على عظمة الله، فالآية الكونية ؛ الشمس والقمر، والليل والنهار والنجوم، والطعام والشراب، والخضراوات والفواكه، والنبات والأشجار، والأطيار والأسماك، وكل شيء حولك.

2 ـ الآيات التكوينية:

أما الآيات التكوينية فهي أفعال الله..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

فربنا له آياتٌ كونية، وله آيات تكوينية أي أفعاله ؛ الزلازل، والبراكين، والرياح العاتية، والأعاصير التي كلّفت ثلاثين مليار من عملتهم ـ ثلاثين مليارًا، وهو مبلغٌ كبير جداً ـ فالأعاصير، والزلازل،

والبراكين، والفيضانات، والسيول، والحروب، والأوبئة، والأمراض والإيدز، هذه كلها آيات تكوينية، الشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار آيات كونية.

3 ـ الآيات القرآنية:

وهذا القرآن الكريم آيات قرآنية، ثلاث آياتٌ في حياة المؤمن، آيةٌ كونية، وآيةٌ تكوينية، وآية قرآنية، الكون قرآن صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي.

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(14)وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

تهمة قديمة متجددة: وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

التعبيرات الحديثة ؛ هذه غيبيّات، هذا يتعلق بما وراء الطبيعة، وهذه لا تعنينا، فهي أمور خاصة، وليست عامة، وهذه قضايا ليس لها علاقة بالعلم، ونحن أهل علم، وكأن العالم يجب أن يكون لا دينياً، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

معنى سحر أي له تأثير، ولكن هذا سحر وليس حقيقة.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(16)أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(17)قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ)

البعث: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(16)أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ

وأنتم مرغمون، ومقهورون، وخاضعون، فالمشكلة أن إيمانك بالله عزّ وجل لا يصح إلا إذا آمنت مع الإيمان بالله باليوم الآخر، لأن الإيمان بالله من دون يوم آخر، تظن أن الدنيا هي كل شيء، مع أنها شيء، والآخرة هي كل شيء ؛ حيث هناك يوم الفصل، وهناك يوم الدين، والبَعث، والجزاء، ويوم الدينونة، والواقعة، والحاقة، والقارعة، هذه كلها أسماء يوم القيامة.

فالقارعة تقرع النفس، والحاقة تحق، والواقعة تقع، والفصل يُفْصَلُ بين الخلائق، ويوم الجزاء، ويوم الدينونة، فالمشكلة أن الإنسان إذا آمن بالله ولم يؤمن باليوم الآخرة لا يستقيم على أمر الله، إنك لن تستقيم إلا إذا آمنت بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، وآمنت باليوم الآخر، وآمنت بأنه سيحاسبك، إذا أيقنت أنه خلقك، ويعلم، وسيحاسب، استقمت، وأي إنسان، من دون استثناء إذا أيقن أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب، استقام.

وأبلغ من ذلك: إذا اعتقدت أن إنساناً من جنسك، ومن طبيعتك، يملك عليك سلطة، ويعلم ما تفعل، وسيحاسب، تستقيم على أوامره، إنك تستقيم على أوامر إنسان من جنسك، ومن طبيعتك، ومن ضعفك، ومن افتقارك، وإذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسب، ويفعل ما يقول، أي أنه قوي، والقوي الذي يعلم، والذي يحاسب لابدّ من أن تستقيم على أمره، فكيف برب السماوات والأرض ؟ فكيف بالذي لا يغفل ولا ينام، ويعلم سر السماوات والأرض، هذا من عند من ؟

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(6))

(سورة الفرقان)

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(12)وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(13)وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

مَن سخر من الدين في الدنيا سخر منه في الآخرة:

وعلى كلٍ عندما يتورط الإنسان، ويسخر من آية كونية، أو من آية تكوينية، أو من آية قرآنية، أو يسخر من عقيدة جاء بها القرآن، أو يسخر من إنسان مستقيم على أمر الله، ومن إنسان خائف من يوم القيامة، حينما يسخر هذا الإنسان، ليعلم علم اليقين أنه سيقف في يومٍ ما لِيُسْخَرَ منه..

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

وربنا عز وجل يقول في آية أخرى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

هل لكم أن تعلموا من هو البطل ؟ هو الذي يضحك أخيراً لا أولاً، فالذي يضحك أولاً قد يبكي بعد ذلك، لكن البطولة أن تضحك آخر الناس، أما إذا ضحكت في الدنيا، وبكى الإنسان يوم القيامة فهو من الخاسرين.

قال تعالى:

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ)

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ

أي أن الله عزّ وجل قدرته ليس لها حدود، زجرة واحدة، صيحة واحدة، وكلكم يعلم من خلال ما نسمع من أخبار، زلزال دام أربع ثوانٍ، أو خمس ثوانٍ، إذا كانت درجته خمساً بمقياس الزلازل، أصبح كل شيءٍ قاعاً صفصفاً، ربنا عزّ وجل هزّة واحدة ينهي كل شيء..

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

ماذا تعني كلمة واحدة ؟ فعندما تكون قويا جداً تقول: فلان يحتاج ضربة واحدة، كلمة واحدة تعني أنك قويٌ جداً، وأنه ضعيفٌ جداً، إذا كان الإنسان يصارع وحشا كاسرا أو سبعا فهذا شيء صعب، يقول لك: جلت معه جولات، أما حشرة صغيرة تمشي على الأرض فبإمكانك أن تدوسها، إذا كان مسموحا لك أن تقتلها ـ إنما هي ضَغْطَةٌ واحدة وانتهى الأمر، فربنا عزّ وجل يبين عظمة قدرته وضعف الإنسان، فقال:

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ)

عندئذٍ يقولون:

(يَا وَيْلَنَا)

يَا وَيْلَنَا

1 ـ ولات ساعة مندم:

فالبطل الذي لا يفاجأ بالمستقبل، والغبي دائماً يفاجأ بالمستقبل، فالأغبياء، والأشقياء، والضعفاء، والمغموسون في الدنيا، وفي حب الدنيا، والغافلون، والفاجرون، هؤلاء يعطون أنفسهم كل شهواتها، فإذا جاء العقاب، أو جاء الموت، أو جاء يوم الدين صعقوا ؛ أما الأذكياء، والعقلاء، والموفقون، والمستقيمون، فهؤلاء من الذكاء والكياسة والعقل حيث أدركوا ما في المستقبل، فتكيفوا معه من الحاضر، وهذه هي القصة كلها.

وكما قلت لكم من قبل إن قضية الإيمان ليس أن تؤمن أو لا تؤمن، لابد من أن تؤمن، القضية: متى تؤمن ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، هذه هي القضية كلها، فالإنسان العاقل إذا أيقن بالموت، وأيقن مع الموت حساباً دقيقاً، وأن الإنسان..

((لا تَزُولُ قدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[من سنن الدارمي عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

2 ـ الموت هو القضية الكبرى:

إذا أيقنا بالموت، وأيقنا بالسؤال بعد الموت، عندئذٍ لابد من أن نستقيم على أمر الله، لكن الإنسان إذا لم يوقن يفاجأ، وقد قرأت مرة كلمة: العاقل هو الذي لا يندم.

متى لا يندم الإنسان ؟ إذا أعد لكل شيء عدته، فهل هناك شيءٌ أكثر واقعيةً من الموت ؟ تعالوا نتكيّف مع الموت، لابد من أن يأتي عاجلاً أو آجلاً، ولابد من أن يقرأ الناس في أحد الأيام نعينا على الجدران، وأن نخرج من بيوتنا بشكلٍ أفقي، وأن نخرج دون أن نعود، فهل هناك أحد يشك في الموت ؟ ولو بعد مائة عام، ولو بعد خمسين عاماً، لكن إذا أيقنت أن هذا كلام رب العالمين، وأن الله سبحانه وتعالى سيسألك عند الموت، وفي القبر، وفي البرزخ، وبعد الموت، ويوم يقوم الأشهاد عن كل شيءٍ فعلته، أليس من العقل التكيُّف مع هذا الحدث الضخم، الذي هو أخطر حدثٍ في حياتنا ؟ ربما كان الموت أخطر من الحياة، لقول الله عزّ وجل:

(الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من الآية 2)

قدّمَ الموت على الحياة لأنه أخطر من الحياة، ففي الحياة عندك خياراتٌ كثيرة حينما تولد، ولكن إذا جاء الموت..

((فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[تخريج أحاديث الإحياء]

الإنسان أول العام الدراسي تجد عنده أملاً، وتفاؤلاً، يقرأ، ويتحقق، ويتأكّد، ويتابع جهوده في مادة معيّنة، لكن إذا جاء الامتحان، وكتب فعنده أحد احتمالين: ناجح أو راسب، فإذا وقف على لائحة الإعلانات يضطرب قلبه اضطراباً شديداً، إما أن يرى اسمه، وإما أنه يبقى للعام القادم، فهذه هي القضية، فربنا قال:

(الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)

(سورة الملك: من الآية 2)

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(19)وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ

الإنسان أحياناً باللغة الدارجة: "يولول "، فمتى يولول ؟ حينما يفاجأ بخبر لا يحتمل، فالمؤمن يستعد لهذا اليوم، لهذا ورد في بعض الأحاديث أن الله عزّ وجل يخاطب الإنسان الذي وضع في قبره أول ليلة، يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

ليس لك غيري الآن ؟ فإذا لم يكن لنا غيره فيجب أن نحسن العلاقة به منذ الآن.

(وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)

من أسماء الله الحسنى الحق، وهذا الاسم يتحقق يوم الدين، يوم يرى كل إنسان عمله، ويجازى عليه جزاءاً وفاقاً، لا ظلم اليوم..

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

إياكم أن تخسروا الآخرة:

الإنسان أحياناً إذا خسر في الدنيا خسارةً فادحة، أو ضاع منه بيتٌ ثمين، أو خسر محلاً تجارياً رائجاً، أو خسر شركةً أرباحها ضخمة، أو ضيّع أرضاً أصبحت بمئات الملايين، ألا يتألم ألماً يكاد يقول: إني قلبي ينعصر من شدة الألم، هذه دنيا، فكيف إذا خسرت الآخرة كلها دفعةً واحدة ؟ لذلك المشرك والكافر ماذا خسر ؟ خسر نفسه، فقد تخسر بعض المال، وقد تخسر كل المال، وقد تفقد ابناً، أما الكافر خسر نفسه.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

فهذه الكلمة: "حط في الخرج "، و "متى يفرجها الله "، ولا تدقق، فالآن القضية لها معنى آخر، فقد تجد أن الواحد منهم واجم، خائف، قلق..

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

كانوا يقولون: وهذه غيبيات، وهذه ما وراء الطبيعة ـ ميتافيزيك ـ هذه فلسفة، فالآن كل هذه الكلمات التي كانوا يلقونها جزافاً، هم الآن محاسبون عليها.

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ)

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ

أيها الإخوة... يقول الله عز وجل:

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ)

معنى: أزواجهم:

وأزواجهم من كان على شاكلتهم، أي أن شاربي الخمر مجموعة، والمرابين مجموعة، والزناة مجموعة، والمفسدين للعقائد مجموعة، والمرجفين في المدينة مجموعة، والكذّابين مدينة، والمُغتابين مجموعة، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم..

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(22)مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23)وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ

1 ـ هذا مصير من لم يهتد في الدنيا:

الإنسان في الدنيا حينما كان يرفض الهدى في الآخرة سيهتدي ـ ولكن لا إلى الجنة ؛ ولكن إلى الجحيم، في تهكّم، الذي يرفض الهدى في الدنيا، سوف يهتدي يوم القيامة لا إلى الجنة ونعيمها ؛ بل إلى الجحيم وعذابه.

(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

2 ـ موقف السؤال:

لذلك ورد أن الأغنياء يحشرون أربع فرق يوم القيامة ؛ فريقٌ جمع المال من حلال أنفقه في حرام، يقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام أنفقه في حلال، يقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حرام يقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حلالٍ وأنفقه في حلال، هذا يقال: قفوه فاسألوه.. هل تاه بماله على عباد الله، وهل ضيّعَ فرض صلاة، وهل قال جيرانه: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصّرَ في حقنا.

كلمة ومدلولها:

كلمة مسؤول، سبحان الله ! الإنسان يترنم بها، يقول: أنا مسؤول كبير، مع أن هذه الكلمة تخوف.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

هذه الكلمة ليست مدعاة للفخر، بل مدعاة للخوف، أنت مسؤول، نعم أنا مسؤول كبير، فما معنى مسؤول كبير ؟ سوف تُسأل، فكلمة مسؤول لا تعني الفخر، ولا تعني الشعور بأنك فوق الناس، لا، بل تعني أنك سوف تحاسب، سيدنا عمر قال: **<< لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً >>**، فهذا الشعور الدقيق، **<< لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً >>**، وكل إنسان أعطاه الله ميزة ؛ الأب مسؤول لأنه قدوة، والأم مسؤولة، والمعلم مسؤول، ومدير الثانوية مسؤول، ومدير المستشفى مسؤول، فكل إنسان له مكانة، وله منصب قيادي فهو مسؤول.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(24)مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ

لا تناصُرَ يوم القيامة:

الناس في الدنيا تجمُّعات، وهذه التجمُّعات أساسها مصالح، فأنت مع من يلوذُ بك في المصلحة على حقٍ أو على باطل، وترون بأعينكم كيف أن بعض الدول تجتمع على باطل لقهر شعبٍ أعزل أحياناً، تجتمع

كلها على باطل من أجل مصالحها، وهناك تناصر في الدنيا، فالإنسان في الدنيا يتعامل مع الآخرين على أساس المصلحة، فإذا وقع خطر ينصره، أما في الآخرة فلا تناصر.

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(25)بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

التناصر من لوازم الدنيا، وقد يكون الإنسان على باطل، لكن مصلحته مع فلان، فهو يتفق معه، فإذا داهمهم خطر وقفوا جميعاً ضده بحق أو بباطل، هذا التناصر يوم القيامة مرفوض..

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(25)بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(26)وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33)إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35)وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ(36)بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

هذا الحوار الدقيق والعميق، والذي سيكون يوم القيامة بين أهل النار، نرجئ شرحه إن شاء الله تعالى إلى درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (04-14): تفسير الآيات 27 - 34

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-09-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة الصافات، ومع الآية السابعة والعشرين.

مقدمة:

اللهُ جلّ جلاله في هذه الآية وفي الآيات التي تليها ينقل مشهداً من مشاهد الدار الآخرة، وما يجري بين أهل النار من خصومات.

(إِنّ ذَلِكَ لَحَقّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النّارِ(64))

(سورة ص)

1 ـ مشاهد يوم القيامة للتخويف والوعظ:

الحقيقة قد يسأل سائل: لماذا يذكر الله لنا هذه المشاهد قبل أن تقع ؟

أولاً: هو يعلم ما سيكون، ولكن هذه المشاهد التي يصوّرها القرآن الكريم لنا من أجل أن نتعظ في الوقت المناسب، أما إذا رأيناها رأي العين، وشاهدناها في وقتها فلا قيمة لها، فالعبرة كلّها أن تتعظ في الوقت المناسب.

2 ـ قضية الإيمان خيار وقتٍ:

كنت أقول لكم دائماً: إنّ قضية الإيمان ليست على الشكل التالي: تؤمن أو لا تؤمن، قضية الإيمان فقط: " أن تؤمن "، لأنه لابدّ من أن تؤمن، أجل لابد، أكفر الكفّار، أعتى العتاة، أفجر الفجّار، أشد الناس بعداً وانحرافاً وكفراً وتيهاً وإنكاراً وجحوداً لابدّ حينما يأتيهم الموت من أن يؤمنوا، ألم يقل فرعون:

(آمَنْتُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

هل في الأرض أشدُّ كفراً منه ؟ قال:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: من الآية 38)

ومع ذلك حينما جاءه الموت قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من الآية 90)

إذاً: القضيّة كلُّها قضية متى تؤمن ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ؛ وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان، لذلك ساق الله جلّ جلاله لنا هذا المشهد، وهذا الحوار، وتلك الخصومة التي تجري في النار، وبين أصحاب النار، وكيف أنهم يتلاومون، وكيف أن كلاً منهم يتهم الآخر، أنت الذي أضللتني، وكيف أهل الجنّة في الجنّة يتنعّمون، وكيف أن أهل الجنّة قد يخطر لهم خاطر بأن يروا رجلاً من أصحاب النار، فيطلعون فيها، فإذا هو في أعماق النار.

أيها الإخوة الأكارم... الآيات اليوم:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33)إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(34)إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35))

3 ـ إنّه ليس شيءٌ شرّاً من الشر إلا العقاب، وليس شيءٌ خيراً من الخير إلا الثواب:

أيها الإخوة... الإمام عليٌ كرّم الله وجهه له نصٌ يفيدنا جداً في هذا المقطع القرآني، هذا النص يتحدّث عن علاقة الدنيا بالآخرة، هم في الآخرة، وفي سَقَر يتحاورون، ويتناقشون، ويتلاومون، ولكن سيدنا علياً كرّم الله وجهه يقول: << إنّه ليس شيءٌ شرٌ من الشر >>.

تصوّر أنواع الشر، تصور القتل، الزنا، الفُحش، الخيانة، تصوّر كل أنواع الشر، أن تقتل الناس بالمئات، هؤلاء الذين ألقَوا على بعض مدن اليابان قنبلةً أماتت ثلاثمائة ألف إنسان في ثانية واحدة، تصوّر هذا الشر، ما هو أشرُّ من الشر، الإمام عليٌ رضي الله عنه يقول: **<< إنه ليس شيءٌ شرٌ من الشر إلا العقاب ـ عقاب أهل الشر شرٌ من الشر ـ وليس شيءٌ خيرٌ من الخير إلا الثواب >>.**

تصوّر كل أنواع الخير ؛ إطعام الطعام، إفشاء السلام، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، إكرام الضيف، رحمة اليتيم، رحمة الأرملة، تصوّر الدعوة إلى الله، هداية الخلق، كل هذه الأعمال الطيّبة خيرٌ منها ما أعَدّ الله للمؤمنين من نعيمٍ مقيمٍ في الجنّة، كلامٌ دقيق وسيأتي أدق منه: **<< إنه ليس شيءٌ شرٌ من الشر إلا العقاب، وليس شيءٌ خيرٌ من الخير إلا الثواب >>.**

4 ـ كل شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه:

قال العلماء: **" كل شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه "**، أيّ شيءٍ يلتمع في ذهنك فتملّكه وعِشْهُ حتى تراه باهت اللون، قبل الزواج يظن الإنسان أن الزواج هو نعيم الدنيا، فبعد الزواج بسنتين أو أكثر يرى أنه شيءٌ عادي، بل أقل من عادي، أين هذا البريق ؟ أين هذه الأحلام ؟ أين تلك الأماني ؟ البيت الذي يروق لك بعد أن تسكنه يصبح شيئاً عادياً، العمل الذي تطمح إليه، المركبة التي تقتنيها، أي شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه، الحديث عنه أمتع من تملّكه، الحديث عن مباهج الدنيا أمتع منها، الحديث عن الملذّات أمتع من الملذّات، الحديث عن بعض الطموحات أمتع من هذه الطموحات ولو وصلت إليها، هذه سُنّة الله في خلقه، الدنيا هكذا تقبل عليها متشرفاً، ثم تفاجأ بمنغصاتها، لذلك ربنا جلّ جلاله يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

الغَرور هو الشيطان، والغُرور أن ترى الشيء بحجمٍ أكبر من حجمه، فالإنسان في أول حياته قد يظن المال كل شيء، كلّما تقدّمت به السن يراه شيئاً، ولكن ليس كل شيء، فإذا شارف الموت يراه ليس بشيء، فالبطولة أن ترى الشيء على حقيقته في الوقت المناسب، فربنا جلّ جلاله يحذِّرنا من أن نرى الدنيا بحجمٍ كبير، كل شيءٍ في الدنيا سماعه أعظم من عِيانه، لكن مهما وُصِفَت لكم الآخرة، فمعاينتها أعظم بكثير من السماع عنها.

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام بهذه المناسبة عندما رأى سيدنا زيد الخير أو زيد الخيل، كان من أجمل الرجال في عهد النبي، أي أنه مَضْرِبُ المثل في جماله، وفي مروءته، وفي شهامته، عندما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من أنت ؟ قال: أنا زيد الخيل، قال عليه الصلاة والسلام: بل أنت زيد الخير، قال له: لله درُّك يا زيد ما وُصِفَ لي أحدٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصِفَ إلا أنت يا زيد))

[ورد في الأثر]

دائماً في الدنيا الإنسان يفَاجأ، يوصَفُ لك مكانٌ جميل، تذهب إليه، فإذا هو أقلُّ مما وصِف، يوصف لك بيتٌ جميل، تدخل إليه، فإذا هو أقل مما وصف، كل شيءٍ في الدنيا سماعه خيرٌ من عيانه، أما الآخرة فبالعكس، كل شيءٍ في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، لهذا قال الله عزّ وجل:

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)

(سورة السجدة: من الآية 17)

ماذا قال ؟ فلا لو تعلمُ، لو قال: لو تعلمُ لأمكن أن تعلم، بل قال: فلا تعلم، أي: يستحيل على الإنسان أن يعلم ماذا أعدّ الله له من نعيمٍ مقيم، فلذلك المؤمن حينما يقبض الله روحه، ويرى من حوله يبكون، ويتألّمون، ويندبون حظّهم، ويضربون وجوههم، ويمزّقون ثيابهم، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع:

((إنّ الْمَيّتَ يُعَذّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ))

[من صحيح مسلم عن عبد الله]

العلماء حاروا في هذا الحديث، ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من الآية 164)

فما ذنب هذا الرجل يُعَذّب لأن أهله يبكون عليه ؟ قال بعض شرّاح الحديث: إن المؤمن إذا رأى مقامه في الجنّة، ورأى أهله يبكون يتألّم لهم، هو في نعيمٍ مقيم، هو في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هو في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن.

5 ـ مَن أحَبّ لقاء الله أحَبّ اللهُ لقاءَه:

لذلك الإنسان من ضعف عقله أن يتعلّق بالدنيا، ومن رجاحة عقله أن يتعلّق بالآخرة وأرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً، وإنّ أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوُّد لسكنى القبور والتأهُّب ليوم النشور.

صحابيٌ جليل تفقّده النبي عَقِبَ معركة أُحُد فلم يجده، قال: أين هو ؟ هذا الصحابي هو سعد بن الربيع، كلّف النبي أصحابه أن يتفقّدوه في ساحة المعركة، ذهبوا إليه فإذا هو بين الموتى، لم يمت بعد، قال له من كلّفه النبي بذلك: " يا سعد أبين الأحياء أنت أم بين الأموات ؟ " أي ما وضعك ؟ قال: " أنا بين الأموات "، أي في النزع الأخير، سيدنا سعد بن الربيع قال لهذا الصحابي الرسول: " أبلغ عني رسول الله أن جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ـ أي الله يجزيك الخير على هذه الهداية ـ وابلغ أصحابه أنه لا عذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيّكم وفيكم عينٌ تطرف ".

كان في قمّة سعادته، وعلامة الإيمان أن المؤمن يشتاق إلى الله عزّ وجل، يحبُّ لقاء الله، كلّما استقمت على أمره، وصلُحَ عملك تمنيت لقاء الله عزّ وجل، هذه قاعدة، ولكن الله جلّ جلاله يصف اليهود فيقول:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(6)وَلَا يَتَمَنّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ(7))

(سورة الجمعة)

إذاً: نحن إزاء قانون، هذا مقياس لنا جميعاً، تمنّي الموت أن تشتاق إلى الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام عُرِضَت عليه الدنيا فقال:

((بل الرفيق الأعلى))

[البخاري]

لقد اختار لقاء الله عزّ وجل، لذلك سيدنا الصديق بكى حينما قال النبي الكريم في خطبةٍ من خطبه:

((إن رجلاً خيّره الله بين ما عنده وبين الدنيا فاختار ما عند الله))

أجل فبكى الصديق بكاءً شديداً، وقال: " بل نفديك بأرواحنا يا رسول الله "، عَلِمَ أن المعني هو رسول الله.

وحينما نزلت الآية الكريمة:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3))

(سورة النصر)

قال الصحابي الجليل عبد الله بن عباس: **<< هذا نعي النبي >>.**

أخطر حدثٍ في حياتك حدث مفارقة الدنيا، وأعقل إنسان هو الذي يعدُّ لهذا الحدث الذي لابدّ منه، لابدّ من ساعةٍ يُوضَع الإنسان في القبر، لابدّ من ساعةٍ يترك الدنيا كلها ؛ بيته، أهله، أولاده، بلدته، مكانته، أمواله، متنزّهه، مقصفه، أجل، إنه يدع كل شيء، لذلك أعقل إنسان هو الذي يترك الدنيا قبل أن تتركه، هو الذي يتعلّق بالآخرة قبل أن تجذبه، هو الذي يقدِّم ماله أمامه حتّى يسرّه اللحاق به.

6 ـ فليكفكم من العيان السماعُ، ومن الغيب الخبرُ:

هناك شيء آخر، إذاً: كل شيءٍ في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر ".

الآن قال العلماء: **" واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خيرٌ مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا ".**

إذا كانت دنياك متواضعة ومحدودة، وكانت أخراك غنيّة مترعة، فهذا هو التوفيق، أما إذا زاد نصيبك من الدنيا، وقلّ في الآخرة فهذا هو المصاب الكبير، " واعلموا أن ما نقص من الدنيا، وزاد في الآخرة خيرٌ مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوصٍ رابح، وكم من مزيدٍ خاسر، واعلموا أن الذي أُمِرْتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه "، قال تعالى:

(وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة: من الآية 35)

نسبة المحرّمات إلى ما هو حلال نسبة ضئيلة جداً جداً جداً، الخمر محرّمة، عد كم شراباً مباحاً ؟ كم شراب لك أن تشربه هنيئاً مريئاً طيّباً مباركاً ؟ مئات ؛ بل ألوف، لحم الخنزير محرّم، كم من الأطعمة مباحة لك ؟ أنواع منوّعة لا يعلم عددها إلا الله عزّ وجل، إذاً:

" واعلموا أن الذي أُمِرْتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه، وما أحِلّ لكم أوسع مما حُرِّمَ عليكم، فذروا ما قلّ لما كثُر، وذروا ما ضاق لما اتسع، قد تُكُفِّل لكم بالرزق وأُمِرْتم بالعمل ".

7 ـ لا تشتغلْ بما لم تُكَلّف به:

أوضح مثل لهذا الموضوع: في مدينة دمشق مدرسة، هي التجهيز الأولى قديماً، هذه المدرسة كانت الثانويّة الأولى في القطر، في عام (1937 - 1938) كانت الثانويّة الوحيدة في القطر، وكان فيها نظام المبيت الليلي، فكان فيها مطابخ، وفيها مهاجع، وفيها قاعات للمطالعة، فهذا الطالب مكلّف بالدوام، مكلّف بحضور الدروس، مكلّف بالمطالعة والمذاكرة والدراسة، وهناك عاملون في المطبخ، وفي إعداد الطعام، وفي تهيئة الطعام، وفي طبخ الطعام، وهناك من يجلب الأرزاق، وهناك من يهيّئ الأطباق، ولكن الطالب مضمون له الطعام في الوقت المحدّد، يُقْرَع الجرس، فيتوجّه إلى المطعم، فإذا كل شيءٍ على الطاولة ؛ الطعام، والشراب، والفاكهة، والحلويات، مطلوبٌ منه أن يدرس، ولا شيء غير الدراسة، وقد تكفّلت له المدرسة بثلاث وجباتٍ أساسية متوازنة وكاملة، ما قولك بطالبٍ ترك قاعة المطالعة، وترك مذاكرة الدروس، وترك حضور المحاضرات، وتوجّه إلى المطبخ يسألهم: هل أتيتم بالبصل ؟ ماذا فعلتم بالأكلة الفلانيّة ؟ هل تمّ نضجها ؟ هذا ليس شغلك، كُلِّفت بالدراسة، وتكفلنا لك بالطعام، فلماذا تركت الدراسة، وحشرت أنفك في الطعام ؟

هذه قضيّة مهمّة جداً، الإنسان الضال المضل الغافل التائه يشغل نفسه بما تكفّل الله له به، ويُعْرِضُ عما كُلِّف به.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

(سورة النجم)

ليس لك إلا ما سعيت، الآية دقيقة جداً ففيها قصر، لو أن الله عزّ وجل قال: للإنسان ما سعى، وله ما لم يسعَ لتغير المعنى كليّة.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39))

ليس لك في الآخرة إلا عملك الصالح، إلا استقامتك، إلا بذلك، إلا عطاؤك، إلا صدقتك، إلا زكاتك، إلا غضٌ بصرك، إلا ضبط لسانك، إلا خدمتك للخلق، إلا إطعام الطعام، إلا بذل السلام، إلا رعاية اليتيم،

ليس لك إلا هذا، ولكن الرزق في الدنيا تكفّله الله لك، فهذا الذي يُعْرِض عن الدين من أجل رزقه، يفعل كما يفعل هذا الطالب الذي ترك قاعة المطالعة، ترك حضور الدروس، وتوجّه إلى المطبخ ليسأل: ماذا فعلتم بهذه الأكلة ؟ وماذا فعلتم بهذا الطعام ؟

لذلك يقول الإمام علي: **<< واعلموا أنه قد تُكُفِّل لكم بالرزق، وأُمِرْتم بالعمل، فلا يكن المضمون لكم أولى بكم من المفروض عليكم، فبادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل >>.**

8 ـ بادِروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل:

ما من إنسان يموت أحدٌ من أقربائه إلا ويسأل سؤالاً فيه فضول: كيف مات ؟ هل كان مريضاً ؟ يُفاجأ الإنسان أحياناً أن الشخص لا يشكو شيئاً، في ذهنه آمالُ عشرين سنة قادمة، يأتيه الموت فجأةً بغتةً، فهذا الموت السريع، المغادرة السريعة وما أكثرها، ولا سيما في هذه الأيام، ألفنا بفطرتنا أن الإنسان يمرض سنتين، ثلاثاً، عشر سنوات يبقى طريح الفراش، ثم يأتيه الموت على انتظار، أما أن يتناول الإنسان طعام الفطور في بيته بين أولاده، وفي الظهيرة تراه مُسَجّى على فراش الموت، أو ينام فلا يستيقظ، أو يستيقظ فلا ينام، يذهب فلا يعود، أو يعود فلا يذهب، فهذا شيء عجيب، يقول سيدنا علي: " بادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل "، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا ربّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا ربّ نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

ربنا عزّ وجل ماذا قال ؟ قال:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة: من الآية 16)

الآية فيها صورة جميلة، أي أن المؤمن لا يركن للدنيا، فالمضجع مكان للراحة، لا يستريح إلا إذا أحسّ أن الله راضٍ عنه، لا يستريح إلا إذا رأى عمله موافقاً للشرع، لا يستريح إلا إذا صلّى فرضي عن صلاته، لا يستريح إلا إذا ذكر فرضي عن ذكره، لا يستريح إلا إذا أكرمه الله بالعِلم، لا يستريح إلا إذا أكرمه الله بالاستقامة، لا يستريح إلا إذا أجرى الله الخير على يديه، عندئذٍ يطمئن؛ أما إذا جاءته الدنيا فما قيمة الدنيا ؟ لابدّ من أن تزول.

سمعت عن رجلٍ قبل أكثر من خمسة عشرَ عاماً، كان يملك قصراً في مدينة من مدن الشمال يزيد ثمنه على خمسةٍ وثلاثين مليوناً، قبل خمسة عشرَ عاماً ـ الآن يمكن أن يكون ثمنه خمسمائة مليون، قصر كبير ـ مات في مقتبل العمر، مات في سنٍ لا تزيد على اثنتين وأربعين سنة، وشاءت حكمة الله عزّ

وجل ـ كان طويل القامة ـ أن يكون القبر الذي دُفِنَ فيه أقصر من قامته، فاضطرّ حفّار القبر أن يضعه على الأرض، وأن يدفعه بصدره، فانثنى رأسه ليسعه القبر، هذا البيت العظيم الذي فيه رخام بما يزيد على خمسة ملايين تركه، وغادر الدنيا فجأةً، وهناك قصص كثيرةٌ جداً نسمعها، إنسان أعدّ كل شيء، رتّب كل شيء، دقّق في كل شيء، ثمّ قال له ملَك الموت: تفضّل، الآن ؟ لأنه:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

(سورة الأعراف)

أجملُ كلمة: **" بادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل ".**.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(55)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر)

9 ـ ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟:

أيها الإخوة الأكارم... نحن الآن أحياء نُرزَق، قلبنا ينبض، نفَسُنا يدخل ويخرج، نحن الآن في بحبوحة؛ باب التوبة مفتوح، باب العمل مفتوح، باب الإنابة مفتوح، باب الذكر مفتوح، باب فهم كلام الله مفتوح، أبواب الجنّة كلُّها مفتّحة، لذلك:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا))

[من سنن الترمذي عن أبي ذر]

ماذا ينتظر أحدكم ؟ الحديث دقيق جداً، يا ترى أنا كل يوم استيقظ كاليوم السابق من دون شيء يعكر صفوة العيش ؟ أليس هناك مفاجآت ؟ ولكن هؤلاء الذين غادروا الدنيا كيف غادروها ؟ بخبر مفاجئ ؛ إما في كليته، وإما في قلبه، وإما في دماغه، وإما في شرايينه، لابدّ من مفاجأة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَو الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَو السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى))

[من سنن عن أبي ذر]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ

أيها الإخوة الأكارم، قدّمت لكم هذا النص من كلام الإمام عليٍ كرّم الله وجهه تقديماً لهذا الحوار:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

أهل النار وهم يحترقون، والنار تلفح وجوهَهُم، وألسنتها تحرق جلودهم.

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ)

قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

أي كنتم توسوسون لنا، تدفعوننا إلى المنكر، إلى المعاصي..

(قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

1 ـ الذي أُضِل كانت عنده رغبة في الضلال:

هذا كلام مخيف، مفاده أن لا أحدَ يستطيع أن يضلّ أحد، الذي في وهمنا أن فلاناً قد أضلّه شخص آخر، الذي أُضِل كانت عنده رغبة في الضلال، فلو لا هذه الرغبة لما سمح لأحدٍ أن يضلِّه، فهذا الكلام مفاده أن أحداً في الدنيا لا يستطيع أن يضلّ أحداً..

(إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ)

تأتوننا من جهة اليمين لتوسوسوا لنا..

(قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

2 ـ الإنسان ابن نفسه:

لو كنتم مؤمنين لما استجبتم لنا، لو كنتم مؤمنين لما أصغيتم لنا، لو كنتم مؤمنين لما سرتم معنا، لو كنتم مؤمنين لما وافقتمونا، لو كنتم مؤمنين لاستعصيتم علينا، معنى ذلك المؤمن وقّافٌ عند كلام الله، ما يقال عن البيئة، والمحيط، والوراثة، وجو البيت، والمنزل، والعائلة والأسرة، والثقافة، والفساد العام، هذا كله كلام فارغ.

مرّةً قال لنا أستاذ في الجامعة ـ وهو أستاذ في علم النفس ـ: صحيحٌ أن الإنسان ابن بيئته، وصحيحٌ أن الإنسان ابن وراثته، وصحيحٌ أن الإنسان ابن أبويه، وصحيحٌ أن الإنسان ابن ثقافته ؛ ولكن الأصحّ من ذلك كلِّه أن الإنسان ابن نفسه.

الإنسان له اختيار، وهذا يؤكِّده أن بيئةً سيئةً جداً يخرج منها شابٌ مؤمن، نقول: يا الله !! عجباً، صاحب البيت يدير أكبر ملهى فيه كل المعاصي، وهذه الفتاة التي جاءت من صلبه، لماذا اختارت طريق الهدى ؟ لماذا أبت أن تأكل من طعام أبيها ؟ لماذا تحجَّبت ؟ لماذا صلّت قيام الليل ؟ لماذا حفظت القرآن وأبوها يدير ملهى ؟ لماذا ؟ لماذا امرأة فرعون كانت مؤمنة ؟ لأن لها اختياراً، الإنسان مخيَّر، فهل هناك جو أصعب من فرعون ؟ فرعون وقصر فرعون وحاشية فرعون ؟ وامرأة فرعون..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ)

(سورة التحريم: من الآية 10)

فهل هناك بيئة أعظم من بيئة نبي ؟ وهل هناك بيت أطهر من بيت نبي ؟ مهما كان الأب عالِماً، وكان ورعاً وتقياً ونقياً، ومتبحِّراً في العلم، ويتحلّى بأخلاق عالية، ولديه حلم جم، يا ترى فهل ستكون أخلاقه وعلمه أعظم من أخلاق نبي ؟ ومع ذلك:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

أرأيتم إلى أن البيت لا قيمة له، والوراثة لا قيمة لها، طبعاً لها تأثير، ولكن غير كلي ـ لكي يكون كلامي علمياً ـ هناك أثر للبيئة والثقافة والوراثة والأسرة، ولكن هذا الأثر لا يلغي اختيار الإنسان، لو أن الإنسان أراد ـ وقد قرأت مرَّةً كلمةً لا تزال ترنُّ في أذني: إنَّ القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيّام، إذا كان صادراً حقّاً عن إرادةٍ وإيمان ـ فإذا اتخذت قراراً بالصلح مع الله، أهل الأرض كلُّهم لا يستطيعون أن يثنوك عن هذا القرار.

والله سمعت قصّة من أحد علماء دمشق، ثمّ تثبّتت منها، خلاصتها أن: أحد شيوخ الأزهر الكبار، وأحد العلماء الأجلاّء الورعين في الزمن الماضي طبعاً، كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، وهو من صعيد مصر، يبدو أنه رأى طالب علمٍ فتمنّى من كل قلبه أن يكون عالِماً، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، واسمه زكريّا الأنصاري، ركب دابّته وتوجّه إلى مصر ـ هذه القصّة قديمة جداً، وأذكر أنها حدثت في الأربعينات ـ فسأل أحد الباعة في مشارف القاهرة: أين الأزعر ؟ قال له: ما الأزعر يا أخي ؟ قال له: محل العلم، قال له: اسمه الأزهر، أي أزعر ؟ إنه الأزهر، دلّه على هذا المكان الطيّب، فهذا الرجل وهو في الخامسة والخمسين ـ صدِّقوا هذا الكلام ـ أحد إخواننا في الخامسة والخمسين حفظ القرآن

الكريم ـ هذا الإنسان تعلّم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين، وقرأ القرآن وحفظه، وطلب العلم، وما مات في السادسة والتسعين إلا وهو يشغل منصب شيخ الأزهر.

إذا طلب الإنسان شيئاً فإنه يفعل المستحيل لتحقيق طلبه، فلا بيئة، ولا ظروف، ولا معطيات ـ هذه كلمة حديثة ـ معطيات، وظروف، وبيئة، وعقبات، ووراثة، ومحيط، هذا كله كلام فارغ، إذا أردت الله عزّ وجل يسّر الله لك كل شيء، وإذا لم تكن صادقاً في الطلب فلن تصل، لهذا فالله عزّ وجل لا يتعامل مع التمنيّات أبداً، فهل يا ترى في القطر العربي السوري، هل هناك طالب من طلاب الشهادة الثانويّة لا يتمنّى أن يكون الأول على القطر ؟ التمني سهل، الفقير يتمنى الغنى، والجاهل يتمنى العلم، ولكن بدون حركة، وبدون عمل، أو سعي وبدون شوق لن يبلغ الغاية، لذلك فالله جلّ جلاله لا يتعامل مع التمنيات..

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء: من الآية 123)

أما قول الله تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء: من الآية 19)

فلم يقل: وسعى لها ؛ بل قال:

(وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

لأن لها سعياً خاصّاً، ولأن لها شروطاً صعبة، ولأن أمام طالبها عقباتٍ كثيرة، صدقه يؤكِّده صبره، واحتماله، وإصراره، وطلبه، وإلحاحه..

أخلق بذي الصبر أي يحظى بحاجته ومدمن القرع لـلأبواب أن يـلج

***

إذاً:

(قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ)

أنتم ورّطتمونا، أفسدتمونا، أفسدتم عقائدنا، أوهمتمونا، أنتم الذين أضللتمونا، هذه تهم يوم القيامة ـ في الآخرة ـ فأجاب هؤلاء الذين اتُهموا قالوا رداً عليهم:

(بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

انتهى الأمر، كنتم تتمنون الضلالة، كنتم تسعون إليها..

(بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

أما الآية الثانية، كل آية عبارة عن قانون، أول آية: لا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض أن يضلّ أحداً. الآية الثانية:

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ

الحقيقة الثانية أن أحداً على وجه الأرض لا يملك على أحدٍ أي سلطان، فكل قولٍ منكر يقوله الإنسان، أو حينما يرتكب المعصية فإنه يسبُّ الشيطان، فهذا كلام فارغ إذ يحمل الشيطان كلامه أو أفعاله..

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

(سورة إبراهيم: من الآية 22)

1 ـ الإنسان مختار:

فهل من الممكن لإنسان أن يتوجّه إلى مخفر للشرطة، وهو يرتدي أجمل الثياب البيضاء في الصيف، فإذا هي ملطّخة بالوحل، والماء الآسن الأسود، ثم يدّعي على فلان ؟ قال المسؤول: على فلان، لماذا ؟ قال: لأنه هو السبب في هذا، قال له المحقِق: يا ترى دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له: لا والله ما دفعني، قال: شهر عليك سلاحاً وأجبرك أن تنزل فيها ؟ قال: لا والله، قال: فكيف تدّعي عليه ذلك ؟ قال: هو الذي قال لي: انزل فنزلت، فهذا الإنسان ألا يستحقُّ أن يُوضَع في مستشفى الأمراض العقليّة ؟ فهل كان للآخر عليه سلطان ؟ لا لم يكن له سلطان عليه، قال الشيطان:

(إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

انظر إلى الآية ما أدقّ معناها.

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

فلا يوجد لأحد سلطان عليه.

إذاً الحقيقة الثانية: أن لا أحد يستطيع أن يضلّ أحداً، لأنه ليس له عليه سلطان، لا سلطان لأحدٍ عليك، فأي شيءٍ تفعله محاسبٌ عنه.

إنّ الذي جاء سيدنا عمر، وقد ضُبطَ متلبّساً بشرب الخمر، قال له: **<< يا أمير المؤمنين إن الله قدّر عليّ ذلك >>**، فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: << أقيموا عليه الحدّ مرّتين ـ مرّةً لأنه شرب الخمر، ومرّةً لأنه افترى على الله ـ قال له: **" ويحك يا هذا: إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.**

أنت مخيّر ولست بمسيّر بهذا الموضوع، أنت مخيّر فيما كُلِفت، إذاً:

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ)

أنتم أردتم الضلال، أنتم اخترتم الغواية، أنتم أردتم الشهوة، أنتم انحرفتم، لذلك:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

أيّ إضلالٍ يُعزى في القرآن إلى الله عزّ وجل فيما يبدو، فالمفسِّرون أجمعوا على أن هذا الإضلال هو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، إذا قلت: الله أضلّهم، بمعنى أنهم اختاروا الضلالة، فساروا في طريقها بموافقة من الله عزّ وجل، فالإضلال إذا عزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، استنباطاً من قول الله عزّ وجل:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من الآية 5)

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ

الآن:

(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا)

حقّ علينا وعيده..

(إِنَّا لَذَائِقُونَ)

رجلٌ سأل النبي الكريم أن يعظه وقال: " عظني ولا تطل "، (أي لا تطول عليّ)، فالنبي اختصرها له وقال:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

فقال له: " أريد أخفّ من ذلك "، هذه ثقيلة عليّ، فقال عليه الصلاة والسلام، انظر إلى الجواب:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

إذا كانت ثقيلة عليك فلتتحمّل، وكل إنسان وجد في الاستقامة شيئاً صعباً، فالأصعب من الاستقامة تحمُّل البلاء، تحمُّل التأديب الإلهي، تحمُّل المعالجة، تحمُّل المصائب، فإن لم تستقم على أمر الله فاستعدّ للبلاء.

أحياناً على المستوى الصحي، يأتي طبيب فيلقى محاضرة عن آثار التدخين، وعلاقة الدخان بالجلطة، وعلاقة الدخّان بضيق الشريان التاجي، وعلاقة الدخان بتكوين المادة التي تسبّب تجمُّد الدم، وعلاقة الدخّان بسرطان الرئة، وعلاقة الدخان بسرطان البلعوم، وعلاقة الدخان بضيق الأوردة والشرايين،

وهذا الإنسان لا يبالي، آثر لذّة الدخّان على أخطاره، فحينما تأتي المصائب، حينما يصاب بآفات في أجهزته الدمويّة والتنفسيّة، وحينما يدفع الثمن باهظاً، عندئذٍ يندم ولات ساعة مندم، أي لا ينفع الندم، وليست الساعة ساعة ندم، ماذا يجدي ؟ قال له: أريد أخفّ من ذلك، فقال: " إذاً فاستعدّ للبلاء ".

فهنا:

(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ

فنحن لم نكن مهتدين فأضللناكم، لا، بل نحن كنّا غاوين مثلكم، نحن لم نكن مهتدين، نحن قلنا لكم ما كنّا نتوهّمه من باطل، فإذا هو باطل، كنّا نحن قوماً طاغين، ومنحرفين..

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

قال:

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

فأجمل صورة نصوّر بها حالة أولئك مثلها: عندما يشكِّل شخص عصابة ويعطيها وعوداً كاذبة، أنهم غداً تصبحون من الأغنياء الكبار، ونسافر خارج القُطر، ونشتري ونسرح ونمرح.. إلخ، فإذا ألقي عليهم القبض جميعاً، ودخلوا إلى السجن، فإذا نظر بعضهم إلى بعضٍ بدا، وكأنه يريد أن يفتك به: أنت كنت السبب، يرد عليه: أنت لماذا وافقت معي ؟

هذه حكاية القصّة كلها بشكل ملخّص، لو أن زعيم عصابة أقنع أفراد عصابته بارتكاب جريمة، ومنّاهم بالأموال الطائلة والسفر، والانغماس في الملذّات المحرّمة، ثم ألقي القبض عليهم، وأودعوا في السجن، وذاقوا ألوان العذاب، فإذا قال أحدٌ من هؤلاء (الذين غُرِّرَ بهم) على حدِّ قول الصحافة، إذا قال أحدهم: أنت الذي كنت السبب، يقول لك: فلماذا وافقتني على ما طلبت منك ؟ هذا الذي يحدث يوم القيامة..

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33)إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، لماذا وصلوا إلى ما هم فيه من عذاب ؟ قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

في الدنيا..

(إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

إذا عَزَيْتَ الأمر كله لله عزّ وجل، وأن الله هو المسيّر وبيده كل شيء، فهذا الكلام يزعج محبي الدنيا، لا يقبله أحدهم، بل يريد شركاء لله، ويقول لك: الأمر يتعلق بزيد وعُبَيد، وفلان وعلاّن، أنه يريد أن يبقى في الأرض مشدوداً إليها، وألا يصعد أو يرقى إلى السماء، ويصرّ على ألا يكون لله دخلٌ في الحوادث اليوميّة، فكل هذا الشقاء سببه الشِرك.

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35)وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ(36)بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

الدرس القادم إن شاء الله نذكر أثر الإيمان بلا إله إلا الله على استقامة الإنسان ؟ أي أن الشرك هو سبب كل انحراف، وكل شقاء ؟ كل هذا الشقاء الذي يعانونه في الآخرة بسبب أنهم رفضوا أن يوحِّدوا، بقوا في الشرك، والشرك كان سبباً فيما هم فيه من عذابٍ مقيم، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف: من آية 106)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (05-14): تفسيرالآيات 35 - 49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-09-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة الصافات، ومع الآية الخامسة والثلاثين.
أيها الإخوة الأكارم، لا زلنا في مشاهد من يوم القيامة، وأبيّن لكم أننا الآن في دار عملٍ ولا جزاء، وسوف نَقْدُمُ على دار جزاءٍ ولا عمل، الآن الإنسان يعمل ما يشاء، أودع الله فينا الشهوات، أعطانا حريّة الاختيار، من اختيارنا أن نستقيم أو ألا نستقيم، من اختيارنا أن نحسن أو أن نسيء، من اختيارنا أن نأخذ ما لنا وما ليس لنا، ولكن حينما يأتي يوم القيامة ليس هناك إلا الجزاء، فربنا جلّ جلاله يقدِّم لنا مشاهد من يوم القيامة، مشاهد تصوّر أهل الجنّة وهم في الجنّة يتنعّمون، ومشاهد من واقع أهل النار، تصوّر أهل النار وهم يتصايحون.
فربنا جلّ جلاله حينما قال:

تذكير بما سبق:

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

1 ـ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

أي الفريقين: الضالين والمضلّين كلاهما معاً في النار يُعذّبون، والآيات التي فُسِّرَتْ في الدرس الماضي هي قوله تعالى:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(27)قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32)فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

2 ـ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

فحوى هذه الآيات السابقة أن أحداً لا يستطيع أن يُضِلّ أحداً، الذي يبدو أنه ضل، أو الذي يبدو أنه أُضِل، هو في الحقيقة عنده رغبةٌ في الضلال، وإلا لما استطاع الكبير أن يضلّ الصغير، ولما استطاع القويُّ أن يُضِلّ الضعيف، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لأحدٍ سلطاناً على أحد، ولا أحد يضلُّ أحداً،

وإن أحداً لا يتحمّل تبعة ضلال أحد، بل كل إنسانٍ بما كسب رهين، هذه فحوى الآيات السابقة.
حينما قالوا:

(قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ(28)قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

لو آمنتم لما استجبتم لنا..

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ(30)فَحَقّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)

3 ـ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

هم جميعاً في العذاب..

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)

نحن كنّا ضالين مثلكم، كنا ضالين فأضللناكم..

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

والآية التالية الآن تلخص مصير مجرم سواء أكان مُضِلاً، أو مضَلاً:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ

فأي مجرمٍ على وجه الأرض عاش، ويعيش، وسيعيش هكذا نفعل به، فربنا عزّ وجل جعل هذا المشهد قانوناً مُطّرداً، أيّ إنسانٍ أجرم، انحرف، طغى، بغى، غوى، أخذ ما ليس له، أضلّ الناس فيما يبدو..

(إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

فأي نفسٍ تسلك سلوك هؤلاء، تدفع الثمن باهظاً يوم القيامة، هؤلاء المجرمون لماذا أجرموا ؟ هؤلاء الضالّون لماذا ضلوا ؟ هؤلاء الفاسقون لماذا فسقوا ؟ هؤلاء المنحرفون لماذا انحرفوا ؟ هؤلاء التائهون لماذا تاهوا ؟ هؤلاء المُنغمسون في الشهوات لماذا انغمسوا ؟ هؤلاء المُعْتَدون لماذا اعتدوا ؟ هؤلاء الكفّار لماذا كفروا ؟ الله جلّ جلاله أجاب إجابةً موجزةً جامعةً مانعة، قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

لأن الإنسان حينما يوحِّد تنتهي كلُّ مشكلاته، حينما يوحِّد لا حُجَّة له، إذا كذب من أجل الرزق، نقول له: إن الله هو الرزّاق، إذا فسق خوفاً من زيدٍ أو عُبيد، نقول له: الأمر ليس لزيدٍ أو عُبيد، ليس لك من

الأمر شيء ولا لهم، الأمر كلّه لله، لو حلّلت كل المعاصي التي يقترفُها الإنسان، لوجدت أن الشرك وراء كل هذه المعاصي، حينما تعتقد أن زيداً يرزُقُك، وأن عُبيداً يرفعك، وأن فلاناً يقرّبك، وأن علاناً يُبعدك، حينما تعتقد الفعل بيد البشر، تطيع زيداً، وترضي عبيداً، وتنساق مع فلان، وتتبع علاناً، إذاً أنت ضائعٌ بين هؤلاء البشر، وهؤلاء جميعاً لا حول لهم ولا طوْل.

إذاً: ما الذي جعل هؤلاء المجرمين يجرمون ؟ ما الذي جعل هؤلاء الفاسقين يفسقون ؟ ما الذي جعل هؤلاء المنافقين يُنافقون ؟ قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

1 ـ علاقتك بالله وحده:

وأتمنّى على الله جلّ جلاله أن نكون جميعاً موحِّدين، لأن التوحيد نهاية العِلم، إنّك إن وحّدت لا تخاف إلا الله، ولا ترجو إلا الله، ولا تعلِّق آمالاً إلا على الله، ولا تخشى إلا الله، ولا تطيع إلا الله، هذا هو التوحيد.

أيها الإخوة الأكارم، لو أنّك أمضيت الحياة كلّها، ووصلت في النهاية إلى التوحيد، فقد نلت خير الدنيا والآخرة، لو أنك أمضيت الحياة كلها، وانتهت بك إلى التوحيد، فقد نجوت من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأنك بالتوحيد تكون علاقاتك كلها مع جهةٍ واحدة، وهي الله، كل علاقاتك مع الله، كل اهتماماتك لله، كل أعمالك لله، كل طاقاتك لله، كل حركاتك وسكناتك لله، كل مالك لله، كل جهدك لله، وحّدت الوجهة، أما إذا ما كان الإنسان موحِّداً بل كان مشركاً فهو موزّع، ومبعثر، ومُشَتَّت.

فكلمة: (لا إله إلا الله)، أي أن الإله هو من ترجع إليه الأمور، وهو المسيّر، والأمر ليس بيد زيد، وليس هو المرجع، وليس زيد هو الذي يوافق أو لا يوافق، وليس هو الذي يعطي أو لا يُعطي..

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

أي لا مسيِّر، لا مُعطي لا مانع، لا رافع ولا خافض، لا مُعِز ولا مذل، لا محيي ولا مميت، لا رازق، لا قابض ولا باسط إلا الله، انتهى الأمر، كل هذا تلخّصه ـ كلمة التوحيد ـ وليس أن تقول: لا إله إلا الله، فحسب فالقضيّة عندئذٍ سهلة جداً، ولكن لابدّ من العمل بها حقاً وصدقاً.

2 ـ لا إله إلا الله قول وتطبيق:

لكنني سأقول لكم بعض التفاصيل: فأنت حينما يأتيك إنسان، ويضغط عليك لتقترف معصيةً ويهدِّدك، وكان هذا الإنسان قوياً، وكما يظن الناس أو كما يبدو لهم أنه يفعل ما يقول، إذا جاءك هذا الضغط من

أجل أن تعصي الله، هنا يُكْتَشَفُ توحيدك، فأنت في الرخاء والسلام تقول: لا إله إلا الله، القضيّة سهلة جداً، لا تكلِفك إلا أن تقول أربع كلمات: لا إله إلا الله، فكلمة لا إله إلا الله باللسان سهلة جداً، لكن من أجل أن تتحقّق بها، من أجل أن تعيشها، من أجل أن تدخل في كُل كيانك، من أجل أن تتغلغل في وجودك، من أجل أن تتخذ كل موقفٍ في ضوئها، من أجل أن تعطي، أو أن تمنع من خلالها، هذا شيءٌ يحتاج إلى جهد، لذلك كلّما نما إيمانك بالله خالقاً، إيمانك بالله مربياً، إيمانك بالله إلهاً مسيّراً، كلّما نما إيمانك بالله بأسمائه الله الحُسنى، بصفاته الفُضلى، عندئذٍ هذا النماء في الإيمان يُفضي إلى التوحيد.

أيها الإخوة الأكارم، نهاية العلم التوحيد، ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، الموحّد لا يعصي الله، الموحّد لا يخاف إلا الله، الموحِّد لا يرجو غير الله، الموحّد يضع كل آماله في الله، الموحِّد لا ينساق إلى أي إنسان، لا تأخذه في الله لومة لائم، لذلك قال الله عزّ وجل قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

فلاحظ عندما أمر الله عزّ وجل أم موسى أن تلقي ابنها في اليم، قال:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7))

(سورة القصص)

فكيف كان إيمان هذه الأم بالله عزّ وجل ؟ كان إيمانها بالله مسيّراً، إيمانها بأن لا إله إلا الله، وأن هذا الصندوق يتحرّك في اليَم بأمر الله، وبقدرة الله، وبعلم الله، وبرحمة الله، وبلطف الله، فأنت إذا آمنت أن كل شيءٍ في الكون يتحرّك كالصندوق الذي كان فيه موسى ـ كالتابوت ـ انتهى الأمر، أجهزتك بيد الله، خصومك بيد الله، أعداؤك بيد الله، أهلك بيد الله، مَن هُم فوقك بيد الله، من هُم دونك بيد الله، الأقوياء بيد الله، الضُعَفَاء بيد الله، الأصِحّاء بيد الله، كل شيءٍ بيد الله، هذا الإيمان، إذا أيقنت أنه لا إله إلا الله أصبحت كل علاقاتك بالله، وحدّدت الوجهة إلى الله وحده، وقطعت الآمال مما سوى الله.

3 ـ ارتكاب المعاصي سببُه ضعف التوحيد:

فسبب الإجرام، سبب الفسق، سبب النفاق، سبب التقصير، سبب المعاصي، إنما هي الشهوات، فحينما يرتكب الإنسان معصية فلماذا يرتكبها ؟ لأنه يعتقد أن فيها نفعاً له، لكن لو اعتقد أنه سيحاسب عليها، وأن هذه المعصية فوّتت عليه خيراً كثيراً، لا يفعلها، لصدّق الله عزّ وجل، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى خاطب نفسه ذات مَرّةَ، فقال لها: **" يا نفس لو أن طبيباً نصحكِ بترك أكلةٍ تحبّينها، لا شكّ أنكِ**

تستجيبين له ". ثمّ يقول لنفسه: **" يا نفس إذا كان الطبيب أصدق عندكِ من الله فما أكفركِ، وإن كان المرض أشدّ عندك من النار فما أجهلكِ ".**

فيا أيها الإخوة، يجب أن تعقد اعتقاداً جازماً أن الذي يعصي الله لابدّ من أن يكون كافراً أو جاهلاً، الله عزّ وجل يحذِّرك من نار جهنّم، فإذا حذّرك الطبيب تستجيب له، أكلة تحبُها حبّاً جمّاً، تأكلها كل أسبوعٍ مرّتين أو ثلاثة، قال لك الطبيب: هذه الأكلة تسبّب لك مرضاً خطيراً، إنّك تصدِّق الطبيب، وتكفُّ عن تناول هذه الأكلة، فإذا صدّقت الطبيب، ولم تصدّق الله عزّ وجل ـ أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أم يكون المرض أشدّ عندكِ من النار ؟ إذاً ما أجهلكِ ـ النار أشد من المرض، مناقشة دقيقة جداً: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها، أغلب الظن أنكِ تستجيبين له " يقول لنفسه: "** يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أو يكون المرض أشدّ عندك من النار؟ إذاً ما أجهلكِ ". فالذي يعصي الله عزّ وجل بين جاهلٍ وكافر.

4 ـ القرآن أعظمُ كتاب في تسيير حياة المؤمن:

لابدّ للإنسان من أن يؤمن، تقول: أنا مؤمن، الإيمان لا يتأتّى هكذا، ما سمعنا في حياتنا أن إنساناً نال دكتوراه وهو نائم، أو نال هذه الشهادة العالية من دون جهد، من دون بذل الوقت الكافي، ومن دون تفرُّغ، لابدّ من وقتٍ، لابدّ من جهدٍ، لابدّ من أن تأتي جهة تُعَلِّمك هذا، فلابدّ للمؤمن من مجلس علم، لابدّ من أن يستمع، لابدّ من أن يتعلّم، وأعظم كتابٍ في حياة المؤمن كتاب الله عزّ وجل، وهو أخطر كتاب.

تصوّر إنساناً عنده امتحان مصيري، يتوقّف على نجاحه في الامتحان مستقبلُه كلُّه، وعنده مكتبة ملء أربعة جدران من الأرض إلى السقف كلُّها كُتب، وبعد يومين سيؤدّي امتحاناً في كتابٍ واحد من هذه الكتب، أليس من العقل والحكمة أن يقرأ الكتاب المقرّر ؟ وفي الحياة الدنيا الآن من الكتب، والمجلاّت، والدوريّات، والمطبوعات، ما لو أردت أن تقرأ ما يُطْبَع في يومٍ واحد لاحتجت إلى مائة عام، أجل، ما يُطْبَع في اليوم الواحد، كتبٌ لا تنتهي، لكن الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو كلام الله عزّ وجل، الكتاب المقرّر كلّه حق، كلُّه صدق، وهو من عند خالق الكون، إنه القرآن، لذلك هذا هو الكتاب المقرّر.

ومعرفة الكتاب المقرّر ـ القرآن ـ فرض عين، إنك في حركتك اليوميّة تتحرّك إما على هدىً وإما في عمىً، فالذي قرأ القرآن الكريم، وفهم الأمر والنهي، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، هذا يتحرّك

على هدىً من ربّه، أما الذي هجر القرآن الكريم وجعله وراء ظهره، هذا يتحرّك خبط عشواء، لابدّ من أن يُخطئ.

إذاً ربنا عزّ وجل لخّص هذا الحوار وهذا النقاش في كلمة واحدة، فقال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

يقول لك أحدهم: يا أخي فلان بيده كل الأمور، ودائماً تجد الإنسان الفاسق يرغّب في إنكار التوحيد، ويعزو الأمور إلى أشخاص من بني البشر، فيقول لك: فلان يده طائلة، فلان مركزه قوي، فلان يفعل ما يريد، فلان بإمكانه أن يفعل معي كذا وكذا. دائماً يفسِّر الأحداث تفسيراً أرضياً، فأي إنسان يهدِّده يخاف منه، أي إنسان يلوّح له ببعض المكاسب يتْبعه، فالمشرك هراءٌ فؤاده، وأيّ كلمة تخيفه، وأيّ كلمة تَسْتَخِفُّهُ، لكن المؤمن يدرك أن الأمر كلّه بيد الله عزّ وجل.

أطول قصّة في القرآن الكريم قصّة يوسف عليه السلام، ربنا عزّ وجل في ثنيات هذه القصّة قال:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

5 ـ الشرك نقضٌ وهدمٌ لكلمة التوحيد:

الناس أحياناً يقولون لك: الجهة الفلانيّة العالَم كلّه بيدها ـ هذا النظام الجديد ـ هذا هو الشرك، الأمر بيد الله وحده.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا)

لا أمرهم، بل أمرنا..

(لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من الآية 24)

فهذه القلاع التي يظنُّها الإنسان لا تنهدم انهارت كبيت العنكبوت بقدرة الله عزّ وجل، ما كان أحدٌ يظنُّ أن هذه القِلاع في الشَرق يمكن أن تنهار في وقتٍ قصير، هذا يؤكِّد قدرة الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل بيده الخلق..

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

فربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

أي أن هؤلاء المجرمين استحقوا العذاب الأليم، استحقوا النار المُحْرِقة، استحقوا الخلود في النار..

(إِذَا قِيلَ لَهُمْ)

في الدنيا..

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

تقول له: يا أخي الأمر بيد الله، وهو يريده بيد زيد أو عُبيد، هو يريد آلهة في الأرض يتعامل معهم، دائماً الأصنام وآلهة الأرض التي تُعْبد من دون الله عزّ وجل، هذه لا تُطالب الإنسان بنظام أخلاقي، بل أدّ ولاءك وافعل ما تريد، بينما دين الله عزّ وجل يطالبك بانضباطٍ، والتزامٍ، وسلوك معين ـ " يا رسول الله مثِّلْ بهم " قال:

((لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيّاً))

دين الله عزّ وجل يطالبك بالسلوك السّويّ، بانضباط، بأن تقف عند الحلال والحرام، لكن أي انتماءٍ لأي دينٍ أرضي لا يطالبك بهذا السلوك.

إذاً:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

هذا هو الكبر أساساً..

((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقّ، وَغَمْطُ النّاس))

[صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُود]

البطر هو الردّ، لسان حاله يقول لك: أنا لا أقبل بهذه الفكرة.

مثلاً: لو أن الناس تعارفوا على أن هذه الحرفة تدرُّ أرباحاً طائلة، لكن فيها مخالفة للدين، هو يرى أن المال أغلى من كل شيء، يرى أن كسب المال الوفير أهمُّ من كل شيء، يرى أن هذه الأرباح طائلة ومن أجلها يُضَحِّي بكل شيء، هذا هو الشرك، ولو رأى أن الله عزّ وجل هو الرزّاق ذو القوّة المتين، وأن هذا المال الوفير الذي يأتي سريعاً والله قادرٌ على أن يتلفَهُ، وأن يذهب به، إذاً يقف الحقيقة:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

إذا كان إيمانُ الإنسان ضعيفًا، هذا الإيمان الضعيف لابدّ من أن يظهر، ولابدّ من أن يوضَع في ظروف، ويظهر ضعف إيمانه، لابدّ من أن يوضع في صراعات، ويظهر ضعف إيمانه، أي أن كل شيء كامن في النفس لابدّ من أن يظهر إلى حيّز السلوك..

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ

النبي ليس بشاعرٍ:

الشاعر شيء، والنبي شيءٌ آخر، الشاعر إنسان عنده قدرة بيانيّة، قدرة لغويّة، فكما يقولون: الشعر فنٌ جميل قِوامه الألفاظ، فهذا الشاعر فنّان، لكنّ مادة فنِّه الألفاظ، الرسّام مادة فنِّه الألوان، أجل إنّ الشاعر مادة فنِّه الألفاظ، وهو إنسان يقدِّم لك صوراً مضحكة أحياناً، ووصفاً دقيقاً، ومشاهد مؤثِّرة، غزلاً رقيقاً، هِجاء لاذعاً مثلاً، مديحاً كاذباً، فهذا الشعر لا يرقى إلى مستوى النبوّة..

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ)

هذا ليس بشاعر، هذا نبيٌّ مرسَل، ألم يقل سيدنا عمر لسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، عندما رآه واضعاً رأسه على حصير، وقد اضطجع على حصير أثّر في خدِّه الشريف: **<< رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟! >>** قال:

((يا عمر، إنّما هي نبوّةٌ وليست ملكاً))

[ورد في الأثر]

هذه نبوّة، النبوّة قدوة، النبوة سلوك، النبوة قيَم، النبوّة أخلاق، النبوّة تقشُّف، هذه النبوّة، فهو ليس شاعراً وليس مجنوناً، بل، (بل) حرف إضراب..

(بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ

1 ـ رسالة الإسلام تصديق للرسل السابقين:

أي أن رسالته تؤيّد الرسالات السابقة، لأن الوحي الذي أُنزل على النبي محمد، والوحي الذي أُنزِلَ على الأنبياء من قبل، كل هذا الوحي يصدر من مشكاةٍ واحدة، من أصلٍ واحد..

(وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)

فالقرآن الكريم يؤكِّد ما جاء به المرسلون السابقون.

(إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(38)وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(38)وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

الدنيا دار عملٍ، والآخرة دار جزاء:

نحن الآن في دار عمل، ولا جزاء، الأوراق مختلطة، كل الناس يأكل، ويشرب، ويتحرّك، ويسكن، ويتزوّج، ويفعل ما يشاء، الأوراق مختلطة، لكن يوم القيامة كل عملٍ يلقى صاحبه جزاءه.

(إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(38)وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

أي أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، نجاتك على حسب استقامتك، قال:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

1 ـ بين المخلِص والمخلَص:

مما جاء في بعض الآيات أن المخلِص شيء، والمخلَص شيءٌ آخر، المخلِص من فعل أخلص وهذا اسم فاعل، أَخْلَصَ يُخْلِصُ مُخْلِصَاً، أما مخلَص: أخلص يخلِصُ مخلِصاً ومخلَصاً ومخلَص، فهو اسم مفعول، ولكل من الكلمتين دلالتها.

2 ـ معنى الإخلاص:

حينما أخلصَ المؤمن لله عزّ وجل كافأه الله بأن نَقّاه من كل شائبة، جعله صافياً، جعله كاملاً، فإذا أخلصت أُخْلِصت، إن كنت مخلصاً أكرمك الله عزّ وجل فجعلك مخلَصاً.

أنت في طهر، في عفاف، في حلم، في صبر، في رحمة، في إنصاف، نقيٌّ من كل شائبة، سليمٌ من كل عيب، بعيدٌ عن كل دَرَن، بعيدٌ عن التعصُّب، عن الانحياز، عن الأنانيّة، عن حبِّ الذات، عن الطُغيان، عن الغَطْرَسَة، عن الكِبْر، هذه الصفات الذميمة ينجّيك الله جلّ جلاله منها ويجعلك نقيّاً طاهراً.

3 ـ الجنةُ للمخلِص المخلَص:

بالمناسبة، الإنسان لا يُسْمح له بدخول الجنان إلا إذا كان مخلِصاً ومخلَصاً، إن أخلصت يجعلك الله مُخْلَصاً، كما ورد في الحديث القدسي:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سُقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّدت عليه سكرات الموت، حتّى يلقاني كيوم ولدته أمُّه))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة الأكارم، أعقلنا، وأكثرنا فلاحاً، ونجاحاً، وتفوُّقاً، وذكاءً هو الذي يأتيه الموت وهو نقيٌّ لا شائبة فيه، إذا جاءه الموت، وكان طاهراً من كل دَنَس، سليماً من كل عيب، بعيداً عن كل انحراف، كان متواضعاً، كان منصفاً، كان رحيماً، عندئذٍ يستحقُّ الجنان، لأن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، فإذا كانت التنقية والمعالجة في الدنيا، فهذه من نِعَم الله الكُبرى علينا، أما إذا بقي شيء، فلابدّ من المعالجة في البرزخ، وإذا بقي شيء فلابدّ من المعالجة في النار..

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يُخْرَجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ الْإِيمَانِ))

فلو أنّ الإنسان أنشأ مستشفى ليخفِّف الآلام عن الناس، أنشأ مسجداً، أنشأ معهد، أنشأ مدرسة، أنشأ معهداً شرعياً مثلاً، عمل عملاً صالحاً، ساهم بتزويج الشباب مثلاً، عمل مشروعاً خيرياً، فقد كانوا قديماً شأنهم العمل الطيّب وإليك مثالاً واقعياً..

إن منطقة (العصرونية) في دمشق كانت وقفاً، فلو أن طفلاً صغيراً ذهب ليشتري حاجة في إناء، فكسر معه هذا الإناء، وكان أبوه ظالِماً، أو كان معلّمه، أو سيده ظالماً، يأتي لهذا المكان، ويأخذ إناءً جديداً مكانه، فكم من مشكلة موجعة ألغاها الواقفُ في حياة الناس ؟

هذا الموضوع دقيق جداً، فاجهد لأن يكون لك عمل يستمر بعد الموت، والله الذي لا إله إلا هو فكأنّك لم تمت، لكن البطولة أن تكون الدنيا وحدها هي المنقيّة لك..

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

أعتقد أنه لا أحدَ من إخوتنا الكرام إلا ويعرف هذا المعنى، الإنسان أحياناً ينظر لامرأةٍ لا تحلُّ له، المؤمن يتعفّف عن هذا، فيشعر بشموخ الإيمان وعزة المؤمن.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون)

4 ـ المخلص طاهر نقي:

هذا التعفُّف يكسبه شعوراً بالطُهر والرُقي، والمؤمن يتعفّف عن مال الناس، لا يأخذ ما ليس له، بينما أهل الدنيا يأخذون ما لهم وما ليس لهم، المؤمن يتعفّف عن قول الفُحْش، فسلوك المؤمن، بمشاعره الداخليّة، بسلوكه الظاهر، بلسانه، بكلامه، بعمله، بأحواله، بأقواله في استقامةٍ ونقاء، إنه دائماً في طُهر، في عفاف، في رقي، في سمو، هذا الذي عناه الله عزّ وجل بقوله:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

أي أن الله نجّاهم من الكِبر، والكبر أم الرذائل، نجّاهم من الانحراف، نجّاهم من فُحش القول، نجّاهم من أن يأخذوا ما ليس لهم، نجّاهم من أن يستمتعوا بما ليس لهم، هذه كلُّها مواقف مشرّفه للإنسان..

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

5 ـ الإخلاص يحتاج إلى جهدٍ:

لكن قالوا: العمل الصالح ليس شيئاً سهلاً، فالإنسان الذي يكون مستقيماً، محسناً، مُنصفاً، وقّافاً عند كلام الله، وتحقيق هذه الصفات ليست قضيّة سهلة، بل تحتاج إلى جهد، وإلى يقظة، تحتاج إلى اطلاع على ما في كتاب الله، تحتاج إلى نفس مطواعة، يجب أن تكون النفس طوع إرادتك، لا أن تكون أنت طوع نفسك، قال العلماء: إذا كان العمل الصالح يحتاج إلى جهدٍ كبير، فإن الإخلاص في العمل الصالح يحتاج إلى جهدٍ أكبر، إذاً اعتَقِد معي هذا، العمل الصالح أي أن تكون وفق المنهج، وهذا شيءٌ عظيم، وأعظم منه أن تكون في هذا مخلصاً، فالصلاح شيء والإخلاص شيءٌ آخر.

6 ـ شرط العمل المقبول الإخلاص وموافقة الشرع:

قال الفضيل بن عياض: " العمل لا يُقبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً "، أن يكون عملك وفق الشرع في كل شيء ؛ في بيتك، في أحوالك، في بيعك، في شرائك، في تجارتك، في وظيفتك، في مهنتك، في حرفتك، في لهوك، في نزهتك، في أفراحك، في أحزانك، في كل هذه المناسبات أن تكون وفق المنهج، وهذا شيء ليس سهلاً، لكن أصعب منه أن تكون في تطبيق المنهج مخلصاً، لذلك العمل لا يُقبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السُنّة، إن كان صواباً ولم تكن فيه مخلصاً ما استفدت شيئاً، وإن كنت مخلصاً فيه ولم يكن وفق السُنّة ما استفدت شيئاً.

لا تنسَ هذه الكلمة: العمل لا يُقبَل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، أي فيه إخلاص، وصواباً ما وافق السُنّة، فأنت بحاجة إلى علم من أجل أن توقع عملك وفق السُنّة، هل هذه الصفقة مشبوهة ؟ هل فيها علاقة محرّمة ؟ هل فيها سلوك لا يرضي الله عزّ وجل ؟

إذاً:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(40)أُولَئِكَ)

أي في الجنّة..

(لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ

رزق الجنة مضمون لا ينقطع:

لهم رزق ثابت، أحياناً الإنسان يكون له رزق متبدِّلٌ مضطرب، غير مستمر، فهناك في الجنّة أمنٌ لا حدود له، ما من إنسانٍ له في الدنيا رزق إلا ويخاف عليه، يقول لك: لا نعرف ماذا سيحدث معنا غداً ؟ دائماً هو قلقٌ بأعماقه، لعلّ هذه الحرفة تتوقف، لعلّ هذه البضاعة يُمْنَع استيرادها، لعلّه يصير كساد عالمي، لعلّ الأسعار ترتفع كثيراً فيقل البيع كثيراً، تقل معه الأرباح، لا يوجد إنسان في الدنيا له رزق إلا وهو قلقٌ عليه، إلا في الجنّة..

(أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

رزق ثابت ؛ لا يتبدّل، ولا يتغيّر، ولا يقلّ، ولا يضطرب، ولا يشوبه قلق إطلاقاً، ثم قال تعالى:

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ

1 ـ الفواكه أعلى أنواع الإكرام:

يعني في الجنّة يوجد رزق مادي أيضاً، فواكه، والفواكه أعلى أنواع الإكرام، الإنسان أحياناً يقتات ليقف على قدميه، أحياناً يقتات ليقيم صلبه، وأحياناً يتناول الفواكه ليتفكّه بطعمها اللذيذ، ليتنعّم بألوانها

الزاهية، ليشمّ رائحتها العطرة، ليسعد بتناولها، لذلك فإنّ الفواكه تعبّر عن أعلى درجات الإكرام.
قال تعالى:

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

أحياناً يُقدّم للإنسان أشهى طبق، وأشهى فاكهة ؛ ثم يقال له: تفضّل، ولكن لا يشعر بإكرامٍ، أما إذا المضيف في كل دقيقة يقول: يا أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً نوّر البيت، أكرمتمونا بهذه الزيارة، فهناك إكرام معنوي وإكرام مادي، الإكرام المادي هذه الفواكه التي يأكلها أهل الجنّة، وليس من علاقةٍ بينها وبين فواكه الدنيا إلا الاسم، لأن في الجنّة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

2 ـ دائرة المرئيات والمسموعات:

وبالمناسبة إذ نسوقُ هذا الحديث القدسي: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

ففي حياة كل واحد منّا دائرة المرئيات، أنت حججت ؟ نعم، إذاً أنت عرفت مكّة والمدينة، ذهبت إلى لبنان ؟ نعم، فأنت مشاهداتك قد تكون لبنان، والحجاز، وفرنسا فرضاً وفقط.

أما مسموعاتك فأوسع بكثير، فيجوز أن تكون حافظاً اسم مئتي دولة، خمسمئة مدينة، والكلمات ككلمة قمر، وشمس، ومجرّات وما في محيطها من علم الفلك، وهذا يعني أن دائرة المسموعات أوسع بكثيرٍ جداً من دائرة المرئيات.

لكن قد يخطر على بالك إنسان طوله ألف متر، هذا خاطر لا ينضبط عندك واقعاً ومشاهدة، فالله عزّ وجل يقول

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

إذاً: ليس بين فواكه الدنيا وفواكه الآخرة إلا الاسم فقط..

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(42)فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

فالدنيا للعمل، والآخرة للسرور، نحن في دار عمل، والجنّة للنعيم..

(جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

3 ـ إيّاكم والتنعّم في الدنيا:

لذلك فالنبي الكريم قال:

((إيّاك عبد الله والتنعُّم))

[من الجامع الصغير عن معاذ]

الله عزّ وجل يمكن أن يسعد إنساناً في الدنيا، أما إذا جعل الإنسان همّه النعيم، والسرور، والطعام، والنزهات، والبيوت الفاخرة، إذا جعل همّه النعيم فقد ضلّ سواء السبيل، كالمدرسة أهم شيء فيها الدراسة، إذا جعل الطالب همه أن يكون مقعده مريحاً، وأحضر مقعداً متحرّكاً وله حركة يصير معها سريراً، فعليه أن يعلم أنّ هذه قاعة درس وليست قاعة للنوم، وأراد أن يكون مع مقعد الدراسة (سندويش) مسخّن، وشاي، وقهوة، وراديو صغير، ومجلات، وجرائد، فهل يعقل أن يكون في قاعة خصصت للدرس، للمحاضرة، وفيها أستاذ، شهادة، تخرُّج فهل يعقل أن يكون فيها كل هذه الأشياء أمام الطالب ؟ مقعد مريح غلبه النوم فنام، والأستاذ يتكلّم، هذا غير معقول، هذا الذي يبحث عن النعيم في الدنيا كهذا الطالب، وهو في قاعة الدرس أراد أن يجعل من مقعده مقعداً وثيراً متحرّكاً، وأراد أن يأكل، ويشرب، ويتسلّى، وأن يقرأ المجلات، وأن يستمع إلى الأخبار، وأن يمزح مع صديقه، فهل هذا الكلام معقول ؟ لذلك الحديث:

((إياك والتنعم ؛ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين))

[من الجامع الصغير عن معاذ]

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)

[سورة الأحقاف: من الآية 20]

أنت لك عند الله جنة عرضها السماوات والأرض، أنت هنا في دار إعداد لهذه الجنّة، لذلك فالإنسان يوم القيامة، أو حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25))

(سورة الفجر)

قال تعالى:

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(43)عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

فأمتع لحظات الإنسان إذا كان آكلاً، ومرتاحاً، ليس لديه هموم، وأولاده بصحّة جيّدة، زوجته على ما يرام، دخله جيّد، بيته فخم، يعاشر أصدقاءً من مستواه ـ كل واحد له مستوى ـ يتسامرون، يتذاكرون، يتنادمون، يتحادثون، يتحاورون، فأجمل لحظات الحياة للمقياس المادي طبعاً أن تكون مرتاحاً، وآكلاً، وجالساً في مكان جميل يطل على مناظر جميلة، مع صديق حميم يغني على شاكلتك، إذا كنت أنت ذكي

فهو ذكي مثلك، إذا كنت مثقّفاً فهو مثقّف مثلك، إذا كنت غني هو غني مثلك، إذا كان الإنسان له صديق على شاكلته، وكان مرتاحاً من كل أمور الدنيا، وهم يتذاكرون ويتحاورون، فربنا عزّ وجل قال:

(عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

الجماعة قاعدون، مرتاحون أدّوا ما عليهم في الدنيا، فيقال لهم:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

تعبتم في الدنيا كثيراً، وجاهدتم، واستقمتم، وصليتم في الليل، وقمتم من الليل، وقرأتم القرآن وحفظتموه، أمسكتم ألسنتكم، ضبطتم سمعكم وبصركم، واستقمتم، وجاهدتم، وبذلتم، وتعبتم، وصبرتم، فنريد الآن أن نجعلكم مسرورين، أنتم الآن في دار النعيم، فلذلك ترى المؤمنين يقعدون مع بعضهم بالتقابل، أحياناً يدعونك لعقد قران فيجلس الناس بعضهم وراء بعض، أما إذا كان الحفل فخماً جداً تكون الكراسي كلها متقابلة ومريحة، الكراسي مريحة جداً، المقاعد وثيرة ومتقابلة، من غير ازدحام..

(عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(44)يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

أي من أشهى أنواع الشراب، كلمة (من معين)، أي شراب مستمر، أحياناً الإنسان قد ينزل في فندق فيجد فيه برّاداً، فيشرب كأساً من عصير ثمنه مئة ليرة، يقول لك: ثمنها باهظ، فعند الدفع يغص مثلاً، أما في الجنة..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

كأس من معين مستمرّة، مهما طلبت بلا مقابل ودونما ثمن أو تعويض..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

حينما وصف الله خمرة الآخرة بأن فيها لذّة، يستنبط أن خمر الدنيا ليس فيها لذّة، طعمها غير لذيذ، لكن يشربها الناس ليغيبوا فيها عن وعيهم، إذاً ربنا عزّ وجل قال:

(بَيْضَاءَ)

أشدّ بياضاً من الثلج..

(لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(46)لَا فِيهَا غَوْلٌ)

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ

خمرُ الآخرة لا تغتال العقول أبداً، فلا سُكر لمن شربها ولا هو يغيب عن وعيه، ولا يتكلّم كلاماً بذيئاً من جراء شربها، ولا يتقيّأ، أو يفلت بوله، فلا شيء من هذا أبداً..

(لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ)

كذلك العطاء مستمر ليس فيه انقطاع، وليس فيه نضوب..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(46)لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(47)وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ)

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ

من أوصاف الحور العين:

1 ـ واسعات العيون:

الله عزّ وجل وصف نساء الجنّة بأنهن عين، يعني عينها واسعةٌ جداً، والعين الواسعة أحد أبرز مظاهر جمال الوجه..

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

2 ـ قاصرة النظر على أزواجهن:

أي أن هذه الحوريّة لا تنظُر إلى غير من خُصِّصت له إطلاقاً، تقصر طرفها عليه، وأجمل ما في المرأة ألا تكون متطلعة لغير زوجها، أما إذا تطلّعت لغير زوجها فدائماً النساء الغافلات عن الله عزّ وجل يقرّعن أزواجهن، انظر إلى فلان، فهو أحسن منك، قدّمَ، عملَ، تركَ، فعل، بيته كذا، دخله كذا، شكله كذا، دائماً هي تنظر إلى غير زوجها، وتقيم موازنة بينه وبين زوجها، وتقرعُ سمعه بهذا النقد والتعليق، حتى إنها تحتقره وتهينه، أما حوريّة الجنّة فلا شيء عندها من هذا.

(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(48)كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)

3 ـ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ

أي لجمال بشرتها نضارة، وكأن لون بشرتها بيض النعام، بياضٌ في صفاءٍ مع صُفْرَةٍ، مكنون: أي شيء ثمين، والثمين مخبّأ دائماً، ليس شيء عُرضة لكل الناس..

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ(49)فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ

أهل الجنة يتفكّهون بالحديث في الجنة:

الآن بدأ بين أهل الجنة حوار لطيف، فالجماعة يتنادمون في الجنّة، مسرورون، أدخلهم الله جنة عرضها السماوات والأرض، أكرمهم الله عزّ وجل بالنظر إلى وجهه الكريم، فأحياناً الإنسان في الدنيا تكون أموره منتظمة، ليس عنده أية مشكلة، يقوم بنزهة في مكان جميل جداً ـ نحن نأتي بتقريب فقط ـ يقول لك: والله ثلاثة أيّام نسيت خلالها تعب سنة، لماذا ؟ لأن المناظر جميلة، والأكل طيّب، وزوجته وأولاده، ليس لهم مشكلة، أموره كلها منتظمة، فلذلك ربنا عزّ وجل يصف أهل الجنّة، وهم في الجنّة يتنعّمون.

قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام: يا فلان كيف أصبحت ؟ "، قال: " أصبحت بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنّة يتنعمون وكأني بأهل النار يتصايحون "، قال له: **" عبدٌ نوّر الله قلبه عرفت فالزم".**

إذا كنت عاقلاً فلا تنظر إلى دنيا الناس، بل انظر إلى مصائرهم ؛ فمنهم آكلو الربا، الزناة، شاربو الخمر، تاركو الصلاة، المنحرفون، هؤلاء وهم في الدنيا بأجمل مظهر، بثيابهم الأنيقة، بسيّاراتهم الفارهة، ببيوتهم الجميلة، هؤلاء يجب أن ترى مصيرهم وهم في النار يتعذّبون ؛ وأما هؤلاء المؤمنون، الطاهرون المستقيمون، المخلصون، الذي يجاهدون أنفسهم وأهواءهم في سبيل الله، هؤلاء المؤمنون يجب أن تتعرف إلى مصيرهم وأنت في الدنيا، فستراهم في الجنّة يتنعّمون، قال:

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

يوم كنّا في الدنيا كان لي صاحب، أو كان لي جار، أو زميل في العمل، أو جاري في المهنة، أو ابن عمي، أو ابن خالتي، يعني: أحدهم كان لي قريناً..

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)

الآن أهل الكفر والإعراض يقولون لك: كفاك (جدبة)، أخبروني أن أحداً مات، ورجع، وقال لك: هناك آخرة ؟ ليس في الوجود غير الدنيا هذه، وهذه كلمات يقولها أهل الإعراض، والضلال ؛ ومن هؤلاء ذاك القرين كما ذكرت الآية السابقة، ثم قال من نجا:

(قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55)قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِي(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

هذا الحوار نفسِّره في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (06-14): تفسير االآيات 35 - 74
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-10-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة الصّافّات، ومع الآية الخمسين:

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

ولكن أريد أن أعود مرة ثانية إلى الآية التي كانت محور الحديث في الدرس السابق، لأني شعرت أن فيها معاني عظيمة لم نأتِ عليها كلها، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

مَن رأى أنّ الأمر بيد غير الله فقد استكبر عن كلمة التوحيد:

الإله هو المعبود، من الذي ينبغي أن تعبده ؟ من بيده كل شيء، حينما قال الله عزّ وجل:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

إذاً: لا يُعْبَد إلا من كان الأمر كله بيده.

إذا اعتقدت الفتاة أنها إن لم تسفر، وإن لم تبدِ محاسنها فلن تتزوج، هذا الاعتقاد مخالفٌ للحق، لأن الأمر كله بيد الله، وأن التزويج بيد الله، وأن الحياة الزوجية السعيدة بيد الله، فكلما اعتقد الإنسان أنه إذا فعل شيئاً مخالفاً لشرع الله يسعد به، ويربح به، ويغتني به، ويرتقي به، فهو استكبر عن (لا إله إلا الله) إذا اعتقد التاجر أنه إذا روّج بضاعته عن طريق إعلانٍ لا يرضي الله عزّ وجل ـ لا تروج البضاعة إلا بهذه الطريقة ـ فيستخدم أسلوباً مخالفاً للشرع، إنه استكبر عن (لا إله إلا الله).

فحينما تتوهم إنك إذا فعلت هذا مخالفاً لأمر الله تسعد، أو تغتني، أو تزداد قوتك، أو يزداد مالك، أو تزداد مكانتك، فهو استكبارٌ عن قول: لا إله إلا الله، لأن كلمة: (لا إله) أي: لا معبود، مَن الذي يعبد ؟ ومن الذي بيده كل شيء، فأمر صحتك بيده، أمر زواجك بيده، أمر رزقك بيده، أمر طمأنينتك بيده، أمر تخويفك بيده، فالإنسان كلما أعتقد أنه إذا فعل كذا أو كذا مخالفاً بهذا أمر الله عزّ وجل يسعد، ويزداد قوةً وغنى فقد استكبر عن أنه (لا إله إلا الله)

الآية عميقة جداً، ولها مدلولات كثيرة جداً، إن اعتقدت أن القوة وحدها تستطيع أن تتفوق بها على عدوك، القوة فقط، ازدد قوةً تنتصر على عدوك، فإنك عندئذٍ استكبرت عن قول (لا إله إلا الله)، لأن أمر النصر والهزيمة بيده، قد ينصر الضُعفاء، ويذل الأقوياء، إذا تناولت دواءً فيه ما حرّم الله عزّ وجل، واعتقدت أن فيه الشفاء فقد استكبرت عن أنه (لا إله إلا الله)

وانك إن اعتقدت شيئاً خلاف ما ورد في القرآن والسُنة فقد استكبرت عن أنه (إله إلا الله)،إن طرقت أبواب الأسباب، ورأيتَها وحدها تحقق لك النتائج فقد استكبرت عن قول: (لا إله إلا الله)، لأن كلمة معبود أي بيده كل شيء، والدليل:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من الآية 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله راجعٌ إليه، إذاً: في التجارة، في الصناعة، في الزراعة، إذا غششنا نربح خلافا للسُنّة، هذا يعني أنه استكبر عن (لا إله إلا الله)، فالله عزّ وجل يقول للإنسان: اعبدني، ولا تخشَ شيئاً، الأمر كله بيدي، ما عليك إلا أن تعبدني، الأمر كله، صغيره وكبيره، جليله وحقيره، ما هو مباشر، وما هو غير مباشر، كل القوى بيد الله عزّ وجل، فلذلك عندما ينحو الإنسان منحى المخالفة، أو التقصير، أو المعصية، ويبتغي الخير بها فقد استنكف عن قول: (لا إله إلا الله)، (لأن لا إله إلا الله) تعني أن الأمر كله بيد الله، وعليك أن تطيعه.

لو أن هناك معبوداً غير الله لاختلف الأمر، ولكن الله عزّ وجل يقول لك: لا إله غيري، لا معبود يستحق العبادة إلا أنا، عليك أن تعبدني، أن تطيعني، وإيّاك أن تطيع سواي، لذلك فالقرآن الكريم كله لُخِّصَ في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

إن اعتقدت أن هذا الدواء يطيل العمر خلافا لقوله تعالى الذي جعل لكل مخلوقٍ أجلاً لا يستقدم ولا يستأخر، فأنت استكبرت عن قول (لا إله إلا الله)

إذا اعتقدت أن زيداً ينفعك، وعليك أن تطيعه في معصية، استكبرت عن قول (لا إله إلا الله).

إذا اعتقدت أنك إن لم ترض زوجة فلان القوي، ولم تصافحها فإنه يغضب منك زوجها، وسوف يقصيك عن عمله، فأنت عصيت الله من أجل أن تبقى في عملك، واستكبرت عن قول (لا إله إلا الله)

إذا اعتقد كما يعتقد الباعة أنه بالغش، والتدليس، والكذب تروج بضاعتك، وتبيعها وتربح، فقد استنكفت عن قول (لا إله إلا الله)، والاستكبار أي الرفض.

إذا فسرت الأحداث الكبرى تفسير أرضياً، ولم تقبل تفسير الله لها، فقد استكبرت عن قول (لا إله إلا الله)، فهذه الكلمة التي ضغط بها الدين كله..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الله هو الإله ولا إله غيره، سيدنا موسى قال له الله سبحانه:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ)

أنا الله الذي تبحث عني..

(لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

(سورة طه: من الآية 14)

لا يوجد إله ثانٍ، وأن ما يبدو لك أن فلاناً وفلاناً وفُلاناً، وأنّ فلاناً قوي، وفلاناً غني، وفلاناً يحرّك الأمور، وفلاناً يجمِّدها، هذا كله نظر قاصر، الأمر كله لله.

أردت من هذه العودة السريعة إلى الآية أن يتضح إلى كل أخ كريم على مستوى التصور، على مستوى الاعتقاد، على مستوى السلوك، على مستوى الدقائق، على مستوى التفاصيل، على مستوى الجُزيّئات، على مستوى الأسباب، إذا اعتقدت أنك إذا خالفت منهج الله عزّ وجل ؛ تربح، وتغتني، وتقوى، فقد خرجت عن مفهوم هذه الكلمة، كلمة الإسلام الأولى (لا إله إلا الله).

رزقُ أهل الجنة معلوم لا ينازعهم فيه أحدٌ:

في الدرس الماضي تحدثنا عن أن أهل الجنة، وهم في الجنة يتنعمون، وقد وصف الله لنا طرفاً من نعيمهم:

(أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)

أي لهم رزق ثابت، لا يعتريه النُقصان، لا يخشى صاحبه أن يفقده، مهيّأ له تهيئة تامة، ليس هناك من ينازعه عليه، ليس هناك قلق من أن يفقده صاحبه.

(أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ(41)فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ)

1 ـ الفواكه والإكرام:

والفاكهة كما تحدّثنا قضية تكريم أكثر منها غذاء، الإنسان يقتات بالطعام والشراب ويكرّم بالفاكهة.

(فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(42)فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(43)عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

2 ـ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

الإنسان يكون مرتاحاً، وقد تناول الطعام الشهي، وشرب الشراب اللذيذ، وجلس يسمرُ مع إخوانه الذين هم في مستواه.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)

3 ـ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

المعين الذي لا ينقطع..

(بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

أي أن هذه الكأس فيها كل اللذات، وقد انتفت عنها كل المكاره..

(لَا فِيهَا غَوْلٌ)

خمر الجنة لا تغتال العقل، ولا تُقطع عنهم:

خمر الدنيا تغتال العقل، يثمل بها الإنسان، ويسكر، ويغيب عقله عنه، وفي الجنة لا شيء من هذا كله..

(وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)

وكؤوس الشراب هذه لا تقطع عنهم، بل مستمرة، وليس لها تأثيرٌ سلبي، وهم في نشوة سرورهم، ونعيمهم، وإقبال بعضهم على بعض يذكرون ماضيهم..

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

حوار أهل الجنة في الجنة:

1 ـ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

الإنسان لا يخلو في عمله، من بين أقربائه، من بين جيرانه، مِمَن يقاربه في السن، من أبناء لداته كما يقولون، أنه على غير شاكلته، لا يعتقد بما تعتقد، بل يعتقد أن الدنيا هي كل شيء، يعتقد أن الدنيا كلها مال، أن الدنيا كلها ملذات، فهذا الذي تعيش معه أحياناً بحكم جوارك، بحكم عملك، سواء أكان جاراً، زميلاً، قريباً، قد يكون ابناً، وقد يكون أباً، قد يكون أخاً، قد تكون زوجة، وأيّ واحدٍ من هؤلاء هو لك قرين.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

2 ـ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ

كان لي صاحب، هذا القرين يقول مستهزئاً، مستخفاً، متعجباً، ساخراً:

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ)

باللغة الدارجة: (أأنت قابضها ؟)، وأن هناك بعد الموت جنة، وهناك حساب، كل هذا عقلك فيه صغير، ليس هناك إلا الدنيا، الغني هو السعيد، والفقير هو الشقي، القوي هو السعيد، والضعيف هو الشقي، فهو لا يرى إلا الدنيا، الدنيا مبلغ علمه، ومنتهى أمله، يرى أن الغني هو الذي يسعد فيها، وأن القوي هو الذي يسعد فيها، وأن الفقير إنسان شقي، شقي وانتهت الحياة بالموت، وانتهى كل شيء، مع أن الله عزّ وجل يقول:

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

بلا حساب، أي أنّ هذا عاش فقيراً محروماً، وهذا عاش غنياً مُتْرَفاً، ويأتي الموت، وينهي حياة الفريقين بلا حساب ؟! الغني لا يُسأل عن ماله من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه ؟ والفقير لا يعطى نظير فقره في الدنيا وصبره على فقره، ما يغطي له ذلك في الآخرة ؟!

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(31))

(سورة النجم)

هناك عدلٌ، وتسوية حساباتٍ، وهناك يوم الدين، الذي هو يوم الجزاء، فلذلك الكافر لا يرى إلا الدنيا، يرى أنها كل شيء، ومن أجل أهدافه الخسيسة يسلك أقذر الطرق، هدفٌ خسيس هو المال أو القوة، فمن أجل هدفه الخسيس يسلك أقذر طريق ؛ بالكذب، والتدجيل، والخداع، والنفاق، والتزوير، والضغط أحياناً، ليس عنده شيءٌ محرّم، هدفه الكبير أن يبلغ الدنيا.

هذا القرين كلما سمع أقوال الصالحين، أقوال المؤمنين، كلما سمع أقوال القرآن الكريم تتلى عليه، سخر منها، واستخف بها وقال:

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ)

يا أخي هذه غيبيات، هذه كلها ما وراء الطبيعة، هذا الذي أخّرنا عن ركب الحضارة، مثل هذه العقائد أخّرتنا، انظر إلى الأمم الأخرى فقد بلغوا القمر، اخترعوا، تغلبوا، حاربوا، فتحوا، انظر إلى حياتهم،

إلى رفاه عيشهم، فالكافر دائماً لا يرى إلا الدنيا، فإذا رأى الأغنياء سال لُعابه، إذا رأى الأقوياء ساخت الأرض من تحت قدميه، يقول هذا:

(أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أئِنَّا لَمَدِينُونَ)

3 ـ أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أئِنَّا لَمَدِينُونَ

فهل أنت تظن أنّ هناك حساباً ؟ بعد أن يكون الإنسان قد مات، ولحمه تفسخ، والعظم أصبح كالرميم، وانتهى كل شيء، أيُّ حسابٍ هذا ؟ فهذا غرق في الباخرة، وهذا مات في الطائرة، يقول لك: مات جميع ركابها، فأين هم الآن ؟ لم يعد لهم أثر، فاعتقاد الكافر أن الموت نهاية كل شيء.

(أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أئِنَّا لَمَدِينُونَ)

والكافر يقول: هل الله سيحاسبنا ؟ أين كنا نحن ؟ كيف يجمعنا ؟ كيف يعيد خلقنا ؟ يبدو أن في الجنة قوانين أخرى، أنت الآن في الدنيا لك ابن في حلب مثلاً، اشتقت له، فليس من طريقة إلا أن تركب بالسيارة وتذهب إليه، تركب وتسير في الطريق إليه مدة خمس ساعات، تقرع عليه الباب، يقال لك: واللهِ الآن خرج، عنده درس بالجامعة، تنتظره ساعتين ليرجع مثلاً، لكن في الجنة هناك قوانين أخرى، فبمجرد أن يخطر في بالك شيء تراه أمامك، هذا منتهى الإكرام.

فهذا الأخ الكريم المؤمن في الجنة، يحدث إخوانه الذين معه، يحدثهم عن قرين كان في الدنيا وكان كافراً، كان مكذباً بالآخرة، مكذباً بالدين، يرى أن المال كُل شيء، ويرى أن القوة كلُ شيء، فقال هذا الصديق لإخوانه في الجنة:

(قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ)

4 ـ قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ

هل تحبون أن تروه ؟ قال تعالى:

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

5 ـ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ:

سواء الجحيم يعني في وسطها.

الإنسانُ بين رحمة الله في الدنيا وعدلِه يوم القيامة:

النقطة الدقيقة: أنك في الدنيا قد تحققت من اسم الله القوي، الأرض وزنها كم طنا ؟ فمن يحركها ؟ الله عزّ وجل قوي، وهذا تراه في الدنيا، الله عزّ وجل غني، وهذا تراه في الدنيا، إذا أعطى أدهش. سمعت من هذه السنة أنّ الأرض عندنا قد غلّت من القمح ثلاثة ملايين طن، واستهلاكنا مليون واحد، أعلى إنتاج للقطن في العالم كان عندنا، إذا أعطى أدهش، الفواكه كثيرة جداً، والله عزّ وجل تراه غنياً في الدنيا.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من الآية 21)

معدل الأمطار في الشام منذ ثلاثين سنة، أو أربعين سنة، أو خمسين سنة، مئة وثمانون ميليمتراً، أما في هذه السنة فثلاثمائة وأربعون، الآبار تفجّرت، والأنهار سالت، فالله عزّ وجل ترى قدرته في الدنيا، ترى غناه في الدنيا، ترى جماله من خلال خلقه، انظر إلى بعض الورود يتجلّى الله فيها باسم الجميل، انظر إلى العواصف والبحار إذا هاجت باسم الجبّار، ترى جبروته، ترى جماله، ترى لطفه أحياناً، أحد الركاب سقط من طائرة على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم، الطائرة انفجرت واحترقت، عند مكان الانشطار سقط أحد الرُكاب، فنزل على منطقةٍ في جبال الألب تغطيها غابات الصنوبر، كما تغطيها خمسة أمتار من الثلج، فخمسة أمتار من الثلج مع مرونة الأغصان، نزل واقفاً على قدميه، سقط من ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم، ونزل واقفاً عل قدميه..

وإذا العناية لاحظتك جفونـها نَمْ فالمخاوف كلهن أمـان

***

أنت ترى في الدنيا لطفه، ترى قدرته، ترى غناه، ترى جماله، ترى رحمته.

في الهند جبال في قمتها نبع، بعض الوعول تعيش في قمم الجبال، فمن أجل أن يَتَيَسّر لها ماؤها فجّر الله لها نبعاً في قمة جبل، وإخواننا الفيزيائيون يعرفون أن النبع الذي يتفجّر في قمة جبل لابدّ له من خزانٍ في جبلٍ أعلى منه، قد يكون على بعد مئات الكيلو مترات مجرى هذا النبع من خزان في جبل آخر بعيد، رحمته ظاهرة، فالأدلة على رحمته، وعلى لطفه، وعلى حنانه، وعلى قوته، وعلى غناه، وعلى جماله شيء لا يحصى.

لكن عدالته، لا تبدو بشكلٍ واضحٍ كالشمس كما تبدو يوم القيامة، في الدنيا قد تجد كافراً قويًا، هو كافر لكنه غني، يسخر من كل الأديان، ويزداد غنىً، هذا ممكن، مثل هذه الظواهر تحيّرك، ولكنك إذا أردت أن ترى عدالة الله جلّ جلاله، وأن ترى اسم الحق متحققاً، فلن ترى هذا الاسم جلياً واضحاً كما تراه يوم

القيامة.

فكل هؤلاء الذين كذّبوا الرسل، وانحرفوا، وطغوا، وبغوا، وأجرموا، واختالوا، وتعجرفوا، وتغطرسوا، واستخفوا بالأديان، وسخروا منها وكذبوها، وسخروا بالأنبياء، وادّعوا الألوهية هم لأنفسهم، لن ترى ذلهم وهوانهم واضحاً وضوح الشمس إلا يوم القيامة، بإمكانك أن تنظر إليهم في أية لحظة.

أنت مع من عشت في الماضي ؟ لك صديق بالمقعد مثلاً كان فاسقاً، كان فاجراً، كان زانياً، كان يشرب الخمر، كان يسخر منك، ومن دينك، ومن عقيدتك، ومن سخافاتك على حد زعمه، بإمكانك أن تراه يوم القيامة أين هو ؟ استنباطاً من هذه الآية:

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

آكلو الربا، شاربو الخمر، الزناة، الذين يكسبون أرزاقهم من إفساد أخلاق الشباب، يبحثون عن بضاعةٍ رائجة ولو كانت أفلاماً رخيصة، يبحثون عن ربحٍ وفير، ولو كان مقهى تقدّم فيه المشروبات المحرمة، يبحثون عن المال بأية وسيلة، ولا يعبئون بالدين، ولا بحرمة الدين، ولا بنهي الله عزّ وجل، يقول لك: حلال على الشاطر، مثل هؤلاء الناس إذا تفقّدهم المؤمنون رأوهم في سواء الجحيم، ربنا عزّ وجل رحمةً بنا ينقل لنا مشهداً حيّاً من مشاهد يوم القيامة، يبدو أنه بإمكانك أن تراه، وبإمكانك أن تخاطبه في الوقت الذي أنت في الجنة، وهو في وسط جهنّم.

الآن يتبجّح أهل الغرب أنهم اخترعوا (تليفوناً تلفزيونياً)، ترى الذي تخاطبه على الشاشة، تراه وتحدِّثه، فهذا يوم القيامة في الجنة مُتاح لأي مؤمن، أي إنسانٍ عشت معه في الدنيا وبدافع الفضول إنْ أردت أن تعرف مصيره في الآخرة، فبإمكانك إذا خطر في بالك أن تراه أين هو، قال:

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ)

6 ـ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ

والله كنت ستهلكني، ألقيت لي الشبهات، سخرت من أفكاري، سخرت من عقيدتي، قلت لي: هذه أفكار كلها غيبيّات، هذه أفكار تجاوزها الزمن، نحن في عصر العلم، نحن في عصر المادّة، كان يقول: الشيء الذي لا نراه لا نؤمن به مثلاً، فهذه إذاً أقوالك، ونظرياتك، وفلسفتك، وزخرفة كلامك، وحيلك..

(إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي)

7 ـ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

لولا أني اعتصمت بالله عزّ وجل، لولا أنني أطعته، لولا أنني اخترت رضاه لأرديتني، ولأهلكتني، ولكنت الآن معك.

أيها الإخوة الأكارم، إن مما يضاعف سعادة المؤمن في الجنة أن يرى مصير من لم يؤمن، إن مما يضاعف سعادة المؤمن في الدنيا أن يرى مصير الكافرين.

أضرب مثلاً من الدنيا للتقريب: لو أن شريكين اقترح أحدهما أن يتَّجر ببضاعةٍ ممنوعة قانوناً، فالشريك الأول رفض، وقال: أنا لا أوافق، قال الآخر: توافق أو لا توافق فالربح كثير، وأنا ماضٍ، فقال الآخر: أنا لا أوافق، فإذا كنت مصراً فافصم هذه الشركة، فَصَمَا الشركة وتَخَالَصا، والذي اقترح التجارة الممنوعة قانونا اشترى وباع، ثم ألقي القبض عليه، وأودع في السجن، فذهب شريكه الأول ليزوره في السجن، أليست سعادة الأول بقراره الحكيم تتضاعف حينما يرى شريكه في السجن يعَذّب، وقد صودرت أمواله كلها، ودفع الثمن باهظاً، إذا رآه وهو في مكانه الذي يستحقه تضاعفت سعادته، لا شماتةً، لا والله ولكن شكراً لله عزّ وجل على قراره الحكيم، وعلى حزمه المتين، وعلى موقفه الصُلب، لولا أنني وقفت هذا الموقف الصُلب، وهذا القرار الحكيم لكنت معك الآن، لو بقينا شركاء لكنت معك الآن.

إذاً: الإنسان في الدنيا يحتاج إلى موقف صلب، يحتاج إلى عقيدة متينة، يحتاج إلى يقين ساطع، يحتاج إلى إرادة قوية، يحتاج إلى أن يؤمن أنه لا إله إلا الله، وأن يلزم أمر الله عزّ وجل.

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(57)أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

8 ـ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

الآن يسخر من قرينه الذي كان يسخرُ من مقولاته، كان يقول قرينه: ليس هناك إلا الموت، وما بعد الموت لا شيء، ولا عذاب، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار، كلها أقوال خرافية، أنا لا أؤمن بها، قال له صاحبه: فما قولك الآن ؟

(أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(58)إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

عندئذٍ يقال:

(إِنَّ هَذَا)

إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

وأنت في الجنة، وأنت تتقلّبُ في نعيمها، وأنت مع الحور العين، وأنت في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وأنت مع إخوانك المؤمنين على سررٍ متقابلين، وأنت في هذا النعيم المقيم، وأنت في جنّة رب العالمين..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

هذا الملك العظيم.

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(20)عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(21))

(سورة الإنسان)

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

الفوز الحقيقي يوم القيامة:

هذا هو الفوز، هذا هو الربح، هذه هي السعادة، هذا هو النجاح، هذا هو الفلاح، هذا هو التفوّق، هنيئاً لهذا، فالناس اتفقوا على أن يهنئوا بعضهم بعضاً في الدنيا، يُهنأ الإنسان ببيت، بزوجة، بشهادة، بمنصب، بمركبة، بشركة، بتجارة، لكن الله عزّ وجل قال: إن هذا.. وليس ذاك..

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

هناك من يقول لك: عندي أنجح شركة، أنا معي وكالة حصرية، أنا أربح آلافاً مؤلّفة كل يوم، كل إنسان فَرِح بما هو فيه ؛ هذا فرح بشكله، هذا فرح بماله، هذا بمنصبه، هذا بذكائه، هذا باختصاصه، هذا بِحِيَلِهُ، هذا بتجارته، هذا بزراعته، هذا بمزرعته، هذا بمتجره، هذا بمعمله، هذا بمنصبه، هذا بأولاده، الله عزّ وجل يقول:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أنت فرحٌ بزوجة جميلة جداً، أو بمال، والله تعالى يقول عن نعم أهل الجنة:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أنت فرح بهذا المعمل، لديه حماية جمركية..

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

أنت فرح بهذا المحضر الذي ربحت فيه ثلاثمائة بالمائة..

(إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم)

أنت فرح بهذه الشهادة العليا، لا يوجد غيرك بالكمبيوتر..

(إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم)

فكلما فرح الإنسان في دنياه بشيء من زخارفها ليذكر قول الله عزّ وجل:

(إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم)

مر معنا بالدرس الماضي أن أقلّ جزاءٍ على العمل الصالح عشرة أمثال، وأعلى جزاء على العمل السيئ، مثل واحد، أقله عشرة أمثال، وأكثره:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ)

(سورة البقرة: من الآية 261)

سبعمئة، إلى سبعة آلاف..

(إنّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ)

(سورة الزمر: من الآية 10)

(إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم)

إنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم

واستمعوا يا أيها الإخوة إلى قوله تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

نشاطك، وقتك، عضلاتك، ذكاؤك، طاقتك، فكرك، اهتمامك، وقتك لمثل هذا..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

شدّةُ قدميك، شدة يديك، سهر الليل، عمل النهار، كَدُّك، عرق جبينك، تفكيرك، اهتمامك لمثل هذا، هذا الذي يستحق أن تعمل له، هذا الذي يستحق أن تمضي وقتك من أجله، هذا الذي يستحق أن تعادي الناس من أجله، تعاديهم على الدنيا ؟! عرضٌ زائل، تخاصمهم على لقيمات، على دريهمات، تقاتل من أجل بيت، من أجل دكان، من أجل شركة، تحتدم الخصومة فتصاب بأزمة قلبية، من أجل دكان، من أجل دنيا، يقول لك: ثماني عشرة سنة في القضاء في قضيةٍ هزيلة، دفعت مئات الألوف للمحامين من أجل دكان، قال الله تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

تبذل قصارى جهدك، يقول لك: سهرت للساعة الثانية صباحاً كل يوم، أمضيت ثلاثاً وعشرين سنة دراسة من أجل كلمة بورد من أمريكا، فقط ؟

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

تجد أشخاصاً سواء في التجارة، أو الصناعة، أو الزراعة، أو الحقل العلمي، أو الحقل التجاري، أو الحقل القيادي، يعملون، يجتهدون، يسهرون، يفكرون، يختصمون، يقاتلون، من أجل الدنيا الفانية، ربنا قال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

يا خسارتك يا عبدي، طاقاتك الفكرية، عضلاتك، وقتك الثمين، صحتك، أجهزتك، ذكاؤك، تفكيرك، طلاقة لسانك، طليق اللسان من أجل زيد أو عبيد ؟! بلاغتك وشعرك كله من أجل فلان !! ليس من أجل الله عزّ وجل، وأنت وجودك من الله عزّ وجل، وأنت مصيرك إلى الله.. **" خلقت كل ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك"..**

إن الإنسان لم يخلق ليعبد إنساناً مثله، خلق ليعبد الله، لم يخلق لعمارة الدنيا فقط، خلق لجنةٍ عرضها السماوات الأرض.

قد تجد شخصاً يعتني بتأثيث بيت، وكأنه سيعيش مئة ألف عام، ليلاً ونهاراً، يحاسب على أدق العيوب، يُقيم أعظم الخصومات، إلى أن يجهز هذا البيت، يقولون لك: بعد خمسة أيام مضت توفي، الإنسان كم يكون خاسراً لو ضيّع دنياه، ولم يجعلها مطية للآخرة، فسبحان الله ! فأنا أتمثّل بهاتين الآيتين:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

هذا هو الفوز، الفوز أن تكون مؤمناً، الفوز أن تكون مستقيماً على أمر الله، الفوز أن تعمل عملاً يرضي الله، الفوز أن يرضى الله عنك، الفوز أن تستحق الجنة، هذا هو الفوز، والعمل من أجل هذا، لذلك طلب العلم، قراءة القرآن، تدبُّر القرآن، فهم القرآن، العمل بالقرآن، فهم السنة، العمل بها، الأعمال الصالحة، رعاية الأيتام، رعاية الأرامل، إطعام الفقراء، الدعوة إلى الله، نشر العلم، تعلُّم العلم، القُرُبَات، الصَدَقَات، هذا العمل فقط هو الذي يبقى وما سوى ذلك يفنى.

النبي عليه الصلاة والسلام مرة وزع شاةً، يبدو أن السيدة عائشة اشتهت أن تأكل منها، فوزّع، ووزع حتى لم يتبق منها إلا قليل، فقالت: **" يا رسول الله لم يبق إلا كتفها** ـ لم يبق شيء منها فدعْ هذه لنا نأكلها ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((بل بقيت كلها إلا كتفها))

الذي وزعناه بقي، وسنسعد به، أما الذي سنأكله هو الذي سيذهب، " بل بقيت كلها إلا كتفها ".

أنا أتمنى على الله وعليكم، أتمنى عليكم أن تعيش هاتين الآيتين في نفوسكم طوال الأسبوع:

(إِنّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

هذا هو الفوز، الفوز أن تتعرف إلى الله وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت في مقتبل العمر، وأنت قوي، وأنت غني، وأن تبذل صحتك، ووقتك، ومالك، وجهدك، وفكرك، وذكاءك في سبيل الله..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61)أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا)

الجانب الآخر من يوم القيامة:

هذا المقام الكريم، في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، حورٌ عين، ولدان مخلّدون، فواكه وهم مكرمون، أطلب تُعْطَ، أي خاطرٍ يخطر على بالك تجده أمامك، قال:

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(62)إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(63)إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(65)فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(67)ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

مفارقة كبيرة، صورتان متناقضتان، قمة النعيم، وقمة التكريم، وقمة الأمن، وقمة الرضا، وقمة السرور، وقمة السعادة، إن كانت إلا بالله أو كانت بما خلق الله لك في الجنة:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(162))

(سورة الرحمن)

1 ـ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ

أكل ذاك النعيم أو هذه الشجرة التي تنبُت في أصل الجحيم، طلعها أي ثمارها، كأنها رؤوس الشياطين، أبشع منظر، وأخوف منظر، وأشد المناظر إفزاعاً رأس الشيطان، يتوهّمه الرسّامون صورة مخيفة جداً، فأُكُلُ هذه الشجرة كأنه رؤوس الشياطين، وكأن هذه الشجرة هي الدنيا التي تعلّق بها أهلها، وأكلوا من مالها الحرام، واستمتعوا بشهواتها المُحَرّمة، فتمثّلت لهم في جهنم شجرة عليهم أن يأكلوها، يأكلوا من ثمرها، يعني أن أعمالهم السيئة، انحرافاتهم، زناهم، أكلهم الربا، انحرافاتهم الأخلاقية، ظلمهم للآخرين، أعمالهم السيئة المتعلقة بالعدوان والإثم معاً تمثّلت في أنها:

(شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ)

2 ـ طعام أهل جهنم: شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ

مفزعة، مرارة على شَوْك، على منظر قبيح، فجمع في هذه الشجرة كل السيّئات، اللون كريه، الطعم كريه، شوك، وطعمٌ كالصبر.

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(65)فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ)

3 ـ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ

يجب أن تأكل، لا تستطيع أن تقول: لا أقدر، أنا متغدٍ قبل قليل، والله فاسمحوا لنا، ليس لك أن تعتذر..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

يجب أن تأكل، وتتقل في الأكل أيضاً، وهذا إجباري..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

4 ـ شراب أهل جهنم: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ

يريد أن يشرب، قال:

(ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

الشراب مثل النار يغلي، الشجرة طلعها كأنه رؤوس الشياطين، مرارة، على شوك، على كراهة ريح، على كراهة طعم، طعمها نَتِن، طعمها مر، وريحها نتن، وفي الحياة روائح كريهة جداً، الجيفة إذا مر أحد أمامها يغلق أنفه نهائياً، ويغلق نافذة السيارة رأساً، يقول لك: شيء لا يطاق، فهذا الطعام ذو طعم مر لا يحتمل، على رائحة نتنة، على شكل قبيح، على شوك..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ)

هذه الدنيا التي أكلوها حراماً، هذا المال الذي أكلوه حراماً، هذه الشهوات التي استمتعوا بها حراماً، هذا العدوان الذي اعتدوه في الدنيا..

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

هذا الطعام، يقول لك: نريد شيئاً لكي نبلع اللقمة به، نريد كأساً من الشاي مع الأكل، والله لم يبلع معنا الطعام بدون الشاي، فهذا إذاً هو الطعام، وهذا الشراب الذي معه هو حميم، ماءٌ يغلي..

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ(15))

(سورة محمد)

هذا كلام خالق الكون، فلا مجال للواحد منا أن يأخذ القضية كوصف أدبي، لا، فهذا كلام خالق الكون..

(ثُمّ إِنّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)

وأحياناً السجناء يؤخذون فيعذبون، بعد انتهاء التعذيب إلى أين نرجع ؟ إلى الزنزانة..

(ثُمّ إِنّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

ثُمّ إِنّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ

أين سيستقر ؟ في الجحيم، يريد أن يأكل بشكل قسري، وأن يملأ بطنه منها، والشراب ماء يغلي، ليس ماء فقط، لكنه صديد، قيح، فما في الدنيا من سوائل مكروهة كالمياه السوداء، فعليه أن يشرب منها، ويقال له: تفضل اشرب، فالمياه الفاسدة، الملوثة، مياه المجاري، الصديد، القيح، النَتَن، وهو يغلي، رائحة، على كراهة، على اشمئزاز، على حرارة لابدّ أن يشرب منها..

(ثُمّ إِنّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

أيها الإخوة الأكارم، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى خاطب نفسه فقال لها كلاماً بمنتهى الدقة، أتمنى أن تدققوا فيه قال لها: " يا نفس، لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها، أغلب الظن أنك تمتنعين عنها ـ إذا كان واحد يحب أكلة وهو متعلق بها تعلقاً شديد، وقال له الطبيب: هذه الأكلة تسبب لك أزمة قلبية، وقد تودي بحياتك، فهل يأكلها ؟ مهما يكن هذا الطعام محبباً، مهما يكن هذا الشراب لذيذاً ـ لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها فأغلب الظن أنك تمتنعين، يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ ـ فهل تصدقين طبيباً، ولا تصدقين الله ؟ هذا كلام الله عزّ وجل، هذا مصير آكلي الربا، هذا مصير الزناة، هذا مصير العصاة، هذا مصير المنافقين، هذا مصير الفُجّار، هذا مصير الذين لا يصلون، هذا مصير الذين لا يتصدقون، هذا كلام الله عزّ وجل ـ قال لها: **" يا نفس أيكون الطبيب عندك أصدق من الله ؟ إذاً ما أكفركِ ".**

يقول بعضهم: نحن صدقنا الله عزّ وجل ؛ لكن صحتنا أغلى من مصيرنا بالآخرة، أيكون المرض أشد عندكِ من النار ؟ إذاً ما أجهلكِ، معنى ذلك أنّ الإنسان حينما يعصي ربه لا يمكن أن تفسر معصيته لله إلا بكفرٍ أو جهلٍ، وإذا قلت: والله أنا مصدق أن جهنم مخيفة، ولكنك وجدت أن المرض أشد عليك من جهنم فما أجهل هذا الإنسان.

وإذا صدقت الطبيب فيما يحذرك منه، مثلاً: شخص يملك بيتاً في الدور الرابع، كساه في خمس سنوات، بعد ما انتهى تجهيزه قال له الطبيب: بعه فوراً، فهذا لا يناسبك، فهذا التعب، وهذا الديكور، وهذا الجبصين، في اليوم الثاني يعرضه للبيع، معنى ذلك أنه صدّق الطبيب، صدقه تماماً، أفلا تستحي من الله أن تصدق الطبيب دون أن تصدق الله عزّ وجل ؟ فلذلك هذا كلام خالق الكون.

يا إخوان، قبل أن تقترف مخالفة، قبل أن تقترف معصية، قبل أن تقصِّر بواجب، قبل أن تدع ما أمر الله به، فكر ملياً هذا كلام خالق الكون، أهذا النعيم المقيم، أهذه الجنة بحورها العين، بولدانها المخلّدين، بطعامها، بشرابها، بكل ما فيها من نعيمٍ مقيم، بالتكريم، بالسعادة، بالسرور..

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(62)إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(63)إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(64)طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(65)فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(67)ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ(68)إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ)

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ

لا حُجّة بالتقاليد وعادات الآباء:

هنا محط الشاهد، يقول بعض الناس: هكذا ربينا، فانظر كيف ربيت ؟ لعلك تربيت على خلاف الشرع، هكذا نشأنا، هكذا عادتنا، هكذا تقاليدنا، هكذا يريد أبي، من أبوك ؟ هل أبوك مشرع ؟ أبوك على العين والرأس، ولكن ليس مشرعاً، الله عزّ وجل قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من الآية 23)

الأب يُحْسَن إليه، أما إذا أجبرك على معصية فلا طاعة عندئذٍ، لا طاعة لمخلوق.

أمّ سيدنا سعد قالت له: " إن لم تكفر بمحمد فسأموت جوعاً "، قال لها: " يا أمي، لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "، فأكلت بعد ذلك، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، فقبل أن تقول: أبي، هكذا ربينا، وهكذا نشأنا، هكذا علمونا، ونحن لا نستطيع أن نخالف، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ

مثلما قال الشاعر الجاهلي يلتزم سيرة الآباء ولو كانوا أهل ضلال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

***

لا يكن أحدكم إمّعة، أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطِّن نفسك على أن تحسن إن أحسنوا، وعلى أن تحسن إن أساءوا.

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

هكذا أبي ربّانا، فأنت لماذا إذاً تريد أن تسكن بيت غير بيتاً والدك؟ يقول لك: يا أخي، الحياة تغيّرت، وفي الدنيا تجدُّد، تريد فرشاً جديداً، تريد ترتيباً جديداً ؟ أنت في الدنيا لا ترضى بما فعله أبوك، تريد أن تقيم دنيا على نمطٍ خاص، على طريقةٍ أنت تحبها، فلماذا في مجال الإيمان اعترضت وقلت: أبي هكذا يريد، بينما في شهوات الدنيا أنت غيرت وبدلت ؟ كلام الإنسان إذاً ليس له حجة، ولا نهجه مثالاً يُحتذى..

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69)فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(70)وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(71)وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ

الله تعالى أنذر الناسَ بجميع أنواع النذر:

القرآن نذير، والنبي نذير، والأمراض نذير، والمصائب نذير، وموت الأقارب نذير، وسن الأربعين نذير، والشيب نذير، والله عزّ وجل ينذر وينذر إلى أن يأتي الوقت المعلوم..

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ)

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ

هؤلاء الذين أنذرناهم انظر إلى عاقبتهم، انظر إلى مصيرهم.

أيها الإخوة الأكارم، هذا قرآنٌ كريم، وهذا كلام رب العالمين، وهذا وصفٌ صادق لما سنكون عليه، فإما إلى جنةٍ يدوم نعيمها، وإما إلى نارٍ لا ينفد عذابها، فالإنسان عليه بطاعة الله، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

مرة قلت لكم قصة: كان الحسن البصري من كبار التابعين، عند أحد ولاة يزيد بن معاوية ـ على ما أعتقد ـ فجاء أمر من يزيد إلى هذا الوالي، يبدو أن هذا الأمر لا يرضي الله عزّ وجل، وقع الوالي في موقفٍ حرج، إن نفّذ هذا الأمر أغضب الله، وإن لم ينفذ هذا الأمر أغضب يزيد، شيء صعب، وكان

بجانبه الحسن البصري قال له: ما قولك يا إمام ؟ قال له كلمة هذه يجب أن نحفظها: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

إذا آثرت جانب الله، فالله يحميك من كل الناس، أما إذا آثرت جانب الناس، فهؤلاء الذين آثرتهم وعصيت ربك لا يحمونك من أحد، فعلاقتك مع الله، حتى لو أن الإنسان جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق وحبيب الحق المعصوم جاء في خصومة، فعرض وجهة نظره بلسانٍ طليق، وحجةٍ قوية، وبيانٍ ساطع، فالنبي حكم له وهو ليس محقاً، لا تنجو من عذاب الله، حتى لو أن النبي حكم لك، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[البخاري]

وفي رواية:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضًا أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ أَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، وَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَدَعْهَا))

[البخاري]

أنا أنبهك يا أيها الأخ الكريم: لا تعتمد إلا على الله، ولا تثق إلا بالله، ولا تُرضي مخلوقاً بمعصية الله، مهما كبُر هذا المخلوق، مهما أعطاك من المغريات، مهما طمأنك، لأن هذا الإنسان الذي أطعته، وعصيت الله عزّ وجل لا يمنعك من الله، ولكنك إذا آثرت جانب الله فهو يمنعك من هذا الإنسان، ولذلك: راجع عاداتك وتقاليدك كلها راجعها، أتقول لي: أبي، وهكذا نشأنا، وهكذا ربينا، انظر إلى الشرع، وإذا لم أظهرْ أمام النساء في العرس تغضب أمي، أما أنت فقل لها كما قال سعد بن أبي وقاص: **<< لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدة ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي >>.**

هذا موقف الصحابي، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ربنا عزّ وجل بيّن أن أحد أسباب هلاكهم الطاعة العمياء، التقليد الأعمى، كلمة تقاليد، عادات، أعراف، يا أخي هكذا ربينا، لا نقدر، وأنا استحي، أتخشون الناس والله أحق أن تخشوه.

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء لهم حديث آخر في الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (07-14): تفسيرالآيات 75 - 82

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الصافات، ومع الآية الخامسة والسبعين:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ

1 ـ من شأن الإنسان الضعيف أن ينادي ربّه القويّ:

الإنسان لابدّ من أن يُنادي، لابدّ من أن يدعو، لابدّ من أن يطلب، لابدّ من أن يرجو، لابدّ من أن يتوسّل، لأن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً ؛ يصيبه ضعفٌ في جسمه، ضعفٌ في دخله، ضعفٌ في قوّته، الإنسان في الأصل ضعيف، ومن شأن الضعيف أن يدعو، من شأن الضعيف أن يستجير، أن يستغيث، أن يطلب، أن ينادي، فهذا من شأن الإنسان، من طبيعة الإنسان، ما منّا واحدٌ إلا ويدعو.

من هو المؤمن ؟ هو الذي يدعو الله عزّ وجل، من هو غير المؤمن؟ هو الذي يلتفت إلى غير الله، هو الذي يتضعضع لغير الله، هو الذي يرجو غير الله، هو الذي يُهْرِقُ ماء وجهه لغير الله، هو الذي يتمسكنُ لعبدٍ مثله لا يقوى على شيء.

الفيصل بين المؤمن وغير المؤمن أن غير المؤمن يدعو غير الله، وأن المؤمن يدعو الله عزّ وجل، ثقة المؤمن كلها في الله عزّ وجل، ثقة أهل الدنيا ببعضهم بعضاً، لذلك المؤمن موحِّد، والكافر مشرك، المؤمن يدعو من هو أهلٌ للدعاء، الكافر يدعو من هو ضعيفٌ لا يستجب له، لا يسمعه، وإن سمعه لا يستجيب له، لذلك دقِق في كلمة:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

ليس في الكون واحد من دون استثناء إلا وألمّت به ملمّة، مصيبة، شبح مصيبة، خوف، قلق، مرض، ضيق ذات يد، ضعف، مستضعف لا يقوى على شيء، الأبواب كلّها مغلّقة أمامه، يشكو من بيته، من أهله، من زوجته، من جسمه، من دخله، ممن هم فوقه، شأن الإنسان هو الضعف، وشأن الضعيف هو الطلب، والدعاء، والرجاء، والتوسّل، لكن المؤمن يرجو الله وحده، يثق بالله وحده، يؤمن أن الله على كل شيءٍ قدير، وأنه يسمعه.

وأنا في طريقي إلى المسجد خطر في بالي السؤال التالي: من هو أكمل المجيبين ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

2 ـ الله أكملُ وأكرمُ مجيبٍ:

من هو أكمل مجيب ؟ هو الله جلّ جلاله، فلماذا ؟ لأنه يسمع دعاءك ولو دعوت بنفسك، سيدنا زكريًا.

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

(سورة مريم)

بإمكانك أن تضمّ شفتيك، وأن تجعلهما لا تنبُسان ببنت شفة، وبإمكانك أن تدعو في سرِّك، تقول: يا رب أعني، يا رب أنقذني، يا رب لا تكلني إلى أحدٍ سواك، يا رب ليس لي أحدٌ سواك، يا رب أنا ضعيفٌ فقوني، يا رب أنا فقيرٌ فأغنني، يا رب أنا جاهلٌ فعلمني، بإمكانك أن تدعو وأنت ساكت.

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

فأكمل مجيب هو الذي يسمع، لكن من كان دون الله عزّ وجل فكيف يجيبك إن لم يكن إلى جانبك ؟ إن أعطاك رقم هاتفه، وضاع منك الرقم، فماذا تفعل ؟ إن كنت في مكانٍ، وليس معك رقم هاتفه، فماذا تفعل ؟ إن أعطاك رقم هاتفه، وكان هذا الرقم معك، واتصلت به فإذا هو خارج البيت، ليس موجوداً، أو كان جهازه معطّلاً، إذاً هذا ليس مجيباً، أما الإنسان أينما ذهب، أينما حل، أينما ارتحل، أينما توجّه، في بلده، في موطنه، في حلِّه، في ترحاله، في سفره، وحده، مع الناس، في مدينة، في الصحراء، فالله قريب مجيب..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

لكن سيدنا يونس أين نادى الله عزّ وجل ؟ ناداه في بطن الحوت، في ظلماتٍ ثلاث ؛ في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، البحر فيه مكان دامس الظلام، ينعدم الضوء كلياً بعد مئتي متر تقريباً، فالحوت إذا غاص في أعماق البحر، ففي بطن الحوت ظلمة، وفي البحر ظلمة، والوقت ليل، فظلمة الليل، على ظلمة البحر، على ظلمة بطن الحوت..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

سيدنا يونس نادى الله عزّ وجل وهو في بطن الحوت..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فيا أخي المؤمن، هل تجد مجيباً كالله عزّ وجل ؟ يسمعك أينما كنت، أينما حللت، أينما ارتحلت، في يُسرك، في عُسرك، في غناك، في فقرك، في صحّتك، في مرضك، الإنسان يحتاج إلى اتصال، إلى هاتف، إلى برقيّة، إلى مخابرة، إلى صياح، إلى كتابة، إلى ترجمة أحياناً، أما الله عزّ وجل وأنت ساكت يعلم السرّ وأخفى، يعلم سرّك ويعلم ما خفي عنك، ما معنى..

(فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

نسمعك، ومع السماع إجابة محققة..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(43)فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(44)قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

أنا معكما، و..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61))

(سورة الشعراء)

إنهم لحقوا بنا، البحر أمامنا، وفرعون من ورائنا، فرعون، وما أدراك ما فرعون بقوّته، وجيشه، وبطشه، وحقده، وجبروته..

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

سيدنا إبراهيم جاءه جبريل قبل أن يُوضَع في النار، سأله جبريل: ألك حاجة ؟ قال: " منك ؟ قال: **" لا ليس مني، ولكن من الله " قال: "علمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

فهذه القصص ليست للاطلاع، هذه القصص القرآنيّة للاعتبار، فسيدنا إبراهيم قبل أن يُلْقَى في النار، وسيدنا يونس وهو في بطن الحوت، وسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الغار..

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[من صحيح البخاري عن أبي بكر]

فأنت مؤمن، أما عندك ورطة إطلاقاً ؟ أما عندك مشكلة ؟ أليس لديك ضائقة ؟ أما يلوح لك شبح مصيبة ؟ لا يمكن إلا يكون لديك شيء من ذلك.

3 ـ الله يسوقنا إليه بالمصائب والابتلاء:

بالمناسبة ؛ المتفوّقون، المؤمنون الصادقون يزداد نشاطهم في الرخاء، وفي الطمأنينة، وفي الصحّة، وفي الغنى، لكن ضعاف الإيمان فالرخاء لا يناسبُهم، الرخاء يعني: الكسل، يعني النوم، يعني التواني، يعني صلاة فيها تكاسل، يعني غفلة عن الله عزّ وجل، لذلك حكمة الله جلّ جلاله ـ وهذا من فضله علينا

ـ أنه يسوقنا إلى بابه بالمشكلات، ولولا المصائب لما اندفع إلى باب الله عزّ وجل، لما اندفع إلى الله، وإلى رسوله، وإلى بيته، وإلى مجالس العلم، فهذه نعمة، لو تركنا الله عزّ وجل هملاً، وبقي الناس في غفلةٍ إلى أن جاء وقتهم المعلوم، فاستحقوا النار.

الله جلّ جلاله مُرَبٍّ، هو ربُّ العالمين، معنى ربُّ العالمين، أي أنه يربي هذه النفس، ينقلها من حالٍ إلى حال، من طوْرٍ إلى طور، من منزلةٍ إلى منزلة، من مرتبة الإسلام، إلى مرتبة الإيمان، إلى مرتبة الإحسان، إلى مرتبة الشهود، إلى مرتبة الفناء، إلى وإلى، ينقلك، يُقَلِّبَك.

أكثر شيء أنت أيها المؤمن تتعامل مع الله من خلال الدعاء.

هل أقول لكم كلمة أوضح من ذلك ؟ إن الدعاء هدفٌ لذاته، وما يسوق الله للإنسان من مشكلات إلا كي ندعوه، إلا كي نتضرّع إليه، إلا كي نُقبل عليه، إلا كي نتوسّل إليه..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

أول شيء يجعل الطلب من الله طلباً ذكيّاً، أن الله معك أينما ذهبت، أينما كنت، مهما كنت في حرج، مهما كنت في ورطة، مهما كنت في ضيق، مهما كنت في قبضة عدوّك فالله معك..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

4 ـ الله يسمع:

الله يسمع، يسمعك في أشدِّ الحالات، يسمعك وأنت ساكت، فإذا خطر في بالك، أو إذا توجّهت إلى الله في قلبك، وقلت: يا رب، أنقذني ليس لي سواك، أنا عبدٌ ضعيف، فإذا قلت: يا رب أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أعوذ بك من أن تحلّ بي غضبك، أو تنزل بي سَخَطَك، أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع غضبك، لك العتبى حتّى ترضى.

هذا شيء جميل جداً..

اللهمّ أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوءُ لك بذنبي، أبوءُ لك بنعمتك علي، أبوءُ لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

أليست لك مناجاة مع الله ؟ أليست لك ساعة صفاء ؟ ساعة إقبال وساعة دعاء ؟

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ)

كأن الله جلّ جلاله ـ إن كنت مصيباً في هذا الكلام ـ كأن الله يسوق بعض المُشكلات ليسمع صوت عبده اللّهْفَان، إنه يحبُّك، وأنت مطلوبٌ عنده، ولا تأتيه طوعاً، وإذاً فلتأتيه بهذه الطريقة.

قلت لكم قبل قليل: المتفوّقون المؤمنون الصادقون، وهم في جو الراحة النفسيّة، والأمن، والدعة، فهذا يزيدهم شوقاً إلى الله عزّ وجل، واجتهاداً في طريق الله عزّ وجل ؛ لكن الضِعاف إذا اطمأنوا، أو اغتنوا، أو أمورهم كانت ميسّرة تماماً هذا من شأنه أن يقعدهم، أن يبطئ بهم السير إلى الله عزّ وجل، لذلك فالله هو الحكيم يسوق لنا من الشدائد ما يدفعنا إلى بابه، ما يجعلنا نلوذُ به، نقبل عليه، نتوسّل إليه، نعتمد عليه، نستغفره.

الشيء الثاني: أحياناً إنسان يسمعك، لأنه معك، وواقف بجانبك، تقول: أرجوك يا فلان ؟ يقول لك: والله ما بيدي شيء، الأمر ليس بيدي، أتمنى والله، إذا ألمّ وجعٌ بأحشاء الإنسان الداخليّة، فمهما كان إنسان آخر يحبه وقريب منه يقول: العين بصيرة، واليد قصيرة، الأمر بيد الله عزّ وجل، انتقلنا من صفة السمع، وهو في أرقى حالاته، أرقى حالات السمع أن يسمعك وأنت ساكت، يكفي أن تتوجّه إليه بقلبك، يا رب ليس لي إلا أنت، يسمعك.

5 ـ الله يسوقنا إليه بالمصائب والابتلاء:

ولكن الله عزّ وجل ليس فقط يسمعك، يسمعك وهو قادرٌ على كل شيء، قادر أن يوقف نمو الورم الخبيث بلا دواء، والله الذي لا إله إلا هو أشخاصٌ كثيرون أعرفهم، أُخِذَت خزعاتٌ من رئاتهم، أُخِذَت إلى بلدٍ غربي لتحليلها، فإذا مرضٌ خبيث من الدرجة الخامسة، ولا سبيل إلى بقائه حياً أبداً، لأن زرع الرئة ليس ممكناً حتى الآن، هذا الإنسان التجأ إلى الله، واعتمد عليه، وتوسّل إليه، والله الآن هو حيٌّ يُرْزَق لا يشكو شيئاً، وقد مضى على هذه الحادثة أكثر من عشر سنين.

الشيء اللطيف أن الله ليس فقط سمعك، بل إنه على كل شيء قدير، يفتح المجاري، يحرّك الأعصاب، يحرّك العضلات، يذوّب الجَلطة، يجعل الدَسّام محكماً، هذا الذي حار به الأطباء، هذا الذي يقول عنه الأطبّاء: الشفاء الذاتي، أي شفاءٍ ذاتي ؟ إنه شفاء رب العالمين.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي(80))

(سورة الشعراء)

ألا تحبُّ أن يكون الله معك ؟ كن مع الله، ألا تحبُّ أن يكون الله جليسك ؟ ـ " أتحب أن أكون جليسك يا موسى ؟ " قال: " كيف ذلك يا رب ؟ " قال: **" أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني "** ـ فربنا عزّ وجل ليس سميعاً فقط، بل إنه سميع وقادر، وأعتى أعدائك في قبضته، أقوى جهة في الأرض في قبضته، أعداءك، أصدقاؤك، أقرباؤك، أهل بيتك، أولادك، من فوقك، من

تحتك، من يلوذ بك، من لا يلوذ بك، المخلوقات، الحيوانات، الفيروسات، الإنسان حسب قواعد العدوى يجب ألا يكون أحدٌ صحيحاً، فمن الذي يحميك من هذه الفيروسات ؟ وهذه الأمراض الخبيثة ؟ وهذه الأمراض المُعدية ؟ وهذه الأمراض السارية ؟ من يحميك ؟ الله عزّ وجل سميع، وهو على كل شيءٍ قدير، لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض.

قلت لكم في الدرس الماضي على ما أعتقد: طائرةٌ على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم، فوق جبال الألب، احترقت، وانفجرت، وانشطرت شطرين، أحد الركاب سقط منها في مكان الانشطار، وظلّ يهوي ثلاثاً وأربعين ألف قدمٍ، إلى أن سقط على غابةٍ مكسوّةٍ بالثلج بسماكة خمسة أمتار، هذه الأمتار الخمسة مع مرونة الأغصان ـ أغصان السرو والصنوبر ـ امتصّت كل هذه الصدمة والاندفاع، فنزل واقفاً.

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَـم فـالمخاوف كلهنّ أمان

***

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

6 ـ الله يحبّ ويرحم:

أحياناً شخص استمع إليك، أجل استمع إليك، وهو قادرٌ على أن ينقذك من ورطتك، لكنّه لا يحبُّك، لا يرحمك، ربنا عزّ وجل يستمع إليك، وهو قادرٌ على أي شيءٍ تطلبه منه، والله عزّ وجل لحكمةٍ يريدها يخلق من الضعف قوّةً، من الفقر غنىً، تجده فقيراً، عجيب أمره، فما هي إلا سنة أو سنتان حتّى أصبح غنياً، ضعيف أصبح قوياً، عليل أصبح صحيحاً.

ربنا عزّ وجل رحمنٌ رحيم..

لو يعلم المُعْرِضُ مدى حبي له وشوقي إليه وانتظاري ترك معاصيه، لتقطّعت أوصاله من حبي، هذا شوقي لغير المؤمن فكيف شوقي للمؤمن ؟!

أنت مطلوب، أنا اخترت ثلاث صفات، أنه سميع، وأنه قدير، وأنه محب، هذا معنى:

(فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

لماذا هو نِعْمَ المُجيبين ؟ لأنه سميع وقدير ومحب، احذف واحدة فلن يكون نعم المجيبين، احذف السمع، لك شخصٌ يحبُّك حباً جماً، ويحرص على كل مصالحك، لكنه بعيد عنك، أحياناً يكون الابن بأمريكا والأب في الشام، والابن بار يقدّم روحه لوالده، ولكنه ليس هنا، والده أصابه مرض، والابن ليس هنا،

فلن يفيد شيئاً بعده، ولكن لو كان معك وغير قدير، فلا يفعل شيئاً، معك وقدير، ولا يحبّك، لو أن صفةً تخلّفت ما صار ؛ فلنعم المجيبون، أما ربنا عزّ وجل أثنى على نفسه فقال: نعم المجيبون نحن.

فكم هو أحمقُ هذا الذي يتوجّه لغير الله ؟ كم هو أحمقُ هذا الذي يعلّق آمالاً على غير الله عزّ وجل ؟ كم هو أحمقُ هذا الذي يبذل ماء وجهه لغير الله عزّ وجل ؟ كم هو أحمقُ هذا الذي يتضعضع لغنيّ يريد ماله ؟ كم هو أحمق ؟ اسأل الله من فضله..

ملك الملوك إذا وهب لا تسـألنّ عن السبب

الله يعطي مـن يشاء فقس على حـدِّ الأدب

***

7 ـ إذا كان الله أكرمَ مجيبٍ فاسأله الجنة:

اسأل الله من فضله، اطلب من الله كل شيء، إن سألت الله عزّ وجل فاسأله الجنّة وما قرّب إليها من قولٍ وعمل، استعذ به من النار، وما قرّب إليها من قولٍ وعمل، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله ما سأله النبي عليه الصلاة والسلام، واستعذ به مما استعاذ به النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللّهُمّ إنّي أسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلّهِ ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أعْلَمْ، وَأعُوذُ بِكَ مِنَ الشّرّ كُلّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أعْلَمْ))

[من سنن ابن ماجة عن السيدة عائشة]

كن طمّاعاً، هنا الطمع، فالطمع مع الله عزّ وجل، كن طموحاً لا ترضى بالقليل.

سألت امرأةٌ أميراً عطاءً فأعطاها عطاءً كثيراً، فقال له وزيره: " يا سيدي، كان من الممكن أن ترضى بالقليل، كان يرضيها القليل، ولقد أعطيتها كثيراً، وهي لا تعرفك بهذا الكرم "، فأجاب الأمير: " إن كانت ترضى بالقليل فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي "، وربنا عزّ وجل، وَلِلّهِ المَثَلُ الأَعْلَى يعاملنا على أننا إذا رضينا بالقليل لا يرضى إلا بالكثير، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة التوبة: من الآية 38)

إذا قال ملكٌ لرجلٍ: اطلب مني، فقال له: قلم رصاص يا سيدي، يقول له: قلم رصاص فقط ؟ اطلب سيارة، اطلب بيتاً، اطلب منصباً رفيعاً، ملك يطلب منك أن تسأله فأكثر المسألة، فكيف إذا دعاك الله عزّ وجل لتسأله، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

اطلب الجنّة، اطلب سعادة الأبد، الآن نجد أشخاصاً يكتفي أحدهم أن يشتري بيتاً يؤويه، هذا كل مناه، فقط ؟ هذا البيت لا تدوم فيه، وهو يكتفي أن يتزوّج هذه المرأة، انتهت كل طلباته من الله عزّ وجل، ما أضعف هذا الإنسان، ما أضعف بصيرته، ما أقلّ طموحه، إن كنت لا تعرف الله فاعرفه بأنه أكرم الكُرَمَاء.

إذاً أول نقطة: نعم المجيبون ؛ لأنه يسمعك أينما كنت، يسمعك بلا كلام، يسمعك وأنت ساكت، والدليل سيدنا زكريّا:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3))

(سورة مريم)

والنبي الكريم سمع أناساً يدعون الله بصوتٍ مرتفع فقال:

((إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ))

[متفق عليه عن أبي موسى الأشعري]

النقطة الثانية: لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض، هناك أشخاص لضعف إيمانهم يقولون لك: ليس هناك أمل في أن أتزوّج، فلماذا ليس هناك أمل لتتزوّج ؟ يقول لك: ما معي ثمن بيت، فما هذا الكلام ؟ أنت أكرم من الله عزّ وجل ؟ عندما يريد الله فإنه يخلق لك شيئاً على غير قوانين الحياة، الله عزّ وجل جعل للحياة قواعد، ويخرقها دائماً إكراماً للمؤمن..

((أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب))

[ورد في الأثر]

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

8 ـ عطاء الله خير ومنعه خير:

ومعنى مخرجاً أي: أن الأمر كان مغلقاً، نزلت فلمّا استحكمت حلقاتها، أحياناً يكون هذا الطريق مغلقاً، فباب الوظيفة مغلق، لا تعيين لموظفين جدد، عمل حر غير متوافر، لا في شركة ولا في غيرها، وباب السفر موصد، ومثل ذلك الزواج، ولا أمل في شراء بيت، هذه استحكمت حلقاتها، يبدو أنك تطرق أبواب الأرض فتجد أنها كلها مغلقة، أما إذا طرقت باب السماء فُتِحَت لك كل الأبواب.

نزلت فلمّا استحكمت حلقاتها فُرِجَت وكنت أظنُّها أنها لا تفرجُ

***

هذا معنى قول الشاعر:

كن عن همومِك معرضاً وكـل الأمور إلى القضا

وأبـشر بخيرٍ عـاجـلٍ تـنس بـه ما قد مضى

فـلربّ أمـرٍ مسـخطٍ لـك فـي عواقبه رضى

ولـربّما ضاق المضيق ولـربّما اتـسع الفضـا

الـلـه يفعل ما يشـاء فلا تـكوننّ معترضـا

الـلـه عـوّدك الجـميل فقس عـلى ما قد مضى

***

أنت مؤمن لك اتصالٌ بالله، مؤمن لك ثقة بالله، مؤمن لك يقينٌ بحكمة الله عزّ وجل، مؤمن لك يقين أنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء ؛ لكن بيده الخير، كلُّه خير، عطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، وإذا كشف لك حكمته في المنع عاد المنع عين العطاء.

9 ـ المؤمن راضٍ عن عطاء الله ومنعه:

حقاً أقول: إذا كشف لك حكمته في المنع عاد المنعُ عين العطاء، والمؤمن يتلو قوله تعالى فيقشعرُ جلده:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

المؤمن مستسلم. إذاً:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

إذاً: إذا سألت فاسأل الله، إذا استعنت فاستعن بالله..

((اعْلَمْ أَنّ الأَمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ))

[من سنن الترمذي عن ابن عبّاس]

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من الآية 2)

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

هذا هو الإيمان، الإيمان طمأنينة، الإيمان تسليم، الإيمان رضى بقضاء الله وقدره، المؤمن دائماً يقول: يا رب أنا راضٍ بقضائك.

حدّثني أخ طبيب في مستشفى، قال لي: والله جاءنا مريض معه ورمٌ خبيثٌ في أمعائه، وقال لي: إن هذا المرض من أشدِّ الأمراض إيلاماً، بل إنّ معظم المصابين بهذا المرض مهما كانوا متجلِّدين يصيحون صياحاً عجيباً من شدّة الآلام، قال: جاءنا مريضٌ مؤمن معه ورمٌ خبيثٌ في أمعائه، وقال لي: والله ما دخل عليه إنسانٌ إلا وقال له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب، لك الحمد، بقي أيّاماً عدّة في المستشفى وبعدها توفي، هكذا ليكن الإيمان بقضاء الله، فلعله فاز برضى الله إذ كان راضياً بقضائه.

ركنتم إلى الدنيا، إلى المال، إلى الطعام، إلى النوم، تركتم الصلاة، تركتم التفكّر، التذكّر، تلاوة القرآن، العمل الصالح، الله عزّ وجل يقول:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

آية ثانية:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77))

(سورة النساء)

آية ثالثة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

قد يبتلى الإنسان بكرب عظيم، كرب لا يُحتمل، أمراض وبيلة، ذُل، إهانة، تقييد حريّة، مسجون لمدة ثلاثين سنة ـ شيء صعب ـ في غرفةٍ صغيرة، وأحياناً يكون الكرب العظيم فقدَ الحريّة، يكون الكرب العظيم مرضاً كبيراً، مرضاً خطيراً، أحياناً يكون الكرب العظيم ذُلاً، أو فقراً مدقعًا تشتهي أن تأكل التراب، أحياناً عضو من أعضاء الإنسان يتعطّل، واحد أصيب مستقيمه بشلل، إذاً: القذر لا يخرُج، عرض على إنسان عشرة آلاف ليرة كل شهر لينزل بإصبعه هذا القذَر فرفض، فنعمة كبرى أن الإنسان يَخْرُج غائطه من دون مساعد، هذه نعمة لا يعرفها إلا مَن فقدها.

لو أن القناة الدمعيّة سُدّت لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، دائماً الدمع نازل، والدمع قلوي، والجلد حسّاس، دائماً في وجنتيه خط ملتهب، والقناة الدمعيّة دقيقةٌ جداً، هل فقد البصر قليل ؟ أو فقد السمع قليل؟ أو الشلل قليل ؟ الإنسان ثقيل، كل مكانتك، وكل كرامتك، وكل محبة الناس لأنك تتحرّك بنفسك، لو فُقدَت هذه الحركة، والله لتمنّى أقرب الناس إليك أن تموت، الله يخفِّف عنه، لا نستطيع أن نتحمّله، أقرب الناس إليك، ابنك الذي من صلبك يتمنى لك الموت، طبعاً فأنت محبوب لأن الله أعطاك قوّة، ظلّك

خفيف لأنك خفيف، أما إذا أُصيب الإنسان بالشلل، وأصبح طريح الفراش، عندئذٍ يتمنَّى أهله ـ وأقسم بالله ـ يفرحون بوفاته، ولو لبسوا السواد، ولو أطالوا لحاهم، هذه مظاهر، لكنه إذا فقد الإنسان سمعه، أو بصره، أو قوّته، أو عقله، إذا فقد عقله يخاف الناس منه، يحتاج إلى واسطة ليدخل مشفى المجانين، هذا كرب عظيم..

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

أيها الإخوة الأكارم، لا تسلك سبيلاً يكون الكرب العظيم عندئذٍ أمراً محتوماً، ولابدّ منه فاحذر، لا تمش مع الله بطريق مسدود.

1 ـ الكرب العظيم:

الكرب العظيم يراه الناس رأي العين ؛ فيضانات، أعاصير، الإعصار الذي ضرب أمريكا ترك خسائر تبلغ ثلاثين مليار دولار، أي بقدر نفقات حرب الخليج بالضبط، فيضانات، ألف وخمسمائة إصابة في الباكستان، فيضانات، صقيع أحياناً، وأحياناً حرائق، وأحياناً نزوح، حروب أهليّة، أمراض، الإيدز هذا كرب عظيم، يقدِّرون بعد عدة سنوات أن يموت بالإيدز عشرون مليون إنسان، انتشار الأمراض كرب عظيم، والوباء كرب عظيم، فيضان كذلك، ومثلها أعاصير، وكما قال الله عزّ وجل:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

هناك مدينة في إيطاليا اسمها ـ فيزوف ـ تقع بسفح جبل فيزوف في إيطاليا، ثار بركانٌ الساعة الثانية ظهراً، هذا البركان قذف حُمَماً من اللهب مع رماد بركاني، رفع الحرارة إلى ثمانمائة درجة، ومعه غاز خانق، فهذا الرماد تراكم فوق هذه المدينة ودمّرها عن آخرها، بعد مئات الأعوام في أثناء التنقيب وجدوا أجساد الموتى جلوساً، وهم يأكلون الطعام، هذا الرماد أصبح كالصخر، والأشياء التي كانت وقتها فراغات، حقنوها بالجبصين السائل، فإذا مشاهد لا تصدّق، امرأةٌ تنحني على طفلها، أناسٌ يجمعون الحلي من الخزائن، مدينة جاءها الكرب العظيم بعد الظُهر، كل إنسان مات في حالة خوف قاتل، حتّى بعض الكلاب في حالة ذُعر، حتى المساجين في السجون، نقّبوا في هذه المدينة كل شيء،

كل شيء فيه فراغ حقنوه جبصيناً سائلاً، فلمّا تجّد هذا الجبصين ظهر الشكل ؛ طعامهم، شرابهم، حمّاماتهم، قصورهم، بيوتهم، هذا كرب عظيم.

كذلك هناك زلازل تضرب المدينة بأكملها، أو قنابل نوويّة كما جاء لمدينة هيروشيما، ثلاثمئة ألف قتيل في ثماني ثوان أصبحوا قتلى.

2 ـ لا ينجو الإنسان من الكرب العظيم إلا إذا كان مع الله:

إذاً: هناك كرب عظيم، فالإنسان لا ينجو من الكرب العظيم إلا إذا كان مع الله..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء: من الآية 88)

اسمعوا الآية:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

قال تعالى:

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

من هم أهله ؟ الذين آمنوا به، كلمة أهل في هذه الآية تعني المؤمنين..

(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ)

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ

لأن كل من ركب في السفينة التي صنعها سيدنا نوح نجا، ومن لم يركبها هلك، قال:

(يَا بُنَيِّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(42)قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

قيل: جاءت امرأةٌ لسيدنا نوح ـ هكذا تروي القصص ـ وقالت له: يا نوح، متى الطوفان ؟ قال: " لم يأتِ بعد "، قالت: إذا جاء الطوفان فلا تنسني ـ هذه القصّة قد تكون رمزيّة ـ سيدنا نوح وهو في السفينة، والطوفان في أوجّه تذكّر المرأة، فلمّا انتهى الطوفان جاءته، وقالت له: يا نوح، متى الطوفان ؟، أي أنها نجت من الطوفان رغم أنه أغرق كل شيء، وأن الله عزّ وجل لا ينسى أهل الإيمان، وينجي كل مؤمن، قال تعالى:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ

السمعة الحسنة والذكر الجميل بعد الموت:

معنى هذه الآية أي تركنا له اسماً طيّباً، وسمعةً حسنةً، وذكراً عطراً في الشعوب التي جاءت بعده، هذا شيء مهم جداً، فالإنسان يموت فإما أن يقال في كل مجلس: لعنة الله عليه، أو أن يُذْكَر بالحسنى، فجزء من إكرام الله للإنسان أن المؤمن يثني عليه الناس، له سمعة طيّبة، له ذكرٌ حَسَن، تتعطّر المجالس بذكره، أما أهل الكفر والنفاق أينما حلوا يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، هنا:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(78)سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)

في الدنيا والآخرة..

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

1 ـ كن مع الله تلق التوفيق والنصر:

يا إخوان، العاقبة للمتقين، أنت ماشٍ مع رب العالمين، ماشٍ مع خالق الكون، إذا كنت معه فالعاقبة لك، ينصرك، ويؤيّدك، ويوفّقك، ويسدّد خطاك، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(123))

(سورة التوبة)

قالوا: هذه معيّةٌ خاصّة، فهو معهم بالنصر، والتأييد، والتوفيق.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من الآية 4)

فهذه معيّة عامّة، فالله حتى مع الكافر في المعية العامة، لكن المعية الخاصة لأهل فقط.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(153))

(سورة البقرة)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(123))

(سورة التوبة)

هذه معيّة النصر والتأييد، معيّة التوفيق، معيّة الرضى، معيّة العناية.

2 ـ القصة قانون عامّ:

أروع ما في هذه الآية أن الله عزّ وجل بعد أن قال:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(76)وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ(77)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(78)سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)

فهذه قصّة وقعت مرّةً واحدة، ولكن الله أراد أن يجعلها قانوناً دائماً، من أجل أن تكون لك مصدر عبرة أيها المؤمن، الله عزّ وجل قال:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

لأنه كان مُحسناً هكذا عاملناه، كن أنت محسناً، وتعامل كهذه المعاملة، طبعاً على نطاق آخر، فإذا جاء كرب عظيم، إذا جاء بلاء، إذا كنت في ضيقٍ مادي، إذا نزل شبح مصيبة، شبح مرض خطير، خلاف زوجي، ضيق ذات اليد، حلت مشكلات، لك عدوٌّ قوي، وأنت مستضعف، يتملّكك، هذا كرب عظيم، اقرأ هذه القصّة، هذه ليست للفهم فقط، ولكن للتطبيق، والدليل:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

أروع ما في القصّة أن الله بهذا التعقيب جعلها قانوناً، معنى هذا أنت أيها المؤمن، أنتَ أنت، أجل أنت المعني بهذه القصّة، أنت المُطالب بها، إذا جاءك كربٌ عظيم توجّه إلى الله عزّ وجل، واعتمد عليه، وتوكّل عليه، ولذْ بحماه، وقل: يا ربِّ ليس لي إلا أنت، من أجل أن ترى كيف أن الله جل جلاله يزيح عنك هذا الكرب العظيم.

هذه قصّةٌ من أجل أن نعيشها، من أجل أن نمارسها، من أجل أن تكون لنا نبراساً في حياتنا، كلّما ألمّ بك شيء لُذ بالله عزّ وجل، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة، ليس لنا إلا الله عزّ وجل، نحن عبيد، نحن ضِعاف، نحن مستضعفون، لكن الله هو القوي، لذلك: يا رب، كيف نضلُّ في هداك ؟ وكيف نذل في عزّك ؟ وكيف نفتقر في غناك ؟ وكيف نضامُ في سلطانك ؟ يا رب حاش أن نضلّ في هداك، وحاش أن نفتقر في غناك، وحاش أن نذلّ في عزّك، وحاش أن نضام في سلطانك.

هذا هو الإيمان يا إخوان، الإيمان أن تكون مع الله، أن تكون معه في طاعتك، وفي التجائك، وفي توكّلك، وفي ثقتك به، هذا هو الإيمان، هذه القصّة يجب أن تكون شعاراً لكل مؤمن:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

يا عبادي لن تجدوا مثلي مجيباً لكم، اسألوا، جرّبوا، فغير الله إن سمع لا يقدر، وإن قدر لا يسمع، وإن سمع وقدر لا يحبّك، ولا يريد أن يخدمك، إن سمعك فقد لا يملك القوّة، يقول لك: والله ليس بيدي شيء يا أخي، والله أتمنّى، والله قلبي معك، والله تقطّع قلبي من أجلك، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، إن سمعك لا يقدر، وإذا كان يقدر يقول لك: لماذا لم تقل لي ؟ خبّرناك فلم نجدك، هذه مشكلة ثانية، وإن سمع، وكان يقدر، لكنّه عدوّك، ولا يحبّك، أما ربنا عزّ وجل فيسمعك، وقدير على كل شيء، ويحبّك، هذا معنى:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(75)وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

ومن الكرب العظيم الموت، وهناك فرق بين إنسان يموت والله راضٍ عنه، والموت عُرْسُهُ، و..

((للصّائِمِ فَرْحَتَان: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبّهُ))

[من صحيح البخاري عن أبي هريرة]

وبين إنسان يكون أكبر كرب عظيم عنده الموت، إذ موته نهاية كل المتع، بداية كل التبعات..

" يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرُم، فأنفقته في حلِّه وفي غير حلِّه، فالهناء لكم، والتبعة علي ".

طبعاً..

(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ(77)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

فهل هناك أجمل من أن يكون لك ذكر حسن بعد الموت ؟ كلما ذُكِرْتَ يقولون: الله يرحمه، الله يعلي مقامه، ترك أثراً طيباً، ترك علماً نافعاً، ترك طلاّباً جيّدين، هذا ذكر حسن، هذا أعظم عطاء، فهل هناك إنسان أعزّه الله كالنبي الكريم ؟ لا أعتقد أن هناك إنساناً في العالم كله منزلة النبي، اذهب إلى المسجد النبوي الشريف، وأنت تجد شيئاً لا يصدّق، مئات الألوف كلّهم يبكون، وما التقوا معه، ما هذا الذكر ؟ ألم يقل الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

وأنت مؤمن الله يرفع شأنك، ويجعل لك ذكراً طيّباً..

(سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(79)إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

هكذا المحسن، كن محسناً، من الإحسان أن تستقيم على أمر الله، من الإحسان أن تلتزم السنّة، من الإحسان أن تنفق من علمك، من مالك، من جاهك، من كل شيء، من الإحسان أن تأتي حركتك في كل شيء وفق المنهج، وفق السُنّة، هذا الإحسان، قال عليه الصلاة والسلام:

((فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَة ...))

وهو يقوم بذبحه، فهل هناك إحسان ؟ قال:

((فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَة، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[من صحيح مسلم عن شداد بن أوس]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((أتريد أن تميتها موتتين ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها ؟))

[رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم]

هناك إحسان بالذبح إذاً، وإحسانٌ حتى بقتل العقرب، لا تعذّبها، ضربة واحدة، إحسان في التربية، إحسان في البيع والشراء، إحسان في الكلام، والله عزّ وجل أمرنا بالإحسان، إذا كنت محسناً فلا تخف، لأن الله عزّ وجل معك، وسينجيك من الكرب العظيم.

هذه قصّة على إيجازها قصّة موجزة جداً.. اسمها حدث واحد..

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (08-14): تفسير الآيات 83 - 98
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-10-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الصافات، ومع الآية الثالثة والثمانين.
بعد أن ذكَّرَت هذه الآيات التي مضت في درسٍ سابق قصة سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكيف أنه نادى ربه، وكيف أن الإنسان من شأنه أن ينادي، وعليه أن ينادي خالقه وربه، وكيف أن الله جلّ جلاله نجّاه وأهله من الكرب العظيم، والكرب العظيم كما وصفه رب العالمين، هو كربٌ عظيم حقاً.
وبعد قصة سيدنا نوح ننتقل إلى قصة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، يقول الله جلّ جلاله:

وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

1 - معنى: شِيعَتِهِ:

أي أن من شيعة نوحٍ إبراهيم، أي سار على منهجه، وسار على خطّته، وفعل فعله، وآمن إيمانه، ودعا دعوته، فلانٌ من شيعة فلان، أي على منهجه، وعلى شاكلته، وعلى مبدئه، وعلى استقامته، وعلى إخلاصه.

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ)

2 - مَن تتبع ؟

وبالمناسبة أنت من شيعة من ؟ على منوال مَنْ ؟ وعلى شاكلة من ؟ وعلى منهج من ؟ وعلى خطة من؟ من تتبع ؟ من تحب ؟ من تقتدي ؟ أثر من تقتفي ؟ هذا سؤال كبير، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

اسأل نفسك: أنا مع من ؟ مع أهل الدنيا، أو مع أهل الإيمان، مع أهل الفسق والفجور، أم مع أهل الاستقامة والتوحيد، مع المحسنين، مع المسيئين، مع المخلصين، مع المنافقين، مع الماديين، ومع الروحانيين، مع أهل القيَم، مع أهل الحاجات، أنت مع مَنْ ؟ هذا سؤال خطير، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

3 ـ الحق واحدٌ لا يتعدد:

أهل الحق متّفقون، الحق واحدٌ لا يتعدد، كما أن من نقطتين لا يمر إلا مستقيمٌ واحد، كذلك: أي حقٍ ينطبق على أي حق، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

الحق واحد..

(وَلَا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

الباطل يتعدد، الانحراف يتعدد، الفسق والفجور يتلوّن ألواناً متفاوتة، ولكن الحق واحد، والله إن المؤمن لو التقى مع مؤمن من أقصى الدنيا لشعر كأنه أخوه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[مسلم]

أبعد الناس عنك مكاناً إذا كان مؤمناً هو أقربهم إليك نفساً، ترتاح معه، تطمئن إليه، فنحن يجب أن نكون مع أهل الحق، مع المؤمنين، يجب أن نتبع سبيل المؤمنين، فإذا اتبعنا سبيل غير المؤمنين فلسنا مؤمنين.

(وَالّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: من الآية 72)

فربنا جل جلاله يقول:

(وَإِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)

هل تحس بهذا الانتماء، أتحس أنك مع المؤمنين، وأنك من جماعة المؤمنين، مع الموحِّدين، مع الصادقين، مع أهل الخير، مع أهل القرآن، مع من أنت ؟ رب لا تذرني فرداً وألحقني بالصالحين، لذلك النبي الكريم يقول:

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[من مسند أحمد عن النعمان بن البشير]

الجماعة رحمة، إذا شعرت إنك مع المؤمنين فهذه رحمة الله عزّ وجل، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ))

[من سنن الترمذي عن ابن عباس]

((فَإِنّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ))

[من سنن النسائي عن عَرْفَجَةَ بْنِ شُرَيْحٍ الأَشْجَعِيِّ]

فالأنبياء لا نفرق بين أحد من رسله، دعوة الحق واحدة، سيدنا جعفر حينما خاطب النجاشي، وحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **" إن هذا الذي تقوله، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة ".**

سيدنا عيسى يقول: **" أنا الطريق والحق والحياة، فكل غصنٍ لا يثبت في يقطع ويلقى في النار ".**

لو قرأت الإنجيل الذي نزل على السيد المسيح لرأيته مطابقاً للقرآن، الحق لا يتعدد، ولا يتغير، ولا يتبدل، فأحيانا تلتقي بأخ، تعجب من توافق أفكارك مع أفكاره، تعجب من تشابه التصرُفات، لا تعجب ولِمَ ؟ لأن الأصل واحد، والمَنبع واحد، والمَنهل واحد، والروح واحدة، والحق واحد، فإذا كنا مع الحق، كنا أقوياء، قال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران: من الآية 103)

إذاً: معنى: من شيعته أي على شاكلته، وعلى منهجه، وعلى طريقه، وعلى خطته.

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(83)إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

1 - جَاءَ رَبَّهُ

هنا: (جَاءَ رَبَّهُ) تستحق منا وقفة متأنية، فأنت في النهار تتحرك، تبيع وتشتري، تصل فلاناً، تقطع فلاناً، تتكلم، لك حركة في النهار، إذا جئت لتصلي كأنك جئت إلى ربك، ما الذي بين يديك ؛ هل بين يديك عملٌ صالح أم عملٌ سيئ ؟ صدقٌ أم كذب ؟ إحسانٌ أم إساءة؟ حبٌ للخير أم بغضٌ للخير ؟

الإنسان حينما يقف ليصلي يتصور عمله أمامه ؛ ألك دعوةٌ إلى الله ؟ ألك عملٌ صالح ؟ ألك تضحية ؟

ألك فداءٌ ؟ ألك خدمةٌ للآخرين ؟ أرعيت يتيماً ؟ أرعيت أرملةً ؟ هل أعنت مسكيناً ؟ وهل أنفقت على فقير؟ وخدمت جاراً ؟

" يا بشر، لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلق الله إذاً ".

كل واحدٍ منا إذا قام ليصلي يرى عمله أمامه ؛ فإن كان صالحاً أقبل على الله، وإن كان سيئاً حُجِبَ عن الله، وأكبر عقابٍ يعاقب به الإنسان أن يحجب عن ربه..

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

أكبر عقابٍ يعاقب به الإنسان أن يحجب عن ربه، فلذلك كلمة: (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ) عليك أن تتدبّرها، وأنت في الدنيا كلما قمت لتصلي ترى عملك أمامك ؛ هل أنت أبٌ صالح ؟ هل أنت زوجٌ مثالي ؟ هل أنت أخٌ صادق ؟ هل أنت جارٌ كريم ؟ هل أنت ابن بار ؟ هل أنتِ أيتها الأخت زوجةٌ صالحة ؟ عملكِ أمامك، وعملكَ أمامك، (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ)، بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره، بإمكانك أن تخدع الناس كلهم لبعض الوقت، وبإمكانك أن تخدع واحداً لوقتٍ طويل، أما أن تخدع الناس جميعاً لوقتٍ طويل فهذا مستحيل، لابدّ من أن تتكشف، لابدّ من أن تظهر على حقيقتك، (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ).

بماذا تجيء ربّك ؟

أنت إذا ذهبت لأداء فريضة الحج، جئت ربك، فبماذا جئته ؟ باستقامةٍ ؟ بإخلاصٍ ؟ بوفاءٍ؟ بصدقٍ ؟ بخدمة للخلق ؟ بماذا جئته ؟ في أثناء الطواف تلتقي مع الله عزّ وجل، في أثناء السعي، تلتقي مع الله عز وجل فبماذا جئته ؟ كلما قمت لتصلي كأنك تأتي ربك.

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ)

فإذا وقفت للصلاة، وكانت عقيدتك صحيحة، وكان عملك طيباً، وكانت نواياك طيبة ؛ ليس في قلبك غلٌ، ولا حقدٌ، ولا حسدٌ، ولا ضغينةٌ، ولا إيذاءٌ، ولا تفريقٌ بين متحابّين.

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ)

2 - بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

هل تعلمون أيها الإخوة ؛ ما أثمن شيءٍ تملكه في الدنيا ؟ كل شيءٍ تملكه في الدنيا سوف تتركه إلا شيئاً واحداً، هو قلبك، اسمعوا الآية الكريمة:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88))

(سورة الشعراء)

لو تركت كذا مليون، أربعة آلاف مليون ـ هناك شاب ببلد عربي عمره حوالي أربعٍ وثلاثين سنة، يملك أربعة آلاف مليون دولار ـ سوف يتركها كلها، مهما كانت أموالك طائلة فلابدّ من تركها، مهما كان البيت فخماً فلابدّ من تركه، مهما تكن الزوجة رائعة فلابد من مفارقتها، مهما يكن شأنك عظيماً فلابد من النزول عن هذا الشأن عند الموت، تأتي الله عزّ وجل، فبماذا تأتيه ؟ قال:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

3 ـ ما هو القلب السليم ؟

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

أجمل ما في تفسير هذه الكلمة عند بعض المفسرين: أن القلب السليم أي جاء ربه بعقيدةٍ صحيحة، لا فيه شبهات، ولا بدع، ولا خرافات، ولا أوهام، اعتنق الحق، صدّق بالحق، وجاء ربه بقلبٍ سليم، أي كان مستقيماً على أمر الله عزّ وجل، وجاء ربه بقلبٍ سليم كان عمله طيّباً، فشعر قلبه بالراحة لعمله.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً(28))

(سورة الفجر)

(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

لا غش فيه، ولا حسد، ولا حقد، ولا شيء من هذا القبيل، إذاً: أثمن شيءٍ تملكه هو القلب الثمين، لأنه زادك لرب العالمين، ولا تنسوا هذه الآية:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

فهذا النبي الكريم أبو الأنبياء، وصفه الله عز وجل بأن له قلباً سليماً.

إذاً:

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(83)إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

لابد من الاعتناء بالقلب:

يا رب تعرّفتُ إليك في الدنيا، استقمت على أمرك، خدمت عبادك، دعوت إليك، أصلحت من سريرتي، نقّيت قلبي من كل مرضٍ، من كل كبرٍ، من كل درنٍ، لذلك سيدنا عمر يقول: << تعاهد قلبك >>، انتبه لقلبك كما تنتبه لعينك، ما منا واحدٌ لا سمح الله ولا قدر، إذا كان هناك خلل في رؤيته إلا يبادر إلى طبيب العيون، وينتظر في عيادته الساعات تلو الساعات، بل ينتظر الأيام والأسابيع ليسأله ما القصة،

لماذا أرى شيئاً أسود يتحرّك أمامي، ما تفسير هذا ؟ وإذا سئل: لماذا هذا الاهتمام ؟ يقول لك: العين يا أخي غالية، ليس من سبيل للتهاون حيالها.

العين تنتهي في الدنيا، لكن القلب هو زادك إلى الله عز وجل، في قلبك شك ؟ في بقلبك رَيْب ؟ هل هناك شبهات ؟ هل هناك أسئلة ؟ لكن سلامة القلب من كل عقيدةٍ زائغة، من كل شبهة، من كل بدعةٍ، من كل انحرافٍ، من كل تقصيرٍ، من كل إساءةٍ، من كل مرضٍ نفسيٍ ؛ من حقدٍ، من حسدٍ، من ضغينةٍ، من كبرٍ، من عُجبٍ، فهذه كلمة جامعة مانعة، قلب سليم.

لك قلبان، لك قلب جسدٍ وقلب نفسٍ، هذا الجسد فيه القلب، إن صلُح صلح الجسد كله، أما الإنسان فمهما كان جسمه قوياً، إذا ضعف قلبه فهذه مشكلة، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[من صحيح البخاري عن النعمان بن البشير]

قاس عليها العلماء فقالوا: وللنفس قلب، قلبٌ ذاكر وقلبٌ غافل، وقلب محب وقلبٌ مبغض، قلبٌ سامٍ وقلبٌ دنيء، قلبٌ ممتلئٌ علماً وقلب ممتلئٌ جهلاً، والحديث القدسي معروف عندكم:

((ابن آدم طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة))

[ورد في الأثر]

والقلب كما قال العلماء: منظر الرب، منظر الخلق بيتك، مدخل بيتك، جدران بيتك، سقف البيت، يا ترى هل فيه ثريّات ؟ أمطلي طلاء جيداً ؟ هل الأثاث فخم، وهل الأثاث مريح ؟ منظر الخلق ثيابك، هندامك، أناقتك، نظافتك، منظر الخلق مركبتك، منظر الخلق مكتبك، دُكانك، مكان عملك، هذا كله منظر الخلق، لكن المعوّل عليه منظر الرب، طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة ؟

فكلمة القلب السليم هذه نهاية النهاية، هذه محطُ الآمال، هذه منتهى كل أمل، أن تمتلك قلباً سليماً، وصفٌ جامعٌ مانع، مختصرٌ مفيد، أي سليم، سلم من كل عيب ؛ هناك عيب فكري، عيب اعتقادي، عيب سلوكي، عيب نفسي، إلا ؛ إذ جاء ربه بقلبٍ سليم.

والمؤمن ليس سلبياً ؛ لا يهرب من مجتمعه، لا ينزوي، لا يبتعد، بل يتحرك، ويدعو إلى الله عزّ وجل..

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85) أَئِفْكًا آَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ

أتعبدون شيئاً اشتريتموه أنتم، أنتم اختلقتموه، أنتم منحتموه هذه القدسية، هو ليس شيئاً، من الذي ينبغي أن يُعْبَد ؟ من بيده كل شيء، من الذي ينبغي أن يعبد ؟ من يسمعك إذا دعوته، من يستجيب لك إذا سألته، من يراك إذا تحرّكت، من يعلم خواطرك إذا خطرتْ لك، من يراك في تقلبك..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218))

(سورة الشعراء)

اعبد الذي يراك حينما تقوم، وتقلبك في الساجدين:

كل إنسان له حياة خاصة ؛ لكن إذا جاءه ضيف ارتدى أجمل ثيابه، يتكلم معه الكلمات اللطيفة، يرحِّب به، ولكن الذي يراك حينما تقوم، مَنْ ؟ هو الله جل جلاله، الذي يراك حينما تقوم، وتقلبك في الساجدين، إذاً: المعبود هو الذي بيده كل شيء..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

ينبغي أن تعبد من يُرْجَعُ الأمر كله إليه، ينبغي أن تعبد من مصير الخلائق كله إليه، هذا الذي يعبد، أتعبد إنساناً مثلك ؟ فقيراً مثلك، ضعيفاً مثلك، الإنسان ضعيف.

تصور إنشاء بناء قضينا ثلاث سنوات حتى أخذنا رخصته، وإلى أن انصبت الأساسات سنة، إلى أن صعدنا إلى الطابق الأول، والطابق الثاني، والطابق الثالث، الأعمدة والدعائم، ثم التقاطيع، ثم السقوف، ست سنوات أو سبع سنوات حتى انتهى البناء.

دخلنا في كسوة البناء ؛ الطينة، والصحية، والخشب، والبلاط، والطِلاء، والبياض، والكهرباء، والأبواب، والستائر، ثم أردنا أن نفرش هذه البيوت بالأثاث ؛ الثريات والمصابيح، والطنافس، والمقاعد، وغرف الطعام، والمطبخ، والأدوات الكهربائية، استغرق إنجازه سنوات طويلة.

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا

وبناءٌ بأكمله كهذا بثوانٍ معدودات يصبح ركاماً، إسمنتاً مطحوناً، بأساساته، وبفرُشه، وبأشخاصه، وبالزوجات مع الأولاد مع الأثاث مع الأدوات، ذلكم الله رب العالمين، قال: لو أن زلزال القاهرة استمر

عشر ثوانٍ بالضبط لتهدمت نصف أبنيتها، ولمات أكثر من خمسة ملايين إنسان، لكن الله تلطّف.
تركب طائرة أحياناً فتحس بقلق، فتسأل نفسك: لماذا أنا ركبت الطائرة ؟ تركب باخرة فتحس بقلق، لكنك لا تطمئن إلا إذا وقفت على الأرض، والذين يركبون الطائرات لا تطمئن مشاعرهم إلا إذا شعروا أن عجلات الطائرة قد دَرَجَت على المطار، فنقول: الحمد لله على السلامة، مشينا على الأرض، هذه الأرض التي هي مصدر أمنٍ وطمأنينة، تصبح في ثوانٍ مصدر قلق، فيمكن المصاب الذي أصاب إخواننا في مصر أن يصيبنا، والذعر النفسي أشد من أي شيء آخر، الذعر النفسي قاتل، فربنا عزّ وجل بيده كل شيء.

ذات مرة سأل سيدنا عمر، عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال له: " صف لي مصر "، قال: **" يا أمير المؤمنين، مصر طولها شهر ـ أي طولها مسيرة شهر ـ وعرضها عشر ـ أي عشرة أيام ـ يخطها نهرٌ ميمون الغدوات، مبارك الروحات، إذا هي عنبرةٌ سوداء ـ تربتها داكنة، يأتي النيل فيفيض عليها ـ ثم هي درةٌ بيضاء، ثم هي زبرجدةٌ خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء ".**

الله عزّ وجل قال:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل: من الآية 61)

الأصل في الأرض أنها مستقرة، الأرض تسير حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متر بالثانية الواحدة، الواحد منا يحضر الدرس ساعة، الساعة ستون دقيقة، الدقيقة ستون ثانية، ستون ضرب ستين ثلاثة آلاف وستمائة، ضرب ثلاثين، اضرب ثلاثة بستة وثلاثين وضع ثلاثة أصفار، هذا ما قطعته الأرض في درس واحد، أي أن ستة وثلاثين بثلاثة تقريباً مائة وثمانية، مائة وثمانية وثلاثة أصفار، مائة ألف وثمانية آلاف كيلو متر، وأنتم في هذا المجلس، وأنتم في هذا الدرس، نقطع جميعاً ـ هذه حقيقة بديهية ـ نقطع جميعاً في الفضاء الخارجي مائة ألف وثمانية آلاف كيلو متر ونحن في أدق استقرار، ولا حركة في الجدران، فالجدران كلها قائمة، بناء من ثلاثمائة سنة ولا حركة، أو خلل، أو ركنا، أو أزعجنا رغم هذه السرعة في مسار الأرض.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

ومع ذلك إذا شاء الله عزّ وجل أن يهزها هزّها.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

يمكن أن تقرأ عشرات المقالات عن الزلزال، وعن أسباب الزلزال، وعن الحركات الباطنية في الأرض، وعن الالتواءات في الطبقة التحتية، وعن الضغط الشديد حينما تتقارب القارّات، وحينما يبلغ هذا الضغط أوجه يحدث الزلزال ؛ فإما انكسار، وإما زلزال هكذا، وتبدأ التعليلات من العلماء، وإما هكذا، وإما هكذا، وإما هكذا، هذا الزلزال، لكن الله عزّ وجل يقول:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5))

(سورة الزلزلة)

هذا هو تفسير القرآن:

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5))

ربك أوحى لها، أي أمَرها، إذا وجّه الوحي إلى الجماد فهو أمْر، وإذا وجّه الوحي إلى الحيوان فهو غريزة، والدليل:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل: من الآية 68)

وإذا وجه الأمر إلى الإنسان فهو الإلهام:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من الآية 7)

وإذا وجه الوحي إلى الأنبياء فهو وحي الرسالات، إذاً هناك وحي أمرٍ، ووحي غريزةٍ، ووحي إلهامٍ، ووحي رسالة، معنى قول الله عزّ وجل:

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5))

(سورة الزلزلة)

هذا هو التفسير:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

هذه آياتٌ كثيرة، استمع إلى قول الله عزّ وجل:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

ثورات البراكين لا يعلمها إلا الواحد الديّان، رماد بركاني حرارته ثمانمائة درجة، يتراكم أمتاراً فوق كل شيء، كل شيء يموت فوراً، هذه من فوقكم.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الزلازل..

(أوْ يَلْبسَكُمْ شِيَعًا)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الحروب الأهلية..

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

الآن هناك بلاد فيها حروب أهلية، يكادون يموتون جوعا، انظر إلى الآية الكريمة:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أوْ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِكُمْ أوْ يَلْبسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنّةً يَأتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللّهِ فَأذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

استمعت إلى خبر، سألوا عالماً كبيراً من علماء الزلازل في أمريكا: هل بإمكان العلم الحديث أن يتنبأ متى يقع الزلزال ؟ فأجاب: لا.

اسمعوا الآية الكريمة:

(قُلْ يَا عِبَادِي الّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا إنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ(53)وَأنِيبُوا إلَى رَبّكُمْ وَأسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمّ لا تُنْصَرُونَ(54)وَاتّبِعُوا أحْسَنَ مَا أنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَكُمْ العَذَابُ بَغْتَةً وَأنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ وَإنْ كُنْتُ لَمِنْ السّاخِرِينَ(56))

(سورة الزمر)

الله غفور رحيم، لكن إن لم تعد في الوقت المناسب فقد يأت العذاب بغتة، تصور بناء فيه مصرف بأول طابق وفيه مكتبة، وبيوت، البيت مدهن، وله جبصين، وأقواس، وقطع الأثاث موزعة فيه توزيعاً أنيقاً، وغرفة الطعام، وغرفة الضيوف، والمطبخ، والبرادات، والمكيفات، والثريات، خلال تسع وخمسين ثانية صار البناء كله طحيناً من الإسمنت، ويخرجون منه الأشخاص قتلى أو جرحى أو ما شاكل ذلك.

(مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَكُمْ العَذَابُ بَغْتَةً وَأنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(55))

هذا الذي حصل يسمّى تلويح العصا، أي انتبهوا يا عبادي، لو استمر عشر ثوانٍ لهدمت نصف أبنية القاهرة، فالإنسان عليه أن يستقيم على أمر الله، عليه أن يتقي الله عزّ وجل.

(إذْ جَاءَ رَبّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(84)إذْ قَالَ لِأبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85)أئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ)

أي أن هذه التي تعبدونها من دون الله أصنام، أحجار، أنتم نحتموها، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تجيب، ولا تتكلم، ضعيفة.

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

أي ما قولكم ؟ كيف تواجهون الله عزّ وجل يوم القيامة ؟ كيف تقفون بين يديه وقد عبدتم أحجاراً من خَلْقِهِ، كيف تقف بين يدي الله عزّ وجل يوم القيامة وقد اتخذت آلهة من دونه، ألا تخجل، ألا تستحي، فالصنمُ شيءٌ لا يقدم ولا يؤخِّر.

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

فقوم سيدنا إبراهيم ـ فيما تروي الكتب ـ لهم عيد، ويرجح أنه عيد النيروز، وهم من عادتهم أنهم يخرجون في هذا العيد إلى البساتين والحقول، فدعوه إلى أن يخرج معهم ليرى مباهج احتفالات دينهم، فجاء الجواب:

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ

نظر إلى السماء وما فيها من آيات، وتعجب، كيف أن هؤلاء يعبدون أصناماً، وقد نسوا رب العالمين، نسوا الذي خلقهم من ماءٍ مهين، نسوا الذي أمدّهم بالأولاد والبنين، نسوا الذي يسير الكواكب والمجرات، نسوا الذي ينبت النبات، نسوا الذي ينزل الأمطار، نسوا الذي يهبهم كل شيء، فقال:

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(87)فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

نظر نظرةً أي في حيرة شديدة، هو أين هو ؟ هو في وادي العبودية لله عزّ وجل خالق الكون، وهم في وادي الوثنية والشرك والانحراف، هو في أعلى درجات السمو، وهم في أدنى دركات الانحطاط.

(فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(87)فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)

أي أنا ليس بي قوةٌ أن أذهب معكم إلى أعيادكم، كما جاء في بعض التفاسير، وبعضهم قال: ما دمت سأموت فأنا سقيم، عن كلٍ اعتذر على أن يذهب معهم.

(فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ

انطلقوا إلى الحقول والبساتين وتركوه..

(فَرَاغَ)

معنى راغ أي ذهب خفية.

سيدنا إبراهيم..

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ(26))

(الذاريات)

من آداب الضيافة في القرآن الكريم:

أي أن المُضيف لا ينبغي أن يذهب لإحضار الطعام بجلبةٍ وضجيج، كما يقول المضيق: أتحب أن نغديك ؟ الضيف لا والله متغدٍ، نعمل لك أكل يا أخي ؟ فهذا لا يليق مع الضيف بل من آداب الضيافة أن تنسلّ لتصنع الطعام، لا أن تحدث ضَجيجاً أو حركة لإحضار الطعام، راغ أي انسلّ أو ذهب سريعاً..

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ)

يبدو أن من عادة هؤلاء أنهم يضعون أطيب الطعام في معابدهم.

حدثني أخ زار اليابان، هناك ديانة بوذية، وفي كل معبد صنم كبير جداً يزيد طوله على ثلاثين متراً، بوذا متربّع وجالس، يضعون أمامه أطيب أنواع الفواكه ليأكل في غيبتهم، والحقيقة أن الكُهّان يأكلون هذه الفواكه، لأنه حجر، هذا تقليد، فمن عادة قوم إبراهيم عليه السلام أنهم يضعون أطيب الطعام وألذ الفواكه والثمار عند أصنامهم، ويذهبون إلى أعيادهم، ويعودون ليأكلوها، وقد تباركت بأصنامهم، جاءتها البركة، وهذه كلها خرافات.

أحد الأشخاص قرأ عن بعض الديانات: أن الله عزّ وجل حينما خلق الأجناس البشرية، فالعرق الأسود كما يزعمون خلقهم، ونسيهم في المقلاة، والجنس الأبيض سلقهم سلقاً، والآخرون حمّرهم تحميراً، ففي الديانات الأرضية وثنية وخرافات لا يعلمها إلا الله، ولكن الأديان السماوية من عند خالق الكون.

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ)

طبعاً وجد الطعام بالمعابد، قال للأصنام: تفضلوا كلوا، قال هذا سخرية واستهزاء.

(فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

آلهة لا تنفع ولا تضر:

طبعاً هذا صنم، فقال له: تفضل كُلْ، كل من أجل خاطرنا، ألست جائعاً ؟ هؤلاء يعبدون من دون الله حجر، ألا تأكلون، فلم يجد أي جواب أو أية حركة لهذه الأصنام، فقال:

(مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ)

ولا حركة، ولا حرفا، عندئذٍ..

(فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

أمسك فأساً وضربهم حتى قطّع رؤوسهم، ضرباً باليمين بعضهم قال: باليمين التي أقسمها:

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(57))

(سورة الأنبياء)

وبعضهم قال: بيده اليمين، لأنها أقوى، وبعضهم قال: باليمين بالعدل، هذا صنم لا يقدِّم ولا يؤخِّر، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45))

(سورة الحاقة)

أي بالعدل.

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(91)مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ(92)فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ

طبعاً هذه القصة جاءت هنا موجزة وقد وردت في أمكنةٍ أخرى مفصّلة، فلما سألوه: من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال: بل فعله كبيرهم، أي وضع الفأس في عنق أكبر صنمٍ وقال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، أيعقل أن نسألهم ؟ لكن هل معقول أن تعبدوهم ؟! أيعقل أن يعبد هؤلاء من دون الله عزّ وجل، طبعاً هنا جاءت الآية مختصرة.

(فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

فلما عادوا من نزهاتهم ومن أعيادهم، إلى معابدهم ليأكلوا الطعام الطيب والفواكه الطيبة اللذيذة التي باركتها أصنامهم، رأوا أصنامهم قُطِعَت رؤوسهما، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا ؟

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ

(فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ)

معنى يزفون أي يسرعون، قال:

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

أي هل يمكن ذلك ؟! هناك قبيلة بالجاهلية اسمها ودّ صنعت صنماً من تمر فلما جاعت أكلته، فقال أحد الشعراء: أكلت ودٌ ربها، ما معنى جاهلية أي جهل، سُخف، الإنسان لا يليق به أن يعبد غير الله.

(فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(94)قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

أي خلقكم وخلق هذه الأحجار التي نحتموها، أنتم مخلوقون، وهي مخلوقة مثلكم، وهو الخالق. سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام واجه أمة بأكملها، واجهها في مقدّساتها، في أوثانها، في أصنامها، في معتقداتها، لم يكتف بمهاجمتها بلسانه، بل حطم أصنامها، ومن أجل أن تعلموا من هو الله رب العالمين الذي نعبده ؟

الله ينجي دائما أنبياءه:

الله جل جلاله كان من الممكن أن ينجي رسوله بطريقةٍ أو بأخرى، قد يختفي، قد لا يستطيعون القبض عليه، قد يُضْرِمون النار فينزل الله الأمطار فتطفئها، ولكن أراد الله عزّ وجل أن يري الناس من آياته فمكنهم من أن يقبضوا عليه أجل، مكنهم، من أن يقبضوا عليه، ومكنهم من أن يتخذوا قراراً بإحراقه، ومكنهم من أن يجمعوا الحطب، ويضرموا النيران، ومكنهم من أن يلقوه في ذلك الجحيم، وقد جاءه جبريل قال: " ألك حاجة ؟ "، قال: " منك ؟ "، قال: لا، بل من الله قال: " علمه بحالي يغني عن سؤالي"، بكلمةٍ واحدةٍ قالها الله عزّ وجل، قال:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا)

(سورة الأنبياء: من الآية 69)

لو قال كوني برداً لمات من البرد.

(وَسَلَامًا)

(سورة الأنبياء: من الآية 69)

لو قال الله عزّ وجل: يا نار كوني برداً وسلاما لتعطلت النار، أية نار، وكلُ نارٍ إلى يوم القيامة، ولكن عَلَى إِبْرَاهِيمَ فقط.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء: من الآية 69)

كلام دقيق، لو لم يقل الله: على إبراهيم لغدت النار لا تحرق، انتهت.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

هذا الإله ألا يُعبد ؟ لما سيدنا موسى كان باتجاه البحر، وخلفه فرعون، وما أدراكم ما فرعون ؛ فرعون ببطشه، وحقده، وجبروته، وجنوده، وأسلحته، يتّبع سيدنا موسى والذين آمنوا معه، فلما وصلوا إلى البحر، والتفتوا نحو أخراهم فإذا فرعون من ورائهم..

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61))

(سورة الشعراء)

أي نحن قد انتهينا، فهذا البحر أمامنا، وهذا فرعون وراءنا، فأنت تعبد من ؟ تعبد الله، قال:

(قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

انتهى الأمر..

(إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

سيدنا موسى ضرب البحر بعصاه، فإذ هو طريقٌ، كل فرقٍ كالطود العظيم، دخل موسى وجماعته في هذه الطرق اليابسة، تبعهم فرعون، فلما خرج موسى مع أصحابه عاد البحر كما كان، وغرق فرعون وجنوده، وعندئذٍ قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

قال:

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

الإيمان خيارُ وقتٍ فقط:

دققوا في هذه الكلمة: قضية الإيمان ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، الأمر ليس كذلك أبداً، بل قضية الإيمان متى تؤمن ؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن، فلابدّ من أن تؤمن بل في حالتين ؛ إما قبل فوات الأوان، وإما بعد فوات الأوان، فقط هذه هي القضية، لابدّ من أن تؤمن، فهذا الذي يقول للنار:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

طبعاً هذه معجزة، لكن والله يا إخوان لكلِ أخ كريم مؤمن كرامة، أحياناً الأمور تجري على خلاف منطق الأحداث، على خلاف قوانين الله عزّ وجل، تجري الأمور هكذا من أجله، إكراماً له:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ)

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ

يجب أن تعلم أن العاقبة للمتقين، أبداً، الأمور تدور وتدور، والأمور لا تستقر إلا على إكرام المؤمنين، أجل، على إكرامهم، وعلى نصرهم، وعلى تأييدهم بأن الله معهم.

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ(98)وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

فما شأني وهؤلاء القوم ؟! أي عافهم، وخرجوا من نفسه، قال بعضهم مستوحياً هذه الآية: إذا الإنسان عاش بين أعداء، بين كفار عتاة، مصرّين على كفرهم، فاتركهم، ودعهم.

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ

بعضهم قال: حينما واجه النار ظن أنه ميّتٌ لا محالة.

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

إلى الجنة، وبعضهم قال: بعد أن نجاه الله من النار، ترك قومه وذهب إلى العزلة وإلى الخلوة، وقال:

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

إلى طريق النجاة.

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ)

رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ

هنا السؤال: لِمَ دعا إبراهيم ربه ليهبه ولداً ؟ الجواب أن سيدنا إبراهيم تمنّى أن يخلفه ولدٌ يدعو إلى الله من بعده، وهذه أمنيةٌ كل مؤمن أن يكون من نسله ولدٌ صالح يعلم الناس من بعده، لذلك سيدنا زكريا نادى ربه نداءً خفياً، طلب سيدنا زكريا من ربه أن يكون له ذرية صالحة، فهذا طلب مشروع، وأسعد الناس من وهبه الله ذرية صالحة، تنفع الناس من بعده.

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي هريرة]

فالولد الصالح من أكبر النِعَم على الإنسان، وأن يخلفك ولدٌ صالح يكون استمراراً لك بعد موتك.

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ(98)وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

إذا أحب الواحد أن يختلي مع الله عزّ وجل بغرفته، أحب أن يختلي مع الله في مكان بعيد عن ضوضاء المدينة، إذا ذهب لأداء فريضة الحج: " إني ذاهبٌ إلى ربي "، فإذا ذهبت إلى مكان لتناجي ربك، فهذا مما ينطبق على كل مؤمن.

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِي(99)رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ(100)فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

خاتمة:

والقصة لها تتمة في الأسبوع القادم إن شاء الله تعالى عن ذرية إبراهيم، سيدنا إسماعيل، سيدنا إسحاق، وكيف جاءه هذا الغلام ؟ وسوف ترون في الأسبوع القادم أعلى درجات العبودية لله عزّ وجل، لكن الله عزّ وجل لا يضيّع المؤمن، يمتحنك ولكن لا يضيعك، يمتحنك، ولكن يدعمك، يمتحنك ولكن يقويك، فهنيئاً لمن كان مع الله، هنيئاً لمن أخلص لله، هنيئاً لمن اتَّبع رضوان الله، هنيئا لمن جعل همه مرضاة الله عزّ وجل، هنيئاً لمن جعل كل قدراته في خدمة الحق، هذا هو السعيد، فهذه القصة كما أوجزتها الآيات التالية:

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(83)إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(84)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(85)أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ(86)فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(87)فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(88)فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ(89)فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ(90)فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(91)مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ(92)فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ(93)فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(94)قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(96)قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(97)فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ(98)وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)

وإن شاء الله تعالى في الأسبوع القادم نتابع هذه القصة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (09-14): تفسير الآيات 99 - 113
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة الصّافّات، ومع الآية التاسعة والتسعين.

المقصود من قصص القرآن العبرُ:

لا زلنا في قصّة سيدنا إبراهيم، في الدرس السابق تحدّثنا عن قصّةٍ جرت له مع قومه حينما ألقوه في النار، وقال الله عزّ وجل:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء)

ومرّةً ثانية وثالثة: أتمنّى أن أوضّح لكم هذه الفكرة، إنّ أية قصّةٍ في القرآن الكريم ليست مقصودةً لذاتها ؛ بل مطلوبةٌ للعبرة التي يمكن أن تُستنبط منها، لأن هذه العبرة يمكن أن تُطبّق في حياتنا..

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

معية الله للمؤمن في الشدة:

بشكلٍ أو بآخر يمكن أن يواجه المؤمن صعوبةً، مشكلةً، خطراً، شبح مصيبةٍ، أن يواجه مؤامرةً مثلاً، كيْداً، فالله جلّ جلاله يُبطل الكيد، ويزيل الخطر، ويصرف المرض، هذه كرامة المؤمن على الله عزّ وجل، لكن خرق العادات إذا جرى مع الأنبياء فهو معجزة، وإذا جرى مع المؤمنين فهو كرامة، وهذا الذي عبّر عنه الله جلّ جلاله في بعض الآيات الكريمة إذ يقول:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم: من الآية 5)

يوم دعوتَهُ وقد أُحْكِمَت حلقاتُ المصيبة، فاستجاب لك، وفرّج عنك.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

كلمة " مخرج " تعني أن الأمور مغلقة، الحلقة محكمة، الأبواب مُغَلّقة، السُبل مسدودة، الطرق موصدة، كلمة: **" يجعل له مخرجاً "**، أي بعد إذ لم يكن هناك مخرج، الحلقات محكمة، الطرق كلُها مسدودة، فلذلك هذه القصَة ليست مقصودة لذاتها ؛ بل يجب أن نستنبط منها أن الله سبحانه وتعالى ينجي

المؤمنين.

فيما يشبهها قصة سيدنا يونس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام حينما كان في بطن الحوت، في ظلماتٍ ثلاث..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

الآن ربنا عزّ وجل أراد من هذه القصّة أن يجعلها قانوناً، قال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

إذاً: أنا حينما أقول لكم:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69))

(سورة الأنبياء)

وكذلك كلّما ضاقت بك الأمور، كلّما استحكمت حلقات المصائب، كلّما رأيت الطُرق مسدودةً، كلّما رأيت المعابر موصَدَةً، كلّما رأيت أن الأمر ضاق، لعلّ الله جلّ جلاله يخرق لك العادات، وينجيك من عدوّك، ومما يحاك لك، وأنت لا تدري.

إذاً: كن مع الله تَرَ الله معك، أخلِصْ له تشعر أنه معك ؛ معك بالتأييد، ومعك بالنصر، ومعك بالتوفيق، ومعك بالحفظ.

الآن: درسٌ آخر يُستنبط من دروس هذه القصّة..

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ)

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين

دائماً العاقبة للمتقين، ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

لكن هذه كيف تقع معنا ؟ كيف يقول أحدنا: إني ذاهبٌ إلى ربي ؟ أيْ إذا توَجّه أحدنا إلى بيتٍ من بيوت الله ليصلي، توجّه ليحضر مجلس علم، توجَه إلى الفلاة ليناجي ربّه، توجّه إلى غرفةٍ قصيّةٍ في البيت ليصلي قيام الليل، إن توجّه إلى غرفةٍ قصيّةٍ في البيت ذهب إلى ربّه، وإن توجّه إلى فلاةٍ ليناجي ربّه وليذكره ذهب إلى ربه، وإذا توجّه إلى بيتٍ من بيوت الله لا يقصد منفعةً، ولا دنيا، ولا حلّ مشكلةٍ ؛ إنما يقصد مرضاة الله عزّ وجل فكأنه ذاهبٌ إلى الله عزّ وجل..

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطوبى لعبدٍ تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكرم الزائر))

[ورد في الأثر]

إذا توجّه الإنسان إلى أحد بيوت الله لا يرجو دنيا ؛ بل لا يخرج إلا ابتغاء مرضاة الله، فالله جلّ جلاله سيرحمه، سيتجلّى عليه، سينوّر قلبه، سيوفِّقه في أعماله الدنيويّة، سيمنحه الرضى، يمنحه القُرب. فأنا تذوّقت هذه الكلمة:

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

من ذهب إلى البلاد المقدّسة لأداء فريضة الحج لا يبتغي تجارةً ؛ لا يذهب إلا ابتغاء وجه الله عزّ وجل، فكأنه ذاهبٌ إلى الله عزّ وجل، وكذلك إذا توجّهتَ إلى أخ كريم لتذكُر معه الله عزّ وجل، لتتذاكر وإيّاه آيات القرآن الكريم، لكن الإنسان يتحرّك ؛ إلى عمله، إلى قضاء حاجاته، إلى تحقيق مصالحه، إلى شراء بيت، إلى عقد صفقة، إلى بيع صفقة، إلى نُزهةٍ، هذه حركة يبتغي بها الدنيا، أفلا ينبغي أن يكون للمؤمن حركةٌ إلى الله ؟ سعيٌ إلى الله ؟ توجُهٌ إلى الله ؟

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

قال بعض العلماء: الحجُ رحلةٌ إلى الله، ومثله إن توجّهتَ إلى الفلاة لتبتعد عن الناس، وتقطع علائق البشر وتناجي الله عزّ وجل..

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

إن توجّهت إلى غرفةٍ قصيّةٍ تذكر الله فيها، بعيداً عن ضوضاء الأولاد.

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

إن وقفت في الصلاة تناجي ربك بخشوع..

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

سيدنا إبراهيم قال:

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

العلماء قالوا: إنه إن أيقن بالموت فذهابه إلى الله عزّ وجل يعني أنه ملاقٍ اللهَ عزّ وجل، وسيهديني إلى الجنّة، وإن خاف قومه، وتوجّه بعيداً عنهم:

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

لينجيني من مكرهم، وبأسهم، وكيدهم.

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين)

وبعدُ، هذه دعوة الأنبياء..

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ)

رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ

لابد أن تترك ولدا صالحا ينوب عنك بعد موتك:

فالذي رزقه الله مولوداً ذكراً كان أو أنثى، فهذا أعظم رزقٍ يُرْزَقه المؤمن ؛ أن يكون له ولدٌ صالح، ولدٌ يُعَلِّم الناس من بعده، ولدٌ ينفع الناس من بعده، أجل هذا أعظم كسب المؤمن في الحياة، لذلك الدعوة إلى الله إذا تولاّها أناسٌ كابراً عن كابر، وخلفاً عن سَلَف لتبقي مستمرّة، فيجب أن تهيئ من يدعو إلى الله من بعدك، يجب أن تهيئ من ينوب عنك في غيبتك، هذا معنى:

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ)

إنه لم يُرْزَق غلاماً من قبل، فقال: يا رب هب لي من الصالحين، هب لي غلاماً صالحاً ينفع الناس من بعدي، وكل أبٍ منكم إن رأى ولده صالحاً، منيباً، طائعاً، مقبلاً على العلم، هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، ربّما الذي كان عنده مثل هذا الولد لا يعرف هذه النعمة ؛ لكن نعمة الولد الصالح لا يعرفها إلا من فقدها..

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ)

أيْ ولدٌ يا رب يصلح لرحمتك، يصلح لرحمتك، ويُصلِحُ الله به الناس..

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

1 ـ الحلم سيّدُ الأخلاق:

الحِلم كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الحلم سيّدُ الأخلاق))

((كاد الحليم أن يكون نبياً))

[من الجامع الصغير عن أنس]

والحِلم لا يتأتّى إلا عن الإيمان، فالمؤمن حليم، لماذا ؟ لأنه يتخلّق بأخلاق الله عزّ وجل، ولأنه يرى أن الأمر كلّه بيد الله، وأن أيّ شيءٍ وقع أراده الله، الذي وقع أراده الله، والذي لم يقع لم يرد الله وقوعه..

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

2 - الحلم يتأتّى بالإيمان:

هذا هو الإيمان، فمن أين يأتي الحلم ؟ من الإيمان، هذا الكون تعمل به يدٌ واحدة هي يد الله، كل شيءٍ تراه عينك إنما هو صورَ، لكن الله عزّ وجل هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الكون، الله هو الرافع، هو الخافض، هو المعزُّ، هو المذلُّ، هو الرزّاقُ، هو الباسط، هو القابض، هو المحيي، هو المميت، هو الموفِّق، كل شيءٍ بيد الله عزّ وجل، فلذلك الحليم يرى أن يد الله تعمل في الخفاء، الحليم يحترم مشيئة الله عزّ وجل، يحترم إرادة الله عزّ وجل، لماذا هو حليم ؟ لأنه يعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كلّ ما أراده الله وقع، وأن إرادةَ الله عزّ وجل تنطلق من حكمته المُطلقة، وأن حكمته المطلقة تتوافق مع الخير المطلق، لذلك هو حليم..

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

فالذي عنده ابن فليعتن به كثيراً، يعتني بتعليمه دينَه، يعتني بتربيته التربية الصالحة، يعتني بأخلاقه، يراقبه، يبذل وقتاً لتعريفه بالله عزّ وجل، لأن هذا الابن إذا نشأ صالحاً هو أثمن ثروةٍ يملكها الإنسان في الدنيا والآخرة..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَه))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

أحدنا إذا رأى الرجلُ ابنه يصلي طواعيةً، مبادرةً منه، إذا رأى ابنه اصطلح مع الله، يمتلئ قلبه سعادةً، تقرُّ عينه به، فكيف إذا كان النبيُّ الكريم سيدنا إبراهيم قد رزقه الله نبيّاً مثله ؟ نبيّاً حليماً، لعله ليس من علاقة أسمى، ولا من درجة من المودّة والقُرب تفوق هذه العلاقة، أوّلاً ابن، وثانياً كماله كمال أنبياء..

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

الآن:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

أي أنّه أصبح شاباً يسعى معه في الدعوة إلى الله، يسعى معه في إرشاد الخلق إلى الله عزّ وجل، أو يسعى معه في حركته اليوميّة، أي أنّه أصبح راشداً..

(فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السّعْيَ قَالَ يَا بُنَيّ إِنّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)

الحقيقة أننا الآن دخلنا في موضوع العبوديّة لله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل حينما أمرنا، وحينما نهانا أعطانا الحِكَم، وبيّن لنا العِلَل، قال مثلاً:

(وَأَقِمْ الصّلاَة إِنّ الصّلاَة تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من الآية45)

1 ـ بيان العلل من الأمر والنهي:

كأن الله عزّ وجل يقول: يا عبادي صلوا، لأن الصلاة تنهاكم عن الفحشاء والمنكر، هذا أمر، وهو أمر مُعَلّل، تُقبل على تطبيقه طواعيّة لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

أمرك أن تصوم، وبيّن لك أن الصيام ينقلك إلى مرتبة التقوى، أمرك أن تزكّي فقال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَة تُطَهّرُهُمْ وَتُزَكّيهِمْ بِهَا وَصَلّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة: من الآية 103)

تطهرهم وتزكيهم، الناس يأتيهم أمر الله المنطقي، المعقول، المبيّن، المفصّل، المعلّل، ومع ذلك يتوانون في تطبيقه، فكيف إذا جاءك أمرٌ لا يبدو لك منطقياً ؟ لا يبدو لك مُعَلّلاً ؟

1 ـ طاعة الله في الأمر والنهي من تمام العبودية:

بشكل مقرّب: مناسك الحج، الإنسان أحياناً يقول: لِمَ أنا أطوف حول البيت ؟ ولِمَ أرشق إبليس بالحجارة؟ ولِمَ أسعى بين الصفا والمروة ؟ ولِمَ أهرول ؟ فهذا الإنسان الذي لا يحتمل أمراً لا يرى تعليله، ولا منطقيّته، ولا تفسيره، هذا الإنسان بعيدٌ عن مقام العبوديّة لله عزّ وجل، أليس أي أمرِ لله عزّ وجل علّته الكبرى أنه أمر الله عزّ وجل ؟

هذا الذي لا يطبّق أمر الله إلا إذا رآه منطقياً، لا يطبّق أمر الله إلا إذا رأى نفعه ملموساً بيده، لا يطبق أمر الله إلا إذا راق له، هذا ليس عبداً لله، هذا عبدٌ لنفسه، لمصلحته، فقد تجد في أوامر الدين أمراً لا تراه بعقلك القاصر معلّلاً، هذا امتحان، مثل هذا الأمر يمتحن عبوديّتك لله عزّ وجل، فمثلاً:

لو أمر الأب ابنه أن ينظّف أسنانه قبل أن ينام، طبعاً الأب يقول له: يا بني، إن أسنانك ثروةٌ ثمينة، فإن اعتنيت بنظافتها تمتّعت بها طوال حياتك وإلا ؟ لا تكن مثلي ـ وضعت بدلة مثلاً ـ فكلّما أهملتَ تنظيف أسنانك خلعتَ أسنانك واحدة واحدة، فحينما يأمر الأب ابنه بتنظيف أسنانه يعطيه التعليل، يعطيه

التفسير، يبيّن، يا بُنَي كن صادقاً حتى تنتزع إعجاب الناس واحترامهم، يا بني اجتهد لأن رتبة العلم أعلى الرُتَب، كل هذه الأوامر يُلقيها الأب على ابنه معلّلةً.

لو أن هذا الابن جاء ليأكل مع والديه فقال له: يا بني لا تأكل معنا اجلس هناك، هذا أمر غير منطقي، فما السبب ؟ أنا جائع، والطعام موجود، وليس معكما أحد، لماذا لا آكل ؟ هذا الأمر غير المنطقي، وغير الواقعي، غير المعلّل هذا الأمر يمتحن طواعية الابن لأبيه، هناك ابن يقول: لماذا لا آكل معكم ؟ فأنا لا أجد مانعاً، أقنعني، هناك ابن مستواه أرقى بكثير يقول له: سمعاً وطاعةً يا والدي، ولو لم يفهم، أيهما أرقى في الطاعة ؟ الذي امتثل أمر والديه دون أن يفهم حكمتهما.

يا أيها الإخوة الأكارم، هذا موضوعٌ دقيق، فالله عزّ وجل أمرنا بأوامر منطقيّة، ومعقولة، وواضحة، وبيّنة، نتائجها ملموسة، معلّلة في القرآن، ومعظم الناس يتوانون عن الأخذ بها، لكن أحبابه الذين ذابوا في حبّه، وأقبلوا عليه، واستسلموا لمشيئته، وسبحوا في أسمائه الحُسنى، وفنيت ذواتهم في القرب منه، هؤلاء مستعدون أن يضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، امتثالاً لأمر الله عزّ وجل، لذلك هذا نموذج من الحب، نموذج من القرب، نموذج من العبوديّة لله عزّ وجل.

قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

فعلى أي مقياس لا يُقْبَل هذا الأمر، ابنه، فلذة كبده، ابنه الوحيد الذي بشّره الله به، ابنٌ كامل، نبيٌّ كريم، لماذا أذبحه ؟ الآن إذا أحد الآباء قال لابنه: والله أنا سأذبحك يا ابني، يقول لك: أبي جُنّ، فبأيّ مستوى إذا كان إبراهيم وابنه ؟

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

رؤيا الأنبياء أمر، وبعض العلماء قال: إنه لم يقل: إني رأيت في المنام أني أذبحك، بل قال:

(إِنِّي أَرَى)

أني رأيت الرؤيا مرّةً ومرّتين وثلاث مرّات..

(إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)

استمعوا إلى كلام الابن.

(قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ

1 ـ الطاعة المطلقة من إسماعيل لأبيه عليهما السلام:

هذا أب، وهذا ابن، وهذا هو الإيمان، وإذا قال الله، هذه حرام، فيجب ألاّ تقول: لماذا ؟ أمّا ضعيفُ الإيمان فيقول لك: لماذا حرام ؟ إنها غير منطقيّة، هذا قرض استثماري، وليس قرضاً استهلاكياً، يتفلسف على الله أيضاً، فالله حرّم الربا، ويقول لك: هذا قرض استثماري، وليس قرضاً استهلاكياً، لماذا لا يكون هناك اختلاط ؟ هذه مثل أختي ؟ كلّما جاء أمر يقيّد حركته يتفلسف، يريد بزعمهِ أن يكون الأمر منطقياً، هذا الذي لا يطبّق إلا ما يروق له، وما يحلو له، ليس عبداً لله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل أطلعنا في هذه السورة على نموذج من العبوديّة لله عزّ وجل، لا أعتقد أن هناك أمراً أبعد عن المنطق، أبعد عن الرحمة، أبعد عن القبول كهذا الأمر:

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

نحن لننظر إلى حالنا، أمرك الله أن تصلي، أمرك أن تغضّ بصرك، يقول لك مُماحَلَة: **" إن الله جميل يحب الجمال، أنا لن آكلها "**، غُضّ البصر، وكفى، واللهُ قال:

(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)

(سورة الأحزاب: من الآية 53)

أطهر، ومع ذلك يُجادل الإنسان من ذوي الأهواء، فالله عزّ وجل أطلعنا في هذه القصّة على مستوى رفيعٍ رفيع من العبوديّة لله عزّ وجل، لذلك حَسْبُ أيِّ أمرٍ لله عزّ وجل أنه أمر الله، علّة أيّ أمرٍ لله عزّ وجل أنه أمر الله عزّ وجل، يكفينا هذا.

المؤمن الصادق عنده شيءٌ واحد، هو التحقُّق من أن هذا أمر الله، وهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا حكم الله، وهذا يرضي الله، وانتهى الأمر، فإذا تحقّقَ أن هذا أمر الله بادرَ إلى تطبيقه.

لكن بعض العلماء قالوا: أنت أيها المؤمن، إذا بادرت إلى تطبيق أمر الله عزّ وجل عبوديّةً له، وانصياعاً له، ولو لم تقف على حكمته، لو لم تقف على عِلّته، لو لم يتبيّن لك وجه منطقيّته، إذا بادرت إلى تطبيق أمر الله عزّ وجل الله جلّ جلاله يتكرّم عليك بكشف حكمته جزاء عبوديّتك له، أي نفّذ ثمّ انتظر أن يكشف الله لك الحكمة، نفّذ ثم انتظر ظهور الحكمة وجلاءَها.

الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به:

بالمناسبة، هناك نقطة مهمّة جداً في هذا الموضوع، الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، كيف ؟ فمن الممكن لإنسانٍ لا يقرأ ولا يكتب، ليس متعلِماً إطلاقاً، ولا يفقه ما هي الآلة، من الممكن أن يشتري مكيفاً، وكلّما شعر بالحر يكبس زراً فيأتيه الهواء الطيّب، ولكن هذا جاهل بمبدأ المكيفات، وتحريك الغازات، والدفع، وما إلى ذلك، ومن الممكن لإنسان أن يركب أفخم سيّارة، وأحدث موديل، وهو لا يعرف ما تحت غطاء المحرّك، أنت من الممكن تنتفع بالشيء من دون أن تعلمه، فما علاقة هذا الكلام بدرسنا ؟

إذا نفّذت أمر الله دون أن تسأل عن حكمته، ولو لم تعرف حكمته، بل لأنه قال لك الله عزّ وجل: غُضّ بصرك، قلت: أنا سأغض بصري، كل ثمار غضّ البصر تقطفها دون أن تعلم حكمته، كل السعادة التي وعد الله بها من يغضُّ بصره تجنيها دون أن تعلم حكمة غض البصر، أمرك أن تصلي، أمرك أن تصوم، أمرك ألاّ تأكل الربا، لو امتنعت قصداً عن فهم حكمة تحريم الربا، ولم تأكل الربا شعرت براحةٍ ما بعدها راحة.

لذلك إن فهمت الحكمة فلا بأس، وهي أفضل، إن فهمت حكمة الأمر فهذا شيء جيّد، لأنك إن فهمت الحكمة بإمكانك أن تعلِّم هذا الأمر للناس، كنت عابداً فأصبحت عالِماً، إذا بادر الإنسان إلى تطبيق أوامر الله عزّ وجل من دون أن يعلم حكمتها، وقطَفَ ثمارها، وسعد بها فهو عابد، أما إذا تعلّم حكمتها، وعلّمها للناس أصبح عالِماً، لكن الحد الأدنى أنك إذا عرَفت الأمر الإلهي، ولم تتعرّف إلى حكمته، وطبّقت هذا الأمر، تقطف كل ثماره اليانعة.

بالمناسبة: اليوم ذكرت في الخطبة: أنك من الممكن أن تقرأ عن العفو، وأن تتحدّث عن العفو، ومن الممكن أن تحدّثنا عن رسول الله كيف عفا عن كفّار مكّة، كيف عفا عن عكرمة، ومن الممكن تبكيّنا، وممكن أن تقرأ ما في سير الصالحين من مواقف العفو، وممكن أن تحلِّل العفو، وممكن أن تؤثِّر، لكن إنْ لم يكن لك عدوٌّ نال منك أشدّ النيل، ثم وقع في قبضتك، وأنت قادرٌ على التنكيل به، وعفوتَ عنه، إن لم تمارس العفو فلست عَفُوّاً، الحديث عن العفو شيء، وأن تكون عَفُوّاً شيءٌ آخر، الحديث عن التواضع شيء، وأن تكون متواضعاً شيءٌ آخر، الحديث عن الكَرم شيء، وأن تكون كريماً شيئاً آخر.

فيا أيها الإخوة الأكارم، حينما تبادر إلى أمر الله عن علمٍ أو عن غير علمٍ تقطف كل ثماره، لكنك إن بادرت إليه عن علمٍ استطعت أن تعلِّمه للآخرين، وأن تنتقل من مرتبة العبّاد إلى مرتبة العلماء. إذاً:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا)

فإذا كان هناك أمر إلهي لم تفهمه، هل سيكون مثل هذا الأمر أشدّ من هذا الموقف ؟ لا، العجيب ما إن تجلس في مجلس فالأسئلةُ عن الفوائد كثيرة، وعن التحويل، وعلى البنوك، فأنت تقول: هكذا أمر الله، فيرد عليك: هذا ليس صحيحاً، تجد نَفَساً طويلاً ومناقشات، ويريد أن يقولب الدين كما يريد..

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً(52))

(سورة المدثر)

يريد ديناً تفصيلاً مناسباً لحجه، يتناسب مع حركته، مع شهواته، مع رغباته، مع عاداته، مع تقاليده، تجد المناقشة طويلة، حتى إنه يقول لك: إن هذه الأمور ما فيها حرج، ولماذا أنت تعقِدها ؟ ما هو دليلك عليها ؟ لكن أين الإيمان من هذا ؟ الإيمان ما إن يثبت لك أن هذا أمر الله إلا وتبادر إلى تطبيقه، إذا أردت قدوة فسيدنا إبراهيم قدوة صارفة، قال له:

(إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

2 ـ الاستسلام لله عزّ وجل ذروة الإيمان:

سيدنا إبراهيم استسلم لأمر الله، والاستسلام حالةٌ مريحة جداً، رب العالمين أرحم الراحمين، عليمٌ، حكيمٌ، لطيفٌ، قديرٌ، عدلٌ، مُعطٍ، مانع، مُغنٍ، رافع، خافض، رزّاق، وهّاب، هذا أمره، فالاستسلام لله عزّ وجل ذروة الإيمان، كما قال الشاعر:

هم الأحبّة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدلٌ وإن عدلوا

والله وإن فتّتوا في حبّهم كبدي باقٍ على حبّهم راضٍ بما فعلوا

***

هذه علامة الإيمان، أحد الصحابة فقد بصره، قيل له ـ وكان مستجاب الدعوة ـ: ادعُ الله أن يردّ لك بصرك، قال: " والله أخجل، هو اختار لي هذا، وأنا أرفضه ؟! "، فقد بلغ حبُّهم لله عزّ وجل درجة أنهم راضون بمشيئة الله مهما تكن مؤلمة.

كلّنا إذا قرأنا هذه القصّة سنقول: ما الذي حصل بعد هذا ؟ فقد فداه الله بذِبحٍ عظيم، هذا خطأٌ كبير في تصوّرنا للحدث، سيدنا إبراهيم حينما تلقّى الأمر بذبح ابنه ما خطر في باله أن هذا الأمر لا يُنَفّذ..

(فَلَمَّا أَسْلَمَا)

فَلَمّا أَسْلَمَا

أيْ أنّه استسلم لتنفيذ أمر الله. أنت أحياناً يمتحنك الله بمشكلة، فهو خيار صعب جداً.

1 ـ الله يمتحن عباده:

أنا أعرف رجلاً رعى امرأةً ليس لها أحد يحنو عليها، بل هي كما يقال في عُرفنا: مقطوعة، تسكن في غرفة في مسجد، وكان الرجل يسكن إلى جوار المسجد، رعاها أكثر من عشرين عاماً، ثمّ انتقل إلى حيٍّ بعيدٍ بعيد، وقد عاهد الله على أن يتابع رعايته لها، فصار يخرج من بيته في حيّه الجديد مشياً على قدميه إلى مكان إقامتها ليرعاها، بذل أهله كل ما في وسعهم ليصرفوه عن هذا العمل، بيتك صار بعيداً، كبرت سنك، كفاك ما قدمت، واللهُ لا يكلفك فوق طاقتك، أبداً سأثابر، فلمّا رأوا منه إصراراً لا حدود له، ووفاءً بالعهد لا حدود له، امرأة على حافة قبرها، فقالوا له: أمرُنا لله عزّ وجل، فائت بها إلى البيت رحمةً بك، فجاؤوا بها إلى البيت، ما هي إلا أيّام حتّى توفّاها الله عزّ وجل، أما هو فقد وطّنَ نفسه على أن يخدمها إلى ما شاء الله.

في بعض التجارب يضعك الله عزّ وجل أمام اختيار صعب جداً، فحينما تؤثر مرضاة الله عزّ وجل يكون الحل سهلاً جداً، والله عزّ وجل أظهر صدقك، أظهر وَرَعَك، أظهر خوفك، ثمّ صَرَفَ عنك هذه المتاعب كلّها، من هذا القبيل هناك تجارب كثيرة، الإنسان يؤثر طاعة الله، فإذا هذه الطاعة التي تبدو لك متعبة جداً يقلبها إلى مهمة مريحة، وأنت لا تدري.

أخ كريم ذكر لنا قصّته، فقد اضطر من أجل أن يشتري بيتاً إلى معاملة غير شرعيّة، فلمّا عرف أنها غير شرعيّة قال: يا رب، لا أريد البيت، ولا أعصيك أبداً، فلمّا وصل إلى محلِه التجاري، فإذا إنسان ينتظره، ويقول له: أنا معي هذا المبلغ سأضعه عندك أمانة لسنتين، وأناشدك الله أن تستعمله، فحينما وُضِعْت أمام ظرف صعب ؛ إما أن يضيع منك هذا البيت، وإما أن تعصي الله، لا، فلن أعصي الله وليضِع هذا البيت، فإنّ الله عزّ وجل وضعك في اختيارٍ صعب ثمّ هيّأ لك البديل.

الآمر ضامن، فإذا كانت هذه حراما فحرام، وهي دونما جدال، لكن أبقى بلا بيت ؟ الذي أمرك بترك هذا الطريق خالق الكون، فهو قادر أن يمنحك أعظم بيت، فلذلك الآمر ضامن، اذكر هذا الكلام دائماً، الذي أمرك والذي نهاك خالق الكون بيده كل شيء، فإذا رأى منك ورعاً، وصِدقاً، واستقامةً، وخوفاً، رفعك لورعك ولاستقامتك ولخوفك، ومنحك ما أنت بحاجةٍ إليه من طريقٍ مشروع، هذا معنى القول الشهير: " اصبر على الحرام يأتِك الحلال "، هذا معنى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك))

[ورد في الأثر]

لقد أردتُ من هذه القصّة أن أبيّن لكم أن المؤمن كثيراً ما يضعه الله أمام اختيارٍ صعب جداً، فإذا آثر طاعة الله عزّ وجل هيّأ له ما يُخفّف من متاعبه، أو ما يلغيها كلياً، وكل قصّةٍ ترد في القرآن الكريم يمكن أن تحدث مع المؤمن بشكلٍ مخفّف..

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(102) فَلَمَّا أَسْلَمَا)

الأب استسلم ـ الذابح ـ والله أنا لا أبالغ ؛ لو أنني خيّرتُ هذا الأب الكريم أن يذبح ابنه أو أن يُذْبَح، لآثر أن يُذْبح، ولا يعرف هذا إلا الأب، ابن كالوردة بلغ معه السعي، ملء السمع والبصر، حليمٌ، نبيٌ كريم، في أعلى درجات الأدب، في أعلى درجات الكمال: أذبحه ؟

(فَلَمَّا أَسْلَمَا)

رحمة إبراهيم بابنه إسماعيل: وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ

هو استسلم لأمر الله، وابنه إسماعيل استسلم لأمر الله، لكن شفقة الأب منعته أن ينظر إليه، وهو يُذْبَح، فجعل وجهه للأرض..

(وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

أي أنه جعل جبينه للأرض لئلا تقع العين في العين، لذلك الله عزّ وجل حينما أخبرنا عن غرق ابن سيدنا نوح، قال:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

فرحمة بالأب جاءت موجة عاتية حجبت الابن عن أبيه، وقد استنبط العلماء أنه لا يجوز أن يُقتَل الابن أمام أبيه، رحمة بالأب، وقد ورد في بعض الأحاديث القدسيّة أنه **" إذا ماتت الأم يقول الله جلّ جلاله: عبدي، ماتت التي كنّا نكرمك لأجلها، فاعمل صالحاً نكرمك لأجلك "**، فجزءٌ من إكرام الله لك أيها الابن من أجل الأم.

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

في التاريخ قصصٌ كثيرة، مؤمنون وُضِعوا في خيارٍ صعبٍ جداً ؛ إما أن يرضوا الله عزّ وجل أوْلاً، أي إن لم يرضوا الله عزّ وجل عاشوا، وإن أرادوا رضوانه ضحوا بحياتهم من أجل رضوان الله عزّ وجل، آثروا رضوانه، فالله جلّ جلاله هيّأ لهم أسباب الوقاية ونجّاهم من عدوّهم..

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(103)وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا

كنتَ صادقاً، وفّيت ما عليك، لذلك قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(37))

(سورة النجم)

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: من الآية 24)

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: من الآية 124)

(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(105)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ

هذا البلاء بلاء مُبين، لكن جاء الفَرَجَ، ظهر كماله، ظهرت عبوديّته، ظهرت طاعته، ضحّى بحياة ابنه، ضحّى بفلذة كبده، لكن الله جلّ جلاله ما فجعه بكل ذلك..

(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(104)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(105))

أحياناً تجد أن هذا الطريق مسدود، وذاك الطريق مسدود، والآخر مسدود، والكل مسدود، ولم يبقَ إلا طريق واحد مفتوح، ولكن فيه معصية، لحكمةٍ يريدها الله عزّ وجل يُغلق عليك كل الطرق المشروعة، ويُبقي لك طريقاً واحداً غير مشروع، هذا بلاء، هذا ابتلاء مبين، فضعاف الإيمان يقولون: أخي ماذا أفعل، والله إني مضطر، وأنا عندي أولاد !! فيقع بالحرام، ويأتي مؤمن آخرُ إيمانه قوي يقول: والله لا أعصي الله، ولو نمت في العراء، ولو أكلت شوكاً فلا أعصي الله، وليكن ما يكون، هذا اختيارك، هذا ورَعُك، هذا حبُّك، هذه طاعتك، هذه عبوديّتك، كَسِب، نجح، وفاز، ونال رضوان الله عزّ وجل، وأتته الدنيا وهي راغمة، لكن بعد ماذا ؟ بعد أن وضِعَ في اختبارٍ صعب.

أيها الإخوة الأكارم، أقول لكم هذا الكلام: والله يقيني أن المؤمن لابدّ من أن يُمْتَحن أبداً، لابدّ من أن يُوضَع في اختيارٍ صعب ليظهر إيمانه، لتظهر طاعته، ليظهر حبُّه، ليظهر ورَعه، ليظهر خوفه، فإذا نجح أتته الدنيا وهي راغمة.

قصّة إبراهيم عليه السلام يمكن أن تقع بشكلٍ أو بآخر مع كل مؤمن، ظرف صعب، دخل كبير لكن فيه شبهة، وأنت في أمسّ الحاجة إلى المال، دخلك هنا قليل جداً لا يكفي، هنا دخل كبير لكنّه مشبوه، إذا قلت: والله يا أخي مضطر، والله شيء مغرٍ يا أخي، أنت بهذا سقطت، أما إذا قلت: والله لا أعصي الله،

وليكن ما تكون، نجحت، فإذا رفضت هذا الدخل الكبير المشبوه، ما قولك أن يأتيك الله بدخلٍ كبيرٍ غير مشبوه ؟ هذا والله يقع دائماً، كلّما آثرت رضوان الله على الدنيا كسبت رضوان الله، وجاءتك الدنيا، كلّما آثرت رضوان الله على الدنيا فزت برضوان الله، وأتتك الدنيا وهي راغمة، لذلك:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي]

هذه قصّة يعيشها كل مؤمن، تقع مع كل مؤمن، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى..

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

أي كنت صادقاً يا إبراهيم في تنفيذ أمر الله، لقد وفّيت يا إبراهيم ما عليك، لقد امتُحِنْت فنجحت، ابْتُليت فصبرت، ظهر ورعك، ظهر حبُّك، ظهرت عبوديّتك لله عزّ وجل، أظهرت أن حبَّ الله أحبُّ إليك من فلذة كبدك..

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الجزاء بعد الامتحان: إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

يُمْتَحنون، فينجحون، فيفوزون برضوان الله، ثم تأتيهم الدنيا وهي راغمة، أخذوا الحُسْنَيَين، أهل الدنيا يُمتحنون، فيسخطون الله من أجل الدنيا، ثم تذهب الدنيا من بين أيديهم.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من الآية 36)

(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(107)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

السمعة الطيّبة، والذكر الحَسَن، والسيرة العطرة..

(سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(109)كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

هذا جزاءُ الإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ فكل واحد منّا أيها الإخوة بعمله، بزواجه، بسفره تأتيه امتحانات صعبة جداً، من هذه الامتحانات أن طاعة الله عزّ وجل مُكْلِفَة، وأن معصيته سهلة ومربحة، هكذا الامتحان، فإذا قلت: والله لا أعصي الله، وليكن ما يكون، فزت برضوان الله، وتأتيك الدنيا وهي راغمة..

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(110)إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(111)وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

إسماعيل وإسحاق نبيَّان من ذريَّة سيدنا إبراهيم..

(وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ

الناس بين محسنٍ وظالم:

من ذريَّة هذين النبيّين الكريمين مُحسن وظالم، ونحن من ذريَّة نبيّنا عليه الصلاة والسلام، بعضنا محسن، وبعضنا ظالم، فالذي استجاب لله ورسوله فهو محسن، والذي لم يستجب فقد ظلم نفسه، ولم يظلم أحداً سواه.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نأتي على قصّة سيدنا موسى والأنبياء من بعده.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (10-14): تفسير الآيات 114 - 122

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-10-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة الصافات، ومع الآية الرابعة عشرَ بعد المائة:

(مَنَنّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

مَنَنّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ

1 ـ المنُّ هو العطاء:

المنُّ هو العطاء.

2 ـ كلُّ آية مَنٍّ خوطب بها النبي للمؤمن منها نصيب:

كل آيةٍ يخاطب الله بها النبي عليه الصلاة والسلام ـ دقِّقوا ـ كل آيةٍ يخاطب الله بها النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمن منها نصيب، فإذا مَنّ الله على موسى وهارون، بماذا منّ الله عليك ؟ من أجل أن ينشأ الحب، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ...))

[الترمذي عن ابن عباس]

أول نعمةٍ أنعمها الله علينا جميعاً هي نعمة الوجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

نِعَم الله على العبد لا تعدّ ولا تُحصى:

لك اسم، معك هويّة، فلان الفلاني ابن فلان، أودع الله فيك عقلاً، وأعضاء، وأجهزة دقيقة جدا، ونعمة الإمداد، أمدّك بالهواء، والماء، والطعام والشراب، أمدّك بزوجة، بمأوى، بأولاد، بخبرات، بحرفة، بمهارات، برزق، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد ؛ دلّك عليه، عرّفك به، جمعك مع أهل الحق، أسمعك الحق وهذه بشارةٌ لك، والدليل:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 23)

ما دام قد أسمعك فأنت أهلٌ لهذا السماع، وهذه بشارة من الله عزّ وجل، فعندما يقرأ الإنسان:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

الله عزّ وجل تفضّل عليهما، منحهما، أعطاهما، أكرمهما، رفع شأنهما، نصرهما على عدوّهما، نجّاهما من فرعون، قياساً على هذه الآية أنت عدِّد النِعَم التي أنعمها الله عليك ؛ جعلك من أبوين مسلمين، في بلدٍ يغلب عليها الصلاح، تُقام فيها شعائر الله عزّ وجل، جعلك محبوباً عند أقرانك، جعل لك أباً وأماً يعطفان عليك، تربّيت في حجرهما، نشأت، ترعرعت، وكلّما تذكّر الإنسان فضل الله عليه ذاب حبّاً لله عزّ وجل، وكلّما رأى مصيبة حلّت بإنسان فيما بينه وبين نفسه ليذكر نعمة الصحة ؛ أن الله أنعم عليه، أكرمه، إن رأيت إنساناً يفقد أحد أعضائه، لقد مَنّ الله عليك.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

ماذا تنتظر ؟ ما الذي يحول بينك وبين أن تصل إلى الله ؟ ما الذي يمنعك عن طاعة الله، الذي خلقك من لا شيء ؟ ولذلك:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

وأنت أيها المؤمن إذا قرأت هذه الآية اسأل نفسك، عدد النعم التي مَنّ الله بها عليك، عدد نعمة الوجود، عدد نعمة الإمداد، عدد نعمة الإرشاد، عدد النعم التي أكرمك الله بها من أجل أن تحبّه، الإنسان لا يكون منصفاً لو أنه تذكر ما ينقصه، في حياة كل إنسان شيء متوافر لديه، وشيء لم يحصل عليه، فالمؤمن ينشغل بما لديه، لا بالذي لم يحصل عليه، يا ثعلبة، كما قال النبي:

((يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))

[تخريج أحاديث الإحياء]

قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يطغيك، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً، ولتعلم علم اليقين أن أعظم كرامةٍ لك عند الله أنه عرّفك بذاتك..

إنه وهمٌ كبير أن يظن الإنسان أن كلمة الرزق تنصرف إلى المال، لا، فالعلم رزق، ومعرفة الله وطاعته رزق، والسلامة والصحة رزق، والعقل في الإنسان رزق، ومأوىً تأوي إليه رزق، والزوجةٌ المؤمنةٌ والأولاد الأبرار رزق، لو وسّعت كلمة الرزق لرأيت نفسك مغموراً بنعم الله عزّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دَقّت.

فإذا أكلت طبقاً من الطعام، تذكرة المرضى الذين يعيشون على السيروم فقط، إذا تحركت في البيت تذكرة المُقعدين، إذا انطلق لسانك تذكرة أناساً بعيدين عن الله عزّ وجل لا ينطلق لسانهم إلا بالباطل، إلا

بالفِتَن، إلا بالانحرافات، إلا بالمعاصي، فحينما تنشغل بالنعمة عن المنعم فهذه هي الغفلة، ولكن المؤمن ينشغل بالمنعم، ينتقل من النعمة إلى المنعم.

لذلك الشكر درجات، حده الأدنى أن تعرف أن هذه النعمة من الله، إذا عرفت أن هذه النعمة من الله فهذا شكر، وإذا امتلأ قلبك امتناناً لله وحمداً له فهذا شكر، وإذا انطلقت إلى عملٍ صالحٍ، تحاول أن تعبر عن شكرك لله عزّ وجل، فهذا شكر، فالمعرفة شكر، والامتنان شكر، والعمل الصالح شكر..

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

(لَقَدْ مَنّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران: من الآية 164)

لا تعرف قيمة الهدى أيها الأخ الكريم إلا حينما تجلس إلى إنسان جاهل يهرف بما لا يعرف، يتكلم في كلاماً كله جهل، كله فسق، كله فجور، كله ضيق الأفق، حينما ترى انحرافاً في السلوك وعدواناً، حينما ترى بغياً وضلالاً، حينما ترى ضلالاً، ترى تقصيراً، حينما ترى الاختلاط، وشرب الخمور، وانتهاك الحُرُمات، والتحدِّي الذي يتحدونه، إذا رأيت مثل هؤلاء الأشخاص تعرف نعمة الهدى والانضباط، نعمة الطهارة والعِفّة، نعمة النظافة الأخلاقية، نعمة الأسرة والاستقامة.

إذاً:

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(114)وَنَجّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

وَنَجّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

كربٌ عظيم، العظيم يصف الكرب بأنه عظيم، العظيم، خالق الكون وصفه بأنه عظيم.

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(114)وَنَجّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

1 ـ لا قِبَل للإنسان بكربِ الله العظيم:

ونعوذ بالله من الكرب العظيم، أحياناً ربنا عزّ وجل لو ساق لإنسان مشكلة واحدة يستنفر فيواجه هذه المشكلة، ولكن إذا شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يبتلي إنساناً بكربٍ عظيم، يأتيه من كل جانب، تارةً من صحته، وتارةً من زوجته، ومن أولاده، ومن عمله، ومما يحيط به، ومن سوداويته، ومن تشاؤمه، ومن انهياره الداخلي، لذلك كلما ابتعد الإنسان عن طريق الحق احتاج إلى كربٍ ليعيده إليه، كلما كان انحرافه عظيماً كان كربه عظيماً.

2 ـ المؤمن يفهم على الله قبل نزول الكرب:

فالمؤمن يفهم على الله، سريع الرجوع إلى الله، كثير التوبة، أوّابٌ، لوّامٌ، المؤمن أثنى الله عليه، وصف نفسه بأنها لوّامة..

(لا أقسِمُ بيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلا أقسِمُ بالنّفْسِ اللّوّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

دائماً يحاسب نفسه حساباً عسيراً، لمَ قلت هذه الكلمة ؟ لمَ نظرت هذه النظرة ؟ لمَ ابتسمت هذه الابتسامة ؟ لمَ أدرت حديثاً ودياً مع امرأةً لا تحلُّ لي ؟ لماذا سكت ؟ لماذا لم أدافع عن أخي المؤمن ؟ لماذا جلست في مجلسٍ يُغتاب فيه، وبقيت جالساً فيه ؟ لماذا لم أقل كلمة الحق، آثرت سلامتي على كلمة الحق ؟ فالمؤمن كثير اللّوم لنفسه، وكل من كان حسابه في الدنيا حساباً عسيراً، كل من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً، كان حسابه يوم القيامة حساباً يسيراً، كل من وسع صراطه في الدنيا ضاق صراطه في الآخرة، وكل من ضيق صراطه في الدنيا اتّسع صراطه في الآخرة، فإذا قلت في كل قضية: هذه فيها فتوى، وهذه بلوى عامة، وهذه الله لا يؤاخذنا بعملنا، وهذه ماذا سنفعل، نحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، وقعت في مشكلة يعطيها فتوى، هذا الذي يحاسب نفسه حساباً يسيراً، عندئذٍ يأتي حسابه يوم القيامة عسيراً.

فهذا الكرب العظيم أيها الإخوة، الكرب العظيم يكافئ الانحراف العظيم، أحياناً طالب يفهم من نظرة، تجده انضبط، لأنه حساس، فيه حياة، قلبه حي، يستحي، يخجل، أستاذه غالٍ عليه، علاقته بأستاذه وثيقة جداً، فلو أن المدرس أعرض عنه قليلاً لهلك هماً وحزناً.

قلت لكم سابقاً: مؤمن استمع من شيخه إلى أن لكل سيئةٍ عقاباً، زلّت قدمه في مشكلة، فيه تقصير، انتظر المصيبة، مر يوم، ويومان، وأسبوع وأسبوعان، فلم يحدث معه شيء، في المناجاة قال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

المؤمن أيها الإخوة، يكفيه أن يشعر أن علاقته بالله ليست كما يرام، أن اتصاله بالله فاتر، إقباله على الله ضعيف، يكفي أن يشعر بهذا الشعور حتى يحاسب نفسه، ويراجع حساباته، ويسأل نفسه: ماذا فعلت؟ ما الذي اقترفت ؟ من أي جهةٍ قصّرت ؟ هذا هو المؤمن.

3 ـ شدّة الكرب بسبب شدة الانحراف:

كلما ازداد الانحراف كان الكرب أكثر شدةً، لذلك هناك أناسٌ لا يعودون إلى الله عزّ وجل إلا بمصيبةٍ تقصم الظهر، فكأن الله ينتظر منا أن لا ننحرف انحرافاً لا يرجعنا إلا الله إلا كربٌ عظيم، مثلاً

أمراض، فإذا شعر الإنسان أنه قد أصابته، لا تقوى رجلاه على حمله، خلافات زوجية، شَرخ في داخل الأسرة، مصائب ضمن الأسرة، في الجسم، في علاقات العمل، أحياناً الإنسان يتورّط ورطة كبيرة جداً فلا ينام الليل، يقول لك: شهر لم أنم الليل، هو في كرب عظيم، ولكن هذا الكرب العظيم يتناسب مع انحرافٍ عظيم، كلما كان الانحراف عظيماً كان الكرب عظيماً، فلا تسلكنّ مع الله طريقاً تحتاج معه إلى كرب عظيم.

في الجسم مرض، ولكنه بسيط، في بواكير المرض يعالج بحبوب، بحمية، لكن لو أهمل نصائح الأطباء، وركب رأسه، وأكل ما يشاء، وتحرك حركة عشوائية كما يحلو له، ولم يعبأ بنصائح الأطباء، وألقى بها عرض الطريق، عندئذٍ يقول له الطبيب: لابدّ من عملٍ جراحي.

لا تتعدّ حدود الله، ولا تأكل مالاً حراماً، ولا تشتط، ولا تعتدِ، ولا تتجاوز حدوده لدرجة أنه لابُدّ من كربٍ عظيم، فإياك أن تصل مع الله إلى طريقٍ مسدود.

أضرب هذا المثل، إنسان ارتكب جريمة، وحوكِم، وحكم عليه بالإعدام، وصُدّق الحكم، وسيق إلى المشنقة، في هذه اللحظة وصل مع القضاء إلى طريق مسدود، لابد من أن يعدم، إن بكى أو توسّل، إن استرسل أو تذلل، وصل مع القضاء إلى طريقٍ مسدود، ولابدّ من نفاذ الحكم.

الذي أتمناه على كل أخ ألا يتورط، ألا يهمل نفسه إلى أن يصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، لابدّ من كرب عظيم، وربنا عزّ وجل إذا أراد أن يعالج يعرف كيف يعالج، من المنطقة الحسّاسة، من المنطقة التي تؤلم، من الشيء الذي يخيف، فأنواع المصائب لا تعد ولا تحصى، أحياناً مصائب وهمية، يتوهّم الإنسان مرضاً خبيثاً أصابه، يعيش أشهراً مُنسحِقاً، ثم يتبين أن الورم غير خبيث، لكن الله قادر أن يوهمك، وقادر أن لا يوهمك، وقادر أن يفعل ما يشاء، فأنت كن معه على حَذَر، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره، الله عزّ وجل يمد للكافرين مداً، فإذا كان الإنسان منساقا مع رغباته من دون رادع، عندئذٍ يحتاج إلى كربٍ عظيم، فسيدنا موسى وهارون:

(وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

4 ـ الكرب العظيم أصاب فرعون:

الكرب العظيم أصاب فرعون، لأنه عتا وطغى، ونسي الجبار الأعلى، قال: أنا ربكم الأعلى، رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، فذبح كل أطفال بني إسرائيل، عتا، وطغى، وبغى، ونسي الجبار الأعلى، نسي المبتدى والمنتهى، عندئذٍ جاءه الكرب العظيم..

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ)

وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ

1 ـ نصرُ الله للمؤمنين يشمل جميع المجالات:

النصر جميل جداً، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، أن ينصرك الله نصراً عزيزاً، نصراً مؤزراً، أن ينصرك على عدوك ؛ أو يتخلى عنك، فيقهرك عدوك، ربنا عزّ وجل مَنّ على موسى وهارون وعلى قومهما.

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ)

طبعاً هنا في المعركة، ونصر آخر على خصم لك في العمل، نِد خبيث يزيد قهرك، إن لم تكن مع الله قهرك وحَطّمَكَ، فإذا كنت مع الله يسوقُ الله الحوادث لمصلحتك، تجده نصرك، لمع نجمك، ارتفع اسمك، علا مقامك، ورفعنا لك ذكرك، ونصر بالدراسة، ونصر بأسرتك، تكون لك الكلمة العليا، لست مقهوراً في البيت، نصر في الدعوة إلى الله عزّ وجل، فإذا كنت ترجو بدعوتك إلى الله رضاء الله عزّ وجل، تجد الله عزّ وجل جعل القلوب تهفو إليك من دون حيلةٍ منك، ولكن بتقدير الله عزّ وجل، علم صدق نيتك فساق الناس إليك.

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ(116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ

1 ـ لابد للإنسان من منهج يسير عليه:

إذا عندك آلة معقدة، بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النَفع، أمتع شيء مع الآلة كتيّب فيه تعليمات الصانع باللغة العربية، حركةً حركة، الآلة غالية عليك، وإنتاجها كبير جداً، وهناك أجهزة دقيقة، يقولون لك: هذا كمبيوتر لتحليل الدم، كل كبسة زر يظهر سبعة وعشرون تحليلاً فوراً على الشاشة، ثم هي مطبوعة، إذا كل كبسة زر ألف ليرة، عندك مائة زبون مائة ألف ليرة في اليوم، أمتع شيء مع الآلة هذا الكتيب الدقيق، هذا الكتاب المستبين، فأنت كآلة معقدة، كتابك هو القرآن الكريم، هذا حرام، هذا حلال، هذا مباح، هذا يغضب الله، هذا لا يرضي الله، هذا مأمور به، هذا منهي عنه، فأروع ما في الحياة أن يكون لك منهج تسير عليه، دستور تعمل به، قانون تنصاع له، توجيه خالق الكون تستجيب له، هذا شيء جميل جداً.

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

فأنا لا أعتقد أن ثمة سعادة أعظم من أن تعيش في الحياة ومعك كتاب الله، ومعك الأمر والنهي، معك الحلال والحرام، معك الخير والشر، معك فلسفة وجودك، فلسفة حياتك، فلسفة ما قبل الموت، فلسفة ما بعد الموت، لماذا أنت في الدنيا ؟ ما حكمة الزواج ؟ ما حكمة تربية الأولاد ؟ هذا الكتاب المستبين، فهذا الكتاب كتابنا المقرر، كتاب خالق الكون، فيه نبأ من قبلنا، خبر من بعدنا، فيه الأمر، فيه النهي، فيه الوعد، فيه الوعيد، فيه طريق الخير، فيه طريق الشر، فيه مواعظ، فيه أخبار السابقين، فيه ما بعد الموت.

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ(117)وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

2 ـ السعادة الدنيوية والأخروية كلها في اتباع كتاب الله:

النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة كان يقول:

((اللهم ألزمنا سبيل الاستقامة لا نحيد عنها أبداً))

[ورد في الأثر]

شيء جميل جداً أن تعرف المنهج وتسير عليه، أن تعرف الحق وتتبعه، أن تعرف الخير وتكون من أهله، وأن تعرف الشر، وتبتعد عن أهله، قال: " كيف أصبحت يا زيد ؟ "، قال: " أصبحت أحب الخير وأهله، وإن قدرت عليه بادرت إليه، وإن فاتني حزنت عليه ؟ "، قال: **" يا زيد، عرفت فالزم، إني لك ناصحٌ أمين "**.

الدعوة إلى الله بالخلق الحسن والعمل الصالح:

لأن الحياة ماضية، أعظم سعادة أن تستيقظ على طاعة الله، أن تتحرك وفق منهج الله، التاجر سعادته كبير جداً لأنه يقول: هذه لا تجوز، لا أبيع ديني، لا أحلف كذباً، لا أبيع بسعرين، لا أرتكب ما حرّم الله، لا أتجاوز حدّي، لا أغش المسلمين، لا أخفي عيباً، انصياعه لأمر الله عزّ وجل صار داعية، وهو لا يدري.

من منا يصدق أن أكبر دولةٍ إسلاميةٍ في العالم هي إندونيسيا، تعدادها مائة وخمسون مليونًا، الأمة العربية كلها من الخليج للمحيط مائة مليون، إندونيسيا مائة وخمسون مليونا، كلها أسلمت عن طريق التجار المسلمين، كانوا دعاةً إلى الله بمعاملتهم، بإنصافهم.

والله لا أبالغ، إن التاجر يقدر من خلال استقامته، وصدقه، وسعره المعتدل، ونصيحته أن يرغِّب الناس في الدين، بأي مصلحة بإمكانك أن تكون أكبر داعيةٍ إلى الله عزّ وجل وأنت ساكت، وهذا اللسان لا ينطق، ولكن العمل ينطق، إذاً:

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ)

3 ـ السكينةُ وتيسير الأمور بابٌ من أبواب نصر الله:

أيضاً حينما تنتصر على عدوك، حينما يمكّن الله لك في الأرض، حينما يرفع شأنك، حينما يعلي قدرك، حينما يمدك بمددٍ من عنده تشعر بالسعادة، أنت تحب الله عزّ وجل، وتخلص له، وتنصاع لأمره، وتحب أحبابه، وتأتي بيته لتنتظر إكرامه، ويشعرك أنه يحبك، وأحياناً الله عزّ وجل يشعرك أنه يحبك من خلال أشياء كثيرة، أحدها تيسير أمورك..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

أحياناً التيسير مُشعِر على أن الله يحبك، أحياناً هذه الطمأنينة التي تعيشها، هذا التوازن، هذه الثقة بالله عزّ وجل، هذا القلب المُتماسك، هذه الأعصاب القوية، هذا من علامات رضا الله عنك.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الفتح: من الآية 26)

هذه سكينة من الله، أحياناً إذا أحبك الله ألقى حبك في قلوب الناس، كلهم يحبونك.

ينادى له في الكون: أنّا نحبه فيسمع من في الكون أمر محبنا

***

إذا أحبك الله ألقى حبك في قلوب الخلق.

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

(سورة طه: من الآية 39)

4 ـ محبة الناس للعبد من نصر الله له:

شيء رائع جداً أن يحبك الناس، أن تكون محمود السيرة، أن يلهج الناس بالثناء عليك، أن يعاملوك معاملة طيبة كلها المحبة، والتقدير، والإكرام، والتبجيل، هذا من حب الله لك.

أحياناً، وهذا من أرقى أنواع الحب أن يعرفك بذاته، تشعر حينما تعرف الله عزّ وجل أنك إنسان آخر، لا كبراً ولا استعلاء، ولكنه شعور بالتميُّز، هذا غارقٌ في حب الدنيا، وهذا مقبورٌ في شهوته، وهذا

محاصرٌ في تجارته، وهذا تستحوذ عليه مشكلاته فإذا هي تستهلكه لا يستهلكها، المؤمن عظيم عند الله عزّ وجل، فحياته مقدسة، عمره ثمين، كيف لا وقد أقسم الله جل جلاله بعمر النبي، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

الله عز وجل أقسم بعمر النبي، وقياساً على هذا أنت أيضاً عمرك ثمين، لا تنتهي حياتك هكذا ببساطة، تنتهي حياتك وأنت معزز، وأنت مكرّم، لك دعوة إلى الله عز وجل، النبي متى توفّاه الله ؟ حينما نظر إلى أصحابه قبل أن يموت، فابتسم حتى رئيت نواجذه، قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

الدعوة إلى الله مطلبُ كل مسلم:

أصحاب الرسالات لا يميتهم الله عز وجل إلا بعد أن يحقق لهم أمانيهم في الحياة، فإذا كان مطلبُ الإنسان كبيرا وهدفه نبيلا فالله عز وجل يجعل حياته مقدّسة، يجعل عمره ثميناً، هو ينشغل بنشر الحق، بنشر الفضيلة، ويرى ثمرة عمله قبل أن يموت، فالنبي الكريم ما رئيت نواجذه من قبل من شدة فرحه قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

وأنت أيها الأخ أحياناً تمضي عشر سنوات بمسجد، كل يوم تحضر مجلس علم، جلسة في الصباح وأخرى في المساء، وكل هذا يتراكم، هذه كلها لوائح شرف بحقك، بين طرفة عين وأخرى تجد نفسك مؤمناً داعياً إلى الله، الله أجرى على يدك الخير، أطلق لسانك، جعلك منار هدى، جعلك باباً للخير، جعل الخير يجري على يديك، فالإنسان إذا أتى بيت الله عز وجل لا ينسى الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

فربنا عزّ وجل قال:

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)

كتاب واضح..

(وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

لابد بعد معرفة الحق من العمل به:

إذاً: يا رب هاتان نعمتان ؛ أن تعرف الحق، وأن تتبع الحق، أن تعرف الهدى، وأن تتبع الهدى، أن تعرف الحلال، وأن تعمل به، أن تعرف الحرام، وأن تبتعد عنه، الروعة لا في معرفة الحق، بل في تطبيق الحق، لذلك بونٌ شاسعٌ بين أن تعرف وبين أن تعمل، وبين الحق والباطل أربع أصابع ؛ الباطل أن تقول: سمعت، والحق أن تقول: رأيت.

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ

الثناءُ العطر بعد الموت:

مثلاً: هؤلاء الطغاة، هؤلاء الجبابرة في الأرض، إلى آلاف السنين كلما ذُكروا يُلعَنون، فالحرب العالمية حرب ذهب ضحيتها خمسون مليون إنسان، الذي ألقى على بعض المدن قنابل ذرية، الطغاة مثل تيمورلنك هؤلاء الذين هم جبابرة في الأرض، هؤلاء كلما ذُكروا يُلعَنون، بينما الأنبياء كلما ذكروا يصلى عليهم، لا أعرف كم مرة يذكر النبي في العالم الإسلامي في اليوم، ومع كل مرةٍ صلى الله عليه وسلم، تحس أن هذا الإنسان قدّم كل شيء، أعطى كل شيء، ولم يأخذ شيئاً، أعطانا الهُدى، أعطانا المنهج، أعطانا السبيل الصحيح، أعطانا الدستور، كان أرحم بنا من أنفسنا، جمعنا، إذاً:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

الثناء العطر..

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

في الأجيال اللاحقة، يضرب يوسف العظمة مثلاً، ويثني عليه، كان وزير دفاع، وجاءت فرنسا إلى هذا البلد، والجيش السوري لا يكافئ أبداً الجيش الفرنسي، ولكن أبى عليه شرفه العسكري أن يستسلم، فذهب إلى ميسلون وقاتل، أعداؤه احترموه، كلما ذكر الآن يُذكر بالتعظيم والتبجيل، فانظر إلى الذكر الحسن، هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى كي لا يرى في جلسة الأغراب أشعر هذا بعمل رفع الله له

ذكره، ومؤمن دعا إلى الله عز وجل ؛ ترك آثارا طيبة، ترك هدى، بنى نفوساً بناء صحيحاً، عرفها بربها، حملها على طاعة الله عزّ وجل، هذا عمل عظيم.

لذلك صنعة الأنبياء أن يستخدمك الله في هداية الخلق، وأنت بعملك، باستقامتك، بسمتك الحسن، بحيائك، بتواضعك، بعفتك، بانضباط لسانك، تكون قدوة للآخرين، في عملك، في بيتك، مع جيرانك، مع إخوانك في الجامع، فلذلك:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)

الذكر الحسن، الثناء الطيّب، الحمد.

قال لي أخ تاجر: كنت على وشك الإفلاس، أحد أصحاب الديون جاءني إلى موقع العمل، طالبني بشدة، فدعوته إلى طعام الغداء في البيت، بيتي صغير مساحته خمسة وثلاثون متراً، فلما رأى بيتاً بهذا الضيق قال: إنسان يسكن بهذا المكان مستحيل أن يأكل مال الناس، مزق السندات، وقال له: تعال وخذ بضاعة، وبعها ثم ائتني بالثمن، وأي إنسان لم يبعك أخبرني أنا أقنعه، والقصة من ثلاثين سنة، كلما ذكرها يذكره بالخير، قال لي: أنهضني من كبوتي، وأعانني على دنياي.

قلت في نفسي: شخص من ثلاثين سنة كلما ذكره يذكره بالخير، هذا الإيمان، إذا كان له عمل طيّب، لو توفاه الله، يلهج الناس بهذا العمل طول الحياة وطول الزمن، هذا معنى:

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ(119)سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

قانونٌ عامٌ: جزاء المحسنين:

روعة الآية، هذه ليست قصة، هذا قانون، هذا ليس لسيدنا موسى وهارون، لا لك أنت، يا من تجلس في هذا المجلس، يا من تجلس في هذا المسجد، ويا من تقرأ هذه الكلمات أو تسمعها، قال تعالى:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

إن أحسنت هكذا نجزيك، ننجّيك من الكرب العظيم، ننصرك على عدوك، نؤتيك الحق، نعينك على تطبيقه، نلقي عليك ثناء حسناً وذكرا طيباً، قال:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

خلاصة الدرس:

أيها الإخوة الأكارم... أتمنّى مرةً ثانية على الله عز وجل أن تضعوا أيديكم على دقة هذه الآية:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

هذه الميّزات، يكون كرب عظيم الله ينجيك منه، كرب عظيم لا يبقي ولا يذر، يحرق الأخضر واليابس، تنجو منه أنت بأعجوبة ؟! أن تتعرف إلى الحق، وأن يعينك على تطبيقه، أن تعرف المنهج وأن تطبقه، وأن ينصرك في كل الميادين على أعدائك، دائماً أنت متفوق عليهم، ولك العز والشأن، أن يكون لك الذكر الحسن والطيب في الناس، يلهج الناس بالدعاء لك، والثناء عليك.

أن تنجو من الكرب العظيم، وأن تنتصر على أعدائك، نصراً عزيزاً مؤزّراً، وأن يؤتيك الله الحق، وأن يعينك على تطبيقه، وأن يبقي لك ذكراً حسناً، هذا في متناول يدك، والثمن شيء واحد وهو: الإحسان.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

الإحسان على إطلاقه، المستقيم محسن، أن تؤدي ما عليك محسن، أن تتقن عملك محسن، أن تكون صادقاً محسن، الإحسان بأوسع معانيه، فالنصر على العدو، والنجاة من كل كرب، ومعرفة الحق، والعمل به، والذِكر الحسن، هذه هي الأهداف الكبرى، هذه في متناول يديك، ثمنها بسيط تملكه: كن محسناً ؛ مع صديقك، مع عدوّك، مع كل مخلوق، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم]

هذا إحسان، والإساءة ما يفعله بعض الناس، يذبحون الدجاج ويضعونها في الماء المغلي، وهي لا تزال تتحرّك، هذه إساءة بالغة لمخلوق أكرمك الله به، تعذبه ؟! النبي الكريم رأى رجلاً يذبح شاةً أمام أختها فغضب، قال عليه الصلاة والسلام:

((أتريد أن تميتها مرتين ؟ هلاّ حجبتها عن أختها ؟!))

[ورد في الأثر]

إذاً: النصر على العدو، وهو شيءٌ ثمينٌ جداً لا يعرفه إلا من فقده، القهر، الهزيمة، عدوّ يستعلي عليك، يشمت بشيء لا يحتمل، أن تنتصر على عدوك، وأن ينجيك الله من كل كربٍ عظيم احتماله فوق طاقة البشر، وأن يؤتيك الحق، وأن يعينك على تطبيقه، وأن يدع لك ذكراً حسناً في الناس، كل هذه المكاسب العظيمة بين يديك، ثمنها الإحسان، فأجمل ما في هذه القصة قول الله عزّ وجل:

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

كن محسناً في عملك، وفي بيتك، ومع كل مخلوق.

(إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

فإذا كنت مؤمناً محسناً فكل هذه الخيرات بين يديك، كل هذه العطاءات في متناول، يدك.

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصة سيدنا إلياس.

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

إلى آخر الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (11-14): تفسير الآيات 123 - 132
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-11-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الصّافّات، ومع الآية الثانية والعشرين بعد المائة من السورة نفسها.

(وَإِنّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

وَإِنّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ

1 - إلياس رسول نبيّ:

قال العلماء: إلياس إنه إليا، أرسله الله إلى قومٍ في بلادنا ـ في سوريا ـ وكانوا يعبدون صنماً اسمه بَعْل، وبعلبك فيها هذا الصنم، هؤلاء عبدوا من دون الله صنماً لا يسمع، ولا ينطق، ولا يتحرّك، ولا ينفع، ولا يضُر.

(وَإِنّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

و من هنا للتبعيض، فإرسال المرسلين يدلُّ على رحمة الله عزّ وجل.

2 - مع مقومات التكليف إنزال الكتب وإرسال الرسل:

أتمنّى أن أوضّح لكم هذه الحقيقة قبل أن نتابع الحديث عن هذا النبي الكريم: الله عزّ وجل حينما خلق الإنسان أعطاه عقلاً يهديه إلى الله عزّ وجل، وفطره فطرةً تكشف له خطأه، وسخّر له كوناً معجزاً يدلُّه عليه، أعطاه حريّةً كي يتحرّك ليكون عمله ثميناً، أودع فيه شهوات ليرقى بها إلى ربِّ الأرض والسماوات، هذه المقوّمات، بعقله، وبفطرته، وبالكون، وبالشهوة، وبالحريّة، وبالقدرة التي تبدو أنه يمتلكها بإمكانه أن يصل إلى الله جلّ جلاله، وفوق هذا وذاك أنزل الكُتُبَ، وبعث الأنبياء، الكتب والأنبياء رحمةٌ من الله عزّ وجل..

(لَقَدْ مَنّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران: من الآية 164)

أضرب مثلاً أقرب الفكرة وأبسطها: أب وضع ابنه في أرقى مدرسة، ودفع له أعلى قسط، وأعطاه كل الحاجات، وأمدّه بكلِّ النفقات، وهيّأ له جواً دراسياً كاملاً، وفوق وهذا وذاك كلّف أستاذاً ليعطيه درساً خصوصياً، هذا معنى الآية ؛ العقل يكفي، الفطرة تكفي، الكون يكفي، أفعال الله التي نراه رأي العين تكفي، كلُّ شيء يكفي، وفوق كل هذا وذاك أرسل الله الأنبياء، وأنزل الكُتب، ليكون الكتاب ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة.

وشيءٌ آخر، كل الأنبياء الذين قصّ الله علينا قصصهم ليسوا جميع الأنبياء، هم بعض الأنبياء..

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر: من الآية 78)

فما من بلدٍ، ما من قومٍ، ما من أهل قريةٍ، ما من قارةٍ، ما من عصرٍ، ما من مصرٍ إلا وله نبيٌّ مُرْسَل، فهؤلاء الذين عاشوا في سوريّا، وأنشؤوا هذه الآثار في بعلبك، وعبدوا صنماً من دون الله اسمه بَعْل، هؤلاء مَنّ الله عليهم إذ بعث فيهم نبياً اسمه إلياس، باللغة العِبرانيّة إليا..

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

3 ـ مع كلِّ نبيِّ منهج ومعجزة:

لكن دائماً النبي حينما يُرْسَل يأتي بمنهج، هذا المنهج من شأنه أن يَحُدّ من شهوات الإنسان، هؤلاء الذين عبدوا شهواتهم من دون الله، هؤلاء الذين حقّقوا مكاسب من تفلّتهم من منهج الله، هم أعداءٌ طبيعيون لهؤلاء الأنبياء، فأول كلمةٍ يتكلّمون بها حينما يدعون إلى الله ورسوله يقولون: هذا ليس رسولاً، إنه كذّاب، فكيف يواجه النبيُّ دعوى قومه بكذبه ؟ لابدّ من معجزة.

لكن هناك شيءٌ دقيقٌ جداً في المعجزة، أن الله جلّ جلاله جعل هذه المعجزات الحسيّة لمن عطّل فكره، فالذي يؤمن بالمعجزة الحسيّة هو إنسان أدنى مرتبةً ممن يؤمن بالكون كمعجزة ثابتة ودائمة، فلذلك المعجزات الحسيّة تأتي حينما يُعَطِّل الإنسان عقله ولا يفكِّر، أما إذا فكّر فيكون الكون أقوى معجزة، وأكبر دليل.

فنحن أيها الإخوة محاطون بملايين ملايين المعجزات، لكن الكون بعظمته هو المعجزة، يؤيّد هذا ماورد في الأثر::

((حسبكم الكون معجزة))

[ورد في الأثر]

الإنسانُ نفسُه معجزة !!!

الطفل كيف يولد ؟ هذا الماء المَهين، ثلاثمائة مليون حوين في اللقاء الزوجي، الحوين الواحد ؛ غشاء، هيولى، نويّة عليها مورّثات، هذه المورّثات فيها ـ دقِقوا في الرقم ـ خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، هذه المورّثات حتّى الآن اكتُشِفَ من هذه المورّثات ثمانمائة مورّث، ما من صفةٍ في جسم الإنسان إلا وقد خَطّطَ لها مورّث، بالوقت المناسب، فخلق الإنسان معجزة، عينه معجزة.

البارحة رأيت شيئاً يوضع عليه الثياب له اسم خاص ـ المانيكان ـ له قاعدة استناد كبيرة جداً، الإنسان كيف يستقر ؟ كيف يقف على قدمين صغيرتين دقيقتين ؟ لابدّ من توازن، لابدّ من جهاز بالغ التعقيد في الأذن، ثلاث قنوات فيها أهداب، وفيها أشعار، وفيها سائل، فإذا مال قليلاً ارتفع السائل، بحسب استواء السائل، وعدم تأثُره بالميلان، ونبّه بعض الأشعار، فشعر الإنسان بالميل نحو جهةٍ، فيصحّح استقامته، جهاز معقّد جداً، فأنت محاط بآلاف آلاف الأجهزة، والمجال لا يتسع..

أنت الآن تتكلّم، كل حرفٍ من حروف الكلمة يسهم في تشكيله، أو النطق به سبع عشرَة عضلة، فالكلمة خمسة حروف، وكل حرف تساهم فيه سبع عشرة عضلة، في إلقاء خطبة كم من الجهد، وكم من التعقيد؟

الأعصاب، لا شك أن الإنسان إذا فكّر في جسمه يُدْهَش، وفي جسم الإنسان آياتٌ بيّنات دالّة على عظمة الله عزّ وجل. إذاً:

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(123)إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ

1 ـ معنى: تتقون:

تتقون فعل مضارع ماضيه اتّقى، واتقى فعل مزيد مجرّده وقى، فالإنسان كيف يقي نفسه المخاطر ؟ الحياة كلُّها مخاطر، وأكبر خطرٍ فيها انتهاء الحياة، الإنسان حينما يغفل عن الموت يتحرّك بلا وعي، لكن حينما يقع في قبضة الله عزّ وجل في ساعةٍ عصيبة..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9))

(سورة المدثر)

هذه الساعة، الأذكياء والعقلاء يعملون لهذه الساعة، يجعلون من هذه الساعة عُرْساً وفرحة، وبداية لحياةٍ سعيدة، والأغبياء يعتنون بدنياهم، ويهملون آخرتهم..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُور(8))

كانت الخسارة كبيرة جداً، فلذلك:

(أَلَا تَتَّقُونَ)

2 ـ اتقوا غضب الله وسخطه:

ألا تتقون الشقاء بطاعة الله ؟ ألا تتقون المصائب بالاستقامة على أمر الله ؟ ألا تتقون الدمار ؟ ألا تتقوا المرض ؟ ألا تتقون الفقر، هناك علاجاتٌ في الدنيا وعلاجاتٌ في الآخرة، بشكلٍ أو بآخر عذابات الدنيا أهون بكثير من عذاب يوم القيامة، لذلك قال الله عزّ وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

كلُّ العذابات في الدنيا عذاباتٌ دُنيا، عذاباتٌ صغرى، لكن العذاب الأكبر حينما يشعر الإنسان أنه خَسِرَ نفسه، الإنسان يخسر ماله، يخسر أولاده أحياناً، يخسر زوجته، يخسر مكانته، تخدش كرامته، يخسر حقوقه المدنيّة أحياناً ؛ لكن هناك أمل أن يقف مرَّةً ثانية، لكن الخسارة الحقيقيّة حينما يخسر الإنسان نفسه يوم القيامة، هذه أشدُّ أنواع الخسارة، وقالوا: أشدُّ خسارةٍ هي الخسارة التي ليس بعدها ربحٌ ولا فوز، خسارة مطلقة، خسارة حتميّة، خسارة نهائيّة..

(أَلَا تَتَّقُونَ)

ألا نرى أن الله جلّ جلاله يعالج الناس معالجات ؟ أحياناً يبثُّ الرعب في قلوب الناس، ثلاثة هزّات في يوم واحد، من دون تهديم، ولكن ماذا فعلت في النفوس ؟ فعلت فعلاً مخيفاً، دفع الناس إلى أن يتجهوا نحو الطُرُقات والشوارع، الله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)

(سورة الحج)

ما مِن شيء أغلى على الأم من ابنها إطلاقاً، ومع ذلك لشدّة هول هذه الزلزلة تذهل المرضعة عما أرضعت، تُلقي ابنها، وقد سمعت قصصاً كثيرة عن الفزع والرُعب الذي أصاب من ابتلاهم الله بالزلازل، خوفٌ ما بعده خوف، تنطلق المرأة خارج المنزل من دون ثياب، بثياب النوم، وهي لا تدري من شدّة الفزع..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

3 ـ النجاة من المصائب من فضل الله على المؤمنين:

الله يحمينا، فهل هناك شيءٌ أثبت من الأرض، الإنسان يخاف من الجو، يخاف من البحر، يخاف من المرض، يخاف من فقر، يخاف من سجن، يخاف من المسؤوليّة، من ورطة، أما أنه جالس في بيت مستقر، بيت من إسمنت مسلّح، ومرتاح، ومرتب ومزين ومؤثث، في تسع وخمسين ثانية يصبح هذا البيت أنقاضاً من الإسمنت المطحون ؟! فذلكم الله رب العالمين.

لا ضمانة إلا ضمانة واحدة: أن يشاء الله لك السلامة، ولن يشاء الله لك السلامة إلا إذا كنت على منهجه، لقوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذا كلام واضح كالشمس، دقِق في هذه الآيات، ما من مصيبةٍ أعظم من أن يجد الإنسان نفسه فجأةً في بطن حوت، ظلمة بطن الحوت، مع ظلمة الليل، مع ظلمة البحر..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

سمعت في الأخبار أن رجلاً بقي تحت الأنقاض ثلاثاً وثمانين ساعة ونجّاه الله عزّ وجل، ثلاثاً وثمانين ساعة بقي تحت الأنقاض، وإلى جانبه امرأته وقد ماتت، وأمه وقد ماتت.

إذاً: الله عزّ وجل الله قادر أن ينجي الإنسان، لذلك النجاة في نصّ القرآن الكريم من فضل الله على المؤمن..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(61))

(سورة الزمر)

الحياة كلُّها أخطار، أخطار اجتماعيّة، أخطار اقتصاديّة، أخطار صحيّة، أمراض معدية وسارية، أوبئة، تضخُّم نقدي، كساد تجارة، إفلاس، أما أرض مستقرّة تهتزُّ من تحت أقدامنا، فإذا كل شيءٍ كالأنقاض ؟! هذا شيءٌ مخيف، كيف نتقي الزلازل ؟ كيف نتقي الصواعق ؟ كيف نتقي الفيضانات ؟ كيف نتقي الحروب الأهليّة ؟ كيف نتقي الأمراض المُخيفة المُرعبة ؟

قد يكون الإنسان في أعلى درجة من الصحة فيصيبه مرضٌ مخيف، ماذا يفعل ؟ وقد يكون ملكاً، إنه في قبضة الله عزّ وجل، فالإنسان معرّض إلى معالجات، لا ينجيه من عذاب الله إلا أن يكون على أمر الله، لا ينجيه من عذاب الله إلا أن يكون مستقيماً على أمر الله، لذلك قال تعالى:

(وَإِنّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(123)إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتّقُونَ)

أنا أقول لكم كلاماً واضحاً كالشمس: والله ما منّا واحد، وأهل هذه البلدة، وأهل كل البلاد، وكل من يدبُّ على وجه الأرض يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، يحب ذاته، يحب أن يكون صحيحاً، غنياً، سعيداً، يحب الرفاه، يحب أن يعمر طويلاً، هكذا الإنسان، هذه الأشياء التي فُطِرْتَ عليها لا تكون إلا بطاعة الله.

هناك قصّة أذكرها كثيراً: عالِم من علماء دمشق الذين اختاروا تربية الأجيال، عاش ستاً وتسعين سنة، وكان منتصب القامة، حادّ البصر، مُرهف السمع، أسنانه في فمه، وقد أمدّ الله بعمر زوجته فعاشت معه، ولم يفتقدها ولا ساعة، وكان إذا قيل له: يا سيدي، ما هذه الصحّة التي أكرمك الله بها ؟ يقول: **" يا بني، حفظناها في الصِغَر فحفظها الله علينا في الكِبَر، من عاش تقياً عاش قوياً ".**

أنتم أيها الشباب، أيها الكهول اتقوا الله، قبل أن تتحرّك ما الذي يرضي الله عزّ وجل ؟ ما أمر الله عزّ وجل ؟ الذي يسعدني أن أكون في طاعة الله، فإذا حفظت الله يحفظك الله عزّ وجل..

((يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

[سنن الترمذي عَن ابْنِ عَبّاس]

لذلك كلمة..

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(36))

(سورة التوبة)

هذه كلمات يذوب القلب لتفسيرها، أي إن الله معك بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق، ولا طعم أطيب من التوفيق، التوفيق في عملك، لا طعم أطيب من الحفظ..

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من الآية 48)

ألا تحب أن تقطف كل هذه الثمار ؟ كل إنسان يتمنى أن يوفّقه الله عزّ وجل، الخسارة صعبة جداً، مؤلمة جداً، مدمِّرة، الإحباط، أن تسعى سعياً حثيثاً، ثمّ تبوءُ بالإخفاق، أن تسير في طريقٍ مسدود، في منعطفٍ مدمِّر، في منزلق، لكن المؤمن في عين الله عزّ وجل، لذلك المؤمنون الله عزّ وجل قال على لسانهم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من الآية 51)

هل من سعادةٍ أعظم من أن تشعر بالطمأنينة ؟ إن الله يعطي الذكاء والجمال والمال والقوّة للكثيرين من عباده، ولكنّه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين..

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)

التقوى أي أن تطيع الله عزّ وجل، أن تتقي غضبه بطاعته، أن تتقي الشِرك بالتوحيد، أن تتقي الكفر بالإيمان، أن تتقي المرض بطاعة الله، أن تتقي قلّة الرزق بالاستقامة على أمر الله.

هل هناك من أسباب تنمي الأرزاق ؟

هل هناك من أسباب تنمي الأرزاق ؟ نعم، في القرآن الكريم:

الاستقامة:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

الإيمان والتقوى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من الآية 96)

فالاستقامة تنمي الأرزاق.

الصدقة:

والصدقة تنمّي الأرزاق..

((استنزلوا الرزق بالصدقة))

[الجامع الصغير، وفي سنده ضعف]

الأمانة:

والأمانة تنمِّي الأرزاق، الأمانة غنىً، أثمن شيءٍ تملكه أن يثق الناس بك، الأمانة غنى.

الإتقان:

والإتقان، إتقان صنعتك تنمي الرزق، فحينما يتقن الإنسان عمله، وإذا فترت الأسواق وبارت فالمتقنون لا يتعطّلون، عليهم طلب شديد، أما الدرجة الثانية والثالثة والرابعة فيصبحون بلا عمل، فالإتقان أحد أسباب تنمية الأرزاق.

بر الوالدين:

برُّ الوالدين أحد أسباب الرزق.

برُّ الوالدين، الإتقان، الأمانة، الاستقامة، الصدقة، هذه كلُّها تنمي الأرزاق، وقوانين.

القرآن قوانين ثابتة:

فأنت حينما تتعامل مع الدين لا على أنه تبريكات، وتهويمات، وطقوس، وكهنوت، لا، إذا تعاملت مع الدين على أنه قوانين، على أنه مقدّمات ونتائج، على أنه قواعد ثابتة، على أنه سُنَن محكمة، فالقضيّة سهلة جداً، التعامل مع القانون مريح جداً، هذه المقدّمة تؤدي إلى هذه النتيجة.

والله أنا أتمنى على كل أخ منكم إذا قرأ القرآن أن يكشف القوانين.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

كلام خالق الكون، من يمنعه من تحقيق وعده ؟ خالق الكون وعدك، قال لك: اعمل عملاً صالحاً، استقم، تعرّف عليّ أولاً، استقم على منهجي، واعمل أعمالاً صالحة، وأنا سأحييك حياةً طيّبة بأي ظرف، بأي مجتمع، ظروف معقّدة، غير معقّدة، قبل الحرب، بعد الحرب، أزمان اقتصاديّة خانقة، فالوعد فوق كل هذه الظروف، لك عنده حياةٌ طيّبة..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: من الآية 124)

جرّب، لا أحد يسعد على وجه الأرض وهو معرضٌ عن ذكر الله، هذا شيء مستحيل..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

اقرأ القرآن على أنه قوانين، وسُنن، وقواعد، المقدِّمات تؤدي إلى هذه النتائج، وكل إنسان يحب ذاته، وربما تنجح بعملك، تنجح بزواجك، تنجح بصحّتك، تنجح في علاقاتك الاجتماعيّة، تنجح في معرفة الله عزّ وجل، ممكن تشعر أنك تتحرّك وفق المراد الإلهي.

(أَلَا تَتَّقُونَ)

قيل: **" قِوام المرء عقله "**، فكلّما نما العقل، الإنسان عقلٌ يدرك وقلبٌ يحب، وأرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً.

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا)

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ

1 ـ أَتَدْعُونَ بَعْلًا

بعلاً أي صنما ؛ لا يتكلّم، ولا يسمع، ولا يُبصر، ولا يتحرّك، ولا يقوى على شيء، فهذه الأصنام الآن ليست موجودة، لكن أنت عندما تعتمد على إنسان تراه قوياً فهذا نوع من الشرك..

2 ـ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(3))

(سورة الأعلى)

الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

هل هناك خالقٌ غير الله ؟ فلماذا قال: أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ؟

أيها الإخوة، ليس هناك إلا خالقٌ واحد، لكن أحياناً يسمّى الشيء بحسب مفهوم الناس، الله عزّ وجل قال:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

(سورة النساء: من الآية 5)

فالله عزّ وجل عزا الرزق إلى الإنسان، مع أن الله جلّ جلاله هو الرزّاق ذو القوّة المتين، ولا رازق سواه، فكيف يقول:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

أحياناً الله عزّ وجل بحسب مفهوم الناس، بحسب تصوُّراتهم أن فلان ينفق على فلان، فلان يطعم فلاناً، والناس أحياناً يقولون: هذا صمَّم هذه الآلة، هذا صمَّم هذا البناء، هندسته، تصميمه على الورق، فهذا يسمَّى تجوّزاً خالق، يقول لك: الخَلق والإبداع.

بالمناسبة الله عزّ وجل لكرامة الإنسان عليه ـ دقِقوا ـ لكرامة الإنسان عليه أعطاه من أسمائه الشيء الكثير، فالإنسان فرد لا ثاني له، حسب البحوث الحديثة الإنسان له قُزحيّة لا يشترك بها إنسان آخر في العالَم، إذا في خمسة مليارات إنسان في العالَم، كل قزحيّةٍ لها شكلٌ متميّز، هذا يؤكِّد فرديّته، الإنسان له رائحة خاصّة لا يشركه فيها إنسان في العالَم، الإنسان له تركيب دم خاص، الإنسان له بصمة خاصّة، الإنسان له نبرة صوت خاصّة، هذا من فرديّته ومن تكريم الله له.

والله عزّ وجل أعطى الإنسان حريّة الاختيار، الله عزّ وجل مُريد، وجعل عبده تكريماً له مريداً، أنت مُنِحْت حريّة الاختيار، شاءت مشيئة الله أن تكون ذا مشيئة، هذا تكريم ثانٍ، أنت فردٌ لا ثاني لك، ومريدٌ، ولست مقهوراً.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من الآية 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: من الآية 148)

وشاءت حكمة الله أن يصمِّم الكون تصميماً يتيح لك فيه أن تُبْدِع، أبدعوا بالنباتات الهجين، أبدعوا بتهجين الحيوانات، أبدعوا أشياء كثيرة، هذا بإذن الله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل تكريماً للإنسان صمّم الكون تصميماً يتيح للإنسان أن يبدع.

ومن باب التكريم أيضاً أنه سمح لك أن تشرّع، الله عزّ وجل كان كلامه في بعضه احتمالياً، ظني الدلالة، فالعلماء اجتهدوا واستنبطوا من هذه الأحكام الظنيّة أحكاماً فقهيّة، فصار الإنسان مشرّعاً، لأن الأحكام الإلهيّة بعضها ظني، لذلك قَبِلَ الله أن يتعبّدنا باجتهاد العلماء، الإنسان فرد لا ثاني له، والإنسان مريد، والإنسان مشرِّع، والإنسان مبدع.

والإنسان بهذه الآية الكريمة يرزق، يعطي الله الرزق للأب الأب فينفق على أولاده، فيما يبدو لهذه العين الأب رازق، يكسب المال وينفقه على ؛ أولاده، وزوجته، وأخواته العوانس.. وإلخ، فالإنسان فرد، ومريد، ومشرّع، ومبدع، ورازق، هذه صفات الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء: من الآية 70)

هذا التكريم. إذاً:

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)

مثلاً: هل طرأ على الإنسان تعديل منذ أن خُلِق ؟ فهذا يعني أن خبرة الله عزّ وجل خبرة قديمة، الإنسان خبرته متجدِّدة، خبرته حديثة، تتكامل، تتنامى، والدليل: ضع أمامك سيّارة مصنوعة سنة ألف وتسعمائة، كانوا يشعلون المصابيح بالزيت، ويشغِّلونها من أمام بالمنويل، والدواليب مصبوبة صباً من دون نفخ، وكانت التنقيلة واحدة فقط، ومكشوفة، ضع أمامها سيارة من الماركات الحديثة جداً، فما هذا ؟ الفرق من الأرض إلى السماء، ماذا نفهم من ذلك ؟ نفهم أن خبرة الإنسان حديثة، وتتنامى، الإنسان شيء، والخالق شيء، أما الإنسان فما فيه نقطة ضعف الله تلافاها بالخلق التالي.

الإنسان يحمل ابنه من يده، فمدروس دراسة دقيقة، الأربطة في الكتف مصمّمة لتحمل الجسم بأكمله، وأحياناً يشدّ بعنف، هذه الشدّة تضاعف المقاومة، المعنى، أن الأربطة تتحمّل هذا الجسم، فالإنسان مصمّم تصميماً رائعاً، هل طرأ شيء عليه ؟

لي مأخذ على ما يقال: أن في الإنسان زائدة دوديّة، الأصح أن نسميها ذائدة، أي مدافعة، الذائدة الدوديّة، لأنه حاشا في خلق الله عزّ وجل أن يكون في جسم الإنسان عضوٌ زائد، كمال مطلق، مبرمج.

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(125)اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ)

فهو الرب، المُمِد بكل شيء..

(فَكَذَّبُوهُ)

فَكَذَّبُوهُ

لماذا كذّب الناسُ الأنبياءَ ؟

لماذا كذّبوه ؟ لأن منهج الرسل منهجٌ يقيّد الإنسان في حركته، الإنسان بلا منهج رباني كالدابّة، أما المؤمن فمُقيّد، القرآن يقيّده، والقيَم تقيّده، وإيمانه يقيّده، وخوفه من الله يقيّده، وتصوُّر الآخرة يقيّده، فالإنسان كلّما ارتقى تقيّد، هذا الذي يقول ما يشاء، ويفعل ما يشاء، ويأكل ما يشاء، ويذهب إلى حيث يشاء، وينام مع من يشاء، هذا إنسان متفلت، أما الإنسان المؤمن فمقيّد، قيّده الشرع عن كثيرٍ من هوى نفسه..

(فَكَذَّبُوهُ)

لأن منهج الأنبياء تعارض مع شهوات الكفّار، لذلك الإنسان قد يستغرب الإقبال الشديد على المذاهب الوضعيّة، لماذا ؟ لأنه ليس هناك منهج يحدُّ من حركتهم، افعل ما تشاء، وكل ما تشاء، وخذ من الأموال ما تشاء، ومتِّع شهواتك بمن تشاء، وتكلّم ما تشاء ؛ أعلن ولاءك لهذه الجهّة فأنت منها، القضيّة سهلة جداً، أما النبي عليه الصلاة والسلام فيقول:

((والله لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيّاً))

[ورد في الأثر]

والله عزّ وجل قال:

(وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

موالاة الله عزّ وجل تحتاج إلى انضباط، أما موالاة غير الله عزّ وجل فتحتاج إلى صُراخ.

(فَكَذّبُوهُ فَإِنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

فَكَذّبُوهُ فَإِنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

1 ـ قضية الإيمان قضية وقت فقط:

المشكلة أقولها لكم كثيراً: المشكلة ليست أن تؤمن أو أن لا تؤمن، لابدّ من أن تؤمن، ولكن المشكلة أن تؤمن بعد فوات الأوان، فأنت دائماً مُحْضَر، بأي لحظة في قبضة الله عزّ وجل، كلّما توفي أحد، فأتمنّى على الإنسان أن يسأل: كيف توفّى ؟ الذين جلسوا معه قبل يوم من وفاته كانوا يسمعونه وهو يخطط لعشرين سنة قادمة، سيفتح محلاً، يؤسِّس شركة، يسافر لأوروبا، يعمل، يتزوّج، كيف اختُطِف ؟ كيف صار في قبضة الله فجأةً ؟ مهما كان الإنسان عظيما، بمرض صغير في جسمه يجعله يستسلم، ويجعله يبكي.

2 ـ كل إنسانٍ في قبضة الله:

إذاً: نحن جميعاً في قبضة الله عزّ وجل، نحن نشبه كائنًا حيًّا مربوطا بحبل متين، الحبل مرخًى، هذا الكائن عندما وجد أن الحبل مرخى ظنّ أنه لا يوجد حبل، ظنّ نفسه حراً، فتحرّك حركات عشوائيّة،

تطاول، وتجاوز الحدود، لكن الحبل مرخى، وفي أي ثانية يُشَدُّ الحبل فهو في قبضة الله عزّ وجل، ما دام المصير في قبضة الله، كيف نعصيه ؟ كيف ننسى ؟ كيف نتجاوز الحدود ؟

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

فالإنسان ضمن بلده أين سيهرب ؟ يريد السفر، فليمر من المطار يحتاج إلى ترخيص، يحتاج إلى تأشيرة، يحتاج إلى جواز سفر، وعن طريق البر كذلك يوجد مركز هجرة وجوازات، أين سيذهب ؟ وإن ذهب من طريق غير نظامي يلتقطونه، أين جواز سفرك ؟ لا يستطيع، هكذا الأنظمة والقوانين في الدولة، وبين الدول اتفاقيات وأنظمة متعارف عليها، وإذا خالف القوانين كان مسؤولاً، فكيف مع خالق الكون ؟ بأي لحظة أنت في قبضته.

أنت تعال باختيارك، تعال وأنت محب، لا تأتِ وأنت ملقى القبض عليك، يا إمام كيف القدوم على الله ؟ قال: " أما العبد المؤمن فكالغائب رُدّ إلى أهله، وأما العبد الفاجر فكالعبد الآبق رُدّ إلى مولاه "، فهذه الحركة العشوائيّة، وتجاوز الحدود، وإيذاء الناس، والعدوان على الناس، وانتهاك أعراض الناس، واغتصاب أموال الناس، لكن الحبل موجود، ولكنه مرخى، فإذا شُدّ الحبل وقع الإنسان في قبضة الله عزّ وجل.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من الآية 40)

هذا تهديد، اعمل وأكثر، افعل ما شئت..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

هذه قصّة رمزيّة: رجل في بعض البلاد كان ثرياً جداً، وقد جاءه الموت فخاف أولاده عليه من وحشة القبر، ومن سؤال منكر ونكير ـ كما يقال ـ رأوا إنساناً فقيراً، وأغروه بمالٍ كثير على أن ينام معه أول ليلة فقط، رجل فقير، وقل له: خذ عشرة آلاف جنية مثلاً، مبلغ ضخم، والله لا يتردد، ليلة واحدة فقط وقت السؤال، فهذا وضعوه معه، جاء الملكان، وجدوا أن هناك اثنين في القبر، شيء غير مألوف أن يجدوا اثنين، ارتعب، حرّك رجله، فقالا: هذا حي وليس بميت، إذاً نبدأ به، قم، ماذا تلبس ؟ لبس كيسا من الخيش مربوطاً بحبل، من أين جئت بهذا الحبل ؟ من البستان، كيف دخلت إلى البستان ؟ هل أخذت إذنًا من صاحبه ؟ ونزلوا فيه بالضرب، بسبب حبل، وكيف دخلت إلى البستان، ولم تستأذن صاحب

البستان ؟ كيف أخذتها من دون إذنه ؟ خرج من القبر في اليوم التالي، وقال لهم: الله يعين أباكم. فلذلك الإنسان:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

دائماً بطولتك في تهيئة جواب لله عزّ وجل، افعل ما تشاء، قد تكون رب أسرة ؛ اظلم زوجتك، اظلم أولادك، قد تكون في عملك ذا شأن، وعندك موظّفون ضعاف، تستطيع أن تستغلّهم، تستطيع أن تقهرهم، تستطيع إعطاءهم نصف حقِهم، لا يستطيعون الكلام خوفاً منك، فالله عزّ وجل يراقبك، افعل ما تشاء..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

فلذلك: **" حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطّانا إلى غيرنا، وسيتخطّى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا "**

قال تعالى:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

هؤلاء ليسوا محضرين، ولكنّهم مدعوون، إذا دُعيت إلى حفل، أولاً الهديّة تصلك إلى البيت، بعدها بطاقة أنيقة، فيها تخطيط من الداخل، تدخل إلى الحفل فيه الشراب، والمقبّلات، والطعام النفيس، والترحيب، والبشاشة، والمقاعد والوثيرة، هذه الدعوة، الكفّار ألقي القبض عليهم، وسيقوا ليلقوا مصيرهم ؛ والمؤمنون يُدعون إلى الله وفدا، المؤمنون وفد، الوفد معزّز، مبجّل، مكرّم، محترم، مرفّه، قال:

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(127)إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

هذا مخلَص بعد أن أخلص، أخلص فصار مخلص، فأقبل على الله بإخلاصه الشديد، فنقّاه الله من كل درن، من كل شائبة، من كل شرك، من كل شُبُهة، من كل انحراف، من كل ضغينة، من كل حَسَد، أخلص فأصبح مخلصاً..

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(128)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

والله شيء جميل جداً أن يموت الإنسان، ويمضى على وفاته سنة، وسنتان، وخمس، وعشر، ومائة، وألف، وذكره عطر، العالَم الإسلامي فيه ألف ومئتا مليون، سيدنا عمر، سيدنا الصديق، سيدنا عثمان، سيدنا علي، الصحابة الكرام، سيدنا سعد، سيدنا سعيد، ابن الزبير، أبو عبيدة بن الجرّاح، سيدنا صلاح الدين، عمر بن عبد العزيز، أقول: سيدنا، لا أجرؤ أن أقول: فلان، هذا الذكر الحسن، فشيء رائع جداً أن يموت الإنسان والناس يلهجون بالثناء عليه دوماً، هذا عطاء عظيم.

إذاً: الكافر يلقى القبض عليه، ويُساق ليلقى مصيره المحتوم، والإنسان في الدنيا إذا ارتكب جرماً يستحق أن يُعْتَقل، كيف يؤخَذ ؟ يؤخذ مع اللكم، والضرب، والسُباب، والشتائم، والرَكل، أما إذا دعي فإنه يُعزّز، ويُكرّم، فشتّان بين من يُحضر ومن يُكرّم، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

إذا أُلقي القبض عليه، وسيق ليُعَذّب، وليلقى جزاء عمله، ينسى كل متع الحياة، والإنسان غير المؤمن مهما انغمس في النعيم، مهما تناول من الطعام، مهما فعل من المَلَذّات، حينما يأتيه ملك الموت ينسى كل شيء، يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصُعِقوا، يقول: " لمْ أرَ خيراً قط "، **والمؤمن حينما يرى مقامه في الجنّة ينسى كل متاعب الدنيا فيقول: " لمْ أرَ شرّاً قط ".**

يقول الإمام علي كرّم الله وجهه: **" يا بني من خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌّ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية "**

سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **<< الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلْهِمْتُ الصبر عليها >>.**

أيّة مصيبةٍ ليست في الدين مصيبة تهون، لكن مصيبة الدين أن يعصي الإنسان الله عزّ وجل، أن يرتكب الكبائر، أن يستحقّ غضب الله عزّ وجل. إذاً:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

هؤلاء يذهبون إلى الآخرة وكأنّهم وفود..

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

الذكر الحسن، الذكر الحسن عمر آخر للإنسان، الإنسان أحياناً يكون له والد حسن السيرة، أينما تحرّك: الله يرحم الوالد..

(سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)

سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ

هذا السلام من أسماء الله السلام، أي سلامٌ، وراحة، وسعادةٌ، وطمأنينة، الآخرة فيها سلام، الله سمّاها دار السلام، والله الدنيا دار القلق، الإنسان دائماً يخاف، يخاف إذا امتدّ به العمر، يا ترى ماء زرقاء ؟ هناك أمراض كثيرة، أمراض الشيخوخة معروفة، دائماً في قلق ؛ قلق على بصره، قلق على سمعه، على قلبه، على شرايينه، على الدسّام، على الضغط، على الكلى، يا ترى البول خف ماذا أفعل ؟ هل هناك مشكلة ؟ هل هناك بحصة ؟ دائماً هناك مشاكل في الحياة، وقلق، يا ترى هل ستظل التجارة رائجة؟ أم في كساد، سمحوا، أم منعوا ؟ ربنا عزّ وجل في الآخرة ؛ لا خوف، ولا هم، ولا حزن، ولا قلق، ولا ضيق، ولا شيخوخة، ولا متاعب، ولا مرض، لهذا يقول الله عزّ وجل:

(سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)

سلام، هذه دار السلام، اللهمّ أدخلنا دار السلام بسلام.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

هذا هو الثمن، الثمن الإحسان، الإحسان في العمل، الإحسان في الاستقامة، الإحسان في أداء ما عليك، الإحسان مطلق، حتَّى لو قتلت حيواناً، الإحسان ضربة واحدة، حتَّى لو ذبحت حيواناً..

((وَلْيُحِدّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[أخرجه مسلم]

كن محسناً، دائماً المؤمن محسن، والكافر مسيء، المؤمن منضبط، والكافر متفلِّت، المؤمن موصول، والكافر مقطوع، موصول منضبط محسن، مقطوع متفلِّت مسيء..

(إِنَّا كَذَلِكَ)

يا الله !! هذه الكلمة الله قلبها إلى قانون، ألم أقل لكم سابقاً: القصص في القرآن الكريم ليست مقصودةً لذاتها، مقصودةً للقوانين التي تحكمها، ليست مقصودةً لذاتها، بل مقصودةٌ للقوانين التي تستنبط منها..

(إِنَّا كَذَلِكَ)

الكلام لنا الآن، نحن نعيش في عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين بعد نزول هذه الآيات بألفٍ وأربعمائة سنة.

الكلام لنا الآن..

(إنّا كَذَلِكَ)

السلام في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض..

(إنّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(131)إنّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

إنّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

أي أنه آمن بالله عزّ وجل فأحسن، كفر فأساء، آمن فأحسن، كفر فأساء، خاف فاتقى، عطّل فكره فتفلّت.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله ننتقل إلى قصّة سيدنا لوط، وقصّة سيدنا يونس، وبعدها تأتي الآيات لتُجْمِل المعاني التي وردت في ثنيّات هذه القصص.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (12-14): تفسير الآيات 133 - 148
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-11-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الصّافّات، ومع الآية الثانية والثلاثين بعد المئة.

(وَإِنّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

وَإِنّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ

إرسالُ الرسلِ من رحمة الله بعباده:

من للتبعيض، والرسل كثيرون، منهم من قصّ الله علينا، ومنهم من لم يقصص، وإن دل إرسال الرُسل على شيء فإنما يدل على رحمة الله جلّ جلاله، على وعلى حرصه على هداية خلقه، وعلى أن الخلق كلّهم مطلوبون للهداية، العقيدة الصحيحة أن الله عزّ وجل يريد كل خلقه، كل الخلق خُلقوا للهداية، خلقوا للسعادة، قال تعالى:

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

قال تعالى:

(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

الخلق جميعاً مطلوبون، مدعوون لمعرفة الله، مطالبون بما فرض الله عز وجل، لذلك كان إرسال الرُسُل.

(وَإِنّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(133)إِذْ نَجّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

إِذْ نَجّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ

قد تلاحظون أن عرض هذه القصة في هذه السورة جاء بشكلٍ مختصرٍ جداً، وربما لو كان هناك دراسات قرآنية في هذا الموضوع، أي أن ندرس القصص التي تكررت، في كل مرةٍ ذكرت فيها، كانت

المعالجة من زاويةٍ معينة، فربنا جل جلاله في هذه القصة عرضها عرضاً سريعاً، في آيات كثيرة عرضها عرضاً مُفَصّلاً.

على كلٍ:

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(133)إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

1 ـ الهلاك والنجاة لهما قانون وسببٌ:

إذاً الهلاك والنجاة لهما قانون، المؤمن يعتقد هذا، أما غير المؤمن فيريد أن تكون عشوائية، يريد أن يبين لك القضية ليست بالعمل ولا بالاستقامة، ولكن الحظ والنصيب، فكل من يطرح لك هذا الطرح ؛ قضية حظ، قضية نصيب، قضية بلاء عام، البلاء يعم، الرحمة خاصة، هذا الطرح غير قرآني، أما ربنا عز وجل فبيّن أن الهلاك بسبب، وأن النجاة بسبب.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من الآية 59)

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

(سورة الإسراء: من الآية 16)

بالخير والصلاح والهدى.

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(16))

(سورة الإسراء: الآية 16)

تتبع آيات الإهلاك في القرآن الكريم تجدها كلها تربط الهلاك بالمعصية، الهلاك بالظلم، الهلاك بالتكذيب، الهلاك بالانحراف، الهلاك بالعدوان، الهلاك بالبغي والطغيان، ما من هلاكٍ إلا وله سبب، وما من نجاةٍ إلا ولها سبب، وإذا ظهر السبب بَطَلَ العجب، فنحن نريد أن نقرأ القرآن قراءةً واعية، نريد أن نستنبط منه القوانين.

أقول لكم دائماً: إن القصص في القرآن الكريم ليست مقصودةً لذاتها، المقصود أن نستنبط منها سنناً وقوانين وقواعد كُلِّيّة، تفيدنا في حياتنا اليومية.

فهنا:

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

2 ـ الخلق كلهم مدعوون للهدى:

والرسالة تدل على رحمة الله، تدل على لطف الله عزّ وجل قبل أن يأتي بالعذاب، تدل على أن الخلق كلهم مدعوون للهدى، وأنه ما خلق مخلوقاً إلا ليسعده، فإذا شقي المخلوق فباختياره.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(133)إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

دائماً يجب أن تؤمن أن النجاة هي ثمن الهُدى، الهدى والاستقامة من ثمارها اليانعة في الدنيا النجاة..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في أكثر آيات الهلاك يأتي التعقيب:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذا قانون، فأنت لو وُجِدتَ في زمنٍ صعب، في زمن الفِتَن، في زمن الكوارث، في زمن الجوائح، في زمن المُعالجات الإلهية، بإمكانك أن تنجو من عذاب الله إذا اتَّبعت منهج الله عز وجل، فأريد أن أبيّن لكم، أن كل إنسان داخله القلق والخوف من مصيبة وجائحةٍ عامة، من شبح مصيبةٍ مخيفة، بإمكانه أن يَعُدّ أن طاعة الله عز وجل سبيلٌ للنجاة..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

3 ـ أهل الإنسان هم الذين اتبعوه:

والحقيقة أن أهلك هم الذين اتبعوك، الأهل فيما يبدو للناس الأقارب، لكن قال: يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فمن أهلك أنت ؟ أهلك المؤمنون، فمن اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أهله، لهذا ورد في السنة:

((أنا جد كل تقي))

[كشف الخفاء]

ورد أيضاً:

((سلمان منا آل البيت))

[ورد في الأثر]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

عم النبي في القرآن الكريم:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

((سلمان منا آل البيت))

كلكم يذكر قصة سيدنا عمر عندما وقف أبو سفيان ببابه، طبعاً أبو سفيان أسلم، نقول عنه: رضي الله عنه، وقد حارب النبيَّ عشرين عاماً، وقف ببابه ساعاتٍ طويلة فلم يُؤذَن له، وبلال وصهيب يدخلان بلا استئذان، فلما دخل على عمر عاتبه، وقال: يا أمير المؤمنين، زعيم قريش يقف ببابك ساعاتٍ طويلة، وصهيبٌ وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان ؟ "، قال: **<< يا أبا سفيان، أنت مثلهما ؟ >>.**

4 ـ الناس فريقان:

إذاً: لا انتماءات في الإسلام، لا يوجد إلا انتماء واحد: الخلق كلهم عباد الله، الله ربهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، ليس بين الله وبين عباده قرابة، إلا طاعتهم له.

هذه المعاني مريحة جداً، هذه المعاني تحفز الهمم، هذه المعاني تلغي كل فارق، كل منبت، فلا طبقية، ولا عِرقية، ولا أي شيء آخر، فالانتماءات البشرية، انتماءاتٌ كلها جاهلية.

((فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي عن ابن عمر]

تقسيم النبي الكريم، الناس رجلان مؤمنٌ وكافر، عالم وجاهل، محسنٌ ومسيء، مقبلٌ ومُعرض، منضبطٌ ومتفلت، ملتزم وغير ملتزم، مخلصٌ وخائن.

هناك زمرتان ؛ المؤمنون صفاتهم كلها كاملة، والكفار والمنافقون صفاتهم كلها خسيسة، أي انتماءٍ آخر لا قيمة له، ولا شأن له عند الله عز وجل.

((رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه، لو أقسم على الله لأبره))

[الترمذي]

روي أن امرأةً كانت تقُم مسجد رسول الله، تنظفه، وقد توفيت فلما سأل عنها النبي قالوا: توفيت يا رسول الله قال: هلا أعلمتموني ؟ فسكتوا، فأصحابه رأوا من هوانها على الناس أنها أقلُّ من أن يخبر النبي بموتها، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى قبرها، وصلى عند قبرها واستغفر لها..

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:

((أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا، أَوْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي ؟ قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرَهُ، فَقَالَ: دُلُّونِي

عَلَى قَبْرِهِ، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمّ قَالَ: إِنّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يُنَوّرُهَا لَهُمْ بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ))

[صحيح مسلم]

هذا هو الدين، الخلق كلهم عيال الله، يتفاضلون بالطاعة فقط..

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

فأنت إما أنك مؤمن، وإما أنك عنصري، تعتز بأسرتك، تعتز بانتماءاتك، تعتز بجماعتك، تعتز بلونك، تعتز بمالك، عنصري أما إذا اعتززت بالله عز وجل وبطاعتك له فأنت مؤمن، لذلك ضعْ تحت قدمك كل الانتماءات التي اخترعها البشر وهي انتماءاتٌ جاهلية.

سيدنا أبو بكر اشترى بلالاً من سيده، قال سيده أمية بن خلف: **"والله لو دفعت به درهماً لبعتكه "**، يريد أن يحقِرَهُ، قال له الصديق: << والله لو طلبت به مائة ألفٍ لأعطيتكها >>، يريد أن يُعِزّهُ، فلما اشتراه من سيده وضع يده تحت إبطه، فهذه لها معنى كبير جداً، سيدنا الصديق سيد قريش وبلال عبد، أبى الصدّيق إلا أن يضع يده تحت إبطه ليرفع من مكانته، وقال: **<< هذا أخي حقاً >>.**

حتى عندما تولى سيدنا الصديق الخلافة قال له: **<< يا بلال أذّن >>**، قال: " والله ما كنت لأؤذّن لأحدٍ بعد رسول الله "، مستحيل، قال: " من يؤذن لنا ؟ "، فقال له: **" يا خليفة رسول الله، إن كنت أعتقتني لك فلك ما تريد، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أريد "، قال: " والله أعتقتك لله ".**

فالإسلام لا ينمو إلا في مجتمع مسلم، نحن نريد أن نعيش هذه القيَم، أن نُلغي كل التفاوت، كل الانتماءات غير الدينية، فلان من أسرة فلانية، فلان له شأن، له مكانة..

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

والله مرة قال لي أحد الإخوان الكرام حج بيت الله الحرام، ولما عاد قال لي: أنا بهذا الحج ليس في الدنيا من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، هذا هو المقياس، كلنا لآدم، وآدم من تراب، الناس كلهم سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بطاعتهم لله عز وجل، فلذلك هذه المعاني تُلغي الكبر، تلغي الاعتزاز بالنسب، من أنت ؟

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

***

((رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه، لو أقسم على الله لأبره))

[تخريج أحاديث الإحياء]

إذاً: هذا هو التقسيم الصحيح ؛ مؤمن وغير مؤمن، المؤمن يعتز بالله، منضبطٌ بمنهج الله، أساس عمله العطاء والإحسان، أساس منطلقه خدمة الخلق، إرضاء للحق، غير المؤمن عقيدته غير صحيحة، زائغة، متعلقٌ بأوهام، متفلتٌ من منهج الله عز وجل، أساس حياته الأخذ لا العطاء، يريد من الناس أن يقدموا له كل شيء ؛ أما المؤمن فيريد أن يقدِّم للناس كل شيء، والفرق كبير.

(إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ)

5 ـ اطمئنّوا فإن النجاة تشمل المؤمنين:

اطمئنوا، فهذه الآية مطمئنة، أنت بيدك النجاة، نجاتك من كل شيءٍ مخيف بيدك..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولـذ بحمانا واحتم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

في الحياة مخاطر لا يحصيها إلا الله، مخاطر، منزلقات، ورطات، أمراض، خصومات في قهر بشري، هذه كلها بيد الله عز وجل، اسمع الآية:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

انظر إلى شمول الآية، من فوقك أي صواعق، وصواريخ أيضاً، قصف..

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

ألغام، زلزال، براكين..

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من الآية 65)

كله بيد الله عز وجل، سبيل النجاة الاستقامة على أمر الله.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فلذلك النجاة مطمح لكل إنسان، أن ينجو من بلاءٍ عام، أن ينجو من كارثةٍ محققة، أن ينجو من جوعٍ مُميت، أن ينجو من قهرٍ لا يحتمل، أن ينجو من مرضٍ عُضال، بطاعتك لله عز وجل، يجب أن تعامل مع الله بصدقٍ وإخلاص.

(إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(134)إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)

1 ـ ليس مِن صالح المرأة تشجيع الانحراف:

امرأته، ليس من صالح امرأته أن تُشَجِّعَ على الشذوذ الذي تلبّس به قومه، كل أنثى ليس من صالحها أن ترحِّب بهذا الانحراف الأخلاقي، ولكن لأنها أحبت قومها، ودافعت عنهم، وانضمت إليهم، استحقت العذاب معهم، لهذا ورد في السنة:

((كل نفس تحشر على هواها، فمن هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

[ورد في الأثر]

لذلك العلامة الطيبة أن يكون قلبك متعلقاً بالمؤمنين، أن تكون في سبيل المؤمنين، ربنا عز وجل قال:

(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى)

(سورة النساء: من الآية 115)

طوبى لمن وسعته السُنَّة، ولم تستهوه البدعة، والبدع كثيرة جداً، هذه البدع كلها تُهْلِك الإنسان.

(إلّا عَجُوزًا فِي الْغابرينَ)

2 ـ مِن مظاهِر حكمة الله تعالى:

ربنا عزّ وجل في القرآن الكريم جعل نبياً عظيماً زوجته كافرة، وجعل كافراً كبيراً زوجته مؤمنة..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10))

(سورة التحريم)

معنى ذلك أن الإنسان محاسب وحده، الإنسان مخيَّر، فهذه امرأة لوط لم تؤمن فاستحقت الهلاك، ولم ينفعها أن زوجها نبيٌّ مُرسل، وهذه امرأة فرعون استحقت النجاة، ولم يمنع من نجاتها أن زوجها طاغيةٌ جبّار..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

هاتان الآيتان فيهما مفارقتان عجيبتان، الهدف منهما أن يبين الله لنا أن المرأة كائنٌ مستقلٌ في اختياره عن زوجها، فتكريمٌ لها جعلها الله كائناً مستقلاً في اختياره عن الآخرين، وهذا من أبرز ما يظهر كيانها في الدين، إن آمنت نجت، ولو كان زوجها فرعون، وإن كفرت هلكت، ولو كان زوجها لوطًا النبي.

3 ـ المرأة مكلفة، ومشرفة:

أتمنى أن أوضّح لكم هذه الحقيقة: المرأة والرجل متساويان تساوياً مُطلقاً في التكليف وفي التشريف، فهي مكلفة، ومشرفة..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى)

(سورة النحل: من الآية 97)

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 195)

(إِنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقَاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدّقِينَ وَالْمُتَصَدّقَاتِ وَالصّائِمِينَ وَالصّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيرًا وَالذّاكِرَاتِ أَعَدّ اللّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب: من الآية 35)

فهذه الآيات تبين أن شأن المرأة كشأن الرجل تماماً، لكن المرأة لها صفاتٌ جسمية وعقلية ونفسية هي فيها كمالٌ لمهمتها التي خُلقت من أجلها، وللرجل صفاتٌ جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية هي في حقه كمالٌ لما خلق له، صفات المرأة كاملة فيما يتعلق بمهمتها في الحياة، وصفات الرجل كاملة فيما يتعلق بمهمته في الحياة، لذلك قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

إنهما يتكاملان، إذا افترقا في الصفات فهو افتراق تكامل لا افتراق تضاد.

(إِلّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ)

ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ

وهذه نتيجة كل منحرفٍ عن طريق الحق، آخرته الهلاك والدمار، كنت أقول دائماً: إن قضية الإيمان ليست أن تؤمن أو لا تؤمن، أنت لست مخيراً بهذا، لست مخيراً بأن تؤمن أو لا تؤمن، هذا اختيارٌ باطل، أنت مخير متى تؤمن، لأنه لابد من أن تؤمن، ولكن بعد فوات الأوان.

(ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ)

أعظمُ حدثٍ عند الإنسان حدثُ النهاية:

والإنسان توفيقه وعقله في أن يتوقّع الشيء قبل أن يصل إليه، فدائما الإنسان ضعيف التفكير يعيش لحظته، الأضعف يعيش ماضيه، الأعقل يعيش مستقبله، دائماً.

هناك قصة معروفة أرويها لكم كثيراً عن سمكات ثلاث، حينما مر صيّادان تواعدا أن يرجعا ليصطادا ما في هذا الغدير من السمك، قال: في الغدير ثلاث سمكات ؛ كيسة ـ عاقلة ـ وأكيس منها ـ أعقل منها ـ وعاجزة ـ أي بليدة ـ أما أكيسهُن فإنها ارتابت، وتخوّفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ـ اسألني: مَن هو العاقل ؟ هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها، فأخطر حدث في حياتك ؟ انتهاء الحياة ؛ هناك دراسة، وزواج، وتجارة، وتفليس شركة، وتأسيس شركة، وحَل شركة، وتطليق امرأة، وبيع بيت، وشراء بيت، وشراء مركبة، وبيع مركبة، وسفر، ووظيفة، هناك أحداث كثيرة في حياتك، ولكن أخطر حدث فيها نهاية الحياة، لذلك قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك: من الآية 2)

علماء التفسير قالوا: قدّم الله الموت على الحياة، لأن حدث الموت أخطر من حدث الحياة، أنت حينما ولدت هناك خياراتٌ كثيرة، أما حينما يموت الإنسان فإما أن يموت مؤمناً فيستحق جنة عرضها السماوات والأرض، وإما أن يموت كافراً فيستحق ناراً لا يموت فيها ولا يحيا، أبلغ وصف: لا يموت فيها ولا يحيا، فالخيار إذاً أن تهيئ نفسك لحدثٍ لابد من أن يأتي، وأخطر حدثٍ هو الموت، وأعقل إنسان هو الذي يعمل لهذه الساعة.

أحياناً تجد النعي كُتب، والأهل ذهبوا إلى المقبرة ليشتروا قبراً، وقسم ذهب ليجري معاملات الدفن، وقسم ذهب ليهيئ ما يحتاجه الأهل في هذه المناسبة الحزينة، لكن هل فكر أحدٌ بهذا الميت ماذا يعاني الآن ؟ كيف سيحاسب ؟ كيف سيكون قبره ؟ هل هو روضة من رياض الجنة، أم حفرة من حفر النيران؟ فهذه مشكلة كبيرة جداً.

فهذه السمكة قالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ثم إنها لم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء، من النهر إلى الغدير فنجت.

الأقل عقلاً مكثت في مكانها حتى عادا الصيّادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُد ـ طبعاً الصيادان سدوا الفتحة ـ قالت: فرّطت، وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقلَ لا يقنط من منافع الرأي، ثم أنها تماوتت، فطفت على وجه الماء، أخذها الصياد، وضعها على الأرض بين النهر والغدير فنجت ـ ولكن بعد أن تحطمت أعصابها، وغامرت، وقامرت، وكان يمكن أن لا تنجو.

وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت.

فالناس ثلاثة، كيّس جداً، وهو الذي يعمل لما بعد الموت، أقلّ عقلاً هو الذي يؤخر التوبة، أما عند المُلِمّة فيتحرك، هذا يتحرك عند المُلمات، عند المصيبة، يتوب، من جامع لجامع، يا رب تبت إليك، تأخرت، أما العاجز فلا قبل المصيبة ولا بعد المصيبة، لذلك من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر، أي أن أكبر مصيبة ألا تتأثر بالمصيبة، معنى ذلك أن الحس ميت، وفيه تلبد، وبُعد، وعمى، وصمم.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ(18))

(سورة البقرة)

أقول لكم: إذا كان أحدنا ضيّق الله عليه، شدد عليه، ثم سأل نفسه: لماذا أنا كذلك ؟ الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

معنى هذا أن العذاب هادف، فما الخلل في حياتي ؟ ما التقصير ؟ ما الانحراف ؟ هذا التفكير سليم ؟ إذا جاءت مصيبة، وسألت نفسك: لماذا؟ فالله عز وجل أرحم الراحمين، هذا السؤال جيد، وهذا السؤال تفكير سليم، وإذا اتعظت بشدة ساقها الله إليك، انقلبت هذه الشدة نعمة، لذلك قال بعض العلماء في قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان: من الآية 20)

قالوا: **" المصائب هي النعم الباطنة ".**

(وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ(137)وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

الحكمة من بقاء آثار الأقوام السابقة:

الله عز وجل سمح لأقوامٍ أن يشيدوا أبنيةً شاهقة، وشاءت حكمة الله أن تبقى هذه الأبنية، أو أن تبقى أطلالها أو آثارها، ولكن مشيئة الله شاءت ذلك لنتّعظ، فإذا بالناس يتجهون اتجاهاً آخر ؛ يعدونها آثاراً سياحية، يعتنون بها، يجلبون بها العُملة الصعبة، يقيمون حولها المنتزّهات والمقاصف، يتباهون بها والأمر على عكس ذلك، أراد الله عز وجل من هذه الآثار الباقية أن يعظنا أن هؤلاء القوم كانوا أقوياء،

وكانوا أشدّاء، وكانوا متفوقين، ومع ذلك حينما انحرفوا دمّرهم الله عز وجل، أفلا تعقلون ؟! فإذا مررت بآثارٍ لأقوامٍ سَبَقَتْ ينبغي أن تتعظ.

(ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ(136)وَإِنّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ(137)وَبِاللّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

وانتقل القرآن إلى قصةٍ ثانية، هي قصة سيدنا يونس:

(وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ

العوام يقولون: يونِس، هناك ثلاث كلمات بالضم لا بالكسر، يونُس، ويوسُف، وتونُس، أما العوام يقولون: يونِس، ويوسِف، أما هي تنطق: يونُس، ويوسُف.

(وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ)

القصد من القصة المغزى لا التفاصيل:

قصة سيدنا يونس هذا النبي الكريم دقيقة جداً، فيها تفصيلات، وكتب التفاسير مشحونةٌ بالتفاصيل حول هذه القصة، ولكن بادئ ذي بَدء أقول لكم: التفاصيل والجُزئيات في القصة إما أن تكون في خدمة الهدف العام، وإما أن تكون عبئاً عليها، فهذه القصة وردت بهذه التفاصيل أو هذه الكُلّيات، ونحن لا ندخل غُصنا في تفاصيل هذه القصة، ونقرؤها في كتب بني إسرائيل، ونأخذ الأسماء وبعض التفاصيل، ليس هذا هو قصد الله عز وجل، قصد الله عز وجل أن نأخذ المَغزى، القصة لها مغزى، ولها تفاصيل، فمن قرأ التفاصيل وغاب عنه المغزى كأنه ما قرأ القصة.

ومن قرأ القصة، وعرف المغزى، وغابت عنه التفاصيل فهو الذي قرأها، وهو الذي استفاد منها.

نحن إذا قرأنا قصةً يجب أن نبحث عن مغزاها، لأن مغزاها هو محورها، مغزاها هو هدف الذي رواها لنا، الله عز وجل لماذا ذَكَرَ في قرآنه الكريم هذه القصص ؟ الهدف هو المغزى.

نحن لا تعنينا التفاصيل كيف ركب في السفينة، وكيف وقع في البحر، وقع باختياره، ألقى بنفسه، ألقاه رُكّاب السفينة، تفاصيل دقيقة جداً وردت في كتب التفسير، لا يعنينا إلا شيء واحد، هو: أن هذا النبي العظيم أرسله الله إلى قوم نَيْنَوَى في الموصل، هكذا أجمعت كُتب التفسير، دعا قومه ليلاً ونهاراً، سراً إعلاناً، لم يستجيبوا له، فضاق بهم ذرعاً، كأنه شعر أن الله عز وجل لن يقدِّر علي يديه هداهم، فتركهم مغاضباً، هذا التَرْكُ يحتاج إلى معالجةٍ من الله عز وجل:

(وَإِنّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(139)إِذْ أَبَقَ)

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

1 ـ لا ينبغي للداعية أن يسأم من قومه إذا لم يستجيبوا له:

أبق أي أبى الانصياع لمهمته، مهمته أن يبقى معهم، هذا تعليم لنا، فالإنسان إذا دعا إلى الله وما رأى استجابة، لا ينبغي أن يسأم، لا ينبغي أن يمل، لا ينبغي أن يتضَجّر، لا ينبغي أن يقول: هؤلاء ليس فيهم خير سأتركهم، ما لي ولهم، لا شأن لهم عندي، هذا موقف لا يليقُ بالدعاة إلى الله عزّ وجل، الدعاة إلى الله يحتاجون إلى نفَسٍ طويل، وإلى صبرٍ شديد، فسيدنا يونس:

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

2 ـ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ:

الفُلك هي السفينة، المشحون المليئة بالركاب، فقد ضاقت نفسه وسئم دعوة قومه، فالحقيقة من ذاق عرف، ما من شيءٍ أصعب في حياة الإنسان من أن تدعو إنساناً، وهو معرض عنك، تدعوه، وهو مكذبٌ لك، تدعوه وهو منتقدٌ لك، تدعوه، وهو يدير لك ظهره، تدعوه، وهو يسخر منك، شيء صعب، فأصعب عمل أن تُعَلِّم أناسا لا يحبون العلم، أصعب عمل أن تدعو أُناساً أنت في وادٍ، وهم في وادٍ آخر، أصعبٍ شيء في الحياة أن تقبل على شخصٍ لا يقبل عليك، أن تهتم بإنسان لا يهتم بك، أن تكلِّم إنساناً لا يُصغي لك، هذا شيء صعب جداً، وشيء مؤلم جداً، وشيء يدعو للسأم والضَجَر، ومع ذلك النبي عليه أن يتحمل، لأن الأجر كبير جداً، الأجر عظيم، هو يقرض الله قرضاً حسناً، فسيدنا يونس مر بتجربة أنه ضجر من قومه، وسئم صدّهم، وتكذيبهم، وسخريتهم، وعدم استجابتهم، فتركهم، وتوجّه إلى مكان آخر.

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

فهو لم يؤمر أن يتركهم، هو تركهم، لم يؤمر أن يتركهم، النبي أُمر بالهجرة أمراً، كل حركات النبي علي الصلاة والسلام كانت بأمرٍ من الله عز وجل، هو غادر قومه دون أن يأخذ إذناً من الله عز وجل، دون أن يأمره الله بمغادرتهم.

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

الفُلك مليء بالركاب.

(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ)

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ

هناك روايات كثيرة جداً: أنه هبت عواصف عاتية كادت أن تغرق هذا المركب، فاستهموا فيمن يلقي بنفسه تخفيفاً، وهذه الرواية ردّها بعض المفسرين، أو أنه قال: أنا السبب، أو أنا المذنب، فأريد أن أترككم حتى ينجو القارب، هناك رواياتٌ كثيرة، الذي يعنينا أنه شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يقع هذا النبي الكريم في البحر، ألقى بنفسه، ألقوه، اقترعوا على من يكون فداءً لهذه السفينة، هو ظن أنه هو المذنب، رواياتٌ كثيرة، لكن الشيء الثابت أنه ساهم بقرعةٍ، فوقعت عليه، فألقى نفسه في اليَم، فكان من المدحضين، أي حجته داحضة، كان مغلوباً على أمره..

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ

1 ـ من عظُمت عنده مشكلته فليذكر مصيبة سيدنا يونس:

هذه القصة أرويها لكم كثيراً: إذا ضاقت على الإنسان الدنيا، بمشكلة بعمله، بصحته، ببيته، بأسرته، أعتقد ما من مشكلة أصعب من أن يجد نفسه في بطن الحوت، مهما ضخّم مشكلته، لا يجد عملاً ودخلاً، الزواج ميئوس منه، زوجته سيئة جداً، إن طلقها عنده منها أولاد، يخاف ضياعها، ولا يتحمل معاشرتها إن أبقاها، وهو يظن أن هذه أكبر مشكلة في العالم.

لكن سيدنا يونس رأى نفسه فجأةً في بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، الحوت معروف، الحوت تقريباً يزن حوالي مائة وخمسين طناً، الحوت الأزرق، فيه خمسون طنًا من الشحم، وخمسون طنًا من اللحم، وتسعون برميلا زيتًا، أرقامه مذهلة، ومرة جرّ حوت سفينةً ثمانية وأربعين ساعةً، وهي تُعمل محركاتها بعكس اتجاهه، ولم تفلح في الخلاص منه، سفينة ضخمة، ثمة غرفة، فجأةً رأى نفسه في بطن الحوت.

كلما ضاقت بالإنسان الأمور ليذكر هذه القصة، مهما بلغت المصيبة ليست أشد من أن تكون في بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، وإذا أراد الإنسان أن يعرف ما معنى البحر في الليل، ليركب من طرطوس لجزيرة أرواد في الليل فقط، البحر في الليل موحش جداً، ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، ولكن دائماً يجب أن تشعر أن الله عز وجل لما يعالج إنساناً فمثله ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل الأب يمسك ابنه من يده، ويقربه من الساقية، يخاف الابن، لكن

رحمة الأب، وحرص الأب على سلامة ابنه، هي أشد بكثير من الخطر الذي يراه ماثلاً أمامه، ربنا يعالجنا جميعاً، ولكن لا يتخلى عنا، يعالجنا بالمرض، ثم يشفينا، يعالجنا بالفقر، ثم يغنينا، بالخوف، ثم يطمئننا، فإذا وقع الإنسان بحرج، بمشكلة فله في هذا النبي الكريم أسوةٌ حسنة..

(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ(141)فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

2 - معنى: وَهُوَ مُلِيمٌ

أي أنه أتى بعملٍ يلام عليه، لأنه غادر قومه قبل أن يأذن الله له، ضجر منهم.

أحياناً الواحد يتكلّم مع شخص كلمتين فينفر منه، ويبتعد عنه، عيشة الفهيم مع البهيم داء دفين، لا يتحمل.

على كلٍ، لا ينبغي أن نشغل بتفاصيل وقوعه في البحر، شاءت مشيئة الله أن يقع في البحر، قرعة، بغير قرعة، ألقوه، ألقى نفسه، مهما شئتم هذه التفاصيل لا تعنينا، يعنينا أن الله أراد له أن يقع في البحر، وإذا شاء الله شيئاً فلابُدّ من أن يقع، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع.

إذا كانت وجبة الحوت المعتدلة أربعة أطنان، فماذا يفعل سيدنا يونس معه، فهو كالسمسمة بين أسنانك، لقمة، بل أقلّ من لقمة، إذا رضعته الواحدة ثلاثمائة كيلو، يحتاج ثلاثة رضعات في اليوم، أنثى الحوت ترضع وليدها ما يقرب من طن حليب يومياً، فلذلك الله قال:

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

أي أتى بعملٍ يُلام عليه، الله عزّ وجل وصف النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

(سورة الذاريات: من الآية 54)

لست ملوماً عندنا يا محمد، ولست ملوماً عند الخَلق، ولا عند نفسك.

الواحد منا طوال حياته يلوم نفسه: لماذا قلت ذلك ؟، لماذا فعلت كذا، لمَ لمْ أعطه ؟ لمَ ضيّقت عليه ؟ لمَ تأخّرت ؟ كل حياته لوم، والله أثنى على النفس اللوامة، أثنى عليها فقال:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

ولكن النبي عليه الصلاة والسلام في كل حياته ما أتى بعملٍ يُلام عليه، الأنبياء مراتب..

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

أهميةُ المعالجة الربانية:

لكن هناك نقطة دقيقة جداً، فالمؤمن لا تضره معصية، بمعنى أنه إذا خالف الأولى وعاتبه الله، عاد إلى الله مباشرةً، فهو كثير التوبة، كثير الأوبة، أوّاب، توّاب، وقّاف عند كتاب الله، كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون، فالنبي وحده معصوم، أما أمته فخطاءة ؛ لو أن الإنسان غلط بكلمة، بتصرف، بنظرة، فباب التوبة مفتوح، والإنسان المؤمن كثير الأوبة، كثير التوبة، كثير الرجوع، والله عزّ وجل لا يتخلى عن المؤمن، وإذا عالجك الله عزّ وجل فهذا من علو مقامك عند الله، لأن من الناس من هو خارج الاهتمام الإلهي..

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(36))

(سورة هود)

حدثني أخ له قريبان، أصيب قريب بمرض عُضال، جئ بطبيبٍ صديق العائلة، فهذا الطبيب كلما سأله أهل المريض ماذا يأكل ؟ يأكل ما يشاء، هل نعطيه هذا الدواء ؟ أعطوه أي دواء يحبه، تساهل عجيب، يبدو أن الطبيب كان يائساً من شفائه، خرج هذا المريض عن دائرة الشفاء، فلذلك كل شيء مباحٌ لهذا المريض.

هذا الأخ الكريم، الطبيب نفسه، مع مريضٍ آخر من الأسرة، أصيب بمرض في أمعائه، فرآه متشدداً غاية التشدد، أعطاه قائمة بالممنوعات، والمسموحات بمقادير محددة، والأدوية بمواقيت، زارهم مرة ثانية، خالفوا التعليمات قليلاً، أقام الدنيا ولم يقعدها ـ الطبيب نفسه ـ لماذا كل هذا التساهل مع الأول، وكل هذا التشدد مع الثاني ؟ الثاني ضمن دائرة الشفاء والعناية المشددة.

فأحدنا أيها الإخوة، إن رأى أن الله جل جلاله يعالجه، ويتابعه، ويحاسبه حساباً دقيقاً ليفرح، هذا دليل أن الله عزّ وجل يريد أن يتوب عليه، يريد أن يطهّره، هذا الصحابي الذي سأل النبي أن يدعو له، قال: " اللهم ارحمه "، **فقال الله عز وجل: " كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه ".**

إذا رأينا ربنا جلّ جلاله يتابعنا، ويضيّق علينا، ويحاسبنا على كل نظرةٍ، وعلى كل خطرةٍ، وعلى كل زلةٍ، فهذا من نعم الله علينا، معنى ذلك أننا مطلوبون، وأننا ضمن العناية الإلهية، أما إذا أعطانا الدنيا، ولم يعالجنا، فهذه إشارةٌ لا تُرضي إطلاقاً، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره.

سيدنا يونس نبيٌّ كريم، نبيٌّ عظيم، الله عزّ وجل يحبه، لكن ترك الأولى، فجاء العلاج، ثم اجتباه..

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(142)فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ)

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

نادى في الظلمات.

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

(سورة الأنبياء)

قالوا: الثناء على الله دعاء، والدليل هذه الآية:

(أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

اعترف بذنبه، والمعترف بالذنب كمن لا ذنب له، والثناء على الله دعاء، أحياناً يكون شخص، لك عنده حاجة، إذا قلت له: أنت إنسان كريم، أنت عظيم، أنت رحيم، هذه الأوصاف دعوةٌ مُبَطّنَة بالعطاء.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ)

أنا وقعت بأمرك يا رب، ارفض الجزئيات والتفاصيل، شاءت حكمة الله أن يقع في البحر، وأن يلتقمه الحوت، وفي الظلمات تذكر الله عزّ وجل.

بالمناسبة: المؤمن إذا وقع يذكر الله عز وجل، أما غير المؤمن فلا يتذكر شيئاً، يتذكر زيداً وعُبيداً، ويهتف طالباً النجدة منهم، لا تذكر إلا الله، لأن الله عزّ وجل معك، يسمعك، ويستجيب لك، قال:

(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ(143)لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

وانتهى..

(فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ

الله عز وجل استجاب له، وكشف عنه الغم، والحوت ألقاه في البر، نحن لا نعلم الكيفيّة..

(وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ)

أصابته التهابات في الجلد، وجروح، الله عزّ وجل أنبت عليه شجرة كانت شفاءً له.

الشاهد هنا:

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)فَآمَنُوا)

كلُّهم..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ

استنباطٌ مهمّ:

في الآية استنباط دقيق جداً، إذا آمن الإنسان، واستقام، واصطلح مع الله عزّ وجل، فله بشارة بهذه الآية، أنه يمتِّعه إلى حين، إلى حين انقضاء أجله، أي أن الله عز وجل يعالجك لفترة، ويمتحنك لفترة، ثم يعطيك لفترة.

2 ـ أطوار المعالجة:

حياة الإنسان فيها أطوار ثلاثة، قبل أن يؤمن معالجات، فإذا آمن ابتلاءات، فإذا استقر إيمانه إكرام، فترة المعالجة، الفترة الثانية ابتلاء، الثالثة إكرام..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

فلذلك إذا مر الإنسان بالطور الأول لينتظر الثاني، وإن مر بالطور الثاني فلينتظر الطور الثالث.

ففي حياتك فترة إكرام، تستقر حياتك النفسية، تشعر بالسعادة، بالهدوء، بالراحة، هذه فترة الإكرام، قبلها الامتحان، قبلها المعالجة، فإذا استجاب الإنسان إلى الله سريعاً تقصر المعالجة، وإذا امتحنه مرةً، وثانية، وثالثة، وكان في كل مرةٍ صادقاً..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)

(سورة الأحزاب: من الآية 23)

تقصر أيضاً مدة الامتحان، وتطول فترة الإكرام، فالله عز وجل قال:

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

أي أبى البقاء عند قومه، ضجر منهم، ولم يؤمر بتركهم، خالف الأولى، فعالجه الله عز وجل، ثم نجّاه إلى البر، ثم عالج جسمه، ثم عاد كما كان..

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(147)فَآمَنُوا)

به جميعاً، واستجابوا له..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

أسعد إنسان هو الذي إذا دعا إلى الله استجاب الناس له، وآمنوا بدعوته، فكان سبباً لهدايتهم، وهذا من إكرام الله له، فأعظم عمل هو من صنعة الأنبياء أن تكون سبباً في هداية الخلق، أن تكون سبباً في دلالة الخلق إلى الحق جل جلاله.

وفي درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى بقية الآيات في سورة الصافات.

المغزى من قصة يونس عليه السلام:

وقبل أن ننهي الدرس، هذه القصة قصة يونس:

أول مغزى: أن كل الناس مدعون إلى الهدى، وأن الله خلقهم جميعاً ليرحمهم وليسعدهم، هذه أول نقطة.

الثاني: أن الإنسان إذا دعا إلى الله عليه أن يصبر، وعليه أن يستمر، وأن يثبت، لأنه إذا تخلّى عن دعوته أدّبه الله عزّ وجل.

الثالث: الإنسان يمر بمرحلة معالجة، ومرحلة ابتلاء، ومرحلة إكرام.

الرابع: أن الإنسان إذا أصابته مصيبة ليذكر مصيبة هذا النبي العظيم، وقد وجد نفسه فجأة في بطن الحوت، وكيف أن الله لا يتخلّى عن المؤمنين إطلاقاً.

وتصوّر هذا المثل: أب حمل ابنه من يده وقرّبه من الماء، فبكى، ثم أعاده، عملية إيقاظ، عملية تنبيه، عملية حَفْز، فربنا عزّ وجل يعالجنا جميعاً، والمؤمن كما قلت: لا تضره معصية، لأنه إذا عصى أو خالف أو قصّر يذكر رحمة الله عز وجل، فيتوب إليه، الكافر معصيته ثابتة، أما المؤمن فكثير التوبة، يتوب منها فوراً، وإذا آمنت، واصطلحت مع الله، واستقمت على أمره، يُمَتِّعَكَ في الدنيا متاعاً إلى حين.

هناك آية أخرى تؤكِّد ذلك:

(فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36))

(سورة البقرة)

فهذه الدنيا على قصرها إذا اصطلحت مع الله، جعلها الله لك متعة، وأسعدك فيها، لأنك امتحنت فصبرت، عولجت فاستجبت، امتحنت فنجحت، بقي الإكرام، لهذا قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

حتى المؤمن لما يصطلح مع الله، ويمتحنه الله، وينجح يرفع الله شأنه، صار له شأن ؛ بين أهله، بين عشيرته، بين جيرانه، بين زملائه، له قيمة.

كل الذي أتمناه على الإخوة الأكارم أن تكون هذه القصص نبراساً لهم، أن تكون مناراتٍ لهم في طريق الحياة، فالمصيبة الذي ساقها يذهبها، والذي قدّرها يُقَدِّرَ محوها، والذي أرسلها يصرفها عنك، فالأمل كان بالمائة صفرا أن ينجو من بطن الحوت ؛ ولكنه نادى في الظلمات:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

وأروع ما في القصة:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فالكلام لنا كلنا، كلنا معنيٌ بهذه الآية:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

فأنت اعتصم بالله، واستعن به، ولا تعص أمره، ولا تترك الأولى.

أنا أعرف أشخاصاً عديدين كانت لهم دعوةٌ إلى الله، زهدوا بها، وآثروا الدنيا عليها، فدمّرهم الله عزّ وجل، والله أعرفهم بالأسماء، له دعوة، له مريدون، له إخوان، جاءته فرصة بارقة، فترك الدعوة، وآثر الدنيا عليها، فذهبت دنياه عن آخرها، التي آثرها على الدعوة إلى الله عزّ وجل، أيضاً هذه ملاحظة.

يكون الإنسان مقيماً ببلد، له مجلس علم، له إخوان، له ترتيب، وهو سبب لهداية سبعة أو ثمانية، يأتيه عرض خارجي يترك رأساً، فهؤلاء إخوانك، وأنت تعلمهم، تهذِّبهم، توجههم، أنت سبب هدايتهم، تركتهم ومشيت.

هذه القصة تعني كل واحد منا، إذا أقامك الله في دعوةٍ إليه فلا تؤثر عليها الدنيا، إذا أقامك الله في دعوةٍ، ولو كان خمسة أشخاص فلا تؤثر عليها راتباً ضخماً، ولا منصباً رفيعاً، آثر مرضاة الله عزّ وجل فتأتيك الدنيا وهي راغمة، ولا تنسَ الحديث القدسي:

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[كنز العمال عن جابر]

أحياناً يستنبط من الإنسان تصرُّفات ربنا عز وجل ؛ أن الله عزّ وجل لا يريد ذلك، أقامك بدعوة، أطلق لسانك، دعا الناس إليك، استفادوا منك، هكذا يأتيك راتب مغرٍ خارج القطر، فتترك الدعوة كلها

وتمشي، عندئذٍ يؤدّبك تأديباً شديداً، وقد يذهب الله دنياك التي آثرتها على آخرتك، فإذا أقام الله الإنسان كلفه بأمر فليكن خادماً للخلق، إذا أقامك بالدعوة إليه، فهذا أرفع منصب تناله في الدنيا والآخرة.

هذه القصة أمامنا، سيدنا يونس ضجر منهم، ترك الأولى فالتقمه الحوت، لا يهمني كيف التقمه، يهمني أنه التقمه، شاءت مشيئة الله أن يلتقمه فلما نادى في الظلمات، واستغفر، وأناب واعترف بذنبه..

(إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87))

الله عزّ وجل على الرغم من أن المصيبة كبيرة جداً أنجاه منها، الحوت نفسه نبذه في العراء، والله عالجه بهذه الشجرة التي ذكرها الله عزّ وجل، وبعد ذلك عاد إلى قومه داعيةً، ودعا مائة ألفٍ أو يزيدون، وآمنوا به جميعاً..

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

إذا استجبت في طور المعالجة، توقفت المعالجة، وإذا نجحت في طور الامتحان توقف الامتحان، بقي الطور الثالث وهو الإكرام.

(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

هذه آياتٌ كريمة خالدة، فهذا ما يفعله الله بعباده في كل عصر وفي كل مصر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (13-14): تفسير الآيات 149 - 163
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-11-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر من سورة الصّافّات، ومع الآية الثامنة والأربعين بعد المائة، يقول الله جلّ جلاله:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ(149)أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ(150)أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154)أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(155))

مقدمة:

1 ـ العقل قوام الإنسان:

بعد أن بيّن الله جلّ جلاله في الآيات السابقة قِصَصَ عددٍ من الأنبياء والمُرسلين، وكيف وقفوا موقف الدعاة إلى الله عزّ وجل، وكيف تلقّوا من أقوامهم التكذيب والسخرية، وكيف أن الله جلّ جلاله نصرهم على أعدائهم، وكان الفوز في النهاية لهم، ينهي ربنا هذه السورة بهذه المناقشة المنطقيّة.
وقبل أن نمضي في تفسير هذه الآيات بفضل الله جلّ جلاله، لابدّ من كلمةٍ حول قِوام الإنسان، وهو عقله، ومن لا عقل له لا دين له، ومن لا دين له لا عقل له، و..

((إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما، ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد، وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين))

[من كنز العمّال عن طاووس مرسلا]

وما خلق الله خلقاً أحبَّ إليه من العقل، لأن العقل كما قال الإمام عليّ رضي الله عنه: **<< العقل أصل الدين >>**، لأنك إذا عقلت استسلمت، وإن استسلمت سعدت، دائماً أحبُّ أن أُلخِّص الدين بكلماتٍ ثلاث: إدراكٌ، سلوكٌ، سعادة، لن تستطيع أن تستسلم، لن تنصاع لأمر الله عزّ وجل، لن تستسلم له، لن تطيعه، لن تحبّه إلا إذا عرفته، وطريق المعرفة العلم، لذلك:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

2 ـ العلم طريق إلى الله:

الله جلّ جلاله هو المقصد النهائي، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، وما دام الله جلّ جلاله هو المَقْصِدُ والمَطْلَب، إذاً أخطر شيءٍ في هذا الموضوع الطريق إليه، ما دام هو المقصد، هو المطلب، هو الهدف، هو المراد، إذاً أخطر شيءٍ بعد هذا المَطْلَب الطريق إليه، الطريق إليه هو العلم، قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ)

(سورة محمد: من الآية 19)

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: من الآية 11)

والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك.

في الكون حقيقة، هي كل شيءٍ في الكون، هذه الحقيقة هي الله عزّ وجل، فأخطر شيءٍ بعد هذه الحقيقة الطريق إليه، الطريق إليه هو العلم، فحجمك عند الله بحجم عملك.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: من الآية 19)

وحجم عملك بحجم علمك.

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: من الآية 11)

تتعلّم، تعمل، تسعد، إذاً: فيما يبدو أن أول خطوةٍ في طريق الإيمان خطوة العلم بالله عزّ وجل، بعد العلم بالله تأتي الطاعة، تأتي الاستقامة، يأتي العمل الصالح، بعد الطاعة والاستقامة والعمل الصالح تأتي السعادة في الدنيا والآخرة، وأداة العلم العقل، العقل أداة معرفة الله ومناط التكليف، وإذا أخذ الله ما أوهب أسقط ما أوجب، والنبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة جداً حدّثنا عن قيمة العقل، وقد لا تصدّقون أن في القرآن الكريم ما يقرُب من ألف آية تتحدّث عن العقل، وعن الفكر، وعن المحاكمة، لذلك ربنا عزّ وجل حينما قال:

(فَاسْتَفْتِهِمْ)

1 ـ لابد من المحاكمة العقلية:

أي أين عقلك ؟ أين محاكمتك ؟ أين هذه الجوهرة الثمينة التي وهبك الله إيّاها ؟ لماذا تعطِّلها ؟ لماذا تحقرها حينما تعملها في أهدافٍ سخيفة ؟

الإنسان أيها الإخوة حتى لا تستهلكه الحياة، حتى لا يكون من عمل إلى عمل، من لقاء إلى لقاء، من صفقة إلى صفقة، من طور إلى طور، ثم يُفاجأ أن ملك الموت يطرق عليه الباب، ويقول له: تفضّل معنا، لئلا يكون الموت حدثاً صاعقاً، يجب أن يكون للإنسان مع نفسه جلسات تأمُّل، فلو فرضنا أن الإنسان كان في غيبوبة، كان مخدّراً، كان في حالة إغماء، فاستيقظ ورأى نفسه في قطار، والقطار متحرّك، أليس هناك سؤالٌ خطيرٌ جداً: لماذا أنا في هذا القطار ؟ وإلى أين يسير القطار؟ وأين محطّته الأخيرة ؟ ومن أيّة محطّةٍ انطلق ؟ ما هذا القطار ؟ قطار من؟ ومن أنا ؟

و حينما خُلِقَ الإنسان في هذه الدنيا، وحينما أدرك، وجد نفسه كائناً متحرّكاً، في مدينة، له أب، له أم، ألا ينبغي أن يسأل: مَن خلقني ؟ ولماذا خلقني الذي خلقني ؟ ولماذا جعلني في الدنيا ؟ وماذا بعد الدنيا ؟ هذا الذي يعطِّل فكره تستهلكه الحياة، وينتهي أجله عندئذٍ يَقْدمُ على الآخرة صفر اليدين، عندئذٍ ينطبق عليه قوله تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

فلا يوجد إنسان بحكم أنه نشأ في بلاد إسلاميّة، واستمع إلى خطبٍ كثيرة، وإلى دروس، وقرأ، والتقى، وجلس، وسافر، هناك في مخيلته مجموعة تصوُّرات عن الدين، بعد أن أدرك هذا الإنسان سنّ الرُشد، بعد أن أكرمه الله بالمعرفة ينبغي أن يراجع كل هذه التصوُّرات، بعضها صحيح، وبعضها غير صحيح. الشيء الذي يَلفت النظر أن هناك أناساً على درجة عالية من الثقافة، أو على درجة عالية من الذكاء، ومع ذلك يعتقدون اعتقاداتٍ فاسدة، عندهم تصوُّرات غير صحيحة.

هذا كلام الله بين أيدينا، هذا هو المقياس، هذا هو الحق المبين، هذا هو الصراط المستقيم، هذا هو حبلُ الله المتين، هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلذلك ينبغي أن نتمسّك به، وأن نجعله مقياساً لكلّ ما نعتقد، أن نجعله مقياساً لكل ما نتصوُّر، تصوُّراتنا، اعتقاداتنا، فلسفتنا، قيمنا، يجب أن نَزِنها بهذا الكتاب، فهناك في الجاهليّة من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى اصطفى البنات على البنين، هناك من يعتقد أن الله ولَدَ البنات..

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ)

(سورة النحل)

هو يكره البنات، ويقول: الملائكة بنات الله، عزا إلى الله شيئاً يكرهه هو، هذه..

(قِسْمَةٌ ضِيزَى(22))

(سورة النجم)

ربنا عزّ وجل في هذه الآية يدعونا إلى التفكّر، يدعونا إلى المُحاكمة، الإنسان من حينٍ لآخر ينبغي أن يجلس مع نفسه ليتأمّل، هذا الكون معجز، هذا الكون لابدّ له من خالق، لابدّ له من مربٍ، لابدّ له من مسيّر، لابدّ من هدفٍ كبير خُلقت من أجله، لابدّ من مهمّةٍ خطيرة أرسلك الله إليها، لابدّ من أن تنتهي الحياة، لابدّ من أن تعرف من الذي خلقك، من الذي أوجدك، فكأن هذه الآيات تدعونا إلى التفكّر..

(فَاسْتَفْتِهِمْ)

اسألهم، الله عزّ وجل زوّد الإنسان بقوّةٍ إدراكيّة، زوّده بعقل، هذا العقل في أدقّ تفاسيره أنه لا يفهم شيئاً حوله إلا بسبب، ولا يفهم شيئاً حوله إلا بغاية، وهناك أمثلة كثيرة، أيعقل أن يخرج إنسان من بيته لنزهة طويلة، وقد قطعَ الكهرباء عن البيت، يعود إلى البيت فيرى مصباحاً متألِقاً، ويبقى ساكتاً ؟ لا يضطرب ؟ لأن عقله يقول له: لا يمكن أن يتألّق المصباح إلا بفاعل، وبسبب، إذاً: هناك من دخل البيت، هذا هو العقل، فأنت لا تقبل أن يتألّق المصباح في غيبتك، أتقبل أن كوناً عظيماً بسماواته، بأرضه، بما في الأرض من نباتات، بما فيها من حيوانات، بما فيها من مخلوقات لا تُرى ـ كالجراثيم والفيروسات ـ بما في تحت الأرض، بما في فوق الأرض، كل هذا من غير شيءٍ ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ(35))

(سورة الطور)

2 ـ لا تكن آلة متحركة:

أخطر شيء في الحياة أن يصبح الإنسان آلة متحرّكة، والمدنيّة الغربيّة من مشكلاتها الخطيرة أنها تجعل الإنسان آلة، ولا سيما حينما تُبْنى المصانع على خطوط عمل، كل عامل له حركة بسيطة يقوم بها، فالإنسان حينما يُخْتَصَر عمله إلى حركةٍ بسيطة يصبح كالآلة، ويُعْطّل فكره، فالإنسان لابدّ له من ساعات تأمّل..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ: من الآية 46)

إذاً: لابدّ من جلسة تفكّر، لابدّ من جلسة تأمّل، لابدّ من سؤال، لابدّ من جواب، لابدّ من محاكمة، لابدّ من حوار، وحينما يعتقد الإنسان اعتقاداً صحيحاً يتحرّك حركة صحيحة، وحينما يعتقد اعتقاداً صحيحاً يوقع سلوكه وَفْقَ اعتقاده، وهنا تكمن ميزة الإنسان.

إذا قرأ الإنسان هذه الآية يشعر أن الله يدعونا إلى أن نحاكم، إلى أن نفكِّر، يدعونا إلى استعمال العقل.

(أَفَلا تَعْقِلُونَ(138))

(سورة الصافات)

(أَفَلا يَنْظُرُونَ)

(سورة الغاشية: من الآية 17)

(أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ(50))

(سورة الأنعام)

(قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ(3))

(سورة الأعراف)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(6))

(سورة الزمر)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

الآيات التي تتحدّث عن العلم والعقل والتفكّر والمحاكمة تقترب من ألف آية في القرآن الكريم، وكما قلت قبل قليل: قوام المرء عقله، وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان إذا دخل مجلس الخلافة يتلو قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

الإمام الغزالي ناقش نفسه ذات مرّة، قال: **" يا نفس، لو أن طبيباً منعكِ عن أكلةٍ تحبينها، لا شكّ أنك تمتنعين، يقول لنفسه: يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟! ".**

الله عزّ وجل منعك عن أكلات، منعك عن شهوات معيّنة، منعك عن معاصٍ كثيرة، ألا تستحي من الله تتبع نصيحة الطبيب بحذافيرها، ولا تتّبع توجيه الله عزّ وجل في قرآنه ؟

قال: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ عن أكلةٍ تحبينها، لا شكّ أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟! إذاً ما أكفركِ، أيكون المرض أشدّ عندكِ من النار ؟ إذاً ما أجهلكِ ".**

هذه المناقشة التي أجراها الإمام الغزالي تُبَيِّن أن الإنسان إن لم يطع الله عزّ وجل فهو مدموغٌ إما بالكفر، أو بالجهل، إما جاهل أو كافر، وإذا كان الطبيب أصدق عندك من الله فهذا هو الكفر بعينه، وإذا كانت جهنّم أهون عندك من المرض فهذا هو الجهل بعينه.

إذاً يدعونا ربنا إلى إجراء محاكمةٍ عقليّة، الصحابة الكرام حينما آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام أجروا محاكمةً عقليّة، سيدنا خالد عندما أسلم ـ أسلم متأخِّراً ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال له كلمةً دقيقةً جداً، ولها مدلول خطير، قال: " يا خالد عجبت لك، أرى لك فكراً "، أي لماذا تأخّرت حتّى الآن ؟ مثلك ينبغي أن يكون سَبّاقاً إلى الإيمان، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام رَبَطَ الإيمان بالعقل، ولذلك ورد عنه صلّى الله عليه وسلّم:

((أن أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً))

[ورد في الأثر]

(فاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ)

أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ

هكذا على مزاجهم، هكذا وفق أخيلتهم، وفق أوهامهم، البنات لله عزّ وجل وهم يكرهونها، والذكور لهم وهم يحبّونهم..

(أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ(149)أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ

1 ـ ما أشهدَ اللهُ على خَلْقه أحداً:

هل كانوا معي حينما خلقت السماوات والأرض ؟ الله جلّ جلاله يقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

ما كانوا معي.

وضّحت هذه الآية سابقاً بمثل: إنسان في السبعين من عمره يجلس مع أصدقائه، كان قد استلم محلاً، استلم محل بسوق الحميديّة سنة الأربعين، سنة الخمسين تزوّج، جاءه ولد، قال لأصحابه: أنا استلمت المحل بثلاثين ألفا منذ أربعين سنة، فقال الابن، وهو يجلس معه: لا، هذا غلط يا أبي، فنظر إليه الأب

وقال: أنت هل كنت في ذلك الوقت ؟ أنت لم تكن، انتهى الأمر، هل كنت معي وقتها ؟ لم تكن مولوداً ؟ الله عزّ وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الكهف: من الآية 51)

أوهامهم، تصوُّراتهم عند بدء الخليقة، عن آدم، عن الملائكة، عن الجن، ما كانوا وقتها ـ و

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ)

2 ـ الغيبيات أساسها النصُّ:

أنا أخبرتكم، هذه الموضوعات المتعلِّقة بالماضي السحيق، أو الموضوعات المتعلِّقة بالمستقبل البعيد، أو الموضوعات المتعلِّقة بما غاب عنّا كعالَم الجنّ والملائكة، أو الموضوعات المتعلِّقة بذات الله عزّ وجل، هذه موضوعات ما كان للإنسان أن يُحَكِّمَ بها عقله، أنت لم تكن في وقتها، إما أنك لم تكن، أو إنَّك لا تملك المؤهِّلات كي تحكم بهذا الموضوع، هذه موضوعات إخباريَّة، موضوعات سمعيَّة، فأن تقول: الملائكة إناث، والله عزّ وجل ولَدَ الملائكة، فمن أمُّهم ؟ قال سيدنا الصديق: " من أمُّهم ؟ " هذا كلام سيدنا الصديق وقد ورد في بعض التفاسير، فهذه كلُّها أوهام، وأباطيل.

هذا كلام دقيق جداً، الإنسان بعقله الذي أكرمه به الله عزّ وجل، وأودع فيه هذا الجهاز العظيم، بهذا العقل يصل إلى الله وجوداً، ووحدانيّة، وكمالاً، وبهذا العقل يصل إلى الإيمان بالقرآن الكريم، كلام الله عزّ وجل، وبهذا العقل يصل إلى الإيمان بمن جاء بهذا القرآن ـ بالنبيّ عليه الصلاة والسلام ـ والقرآن أخبرنا عن أشياء كثيرة لا يستطيع العقل أن يدركها ؛ أخبرنا عن الماضي، أخبرنا عن المستقبل، أخبرنا عن ذاته، أخبرنا عما غاب عنّا، فذات الله، وما غاب عنا، وما سبقنا، وما سيأتي، فهذه موضوعات لا يمكن أن تخضع للعقل، لأن العقل لا يملك وسائل التحقُّق منها، إلا أن الله جلّ جلاله أخبرنا بكلامه المُنَزّل على النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الأمر كذا، وهذا الأمر كذا، فربنا يقول:

(أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)

أكانوا مع الله حينما خلق الملائكة ؟

(أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ)

أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

من كذبهم، وافترائهم..

(أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(151)وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4))

(سورة الإخلاص)

الله عزّ وجل واجب الوجود، وهناك أشياء مستحيلة الوجود، وأشياء ممكنة الوجود، وما سوى الله ممكن الوجود، الله جلّ جلاله واجب الوجود، نقيض أسمائه وصفاته مستحيلة الوجود..

(أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

سؤال: كيف يتوازن الإنسان ؟ كيف يستطيع أن ينام ؟ يستطيع أن يطمئن ؟ كيف يُحس بالراحة والطمأنينة وهو مقيم على معصية ؟ أو هو لا يدري من هو ؟ لا يدري كيف خُلِق، ولماذا خُلِق ؟ وإلى أين المصير ؟ هذه أسئلة خطيرة جداً، إن لم تجب عنها كيف ترتاح ؟ كيف تطمئن ؟ كيف تتوازن ؟

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

فأنت ماذا فعلت بعقلك ؟ أفمن المعقول لإنسان يكون معه جهاز من أدق الأجهزة لكشف العملة المزيّفة، ويقبض عملة مزيّفة بمئات الألوف أو بالملايين، والجهاز في جيبه ولا يستخدمه ؟ وحينما يكتشف في ساعةٍ حرجة أن كل هذا النقد الذي بين يديه نقدٌ مزيّف ولا قيمة له، عندئذٍ يُصْعَق، ماذا يقال له ؟ يقال له: معك جهاز، فلمَ لمْ تستخدمه ؟ أين جهازك ؟ أين الجهاز الذي أودع معك من أجل كشف النقد المُزَيّف ؟

دعوة الإسلام متوافقة مع العقل السليم والفطرة السليمة:

والإنسان عنده موازين عدة ؛ ميزان الفطرة، وميزان العقل، وميزان النقل، وميزان الواقع فهو لا يقبل فكرةً قبولاً ساذجاً، دون أن يمحصها، دون أن يزنها بميزان الشرع، دون أن يزنها بميزان المَنطق، بميزان الواقع، بميزان الفطرة، وكل فكرة فاسدة، أو اعتقاد فاسد، أو وهم فاسد يرده، ولا يرضى به.

يقول أحد العلماء: **" الشريعة عدلٌ كلّها، مصلحة كلّها، رحمة كلّها، فأية قضيّةٍ خرجت من العدل إلى الجَوْر، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى ضدِّها، هذه القضيّة ليست من الشريعة، ولو أدخِلَت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".**

أحدهم مرّةً قال: " ما قال النبي شيئاً وقال العقل: لا، وما نهى عن شيءٍ والعقل قال: نعم "، أبداً، فدعوة النبي متوافقةٌ توافقاً تاماً مع العقل، ودعوة النبي متوافقةٌ توافقاً تاماً مع الفطرة، ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام متوافقةٌ توافقاً تاماً مع الواقع، ودعوة النبي نابعةٌ من خطاب الله لهذا الإنسان، والله شيء واضح كالشمس.

الله عزّ وجل خاطب الإنسان من خلال النبي بالقرآن، وكلّف النبي أن يوضِّح القرآن بالسُنّة، أودع فينا عقلاً، وجبلنا جبلّة هي الفطرة، والواقع أمامنا، فليس من العجيب إن رأيت الواقع يؤيد الفطرة، يؤيّد العقل، يؤيّد النقل، ومع ذلك تتردّد، ومع ذلك تُحْجِم، ومع ذلك تسوِّف، ومع ذلك تتكاسل، هذا شيء مستحيل..

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

أين عقلكم ؟ أين فطرتكم ؟ أين الدراسات الواقعيّة.

دعوة الإسلام متوافقة مع الواقع الموضوعي:

النبي عليه الصلاة والسلام دعانا إلى صيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى علاقة دورة القمر بفورة الدم في الجسد، هناك علاقة، وهذه الأيام البيضاء الثلاثة النبي ندب إلى صيامها، ولا سيما للشباب، قرأت مرّة مقالة: أن عالِماً اجتماعياً طلب من مخافر الشرطة في بلدٍ غربي التقارير اليوميّة، فجاء بهذه التقارير، وقلبها إلى التاريخ الهجري، ورأى نسبة الحوادث ـ حوادث العنف ـ في اليوم الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فوجدها تزداد ستين بالمائة على بقيّة الأيّام، فالنبي عليه الصلاة والسلام أشار من خلال أحاديثه إلى علاقة فورة الدم بدورة القمر..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

أخٌ كريم قبل أيّام زارني، وقد استمع إلى محاضرةٍ من أستاذٍ في كليّة الطب، يقول هذا المحاضر: إن أخطر سرطانٍ في الإنسان سرطان الرئة، وسببه التدخين ـ طبعاً السبب الأول ـ وسرطان الثدي، ومن أسبابه تأخُّر زواج البنت ـ طبعاً لطبيعة الحياة المعقّدة، والمطالب الكبيرة، والأزمات الخانقة هذه تساهم في تأخير الزواج، لكن الذي لفت نظري في كلام الأخ الكريم، أن أخطر سرطانٍ بعد سرطان الرئة والثدي هو سرطان المستقيم، هذا تُرَجّح أسبابه في الدرجة الأولى إلى نَخْل الدقيق، وإلى الطعام النقي، فعندما خلق ربنا عزّ وجل حبة القمح، وخلق لها قشرتها، وأودع في القشرة الفيتامينات، والمعادن، ست فيتامينات، وسبعة معادن كلُّها في قشور القمح، ماذا نفعل نحن ؟ كما قال الله عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء: من الآية 119)

ننزع قشور القمح ونرميها للدواب، ونأكل النشاء الصرْف، الخبز أبيض، لكن قوامه نشاءٌ فقط، أما الفيتامينات، المواد التي تعين على حركة الأمعاء في القشور، والمعادن في القشور، فكلّما تقدّم العلم كشف أن العقل الأول الذي صمّم الكون صمّمه في أبدع صورة، ونحن نشوّه حياتنا بتغيير خلق الله عزّ وجل.

مرّة ثانية: قِوام الرجل عقله، عندما خلق الله العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ وبك أعطي))

[من أحاديث الإحياء عن السيدة عائشة]

أي أن الذي استعملك يستحقُ عطائي، والذي عطّلك يستحق عقوبتي، بك أعطي، وبك آخذ، هناك عقل، وميزان الشرع أمامك ؛ قرآنٌ كريم وسُنّةٌ نبويّةٌ مطهّرة، وهناك ميزان الواقع.

النبي الكريم أمرنا حينما نذبح ذبيحةً أن نذبحها من أوداجها دون أن نقطع الرقبة، بعد مضي ألفٍ وخمسمائة عامٍ على هذا التوجيه النبوي، جاء علماء الطب، وبيّنوا حكمة هذا الأمر، قالوا: القلب له نبض، وهذا النبض يتلقى الأمر فيه من مراكز كهربائيّة في القلب نفسه، لكن مراكز القلب التي تنبّه القلب تنبّهه تنبيهاً ثابتاً، ثمانين ضربة في الدقيقة، الإنسان أحياناً يواجه صعوبات، يواجه جهدا، يواجه أزمات، يأتيه أمرٌ من الدماغ فيرفع ضربات القلب، فضربات القلب، القلب نفسه يعطيها الأمر الراتب أي الثابت، بينما الضربات الاستثنائيّة تحتاج إلى أمر من الدماغ، فإذا قُطِعَ رأس الذبيحة بقي القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة، لا يكفي هذا النبض المُعتدل لإخراج الدم كلِّه من الذبيحة، أما حينما نذبح أوداجها فقط، ويبقى اتصالٌ عصبيٌ بين الدماغ وبين القلب في الذبيحة، الدماغ يعطي أمرًا برفع الضربات إلى مائة وثمانين ضربة، لذلك كل ما في الدابّة من دم يخرج إلى خارجها، هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام.

صديقٌ لي في بلد أجنبي قال لي مرّةً، أسعار اللحوم المذبوحة وفق الشريعة الإسلاميّة أغلى بكثير، لأن هذا الدم له وزن، فإذا خرج هذا الدم من الذبيحة أصبح لون اللحم ورديّاً، أما إذا بقي فيها أصبح لون الذبيحة أزرق تَمُجُّهُ النفس وتعافه، وأمراض الدابّة كلُّها في دمها.

هذا النبي في هذه التوجيهات العظيمة في ميزان الواقع، كلّما تقدّم العلم اكتشف أن أكمل شيءٍ هو تطبيق الشريعة، طبعاً الإنسان يتلقّى الأمر الإلهي على أساس أن هذا أمر الله عزّ وجل، ويطبّقه إيماناً

بالله عزّ وجل، ويكتشف العلم أن هذه الأوامر ليس في الإمكان أبدع منها، هي أكمل شيءٍ، طبعاً قِسْ على هذا كل شيء.

في أنظمة الزواج والطلاق، مثلاً الله عزّ وجل قال:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

هذا توجيه، إذا خرجت المرأة من بيتها إلى بيت أهلها فإن أصغر قضيّةٍ بين الزوجين تغدو أكبر قضيّة، وقد تنتهي بالطلاق، وإذا بقيت في بيت زوجها، أكبر قضيّةٍ مع مضي الأيام تغدو أصغر قضيّة، هذا توجيه، فإذا كان الإنسان من السعداء الذين يقرؤون كلام الله عزّ وجل، ويطبّقونه في حياتهم، يهتدون بهديه، في شؤون العلاقات الاجتماعيّة، في شؤون الزواج، في شؤون البيع والشراء، في شؤون علاقة الإنسان بربّه، بمن حوله فإنه لا يقع في مثل هذا.

(أَلَا إِنّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(151)وَلَدَ اللّهُ وَإِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(153)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154)أَفَلَا تَذَكّرُونَ(155)أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ(156))

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ

هل معكم حجّةٌ قاطعة ؟ معكم برهانٌ ساطع ؟ معكم دليل ؟ كأن الله عزّ وجل يدعونا، معك الدليل ؟ أين عقلك ؟ أين حجّتك ؟ أين برهانك ؟

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبّهِ)

(سورة المؤمنون: من الآية 117)

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنّةِ نَسَبًا)

أي أنهم قالوا: إنّ الملائكة بنات الله، وأن الجن لهم قرابةٌ بالله عزّ وجل، قرابة نسب..

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنّةِ نَسَبًا)

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنّةُ إِنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

أي تخرُصات، وإفكا، ووَهْما، وكلامًا من نوع الزور غير حقيقي..

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنّةُ إِنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

كلُ ما في الكون خاضع لمشيئة الله:

كن فيكون، زُل فيزول، الجن مُحضر، تحت الضرب دائماً، كل من في الكون هو خاضعٌ لمشيئة الله عزّ وجل، فالإنسان أحياناً في عمله إذ كان مُسَيْطِراً، كل من في دائرة عمله ينفِّذ أمره، ولكن طبيعة النَسَب، طبيعة القرابة تجعل الإنسان يقصر قليلاً، أحياناً الابن لا يستجيب لوالده، أو يتماطل في تنفيذ الأمر، أما هؤلاء فليسوا أولاد الله عزّ وجل، هؤلاء مُحْضَرون، هم عبيدٌ لله عزّ وجل، ومعنى عبيد لله أنهم في قبضته..

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

أي أن هؤلاء الذين تزعمون أنهم بنات الله، أو أن بينهم وبين الله نسباً، هؤلاء ليسوا أولاده، هم محضرون، هم تحت مشيئته وإرادته..

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

سبحان الله: أي تنزّهت أسماء الله عزّ وجل، تنزّهت صفات الله عزّ وجل، تنزّهت ذات الله عزّ وجل عن أن يكون كذلك..

هؤلاء الجن الذين عرفوا الله عزّ وجل، واستجابوا له، هؤلاء مستثنون مما يقوله فيهم البشر..

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(160)فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

هذه آية دقيقة جداً، أي أن البشر جميعاً، والجن جميعاً، وما يُعبد من دون الله من آلهة مزعومة، من أصنام، من أشخاص..

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ)

أي كلّكم مع من تعبدونه من دون الله لا تستطيعون أن تغيّروا خطَّ إنسانٍ، ولا سيره، ولا أن تضلِّوه إطلاقاً، الإنسان مخيّر، لا يستجيب لكم إلا من هو راغبٌ فيكم، فالإنسان بكل ما أوتي من قوّة، بكل ما أوتي من حيلة، لا يستطيع أن يسيّر إنساناً تسييراً غير صحيح، إلا أن يشاء الإنسان ذلك.

الإنسان مخير:

فملخّص هذه الآية: أن لا أحد في كون الله يستطيع أن يضلّ أحداً، الذي فيما يبدو لنا أنه قد أضلّ زيداً أو عُبيداً، المضل والضال كلاهما توافقا على الضلالة، لولا أن الذي ضل كان عنده استعدادٌ للضلال ورغبةٌ فيه لما استطاع المضلُّ أن يفعل فيه ذلك، لولا أن الضال كان عنده رغبةٌ في الضلال وقبول له ما استطاع المضلُّ أن يضلّه.

إذاً: في الحقيقة ليس هناك مُضِل، وليس هناك مُضَل، كل الناس مخيّرون، فالذي يقع في الضلال وقع فيه باختياره، والذي أضلّه فيما يبدو كان سبباً ظاهراً، والحقيقة أنه استجاب لاختياره.

إذاً:

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

إلا من اختار الضلالة، واستحقّها، وكان مصيره إلى الجحيم في علم الله عزّ وجل، هذا الذي يستجيب لكم..

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)

كأن الملائكة استعاذوا بالله عزّ وجل، ونزّهوا ذات الله عزّ وجل عن أن يكون الذنب، فقالوا:

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ(164)وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(165)وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

هؤلاء الذين عرفنا من سلوكهم أنهم يجهدون في إضلال البشر، هؤلاء الجن مهما اجتمعوا فهم والإنس، وما يعبدونهم من دون الله كل هؤلاء مجتمعين لا يستطيعون إضلال إنسانٍ واحد، إلا أن يشاء الإنسان الضلال، فإذا شاء الضلال يبدو للإنسان الساذج أنهم أضلّوه، لا، لم يضلوه، هو ضالٌ، فتوافقت رغبته مع مسعاهم إذاً ضل.

قال:

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)

من الجن الذين آمنوا، واتبعوا الحق، وهم يسبّحون..

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(161)مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(162)إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ

أما الملائكة قالوا:

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)

مقامنا مقام العبوديّة لله عزّ وجل، لسنا بنات الله، مقامنا مقام العبوديّة لله عزّ وجل..

(وَمَا مِنّا إلّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ)

رحم الله عبداً عرف حدّه فوقف عنده، أنت إنسان مقامك معلوم، المَلَك له مقام معلوم، الجِن له مقام معلوم..

(وَمَا مِنّا إلّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ(164)وَإنّا لَنَحْنُ الصّافّونَ(165)وَإنّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

عبادة الملائكة ومقامهم:

أي أن مقامنا التسبيح، والدعاء، والذِكْرُ، والصلاة، مقام الملائكة، رُكِّب المَلَك من عقلٍ بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، ورُكِّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان..

(وَمَا مِنّا إلّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ(164)وَإنّا لَنَحْنُ الصّافّونَ(165)وَإنّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

أي نصطفّ للصلاة.

(وَإنّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ)

في أكثر التفاسير التسبيح هنا هي الصلاة.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى نتابع الآيات، والتي ربّما كانت هي الدرس الأخير من سورة الصّافّات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الصافات 037 - الدرس (14-14): تفسير الآيات 171 - 182

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-11-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر والأخير من سورة الصّافّات، ومع الآية الواحدة والسبعين بعد المائة.

ربنا جل جلاله يقول:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ(173)فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(174)وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ

1 ـ مِن سنن الله الجارية: نصرة الأنبياء:

من عادة البيان الإلهي أنه في ختام السوَر يقرر الله جل جلاله سُنَنَاً وقوانين، فربنا عزّ وجل يقول: يا محمد إن نصرناك على أعدائك فهذه سُنة الله في خلقه، هذه سنة الله القديمة، أن تنتصر على أعدائك، أن تعلو كلمة الله، أن ينتصر دين الله، أن تكون العاقبة للمؤمنين، ليس هذا شيئاً جديداً، إنما هو قانونٌ قديم، منذ أن خلق الله الكون هذه كلمته، وهذه سُنَنُهُ، وهذه طريقة تعامله مع عباده، فلابد من أن تنتصر، أنت مع الحق والحق هو الغالب، الباطل له جولة ؛ ولكن الحق هو المنتصر في النهاية، منها تطمين، ومنها تأكيد.

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

2 ـ لابد من كشفِ قوانين الدين:

أيها الإخوة، إن (كلمة) في القرآن الكريم تعني القانون، والمؤمن من توفيقه ومن سعادته أن يكشف القوانين التي قنّنها الله عزّ وجل، وأن يكتشف السُنن التي سنّها الله عزّ وجل، فالدين ليس أوهاماً، ولا غيبياتٍ، ولا أساطير، ولا طقوسا، الدين كله عقل، كله قواعد ثابتة، فالذي يفهم الدين فهماً عميقاً وفهماً دقيقاً يكتشف هذه القوانين، أما الذي يُغَلِّبُ المفاهيم الضبابيّة، يغلِّب الغيبات غير الواضحة، يغلِّب أن الإنسان يوفق لا ندري لماذا ؟ يعاقب لا ندري لماذا ؟ وبعضهم يقول كلمةَ حقٍ لكن يريد بها باطلاً، يقول: " أقام العباد فيما أراد، وله المُراد فيما يريد "، يقصد بها أن تفسير الأمور صعب، وهناك كلمات

تُنْبِئ أن هناك حظوظا عمياء، وقِسَما عشوائية، ولكنك إذا فهمت الدين فهما عميقاً وجدت في هذا الدين قوانين، ومُقدمات ونتائج، وأسبابا ومُسَبِّبات، وعلاقات ثابتة بين المتغيّرات، فهذا كله يستنبط من قول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

أي منذ أن خَلَقنا العالم، منذ أن خلقنا الكون هذه كلمتُنا، وهذه سُنتنا في خلقنا..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

أي يا محمد، إن نصرت على أعدائك، وإن كان الفوز لك، وإن كان الفوز لدينك، وإن استخلفك الله في الأرض، وإن مَكَّنَ لك هذا الدين، وإن رفع لك ذكرك، وإن أصبح الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فليس هذا شيئاً جديداً، وليس هذا شيئاً مستحدثاً، إنها سُنة الله في الخلق.

3 ـ مَن كان مع الحق كان المنتصرَ:

وهذا أيضاً يفيدنا الآن، فهذا قانون الله عزّ وجل، دائماً إذا كنت مع الحق فأنت المنتصر، إذا كنت مع الله فالله معك، إذا كنت مع شرع الله، فشرع الله يحميك من الهلاك، إذا آثرت رضوان الله عزّ وجل وفقك الله لما يحب ويرضى، فيجب أن نفهم أن في هذا القرآن قوانين حتمية الحدوث، حتمية النتائج، فإذا قدّمت المقدمة قطفت الثمن، وأيّ إنسانٍ يأخذ بهذه القوانين يحصِّل هذه النتائج، هذا الذي يستفاد من قوله تعالى:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ)

ليس شيئاً جديداً، شيءٌ قديم، هذه سُنة الله في خلقه..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ)

وهذا كما يعَبّر عنه بالتركيب التالي، هذه السُنة ؛ كانت، ولا زالت، وستبقى، هذه سُنة الله في خلقه، ولو تتبّعت التاريخ البشري لرأيت أن الأنبياء والمرسلين هم المَنصورين، ولرأيت الحق هو المنتصر، ولرأيت العاقبة للمتقين، ورأيت الخزي والعار على الكافرين.

4 ـ إما الخضوع لله طواعية أو الخضوع لسننه الكونية قهرًا:

الله عزّ وجل يمتحن، قد يرخي الحبل، قد يسمح للكافر أن يصول ويجول، ولكن إلى حين، ثم هو في قبضة الله عزّ وجل، كما قال الله عزّ جل حينما تحدث عن فرعون وعن سيدنا موسى، قال:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

الله حرّم الخَمر، ودولٌ كثيرة لا تؤمن بالله إطلاقاً، قبل عامٍ أو عامين صدر فيها قرارات حرّمت فيها الخمر، فأنت إما أن تطبّق هذا الشرع عبوديةً لله، واستسلاماً له، وإما أن تعود إليه مقهوراً، بحكم التجارب والوقائع، والآن هناك انكماش عن الرذيلة لا حباً بالله، ولا حباً بطاعة الله، ولا تعبيراً عن طُهر، ولكن خوفاً من مرض الإيدز، والذين زاروا بعض البلاد الغربية أخبروني بأنّ أحياء بأكملها كانت بؤرة فسادٍ أُغلقت، حمّامات أغلقت خوفاً من انتقال هذا المرض، فالإنسان إما أن يطبّق أمر الله عزّ وجل تعبداً، وبهذا يرقى، وإما أن يطبقه مقهوراً خوفاً أو رجاءً أو ما شاكل ذلك، ولكن:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

إنّ العالَم قبل عشرين أو ثلاثين عاماً كان موزّعا في اتجاهات شتّى، الآن ثبت للعالم كله أنه لا خلاص إلا بالإسلام، وبمنهج الله عز وجل، وكل مذهبٍ وضعي انكشف على حقيقته، انكشف وأصبح لا يقوى على أن يقف على قدميه، وهذا التهافت، السقوط المُريع، هذا بسبب أن كل مبدأٍ لا يستمد من هذا الحق المبين مبدأٌ باطل، وآخرته إلى الزوال، وربنا عز وجل يقول:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

مرة ذكرت أن عالمةً في منظمة الصحة العالمية كتبت مقالةً عن الذين يصابون بمرض التراخوما في العالم، لا في عامٍ واحد، لا، خمسمائة مليون، وهذه أمراض القذارة، وأن هذه الأمراض تكاد تقلُّ نسبتها أو تنعدم في الدول الإسلامية، لسبب الوضوء فقط، فخمسمائة مليون إصابة بالتراخوما في العالم الثالث، البلاد الملتزمة بشرع الله عزّ وجل في منجاةٍ من هذا المرض، هذا قانون ربنا عزّ وجل، معناه أن الوضوء شيءٌ أساسيٌ سَنّهُ الله لنا.

الذي أريد أن أقوله لكم هو: أن هذا المنهج من عند خالق الكون، فمهما ابتعدت عنه فلابد من أن تعود إليه، وروعة المؤمن أنه عرف الله في وقتٍ مبكر، أما الذين شردوا عن دين الله عزّ وجل فلابدّ من أن يعودوا إلى هذا الدين في وقتٍ ما، لكن يعودون إليه صاغرين، مقهورين، بعد أن تسقط من أيديهم كل أوراقهم، وكل معطياتهم، وكل ما كانوا يتوهمونه أنه حق..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

هذا قانون أزلي أبدي، معركة الحق والباطل أزلية أبدية، يمكن أن تدخل في هذه المعركة آلاف القِصَص، آلاف الحوادث، ما جرى في العالم سابقاً، وما جرى لاحقاً، وما يجري الآن، هذا كلُّه ضمن معركة الحق والباطل الأزلية، فربنا عز وجل يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

فكلمة كلمتنا، أي قانوننا، مشيئتنا، إرادتنا، قرارنا..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

للأنبياء الذين أرسلناهم، ولأتباعهم، ولمن استجابوا لدعوة الأنبياء، أحياناً وأنت تقرأ قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

هذا قانون ربنا عزّ وجل، هذه كلمات الله، ولا مبدل لكلماته، ولما يقرأ الأخ القرآن الكريم فمن حسن توفيقه في فهم كتاب الله أن يضع يده على هذه الآيات التي تعطي معنى القوانين.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من الآية 9)

هذه كلها قوانين.

إذا قرأت القرآن فحاول أن تضع يدك على قوانينه، على سُنَن الله الثابتة، هذه مفاتيح ؛ مفاتيح النجاة، مفاتيح السعادة، مفاتيح الرُقِيّ، مفاتيح الفوز، مفاتيح الفلاح.

إذاً: ربنا عز وجل يبيّن أنه سبقت كلمته، قانونٌ أزليٌّ، واقعٌ، أبديٌّ..

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

معنى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ

قال بعض المفسرين: سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالسعادة في الدارين.

وأضاف بعضهم، وهذه إضافةٌ رائعة: ولمن اتبعهم، فرب الكون، خالق الكون يطمئنك أنني سأسعدك إذا اتبعت رضواني، هل فينا واحدٌ لا يتمنى أن يكون سليماً سعيداً ؟ السلامة والسعادة مطلبان ثابتان

لكل إنسان في الأرض، فسبقت كلمتنا لهم بالسلامة والسعادة، لهم ولأتباعهم، لأن الفعّال هو الله عزّ وجل، لأنه لا يقع شيءٌ في الأرض إلا بإرادة الله عزّ وجل.

لذلك قال بعض المفسرين: لم يقتل أحدٌ من أصحاب الشرائع، الأنبياء معهم رسالات، الأنبياء الذين يحملون رسالات الله عزّ وجل، هؤلاء لم يقتلوا أبداً، لأن قتلهم يعني أشياء كثيرة، شاءت مشيئة الله أن يرسلهم برسالة، إذاً: هم معصومون، وهذا قوله تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

أي لا يستطيع أحدٌ أن يُنهي حياتك يا محمد، لأنك مرسل من قِبَلِنَا، لا يستطيع أحدٌ مهما علا في الأرض أن ينهي حياتك.

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

لذلك جميع الأنبياء الذين كلِّفوا برسالات من قبل الله عزّ وجل، الأنبياء والرُسل أسوة، والنبي إنسان لا ينقطع عن الله لحظة.

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا))

[الجامع الصغير عن عطاء بسند صحيح]

اتصال دائم، وهذا مقام النبي، وما سوى النبي فساعة وساعة:

((وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً))

[مسلم عن حنظلة]

إذا الشيء الثاني:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا)

معرفة قوانين الله والتعامل معها سببٌ للسعادة:

أيها الإخوة، أتمنى على الله جلّ جلاله أن يوفقنا جميعاً إلى معرفة قوانينه، كما قلت قبل قليل: القانون مفتاح السعادة، مفتاح السلامة، إذا كشفت قانون الله عزّ وجل عرفت كيف تسعد بطاعة الله، كيف تسعد في بيتك، في اختيار زوجتك، كيف تسعد في عملك، بتنفيذ أمر الله في البيع والشراء، كيف أسعد بصحتي، بتنفيذ السُنة النبوية الشريفة ؟ قوانين كلها، فإذا وضعت يدك على قوانين الله عزّ وجل، بل إذا قرأت القرآن، وحاولت أن تكتشف القوانين، القرآن عَبّرَ عنها بكلمة: (كلمة).

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 115)

أي أن كلماته فوق المكان والزمان، والظروف والأحوال، في كل عصر، في كل مِصر، في كل وقت، في كل زمان، قوانينه هي هي، ما علينا إلا أن نتمسّك بها.

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)

النصر المطلق: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ

أروع ما في هذه الآية أنها مطلقة، وإذا أردنا أن نحللها: منصورون بالحجة والغَلَبَة، منصورون بالحوار معهم الحق المبين، ومنصورون من قبل الله عزّ وجل بالغَلَبَة المادية، لقوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: من الآية 55)

وعد إلهي بالاستخلاف والتمكين والتطمين، استخلافٌ وتمكينٌ وتطمينٌ، وعلى العباد أن يعبدوه فقط، يعبدونني، إذاً:

(إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)

المؤمن معه حُجة على كل شيء:

بالحجة، المؤمن معه حق، والحق شيء مريح جداً، يفهم سر الوجود، سر الحياة الدنيا، سر وجود الإنسان في الأرض، سر مهمته على هذه الأرض، يفهم أين كان ؟ وماذا بعد الموت ؟ يفهم أثمن شيءٍ في الدنيا، أغلى شيءٍ في الدنيا، يضع يده على جوهر الحياة لا على ظاهر الحياة، كما بيّن الله تعالى واصفاً أهل الدنيا:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم)

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، والمؤمن يعرف من هو ؟ وما قيمته ؟ هو المخلوق المكرّم، الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأبدع صُنعه، منحه نعمة العقل، سخّر له الكون، أنزل له التشريع، أرسل له الأنبياء، أعطاه حريّة الاختيار، أودع فيه الشهوات، أعطاه فيما يبدو قوةً يتحرّك بها، ويحقق بها اختياره، منحه فطرةً تكشف له خطأه، إذا عرف الإنسان هذا كله تحرّك في هذه الدنيا تحركاً صحيحاً، لذلك استشعروا معي قول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)

إذا كنت مع الحق فلا تخف، لأن الحق معك، إذا كنت مطبّقاً لمنهج الله فلا تخشَ أحداً، لأن خالق الكون يؤيدك، وينصرك، ويرقى بك إلى أعلى عليين..

(إنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ(54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(55))

(سورة القمر)

فليس هناك شعور ينتاب المؤمن أعلى من أن يشعر أن الله راضٍ عنه، وأن الله معه، وأنه يؤيّده، وأنه ينصره، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

(سورة البقرة)

معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والرعاية.

(إِنّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً: دعك من القوة المادية، مهما كان الكافر ذكياً إذا جلس مع المؤمن ليحاور تتساقط أفكاره، الحق ليس له داعم، لا يوجد معه دليل، لماذا أنت في الدنيا ؟ لا يعرف لماذا هو في الدنيا.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الّذِينَ ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

تجده يتحرك في طرق مسدودة تنتهي به إلى الهلاك، يُعطي قيمةً لأشياء تافهة زائلة، وينسى أبرز ما في الحياة الدنيا، لا يملك نظرية متكاملة في خلق العالم، وفي فلسفة الوجود، وفي فلسفة المعرفة، وفي فلسفة الحياة الدنيا، وفي فلسفة الإنسان، ولأن هذا القرآن من عند خالق الكون فقد بيّن لنا ما كان في عالم الأزل، وما سيكون في عالم الأبد، وسر وجود الإنسان على الأرض، بيّن لنا من هو الخالق، من هو الرب، من هو المسيّر، من هو المعبود بحق، هذا كله في القرآن ؟

فهل من الممكن لإنسان لم يقرأ القرآن أن يكتشف التفسير الكامل، الصحيح، الجامع، المانع، للكون ؟ لا يعرف، قد يرى أن الدنيا هي كل شيء، هذا أكبر ضلال، قد يرى أن الموت نهاية الحياة، ولا شيء بعد الموت، هذا نهاية الضلال، قد يرى أن المال كل شيء، قد يرى أن القوة هي كل شيء، هي الضلال بعينه، فحينما يهتم الإنسان بأشياء زائلة وتافهة وصغيرة الحجم فهذا هو الضلال المبين، أما حينما تتعرف إلى الله عزّ وجل فإنك تعطي لكل شيءٍ حجمه الحقيقي، المال قوام الحياة ؛ ولكن لا أعبده من دون الله، لا أضحي بديني من أجله، هناك منظومة قيَم أتحرك من خلالها.

(إِنّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

المؤمن معه الحق المجرّد، فإذا حاور كافراً يتغلّب عليه، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 83)

إبراهيم نبيٌّ عظيم، وكل من اتبع إبراهيم، وكل من اتبع النبي الكريم معه حُجة، عندما تتعلم اللغة العربية مثلاً، ويكون أمامك إنسان يقرأ نصاً، تكشف أخطاءه، فإن لم تكن عالماً باللغة فإنك تثني على قراءته، فإذا عرفت الله عزّ وجل وعرفت منهجه، لو جلست مع ضالٍ ربع ساعة تكشف الخلل في تفكيره، تكشف الزَيف في معتقداته، تكشف عقائده الفاسدة، وعلاقاته غير الصحيحة، علاقات كلها جهل.

ضربت مرة مثلاً: هناك ضوء على لوحة السيارة يتألّق إذا انتهى الزيت في المحرك، هذا ضوء خطر جداً، لو تألّق يجب أن تقف فوراً، وإلا يحترق المُحرك، لو اعتقد إنسان أن هذا الضوء إذا تألّق فليسلِيك في الطريق مثلاً، هذا اعتقاد خطير جداً، قد تحرق محرك السيارة وأنت لا تدري، فما هو الجهل ؟ قد يظن الناس أن الجهل ألا تعرف، لا، فالجهل أن يكون الذهن محشواً بعلاقاتٍ كلّها فاسدة، علاقات مغلوطة.

إذاً:

(إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ)

أدِّ الذي عليك واطلب من الله التوفيق والنصر:

بالحجة، وبالغلبة المادية إذا طبقوا دين الله عزّ وجل، يعبدونني: أدِ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، لك منه النصر، لك منه التأييد، لك منه أن ينصرك على عدوك، لك منه التمكين، لك منه التطمين، هذا كله لك من الله، ولكن قبل أن تطالب ما لك، أدِّ الذي عليك، عليك أن تطيعه، فقبل أن تقول: لماذا تخلّى الله عن المسلمين في العالم ؟

اسأل سؤالاً آخر: ما الذي قصّر فيه المسلمون ؟ هل بيتهم إسلامي ؟ هل بيعهم وشراؤهم إسلامي ؟ هل خروج نسائهم كما يرضى الله عزّ وجل ؟ هل كسبهم للمال وفق الشرع تماماً ؟ هذا الذي أتمنّاه على كل إنسان أن يسأل نفسه: ما الذي علي ؟ علي أن أؤدي الذي علي، ثم أدعو الله بالذي لي، اللهم نصرك الذي وعدتنا، اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا، أدِّ الذي عليك، وبعد أن تؤدي كل ما عليك قل: يا رب نصرك الذي وعدتنا، بعد أن تؤدي كل ما عليك قل: ربنا إننا كما قال أحد الأنبياء، إني مغلوبٌ فانتصر يا رب لدينك، لا يحق لك أن تطالب بالنصر والتأييد والحفظ قبل أن تؤدِّي الذي عليك.

(إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

والله شيء جميل جداً، هذه آية رائعة جداً:

(وَإِنّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

فإذا ادّعيت أنك من جند الله ولم تنتصر ؟ الجواب المنطقي: لست من جند الله، لو كنت من جنده لنصرك الله على أعدائك، لقوله تعالى:

(وَإِنّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

فشيء جميل جداً أن تكون من جند الله، ولن تكون من جند الله إلا إذا أطعت الله عزّ وجل، لن تكون من جند الله إلا إذا تركت الكبائر، كيف نكون من جند الله ونشرب الخمر مثلاً ؟ مستحيل، كيف نكون من جند الله ولا نصلي ؟ كيف نكون من جند الله ونقترف الكبائر ؟

(وَإِنّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

فهذا قانون أيها الإخوة، بأي مكان، بأي زمان، بأي عصر، بأي مصر، هذا ما يقال على التفوق، تفوق العدو، هذا يقال إذا تساوى الأطراف في عدم الإيمان، إذا تساوى الطرفان في عدم الإيمان فلك أن تتحدث ما تشاء عن تفوق العدو، عن التفوق، والتكنولوجيا، وعن الأسلحة الفتّاكة الحديثة، وعن الليزر، وعن الأقمار، كل شيء تسمعه الحديث عنه مقبولٌ ومعقولٌ إذا تساوى الطرفان في عدم الإيمان، أما إذا كان أحدهما مؤمناً فتختلف كل الموازين، وتنقلب كل الموازين..

(وَإِنّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

إذاً كن من جند الله وخذ النتيجة، لكن ربنا عزّ وجل أحياناً حينما يرى المسلمين في أنحاء العالم في تقصير، في غفلة، هم وغيرهم سواء، لا تجد فرقاً إطلاقاً بين مسلمٍ وغير مسلم إلا إذا كنت سألته: ما اسمك، أو قلت له: أين بطاقتك الشخصية، أما مظهره في الطريق ؛ وزوجته، وبناته، ومتجره، ولهوه، وعطلة نهاية الأسبوع أين يقضيها ؟ لا ترى فرقاً إطلاقاً، فمثل هذا المسلم الغافل لا بد له من صعقة، لأن القلب إذا توقف أول شيء يفعله الطبيب يعطيه صعقةً كهربائية، تهُز أركانه لعله ينبض، إما أن ينبض، وإما أن لا ينبض، فإذا نبض الحمد لله، فلما يضيّق ربنا عزّ وجل على المؤمنين المقصرين فليس معنى هذا أنه تخلّى عنهم، لكنه يريد أن يدفعهم إلى طاعته، وإلى الصُلح معه، وإلى القُرب منه.

أجمل ما في هذه الآية:

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ)

1 ـ المؤمن متميز عن غيره:

أي يجب أن يفترق المؤمن عن الكافر، يجب أن يكون المؤمن صارخاً في إيمانه، علاقاته كلها وفق الشرع، أي أن كل حركاته وسكناته يتميّز بها على الكافر، أما إذا كان الاختلاط، والأماكن التي يرتادها الكافر يرتادها المؤمن، المقاصف التي يجلس بها الكافر يجلس بها المؤمن، الموائد التي لا ترضي الله يجلس عليها المؤمن والكافر، أو اختلاط في التجارة، الأساليب التي لا ترضي الله التي يمارسها الكفار يمارسها المؤمنون، فما بقي شيء، فأين: تولى عنهم ؟

المؤمن متميز، في كل علاقاته، في حركاته، في سكناته، حتى في أفراحه، إذا الأفراح في أماكن لا ترضي الله عزّ وجل، في اختلاط، عُرس مختلط، والأسر مسلمة، ويقولون: الله لا ينصرنا ؟ فماذا تفعلون ؟ إذا في بعد عن الله عزّ وجل بحيث لا يبدو للمراقب أن هذا مسلم، مثله مثل الآخرين، فلابد من التمايز في البيع والشراء، والبيت، والعادات.

مثلاً: الآن في الأعراس هناك آلة تصوير، النساء كلّهن كاسيات عاريات، كيف تسمح أسرةٌ مسلمة أن تصور المدعوات وهن بأبهى زينة، وهذا الفيلم يطبع عليه عشرات النسخ، ثم يشاهد في البيوت، وهذه المرأة التي تبدو في الطريق محجبة قد رآها الأجانب كلهم بأبهى زينة، أين الإسلام ؟

أيعقل أن يكون المسلمون تحت رحمة مصمم أزياء يهودي فرنسي، فكلما صمم أزياء معينة لهثوا وراءه ليقلدوا آخر ما أنتج، أهذا هو الإسلام ؟

قال: **" يا رب عصيتك، ولم تعاقبني ! قال له: عبدي كم عاقبتك ولم تدر ".**

لما تقصر فالله عزّ وجل يؤدِّب، حتى تظن أنه تخلّى عنك، هو لم يتخل عنك، ولكن يؤدِّب، ويشدد، ويضيّق، إلى أن تقول: يا الله، إلى أن تقول: يا الله تبنا إليك، عدنا إليك، رجعنا إليك، رجعنا إلى شرعك، رجعنا إلى قرآنك، رجعنا إلى سُنة نبيك، فلابد من العودة إلى الله، ولابد من الصلح مع الله، وإن لم يكن في بداية الحياة فلن ينفعنا في نهايتها..

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

(سورة النساء: من الآية 18)

(لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: من الآية 158)

لكن..

(وَإِنّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

عبادنا المرسلين هم المنصورون بالحجة وبالغلبة المادية.

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ)

2 ـ لابد من الابتعاد عن الأماكن التي تليق بالمسلم:

ابتعد عنهم، دعهم في متنزّهاتهم، في مطاعمهم، في أماكن لهوهم، في منتجعاتهم، في أسواقهم، في علاقاتهم الربوية، دعهم، فإذا كنت معهم البلاء سيعم الجميع، إن لم تبتعد عنهم، لن تنجو من عذابهم.

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ)

3 ـ حَتّى حِينٍ

حتى حين أن يأتي الله بوعده.

بالمناسبة من أدق الآيات في القرآن الكريم قول الله عز وجل:

(بَلْ كَذّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس: من الآية 39)

قال بعض العلماء: إن تأويل القرآن في هذه الآية معناه تحقُّق الوعد والوعيد، الله وعد الفاسق بالعقاب، وعد المُرابي بتدمير المال، وعد المؤمن بالحفظ، فكل وعود الله عزّ وجل، تحقق في الدنيا، لذلك تأويل القرآن أن يقع الوَعد والوعيد، قال:

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ)

حتى حين يأتي أمر الله فيستحق المؤمن النصر والتأييد، ويستحق الكافر الخَذلَ والخزي والعار، حتى حين مجيء وعد الله عزّ وجل، الله أعطى الإنسان خياراً، أعطاه فرصة، لو جاء العقاب بعد المعصية مباشرةً لألغي الاختيار، يعصي الإنسان، وبعد المعصية هو في بحبوحةٍ طويلة، لعله يتوب، فإذا انتهى الوقت الكافي كي يتوب ولم يتُب الآن يأتي الهلاك.

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ)

الحبل مرخى، دعهم إلى حين.

مثلاً ـ الأمثلة تقرّب المعنى ـ: لو اجتمع طالبان أول السنة وتناقشا، الأول يقول: الدراسة مفيدة، والثاني يقول: الدراسة غير مفيدة، هذا النقاش الطويل يحسمه الفَحص، المُناقش الأول يرى أن زميله يركب رأسه ويتعَنّت، أو يدعي أنه على علم رفيع، وهو يراه لا يدرس إطلاقاً، يقال له: دعه لحين الامتحان،

اتركه، الطالب معه فرصة العام الدراسي بأكمله، لكن إذا جاء الامتحان عندئذٍ يكشف الإنسان على حقيقته، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ)

حتى حين أن يأتي الله بوعده، حتى حين تحقق الوعد، تحق الوعيد.

(فَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ(174)وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

أي أبصرهم قبل فوات الأوان، لكنهم لابد من أن يروا الحقائق بعد فوات الأوان.

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

ضربت مثلاً: رجل يركب دراجة، ويسير بطريق مستوٍ، واجه طريقين، أحدهما نازل، والآخر صاعد، الطريق النازل مغرٍ جداً، معبّد، وحوله رصيف وأشجار، وظل ظليل، وحدائق غنّاء، ولكن هذه الطريق ـ الطريق تذكر وتؤنّث ـ تنتهي بحفرةٍ سحيقةٍ فيها وحوشٌ كاسرة جائعة مالها من قرار، فإذا بدأ الإنسان بهذا الطريق فلابد من أن يقع في الحفرة في نهاية المطاف.

الطريق الصاعد صعبٌ على راكب الدرّاجة، وفيه حفر، وفيه أكمات، وفيه غُبار، وفيه أتربة ؛ لكنه ينتهي بقصرٍ منيف فيه كل شيء، لكن رحمةً بهذا الراكب وضعت لوحةٌ بيانيةٌ تفصيلية، ذُكر عند مفترق الطرق: هذه الطريق النازلة تنتهي بهذه الحفرة السحيقة، وهذه الطريق الصاعدة تنتهي بهذا القصر المنيف، وإذا أردت أن ترى بعينك ذاك المنظار، لوحة ومنظار، انظر، فهذا الذي رفض أن يرى، ورفض أن يقرأ، وسار في الطريق الهابطة، انسجاماً مع راحته الجسدية، ومع تمتُّعه بالمناظر الخلاّبة، فأنت إذا بصرته أو بيّنت له لم يستفد، ولكن سوف يبصر، ولكن بعد فوات الأوان، أنت بيّن له قبل فوات الأوان، فإن لم يستجب فسوف يرى بعد فوات الأوان، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

(وَتَوَلّ عَنْهُمْ حَتّى حِينٍ(178)وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

بقي قوله تعالى:

يقول الله عز وجل:

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(175)أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ

هذا استعجال المستهزئ: متى يا سيدي ؟ دع الله يبعث العذاب، الكافر يستهزئ بوعيد الله عزّ وجل، لكن لو أن وعيد الله جاء، فماذا أقول ؟ يصيح كالكلاب، إذا جاء العذاب، ونحن نسمع ونرى حينما تأتي بعض المصائب من زلزال، من فيضان، من براكين، ترى أن الناس في ذهول، وفي فزع وخوف لا يتصور، قال:

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

الإنسان ماذا يتحمّل لو أفقده ربنا عزّ وجل شيئاً من أجهزته ؟ لو انحبس البول ماذا يصنع ؟ لو شُلّت قواه ماذا يفعل ؟ لو جاءته الآلام التي لا تُحتمل بسبب أورام خبيثة في أمعائه كيف يصيح ؟ وهناك أمراض يصيح المريض منها صياحاً يسمعه كل من في البناء، مهما كانت شخصيته قوية يخرج عن طوره، ويصيح من شدة الألم، هذا الذي يستهزئ بعذاب الله عز وجل إنسان جاهل..

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

فالإنسان أحياناً يفقد قوته، فهو طريح الفراش، يتمنّى أقرب الناس أن يموت، أحياناً يفقد عقله، يأخذه أقرب الناس إليه إلى المستشفى، أيضاً بواسطة، ويقولون: والله كان منظره مخيفاً، أرحنا منه، كان رب الأسرة، كان سيّد البيت، الله عزّ وجل عنده عذاب لا يحتمل، وآلام عصبية لا يتحمّلها إنسان، يتناول أعلى أنواع المخدرات والمسكِّنات، ويصيح بعدها..

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

وحوادث، وأمراض، وفقر مدقِع، وقَيْد، وحبس حرية.

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

وتعذيب لا يحتمل..

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

لما يقرأ الإنسان وعيد الله عزّ وجل ولا يرعوي فهو إنسان جاهل، وكلما نما عقل الإنسان نما خوفه.

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(176)فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ

الإنسان كل يوم يستيقظ صباحاً، كل واحد له طريقة في استيقاظه، هذا يستيقظ ليصلي الفجر، يشرب فنجاناً من القهوة، يقرأ الجريدة أحياناً، يسمع أخباراً، يجلس مع أهله لطعام الفطور، وهو سعيد ومسرور، وأحياناً يكون في ضيق وكد كثير، لو تلقى خبراً سيّئاً في الليل عن صحته، أو عن وضعه

المالي، أو عن وضع عمله التجاري، أو عن وضع أهله صار الصباح صباحًا آخر، نعمل لك قهوة ؟ لا، لا أريد، هو تعيس مكتئب لا يريد قهوة، ولا طعاماً، ولا كلاماً، أما إذا كان مع الله عزّ وجل، كان مع منهج الله، إن شاء الله كل صباحه خير، فهذه الكلمة: صباح الخير تعني دلالتها هذا المعنى. استيقظ الإنسان، الحمد لله صحته طيبة، أولاده بوضع جيد، أهله، مستقبله واضح، أما إذا عصى، وأكل مالاً حراماً، واعتدى، وظلم، وطغى، وبغى، وتجبّر فله ظلام مزعج جداً، فبعض الإخوة الأكارم يذكرون لي عن وضع مرضى غير مؤمنين، انهاروا انهياراً كاملاً، أصبح كالطفل الصغير، لا يلوي على شيء، هذه:

(فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)

((احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ))

(من سنن الترمذي عن ابن عباس)

قال له: **" يا بني، حفظناها في الصِغر فحفظها الله علينا في الكِبَر، من عاش تقياً عاش قوياً ".**

ألا تحب أن يحفظك الله عزّ وجل ؟ ألا تحب أن يكون لك خريف عمر مشرق ؟ تزداد علماً، ونورانيةً، ومكانةً، ورفعةً، وقُرباً، وشأناً، وعطاءً، ودعوةً، الزم أمر الله عزّ وجل، لئلا يكون صباحٌ لا يرضي. قال:

(فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ)

إذا دخل الإنسان بيته فوجد فيه دافئاً فليحمد الله، يقول لك: مليون إنسان مهدد بالموت من شدة البرد، منهم المشرّد، ومنهم الخائف، ومنهم الذي يُقتَل.

(فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ(177)وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(178)وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

الله أعاد الآيتين مرة ثانية..

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

سبحان ربك أي مهما تفكرت في ذاته فهو أعظم مما تتصوّر، تنزّهت ذاته وأفعاله وصفاته عن كل نَقص، هذه معنى سبحانك ؛ وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، سبحان الله، كل شيءٍ تظن أن الله هكذا هو فوق ذلك، وهذا معنى قولنا: الله أكبر، أكبر مما عرفت.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)

الله عزيز، معنى عزيز يحتاجه كل شيء في كل شيء، فليس الإنسان فقط، يحتاجه كل شيء في كل شيء.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)

عزة معنوية، وعزة مادية، هو ربُّ العزة، هو صاحب العزة، فإذا أردت العزة فكن معه، إن أردت العزة فلُذ بحماه، إن أردت العزة فاستعذ به..

اجعل لربك كل عز ك يستقر ويثبت

فإذا اعتزز بمن يمو ت فإن عزك ميت

***

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

شعار المؤمن دائماً ينزّه الله عز وجل، ينزّهُهُ ويسبّحُه، ويعتز به، وهو مع المرسلين له موقف ثابت، موقف الانصياع، موقف الاتباع، موقف الحُب، موقف السلام لا العدوان، لا يخطرنّ ببال مؤمن أن يعادي مُرْسَلاً.

(وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(181)وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

على كل شيء، لأنه لا يحمد على مكروهٍ سواه، أفعاله كلها يحمد عليها مهما بدت لنا غير معقولة، المؤمن يحسن الظن بالله عزّ وجل.

((فإن حسن الظن بالله تعالى ثمن الجنة))

[كنز العمال]

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى يوم القيامة فليقل عند انصرافه من الصلاة:(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)إلى آخر السورة))

[كنز العمال عن علي]

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(180)وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(181)وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس